أردنـا بمناسبة اليوبيـل الذهبـي لإنشـاء المعهـد المصـري للدراسـات الإسلامية ، وبعد خمسين عاما من الجهد الأمل الرامي إلى الحفاظ على واحد مـن أهم عمده ، مجلته الغراء ، تكريم هؤلاء الذين حولوا هذا الحلم الواعد إلـى واقـع ملموس.

وإيمانا منا بالدور الذي قامت وتقوم به مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية باعتبارها نقطة وصل وتواصل بين المشـتغلين بالدراسـات العربيـة مـن الإسبان والإسبانية من العرب ، نرى أنـه بـات علينـا أن نستغل معطيـات عصر التكنولوجيا لتخليد شهادات وأبحاث ثقاة الفكر والقلم من العرب والإسبان المدونـة على ما يربو على ثلاثين ألف صفحة في ثلاثين مجلدا ، تراث ثرى غائر الأعمـاق من الإبداع والدرس والبحث فـي ثمـار واحـدة مـن أهـم الحضـارات التـي ورثتـهـا البشرية: الحضارة الإسبانية العربية ...

إن هذا القرص، الذي تحمله بين يديك أيها القارئ الكريم، الذي يضـم فـي ثنايا موجاته المغناطيسية كنزا تراكم على مر خمسين عامـا، يرنـو إلـى أن يكـون احتفاء بالمستقبل وبالأجيال الجديدة التي تواصل مهمة إثـراء هذا الكنز المعرفـي الذي نهديه لك ولأنفسنا ولكل المعنيين بالتراث العربي الأندلسي فـي هذا القرص الصغير في حجمه الكبير في معناه.

ولنا اغتنام هذه المناسبة لنعرب عن عميـق امتناننـا، وجزيـل شـكرنا لكـل من شاركنا وأسهم في هذا الجهد طوال السنوات الماضية .

أ.د محمود السيد على

المستشار الثقافي لجمهورية مصر العربية

مدير المعهد المصري للدراسات الإسلامية

- مدريد في الثاني عشر من أكتوبر ١٩٩٩

الجمهورية العربية المتحدة ، وزارة التعليم العالى ، الإدارة العامة للعلاقات الثقافية

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد

يصدرها معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد

رئيس التحرير : مدير معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد

*

تصدر عددين فى العام فى مجلد واحد

*

الاشتراك السنوى :

١٠٠ قرش مصرى

١٥٠ بيزيته إسبانية أو ٣ دولارات

هذا المجلد يباع بضعف قيمة الاشتراك السنوى لأنه يضم مجلدى سنتى ١٩٥٩ و ١٩٦٠

العنوان : معهد الدراسات الإسلامية ، ماتياس مونتيرو رقم ١٤ ، مدريد ، اسبانيا

المجلدان السابع والثامن — مدريد ١٩٥٩ – ١٩٦٠

طبعت بمطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد
١٩٥٩ — ١٩٦٠

فهرس القسم العربى

أبحاث ونصوص

الكتب : نقد وعرض

أنباء

كتاب التيسير
في صناعة التسفير
للشيخ بكر بن ابراهيم الإشبيلي

تقديم

صناعة التسفير كما نقول هنا فى المغرب ، أو التجليد كما يقولون فى المشرق ، صناعة مهمة ازدهرت على عهد المدنية العربية ازدهاراً كبيراً حتى تحولت من مجرد كسوة الكتاب بالجلد أو جعل سفر لحفظه إلى فن جميل يدخل فى عداد الفنون العربية الجميلة ، المعروفة بالأرابيسك ، فما شئت من زخرفة وتزويق وتلوين وتذهيب ، بحيث يكون الكتاب متعة للنظر قبل الفكر ، وقيد الحس والعقل معا . هذا فضلا عما امتازت به من أسلوب خاص ذى تصميم يخالف ما لغير العرب من الأمم ذات الحضارة المعروفة من أساليب فى ذلك . وأمامنا التجليد الافرنجى مثلا فإن بينه وبين التسفير العربى فوارق عديدة فى هذا الكعب المقبب أو القفا على حسب الاصطلاح الذى نمر به فى الكتاب الذى نحن بصدده ، وفى أطراف السفر التى تزيد على الكتاب قليلا من جوانبه الثلاثة ، وفى الخيط الذى يجعله القارئ دليلا أثناء مطالعته للكتاب وفى غير ذلك ، على حين أن القفا فى السفر العربى مستو ، وأطراف السفر غير زائدة شيئاً على الكتاب ، وعوضَ الخيطِ الدليلِ ، يحملُ السفر العربى فى دفته اليسرى مثل اللسان يسمى بالمرجع ، وهو الذى يستدل به القارئ ويجعله حداً

فاصلا بين ما قرأه من الكتاب وما لم يقرأه بعد . ولسنا بصدد المفاضلة بين الأسلوبين ، ولكننا نريد أن نثبت أن للتسفير العربى أسلوباً خاصاً يعرف من تصميمه ، زيادة على ما امتاز به من زخارف فنية جعلته من الصناعات الدقيقة التى يتنافس فى إتقانها ويتباهى بتجويدها .

وكان لعرب المغرب فى الأندلس وافريقية الشمالية بهذه الصناعة اهتمام كبير وعناية تامة ، فبلغت إلى غاية الكمال من التحسين والتنجيد ، وأصبحت ذات طابع خاص يميزها حتى عن شقيقتها فى المشرق ، كما يُلمِعُ إلى ذلك فى بعض الأعمال كتاب « التيسير » نفسُه . ولعل أبلغ ما يصور الرقى الذى وصلت إليه هذه الصناعة فى المغرب هو ما عمله الخليفة الموحدى الأول عبد المؤمن بن على (٥٢٤—٥٥٨) فى تحلية المصحف العثمانى وكان قد وصله هدية من أهل قرطبة ، فاحتفل لقبوله بمراكش احتفالا عظيما ، وصنع له خزانة وأغْشيَةً محلاَّة بالذهب والفضة ومرصعة بأنواع الياقوت والحجارة الكريمة مما لا كفاء له فى الحسن والقيمة ، وقد قال الوزير الفيلسوف أبو بكر بن طفيل فى رسالته الطويلة التى وصف فيها هذا العمل ما يلى : « فحشروا له الصناع المتقنين ممن كان بحضرتهم العلية وسائر بلادهم القريبة والقصية ، فاجتمع لذلك حُذَّاقُ كل صنـاعة ، ومَهَرةُ كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظّامين والحلاَّئين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزَّواقين والرسامين والمجلدين وعرفاء البنائين ، ولم يبق من يوصف ببراعة ، وينسب إلى الحذق فى صناعة ، إلا أحضر للعمل فيه ، والاشتغال بمعنى من معانيه . . . » إلى آخرها . ونحن يكفينا منها أسماء الطوائف التى اشتغلت فى إنجاز هذه التحفة الرائعة والتى بلغت فى تعداد ابن طفيل إحدى عشرة طائفة بغض النظر عمن لم يسمه من أهل البراعة والحذق فى غير هذه الصناعات المذكورة . فلتنظر هذه الرسالة فى « نفح الطيب[1] »

(١) الجزء الأول ص ٢٢٧ وما بعدها .

فمنها يعرف مدى ما وصل إليه التفنن فى هذه الصناعة من الرقى والكمال .

ولحسن الحظ فقد ظفرنا بكتاب فى صناعة التسفير مما وُضِع فى هذا العصر نفسه ، ولحفيد عبد المؤمن بالذات الخليفة يعقوب المنصور (٥٨٠—٥٩٥) الذى نعلم أن عصره كان هو العصر الذهبى للحضارة المغربية فليس بعيداً أن يكون صاحبه ممن عمل فى تجليد المصحف العثمانى ، وشارك فى صنع تلك الحلية الفنية البديعة التى جُعِلَتْ له ، لا سيما وهو كان منقطعاً إلى خدمة الموحدين بصنعته هذه ، وبعد إظهارهم على ما عنده من العمل فى ذلك ، أراد أن يظهر لهم علمه أيضاً فألف هذا الكتاب كما قال فى مقدمته .

ويتعلق الأمر بمخطوط صغير واقع ضمن مجموع من محتويات المكتبة العامة بتطوان ما زال لم يُرقَّم ، اسمه « كتاب التيسير فى صناعة التسفير » . وهو يقع فى أربع عشرة ورقة ، منها اثنتا عشرة متتابعة ، والورقتان الباقيتان فُصِلتا أثناء التسفير ، فوقع بينهما وبَيْن جملة الكتاب بعضُ التقاييد والتآليف من محتويات المجموع المذكور تستغرق عدد اثنتين وعشرين ورقة ، ثم تأتى الورقتان المكملتان للمخطوط ، والكلمة التى تلتقى فيها الورقة ١٢ مع الورقة ١٣ هى (أو تعطيه للخرز ، هذا مما يحتاج المشاهدة أيضاً) قبل باب العمل فى الأقربة مباشرة . وهذا مع العلم بأن الكتاب ينتهى فى وجه الورقة ١٤ ، وأما ظهرها فهو صفحة من كتاب التدبير المنقولة هنا أيضاً فى آخر الكتاب .

وحجم المخطوط كباقى المجموع من الحجم المتوسط (٣٠ س طولا على ١٥ س عرضا) وعدد سطور صفحاته ٢١ سطرا يتراوح كل سطر منها بين ١٠ كلمات و ١٤ كلمة . وخطه مغربى واضح ليس بالجميل ، ولكنه نسخى عادى ولا يخلو من بعض التصحيف ، أما الرسم فإنه كثيراً ما يخالف الاصطلاح المعهود ، وقد أبقينا على بعضه وأصلحنا بعضه ، لإعطاء مثال من المخطوط كامل .

وتوجد فى بعض صفحات المخطوط ولاسيما الصفحات الأولى طُرَرٌ مفيدة فى الموضوع بنفس الخط قد أثبتناها فى مواضعها لأهميتها ، ولأنها مأخوذة من

كتب فى الصناعة لا وجود لها الآن . كما يوجد بعض التقاييد فى نفس المادة على وجه الورقة الأولى من المخطوط وضعناها قبل النص المنقول من كتاب التدبير الثابت فى ظهر الورقة ١٤ على ما أشرنا إليه آنفا .

ولا يحمل المخطوط ولا ما فى المجموع من تقاييد بنفس الخط اسم الناسخ ، ولكنه يشتمل على تاريخ النسخ والمقابلة ، إذ جاءت فى آخره هذه العبارة : « بلغت المقابلة من الأصل المنتسخ منه فى ثانى يوم من ربيع الأول عام أربعة وأربعين وألف » . فهو إذاً من منتصف القرن الحادى عشر الهجرى ، مرت عليه ثلاثة قرون وثلث قرن ، ولذلك فلا عجب إذا نالت الرطوبة من بعض أوراقه والأرضةُ من بعض كلماته .

ثم إن الكتاب فى وصفه ومادته مرتب ترتيباً جيداً ، فهو يبتدئ بمقدمة تتضمن بيان الباعث على تأليفه ، وفضلية هذه الصناعة ، وتسميته ، وينقسم إلى أبواب ، وكثير من أبوابه ينقسم إلى فصول بحسب الأغراض والمعانى التى تناولها . وهذا تعداد أبوابه وهى عشرون : ١) باب الاداة . ٢) باب الأغرية . ٣) باب التخزيم وحكمه . ٤) باب التقفية . ٥) باب التسوية . ٦) باب الحبك وحكمه . ٧) باب التبطين . ٨) باب البشر . ٩) باب تركيب الجلد . ١٠) باب العمل فى الأسفار البوالى . ١١) باب طبخ البقم . ١٢) باب النقش . ١٣) باب نقش الضرس . ١٤) باب الأمثلة . ١٥) باب العمل فى الأزرة والغرا . ١٦) باب العمل فى أقربة المصاحف . ١٧) باب العمل فى الأقربة المبنية . ١٨) باب العمل فى الجوامع . ١٩) باب فى النكت . ٢٠) باب فى العيوب . والكثير من هذه الأبواب تحته فصول ، إلا أنا نلاحظ مع الأسف أن باب الأمثلة وهو الرابع عشر خال من أى مثال ، ولا ندرى هل النسخة الأصلية التى نقل عنها مخطوطنا كانت كذلك أم أن ناسخ مخطوطنا هو الذى لم يثبت هذه الأمثلة لسبب من الأسباب ، وربما لعدم استطاعته رسمها .

وعلى كل حال فإن الكتاب من مجرد استعراض عناوين أبوابه هذه تظهر أهميته القصوى فى تاريخ الصنائع والفنون عند العرب ، وتقييم الحضارة الإسلامية فى المغرب بما وصلت إليه من التفوق فى هذه الناحية التى هى من أخص المظاهر الحضارية . أضف إلى ذلك المادة اللغوية التى تستفاد من الاصطلاحات الفنية وأسماء الأدوات التى تستعمل فى هذه الصناعة مما نحن فى حاجة إلى الكثير منه ، ولذلك لم نتردد لحظة عند الظفر به فى خدمته ونشره إنقاذاً له من الضياع وإفادة للباحثين المعنيين بهذه الموضوعات المهمة .

ولم نذكر بعدُ مؤلفَ الكتاب وهو بكر بن ابراهيم الإشبيلى لأنا لم نعثر إلا على ترجمة له مختصرة وردت فى كتاب « جذوة الاقتباس » ، وسننقلها بنصها فيما بعد ، على أننا نعلم أن مثل هؤلاء الأشخاص من أهل الفن والصناعة قلما تحتوى كتب التراجم على ذكر لهم من حيث كونهم ليسوا ذا باع طويل فى العلم ولا فى الرواية ، مع أنهم ممن لهم اليد الطولى فى بناء هذا الصرح الممرد من الحضارة العربية الإسلامية ، ولكنهم كانوا كالجنود المجهولين الذين يكسبون المعارك ويقعون ضحية فى الميدان ليُنوَّه بأسماء قوادهم ورؤسائهم . على أن المخطوط يحلى مؤلفنا فى وجه الورقة الأولى منه بالشيخ وفى أول الكتاب بالشيخ الفقيه ، والذى تُعطيه عبارته فى خطبة الكتاب والمقدمة وسائر الكتاب انه كان على جانب من الثقافة الأدبية إذ نجده يسجع كلامه فى الخطبة والمقدمة ، ويُطوِّع الألفاظ لتؤدى عنه ما يريد أن يعبر عنه من أغراض ، إلا أنه على ما يظهر لم يكن واسع العلم بقواعد النحو ، فكثيرا ما يسقط من كلامه حرف العطف أو أداة الربط أو خبر المبتدأ أو جواب الشرط ، ولكن المعنى يكون مفهوماً مع ذلك فى غير ما وقع فيه تحريف أو سقط من النص ، وبالرغم من كل ذلك فإن فائدة الكتاب تبقى عظيمة الأهمية لا يخل شيء من ذلك بشيء منها .

أما ترجمة المؤلف الواردة فى « جذوة الاقتباس » لابن القاضى فهذا نصها :

« بكر بن إبراهيم بن المجاهد اللخمى من أهل إشبيلية ، يكنى أبا عمرو أديب شاعر له رواية عن سعد السعود بن عفير ، وأبى العباس أحمد بن جنون ؛ روى عنه جملة من شعره . وكان يتمذهب بالظاهر . قال ابن الزبير : قال شيخنا ابن فرتون : اجتمعت به بفاس ، ثم رجع إلى إشبيلية فتوفى بها عام ثمانية أو تسعة وعشرين وستمائة . وكان يحترف بتسفير الكتب » .

وهى ترجمة مفيدة على اختصارها ، أطلعتنا على أنه كان من أهل الأدب والشعر ، وهو ما أدركناه من كتابه ونوهنا به قبل الوقوف عليها . كما أطلعتنا على أنه كان يساير الموجة الطاغية فى عصره باتباعه لمذهب الظاهرية ، فضلا عما تضمنته من روايته ولقاء ابن فرتون له ، ثم تاريخ وفاته ، والنص آخراً يدل على أنه كان يحترف تسفير الكتب الذى وضع فيه مؤلفه البارع .

وعلى كل حال فإن ما استظهرناه من أنه لم يكن واسع العلم بقواعد النحو ، قد يكون صحيحاً برغم اشتغاله بالأدب والشعر . وقد يكون ما حملنا على ذلك من الاختلال الواقع فى كلامه إنما هو من تحريف النساخ .

ونحن بنشرنا لهذا المخطوط نضيف مادة جديدة ودسمة فى موضوع صناعة التسفير إلى الكُتَيِّب الذى كان نشره مسيو ب . ريكار P. Ricard مفتش الفنون ومدير متحف الآثار بفاس سابقاً تحت عنوان « صناعة تسفير الكتب وحل الذهب » من تأليف الفقيه أبى العباس أحمد بن محمد السفيانى ، من أهل القرن الحادى عشر ، فرغ منه فى ذى الحجة عام **١٠٢٩** وقد نشره مسيو ريكار بفاس سنة **١٩١٩** فى **٢٦** صفحة من الحجم الصغير مع فهرس بالكلمات الصناعية الواردة فيه ومقابلها بالفرنسية . وهو إن كان يلتقى مع كتابنا فى أصل الموضوع وفى بعض التعبيرات والمصطلحات الفنية ، إلا أن هذا أوسع منه نطاقا وأغزر مادة . وكان بودنا أن نقارن بينهما ونسجل ما انفرد به كل

منهما عن الآخر ، إلا أننا رأينا ذلك يحتاج إلى دراسة فنية مفصَّلة يجدُر بالمختصين أن يتناولوها بما لهم من الخبرة والاطلاع ، فنكتفى نحن بتقديم النص إليهم أقربَ ما يكون إلى الصحة كما وجدناه أو أحسنَ مما وجدناه .

ولا ننهى هذا التقديم قبل أن نشير إلى ما تتضمنه الطُّرَرُ المنقولة من هوامش المخطوط من الاشارة إلى كتابين آخرين فى موضوع هذه الصناعة وهما كتاب نبيل بن نبيل الرُّعَيْنى ، وكتاب التدبير فى صناعة التسفير الذى نُقِلَ منه بعض الكلام فى الحض على تعليم الصنعة وهو ما أُثبِتَ آخر الكتاب ولم يُسمَّ مؤلفُه . فهذه أربعة كتب فى فن تجليد الكتب مما وقفنا عليه فقط ، فما ظنك بما لم يبلغنا عِلْمُه فى هذه الصناعة فكيف بغيرها ؟ .

حقاً إن عبقرية أجدادنا كانت خارقة للعادة ، وما وصلنا من خبرها — مع الأسف الشديد — إلا القليل .

عبد الله كنون

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما

قال الشيخ الفقيه بكر بن ابراهيم الاشبيلى رحمه الله بمنه

الحمد لله الذى خلق الصنائع ، وجعلها للعارفين بضائع ، فإياها ينتحلون ، وبما قدر من أرازقهم[1] لها عاملون ، أحمده حمداً يستوهب رضاه ، وأشكره شكراً لا أمد لمداه ، وصلى الله على [خيرته من خلقه الذى اصطفاه وارتضاه[2] ، ولما رأيت] مولاى الخليفة الإمام المنصور الناصر لدين الله أبو يوسف[3] أمير المومنين بن أمير المومنين بن أمير المومنين الذى بذل المعروف إحسانا ، وسلسل ماء بشره امتنانا ، ذا المنازع الشريفة ، والهمة المنيفة ، والحدس والذكاء ، والمهتد[4] الأزكى الذى سبقت[5] فروع جلاله ، وتشبثت المعالى بكماله ، ولاح فى هالة السعد بدراً منيراً ، وأدار له المجد مستديراً[6] ، فالعيون تلحظه ، والجد يحفظه ، وأبكار الأمانى تزف إليه ، وحلل المكارم تطوى وتنشر لديه ، بغية كل إنسان ومراده ، وعين الزمان وفؤاده ، نصرهم الله وأيدهم ، وأعانهم على ما قلدهم ، قد استحسنوا شغلى وأعجبهم ، إذ نحوت فيه غرضهم ومذهبهم ،

(١) كذا بالأصل ، وصحح بالطرة بخط غير خط الأصل .
(٢) ما بين هاتين الحاصرتين ملحق بالطرة .
(٣) كذا .
(٤) كذا ولعلها المحتد .
(٥) كذا وصوابها بسقت .
(٦) كذا .

تعين على غيرهم[١] أن يُعرِّفهم بما وَضع فى هذا الطريق ، وأخرجتُه من حالة العدم إلى الوجود والتحقيق ، ليقفوا من ذلك على علْمى بهذا الشغل كما وقفوا على عملى ، ويتساوى عندهم خُبْرى وخَبَرى ، إذ رأوا نتيجة خاطرى وفكرى ، وأنوه لديهم أعلى الله قدرهم وخلد أمرهم ، فهذه[٢] الصنعة الشريفة ، والبعيدة[٣] الظريفة ، التى بوأها الله تعالى أعلى الرتب ، وخصها بأن تكون حجابا لكتابه المنتخب ، ومع شرفها فلا يحملها إلا حاملا[٤] لكتابه الكريم ، أو من يشارك فى شىء من التعاليم ، وقد سلكت بحمد الله تعالى وحسن عونه منهج الطريق ، وأتيت كل معنى[٥] دقيق ، وبوبت هذه الصنعة أبواباً ، كل باب منها بفصوله كامل يستوفى معانيه ليسهل ذلك على متعلمه إن شاء الله تعالى ، وسميته « التيسير فى صنعة التسفير » . فأول ما أبدأ بالأداة وهو الأهم من هذه الصنعة ، وبه تحاول ولابد منها وبالله أستعين وعليه أتوكل ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

باب الأداة

يحتاج المسفر من الماعون الذى لابد منه : المِقْراض ، والمِقَدّة[٦] ، والمِلْزَم[٧] ، وحجر المِسَن ، وحديدة قوية مهيئة[٨] لشد الملزم وحله ، ولابد له من ملزم

---

(١) كذا ولعلها « عبدهم » .
(٢) كذا والصواب بهذه .
(٣) كذا .
(٤) كذا والصواب حامل .
(٥) لعله بكل .
(٦) يوجد بالأصل هذه الطرة : أما المقدة فأحسنها المصدرة المتوسطة القد الحلوة المقطع ويكون نصابها مدورا وهو أحلى .
(٧) طرة بالأصل نصها : أما الملزم الذى يصرف فى التقفية فيكون سريع الانفتال موفر الانخاد ضار (حرف تالف) .
(٨) هذه الكلمة غير مقروءة وذلك لتمزيق فى محلها ولعلها ما كتبناه .

مفرد[١] يختص بالتسوية فقط ، والإشْفَى والمخط ، والابَرة[٢] عند حبكه للمصاحف الملوحة ، ويحتاج الثقيلَ ويسمى الخفيف ، ومِدْلكا بما يدلك البطاين ، ويحل الزعفران أيضاً عند صبغ البطاين ، وبعض المسفرين يدلكونها بكرة من خشب مهيئة لهذا النوع ، وقد يدلكونها بغير هذا النوع أيضاً . ولا بد له من إشفى رقيق لخرز الأقربة وغيرها إن كان المسفر ممن يخرز ، وكذلك يحتاج سكينا للتسوية ، وأهل المشرق لا يسوون إلا بمقدة مهللة طويلة بين تهليلها وقصابها[٣] مقدار الشبر أو أقل ، وفى التسوية بها تعب ، وتسوية السكين إذا أحكمت أقرب وأسهل ، ويحتاج لوحين فيما يتخّت الاسفار حين تبطينها ، ولا بد من الرخامة[٤] وهى قطب هذه الصنعة ، ويحتاج منشاراً ومِمْلسة ومِضْلفا ومِثْقبا بما يحاول ألواح المصاحف ، لأن من حكم المسفر أن لا يلجأ[٥] لأحد من هذه الأشياء ، ولا بد من المطرقة والمقطع بما يسمر الحلية فى المصاحف وبما يقلعها أيضاً من الألواح البوالى .

فصل : ومما يحتاج إليه أيضاً حديد النقش ، الملسة ، ويقال لهـا أيضاً المصقلة والمشطب[٦] والركن والطريقين واللوزة والعشر وعشر لنزول الذهب منقوش الوسط أو غير منقوش ، ومجواباً لقطع الذهب ، وصفيحة ينقش عليها . ويحتاج من الطوابع ما أسميه لك : الورقة ، والمشعار ، وطعمته ، والمضربة ، والقمحة ، واللمليات ، والسفط ، والمربعة ، والعقدة ، وظهر القابّق ، وهذه

---

(١) أما ملزم التسوية فيجب أن يكون مصفحا مثقوب المفاتل حلو الأخاذ خفيفا .

(٢) كذا ولعله الابرة .

(٣) كذا ولعله نصابها .

(٤) بالأصل طرة هى : وينبغى أن تكون الرخامة من الرخام الفريشى الصافى المعرق الأملس فهى أحسن للبشر وأسن . صح من كتاب نبيل بن نبيل الرعينى .

(٥) كذا ولعل لا زائدة .

(٦) هنا كلمة أكلتها الأرضة .

كلها أسماء حديد ، وما بقى أكثر مما وصفت غير أنى لا أحيط به لكثرته واختلاف أسمائه ، وبالبعض يستدل على الكل إن شاء الله تعالى . ويحتاج قبطالا[١] وهى المسطرة ، وضابطا[٢] وحجر البركان[٣] وهو الذى تعـدل به التسوية ، وثلاثة أقلام من العود مخروطة لعمل الجمع ولابد من حديد الضرس وهى سبعة ، وتسميتها الضرس ، والطويل ، والصلة ، والتكحيلين ، أعنى بهما تكحيل الضرس ، وتكحيل الطويل ، والضفرة والنفطة ، فهذه جملتها ، ولا يستغنى عن فرد يكون معه لصلاح ما فسد من حديده وسفنا عما يسفن الأسفار .

باب الاغرية

الأغرية مارق منها كان ألصق للكاغد ، إلا أنى رأيت أكثر المسفرين من بلدى يغرزون بالابرجمة وبالدرمك ، وبالدقيق الأحمر ، وهذا كله غير مستقيم والنشا أصلح من هذا كله لأنه ألطف جسما ، ومارق من الأغرية فهو ألصق لا محالة ، وهو لهم أحوط لو علموا قدره ، فالصواب أن لا يستعمل غيره لما قد ذكرته ، ومن حُسْن النظر فى طبخِه أيضاً أن يطبخ بنقيع الإفسنتين أو بنقيع أصول العلقم أو الصبر أو ما شاكل هذه الأشياء التى يقطع عضيرها[٤] وعفوصتها ما يتكون فى الكتاب من الأرضة فى الكتب لوجه أبينه لك إن شاء الله . وذلك أن السفر إذا كمل بالتسفير ضرورة سواء كان الغراء مشوبا أو غير مشوب بما وصفته من الاضافة إليه لأن أصل هذه[٥] فإذا فتح الكتاب

---

(١) طرة بالأصل : القبطال يجب أن يكون من العود الرزين الصليب فهو أحلى للعمل .
(٢) طرة أخرى : أما الضابط فيجب أن يكون متوسطا فى البلاذ (كذا) الطيب حلو الأضراف (كذا) مدخل الأنخاذ مشدود له .
(٣) بالطرة : حجر البركان الذى يضرب به فى التسوية فأحسنه الصقلى الملوح الخفيف المطحون فهذا أحلى للتسوية .
(٤) كذا ولعله مضيرها .
(٥) كذا .

وقرأ فيه حتى تخرج عنه ندوة التسفير سلم من الأرضة إلا أن كان الغراء غير مشوب فلا يسلم[١] من الأرضة .

فصل : وما احتيج إليه من الغراء للتضبير فإنه يطبخ وحده . وصفة طبخه أن تأخذه وتحله فى الماء وتصفيه وتجعله فى القدر وترفع القدر على النار وتحركه أبدا حتى يلتف ، وأصل التحريك ألا تغفل عنه فى ذلك حتى يعقد وأنت تحركه ، فإذا طبخ أنزلته عن النار وأنت تحركه حتى يبرد . هذا حكمه ، وإنما قلنا يطبخ وحده للتضبير لأن الأشياء التى تضاف إليه تغيره فإذا ضبرت به ظهر التغير أسود قبيحا ولا سيا إن كان الكاغد جديد[٢] ، وأخبرنى زعيم[٣] ابن أرباب هذه الصنعة انه يضبر الكاغد الجديد دون غرا ، وإنما يتفق هذا فى لصاق الأزواج بعضها إلى بعض خاصة لا فى جميع التضبير كله ، يقطع أطراف الكاغد بغير مقراض حيث تكون الأطراف مستوفرة[٤] ثم يلفها بالريق[٥] ويلصقها بما فيه من النشا الذى هو فى أصل الكاغد تلتئم ، وقد جربت هذا وهو كما قال ، والعمل فى طبخ الأغربة ما ذكرت لك .

فصل : وأما المصاحف تحتاج[٦] غراء من الدرمك ، لأن الدرمك أصلب من النشا برقته لا يلصق الرق غاية الإلصاق فكما أن الرق له جسم كذلك يصنع له غرا يكون من شكله ، فإما من الدرمك وإما من الابرجمة ، والدرمك[٧] أمرأ فافهم إن شاء الله .

(١) الكلمة فى الأصل مأروضة ولعلها هذه .
(٢) كذا .
(٣) كذا ولعلها ابن زعيم .
(٤) كذا .
(٥) كذا .
(٦) كذا .
(٧) هذه الكلمة ملحقة بالطرة .

باب التخزيم وحكمه

حكمه أن تعدله خيوطا معتدلة مفتولة مقيدة ، ثم تأخذ السفر بعد أن تلزم كراريسه وتطرقها من اعوجاج يكون فيها ، ثم تعدل الكراريس من ناحية رأس المسطرة إن كانت المسطرة متفقة معتدلة من ناحية رأس الكتاب ، هذا أصله ، ثم بعد ذلك تنظر هل يختلف القالب أولا فإن اختلف القالب واللتفقت[1] المسطرة فى التعديل كما ذكرت لك ، فحكمه ما وصفته من تعديل الاسطار ، وإن اختلفت المسطرة واتفق القالب فلا ملام على المسفر فى هذا كله ، إلا إن اتفقت المسطرة واختلف القالب فإنك ترجع إلى نظر الأسطار فى التعديل .

وأُخبِرتُ عن بعضهم أنهم يحققون نظرهم فى تعديل الأسطار ثم يخطون خطين بشىء ، ويؤثر فى قفا الكتاب أو المصحف ويخزمون بعد هذا على تلك الخطوط الذين[2] خطوها ، إلا أن التخزيم يكون راخيا ، وسنبين سبب ذلك ولم كان فى باب التقفية إن شاء الله . فإن كان الكتاب كله أزواجا دون مكرس وكان رقاً لا كاغدا لأن الكاغد يزبره الحرير ، فإنك تخزمه بالحرير ، وإنما يخزم بالحرير لأنه إذا انضم فى الملزم عند التقفية لم يظهر فيه امتلا ، لأن الحرير لين ليس له جسم ، ولو كان مخزما بالخيط تظهر[3] فيه الامتلا وجاء قبيحا[4] .

(١) كذا ولعلها واتفقت .

(٢) كذا .

(٣) كذا ، ولعل صوابه لظهر .

(٤) يوجد بطرة الكتاب فى هذا الموضع ما يلى : ومن الواجب عليه أن لا يطالع أحداً على كتاب غيره ، فإن أطلع فبحسب الاضطرار فلا يعلم بصاحبه أحداً لأن الناس منهم من يريد أن لا يطلع أحد على ما عنده ولا يعلمه ولاسيما إن كان الكتاب قليل الوجود ويكون غريب التأليف ويخاف إن هو علم بالكتاب عنده أرسل إليه من لا يمكنه رده أما لحياء أو لجـــاه أو خوف سلطان فيكون المسفر فى هذا الوجه ونحوه سبباً لهلاك صاحبه أو تلف الكتاب ونجـــاة صاحبه وغيرة الكتب عند الطلبة (كذا) .

فصل : وكذلك حكم المصاحف أن يفعل بها ما ذكرته لك من أمر الكراريس وتطريقها ، وربما احتاجت أن تشد فى الملزم لصلابة الرق ، غير أنك فى تخزيمه تخزمه على كراستين وفى الكاغد على واحدة وهذا لا يتبين ضرورة إلا بالعمل ، وإنما يخزم الرق على اثنين لأنه كما ذكرت لك أصلب من الكاغد وأكثر سخرة بطريق الصبيان وكثرة تصرفه فإن كانت بطاين السفر من الكاغد فلا تخزمها مع الكتاب ، وما دون ذلك من البطاين مثل الجلد والخرقة والسّلفة وغير ذلك فإنك تخزمه ، وبعض المسفرين يخزمون بطاين الكاغد وهو خطأ فافهم تصب إن شاء الله .

باب التقفية

حكم التقفية أن تشد السفر فى الملزم ، ثم ترفع الكراريس بالإشفى وقد يستعمل لرفعها حديدة ، ولهذا قلنا إن التخزيم إنما يكون راخياً بسبب رفع الكراريس ، ولو كان غير راخ لم يكن رفع الكراريس كما ذكرنا ، ثم تقبب القفا وهذا أصل فى التقفية أعنى التقبيب ، وإنما يظهر عور هذا بالطول والقدم وذلك أن السفر إذا كان قفاه مسطحا وقدُم فإنه يفرق صدر الكتاب ويتجوف قفاه ، وهذا أعرّ شىء ، وإن كان القفا مقبباً وقدم الكتاب برز أيضاً صدره لأن التسفير لابد على قدمه أن تبرز كراريسه ويتحلل فإن كان ذلك فإنما يبرز منه ما تقبب ، ويبقى القفا مسطحاً لا شىء يشينه .

فصل : ومن حكم الكتاب أيضاً إذا قفى أن يكون خارجاً عن الملزم مقدار الاصبع وذلك لسبب أبينه ، وذلك أن أزواج الكاغد أكثر دلكها فى الأواسط

والأطراف ليست كذلك فيات[١] القفا لهذا السبب فطيرا ، أو المقدم وهو صدر الكتاب ضخما وهو عندهم عيب ، فإذا اشتد الملزم على بعد من آخر الكراريس كما ذكرت لك لم ينضم ذلك الانضمام وقرب فى الضخامة من صدر الكتاب .

فصل : وبعض الكراريس إذا اشتد الملزم على آخرها منها ما يخرج على الملزم وبينا[٢] بعد حل الملزم قبيحا ، وهذا النوع هو الذى يشتد الملزم أيضاً فيه على بعد من الكراريس فى التقفية . وأما خيوط التخزيم[٣] البطاين فمنهم من يتركها على حالها فى الاستطالة ، ومنهم من يخرجها ويعقدها على القفا ويبطن عليها فإن كان الخيط الذى خزم به السفر ممتليا وجاءت مواضع التخزيم تظهر فالعمل فيها أن تبطن تبطينا من صدرها وتتركها لا تحمل عليها التبطين حتى يعتدل مع التبطين الذى ألصقت إزاءها ولهذا قلنا فى باب التخزيم خيوط معتدلة فافهم .

فصل : فإذا حققت ما وصفت لك من رفع الكراريس وتقفيتها فلا بد لك من أن تقيس بالضابط طرفى السفر أعنى ناحية[٤] التى يكون فيها الحبك ليلا يكون الملزم قد اشتد من الناحية الواحدة أكثر من الآخر[٥] .

فصل : وأكثر المسفرين لا يقيسونها بالضابط[٦] بالراية دون العمل وهو أمر قريب ثم يطليه بالغرا وقد وصفت صنعته وتلصق أطراف البطاين وتحمل

(١) كذا بحرف الياء .
(٢) كذا ولعلها ويبقى .
(٣) كذا بعدم الإضافة .
(٤) كذا .
(٥) كذا وصحح بالطرة .
(٦) أرضة .

عليها ثلاثة[1] طاقات من الكاغد الجديد أو المرتفد ولا يكون بالياً إلا أن يكون فيه بعض قوة ، وبعض الأسفار الجافية الأجرام تحتمل أن يجعل عليها أربع طاقات من الكاغد ولا يجعل أقل من ثلاث ، وهذا ما شهدت ممن أخذت عنه .

فصل : وأما المصاحف الملوحة فإنما يكون لها معلقات من الرق مدخلة بين اللوح والمصحف ، وتنقلب على القفا ، وكذلك تفعل فيها من التخفيف والتقبيب مثل ما تقدم ، ثم تركب بعد إلصاق المعلقات عليها ورقة من الرق لا غير تلصق أطرافها فى اللوح ، وشاهدت بعض المسفرين يبطنون بينها بالكاغد وأنت المخير فى ذلك . ولكن ما ذكرته أولا أكثر استعمالهم .

فصل : وأما المصاحف السفرية وكل ما يسفر منها دون اللوح فإن العمل فيه مثل العمل فى الاسفار وما كان من الاسفار مبطناً بالكاغد فلا بد أن تجعل عليه خرقة تمسكه مخافة أن تنزبر بطاينه ، وقد رأيت بعض المسفرين يحملون الخرقة على القفا والسفر يبطن بالسُّفلة ، وذلك وهو[2] منهم نظر ووجه حسن فافهم هذا إن شاء الله .

باب التسوية

حكم التسوية أن تأخذ اضبارة من الكاغد وتعدل طرفها مع السفر على خط الاستوا ثم ترسم على آخر الاضبارة فى مقدم السفر القدر الذى تريد أن

(١) كذا .
(٢) كذا ولعل وهو زائدة .

تقطعه ، تفعل ذلك فى أول السفر وفى آخره ، ثم تسويه ، فإذا سويت أخذت بالمقدة ما ثنى[١] تحت السكين فى القطع ثم تجرى عليها البركلم[٢] وهو الحجر الذى تعدل به التسوية فى ذاتها ثم تحل السفر وتطوى أول ورقة منه وتعدل حرفها المسوى مع الحرف الذى كان لك قانونا فى تعديل الاضبارة وهو حرف القفا وتكسرها على النصف ثم ترشم[٣] القدر الذى تريد أن تقطعه من رأس المسطرة ومن أسفلها وتفتحها وتشد السفر وتسوى على حد الرشمات من أعلى السفر ومن أسفله وهذا أصل فى التسوية وفى التخفيض ، وبعض المسفرين يقيسون بالضابط و بالقرطبون وهذا العمل أصح وأقرب .

فصل : وأما تسوية المصاحف الملوحة فإن اللوح فى أصل عمله يحكم ويحقق فى الاستوى[٤] على القدر الذى تريد أن تسوى من المصحف إذا خزمته عليه وقفيته فإنك تسوى منه ما فاض على اللوح وربما احتجت أن تأخذ بالمنشار من مقدم اللوح بسبب ارتفاع القفا فافهم هذا إن شاء الله .

باب الحبك وحكمه

حكم الحبك أن يعمل له مفتول من الجلد على قدر السفر ، إن كان فطيرا كان المفتول حلوا وبحسب ما يكون السفر من الضخامة يكون المفتول وتشد الخيط عليه ثم تعيد الابرة بالخيط فى أول كراسة وذلك لتثبيتها بحسب أنها أول وتصرف الكتاب فى فتحه متى نظر عليها ثم تأخذ فى الثالثة ولا تزال تستمر

---

(١) فى الأصل بتاء مثناة .
(٢) طرة بالأصل : هو حجر الحك الذى يسمى بالقوصرب وبغيره .
(٣) كذا .
(٤) كذا .

بالأخذ واحدة بعد واحدة حتى تنتهى إلى آخر الكراريس فتأخذ فى الأخيرة مرتين مثل ما فعلته فى الأولى لأنها أيضاً طرف ، وكثير ما يقع النقض فى السفر من[1] إما أولا وإما آخر[2]، ثم تحمل عليه بالحرير ويسمى ما فعلت أولا قبل الحرير بالخيط التشبيك ، وحكمه ان تأخذ فى وسط الكراريس على بعد ليلا تزبر الكراريس يتحقق هذا كله .

فصل : ومن الأسفار ما يشبك ويحبك بالحرير ، ومنها ما يحبك ويشبك بالخيط ، ويكون حبكه وتشبيكا[3] فى مرة واحدة تبتدى كما ذكرت لك ، ثم تأخذ تحت المفتول مرة وفى وسط الكراسة مرة وتقطع ما فضل من المفتول بزائد على الحبك ليلا يفلت الحبك .

فصل : وأما الاحباك الرومية فإنها تنقسم ثمانية أقسام ذكرت منها الأربعة[4] وأغفلت الأربعة[5] لأن الكلام فيها لا يمل[6] منه بطائل ، ولا بد من المشاهدة والرؤية ، فلهذا لم نذكرها ، وأما المذكور منها فإنه ينقسم على أربعة أقسام كما ينقسم هذا الحبك الذى فرغنا من ذكره على قسمين ويسمى الدالى ، أما القسم الأول فهو ما تراه اليوم يجرى بين الناس ، والثانى مقلوبه وذلك أن تبدأ فى عمله من آخر السفر وقليلا ما رأيته ، وأكثر ما يحكم عمله

---

(١) كذا ولعله سقط منه كلمة بعد من .
(٢) كذا .
(٣) كذا .
(٤) كذا .
(٥) كذا .
(٦) كذا .

من يحاول عمله بالشمال ، القسم الأول وهو أن يكون كل لون من الحرير على لونه لا يتعدى ، ثم الثانى أن تكون الألوان مخالفة الأحمر منها على الأخضر إن كان أحد الألوان أحمر أو أخضر ، وهذا النوع يسمى الشطرنجى ، وأما الثالث وهو المسمى بالمضلع فهو أن يكون اللون متصلا بلونه على تحريفه حتى ينتهى فيه بالعمل ، وقد يدخل هذا المضلع من الصنعة نوعان أحدهما القسم الرابع الذى ذكرنا ، وأما النوع الأول منه فهو ما دخل الحبك الدالى وهو القلب ويجىء متقنا ، والثانى أن يحبك به نصف المفتول ، ثم يقلب العمل فيه فيأتى حبكا داليا منسوجا وهو مليح إلا أنه لا يتمكن إلا فى الأسفار الضخمة التى تكون مفاتيل حبكها ممتلية ، وأخبرت عن فعل المسفرين ولم أرهم أنهم يكتبون فى الحبك بألوان الحرير ما يشتمل عليه السفر الأول من كذا إن كان أولا والثانى إن كان ثانيا .

فصل : والعمل فى هذه الاحباك الرومية أن تأخذ الخيط بالإبرة فتشبك كما ذكرت أولا إلا أنك تأخذ فى أول كراسة مرتين قبل أن تأخذ فى الثانية وقد قدمت لك أنك تأخذ فى الأولى وفى الثانية وحينئذ ترجع إلى الأولى فهذا نقيض ذلك ، ثم تجعل المفتول بعد أخذك فى الكراسة مرتين وتشد الخيط عليه ويكون طرف الخيط تحت المفتول ، وفى التشبيك الأول لا يكون إلا محمولا عليه ثم تستمر إلى آخر الكراريس فإن كانت الكراريس ضخمة كل كراسة على حدها المعلوم وتتفاوت ، فإنك تأخذ التشبيك فى غير وسط ما بين كراستين حتى يكون ما بين الخيط والخيط على حد الاستوى[1] ليلا يكون موضع أفتح من موضع ، ويظهر الحبك قبيحا ، فإذا فرغت من التشبيك بعد أن تأخذ مرتين فى آخر كل كراسة من السفر كما تقدم فإنك تفتل خيطين من الحرير ملونين

---

(١) كذا .

أى الألوان أحببت تكون(١) الخيطان معتدلين فى الكمال وتجعلها فى إبرتين وتعقد طرفيهما ثم تغرز الإبرة فى وسط الكراسة الأولى وتدخها تحت أول خيط والإبرة الثانية فى الذى يليه حتى تنتهى إلى آخر المفتول ، فإن خرجت بالأحمر وتريد أن يكون الحبك لونا على لون ترجع باللون الذى خرجت به ، وإن أردت أن يكون مضلعا رجعت باللون الذى خرجت به تحت الخيط إلا أنك تقلب العمل وترجع به على ظهر الخيط ، وفى رجوعك أولا إنما ترجع به تحت الخيط كما خرجت به تحت الخيط ، فإذا رجعت به على ظهر الخيط فإنما يكون عملك لهذا الرجوع من ناحية واحدة فقط كل مرة وكذلك تفعل به إذا أردت أن يكون التضليع منكوسا تعمل هذا الوجه الذى وصفته لك من قلب العمل فى الخيط فى أول ما تبتدى وبحسب ما رسمت لك من قلب الألوان واختلافها فى الأواخر يكون العمل فى سائر تصريف أنواعها ، وهذا لا يتبين ضرورة إلا بالعمل والرؤية له .

فصل : وقد قدمنا أن القطع فيما فضل من المفتول إنما يكون على حسب ما ذكرته إلا فى هذه الاحباك الرومية فإن الحكم فيها إذا كان المفتول ممتليا أن يبل طرفه ويحل من فتله ويوخذ منه بالمقراض حتى يحل ثم يطوى وتقلب عليه طرة الكتاب من كل ناحية على جميع أطرافه ، وهذا أثبت له ، وأكثر ما يعرف هذا الحبك أهل المشرق إلا أن أعمالهم كما وصفت لك من إخفاء الأطراف تحت الطرر وإن قطع ، ولا تطوى طرر الكتاب على أطرافه فإنه أسرع شىء فى قلة الدوام ، لأن المفتول ينقلص وينقبض مع أنه غاية فى الحبك ، لأن الحرير حال بينه وبين التشبيك الذى يمسكه فإذا كان هذا فلا تمسكه إلا

(١) كذا .

الأطراف التى[١] ذكرت وإلا لا معنى له ، ولهذا هو هذا الحبك الدالى الذى يتصرف اليوم أقوى منه غير أن ذلك الحبك أشكل وأملح وفيه أيضاً بعض قوة إذا عمل على وجهه .

فصل : وأما حبك المصاحف الملوحة فإن الوجه فيها أن يكون فى الألواح بقرب الحبك ثقب تدخل فيه الابرة ثلاث مرات على معنى الثبات والقوة ، وكذلك فى التخريم[٢] تأخذ فى الثقب الذى فى وسط اللوح ثلاث مرات ثم تجر الخيط للثقب الثانى ، وتأخذ فيه ثلاثا أيضاً ، وتعقد الخيط على حرف اللوح وحينئذ تحزمه[٢] بالمصحف كذلك الحبك بعد ما تأخذ ثلاث مرات فى اللوح تأخذ فى الكراريس على حسب ما تقدم بالاسفار من الحبك والتشبيك إلى انتهاء الحبك ، وأخذك فى اللوح الثانى من قبل الأول والمصاحف التى هى دون ملوحة لا إشكال فيها غير ما قدمته لك من العمل فيها فافهم ذلك .

باب التبطين

حكم التبطين أن يعمل من ثلاث ورقات على قدر السفر ثم تركبه عليه بعد ما ييبس، وبعد تركيب يحل[٣] فى التخت ويشد عليه الملزم ويترك فيه بقدر ما يدرى أنه التصق ، ثم يحل وينظر ما تنفط منه وتطرقه بالثقيل فإذا يبس على السفر لصاقه يسوى بزائد خيط عليه لا بد من ذلك لان فيه وجها أبينه لك إن شاء الله ، وذلك أن السفر إذا سوى تبطينه على قده لا يزيد عليه شيئاً فإنه إذا قدم ينقبض لا محالة وتنقص الكسوة عن السفر وهكذا هى أعمال أهل

(١) فى الأصل الذى .
(٢) التخريم وتحزمه فى الأصل يحتملان التحزيم وتحزمه فليحرر .
(٣) كذا ولعلها يجعل .

المشرق بالأندلس وبالعدوة ، وفيه عيب من وجه وهى أن تلقى الكسوة معتدلة مع السفر والحبك مرتفع عليه فيأتى العوار فى قطع الجلد على الحبك وإنما إذا سويته كما ذكرت لك أولا فإن الجلد يأتى إذا قطع على الحبك فى خط الاستواء مع التبطين .

فصل : ومن المسفرين من لا يقطع الجلد على الحبك ويطويه ، وأحسن ما يكون طيه على الأحباك الرومية وأكثر أعمال أهل المشرق عمل هذه الهيئة التى وصفتها من طى الجلد على الحبك وهو حسن فإذا قدم السفر نقص عن الكسوة ما فاض منها حين إحداثها على السفر ورجعت بعد الكتاب ، فلهذا يسوى التبطين فائضا على السفر ، وعلى المسفر أن يتورع ولا يبطن بكتاب الله تعالى ولا بحديث نبيه صلى الله عليه وسلم فإن فعل وبطن بها ما كان من جنسها فذلك حسن ، وأما سائر العلوم دون علم الشريعة فلا أرى بالتبطين بها بأسا ، على أن جميع العلوم لا تخلو من ذكر الله تعالى وذكر نبيه صلى الله عليه وسلم وشواهد القرآن وغير ذلك والمسفرون [لا[1]] يتحفظون من هذا القدر ولا يراعونه ولكنى أسأل الله العفو والصفح .

باب البشر

إذا قطعت الرقعة من الجلد وتريد أن تبشرها فالعمل فيها أن تبشر أطرافها أولا ثم تبشر وسطها بعد ذلك بطول الجلد لا بطول الرقعة إن كانت الرقعة مقطوعة على عرض الجلد لا على طوله ، فإن كانت مقطوعة على الطول فالعمل

(١) المحل مأروض والسياق يقتضى لا .
هذا ويوجد بطرة الأصل ما يلى : قد أجاز مفتى زماننا سيدى قاسم العقبانى أن يبطن بكتاب الله كتاب الله وبحديث رسول الله حديث رسول الله .

فيها ما ذكرته لأنه أحسن ثم تعيد عليها بعد ذلك البشر كيفما شئت بالطول أو بالعرض ليلا يكون موضع قد بالغت فيه وموضع لم تبالغ فى بشره ، ثم تأخذ السفر وسأبينه لك وتبشر الطرر وتسويها بالمقدة وحينئذ تركب الكسوة على السفر ، ورأيت بعض المسفرين يبشرون الكسوة ويركبونها على السفر وحينئذ ينظرون فى تسوية الطرر وبشرها ويجعلون المسطرة على الطرة بطول السفر والسفر على لوح التخت ويجرون المقدة على ما فاض على المسطرة من الجلد ويقطعونه ، والعمل الأول أصح ، وقد نفعل أنا هذا وهذا إلا أنه يتمكن فيما حكيته من هذا العمل المتأخر أن يبالغ فى بشر الأطراف ولا بد أن يبقى فيها خشونة ولاسيما إن كانت البطاين من الجلد فحكم الطرر أن تلتصق حتى لا يظهر إلصاقها من رقة البشر وهذا العمل لا يتمكن إلا بالعمل الأول الذى وصفته لك ، فإذا كسوت الكتاب وجئت تقطع الجلد عند المفتول فإنك تقطعه على الطرف المفتول ويكون القطع محابيا بيسيرا[١] فافهم ذلك .

باب تركيب الجلد

إذا بشر[ت] الرقعة ومددتها وأخرجت الرخو الذى يكون فيها تجعل السفر عليها وتحوق حوله وتأخذ قده فى الرقعة تسوى بزائد على التحويق بمقدار الطرة التى تنقلب على داخل الكتاب وتبشرها كما تقدم بشرا رقيقا مستويا وتسوى أطرافها بالمقدة كما وصفت لك فى باب البشر وتكسو الكتاب ، فإذا جئت إلى صدر الكتاب وهو ما بين الاذن والتبطين فتنظر بطاين السفر الداخلة فإن كانت من الجلد فلا تجعل فى ذلك الذى حددته لك تبطينا وتلصق الجلد وإن كانت البطاين من غير الجلد تبطن ذلك الموضع ضرورة وهذا أخلصه عن الذى أخذت

---

(١) كذا .

عنه وهو فى هذه الصنعة إمام ظاهر مبرز قد سار[١] ذكره فى المشرق والمغرب مسير[٢] الشمس وهو ابن[٣] عبدون ، وغيره من المسفرين لا يبالى بهذا القدر ويبطنه فى كل حال سواء كانت البطائن من الجلد أو من غيره والعلة فيه إذا بطن مثل العلة فى الكسوة وما يحدث فيهـا من النقائص والتقبض بالقدم إذا سوى التبطين على قدر السفر إذ الحكم فى الأذن أن تكون مطبوعة على السفر حتى لا يحتاج إلى عروة ولا زر تزربه .

فصل : ومن الأسفار ما تجد إذ أنها[٤] لا تثبت على وجه الكتاب إلا بالزمّ لها والتسفير محدث فما يكون إذا قدم وتقلص ، وهذا بين لا إشكال فيه إذا نظرته من جهة التحقيق ، وأما الأذن فالأصل فيه أن يكون أقل من نصف السفر بمقدار رأس الزر ويكون طرفاه مناصفين وسطه هذا أصله ، وكذلك فى المصاحف السفرية والربعات ومن الأسفار ما تحمل كسوته دونه وتنقص[٥] وحينئذ تركب عليه الكسوة ، ووجه العمل فى ذلك أن تعمل البطائن فإذا يبست إلصقها على السفر بيسير من الغراء فى ثلاث مواضع ، فإذا يبست تلك المواضع الملصقة وأمسك التبطين على السفر أو على المصحف فإنك تسويه كما ذكرت لك ، وتكسوه بالجلد وتغلقه عن السفر وتقطع الأذن على ما رسمته لك وتأخذ بالضابط قد مقدم الكتاب والمصحف ليلا يأتى ضيق الصدر وعيب من عيوب التسفير وتلصق الأذن وتسوى الطرر وتبشرها بعد هذا كله ثم تنقش الكسوة وحينئذ تركبها على السفر ويسمى هذا النوع المكسر .

(١) بالأصل : صار .
(٢) بالأصل : منير .
(٣) بالأصل : بن .
(٤) كذا ولعلها آذانها .
(٥) بطرة الأصل : عله وتنقش .

فصل : فإن قيل لك سفرلى سفرا وهو لم يتم بالنسخ من حيث أن يكون تمامه بالنسخ وبالتسفير سواء والسفر عند صاحبه ، وهذا النوع يسمى الظاهر من صنعة التسفير وقلما يحكم عمله إلا من يجيد الصنعة ويحفظها عن ظهر القلب ، والعمل فى ذلك أن تدرى عدد الكراريس ومن أى القالب هو السفر فتضم مثل ذلك العدد فى الملزم من كراريس غير الكتاب مع أن حد الكراسة لا يجهل وإن خرج بزائد كراسة أو بناقص فلا حرج عليك ، هذا كله ثم تأخذ بالضابط عرض ذلك العدد إذا انضم وتعلم أيضاً مقدار ما تسوى من القالب ، فتعمل التبطين على حد ذلك ، ثم تبل الجلد وتبشره كما تقدم وتلصق فيه وتجعل فيه البطائن من التباعد فى القفا عرض ذلك العدد الذى أخذته وبين الاذن والبطانة مقدار عرض مقدم ذلك العدد أيضاً ثم تحكم الكسوة حتى تتم بالنقش فإذا جاءك السفر قفيته وسويته وركبت عليه الكسوة وما رأيت من يحكم هذا العمل فيها دون السفر وتأتى كأنها حُذِيت[1] عليه ، الا من أخذت عنه وقد تقدم ذكره .

فصل : وما[2] كسو المصاحف الملوحة فيهن فلا إشكال فيه مثل ما تقدم من بل الجلد وقده وقطعه وبشره وقيل[3] أن تحمله على المصحف تلصق المعلقات التى ذكرنا فى باب التقفية بين اللوح والرق وحينئذ تركب الجلد ، ومنهم من يلصقها بعد الكسو وهو خطأ ثم تشد المصحف فى الملزم وتحمل على اللوح قبل أن تكسوه بالجلد ورقة من الكاغد تكون وقاية الزيت الذى يخرج من عود الارز بسبب الندوة فيغير الجلد وأيضاً فإنه يكون عند النقش أحسن لأن الطابع أو الضرس يأتى فيه مثبتاً مليحاً .

---

(١) فى الأصل : حديث ولعل ما ذكرنا هو الصواب .
(٢) كذا فى الأصل : ولعله وأما .
(٣) كذا ولعله وقبل .

فصل : العمل فى الأشداق وذلك أن تأخذ قد المصحف من الجلد فتلصق عليه ورقتين أو ثلاثا من الكاغد وتحمل عليها ورقة من الرق ثم تطوى عليها طرة من الجلد فإذا كان عند النقش تكسره على جهات المصحف ، وبعض المسفرين يعملون التبطين ويقطعونه على جهات المصحف ويلصقونه فى الجلد ثم يجعلون عليه ورقة من الرق ويقلبون عليها طرة الجلد ويتختونه حتى يجف ويتقير ويحتمل النقش ، وأما المصاحف السفرية فإن أشداقها مع كساها تكون من جلد واحد والعمل فيها أن تقطع الجلد بزائد ما يطوى عليه الشدق وتبشر كما تقدم ثم تأخذ قد السفر وقد الشدق وتطوى عليه الجلد فإن لحق بالطرة التى تكون من الحبك بطول إلى انتهاء الأذن فحسن وإلا وصلته وأخرجت عند مقدم السفر من الشرق يسيراً على وسط الطرة وركبت عليه طرة المقدم والأذن من حيث تكون الطرة متصلة وهذا لا يعمله أحد إلا فى المكسوات المكسوات وبشرط أن تكون البطاين من غير الجلد وكذلك تفعل فى هذه الأشياء كلها إذا كانت البطاين من غير الجلد مثل الخرقة والخز وغيره ، فإن كانت البطاين من الجلد فإنى رأيت أكثرهم يركبون البطاين على ما فاض من الجلد على حد الشدق الامن المقدم فإن الطرة تتركب على البطانة ضرورة ، هذا هو المهيع وعليه فقس إن شاء الله .

باب العمل فى الأسفار البوالى ورد الكسا عليها

حكم الأسفار البوالى أن تحل وتنظر أواسط كراريسها ويضبر ما فيها للتضبير بالكاغد الطلحى وقد قدمت حكم القطع الكاغد[1] فى باب الأغرية ثم تخرم الكراريس على طريقها الأول وتجعل فى أواسطها علامات من الكاغد ويعمل

(١) لعله للكاغد .

للسفر معلقات من الجلد ويقال لها رواجع إن كانت بطاين السفر من الجلد أو من الكاغد وإن كانت من الكاغد أو من السُّفلة أو كيفما حب[1] صاحب الكتاب ثم تقفيه فإذا جئت إلى الحبك تأخذ فى تلك العلامات التى علَّمت وبعض المسفرين لا يعلّمونها فإذا جاء إلى الحبك تعب فى إخراج وسط الكراريس وربما أفلت له كراسة عند الحبك .

فصل : ومن الأسفار من[2] يعمل له فرد معلقة من الجلد وذلك أن تحزم الكراريس مع أحد بطاين الكسوة ، إما التى فى أول الكتاب وإما التى فى آخره ، وتقفيها فإذا [أ]حكمتها إن شئت ألصقت المعلقة على البطانة ، وإن شئت ركبت البطانة عليها وهى أحسن بها ، ولابد لك من ترقيع ما نقص من الكسوة من ناحية الحبك ومن المقدم كذلك ، وفى الترقيع وجهان إن شئت ركبت السفر وحينئذ ترقعه ، وإن شئت رقعت الكسوة وحينئذ تركبها ، والوجه الأول أحسن لسبب أبينه لك إن شاء الله وذلك أن الرقعة تبشر حتى تكون أطرافها فى نهاية من الرقة وتركب على الكسوة فإذا التصقت فلا شىء يزيلها إلا القدم والطول ، وإن ركبت الكسوة على الرقعة فإن الكسوة لا يتمكن فيها البشر بسبب الجلد البالى وتبقى أطرافه ناتئة فمتى تصرف السفر فى اليد تقلعت تلك الأطراف على الحين ولم تثبت ، وكذلك تقفية المصاحف الملوحة أقول فيها ما تقدم فافهم إن شاء الله .

باب طبخ البقم

حكمه أن يدق ويجعل عليه من الماء ما يغمره ثم يرفع على النار ويطبخ حتى يبقى منه القدر الذى يحتاج ، وبعض المسفرين يفعلون به مثل ما يفعله

---

(١) كذا .

(٢) كذا .

القراقون[١] به وهو أن يطبخ حتى يبقى عليه نصف الماء الذى ألقى عليه ثم تدركه[٢] لحد الأول ويطبخ ، حتى يبقى منه ما يريد ثم تدخل أصبعك فيه أو غير أصبعك وتنقط منه على ظفرك وتحدره[٣] ، فإن تحدر[٤] وسال رددته إلى الطبخ وزدت عليه من الماء إن احتاج وإلا تتركه حتى يطبخ على حاله وإن لم يتحدر ورأيته خاثرا فذلك علامة طبخه وانتهاء حده .

فصل : وتحتاج أيضاً أن تذوقه عند شرائه هل هو حلو أم لا ، فإن كان حلواً فهو طيب لا محالة قد اتفقوا على هذا ، وإن كان غير حلو فلا خير فيه ، وأكثر المسفرين لا يعرفون هذا القدر وإنما يطلبون منه العود الأصفر حيث ما كان ولا يراعون معظمه فافهم .

باب النقش

حكم السفر إذا بقم وجف من ندوة البقم وتغير أن تحط طرر الكتاب بالمحط وتخرج وسط الكتاب بالضابط وتضرب فيه خاتماً مربعاً أو مسدساً أو مثمناً أو دائرة أو كيفما أحببت ما شئت من هذه الأنواع كلها تفعله ثم ترسم فى الأذن تابوتا على وسط الخاتم أو الدائرة وباطن السفر كذلك تفعل فيه مثلما فعلت فى الوجه إلا أنه[٥] رأيتهم يذهبون فى بواطن الكتب إلى الاختصار ، ثم تجعل الحديد فى النار حتى يسخن ، فإذا قدرت أنه قد احتمى تخرج الحديدة التى

(١) كذا .
(٢) كذا .
(٣-٤) فى الأصل كلاهما بالذال المعجمة .
(٥) كذا .

تنزل فى الطرة وتشمها على بعد من أنفك ، فإن حسست[١] فيها بقوة النار أطفيتها فى الماء العذب ، وهذه نكتة من نكت التسفير وقل من يعرفها ، وأبين لك لم تطفأ فى الماء العذب ، وذلك أن الماء الزعاق يأكل الحديد بالطول ويكسبه اللين ، والعارف من الحدادين لا يسقى إلا بالماء العذب ، وأكثر المسفرين لا يعرفون هذا العذر ولا يلتفتونه[٢]، ومتى رأيت حديدة قد تآكلت حول النقش الذى يكون فيها ورق سائرها فاعلم أن ذلك من إطفائها فى الماء الزعاق .

فصل : ثم بعد ذلك تطفيها فى الشمع لأنه يكسب الحديد إذا نزلت فى الجلد كحولة وتأتى براقة مليحة . وبعض المسفرين لا يدرك حسهم القياس بأنوفهم ولا اللثم[٣] حتى ينزلوا الحديدة فى طرف جلد يكون معهم معد للقياس وعمدة الأمر فى النقش على التحفظ فى الطابع ينا[٤]فى موضع ومحروقا فى موضع آخر وهو أقبح شىء ، يكون وقد نجد من المسفرين من يحكم أصول الصنعة بأسرها ، وأكثر الناس يشاركون فيها لأنها شغل عين إلا ما فيه من الدقائق الخفية فإنها تحتاج الدربة والإتقان والبحث عليها فأفرغت[٥] من نزول الطوابع فى الطرة تنزل أيضاً ما يصلح من الحدائد بالخاتم أو بالدائرة بعد أن تكون الصفيحة تحت السفر ليتوطأ الجلد إلى النقش ، ثم تسفنه إن أردت أو تدلكه أو كيفما شئت فى هذا كله ، ومنهم من لا يدلك ولا يسفن ويشطب ثم تجر الطريق بحذاء النقش من ناحية الطرة والطريقين كذلك بحذاء النقش من ناحية الدلك أو السفر أو ما كان ، ثم تخيط بالطريق على بعد من الطريقين قدر عرض الخرصة ، وتنزل الركن فى مجتمع أطراف الطريق والعشر فى حشو الأذن ما بين التابوت

---

(١) كذا .
(٢) كذا ولعل كلمة العذر صوابها القدر .
(٣) كذا وتحتمل أيضاً الشم .
(٤) كذا ولعل الصواب نيا فى . . .
(٥) كذا ولعلها فإذا فرغت .

والطرة من الناحيتين جميعا ، وإن شئت نقشت الأذن كله ، غير أنك تفصل بالطريقين بين حديدة الطرة والحديدة التى تنزل فى حشو الأذن وأول ما تبتدىء تنقش الأذن ثم باطن السفر بعده وحينئذ تنقش الوجه آخرا ، وتجر الملسة[١] على طرر الكتاب الداخلية وعلى البطانة وتحفظ على المقدم وفى القفا بالطريق .

فصل : العمل فى الأسفار المختصرة وذلك أن تسفن وتدلك لها طرة وتخيط بالطريق على بعد من الطرة حسبما ذكرته فيما تقدم وينزل الركن فى مجتمع أطراف الطريقين والعشر فى وسط السفر واللوزة حوله ويسمى هذا النوع التسفير المصرى ، وإن شئت نقشت مكان العشر واللوز حكاية من الضرس ، وكذلك فى وسطه وتقسم هذه الحكايات على أقسام منها ما يعمل مربعا ومنها ما يعمل كالدائرة ولكنه شىء يسير قدر ما يحبس موضع العشر واللوزة ، وسأرسم[٢] لك صورها فى آخر الصنائع إن شاء الله . وإن شئت نقشت مقدار السفر بيسير من الضرس ببيتين تنزل فيها ما أحببت من الصنائع مقدار ثلاثة أبيات من هنا ومن هنا بعد عقد الركن ، ولابد من جر الطريق على حواشى الطرر بطول السفر وبعرضه .

فصل : وتحترز فى تخييط الطريق فى الأذن أن يأتى على خط الاستواء مع التخييط الذى يكون فى وجه الكتاب بالطرر[٣] ، كذلك ليلا[٤] تأتى طرة واسعة وأخرى ضيقة وتجيد خدمة الجلد بالدلك فإنه لا يظهر إلا بالخدمة له ،

(١) كذا .
(٢) فى الأصل : ولما رسم .
(٣) الحرف مضبب لا يظهر ، والغالب أنه باء ويحتمل الكاف .
(٤) فى الأصل : لأن لا .

وبعض المسفرين يزعمون أنه لا يخرج رونق الجلد ولا يظهر إلا بأدهان يطلون الجلد بها ، ورأيت منهم من يطليه بشيء لست أعرفه ويظهر الرونق كما زعموا حتى وجهك فى الكتاب من شدة البصيص ، ومنهم من يبقم الكتاب ويتركه حتى يجف غاية الجفوف ثم يرطبه عند النقش بالمصرة[١] وشاهدت هذا وهى ممن[٢] تكسب الرونق لا محالة ورأيت منهم من يرطب الكسوة عند النقش بنقيع شحم[٣] المرج وذلك إذا أزمن الكتاب بعد الكسوة ولم ينقش ، وبعضهم يطلون الكسوة بزيت الجوز إلا أن المصرة رأيتها أبلغ منه ، وأخبرت عن بعضهم أنهم يدهنون بزيت البيض ولم أره ولا جربته ، وكذلك رأيت من يدهن الخبازى[٤] ولا أعرف استخراجه كيف هو ، ويغنيك عن هذا كله البقم الطيب وخدمة الجلد عند النقش فإذا فرغت بعد هذا كله من النقش تطفى الحديد فى الشمع وتتركه ليلا يكتسب الصدا ، ويأتى النقش به قبيحاً فافهم هذا وقس عليه إن شاء الله .

باب نقش الضرس

الضرس يجرى مجرى القاطع والمقطوع وهو باب منه ، ويستنبط ، فيه صنائع كثيرة مختلفة الأنواع ولها أسماء ، وأصل العمل فيه أن يبيت له أبياتاً على قدر الحديدة بالضابط أو بالعين تقديراً ، وبعض المسفرين لهم حديدة متخذة للتبييت كالقانون ليلا يجىء أكبر من بيت ، وفى تبييتك للطرر تترك طرتين لأنها أربع طرر تدور بالكتاب فتترك منها طرتين يكون فى أولها عند التبييت نصف بيت ،

---

(١) كذا .

(٢) كذا .

(٣) طرة : شحم المرج هو ورد الزوان البرى .

(٤) لعله بالخبازى .

لأن الصنعة حكمها أن تنعقد أركانها فى نصف بيت ، ولابد ضرورة ثم تنزل حديدة الضرس ثم الطويل بعدها ثم الصلة ثم التكحيل ثم الطفرة ثم النقطة ، ولا يتبين لك نزولها إلا بمشاهدة ، ولا بد من هذا ضرورة ، فإذا رأيت نزول الحدائد حينئذ يمكنك قلع الصنائع من كل موضع ، وأول ما ابتدى لك بالطرر وما ينزل فيها من الصنائع . والطرر تكون على أنواع منها طرة من بيت واحد ، وقلما تعمل إلا فى الأسفار الصغار المحكمة الفطيرة[١] الأجرام ، ومنها طرة من بيت ونصف ومنها طرة من بيتين ومن ثلاثة ، ومن أربعة ، ومن خمسة ، ولا تكون أكثر من خمسة أبيات لأن البيتين[٢] تختص بصنعة واحدة ثم تدخلها صنائع بعد هذا والثلاثة الأبيات كذلك والأربعة كذلك تختص بصنعة واحدة إلا الخمسة الأبيات والستة مثلها لا تختص بصنعة واحدة إلا أن تكون الصنعة مركبة من صنعتين ، وقلما تعمل طرة من ستة أبيات إلا فى التوابيت الجافية الأجرام الضخمة وكثيراً ما تعمل طرة من خمسة أبيات إذا كان الضرس حلواً رقيقـاً .

فصل : فأما البيت الأول فلا تدخله إلا صنعة واحدة تسمى السلسلة ، وإن شئت فصلت بين الضرس والضرس بترك[٣] بيت وتصلها بالطويل ، وإن شئت استغنيت عنه ومدارك عند نزولها الضرس على عقل الأركان فإنها أصل من الأصول ، وقد نجد من يحكم نزول الحدائد وتأتى أركان الصنعة من بيت ناقص أو زائد رده إلى وسط الطرة أو البحر إن كان بحرا ، واستنبط فيه صنعة وكل طرة إذا أضفتها إلى مثلها أو إلى مثليها أو إلى أمثالها فإنه يأتيك منها بحر .

---

(١) كذا .
(٢) كذا .
(٣) فى الأصل : يترك .

فصل : واعلم أن الصنعة التي تنقش فى الأذن هى التى تنقش فى الخاتم أو فى الدائرة من حيث أن يأتى الأذن مطابقاً لوسط الكتاب فى النقش ، وكذلك الدوائر الحكم فيها أن تكون معقودة على طريقة واحدة ، ورأيت بعضهم يعقد نصف الدائرة على خلاف عقود النصف الآخر لأن الأصل عندهم العقد فلا يراعون إلا ذلك ويعقدونها كيف شاءوا ، ولكن الصواب ما ذكرته وهو أحسن ، ويدخلها من الصنائع ما يدخل الطرر والبحور وما تقدم ذكره ، وكذلك الخواتم المربعة والمسدسة والمثمنة الحكم فيها واحد فافهم إن شاء الله .

باب الأمثلة

صورة البيت[1]

باب العمل فى الأزرة والغرا

أما عمل الأزرة فلا يصل لمعرفتها إلا بالمشاهدة ، وأما الغرا فالحكم فيها أن تكون من خواص الجلد تبشر بشراً رقيقاً معتدلا ثم تقيد وتلصق ، وبعض المسفرين يقرونها مكان التغيير وهو خطأ لأنها تأتى شديدة ، ومن حكمها أن تكون ملتطية ثم تحطها بالمحط وتقصها بالمقراض على طريق الخط الذى يكون فيها ، هذا وجه العمل فيها فافهمه إن شاء الله .

---

(١) ليس فى الأصل صورة مطلقا ويجىء بعد هذا العنوان مباشرة باب العمل فى الأزرة والغرا .

باب العمل فى أقربة المصاحف

وحكمها أن تطرح من الجلد رقعة كاملة يعم كالها طول المصحف وعرضه من جهاته الأربع سواء كان المصحف جزأين أو جزءاً أو ثلاثة أجزاء أو أربعة ، وإن تناهى فى التجزئة إلى أربعة أقسام فلا يكون غشاؤه إلا مبنيا أو تابوتا من الخشب ، وقلما يعمل قراب مخروز لأربعة أجزاء ، وأكثر ما يعمل لجزء واحد أو الاثنين الغاية فيه هذا . ثم تطرح رقعتين لأن الرقعة الأولى منها تكون أسفل القراب وجانبيه وأذنيه الرقعتين الأخيرتين تكونان جانبين لمعرض القراب ومنها تكون الأذنان المهللتان تبطن هذه الرقائع بثلاثة[1] طاقات من الكاغد أو أكثر ، وبحسب ما يكون التبطين مبضعا ، فإذا يبست كسرتها على المصحف بزائد لتكون الأجزاء مروحة فى دخولها وخروجها وبحسب ما يأخذ منه الخرز أيضاً .

فصل : ثم تعمل الأقسام التى تكون بين الأجزاء وتكسوها بالجلد وتترك لها طررا تفيض على حدها ، فإذا كسوت القراب ونقشته تخلع البطائن من الرقعتين وأنت قد أخذت فيها الأجزاء ثم تنقش البطائن على العرض الذى قسمت ، وتدخل الأقسام وتلصق الطرر التى فاضت لك على الحد المعلوم ، ثم تلصق البطاين المخلوعة بعد هذا ، وتركب الأجزاء أو تمسك القراب وتخرزه إن كنت ممن تخرز أو تعطيه للخرز ، هذا مما يحتاج المشاهدة أيضاً .

---

(١) كذا .

باب العمل فى الأقربة المبنية

وحكمها أن يكون القالب الذى يعمل عليه الغشى[١] أطول وأملى من المصحف بيسير بسبب ما قدمنا من خروج الأجزاء ودخولها ، فإذا أردت البناء كسوت القالب بالبطانة وجعلت التبطين وبنيت ، وحكم البناء أن تجعل طاقتين من الكاغد ، ثم تتركه حتى يجف وتطرقه ، فإذا يبس ضربته ، واصِلْه الدلك والضرب وحينئذ تركب عليه شيئاً آخر هكذا لا تجعل فيه طاقة إلا على شىء وقد يبس وبالغت فى ضربه ودلكه ، ثم تركب الآذان وتلصق فيه اللوز وتكسوه ، إلا أنك إذا كسوته كانت رقائع الآذان منفصلة من جلد الجسد إن شئت ، وتكون الآذان مكسوة وأطراف رقائع كساها محمولة على الجسد ، ثم تنزل الجلد الذى تكسو به سائر القراب على أطراف رقائع الآذان ، وهو أقوى من أن تكون الآذان مع سائر القراب من جلد واحد وأكثرهم لا يجعلون هذا .

فصل : فإن كان القراب المبنى لأربعة أجزاء فإنك تصنع أربعة [قوالب][٢] على الاستواء ، وإن شئت كان القالب واحداً أو بنيت عليه فهو أحسن ، ثم تعمل أقساماً وتدخلها كما فعلت فى القراب المخروز وأنت مخير فى هذا كله ، وهذا هو العمل فى جميع المبانى واختلاف ضروبها من المحابر والأحقاق والأدراج والأغشية وغيرها ، وكان من ذكوته[٣] لا يجل[٤] منه بطائل إلا بالمشاهدة ، فافهم إن شاء الله تعالى .

---

(١) كذا .
(٢) مكانها مقروض ولكنها هى الغالب .
(٣) لعلها وكل ما ذكرته .
(٤) كذا : والكلمة مقروضة .

باب العمل فى الجوامع

وحكمها أن تطرح الرقائع بعد بشرها وتبطن رقعة السكين والمقرضين ، ورأيت بعض المسفرين يبطن رقعة الأقلام ولم أشاهد هذا مما أخذت عنه ، فإذا جفت الرقائع كسوتها ونقشت الرقعة التى تكون وجها للجمع ، والرقعة الثانية يسيرا من النقش أيضاً ، وتأخذ رقعة الأقلام وتقسمها ثم تخرزها وتلصقها أيضا بعد هذا الخرز بأحد الرقائع ، وتضيف الكل وتمسكه بطرف من الجلد فى موضعين أو فى ثلاثة بعد أن ترسم فى العمد الذى يكون وجها ذلك اللوز وتخرزه إن كنت ممن يخرز أو تعطيه للخرز ، ثم تسويه وهذا لابد له من المشاهدة ، ولهذا أسقطت وجها آخر فى عمله لم أذكره إذ لا معنى له إلا بالرؤية ، ومن الناس من يعمله بقلمين ومنهم من يعمله بأربعة أقلام وأكثر ما يجرى بثلاثة أقلام ، فافهم إن شاء الله .

باب فى النكث[1]

هذه النكث[1] كثيرة إلا أن العبارة عنها تعسر ولا يتبين لقارئها وجه العمل ، فلهذا أغفلت منها كثيراً ، لكنى أذكر منها يسيراً ، فمن ذلك قلع الشعر من الجلد وذلك أن تعمد إلى يسير من الشمع فتفتله ثم تجعله على موضع الشعر وتحمل كفك عليه فإنه يزيله ، ومن ذلك حجر البركان إذا كان لا يقطع شيئاً فإنك تبيته فى خل قاطع فإنه يعود إلى ما كان عليه من قطعه ، ومن ذلك إصلاح النشا إذا تميع غراوه تعمد إلى إناء جديد فخار فتجعله [فيه] فيجتذب[2]

---

(١) كذا ولعلها النكت بالمثناة جمع نكتة .

(٢) كذا .

الإناء الرطوبة ويصلح جداً ، ومن ذلك قلع الزيت من الكاغد والعمل فى ذلك أن تجعل عليه الجص سخناً فى غاية السخانة ، ثم تغله وتتركه حتى يبرد فإنه يزيله ، ومن الناس من يزيله بالدقيق ومنهم من يزيله[١] بالطفل المسحوق ، ولكن أبلغ ما رأيته بالتجربة ما ذكرته أولا .

باب فى العيوب

ومن عيوب التسفير أن تكون البطاين منفطة والأذن ناقصة عن وجه الكتب والمقدم ضيقاً والقفا مسطحاً والتسوية غير معتدلة وأن تكون ضيقة فى مكان واسعة فى أخرى[٢] ، ومنها أن تكون الكسوة معتدلة مع الكتاب والنقش محروقا والطريقان أو الطريق الذى فى الأذن يأتى على غير استقامة مع الطريق الذى فى وجه الكتاب ، ومنها أن يكون الأملس المدلوك ناقص الدلك ، وأن يكون قطع الجلد على الحبك غير مستقيم والضرس فى النقش غير معقود ، وأن تكون طرة أوسع من أخرى ، وأن تأتى الدائرة على غير طريقتها .

فصل فى المصاحف

أن يكون[٣] الشدق كاملا أو ناقصاً بهذه العيوب إذا تحفظت من أن تقع فيها كنت مجوداً فى الطريقة إن شاء الله .

---

(١) بالطرة هنا : ومن الواجب أن لا يعير كتاب أحد إلى غيره على سبيل النقل وصاحبه يظن أنه يسفر وهو ينسخ ، هذه قلة ديانة ممن يقع فى هذا القدر .

(٢) كذا .

(٣) كذا .

واعلم أيها الطالب المجتهد — نفعك الله — أن هذا الكتاب مفيد لمن شدا في الصنعة ، وأنه يغنيه عن الشيخ إلا في الأشياء التي لابد فيها من المشاهدة ، فإن اعترض معترض فيما أغفل ذكره بما[١] كان ذلك لعى ولا لحصر ، غير أني حذفتها للعلم بها ، ولا[٢] من تناهى لمعرفة ما أصلته له لم يجهل ما أغفلته مثل فتل الخيوط وتغفيرها وأشباه هذا ، ومثل حد آذان الأقربة وكيفيتها والآذان التي تكون مدخلة في الجسد وأحكامها وكسو توابيت الربعات وعمل أقسام المحبرة السرجية وخرز الغرا والأزرة وصلاح الأغربة إذا فسدت في الطبخ وفتح لون البقم وغير هذا كله بين لا إشكال فيه مع أنه لا يعرف إلا بالرؤية له فلهذا أغفلته ، وعلى الطالب أن لا يسعه جهل هذه الأصول ضرورة ، لأن هذه الصنعة تشارك الطالب وبها يكمل طلبه ، فهذه كرم الله آثاركم وأظهر إيثاركم جملة الأصول التي ذكرت وقد رفعتها لحضرة مولاى كالمخدَّرة ، وبذلتُ لها من حظ الاجتهاد أوفره ، ليتلقاها من شاء بأحسن القبول ، والله تعالى يجازى بالجميل ، وإياه أسأل العفو والمغفرة لا رب غيره[٣] .

---

(١) كذا والصواب فما .

(٢) كذا ولعلها ولأن .

(٣) بعد ذلك بنفس الخط : « بلغت المقابلة من الأصل المنتسخ منه في ثاني يوم من ربيع الأول عام أربعة وأربعين وألف والحمد لله رب العالمين » .

وثبت في وجه الورقة الأولى من المخطوط ما يلي : « كتاب التيسير في صناعة التسفير تأليف الشيخ بكر بن إبراهيم الإشبيلي رحمه الله تعالى بمنه ، وكرمه » . ثم جاء بعد ذلك : « ذكر لي بعض الفقهاء أنه كان ذات يوم مع الشيخ الفقيه الإمام العـــالم سيدى أحمد الونشريسي وسيدى مالك إمام المسفرين رحم الله تعالى الجميع بمنه فقال له سيدى أحمد الونشريسي : ياسيدى مالك إني وجدت منصوصاً أن المسفر ملحق بالصدقة الجـارية وهو داخل في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم أو صدقة جارية الحديث وهو نقل صحيح هـ » .

ضميمـــة [1]

باب طرد الأرضة عن الكتب

يبخر بأعضاء الهُدهُد وريشه فإنه يقتل الأرضة . ه‍ . والأرضة بفتح الراء .

وجدت مكتوبا ما نصه :

وذكر لى سيدى محمد السميرى أنه وجد فى بعض الكتب الصحاح أنه من كتب فى أول ورقة من الكتاب وفى آخر ورقة هذه الأحرف فإن الأرضة لا تضره وهى هذه « يا كيكتج » وهى صحيحة مجربة .

وثبت بمحول آخر ورقة منه :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

ومن كتاب التدبير فى صناعة التسفير باب فى الحض على تعليم الصنعة .

ولما كانت الصنعة أشرف شيء يتعلمه الانسان بعد علمه بمسائل دينه ومحابل[2] شريعته وجب أن نصدر هذا الكتاب بباب الحض على الصنعة كى يحرص الطالب على الطلب ، ويكون له فيه عمل معيشته أجمل السبب ، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ قالوا هى الصناعات ، وقال تعالى ﴿ وأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ فى قصة نوح عليه السلام ، وكانت صناعة السفينة ، ففى هذا دليل على الحض فى تعليم الصناعة ، وقد روى أن إدريس عليه السلام أول من ضرب المقص والإبرة ، وأول من خاط

---

(١) ورد هذا الباب بعد تمام النص فآثرنا أن نلحقه به حتى تتم الفائدة منه .
(٢) كذا .

الثوب ، فأول ما ينبغى للانسان أن يتعلمه بعد معرفته بدينه صنعة تكون عنده فإنه قد قيل لاحرز كالطلعة ولا كنز كالصنعة ، وإذا لم يكن للانسان فائدة من علم أو أدب فلا فرق بينه وبين العامة ، وإذا كان من العامة ولم تكن عنده فائدة من صنعة يلجأ إليه[1] فى بعض الخاصة فلا فرق بينه وبين الحيوان الذى لا ينطق ، لأن الإنسان إنما سمى ناطقاً بين سائر الحيوان لاحترافه وصنعته وتحرفه[2] بحول الله ومعرفته بالله تعالى ، ولا يعرف الله تعالى من ليس له علم فى دين ، فإذا لم تكن له فائدة من هذين فلا فرق بينه وبين الحيوان الذى لا ينطق ، وقد قال خالد بن صفوان : إن الناس ثلاثة أصناف ، صنف علماء ، وصنف أدباء ، وصنف حنطاء[3] ، ووجوه يغلون الأسعار ويضيقون الطريق ، ألا ترى أن الناس إنما يتحملون من الحيوان الذى لا ينطق ما له حرفة مثل البازى والكلب الضاريين للصيد ونحوهما فمن الواجب على الإنسان أن يبتغى علما وأدبا ثم لا غنى له .

---

(١) كذا .
(٢) كذا .
(٣) يعنى أصحاب حنطة ، والحنطة فى اللسان العامى المغربى : الحرفة .

فهـرس

انتهى

فترة مضطربة في تاريخ غرناطة

كما يصفها شاهد عيان

مرت مملكة غرناطة الإسلامية فى الفترة التي بين ٧٦٠ — ٧٦٣ ﻫ (١٣٥٩—١٣٦٢م) بأزمات سياسية واقتصادية شديدة جعلتها عرضة لانقلابات متعددة .

وحسبنا أن نشير إلى هذه الفترة القصيرة التى لم تتجاوز الثلاث سنوات ، قد عانت فيها هذه المملكة الصغيرة ثلاثة انقلابات سياسية متتابعة ذهب ضحيتها عدد من الملوك والقادة والأمراء .

حدث الانقلاب الأول فى ٢٨ رمضان ٧٦٠ ﻫ (٢١ أغسطس ١٣٥٩ م) وانتهى بخلع سلطان غرناطة أبى عبد الله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصر (محمد الخامس الغنى بالله) ونفيه إلى المغرب وتولية أخيه أبى الوليد اسماعيل الثانى .

أما الانقلاب الثانى فقد حدث فى ٨ شعبان ٧٦١ ﻫ (٢٤ يونيو ١٣٦٠م) وانتهى بقتل السلطان أبى الوليد اسماعيل بن أبى الحجاج يوسف بن نصر واعتلاء قاتله عرش غرناطة . والقاتل هو أحد أبنـاء عمومته وزوج شقيقته ويدعى الرئيس أبا عبد الله محمداً السادس (الغالب بالله) وتسميه المصادر الإسبانية المعاصرة بأبى سعيد البرميخو Bermejo . وهذه الكلمة الأخيرة معناهـا باللغة الإسبانية اللون البرتقالى الضارب إلى الحمرة وذلك نسبة إلى لون لحيته وشعره[1] .

---

(١) انظر (P. Mariana: *Historia General de España* II, p. 221) انظر كذلك (ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٣٥٤) .

أما الانقلاب الثالث فينتهى بعودة السلطان المخلوع محمد الخامس الغنى بالله إلى عرشه بعد قتل السلطان البرميخو المغتصب وذلك فى ٢٠ جمادى الأولى سنة ٧٦٣ هـ (١٦ مارس ١٣٦٢ م) .

وأسباب هذه الانقلابات عديدة ومتشعبة ، بعضها تمتد جذوره إلى وباء الطاعون أو الموت الأسود الذى عم المشرق والمغرب فى منتصف القرن الثامن الهجرى أو الرابع عشر الميلادى وقد ذهب ضحيته فى مملكة غرناطة خلق كبير من العلماء والزراع والصناع فهلك الزرع والضرع وانتشرت المجاعات والأوبئة[١]، وانبرت أقلام الكتاب المعاصرين الغرناطيين تصف الداء والدواء دون جدوى[٢]. ولاشك أن هذه الاضطرابات الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة كان لها دخل كبير فى الفوضى السياسية التى حلت بالبلاد بعد ذلك .

أما السبب المباشر لهذه الانقلابات فيرجع إلى الحزازات الشخصية بين أعضاء الأسرة المالكة نفسها . فالمعروف أن السلطان الراحل أبا الحجاج يوسف بن نصر قد تزوج من امرأتين من جواريه وهما بثينة ومريم . فأنجب من الأولى محمداً وعيشه ومن الثانية اسماعيل وقيساً وعدة بنات تزوج إحداهن أمير من أفراد الأسرة وهو الرئيس أبو عبد الله محمد المعروف بأبى سعيد البرميخو . وكان اسماعيل أصغر من أخيه محمد بنحو تسعة أشهر غير أن أمه مريم حاولت أن تستغل حب السلطان لها فى أن تقيم ولدها اسماعيل وليا للعهد بدلا من أخيه الأكبر محمد ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وآل العرش بعد موت أبى

---

(١) انظر Charles Verlinden: *La gran peste de 1348 en Espagne. Contribution a l'etude de ses conséquences économiques et sociales. (Revue Belge de Philologie et d'historie, Bruelles 1938,* XVII p. 103.)

(٢) راجع على سبيل المثال الرسائل المعاصرة التالية : ابن خاتمة : تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد — نشر طه دنانه فى F. Gesch. Der Mediz., t. XIX p. 38 sqq. ابن الخطيب : منفعة السائل عن المرض الوافد . نشر مولر فى : (Műller: *Sitzungsberichte Der Konigl Bayer. A. Kud. Der Wiss. Philos. Philol.* Kl. 1863.)

كذلك كتب الشقورى رسالة فى هذا الوباء لا تزال مخطوطة بالأسكوريال رقم ١٧٨٥

الحجاج يوسف إلى مستحقه الشرعى وهو السلطان محمد الخامس (الغنى بالله)[١] .

ولقد حاول هذا السلطان الجديد أن يرضى إخوته وزوجة أبيه مريم بشتى الوسائل[٢] ، غير أن طموح هذه المرأة والأموال التى تركها لها زوجها السلطان الراحل ، دفعاها إلى التآمر سراً مع زوج ابنتها البرميخو للتخلص من السلطان محمد وتولية ابنها اسماعيل مكانه ، وكان اسماعيل بدوره يضمر لأخيه محمد عداوة وحقداً بسبب زواجه من ابنة عم لهما كان اسماعيل يحبها ويريدها لنفسه[٣] .

وأخيراً نجح المتآمرون فى الوثوب ليلا على قصر الحمراء وإقامة اسماعيل سلطانا على غرناطة ، غير أنهم لم ينجحوا فى قتل السلطان محمد الخامس لأنه كان مقيما وقتئذ فى جنة العريف وهى الحديقة المجاورة للقصر الملكى . فحينما سمع بضوضاء المتآمرين وجلبتهم ، ركب جواده وفر إلى مدينة وادى آش وتحصن بها ثم رحل بعد ذلك إلى مدينة فاس حيث أقام فى كنف سلطان المغرب أبى سالم ابراهيم المرينى[٤] .

وأول عمل قام به سلطان غرناطة الجديد اسماعيل الثانى هو القبض على أنصار أخيه السلطان المخلوع ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم ، كما استحل لنفسه الزواج من امرأة أخيه التى كان يحبها بعد أن أوعز إلى بعض الفقهاء تلفيق الفتاوى التى تقضى بصحة طلاقها من زوجها السابق[٥] .

---

(١) انظر E. Lafuente y Alcántara: *Inscripciones árabes de Granada* p. 63 ، والكتاب يعتمد على ما كتبه فى هذا الصدد المؤرخ المالقى المعاصر أبو الحسن النباهى الجذامى فى كتابه نزهة البصائر والأبصار . (وهو مخطوط بالأسكوريال رقم ١٦٥٣) . راجع كذلك ابن خلدون : كتاب العبر ج ٧ ص ٣٠٦ .

(٢) ابن الخطيب : اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص ١٠٨

(٣) راجع النص المنشور فى آخر هذا الكلام .

(٤) راجع التفاصيل فى ابن الخطيب : الاحاطة ج ٢ ص ١٢ . طبعة القاهرة .

(٥) راجع النص .

واستمر حكم هذا السلطان ما يقرب من عام واحد وكان عمره وقتئذ قد أناف على العشرين عاما . ثم لم يلبث ابن عمه وزوج شقيقته أبو سعيد البرميخو أن طمع فى ملكه فقتله كما قتل شقيقه الأصغر قيسا ومربيه عباداً واستأثر بعرش غرناطة لنفسه . والنص المنشور فى آخر هذا الكلام يعطينا لأول مرة معلومات جديدة مفصلة عن هذا الانقلاب الثانى الذى انتهى بقتل اسماعيل وتولية البرميخو . والنص عبارة عن قطعة أو فصل من كتاب « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » للوزير الغرناطى لسان الدين ابن الخطيب[١] . هذا وقد كتب تحت عنوان « فصل فى إدالة الدولة بالأندلس ثانية » . وقد سبق لى الكلام عن هذا الكتاب ومؤلفه فى مناسبة أخرى[٢] ، وحسبى أن أشير فى هذا الصدد إلى أن كاتب هذا النص كان معاصرا ومشاركا لأحداث هذه الانقلابات ، اضطهده السلطان اسماعيل وسجنه وصادر أمواله لأنه كان من وزراء أخيه السلطان المخلوع محمد الخامس ، ثم شفع فيه سلطان المغرب أبو سالم المرينى ، فأطلق سراحه وسمح له بالعبور إلى المغرب[٣] .

ومن هذا نرى أن كلام ابن الخطيب عن أحداث هذه الفترة وشخصياتها ، له قيمته التاريخية بحكم كونه شاهد عيان لها ، وإن كنا فى الوقت نفسه نلاحظ فى أسلوبه تحاملا مقصودا على رجال ذلك العهد ، وهذا أمر طبيعى من رجل موتور منهم .

---

(١) هذا النص يشغل اللوحات رقم ٣٠ إلى ٣٨ ، ٦٦ من كتاب نفاضة الجراب لابن الخطيب ، وهو مخطوط بالأسكوريال رقم ١٧٥٥

(٢) راجع مختار العبادى : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس (من مطبوعات كلية الآداب بجامعة الاسكندرية رقم ١٢) .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣٠٦ ؛ المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ٢٧ — ٢٨ ، أزهار الرياض : ج ١ ص ٢٠٧

يبدأ النص بالكلام عن ضعف السلطان اسماعيل وخنوثته وسوء سيرة أمه مريم . ثم يشير إلى تنكر هذا السلطان لقريبه أبى سعيد البرميخو رغم أفضاله عليه فى استخلاص العرش له ؛ ثم يصف حوادث خلع اسماعيل وكيف قتله البرميخو وأخذ البيعة لنفسه .

ويتحدث ابن الخطيب بعد ذلك عن وزير السلطان المقتول محمد بن أبى الفتح (العقرب الردى) وابن عمه رئيس الشرطة العليا ابراهيم بن أبى الفتح (الأصلع الغوى) ، فينعتهما بأشنع الصفات شعراً ونثراً ؛ ثم يشير إلى أن السلطان البرميخو قد أقرهما فى عملها وجدد لهما الوزارة والشرطة ثم عاد فانقلب عليهما وأمر بإعدامهما فى البحر غرقا .

وأخيراً يتكلم ابن الخطيب عن كبار الشخصيات الذين رفضوا التعاون مع السلطان المغتصب وفضلوا الفرار إلى المغرب أو إلى الممالك المسيحية المجاورة ، ومن هؤلاء اللاجئين السياسيين الأمير أبو الوليد اسماعيل بن نصر عم السلطان محمد الخامس وصهره . وقد عاش هذا الأمير فى بادىء الأمر سجينا فى عهد أخيه السلطان أبى الحجاج يوسف ، فلما ولى السلطان محمد الخامس أفرج عن عمه وتزوج ابنته . وحينما اغتصب اسماعيل العرش من أخيه عمد إلى إصدار الفتاوى التى تبيح له الزواج من امرأة أخيه كما حاول أن يسترضى والدها فنقله فى احتفال كبير إلى أحد القصور المصادرة من ممتلكات ابن الخطيب ؛ على أن السلطان اسماعيل لم تتم سعادته المنشودة إذ لقى مصرعه قبل أن يزف إلى عروسه ؛ ولم يجد عمه وسيلة بعد ذلك سوى الفرار إلى المغرب خوفا على حياته .

ومن الفارين من غرناطة فى ذلك العهد أيضاً الأمير المغربى يحيى بن عمر ابن رحو بن عبد الحق شيخ الغزاة المغاربة بغرناطة . وهذه الوظيفة كانت لها مكانة مرموقة فى مملكة غرناطة ، ولا يشغلها إلا أمراء الأسرة المالكة من بنى

عبد الحق ملوك فاس لأنهم « يعسوب زناته »[1]. والشياخة أو القيادة العامة لهذه القوة المغربية كان مقرها العاصمة غرناطة ، ويتفرع منها قيادات فرعية فى مالقة ووادى آش ورنده[2] . ومن يتصفح تاريخ مملكة غرناطة ، يرى أن هؤلاء القواد المرينيين قد لعبوا دوراً كبيراً فى السياسة الغرناطية إلى درجة التدخل فى إقامة السلاطين وعزلهم[3] . وقد استمر منصب شيخ الغزاة هذا قائماً فى غرناطة حتى عام ٦٧٥ هـ (١٣٧٤ م) حينما ألغاه السلطان محمد الخامس فى سلطنته الثانية وتولى قيادة الجنود المغاربة بنفسه[4]. ومن المعروف أن فرق الغزاة هذه ، كانت من الفرسان المغاربة المتطوعين فى الجيش الغرناطى . وقد اشتهرت بنظام وتكتيك حربى خاص عرف باسم قبيلتهم زناته .

وقد انتشر هذا النظام الحربى الزناتى أو المغربى فى اسبانيا بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، ومثال ذلك قول ابن الخطيب فى مدح أحد أمراء غرناطة بقوله « وكان زناتى الشكل والركض والآلة »[5] .

كذلك يشير أيالا Ayala فى حولياته إلى أن ملوك قشتاله اتخذوا فرقا خاصة من الفرسان يحاربون على طريقة الزناتيين الخفيفة الحركة ، وكانوا يعرفون باسم Jinetes ، ويلاحظ أن هذا الاسم مشتق من لفظ Zenete أى زناته . ولا يزال لفظ Jinete مستعملا إلى اليوم فى اللغة الاسبانية بمعنى فارس .

وكان الأمير يحيى بن رحو بن عبد الحق شيخا للغزاة فى غرناطة أيام السلطنة الأولى لمحمد الخامس وكان كما يبدو من النص رجلا واسع الثراء وحجة فى اللغة الزناتية والأنساب البربرية .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٧ ص ٣٨

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة فى تاريخ غرناطة (نسخة الأسكوريال) لوحات ٢٩٥ — ٢٩٦

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة فى تاريخ غرناطة (نسخة الأسكوريال) ٢٩٤ — ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، ٣٩٩

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣٧٩ ؛ المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٤٢٧

(٥) ابن الخطيب : الاحاطة لوحة ٣٦٥

فلما اعتلى اسماعيل عرش غرناطة ، عزل الأمير يحيي من منصبه لأنه كان من أنصار أخيه المخلوع ، وولى مكانه أميراً مرينياً آخر وهو إدريس بن عثمان ابن أبى العُلا بن عبد الحق ، وكان أبوه يشغل هذا المنصب من قبل . وشعر يحيي بالخطر يهدد حياته ، فعمد إلى الهرب من غرناطة ومعه أتباعه البالغ عددهم أكثر من مائتى فارس . وعلم سلطان غرناطة بهروبه فأرسل فى أثره فرقة من جيشه استطاعت أن تلحق به بنواحى إلبيرة . وهناك دارت بين الفريقين معركة عنيفة أصيب خلالها الأمير يحيي بجراح بليغة ، وقتل عدد من أتباعه ، ولكنه تمكن من الإفلات إلى داخل الحدود القشتالية عند قلعة يحصب أو قلعة بنى سعيد Alcalá la Real . وحينما علم ملك قشتالة بيدرو القاسى Pedro el Cruel بقدومه ، رحب بمقدمه وأنزله ضيفاً عليه بمدينة قرطبة ، نظرا للصداقة التى تربط هذا الملك بالسلطان المخلوع محمد الخامس . وأقام يحيي فى هذه المدينة الجميلة الذكريات إلى أن التأمت جراحه ، وفى عام ٧٦٢ (١٣٦١م) رحل إلى البلاط المرينى بفاس كمستشار للسلطان أبى سالم .

كذلك يشير ابن الخطيب إلى فرار زعيم غرناطى يدعى ابراهيم السَّرَّاج إلى بلاط ملك قشتالة . ولا نعرف عن هذا الزعيم شيئاً ولكن يحتمل أن يكون من أسرة بنى السراج Abencerrajes المعروفة فى الأندلس . وبنو السراج ينتسبون فى الأصل إلى قبيلة قضاعة اليمنية ، وقد عهد إليهم الأمويون بحراسة سواحل اقليم بجانة Pechina ، ولهذا سمى هذا الإقليم بأرش اليمن أى الأرض الممنوحة إلى اليمنيين أو بنى سراج[١] . وقد ظهر اسم هذه الأسرة بوضوح فى

(١) انظر P. López de Ayala: *Crónicas de los Reyes de Castilla*, I, p. 337-338

انظر كذلك J. Oliver Asín: *Origen árabe de Rebato y sus homónimos*, p. 39-40

القرن الخامس عشر الميلادى حينما لعبت المنافسة بينهم وبين أسرة الثغريين دوراً خطيراً فى سياسة غرناطة فى تلك الحقبة[١] .

ولم تقتصر الهجرة على القادة والأمراء فحسب ، بل شملت أيضاً عدداً من العلماء والكتاب الغرناطيين ونخص بالذكر منهم المؤرخ الأديب لسان الدين بن الخطيب كاتب هذا النص ، وشاعر الحمراء عبد الله بن زمرك والشريف الأديب ابن راجح[٢] والقاضى الفقيه أبا الحسن النباهى المالقى[٣] ، والطبيب اليهودى الغرناطى ابراهيم بن زرزر[٤] . وكل هؤلاء التجأوا إلى بلاط أبى سالم المرينى ما عدا بن زرزر فقد خدم فى بلاط ملك قشتالة باشبيلية .

وفى المحرم سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م) هاجرت أسرة السلطان المخلوع محمد الخامس كى تلحق بعاهلها فى فاس ، وكانت مكونة من زوجته وابنه وبعض الجوارى ، ولم يسمح لهم السلطان المغتصب أبو سعيد البرميخو بحمل شىء من متاع الدنيا إلا الضروريات .

ولم يفت ابن الخطيب أن يشير إلى المحاولات التى بذلها فى شأنه سلطان المغرب لدى المسئولين فى غرناطة كى يفرجوا عن أمواله المصادرة . وفى ذلك يقول :

« وصدرت المخاطبة فى شأنى من بعض فصوله :

فإن كنتم تبخلون بماله فعرفونا بمقدار ثمنه ليصلكم من قبلنا » .

ثم يتناول ابن الخطيب شخصية الوزير محمد بن على بن مسعود الذى استوزره السلطان البرميخو ، فيصفه بالشذوذ والصرع والجنون وأن شخصيته لا

---

(١) راجع الحميرى : الروض المعطار ، نشر ليفى بروفنسال ، رقم ٣٧ حاشية ٤ انظر كذلك García Gómez: *Sobre los epitafios de los caballeros Abencerrajes*, Al-Andalus, vol. VII, 1942 fasc. II

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة لوحة ٨٢ ، المقرى : نفح الطيب ج ٨ ص ١٩٤ — ١٩٧

(٣) ابن الخطيب : نفاضة الجراب لوحة ٦٥

(٤) ابن خلدون : التعريف ص ٨٥

يمكن أن تقاس بمقياس منطق معقول ، ولهذا انقلب عليه سلطانه وأغرقه فى البحر كما فعل بسابقيه .

وأخيراً يتكلم ابن الخطيب عن السلطان نفسه أبى سعيد البرميخو ، الرأس المدبرة لهذه الانقلابات . فيتهمه بالضغط على رعاياه عن طريق زيادة الضرائب ، وإنزال جنوده فى دورهم ، كما يتهمه فى سلوكه الشخصى بالخروج عن حرمة السلطنة وهيبتها كسيره عارى الرأس مشمرا عن ساعديه ، مخاطبا العامة فى الطريق بصورة تثير الاشمئزاز . هذا إلى جانب تعاطيه للحشيش الذى انتشر فى أيامه حتى شمل الخاصة والعامة ؛ وهذه الحقيقة التى أوردها ابن الخطيب عن انتشار الحشيش فى غرناطة فى القرن الثامن الهجرى ، قد أيدتها المساجلات الشعرية التى دارت بين شعراء غرناطة فى ذلك العهد حول تفضيل الحشيش على الخمر . ومثال ذلك الشاعر الغرناطى ابن الوحيد (ت ٧١١ هـ)[١] فى قوله :

وخضراء بل لا تفعل الخمر فعلها ... لهـا وثبات فى الحشا وثبات
تؤجج نارا فى الحشا وهى جنة ... وتبدى لذيذ العيش وهى نبات

وهناك أبيات قيلت فى هذا المضمار أيضاً وتنسبها المراجع المغربية إلى الشاعر الغرناطى محمد الحجرى الرعينى المعروف بابن خميس (ت ٧٠٨ هـ)[٢] وإن كانت بعض المصادر المشرقية تنسبهـا للشيخ حيدر مكتشف نبات الحشيش بالمشرق[٣] ؛ ومن هذه الأبيات نذكر على سبيل المثال :

(١) ابن القاضى : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال ج ١ ص ٣٠٥ — ٣٠٦
(٢) ابن القاضى : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال ج ١ ص ١٦٣ — ١٦٤
(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٢٧ والشيخ حيدر المذكور متصوف مشرقى يقال إنه هو مكتشف هذا النبات .

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر معتقة خضراء لون الزبرجـــد
هى البكر لم تنكح بماء سحابة ولا عصرت بالرجل يوما ولا اليد
ولا عبث القسيس يوما بكأسها ولا قربوا من دنها نفس ملحد
ولا قول فى تحريمها عند مالك ولا حد عند الشافعى وأحمـــد
ولا أثبت النعمان تنجيس عينها فخذهـــا بحد مشرفى مهنـد
وفيها معان ليس للخمر مثلهـــا فلا تستمع فيها كلام المفنـــد
(ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود)

ولاشك أن الحشيش قد بدأ انتشاره فى المشرق ثم انتقل بعد ذلك إلى المغرب فى القرن الثامن الهجرى ؛ ويبدو أن المغرب الإسلامى كان فى مأمن من تلك الآفة حتى القرن السابع الهجرى ، والدليل على ذلك تلك الملاحظة التى أبداها الرحالة الغرناطى ابن سعيد المغربى حينما زار مصر فى ذلك الوقت ، إذ عاب على المصريين أكلهم للحشيشة مبينا أن أمثال هذه العادات القبيحة لا توجد فى بلاده[١] .

أما عن سياسة البرميخو الخارجية فقد عرضها ابن الخطيب عرضاً تاريخياً واضحاً لا نجده فى المصادر الأخرى المعاصرة . فيشير أولا إلى تحالف البرميخو مع ملك أراجون بدرو الرابع ضد ملك قشتالة بدرو الأول (القاسى) ، كما يشير إلى محاولة البرميخو حمل سلطان المغرب أبى سالم المرينى على حجز السلطان محمد الخامس عنده فى فاس ومنعه من العبور إلى الأندلس ، على أن يتبع هو الآخر سياسة مماثلة بالنسبة إلى أمراء بنى مرين المقيمين عنده فى غرناطة والطامعين فى عرش المغرب . وقد أثارت هذه السياسة غضب ملك قشتالة ، فعقد صلحاً مع أراجون كى يتفرغ لمحاربة البرميخو ، ثم ألح على سلطان

(١) المقرى : نفح الطيب ج ٣ ص ١١١

المغرب فى تسليمه السلطان محمد الخامس كى يتولى شد أزره فى استعادة عرشه وأرسل أساطيله وكبار قواده إلى الثغور المغربية للقيام بهذه المهمة . واضطر السلطان أبو سالم المرينى ، أمام تهديدات ملك قشتالة ، أن يضرب بوعود البرميخو عرض الحائط ، وأن يعمل بدوره على مساعدة السلطان محمد الخامس فى الرجوع إلى عرشه . فأمده بالأموال والرجال والأساطيل وودعه من فاس فى حفل كبير .

فصل فى ادالة الدولة بالأندلس ثانية

[٣٠] ولم يكد الرسول يتوسط سفره ، حتى أظل ما كان من استلحام سلطان الأندلس اسماعيل بن الأمير أبى الحجاج بن نصر ، الباغى على أخيه أحانه الله لسوء سيرته وشؤم مولده ، من رَبِيِّ مومسة وحبيس سجن لم يكسبه اعتبارا ولا خشية ، مضفور الوفرة بخيوط الإبريسم إلى عصعصه ، قد فَضَلَت من لحمه ضفيرة جَمَّة ذات عُقَدٍ مموَّهة ، شديد الخسَّة والتَّنزُّل ، يعكف وأمُّه العُشبة الناشئة فى المنبت السوء ، والأرومة الخبيثة على أسلاب المنكوبين ، وماعون المحرومين يتجاذبان آلة الغزل ، ودقيق الخرط ، ويمسحان بأكمامهما ما علاه من الشَّعَث ، ويختبران بألسنتهما قوى المركَّبات . وبرز إلى الجو من قفص العقلة ملقيا بيده فى مساقط المثجنة[١] والتخلف ، غير مستتر بالقاذورات ، ولا مُوَرّ بأخابث الشهوات . وغضَّ بمكان ابن عمه[٢] مولاه لغة وعرفا الذى أوطأه السَّنام والذِّروة ، واستخلص له المُلك من لَهاة اللَّيث ، واستنزله من سُكاك الجو ، فتجهَّم له ، وانفرد بالخالص دونه ، وشرع فى القبض عليه لو وُفِّق ، فأقصر المذكور مليا مرضيا إياه بانقباضه ، ومتمكنا من استجماعه آخذا صفقة سر أخيه[٣] .

---

(١) الماء الراكد المر الملح .
(٢) يقصد الرئيس أبا سعيد البرميخو .
(٣) كذا فى الأصل .

خلع اسماعيل[١]

وفى زوال يوم الأربعاء ثامن شعبان ، كبس مثواه ، المضاع القُفل ، الخامل المَسْلحة ، فتخطاه بالرجال بعد أن ألزم حفظه ، وانحدر من الدار العليا خَلَل الدوح الأَشِب ، والمسالك المفروشة إلى الدار السفلى ذات الصرح الهائل ، فاقتحمها ، ولجأ الحائن[٢] إلى الذروة فى طائفة من الأحداث الزغب الحواصل ممن لا يُجلِّى فى الكريهة ، ولا يُغنى فى الجُلَّى ، ولا يعمل بالسلاح ، إلا ما كان من علج أبيه المسمى عبادا ، المعين على حياته لتهذيبه وتأديبه بحكم الفرس وسياسة يونان ومكارم الدولتين ، من خبيث جماعة ، سامرى السجية ، معدن من معادن الجهل ، مثل فى زمانة[٣] المروءة ، على فروسة وثقافة وخفوف إلى العيهات . يحمل السيف بين يديه ، مبان السبابة ، ظاهر الطيرة ، احتجن[٤] من الصامت[٥] ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، لم يفرض الله فيه زكاة ولا عين فيه مواساة . وصاح صائحهم بالناس ، ورددوا هاء الاستغاثة ، إنك لا تشكو إلى مصمت . ثم حملوه على الإلقاء باليد ، لما عملت الصواقر[٦] فى الأبواب جنوحا إلى الخلع والعودة إلى كسر البيت . فنزل وتقبض عليه [٣١] فأوسعه ما شاء من تقريع وخزى ، ومؤلم عتب ، ثم أمر بثقافه بالطبق[٧] ، وأوعز إلى تاليه بالاجهاز عليه ، فتعاورت النصال منه مطية امرىء

(١) كتبت هذه العبارة بخط كبير على الهامش .
(٢) حان فلان أى هلك أو وقع فى المحنة وحرم التوفيق .
(٣) الزمانة العاهة وتعطيل القوى . يقال فلان زمن المروءة أى ضعيفها .
(٤) احتجن المال أى ضمه إلى نفسه واحتواه .
(٥) الصامت : الذهب والفضة .
(٦) الصاقور فأس تكسر بها الحجاره .
(٧) الطبق أو المطبق : السجن تحت الأرض .

القيس ، وحز رأسه معزرا برأس صنوه قيس ، وألحق بهما عبـاد وابنه ، وماردان من أخابث الخراب ، فلم تبك عليهم سماء ولا أرض ولا حق فيهم غير هذا . ووزيره الحر الأمين محمد بن أبى الفتح ، المواصل للجشأ من خوانه ، المنعم المعا من سريط جفانه ، المغرى اليد باكتساح ذخيرته ، المحشو الكم بدسائس الرشا الجانية على ماله ، وابن عمه العضرفوط[١] ، ثور النقل وبالوعة النبيذ ، الباكى خَزَّ خِلَعه من روحه المتظلمة بكنف من أنفاس حُشِّه ، وثقة بابه المورورى[٢] ، الموطوء العقب بعزه ، والأعصم المؤمر على التيوس بصكه ، والأمير المعتقد كرسى الشرطة العليا[٣] بتنويهه . وسكك القلعة تغص بأتباعهم ، وتضيق عن زَرْعتهم[٤] ، وطائفة الوثوب بالحائن لا تعادل معشار جملتهم بين كاسع فى كسره ، ناظر من خُرت[٥] غلقه ، مرتقب للاجهاز على سلطانه ، جاعل دبر أذنه مسمع صراخه ، واثق لمكان عهد الخَتْر[٦] بانسحاب عزه واتصال جاهه ، من غير إحنة نشأت بينهم وبين ذيالك للحرمان ، ولا تقصير عن رسم ، ولا استئثار بفائدة دونهم . وحسبك من كرم طباعهم ووفاء عهودهم ودسائس عروق أحسابهم ، وطيب مراضعهم . ولما تم الأمر خرجوا

---

(١) لعلها العضروط أى اللئيم أو الأجير على طعام بطنه ، أو لعها العذفوط وهى دويبة بيضاء تشبه بها أصابع الجوارى .

(٢) نسبة إلى مورور Mauror وهى كورة متصلة بأحواز مدينة قرمونه وتسمى الآن La Churra وهى مشهورة بالسقائين الذين يحملون منها الماء لبيعها فى مدينة غرناطة . انظر Simonet: *Descripción del Reino de Granada* p. 197 راجع كذلك المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٣٠٧ ، فرحة الأنفس ص ٢٤ ، الروض المعطار ص ١٦٢

(٣) وردت فى المصادر الأندلسية اشارات عن الشرطة العليا والشرطة السفلى . ويرى المؤرخون أن الشرطة العليا هى التى تتولى النظر فيما يقع من جرائم من رجال الطبقة العليا فى الدولة . أما الشرطة السفلى فهى التى تختص بجرائم عامة الناس .

(٤) زرعتهم أى بنيهم ولعلها وزعتهم أى حراسهم .

(٥) الخرت الثقب وجمعها خروت .

(٦) الغدر .

من أحجارهم يرون البعد عن الدخلة ، والله يبلو سرائرهم ، إذ يبيتون ما لا يرضى من القول إلا ما كان من التيس الموروى فإنه جاهر بالختر ، وآزر الدائل ، وفتح له باب السلطان المحدود ، وأمكنه من نفسه ، فانطلقوا يجعجعون فى أعقاب الفتكة ، وينتضحون(١) بالدماء الجامدة ، ويتحملون بالسلاح المخضوب. وأخذوا مراكزهم بين يديه كما تعود قطع الشطرنج إلى بيوتها من صفرته ، ولم يعلموا ما خبأ الله لهم على يده من الأخذة الرابية(٢) ، والنكبة القاضية ، فلا بالدنيا استمتعوا ولا بالذمام تمسكوا ، ولا بحبل الله اعتلقوا ، ألا فى الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . فشاهت(٣) منهم وجوه الكلاب ، وسبال(٤) التيوس ، وهمم البغايا .

لا بأس بالقوم من طول ومن عِظَمٍ   جسم البغال وأحلام العصافير
ألا طعانَ ولا فرسانَ غادية   إلا بحسوكم عند التنانير

فكان من اجتثاث شجراتهم الخبيثة من فوق الأرض ، وهُوِيِّهم فى دركات سخط الجبار جل جلاله ما يأتى به الذكر إن شاء الله .

وأطل صاحب الأمر على الناس من رواحة البهو غابطا إياهم بنفسه ، مقررا رأيهم فى إراحتهم من تخلفه ، وطرح رأسه فاحتمله بعضهم صوبا بكامل مِغْلاقه ، وأخذ البيعة لنفسه فلم يختلف عليه أحد ، وعلك الأمر منه . . .(٥) وأشاع الخلع ، وأقر أمر البطانة على غرة بوصل استكفاء ابراهيم بن أبى الفتح ،

(١) انتضح من كذا تبرأ وتنصل منه .
(٢) العقوبة الشديدة .
(٣) شاهت أى قبحت وعبست .
(٤) السبالة ما على الشارب من الشعر أو مقدم اللحية وجمعها سبال .
(٥) غير واضحة ورسمها أشد لحس .

الأصلع الغوى ، وجدد وزارة ابن عمه محمد بن ابراهيم بن أبى الفتح ، العقرب الردى ، فنكأ ذيالك المشئوم القرح بالقرح ، وسمل فى باب السفق عنده العيون وبقر البطون ، [٣٢] وسولت له نفسه غدره إذ كان غير ما جرى ، يعده ويمنيه ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، لمكان مالقة من مال الخيانة ووقوع القحط فى رجال الدولة .

لقد هزلت حتى بدا من هزالها سلاها وحتى استامها كل مُفْلِسِ

وما ظنك[1] برجل مجهول الجد ، موصوم الأبوة ، قَلِع[2] لا يحسن المحاولة ، ولا يلزق بالصفوة ، كثيف الحاشية ، جلده على سوء الطوية ، تنور خبز ، وبركة مرقة ، وثعبان حلواء ، وفاكهة معى ، فى شح النفس ، متهالك فى مسترذل الطمع ، يبز عليه العضرفوط ابن عمه بسذاجة زعموا مع كونه قبيح الشكل بشيع الطلعة[3] ، واتصل بى اقراره إياه على رسمه فقلت :

قمتَ بأمر أنت أهـل له فلتأت ذاك الأمر من بابه
لا تُدْنِ من فلكك شخصا يرى بأنه فى النـاس أولى به
وعنده مال ومن خلفـه أيدٍ تعلقن بأهـــدابه
لاسيما من دخلت أذنــه وانتفخت من تحت أثوابه
وخاب منه الملك فيما مضى وكان ينوى قطع أسبابه
قد أفسدت أقوال كهانه فكرته اليـــوم وحسابه
ينظر فى المرآة من وجهه بين مواليــــه وأحزابه

(١) نقل المقرى الأسطر الأربعة التالية فى كتابه نفح الطيب ج ٧ ص ٦٦ تحت عنوان « وصف الوزير الذى استوزره السلطان اسماعيل بن الأحمر الثائر على أخيه » ، والوزير هو ابراهيم بن أبى الفتح الأصلع الغوى .

(٢) القلع الرجل البليد الذى لا يفهم والذى لا يثبت فى البطش ولا على السرج .

(٣) توجد كلمة « الغبى » على الهامش ويجوز أن يكون وضعها بعد كلمة ابن عمه .

عروس مُلك طالما أُعملت — فى عَقده أرجل خطابه
فهمُّه استبدال قواده — وفكره استنخاب كتابه
إن نام كانت حُلم أفكاره — أو قام كانت نصب محرابه
ينقدُك العيبة مهما خلا — ما بين أهليه وأصحابه
ويجذب الناس إلى نفسه — بخادع القول وخلاَّبه
كان به إن لم تكن حازما — والوفد يبغى إذن حجابه
والآن قد هابك فاحذر فما — يبدأ فتكا غير هيابه
وقاطع الدولة مستقبل — فليستعذ من شر أوصابه
والله يكفيك شرور العِدى — لا يستعين العبد إلا به
والملك لم يقصر على أمة — وإنما الملك لغلابه
هذا ابن هود بعد إرث العلا — بان بنو نصر بأسلابه
لا يستلذ العيش ليث الشرى — حتى يذود الأسد عن غابه
وإن أضعت الحزم لم تنفلت — من ظفر الحين ومن نابه
لا تتهمنى إننى ممتل — من حكم الملك وآدابه
وعقلكَ الموهوبَ حَكِّمْهُ فى الـ — أحوالِ واشكُرْ فضل وهَّابِهِ
وكل من أذللته قبلها — عَلِّمْهُ بالملك وألقابه
لم يُرَ ملك فى زمان خلا — قام له رسم بأترابه
من قلت ياعم له مرة — ثق بتعاطيه وإعجابه
أو سيدى دام يرى سيدى — حقا له قمت بإنجابه

وفى العشر[١] الأول من رمضان تقبض على الوزير المشوم ، وابن عمه الغوى الغشوم ، فى ولد[٢] الغوى ، مرسل الضفيرة ، أبعد الناس فى مهوى

(١) نقل المقرى الفقرة التالية فى نفحه ج ٧ ص ٦٦ — ٧٠
(٢) فى نفح الطيب : وولد .

الاغترار ، يختال فى السرق[1] والحيلة[2] ، سم من سموم القوارير ، وابتلاء [٣٣] من الله لذوى الغيرة ، يروح نشوان العشيات ، يرقص بين يديه ومن خلفه عدد من الأخلاف يعاقرون النبيذ فى السكك الغاصة ، وولدى العقرب الردى بضده قماءة وقصفا وتقطبا ، تنبو عنهما العيون ، ويبكى منهما الخز ، كأنهما صمتا عند المحاورة ، وإظلاما[3] عند لألاء النادرة ، من أذلاء بنى النضير ومهتضمى خيبر ، فثقفا مليا ، وبودر بهما إلى ساحل المنكب[4] . قال المخبر ، فما رأيت منكو بين أقبح شكلا ولا أفقد صبرا من ذينك التيسين الحبقين[5] ، صلع الرؤوس ضخام الكروش ، مبهورى الأنفاس ، متلجلجى الألسنة قد ربت بمحل السيف من عنق كل جبار منهما شحمة أترجية[6] كأنها سنام الحوار[7] ، وافترت بطونهم عن سرر[8] كاسمعه الفرا[9] ، لا يثيرون دمعا ولا يستنزلون رحمة[10] ، ولا يمهدون عذرا ، ولا يتزودون من كتاب الله آية . قد طبع الله على قلوبهم ، وأخذهم ببغيهم ، وعجل لهم سوء سعيهم . وللحين أركبوا هم وجراؤهم[11] فى جفن غزوى تحف بهم المساعير من الرجال . واقتفى بهم إثر قرقورة تحمل حاجا

---

(١) فى نفح الطيب : السرف .
(٢) فى نفح الطيب : والحلية .
(٣) فى نفح الطيب : وأظلما عند اللألاء .
(٤) المنكب اسم عربى بمعنى الحصن المرتفع ويسمى اليوم Almuñecar أما الاسم القديم لهذا فهو Sexi وهو مرفأ ساحلى مرتفع فى جنوب شرق الأندلس بمقاطعة غرناطة . راجع (الإدريسى : نزهة المشتاق ص ١٩٩ ؛ الحميرى : الروض المعطار ص ١٨٦) .
(٥) الحبق : الرجل الجاهل الذى لا خير فيه .
(٦) الأترج والأترنج نوع من أنواع الفاكهة من جنس الليمون .
(٧) الحوار ولد الناقة .
(٨) السرة التجويف المعهود فى وسط البطن وجمعه سرات وسرر .
(٩) الفرأ والفراء حمار الوحش وجمعه أفراء وفراء .
(١٠) العبارة السابقة ساخطة فى نفح الطيب .
(١١) الجرو صغير كل شيء وغلب على ولد الكلب والأسد والمقصود هنا أولادهم .

إلى الإسكندرية تورية بالقصد . فلما لججوا فى البحر[١] قذف بهم فى لجه بعد استخلاص ما ضبثوا[٢] به . وتلكأ الأصلع الغوى فأثبت بجراحة أشعر بها هديه ، واختلط العقرب الردى فنال من جناب الله سخطا وضيقا تعالى الله عن نكيره ، فكان فرعون هذا الزمان جبروتا وعتوا وميتة ، عجل الله لهم العذاب وأغرقهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، فسبحان من لا تضيع الحقوق مع عدله ، ولا تنفسح الآماد مع منازعته رداء كبريائه مرغم الأنوف ، وقاطع دابر الكافرين . وفى ذلك أقول مستريحا وإن لم يكن — علم الله — من شأنى ، ولا تكرر فى ديوانى :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه　　ولكن من يبصر جفونك يعشق

ومن أمثالهم : من استغضب فلم يغضب فهو حمار . والله يقول : ومن أصدق من الله قيلا[٣] ؛ وجزاء سيئة سيئة مثلها ؛ والعفو أقرب للتقوى ؛ والقرب والبعد بيده سبحانه .

وصدرت هذه الكلمة لحين تعرف إجلائهم فى الجفن إلى الإسكندرية ، وبعد ذلك صح هلاكهم :

كن من صروف الردى على حذر　　لا يقبل الدهر عذر معتذر
ولا تعول فيه على دعة　　فأنت فى قلعة وفى سفر
فكل رى يفضى إلى ظمأ　　وكل أمن يدعو إلى غرر
[٤]وكل حى فالموت غايته　　وكل نفع يدنى إلى ضرر

(١) ساقطة فى نفح الطيب .
(٢) ما ضبثوا به أى ما تشبثوا به .
(٣) فى نفح الطيب قليلا .
(٤) هذا البيت ساقط فى نفح الطيب .

كم شامخ الأنف ينثنى فرحا ... بال عليه زمـــانه وخرى

قل للوزير البليد : قد ركضت ... فى ربعك اليوم غارة الغير

يا ابن أبى الفتح نسبة عكست ... فلا بفتـح أتت ولا ظفر

وزارة لم يجد مقـــلدها ... عن شؤمها فى الوجود من وزر[1]

فى طالع النحس حزت رتبتها ... وكل شىء فى قبضة القدر

أى اختبـار لم يأل نصبته ... فى جسد للنحوس أو نظر

بات له المشترى على غبن ... وأحدقت[2] فيه قرصة القمر

يا طللا ما عليه من عمـل ... يا شجرا ما لديه من ثمـر

يا مفرط الجهل والغباوة لا ... يحسب إلا من جملة البقر

يا دايم الحقد والفظاظة لا ... يفرق ما بين ظـالم وبرى

يا كمد اللون ينطفى كمدا ... من حسد يستطير بالشرر

يا عدل سرج يا دن مقتعد ... ملآن من ريبة ومن قذر

يا واصلا للجشاء ناشية الـ ... ليل ورب الضراط فى السحر

من غير لب ولا مراقبـة ... لله فى مورد ولا صـــدر

يا خاملا جاهه الفروج يرى ... صهر أولى الجاه فخر مفتخر

كانوا نبيطاً فى الأصل أو حبشاً ... ما عنده عبرة بمعتـــبر

يا ناقص الدين والمروءة والـ ... عقل ومجرى اللسان بالهـذر

يا ولد السحق غير مكتتم ... حديثـه وابن فاسد الدبر

يا بغل طاحونة يدور بهـا ... مجتهد السير مغمض البصر

فى أشهر عشرة طحنتهـم ... فيا رحى الشؤم والبوار دُرِى[3]

---

(١) الوزر بفتح الواو والزاى ، الملجأ .

(٢) فى نفح الطيب : وأحرقت .

(٣) تحوير من : دورى .

والله ما كنت يا مشوم ولا أنت سوى عرة من العرر
ومن أبو الفتح فى الكلاب ؟ وهل لجاهل فى الأنام من خطر ؟
قد ستر الدهر منك عورته وكان لليوم غير مستتر
حانوت بريمشى على فرس[1] وثور غرس يختال فى حبر[2]
لا منة تقتنى[3] لمعترك ولا لسان يبين عن خبر
ولا يد تنتمى إلى كرم ولا صفاء يريح من كدر
عهدى بذاك الجبين قد ملئت غضونه الغبر بالدم الهدر
عهدى بذاك القفا الغليظ وقد مد لوقع المهند الذكر
أهدتك للبحر كف منتقم ألقتك للحوت كف مقتدر
يا يتم أولادك الصغار ويا حيرتهم بعد ذاك فى الكبر
يا ثكل تلك الصماء أمهم وظاعن الموت غير منتظر
ولله لا نال من تخلفه من أمل بعدها ولا وطر
والله يامسحقان[4] لا انتقلت رجلك منها إلا إلى سقر
ألحقك الله بالهوان ولا رعاك فيمن تركت من عرر
ما عوقب الليل بالصباح وما تقدم البرق عارض المطر

واستوزر من الأحداث محمد بن على بن مسعود عصبيه من التيس المورورى لصيده فى مرمي كَبَّتْهِ ، وضربه على الرفق المشيعة فى مرضاته ، فقام منه على رأسه ، مجنون أحول العين وحشى النظرة ، يظن به الغضب فى حال الرضا ،

---

(١) فى نفح الطيب : « حانوت بزيمشى على فرش » .
(٢) الحبرة ملاءة سوداء تلبسها النساء إذا خرجن من البيوت وجمعها حبرات وحبر .
(٣) فى نفح الطيب : تتق .
(٤) فى النفح : لا مسخقان .

يهيج به المرار[١] فيمكث[٢] زمانا خلف كلة[٣] مرقده ، يدخل إليه وعاء الحاجتين خوفا من إصحاره إلى فضاء منزله ، وتوحشه من أهله وولده إلى أن تضعف ثورة[٤] المرة فيخف أمره . قد باين زوجه مع انسحاب رواق الشبيبة ، وتوفر داعية الغبطة لحلف جرة الوسواس السوداوى ، فنستدفع بالله شر بلائه . فاستعان منه برأى الفضل بن سهل ويحيى بن خالد وأمثالها[٥] ، تدارك الله رمق الإسلام بلطفه[٦] ، وأقر كاتب الحائن لانحطاطه فى هواه ومناسبته المجلس الدينى حلف الخمول وملعب الأوغاد ، معزرة بخطابة المنبر [٣٥] يخرج إليها من خلوة الاستعداد ، ويراعه دام من النعم المعصومة برواق الإسلام ، شعث لجوس خلال الديار وانتهاب الأموال ، قد أعمل فى سبيل الشمات التأنق السخيف والسجع الضعيف ، ويردد الإذن فيما يجر تحكم الشر وتمهيد سبيل الظلم أئمتكم شفعاؤكم .

وقدم للقضاء شيخنا القاضى أبا البركات الممتحن بالدنيا على الكبرة والغنا ، لطف الله به ونظر إليه بعين رحمته .

وفى يوم الكائنة الأمير عم الحائن وسميه اسماعيل بن أمير المسلمين أبى الوليد ابن نصر ، المتصل الثقاف مدة أيام أخيه[٧] فى خفارة الأجل ، وفراشه قطع ، وظله حسام صلت يهم به فى اليوم مرات لحراسته إلى أن ملك[٨] ، فصرف

---

(١) المرار هى الصفراء أو السوداء .
(٢) فى نفح الطيب : فيكمن .
(٣) الكلة : الستر الرقيق يتوقى به من البعوض .
(٤) فى نفح الطيب : سورة .
(٥) يشبهه بوزراء المشرق المشهورين على سبيل الفكاهة .
(٦) إلى هنا تنتهى الفقرة التى نقلها المقرى فى نفحه .
(٧) يقصد السلطان أبا الحجاج يوسف بن نصر المتوفى سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م) .
(٨) أى إلى أن ملك السلطان محمد الخامس الغنى بالله .

إلى شلوبانية[١] بإشارتى مباحا له التصرف خارجها ، مبوأ منزل السلطان مسوغا الجم من مستخلصها ، فصلحت حاله ، وعقد السلطان بزيجة معه الصهر على بنته . فلما أزفت الآزفة وتصير لأخيه[٢] الأمر استقدمه فى يوم أغر محجل برزت فيه أم[٣] السلطان بمن لف لفها من حريمهم وأذيالهم بمالا فوقه من الزينة : مطايا فارهة ، وحكمات[٤] مثقلة ، وولايا[٥] مذهبة ، وقبايا مدبجة ، وأنزل بدارى الرخامية الكائنة بزقاق الرؤساء من المدينة . وقد روسل السلطان زوج البنت فى طريق انصرافه عن الأندلس مظنة إذعانه فى حل عقدة النكاح ، فتماسك ومطل الرسول إلى أن تجاوزنا حدود أيالتهم الفاسقة ، وتوفرت داعية المسرة من الدايل على بت عصمة أخيه والعقد عليها قصد النكاية والشمات ، إذ كانت شهوة قبلة فاترة فعسر ذلك لمكان العقد وقرب العهد ودنو الدار وامكان النفقة . وانتدب قاضيهم الشيخ المتراخى الدين والفك ، المنحل العصب والعقيدة المعرق فى العمومية ، المشهور بالرشوة الغريب الاسم والولاية[٦] ، وشيوخهم ؛ فلفقوا من خيوط العناكب شبهات تقلدوا بها حل العقد الموثق ، ديدنهم فى معارضة صلب الملة بالآراء الخبيثة بتحكم الوقاح منهم فى الحكم الذى نزل به شديد القوى ، على الذى لا ينطق عن الهوى ، بحسب شهوة تحكمه فى عزل أمه إيثارا للعاجل واسترابة بالوعيد ، ففسخوا النكاح ، وأحلوا محرم البضع للدايل وقد

---

(١) شلوبانية أو شلوبينية وهو تحريف للاسم القديم Salambina وتسمى الآن Salobreña وتقع على ساحل البحر المتوسط على مسافة قدرها ١٦ كـ. م. شرقى المنكب . (الروض المعطار ص ١٣٦) .

(٢) اسماعيل .

(٣) مريم .

(٤) الحكمة ما أحاط بحنكى الفرس من لجامه .

(٥) الولية البرذعة وجمعها وليات وولايا .

(٦) نقل المقرى هذه الفقرة فى نفحه ج ٧ ص ٧٠ وزاد عليها الأسطر التالية : ومفتيهم معدن الرياء والهوادة والبعد عن التخصص والحشمة والمثل فى العماه والطرف فى التهالك على الحطام ، المسخر فى بناء الحفيرة ، المستخدم فى دار ابنه أجيرا ، مختضبا بالطين ، مضايقا فى رمق العيشة . وحسبك به دليلا على الحياء وفضل النبوة ، فلفقوا . . .

تأذن الله بنسخه وأجرى دمه نقداً قبل دفع نقده سبحانه حكم الحكام وقاهر الظلام ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا[١] . وأدرك فارا بأحواز مالقة ، فتقبض عليه وأزعج فى البحر إلى سبتة مظللا بصدقة كان يفشيها ، من رجل مرزأ[٢] قد سما مزاجه لمطاولة الاعتقال ، دمث بعيد من الشر ، ملازم لكسر البيت ، ظاهر المروة والحشمة ، أنيق الفرش والآنية ، فايق الطعام ، من أهل النبل على عدم الحنكة . فاستقر بالباب السلطانى خِدْنَ[٣] عافية ، ومجتنبا فضول القول والعمل [٣٦] كان الله له .

وفى هذه الأيام اتصل الخبر بما كان من عزله عن إمارة الجند المغربى قطب ثفالها[٤] ، وربان موكبها يحيى بن عمر بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق ، المرهف الجوانب الذلق الحد[٥] ، المستولى على مدى الحنكة ، العريض النعمة ، الحجة فى اللغة الزناتية والأنساب البربرية ، السديد الرأى على الحدة . وقدم إليها إدريس بن عثمان بن أبى العلى بن عبد الله بن عبد الحق ، الكائنة تحت أبيه قبل أن يتلقف يحيى كرتها . غبط به توحشه من الجهة المرينية ، إذ طرق حضرتهم فارا هاربا إليهم من بلد برجلونة[٦] ، واستحضر المعزول وبسط له القول وأقطعه البر ، وأظهر ترفيه أن صرف قانعا بمخيلته مستبقيا لعشرة حياته ، فأنف قومه من هضمه ، وتوقعوا إيقاع المكروه به ، فحركوه إلى الفرار ، ولم يمهلوه فأجاب نداءهم ، وبرز ضحوة وقد منطق بالصامت خصور

---

(١) إلى هنا تنتهى الفقرة التى نقلها المقرى .

(٢) المرزأ الكريم السخى .

(٣) الخدن : الصاحب أو المرافق .

(٤) الثفال بضم الثاء حجر الرحى الأسفل والثفال بكسر الثاء جلد يبسط تحت الرحى .

(٥) الحد منتهى الشىء : الحد من السيف مقطعه ، والحد من الإنسان لسانه وما يعتريه من الغضب .

(٦) Barcelona على الساحل الشمالى الشرقى لاسبانيا وكانت من عواصم مملكة أراجون فى العصور الوسطى .

خالصته ، ورفع على الظهر خطير حليته ونفيس عدته وأصاغر ولده ، والتف فيمن كدح له وحجه حسن بلائه ، وأصحر مساوقا جهة النهر . ولما طرق النبأ باب السلطان ، استركب الجيش فى أثره ، ووقع النفير ، وقذفت البلدة بأفلاذها ، وتلاحقت سرعان الخيل بأذياله محمحمة عن شباة[١] ، ثم كوثر فأعمل الطعن وصدقهم سن بكن[٢] حسن بلاء ، وصدق حفيظة ، وانصدع عن القتام[٣] خالصا خلوص الزبرقان[٤] عن السرار[٥] ، وقد تناصف القوم ، وأرجل كثير من أوليائه . ولم يكد يستقل حتى قطعت به الفرسان من قبل تحير المجسرة[٦] بثغر إلبيرة[٧] ممسين بالحمام[٨] على كلالة ، مستعدين بالرجْل ورُماة الشعْراء ، فهنالك حصحص الحق ، وصرح عن الزبدة المخض ، ودس النجار[٩] الحر ، ولم يخذل الصبر ، فأقصروا عنه ، وأفرجوا عن طريقه ، وقد أصيب بجراحة رغيبة[١٠] ، وجدل[١١] قوم من كفلاء أمانته ، ورد فتى من ولده ، وزاملة من متاعه ، ولحق بقلعة يحصب[١٢] من ثغور الروم[١٣] فى زهاء مائتين من قرابته

---

(١) الشباة : الفرس التى تقوم على رجليها .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) القتام والقتمة : الغبار الأسود ، غبار الحرب وكذلك الظلام .

(٤) الزبرقان : البدر .

(٥) اختفاء القمر فى آخر ليلة من الشهر .

(٦) المجمرة : الحاميات الشبه مقيمة .

(٧) Elvira احدى القرى الغرناطية وكانت فى الأصل كورة كبيرة وغرناطة من مدنها . راجع (فرحة الأنفس لابن غالب ص ١٤ ، *Enc. Isl.* II, p. 186-187) .

(٨) الراحة .

(٩) النجار بكسر النون أو ضمها : الأصل .

(١٠) أى واسعة عميقة .

(١١) أى صرعوا .

(١٢) يحصب بضم الصاد أو كسرها وتسمى أيضا قلعة بنى سعيد وتعرف اليوم باسم Alcalá La Real

(١٣) يقصد مملكة قشتالة Castilla .

وفرسانه ، فاهتز ملك الروم[١] لمقدمه ، مغتبطا بجواره ، صائلا بحده على عدوه . ونغر[٢] جرحه ، فأقام بقرطبة مرفها عليه ، قد أوعز إلى الأساة[٣] فى العناية به ، وكان من الأمر ما يذكر إن شاء الله .

وقبض على الشيخ المنبت فى متيه الضلال[٤]، مخيف السابلة وخاتر العهد ، الموروري ، المنحط فى مهوى عقد الإباحية بسبب الفاجرة زوجه التى أبدلت فصاله ، وقلبت عينه ، وصيرته فى الأمد القريب من طور الأمية والتوحش والفظاظة والغيرة إلى طور السمح بها لمدعى الهوى فيها طوعا من غير خلاف يزوى عليها بعده من غير سبب ولا تقرر ، ويدور فى ذود الرقص متلفا من نظرته ، عاضا بأسنانه على شفتيه ، متدارك الدرج ، نعارا مشيرا بكميه ، يعيد ألفاظا من المقول [٣٧] الذى حرك ساكنه مما يجرى فيه لفظ السر والذات والجمال وأمثاله . ثم يتصبب عرقا ، ويبرك كالبعير وتبادر عضلاته وهدوته[٥] وخصاه بالغمر[٦] حتى يفيق كالذى يتخبطه من المس ، منكرا وجوب التكليف[٧] ، لا يقف عند حد من حدود الله . ثم ماتت تلك الموسة على وعد بالرجعة[٨] كان يرقبه . ولقد كان يقول لى و بين يديه ولدان من تلك الاباحية : هذا — ويعينه — ولد السر ، وهذا ولد الطير لبس هذا الطور وسرت حمياه فى طباعه المتعاصية ، وخفيت من ألفاظه الجهورية ، وطأطأت

(١) ملك قشتالة بدرو الأول المنعوت بالقاسى أو العادل Pedro I el Cruel o el Justiciero .

(٢) أى انتكس جرحه بعد اندماله .

(٣) الأطباء ومفردها الآسى .

(٤) لعله وزيره محمد بن على بن مسعود السالف الذكر .

(٥) كذا فى الأصل ولعلها هدرته أى تردد صوته فى حنجرته .

(٦) غمرة الشيء شدته .

(٧) بعض المتصوفة الإباحيين يرون أن لهم الحق فى ارتكاب المعاصى لأن الله رفع عنهم الكلفة أو التكليف .

(٨) بعض الشيعة يعتقدون بالرجعة بعد الممات .

من حرمة الأيد[١] البادن ، ودخلته من ذلك قوة سحرية أثرت فيه تأثيرات التعليم فى الحيوان من الحمير التى تنام وترقص وتخرج الخب والدنية التى يصعد على الطيف الخرط وتخرج لعب الإنس ، وما زاده ذلك إلا عتوا وجرأة على سفك الدماء وانتهاك محارم الله ، فوغل عليه ضده حذرا من جرأته منحيا عليه الذنب ديدنه فى سواه . وعاجله بالقبض عليه موسعا إياه ما شاء من تقريح ، محملا إياه تحيته إلى ابنى أبى الفتح غرقائه فى ناموس البحر على سبيل التندر والظفر . والتيس يتبرأ من الجريرة ويذكره العهد الذى شانه ختره ، ويشمته نقضه ؛ فصفد واحتمل على الظهر إلى المرية ، واختلف فى صورة هلاكه بين نوشه بالأسنة أو إغراقه ببحر الشامة البيضاء من مرساها ، وقد أثقلت رجلاه ببعض الأجرام استعجالا لرسوبه ، فصار إلى خزى الله وسوء المصير .

وفر إلى الروم ، ابراهيم بن السراج ، فى خبر طويل ، وكان له من الموروى حلف ، فلما أحان الله ذلك التيس بيد الظالم الذى أسخط الله فى رضاه ، وخذل الإسلام بإعانته ، استراب بمكانه فكان ذلك .

وتقبض بعده على أحد مصراعى باب الوفاء للسلطان — جبره الله — أبو بكر بن زيد ، زعيم وادى آش بعد أن اصطنعه وأسماه رقيا إلى ألفته وخلطه بنفسه فى القلعة ، وأنكحه احدى عتيقات القصر ذات أسباب جمة ومتاع حسن وبغية ، ثم أهوى به فى الطبق الضنك مستقر أرباب الجرائم ، وابنه الغض الشبيبة ، الراجح الوزن[٢] على الفتا ، الملى من خلال السؤدد بغير جرم ولا جناية . زعموا أن بلديهما كاتبه وخطيبه العلجوم المنبز بالجوارى ، عبد الحق بن عطيه ، أغراه بهما ، وما أقرب الدنيا من الآخرة ، بينما الرجل فى إيالة هذا الحلف ، محمود النعمة مرموق المكانة ، مغبوط الحظ ، إذ تطرقته العيوب

(١) الآد والأيد : القوة .
(٢) أى كامل العقد .

بغتة لهاجس طور أفكاره السبعية[١] أو ألقية كاذبة طرقت أذنه المستباحة . بوأنا الله مهاد الأمن فى الدنيا والآخرة ، وعرفنا برد العافية ، وفك عن اعناقنا ملكة سواه . وفى أواسط شهر المحرم من عام اثنين وستين[٢] عرفنا الله فيه عارفة الخير ، كان استقدام ولد السلطان الأمير المنصرف عن الأندلس فى سبيل البغى عليه والمكيدة ، المستكمل خلال [٣٨] الفضل ، المستولى على أمد الطهارة والعفاف ، أبى عبد الله بن الامير أبى الحجاج بن نصر ، أبرم أمر استخلاصه مس غير علم عبده ، فبايع المنقلب على الاقرار فى الوقت والمهادنة تحرجا مما تجره المخاشنة من صدع يصيب عصا الإسلام مجراه . وقد اشتمل ثقافه من أبناء الملوك اليعاقبة على الجملة موعدا بتنفيق سوق الفتنة ببعضهم عند إضافته ، فروخى رسنه مطاولة ، وطوى أمره على عده ، وسقط فى يد مظلومه لركود ريحه وتقاصر أمره . وجشأت النفوس ممن لديه ثم استكانت لصولة الأيام مرجئة للوقت ، مرتشفة للبلالة[٣] ، فسبحان الملك الحق يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء لا يسأل عما يفعل .

وأزعج من الأندلس صحبته الشيخ أبو الحسن على بن بدر الدين بن موسى ابن رحو بن عبد الله بن عبد الحق بجريرة ما تقدم من مظاهرة السلطان صبيحة ليلة نكبته وتمسكه ببيعته ، وذبه فى سبيل الوفاء عنه ، فوصل جميعهم فى جفن غزوى من مالقة إلى سبتة ، ومع الولد أمه فى طويقة من جواريها بحال حاجة للكثير من الضروريات ، وقد ضن ظالمهم على جميعهم بما لم تكن لتضره السماحة به والتهاون بحقيره فى جنب ما رزأهم من متاع الدنيا الذى لا نهاية وراءه فى الظرف والبهجة ، وفى الله خلف من كل ذاهب .

---

(١) أى أفكاره السوداء ، يقال سبع الرجل أى اغتابه وشتمه .

(٢) يقصد عام ٧٦٢ هـ الموافق ١٣٦٠ م .

(٣) البلالة : اليسير من الشىء أو ما يبل به الحلق من ماء أو لبن .

وفى الموفى عشرين من هذا الشهر ، خرج موسى بن ابراهيم الارتيانى ، من مشيخة الخدام ومصطف الأرداء[١] ، إلى الأندلس بهدية من كراع وآلة على سبيل الملاطفة ، وصدرت المخاطبة فى شأنى بما من بعض فصوله : « فإن كنتم تبخلون بماله ، فعرفونا بمقدار ثمنه ليصلكم من قبلنا » . ولله أمر هو بالغه سبحانه وقد جعل لكل شىء قدرا ، نسأله الرضا بقضائه والشكر على السالف والراهن من آلائه .

[٦٦] وبلغت الأندلس لهذا العهد من خمول الأمر واختلال السيرة وتشذيب الحامية التى لا فوقها ، فخضر مدعى ولمة الدائل بها لأول ولايته ، رجل الدبا[٢] ، فالتهم الخلا والكلا ، وأعدم بإعدام الغلة أسباب الرخا ، وفتح أبواب البلا ، وموه لأول أمره ببث النهى عن المذكور الذى هو جرثومته العظمى ، وتصاريفه غايته القصوى ، وسمح ببعض المكوس فأعطى قليلا ثم أكدى ، ولم تمر الأيام إلا وقد عاد فى قينه ، وأضاق الرعايا بشؤمه ، وكلفهم ارتباط الأفراس بعد إغرامهم أرزاق جنده ، وإنزال دورهم بغرباء ديوانه ، وانحط فى مهاوى الشمات برتبة الأمر ، وأنقص من منصب الملك ، فقعد للعرض وقد حشر الناس ضحى فى موقف أجلس معه بسريره بعض السوق ، عارى الرأس ، مثلة من مثل الخلق ، غير مقصر فى مخاطبة من مر به عن غاية الإفحاش والتبجح بمعرفة الهنات ، فلقد حدث صاحب شرطته ، وهو لا بأس به ، قال : أطريته باجتناب الناس الخمر فى أيامه ، وتحت استداده ، وطهارة بلده من قاذوراتها ، فقال لى فى الملأ المشهود : والحشيش كيف حالها ؟ قلت ما عثرت على شىء منه . فقال : هيهات ، انزل إلى بيت فلان وفلان وفلان ، وعد كثيرا من الساسة والأوغاد والصفاعين[٣] ، رسم مكامنهم ، وينسبهم نسبة

(١) كذا ولعلها من الأرد أى الأنفع .
(٢) الدبا صغار الجراد .
(٣) الصفاعين جمع مصفعانى وهو المهرج الذى يصفع كثيراً .

الأصمعى أفخاذ العرب وبطونها ، ويصف الناصح والغاش منهم بصفة ، وربما دعا بعض مشيختهم بالعمومة . قال : وانصرفت إلى ما ذكر ، فوالله ما أخطأت شيئا عما رسمه ، ولا فقدت شيئا مما ذكره لغشيانه بيوتهم ، وانخراطه فى جملة منتابيهم ، يقول : فهو والله أستاذى فى الشرطة .

وساءت محاولته طاغية الروم ، فتمرس به وآثر الحران فى معتاد أغراضه لفساد ما بينه وبين عدو برشلونه[١] ، وأعطاه الضمة . فعند فراغه من صلاح ذات بينهما ، فغر عليه فاه ، وشمر لمطالبته ؛ وخشن ما بينه وبين الملك[٢] المرينى فئة الإسلام التى إليها هجر ، لاغتراره بمن فى اعتقاله من قرابته المغرى بهم لسان الإرجاف . فرجعت الرسل من قبله خُيَّبَ اللبانات من بابه ، مودعة من نجوى المسلمين واستعداد الصالحين مما يوجب الاهتزاز ويحرك الامتعاض ، ناقلة من غريب شكله فى كثرة التفاته ، وجفاف ريقه ، وعرى رأسه ، وتشمير ذراعه ، وسخافة عقله ، غرائب تؤنس بها الأسمار ، وتوشح الفكاهات .

وألح سلطان قشتالة فى تسليم السلطان أبى عبد الله إليه ليتولى شد أزره ، ويجتهد فى جبر حاله ، وألقيت إليه المعاذير ، فنبا عنها سمعه ، ورفق [٦٧] — عن غرضه — فى رفع السلم عند إخفاق مطلبه ، ولم يقبل العوض من ضروب ملاطفته ، فترجع الرأى على توجيهه إلى الأندلس . وقد كان الأسطول[٣] تألف بفرضة المجاز من سبتة موريا بجهاد من ظهر به من عدو برشلونة . ووصلت أساطيل الروم[٤] المسخرة فى غرض إجازته ، قد أركبها ملك النصارى وجوه خدامه ، فقعد السلطان أمير المسلمين بالمغرب فى قبة العرض المتخذة بجنة المصارة ، ووقع البريح ببروز الناس إلى الفضاء الأفيح ، واستحضرت

---

(١) يقصد ملك أراجون بدرو الرابع Pedro IV .

(٢) السلطان أبو سالم ابراهيم بن أبى الحسن على المرينى (٧٥٩ — ٧٦٢هـ) .

(٣) الأسطول المغربى بطبيعة الحال .

(٤) الأسطول القشتالى .

البنود والطبول وأوعية المال ، صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال من عام التاريخ[١] .

واستحضر السلطان فصعد إلى القبة ثم نزل وقد ألبس خلعة الملك ، وقيدت له فرس شقراء مطهمة ، حليها ذهب بحت ، ونشرت حوله الألوية ، وقرعت الطبول ، وركب السلطان مشيعا إياه غلوة ، ثم انصرف عنه وقد التف عليه كل من جلى عن الأندلس من لدن الكائنة الواقعة بها فى جملة كثيفة ، وبلى من رقة الناس وإجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا ، قد ظلله الله برواق الرحمة ، وعطف عليه وشائج المحبة إلى كونه مظلوم العهد[٢] منتزع الحق ، فتبعته الخواطر ، وحميت له الأنفاس ، والله يعرفه عوارف عنايته ، ويلحظه بعين رحمته .

مختار العبادى

(١) عام ٧٦٢ هـ .
(٢) يلاحظ أن عبارة « العهد منتزع » كتبت على الهامش وأضفناها إلى المتن .

هل فى النحو مذهب أندلسى ؟

إذا وجد المختصون فى علم ما فائدة ومتعة حين يخلون بأنفسهم إلى تراجم من سبقهم فى هذا العلم ، فإن متعتهم بتاريخ العلم نفسه أحفل وأعظم . إننا نثنى عادة على من يؤلف لنا فى حياة عالم إذ يتيح لنا أن نعايشه فنعاين جده ودأبه ، ونلذ نضاله لكشف الغامض ودفع العلم إلى الأمام ولو خطوة ، ونجد الأسوة فى استهانته بالعراقيل والمعوقات ووقوفه للزمان والحساد والخصوم والجاهلين وإن فى حياة كل عالم من هذا لنصيباً ، لذلك نشكر لهذا المؤلف ما يسر لنا من لذائذ سامية .

لكن المسهم فى تاريخ العلم لا يحصل على الشكر والثناء فى وقت قصير ، وقد يقتضيه سطر واحد يخطه فى تاريخ العلم من الجهد وطول العمل ما لم يعانه المؤلف الأول فى مجلد . ومن ظن أن حياة باحث تفى بتاريخ علم فقد ظن باطلا ، إنما يتم ذلك بتضافر جهود الباحثين فى أجيال متلاحقة : يتسلم كل جيل تراث من قبله ويعمل فى دأب وروية ليتقدم به قليلا أو كثيراً . وسؤالنا اليوم يمت إلى تاريخ النحو .

وبعد ، فماذا يراد من كلمة « مذهب » أو « مدرسة » حين يقال فى النحو واللغة : مذهب البصريين أو مدرسة الكوفيين ؟ .

إن نظرة فاحصة فى دراسات المحدثين تقودنا إلى الشك فى بعض ما عدوه من المسلمات ، انسحاباً على أذيال القدماء ممن تكلم فى النحو والنحاة . لقد أدار هؤلاء التصنيف على البلدان فقالوا : « نحاة الكوفة » و « نحاة البصرة »

و « نحاة بغداد » حين ألفوا فى الطبقات ، فساق هذا — مع تساهل كبير — إلى أن قيل فيما بعد : « مذهب البصريين » و « مذهب الكوفيين » و « مذهب البغداديين » .

وقد حان الوقت لتصحيح هذه التسمية ، فالأقدمون ومن تأثر بنظرتهم من المحدثين جعلوا البصريين أهل القياس لأن من ضبطه منهم كثير جداً ولهم فيه عناية بالغة ، على حين عدوا الكوفيين أهل سماع لأنهم سجلوا كل ما سمعوا وأراغوا القياس عليه فلم يحكموه إحكام الأولين وأن أربوا عليهم فى السماع مقداراً لا ضبطاً وجودة[1] . وكنت ناقشت هذه الأحكام بتفصيل وتحرٍّ لا محل لهما هنا ، وانتهيت إلى أنه :

« ليس من الدقة — فى رأيى — إطلاق النزعة السماعية على المذهب الكوفى والنزعة القياسية على المذهب البصرى ، والدقة التى يؤيدها التاريخ والإمعان فيه وفى أقوال الكوفيين والبصريين ألا يكون مذهب بصرى يقابله مذهب كوفى ، بل نزعة سماعية يقابلها نزعة قياسية يختلف حظ كل منهما صحة وحالا ومقداراً بين البلدين ، بل بين نحاة كل بلد على حدة . على ذلك الأساس يصح أن نعيد النظر فى النحو وتاريخه ورجاله بهذا التصنيف الجديد ، بعد أن علمنا أن النزعتين تتمثلان على حقهما بالبصرة لا بالكوفة »[2] .

* * *

(١) ومن أهل بغداد من أخذ من هنا ومن هنا ، فقيل : « إن المذهب البغدادى خليط من المذهبين » وإن كان الطابع الغالب عليه بصريا . وأدق من تعبيرهم ما عبر به ابن النديم عنهم حين قال : « جماعة من علماء النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين » — الفهرست ص ١١٥ (المطبعة الرحمانية بمصر . دون تاريخ) .

(٢) ص ٢٠٢ من كتابى «فى أصول النحو» — مطبعة الجامعة السورية بدمشق — طبعة ثانية . ومن المفيد الرجوع إلى باب الخلاف فيه ص ١٥١ فما بعد ، وبصورة خاصة فصل «الفروق بين المذهبين» ١٨٨ — ٢٠٢ .

بعد هذا الاحتياط ، وبما لدينا من معارف نقطع أنها غير كافية ، يكون سؤالنا على الوجه الآتى :

« هل نزعة الأندلسيين سماعية أو قياسية ؟ »

كنت رأيت قبل عشر سنين أن النحو الأندلسى مر بشبه الخطوات التى سارها فى المشرق ، وأن طابعه الغالب الذى استقر طابع القياس الذى شرعه نحاة البصرة ، وأن الأندلسيين أشبهوا فى هذا أيضا الشاميين حين أضافوا إلى ذلك عناية بالغة بالسماع[(١)] . وأحب اليوم أن أتساءل : أليس هناك جديد أضيفه إلى ما تقدم عن نحو الأندلس ؟ .

إن رحلة قمت بها سنة **١٩٥٦** م باحثاً فى نفائس المخطوطات بالأسكوريال ومكتبات المغرب العامة والخاصة جعلتنى أتهيب الجواب . وأنا موقن أنه لن نصل إلى ما تطمئن إليه النفس حتى ينشر قدر كاف من هذه النفائس المضنون حتى بأسمائها ، وحتى يسهم فى التعاون على ذلك أفاضل المغاربة وهم — على ما تحققت بنفسى — غير قليل ، فيبحث كل فيما تصل إليه يده من كتب الفن يصفها ويصنفها وينشر ذلك مع ما ينتهى إليه من رأى فى هذه المسألة ، فإذا شاعت هذه الآراء رجوت أن تضىء المذاكرة حولها نواحى مظلمة فى تاريخ النحو . ولأحاول الآن قول شىء فى الموضوع مع خفوت الشعاع وضياع المعلوم النزر فى المجهول الغزير ولا جود إلا بالموجود كما يقولون .

* * *

يعرف المطلعون عناية الأندلسيين بعلم النحو منذ الزمن الأقدم ، ويحفظون كلمة ابن سعيد : « النحو عندهم فى نهاية من علو الطبقة »[(٢)] وليس فى هذا

(١) المصدر نفسه ص ١٨٢ من الطبعة الأولى (الجامعة السورية ١٩٥١) .
(٢) نفح الطيب ١/٢٠٦ (مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٩ بتصحيح محمد محي الدين عبد الحميد) .

مبالغة قط . ولقد حلا لى استشارة الأرقام فعمدت إلى « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطى ، فأحصيت ما فيه من تراجم فإذا هو نحو من (٢٤٥٠) ترجمة لعلماء من جميع الأقطار الإسلامية بين الصين وبحر الظلمات ، ووجدت للأندلسيين بينها نحواً من (٧١٢) ترجمة ، وهذه نسبة عالية جداً أن يبلغ فى هذا المصدر علماء هذا القطر القليل المساحة قريباً من ثلث علماء العالم الإسلامى كله .

وما أكثر ما تتكرر هذه المدن والقرى الأندلسية فى تراجمهم ونسبهم : باجه ، شريش ، بلنسية ، جيان ، مالقة ، سرقسطة ، دانية ، بياسة ، المرية ، قلعة رباح ، لبلة ، لوشة ، مورور ، إستجة ، الجزيرة ، شلب ، شذونة ، وادى الحجارة ، أشونة ، بطليوس ، رية . . . الخ أما الحواضر الكبرى كقرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة فحدث عن كثرة ورودها ولا حرج .

فإذا ألم بخاطرك ما لكل من هؤلاء العلماء الـ (٧١٢) من تواليف ، دار رأسك من كثرتها وعرفت لم يتهيب الباحث من إطلاق حكم فى تراث لم يطلع منه على عشرة كتب من عدة آلاف . ومع هذا فإلقاء لمحات جزئية هنا وهناك فى الموضوع لا يضر ، بل هو تمهيد للوصول إلى النظرة المحيطة الشاملة على قدر الإمكان ، وتجنيب لما يمكن أن يقع فيه الباحث من أخطاء شائعة .

لا يخطىء دارس مطولات النحو أن يقع على آراء لأندلسيين فى جزئيات نحوية ، فأسماء ابن خروف (— ٦٠٩ هـ) وابن عصفور (٥٩٧ — ٦٦٣هـ) والشلوبينى (٥٦٢ — ٦٤٥ هـ) وابن الضائع (— ٦٨٠) وغيرهم تذكر بين أسماء النحاة المشارقة حين عرض الآراء فى الخلاف ، إلا أن متصفحها لا يجد فيها ما يميزها من غيرها من التخريجات المختلفة المعروضة فى القضية الواحدة أو بعبارة أخرى : ليس لآراء الأندلسيين هؤلاء سمات مدرسة خاصة .

ويريد بعض الناس أن يذكر ابن مالك (٦٠٠—٦٧٢ هـ) وأبا حيان (٦٥٤—٧٤٥هـ) عامين بارزين لمدرسة أندلسية كان لها أثر واسع فى النحو وتعليمه فى المشرق ، وهذا ظن يروج ابتداءً لكنه لا يثبت عند النظرة الفاحصة الأولى :

فابن مالك خرج من الأندلس إلى المشرق صغيراً ، ولم يذكروا له شيخاً فى النحو غير الشلوبينى ، قالوا : إنه قرأ عليه نحواً من ثلاثة عشر يوماً ، فلما حل الشام سمع من بعض شيوخها ، ولم يجد له أبو حيان بعد البحث « شيخاً مشهوراً يعتمد عليه . . . لأنه إنما أخذ هذا العلم من خاصة نفسه »[1] ، « وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية »[1] .

وأمر أبى حيان قريب من أمر ابن مالك : خرج من الأندلس هارباً فى شبيبته وكان قرأ على بعض شيوخها ثم أتم قراءته وزاول الإقراء فى المغرب والمشرق . فإن اعتبرنا الشكل الصورى كان أثر التعليم الأندلسى فى أبى حيان قليلا وفى ابن مالك أقل بكثير ؛ وإن اعتبرنا الجوهر — وحق اعتباره — وجدنا نحو هذين الرجلين فى تواليفهما مشرقياً محضا . أما كونهما ذوى أثر واسع فى النحو وتعليمه فى الشرق فهذا صحيح ومرده إلى شخصيتيهما لا إلى أندلسيتهما ، فأسلوب ابن مالك فى نظم مسائل العلم وشرحها وغيرته المخلصة الحارة فى نشره وإقرائه أغريا عصرييه وكان لهما أكبر الأثر فى حياته ، فانتفع الناس بعلمه ، وما زال الله ينفع به إلى يوم الناس هذا . أما أبو حيان فآثار حواضر المشرق العامية فى كتبه أظهر من أن تخفى .

والشىء الذى يجوز أن يناقش هنا ما ذكروا من أن ابن مالك وابن خروف شرعا الاستشهاد بالحديث الشريف والاحتجاج به فى قضايا اللغة والنحو ، فخالفا بذلك — زعموا — سنة من قبلهم من النحاة ، وإذ كانا أندلسيين جعل بعضهم هذا الاحتجاج مذهباً أندلسياً .

(١) بغية الوعاة ص ٥٣ (مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٦ هـ) .

وكل ذلك وهم لا يقره تاريخ الفن ، ولعل الذى حداهم عليه كلمة أبى حيان فى شرح التسهيل : « إن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرين للأحكام من لسان العرب كأبى عمرو وعيسى بن عمر والخليل وسيبويه من أئمة البصريين ، والكسائى والفراء وعلى بن مبارك الأحمر وهشام الضرير من أئمة الكوفيين لم يفعلوا ذلك » اه . والتحقيق غير هذا : فالجوهرى ، وابن سيده ، وابن فارس ، وابن جنى ، وابن برى ، ومن بعدهم من أصحاب المعجمات وكتب النحو ، كلهم احتج بالحديث ، بل قال السهيلى : « لا نعلم أحداً من علماء العربية خالف فى هذه المسألة إلا ما أبداه الشيخ أبو حيان فى شرح التسهيل وأبو الحسن الضائع فى شرح الجمل وتابعهما على ذلك الجلال السيوطى »[1] .

فنزعة الاحتجاج بالحديث إذاً مشرقية قديمة وإنما سار ابن مالك وابن خروف سيرة من قبلهما من الأئمة المتبوعين فى المشرق . ومع جزئية هذه القضية ليس فيها مذهب أندلسى . وبذلك ننتهى من نقاش كل ما قيل فى الموضوع لأقف وقفة جديدة مع ابن حزم فى كتاب عرفه الباحثون العام الفائت .

* * *

أرقى صعداً فى تاريخ النحو مئتى سنة قبل وفاة ابن مالك لأمعن فى نص لابن حزم ، وهو إمام أندلسى ما رأى المشرق قط ، بل ما جاوز « الزقاق » إلى عدوة المغرب — فيما أذكر الآن — وهى منه على قاب قوس ، فهو خالص الأندلسية .

---

(١) دراسات فى العربية وتاريخها للعلامة المرحوم السيد محمد الخضر حسين ص ١٦٨ (طبع دمشق ١٩٦٠ م) وانظر فصل الاحتجاج بالحديث الشريف مستوفى فى كتابى «فى أصول النحو» ص ٤١ — ٥٤ ؛ طبعة ثانية .

ولا تعجب من وقوفى على ابن حزم ولم يذكر له كتاب فى النحو ولا عرف بإمامة فيه ، لأنه لا يلزم من اهتمامه بعلوم الشريعة وتركه فيها المؤلفات الجليلة الحسان التى سارت بذكرها الركبان ألا يكون من أولى الشأن فى النحو بل من أهل الرأى فى أصوله ، ومن غير البعيد لو تركت له الشريعة فراغاً أن يترك فى النحو آثاراً أصيلة مبتكرة أيضاً .

وأى كان فقد عرج عرضاً فى كتابه « التقريب لحد المنطق » على أحد الآساس التى بنى عليها النحو فوضع تحته هذه المتفجرة الصغيرة[١] .

« وأما علم النحو ف [يرجع] إلى مقدمات محفوظة عن العرب الذين نريد[٢] معرفة تفهمهم للمعانى بلغتهم ، وأما العلل فيه ففاسدة جداً » .

وهذا إبطال للقياس جملة ، لأن القياس « حمل غير المنقول على المنقول فى حكم لعلة جامعة بينهما »[٣] فإذا كانت العلل فاسدة فسد القياس حتما إذ عليها بنى . وقولة ابن حزم هذه تشريع لنحو جديد لو وجد له منظمون .

ومع أنى لا أعقل أبداً نحواً لا قياس فيه ، وددت لو تضافر بعد ابن حزم نحاة حاولوا أن يتركوا لنا مخططاً كاملا لنحو «ظاهرى» لا قياس فيه ولا تعليل ، كما فعل هو حين استطاع أن ينفى عن الشريعة القياس والتعليل فترك تراثاً ضخما لمذهب متماسك متين وفق فيه إلى حد بعيد .

(١) نقلت هذا من مخطوطة فريدة رقمها (٦٨١٤) بالمكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة بتونس ، حين زيارتى لها سنة ١٩٥٦ م ، واصطحبت معى صورة كاملة عن الكتاب بمعونة الأستاذ الجليل السيد حسن حسنى عبد الوهاب . وكان العزم أن أقوم بنشره ، فسبقت إلى ذلك مكتبة الحياة فى بيروت فنشرته العام الفائت ١٩٥٩ بتحقيق الدكتور إحسان عباس . والنص المنقول هنا من الورقة (٩٠) من المخطوطة بترقيمى ، وفى ص ٢٠٢ من الطبعة الآنفة الذكر .

(٢) الكلمة غير ظاهرة النقط فى الأصل المصور ، وهى فى المطبوعة (تزيد) ولا معنى لها هنا .

(٣) « فى أصول النحو » ٦٨

وهذا من طبيعة الأشياء ، للفارق العظيم بين الشريعة واللغة : فالله قد أكمل الدين ، ولم ينتقل الرسول — عليه الصلاة والسلام — إلى الرفيق الأعلى حتى بين للناس كل ما يجب أن يعرفوه من حلال وحرام ؛ أما اللغة فلا سبيل إلى حصرها فى جمل لا يتعداهـا الناس إلى يوم القيامة ، بل هى متجددة متوالدة كل لحظة منذ المتكلم الأول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا .

ولو حاول أحد من الأندلسيين البناء على الأساس الذى ألقاه ابن حزم لصح — مع شىء غير قليل من التسامح والتجوز — أن يكون من ذلك مذهب أندلسى إلى حد ما ، أما رسالة ابن مضاء فليست هناك[١] .

قلت : (مع شىء غير قليل من التسامح والتجوز) و (إلى حد ما) لأن القول بضعف بعض العلل النحوية قديم متعارف فى المشرق حتى جرى به المثل فقيل « أضعف من حجة نحوى » على ما فى هذا القول من مبالغة وخطأ فى التعميم . وعلماء هذا الشأن أحاطوا بذلك وأشاروا إليه وعاموه ، وصرح الخليل ابن أحمد (— ١٧٥ م) قبل ابن حزم بنحو ثلاثة قرون أنك لا تصل إلى

---

(١) وفاة ابن حزم سنة (٤٥٦ هـ) ووفاة ابن مضاء تتأخر (١٣٦) سنة ورسالته فى الرد على النحاة نشرها الدكتور شوقى ضيف سنة ١٩٤٧ م . عمد فيها إلى ما وضعه الأقدمون من صيغ للتقريب على المتعلمين فجعل يدقق فيها تدقيقاً حرفياً حين يرد عليهم قولهم مثلا : إن العامل فى رفع (زيد) من قولنـا (ضرب زيد) هو فعل (ضرب) بأن هذا غير صحيح والذى رفع (زيد) هو المتكلم وأن القول إن الألفاظ يحدث بعضها بعضاً باطل عقلا وشرعا لا يقول به أحد من العقلاء !! (ص ٨٧) » وأفاض فى فلسفة هذه البديهية بما لا طائل تحته ، وإلا فهل يغيب على أحد أن المتكلم هو الذى يرفع وينصب على الحقيقة وأن إسناد ذلك إلى العامل اللفظى مجاز وتقريب على المتعلمين ، وهذا أسلوب شائع فى جميع العلوم لا فى النحو فقط . وهذه البديهية ذكرها عرضاً ابن جنى ونقلها عنه ابن مضاء نفسه فى الصفحة المذكورة ، بل تلك بديهة لكل مزاولى النحو تعلماً وتعليما .

وفى الرسالة بعد ، نظرات جزئية فى مسائل بعضها سائغ ، لكنه انتهى به الأمر إلى أن ناقص نفسه وإمامه ابن حزم فقال بالعلل الأولى ونفى العلل الثوانى والثوالث ، وليس هذا مقام التفصيل فى نقد كتابه .

ما تحتاج إليه من النحو حتى تتعلم ما لا تحتاج إليه . فاستضعاف العلل النحوية قال به كثيرون قبل ابن حزم فليس فيه بسابق ، وإنما بالغ ابن حزم حين جعلها « فاسدة جداً » فعمم واشتط . والحقيقة الهادئة هى عند الذين صنفوا هذه العلل فجعلوا منها المقبول ومنها الضعيف ومنها الخيالى(١) . وفرق كبير بين إطلاق ابن حزم ومن قلده كابن مضاء ، ومن تجرد للبحث والاستقراء بأناة وصبر فجمع الأمثلة والشواهد بين يديه يمعن فيها ويفلسفها حتى انتهى إلى « أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها وما حملناه عليها »(٢) .

فالشك فى العلل النحوية إذاً ليس من صادرات الأندلس ، بل تعاوره فى أسلوب علمى جهابذة مشارقة منذ عهد الخليل ، فليس فيه ما يسمى مذهباً أندلسياً من قريب ولا بعيد .

* * *

أما بعد ، فأنا لا أقول بالإقليمية بالأدب فكيف تخطر لى فى العلم وهو الذى لا وطن له ! ؟ وإنما تتعاون على إنمائه جماهير من كل جنس وبلد ، ولعل المسألة من مسائله بذلت فى كشفها جهود كثيرة ضخمة من معلومين ومجهولين ، بل ما أكثر الجنود المجهولين فى العلم ، وإنه ليقع فى حدسى أنهم أكثر من المعروفين بما لا يخطر على بال . وهذه الآراء الجزئية التى عرضت لها قامت على ما وصل إلى علمى من آثار وليست كلمة أخيرة ، ومتى كان فى العلم كلمة أخيرة ؟ وهل سكوت المصادر عن كتاب مطول لابن حزم فى النحو قاطع على أنه لم يوجد ؟ وهل جهلى أنا بما فى خبايا المكتبات فى الأندلس والمغرب وحتى المشرق من آثار نحوية يقنعنى بأنه ليس هناك مذهب أندلسى فى النحو ؟ .

(١) انظر فى العلل ص ١٠١ من كتاب «فى أصول النحو» .

(٢) كلمة ابن جنى — الخصائص ١/٢٥٠ وما بعدها (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٢ بتحقيق الأستاذ محمد على النجار) .

إن الوصول إلى شيء جديد نركن إليه موقوف على ظهور آثار جديدة ، وما قدمت من أحكام شخصية صحيح اعتماداً على ما وصل إلى اطلاعى وما أقله ، وكل مخطوط جديد ينشر حافز على إعادة النظر واستئناف « المحاكمة » .

فهل لإخواننا فضلاء المغـاربة عامة ومغربهم — كما تحققت فى رحلتى القصيرة — متحف مجهول ، أن يواصلوا السعى فرادى وجماعات فى الكشف عن مخبآتهم والتعريف بها ؟ وهل لدارسى النحو منهم خاصة أن يعكفوا على نشر النافع من آثاره فيملؤوا ثغراً فى ميادين البحث ما زالت خالية ؟ .

ومن يدرى ؟ ! فلعلنا فى المستقبل لا نكتفى بالقول « إن النحو الأندلسى قياسى مع نزعة سماعية » كما هو فى المشرق ، بل نؤكد واثقين بما سيظهر من خصائص وسمات تنتزع من مخطوطات يكشف عنها أن هناك فى النحو « مذهباً أندلسياً حقاً » بكل ما فى كلمة « مذهب » من مقومات .

سعيد الأفغانى

الوثائق العربية الغرناطية

وقيمتها التاريخية (*)

فى هذا الكتاب قدمت النص العربى والترجمة الإسبانية لمائة وخمسة وسبعين عقداً وكتابة شرعية تتضمنها خمس وتسعون وثيقة غرناطية لم تنشر من قبل ، الجزء الأكبر من أصولها موجود فى مكتبة جامعة غرناطة والباقى بعضه فى مجموعات خاصة ، وطائفة منه فى دير لا مادرِ دِ ديوس الذى تقيم فيه راهبات جماعة شنت ياقوب . وقد حررت هذه الوثائق خلال القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر وتعتبر آخر مظهر للمعاملات الشرعية الإسلامية فى الأندلس .

ونحن نعرف النصوص التى يعرض فيها الفقهاء الأندلسيون القواعد النظرية للشريعة الإسلامية ويشرحونها ويبينون رأى المشرع فيها أو تفسير الشارح لها ، وكلا الرأى والتفسير قد يطبقان على العمل أو يظلان دون تطبيق . ونحن نعرف بالإضافة إلى ذلك نوعاً ذائعاً من التآليف الشرعية تطور تطوراً فائقاً فى الأندلس ، ونعنى به مجموعات الوثائق الشرعية التى نجد فيها تلك القواعد النظرية القانونية التى تتضمنها كتب الشريعة مطبقة على حالات محددة واقعية ،

(*) نشر معهد الدراسات الإسلامية كتاب « وثائق عربية غرناطية » الذى قام على تحقيقه الأستاذ لويس سيكو دى لوثينا ، وقد طلبنا إليه أن يكتب لهذه الصحيفة مقالا يوجز فيه النتائج التاريخية التى وصل إليها من دراسته لتلك المجموعة من الوثائق وفصلها فى المقدمة الإسبانية الطويلة التى قدم بها لهذه الوثائق ، فتفضل مشكوراً بكتابة ذلك الملخص باللغة الإسبانية وقمنا نحن بترجمته للعربية . وقد رأينا أن ننشر هذا الموجز هنا زيادة فى الفائدة .

وهى تقدم لنا تبعاً لذلك معلومات طريفة عن القانون الجارى والتقاليد الشرعية التى كان لا بد من اتباعها فى النواحى والبلاد التى عاش فيها محررو هذه المجموعات الوثائقية ومارسوا أعمالهم فيها .

ومن أهم المؤلفات الجارية فى الاستعمال لهذا النوع من التآليف الشرعية الباقية إلى أيامنا مجموعة ابن مغيث الفقيه الطليطلى المتوفى سنة ٤٥٩ ﻫ (٢٢ نوفمبر ١٠٦٦ — ١١ نوفمبر ١٠٦٧) ، والمجموعة التى صنفها خلال نفس القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى عبد الله بن عبد الواحد الفهرى من أهل البونت من أعمال كورة بلنسية ، وتلك التى ألفها بعد ذلك بقرن الفقيه المغربى الذى سكن الأندلس أبو الحسن على بن يحيى بن القاسم الذى مارس عمله فى الجزيرة الخضراء وتوفى فيها سنة ٥٨٥ ﻫ (١٩ فبراير ١١٨٩ — ٨ فبراير ١١٩٠ م) ، وأخيراً مجموعة ابن سلمون وهو أديب غرناطى عاش فى الثلثين الأولين من القرن الرابع عشر الميلادى .

ولدينا من مجموعة ابن مغيث نسختان مخطوطتان ، إحداهما فى مكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ فى مدريد والثانية فى دير ساكرو مونتى فى غرناطة . أما مجموعتا الفهرى وابن القاسم فلم تصل إلينا من كل منهما إلا نسخة وحيدة منقولة باليد تملكهما هيئة تشجيع الدراسات Junta para Ampliación de Estudios وهما الآن فى مدرسة الدراسات العربية فى مدريد . وأما مؤلف ابن سلمون فقد كتب له حظ أحسن إذ بقيت منه نسخ متعددة موزعة بين عدد من مكتبات الشرق والغرب .

ولم ينشر من هذه كلها فى صورة كاملة إلا مجموع ابن سلمون . وقد قام الأب لوبيث أورتيز أسقف توده Túy حالياً بترجمة قطع من ذلك المجموع إلى الاسبانية . وعمل سلفادور بيلا الذى كان أستاذاً للنظم الإسلامية فى جامعة غرناطة ترجمة إسبانية من الفصل الخاص بعقود الزواج من مجموع ابن مغيث . أما الباقى فلم ينشر أو يترجم إلى لغة حديثة إلى الآن رغم أهميته البالغة .

ويشير كل أولئك الفقهاء فى مجموعاتهم إلى موثقين شرعيين آخرين سبقوهم فى القيام بأعمال التوثيق أو فى تأليف مجموعات مشابهة لمجموعاتهم ، فيشيرون إلى عبد الملك بن حبيب من أهل حصن واط وهى قرية إلى جوار قرطبة وإلى ابن مُزَين وابن لبابة من فقهاء قرطبة وفضل بن سلمة نزيل بجانه وغيرهم من فقهاء الأندلس الذين عنوا بالوثائق .

ويستخلص من ذلك أن هذا النوع من التآليف الشرعية كان واسع الذيوع عظيم الإزهار فى الأندلس الإسلامى . وقد بدأت العناية به فى القرن العاشر على الأقل إبان العصر الذهبى للخلافة واستمرت العناية به — فى حدود ما نعرف — إلى القرن الرابع عشر أيام بنى نصر . ولا نبعد عن الحقيقة إن نفترض أنه بعد مجموعة ابن سلمون وهى آخر ما نعرفه من حيث التاريخ ظهرت فى نفس الموضوع مؤلفات أخرى ، فسنرى بعد قليل كيف أن الوثائق الغرناطية التى أنشرها الآن — والتى تصل تواريخها إلى تاريخ سقوط غرناطة — تتضمن صيغاً مخالفة لتلك التى نجدها فى مجموع ابن سلمون الذى يدخل فى عداد فقهاء غرناطة ويتبع طريقتهـا فى تحرير الشروط ، وهو من متأخرى أتباعها إذ أنه صنف مؤلفه كما قلنا فى منتصف القرن الرابع عشر .

وإذا كانت المجموعات التى أشرت إليهـا تتضمن تعبيراً غريباً خارجاً عن القواعد التى كانت تطبق بها الأصول الفقهية الجارية فى الفقه الأندلسى ، وإذا كانت توقفنا إلى جانب ذلك على نظم الأندلسيين وتقاليدهم القضائية ، وتقدم لنا زيادة على ذلك عدداً من الألفاظ والتعبيرات الخاصة باللهجة الأندلسية فإن الوثائق الغرناطية التى أوردها فى هذا الكتاب تعتبر على درجة كبيرة من الأهمية وذلك لأنهـا — أولا — تخلع على الصيغ الثابتة التى نجدها فى المجموعات طابعاً من الحيوية والواقعية ، وتقدم لنا عند مقارنتها بتلك مفارقات Variantes تدل على التطور الطبيعى للوثائق نتيجة للاستعمالات والعادات الخاصة بالتطبيق القضائى ونتيجة أيضاً للظروف الخاصة التى تحيط بمكان وزمان معينين .

ومن هنا يبدو بوضوح أن مجموعة الوثائق التى يضمها هذا الكتاب ذات أهمية خاصة لدراسة تاريخ التشريع الإسلامى وكذلك لدراسة التاريخ المقارن وذلك بسبب المعلومات التى تتضمنها .

ولست من المتخصصين فى الشريعة الإسلامية ، ولهذا فقد كان على لكى أصل إلى قراءة هذه الوثائق وتفسيرها على النحو الذى أورده فى الكتاب فاجتهدت أولا فى التغلب على الصعوبات التى تضمها واحدة من هذه الوثائق تضم صيغاً كثيرة الاستعمال ونتيجة لهذا معروفة تمام المعرفة للموثقين وأطراف العقود (لتكون مفتاحاً لغيرها) . ذلك لأن كتبة هذه العقود لا يعنون بتجويد الخط فى معظم الحالات ، بل إنهم فى بعض الأحيان يستغنون عن نقط الحروف ، وهو الذى يميز بين ما يكتب منها بصورة واحدة ويختلف نطقه فى الأبجدية العربية . وعلاوة على ذلك فإن الوثائق التى كتبت بقلم واحد قليلة جداً ، والمجموعة تضم لهذا أنواعاً مختلفة من الخطوط مما يتطلب تكرر المحاولات لحل رموز الكتابات .

ثم كان علىّ بعد ذلك أن أواجه الصعوبات التى يتطلبها تفسير ألفاظ عربية الأندلس والمصطلحات المستعملة ومعانيها الفنية وكذلك الصيغ القانونية غير الواردة فى القواميس المستعملة . وعلى الرغم مما بذلت من جهد لا أشعر أننى مقتنع بتفسيرى لبعض العبارات ، ولن تضايقنى لهذا — بل تسرنى وأقابلها بالشكر — الملاحظات والتصويبات التى يتفضل بها المتخصصون فى الشريعة الإسلامية على رجل مثلى يتعرض للعمل فى ميدان من ميادين الدراسات العربية بعيد كل البعد عن ميدان عمله الحالى .

وكما قلت فى المقدمة تتضمن المجموعة خمسا وتسعين وثيقة تضم مائة وخمسة وسبعين عقداً وتحريراً وثائقية . وهى تتناول ثمانية وثلاثين موضوعاً موزعة كما يلى :

٤٨ عقد بيع وشراء يضاف إليها إقرار بصحة عقد البيع الوارد فى أحد هذه العقود .

١٨ نصاً بإجراءات تنفيذ مما يرد فى الهوامش أو فى أسفل الصفحات .

١٤ وثيقة قسمة تركة ، يضاف إليها عقد قسمة تركة مشاع وعقد آخر خاص بتنفيذ اتفاق على قسمة تركة .

١٦ إقرار سلطانياً لعقد بيع .

١٦ تفويضاً .

١٠ إقرار خبراء بتقدير ثمن يضاف إليهـا إقرار خبراء على حقوق مال وآخر يتضمن إقرار خبراء بتحديد ملكيتين .

٨ عقود تسليم مبالغ .

٤ هِبَـات .

٤ عقود معاوضات .

٤ وصايا تضاف إليها وثيقة خاصة بنسخ وصية ووثيقة بيان بأسماء ورثة .

٤ وثائق تمليك .

٤ عقود مخالصة .

٢ عقدا تنازل عن أملاك .

٢ عقدا زواج .

٢ تنازل عن حق فى المقاضاة .

٢ حكم بإقامة وصاية على أيتام ووثيقة تقديم وشهادتان بتقدير نفقات وصاية وشهادة عشرة عدول على حاجة يتامى صغار إلى وصى وشهادتان بثبوت أو إعلام .

وبالإضافة إلى ذلك تضم المجموعة وثيقة عن كل من الموضوعات الآتية :

تبنى يتيم ، عقد كراء ، اعتراف بدين ، صحة خطوط ، التزام ، خلع ، تعديل شهود ، عقد افتكاك أسير ، عدم ترك حريم لدار .

وأخيراً ، تدخل فى المجموعة وثيقتان محررتان بشأن مطالبة بمال ، واحدة منهما تقتصر على المطالبة والرد عليها ، أما الأخرى فأكمل إذ تتضمن المطالبة والرد عليها ، وشهادة بدفع المال ، وإقرارين بتسليمه ، وعقد إقرار قضائى ، وعقد بيع وشراء خاص بالعقار الذى تدور المطالبة بشأنه ، والصلح بين الطرفين وانتهاء المطالبة .

وقد صدرت تسع عشرة وثيقة من هذه عن الديوان الملكى الغرناطى لأنها تضم عقود بيع وشراء خاصة بأملاك ملوك بنى نصر . فالوثائق أرقام ١٤ و ١٥ و ١٦ تخص السلطان أبا النصر سعد ورقم ٢٦ السلطان أبا الحسن على ورقما ٦٥ و ٧٨ السلطان أبا عبد الله محمد بن على آخر ملوك غرناطة . وتضم هذه الوثائق إلى جانب ذلك أسماء ملوك آخرين مما يسمح بتعرف قراباتهم وتحديد التواريخ الخاصة ببعض سلاطين غرناطة .

ومعظم الصيغ القانونية التى ترد فى هذه الوثائق لا زالت جارية فى الاستعمال إلى اليوم فى المغرب والكثير منها تختلف عنها مما يدل على أنه كانت لأهل الأندلس الإسلامى خصائص إقليمية تتعلق بتطبيق أحكام الشرع ، خصائص فرضتها ظروف الوقت والعادات الجارية فى هذه المدينة أو تلك الناحية .

وربما كانت الناحية التى تتبين فيها هذه الخصائص المميزة بصورة أوضح هى وثائق الهبات . فإننا نتبين فى هذه التى تتضمن هبات على وجه التصدق فى المغرب أنها تستعمل دائماً صيغة « وَهْب » أما فى مجموعات الوثائق الأندلسية فتستعمل لهذا النوع من الهبات عبارة « تَصَدُّق » ؛ وقد أصدرت محاكم الاستئناف فى المغرب فى وقتنا هذا أحكاماً تقرر أن ورود عبارة « لوجه الله » فى وثيقة هبة لا يستلزم بصورة قاطعة أن الهبة تمت على وجه التصدق . وقد اعتمد الفقهاء الذين أصدروا هذا الحكم على حقيقة واقعة وهى أن بعض الصيغ اللغوية التى يستعملها العدول عادة فى تحرير الوثائق لا تعتبر ذات معنى ملزم إذا ثبت أنها لا تتفق مع رغبة الأطراف المتعاقدة .

ومع ذلك فإننا نجد أن هذا النوع من الوثائق الغرناطية لا يقتصر فيه على عبارة « بوجه الله » وإنما تضاف إليها عبارات أخرى مثل : « وكريم ثوابه » و « الدار الآخرة » وهى تؤكد طابع التصدق فى الهبة وتؤكد أنه لم يرد بها غير هذا الوجه . وعلى هذا فمن الممكن أن نقول إنه كانت هناك طريقة غرناطية معينة فى صياغة عقد هبة التصدق وإن هذه الطريقة ظلت مرعية فى مراكش التى ظلت تتبع اتباعاً حرفياً تقاليد فقهاء الأندلس .

وفى هذه الوثائق يستعمل للتعبير عن التملك الشرعى الذى يذكر عادة بلفظ « حَوْز » و « يَد » فعل « قَبَضَ » وهو يعنى مفهوم التملك المادى ولكنه لا يتضمن التملك الشرعى القانونى .

وهناك خصائص أخرى تتعلق بالمصطلح القانونى المستعمل فى وثائق الهبات الغرناطية ، ومثال ذلك استعمال لفظ « إقباض » وهو يعبر عن التملك القانونى للهبة ، فى حين أنه عند ما يستعمل فى معناه الفنى يعنى أكثر من ذلك : انتقال حق التملك على هذه الهبة إلى الموهوب . وكذلك استعمال لفظ « احتازَ » بدلا من لفظ « تحويز » وهو الذى يستعمل متناوباً مع لفظ « إقباض » فى الوثائق الأندلسية ، وهو يعنى انتقال ملكية الشىء الموهوب . وكذلك يستعمل لفظ « أَخْلَى » بدلا من « تَخَلَّى » فى الفقرة الخاصة بإخلاء الشىء الموهوب إذا كان بيتاً أو بناء أو ما أشبه .

والكثير من هذه العقود يبدو « مثبوتاً » . وفى بعض الحالات يعبر عن الظروف الخاصة بوقوع « الثبوت » وفى حالات أخرى يورد الكامل للحكم بالثبوت ، ويكتبه القاضى عادة . وعند ما تكون الوثيقة نسخة من العقد الأصلى ينص على أنها قوبلت على الأصل ، وينص فى بعض الأحيان على أنها صحيحة . فإذا كان قد دخلها تصحيح أو تعديل أو زيادة فيوضح ذلك فى آخر الوثيقة . وفى العقود الخاصة بانتقال ملكية عقارات من أملاك البيت المالك فإن ذلك يتم بناء على أمر سلطانى ، وينص فى الهامش على أن الانتقال سجل

« مياومة مغرم الأملاك بالحضرة » وهو السجل الخاص بأموال الدولة ، وينص كذلك على أداء الضريبة الواجبة .

وتعتبر الوثيقة رقم ١٩ ذات أهمية خاصة ، وذلك بسبب ندرتها (فلست أعرف وثيقة مشابهة حررت فى ذلك الوقت أو أى وقت آخر قبله) وذلك لأنها تتضمن قضية كاملة مع المطالبة (أى الشكوى) الخاصة بها ، والرد عليها مع شهادة الشهود . وهى تتكون من سبعة عقود وشهادات . وقد وصلت الأطراف المتنازعة إلى اتفاق قبل رفع الأمر إلى القضاء ، فلم يعد هناك ما يدع مجالا لحكم يصدره القاضى بشأنها .

أما الوثيقة رقم ٢٣ فلا بد أن تكون مسودة لمطالبة أخرى من هذا النوع ولكن إجراءاتها لم تتم لأننا لا نجد فيها إلا المطالبة والرد عليها .

وكذلك الوثيقة رقم ٢٧ ذات أهمية خاصة وهى تتضمن عقد افتكاك أسير مسلم . وقد تم الافتكاك فى مقابل خمسة أرطال ونصف « من غزل الحرير الطائب اليوجرى » . ويتضح من الوثيقة أن فارسين مسلمين ضمنا لفارسين نصرانيين أداء الفدية فى مقابل تسليم الأسير وذلك بمحضر فارس نصرانى وآخر مسلم ، وهذا الأخير يبدو فى تلك الوثيقة المحررة فى ٧ شعبان عام ٨٩١/ ٧ أغسطس ١٤٨٦ حاملا لقب « وزير فنيانة » مما يدل على أن لقب وزير لم يكن يستلزم فى ذلك الوقت أن يكون حامله وزيراً من وزراء مملكة غرناطة .

والعقود التى تتضمنها الوثائق من رقم ٨٠ إلى ٩٥ محررة بعد سقوط غرناطة . وتواريخها تقع بين ٨ مارس ١٤٩٢ و ٥ سبتمبر ١٤٩٦ (وهو آخر تواريخ وثائق هذه المجموعة) ونتيجة لذلك نلاحظ وجود نصارى كأطراف من أطراف العقود ، ولو أن الغالب أن تكون الأطراف كلها مسلمة .

وتعتبر هذه الوثائق مصدراً عظيم القيمة والفائدة حافلا بالمعلومات عن الناحية العنصرية للشعب المسلم الذى عاش فى مملكة غرناطة فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وتثبت بصورة قاطعة أنه ينبغى اعتبار هذا الشعب شعباً أندلسياً

أصيلا . وتبدو الآن النظرية التى قال بها مستشرقونا (الاسبان) ثابتة صحيحة بالبرهان الكافى . فأسماء كثير من الأشخاص الذين يبدون فى الوثائق لا تنم عن أصل عربى قريب أو بعيد ، وكذلك ألقابهم لا تنم عن أصول شرقية . وبهذا تتزعزع عادة عربية قديمة حافظ الناس عليها كأنها تقليد ثابت ، وكان المظنون أنها لا تقبل التزعزع أو لا تكاد تقبله . فلقد كان الغرناطى الذى عاش فى القرن الخامس عشر — فيما عدا استثناءات قليلة — لا يحافظ على نسبه ليثبت أنه يرجع إلى قريش أو أى قبيلة عربية عريقة أخرى ، وإنما كان يقرر صراحة أنه وأسلافه أصلهم من وانجة أو بجانة بدلا من الفخر الطويل بنسب شرقى مشكوك فى صحته . إنه يشعر أن جذوره عريقة فى الأرض الأندلسية . وكان يفخر قبل كل شىء بأنه أندلسى ، أندلسى مسلم .

وفى مقابل حالات قليلة لأشخاص يحملون ألقاباً مثل الهاشمى واللخمى والقيسى وهى ألقاب تدل على أصولهم العربية العريقة أو ألقاباً مثل العربى والدمشقى لكى نعرف أن أسلافهم من المشرق — وهى حالات قليلة تعد على أصابع اليدين — نجد عشرات وعشرات من الألقاب الأندلسية مصاحبة لأسماء عادية واسعة الذيوع فى العالم الإسلامى . ولم أستطع التعرف على حقيقة كل الألقاب الأندلسية التى وردت فى الوثائق ، وأرجو أن يوفق بحاثون آخرون إلى إكمال تحقيق ما لم أستطع تحقيقه منها . ومن حسن الحظ أن ذلك ليس كثيراً .

وفيما يلى أورد بياناً بالأنساب الأندلسية التى استطعت تحقيقها : الأنجَرُونى نسبة إلى الأنجَرون Lanjarón ؛ البلنسى نسبة إلى بلنسية ؛ البَلُّورى نسبة إلى بلُّور Válor ؛ البَرِيطى نسبة إلى دار بَرِيطة ، وهى قرية من أعمال بَسطة المذكورة فى هذه الوثائق ، ولم يعد لهذه القرية وجود ؛ البَسطى نسبة إلى بسطة Baza ؛ البيانى نسبة إلى بيانه Baena ؛ البَجَّانى نسبة إلى بَجَّانه Pechina ؛ الدَّلايى نسبة إلى دَلاية Dalías ؛ الدَّانوى نسبة إلى دانية Denia ؛ الغرناطى نسبة إل غرناطة ؛ الحامِّى نسبة إلى الحامَّه ؛ الحَيَّانى نسبة إلى حَيَّانه Jayena ؛

الإلبيرى نسبة إلى إلبيرة Elvira ؛ العِلجى نسبة إلى عِلج Elche ؛ المالقى نسبة إلى مالقه Málaga ؛ المَلاَّحى نسبة إلى المَلاَّحَة La Malá ؛ المَنْظَرى نسبة إلى مَنْظَر ، وهى مدينة وحصن ذكرها ابن الخطيب على حدود مملكة غرناطة ، وقد اختفت الآن ؛ المَرَشَانى نسبة إلى مَرْشانة Marchena أو Maracena ؛ المرتُشِى نسبة إلى مَرْتُش Martos ؛ المُنَشَالى والمُنْتَشَالى نسبة إلى منشال أو مُنتشال Monachil ؛ المُنْيَاشِى نسبة إلى منتماش Bentomiz ؛ النَّوالى نسبة إلى نَوَالة Nigüelas ؛ القَنْبيلى نسبة إلى قنبيل Canbil ؛ القَرَباقى نسبة إلى قرباقه Caravaca ؛ القسطَلِّى نسبة إلى قسطلَّه Cazalilla ؛ القِربليانى من قِرْبليان نسبة إلى Crevillente ؛ القُمارشى نسبة إلى قُمارش Comares ؛ القُرطبى نسبة إلى قرطبة ؛ الرُّمَيْلى أو الرُّميلى نسبة إلى رُمَيْلة أو رُميله ، حاليـــاً رُميَّه Romilla فى بقاع غرناطة La Vega Granadina ؛ الرُّمَيْمى نسبة إلى رُمَيمة ؛ الرُّصافى نسبة إلى الرُّصافة ؛ الصَّخْرى نسبة إلى صخرة الوَلَد ، قرية من حوز قلعة يَحْصُب Alcalá la Real وقد اختفت الآن . السَّالمى نسبة إلى سَالمَــة Salama ، حالياً Benzalema التابعة لقضاء بسطة El partido judicial de Baza ؛ الشَّقُورى نسبة إلى شَقُورة Segura de la Sierra فى مديرية جَيَّان ؛ الشَّلوبانى نسبة إلى شَلوبانه Salobreña ؛ الشَّرقى نسبة إلى شرق الأندلس el Levante ؛ السُّوخَرى نسبة إلى سُوخَر Zújar ؛ الطَّريفى نسبة إلى طَريفــة Tarifa ؛ الأُتريرى نسبة إلى أُطْريرة Utrera ؛ الوادى آشى نسبة إلى وادى آش Guadix ؛ الوانجى نسبة إلى وانجة Huéneja ؛ الجيَّانى نسبة إلى جَيَّان Jaén ؛ الجزيرى نسبة إلى الجزيرة الخضراء Algeciras .

وكما هو طبيعى بالنسبة لهذا النوع من الوثائق يرد فيها ذكر أشخاص من مختلف طبقات المجتمع . ففى بعض الأحيان يرد ذكر شخصيات معروفة من زمن بعيد بسبب ما قاموا به من أعمال سياسية وعسكرية ظاهرة الامتياز خلعت عليهم شهرة فى مملكة غرناطة وخارجها ، ولهذا فقد وردت أسماؤهم فى

كتابات مؤرخى العرب وأصحاب المُؤرَّخات القشتالية ، وذكرها الشعراء فانتقلت إلى ديوان الشعر الشعبى el Romancero . وهذا هو الذى حدث بالنسبة للوزراء الغرناطيين المعروفين رضوان أبى النعيم وأبى السرور مفرج وأبى القاسم ابن رضوان بنجاش Bannigas وأبى القاسم بن السراج وابن عبد البر . فأما الثلاثة الأولون فأصلهم نصارى أسلموا واندرجوا فى حرس السلاطين من العلوج وعن هذا الطريق بلغوا المجد ووصلوا إلى القوة والنفوذ . وأما الرابع والخامس فهما أندلسيان مسلمان ينحدران من بيتين من بيوت غرناطة المشهورة التى تربطها أواصر القرابة بالبيت النصرى . وكانوا كلهم ممن تولوا حكومة غرناطة ، فكان كل منهم المتصرف فى أمورها فى وقت ما . ومن المشاهير كذلك الذين ورد ذكرهم فى الوثائق محمد البلنسى القائد البسطى الباسل ويوسف بن أبى القاسم بن السراج القائد الغرناطى الذى استلفت اهتمام المؤرخين القشتاليين فتحدثوا عن أعماله .

وفى أحيان أخرى تذكر هذه الوثائق أشخاصاً برعوا فى ميادين الآداب والعلوم واستحقوا أن تدرج أسماؤهم فى معاجم الرجال وكتب المختارات الأدبية التى صنفها علماء العرب ، ومن أمثلة هذا الطراز محمد بن سراج ومحمد بن محمد السيد الشريف ومحمد بن محمد بن محمد بن منظور والأزرق وثلاثتهم ممن تولوا قضاء الجماعة أرفع منصب قضائى فى مملكة غرناطة . ومن أمثلته أيضاً علىّ القرباقى ومحمد بن أبى العباس البيانى ومحمد بن ابراهيم الصناع وهم من جلة الفقهاء ثم الشران الشاعر والوادى آشى المؤرخ .

وتضم الوثائق كذلك أخباراً عن غرناطيين آخرين كان لهم نصيب فى ميدان السياسة الغرناطية أو كانوا قادة لجيوشها أو دخلوا فى زمرة أهل الفكر فيها فى القرن الخامس عشر ولم تصل إلينا أسماؤهم إلا عن طريق هذه الوثائق . فممن تذكر الوثائق أنهم كانوا من وزراء غرناطة الذين تولوا الإدارة والحكم فيها — علاوة على من ذكرنا — خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر

الميلادى وطوال الخـامس عشر عبد الله بن سلمون وأحمد بن أبى القاسم بن هانى وأحمد بن محمد الفخار وعلى بن محمد الحداد وحسان الحامى ومحمد بن أحمد ابن حسان ومحمد النقورى ومحمد القنبيلى وسعيد بن سعيد الشُّليمى .

وممن تذكرهم الوثائق بلقب القائد ، وهى مرتبة عسكرية لا يمكن تعريفها بصورة دقيقة ، أبو القاسم بن محمد بن سوده وأبو رضا بن دعمون وخالد بن أبى الحسن جاء الخير وحسن بن ابراهيم الغراف ومحمد بن أبى عبد الله محمد بن محمد المنظورى ومحمد بن أبى النعيم رضوان ابن الوزير الذى سبق ذكره ومحمد ابن الخطيب بن المؤرخ الأديب الأشهر لسان الدين ومحمد بن محمد الينتشى .

وضمت الوثائق كذلك نفراً من قضاة ذلك العصر وفقهائه وشيوخه لم يرد ذكرهم فى معاجم الرجال فمن القضاة عبد الله بن ابراهيم بن محمد بن محمد بن حامد الذى تولى قضاء بسطة ومحمد بن أحمد بن محمد الجعزالى الذى تولى قضاء نفس البلدة . ومن الفقهاء أحمد بن محمد بن أبى بكر الجيانى وابراهيم الصناع ومحمد بن أبى العيش ومحمد بن أحمد بن محمد المغنى ومحمد بن أحمد خرشوش ومحمد بن أحمد القربليانى ومحمد بن أحـمـد القيسى ومحمد بن حسين ومحمد بن محمد بن محمد . ومن الشيوخ أحمد بن محمد بن عطية وأحمد بن سعيد الأشكز وحسن بن سعيد بن زريق وابراهيم الرماد ومسعود بن داوود ومحمد بن أحمد الحجلى .

ولهذه الوثائق أهمية كبرى فيما يتصل بالأعلام الجغرافية ، إذ هى تضم عدداً كبيراً من أسماء المواضع الكبيرة والصغيرة معظمها فى داخل غرناطة وسهلها وجبالها . وتكاد تكون الغالبية العظمى مما يرد من أسماء المواضع الكبيرة صوراً عربية لأسماء مواضع قديمة (أى قبل العصور العربية) والكثير منها سبق لى أو لمتخصصين غيرى تقييده ، فقد سبق ورودها فى نصوص أخرى ، ومن أمثلة ذلك : Albolote (البُلُوط) و Alhendín (الهُمدان) و Alitaje (اللِّطـاخ) و Archidona (أرجِذونه) و Baza (بَسْطه) و Belicena

(بَلِسّانه) و Gabia Chica (فنيـــانه) و Fiñana (قنبيل) و Cambil (غوير الصغرى) و Güéjar Sierra (والجر) و Huetor Vega (وتر) و Jun (شون) و La Malá (الملاحـة) و Nublo (نبله) و Quempe (قَنْب قَيْس) و Tafia (طفير) .

ومن أسماء المواضع التى ترد المرة الأولى فى هذه الوثائق : Asquerosa (اسقروجه) و Caparacena (قربشانه) و Laujar (يوجر) و Monachil (وترد فى صورتين منتشير ومنشال ومن الواضح أن الثانية اختصار للأولى) و Pinillos (ابنيالش) و Pulianas (بليانه) . وورود اسم بلدة Caniles de Baza فى صورة قنولش بدلا من قنالش (التى ترد فى وثائق أخرى) يبدو من الغرابة بمكان .

وتكثر الأسمـاء العربية الصرفة للمواضع بين الأعلام الجغرافية الصغيرة أو الأقل أهمية ، ولو أن الحالات التى ترد فيها أسماء عربية لمواضع كانت قائمــة (ومعروفة بأسماء أخرى) قبل أن تسود اللغة العربية ، ونستطيع القول بأن أسماءها العربية التى لدينا إنما هى مستعربية بشكل واضح . وقد أدرجت كلها فى فهرس الأماكن ، ومن ثم فلا حاجة بنا إلى تكرار ذكرها هنا . وقد بينت فى هذا الفهرس مكان الموضع واسمــه الحالى ما تيسر لى ذلك . وفى معظم الأحيان نجد أن الاسم الحالى ليس إلا صورة قشتالية محرفــة قليلا أو كثيراً للاسم الذى عرف به فى أيام العرب سواء أكان ذلك الاسم عربياً صرفاً أو صورة عربية لاسمه القديم أو لاسمه فى اللهجة المستعربية . ولكننا نجد فى أحيان أخرى أن الاسم الحالى للموضع إنما هو ترجمة للاسم الذى عرف به أيام العرب لا مجرد نقل له بحروفه ، ومثال ذلك الموضع المعروف باسم Casa Bermeja فهو ترجمة لدار الأحمر وكذلك اسم Casanueva فهو ترجمــة للدار الجديدة .

وينبغى الإشارة إلى أسماء المواضع التى أخذت صورة عربية بعد سيادة اللغة العربية فى شبه الجزيرة وكذلك إلى أسماء المواضع التى ترجع إلى أصول مستعربية ، لأن هذه الأسماء ظهرت لأول مرة فى هذه الوثائق ، ومن ثم فإنها لم تكن موضعاً لدراسة أو تحقيق إلى الآن ، ومثال ذلك موضع يسمى إِبِنْيالش وهو الاسم الذى أطلقه المسلمون على موضع جنوبى غرناطة على ضفة نهر شنيل يسميه العامة Pinillos فى حين أن اسمه الرسمى Pinos Genil .

وقد وجدت فى بطاقة بحث لم تنشر بعد من بطاقات فرانثيسكو خابيير سيمونت احتفظ بها بين أوراقى ما يؤكد أنه وجد فى وثيقة غرناطية أخرى اسم هذا الموضع فى صورة بنيالش ومن الواضح أنها صورة أخرى لذلك الاسم ، وأعتقد أن كلتا الصورتين تصغير مستعربى للفظ pinus مضافاً إليه أداة التصغير éllus فنتجت عن هذا صيغة piniellus إذا حسبنا حساب تعاقب حرفى العلة u و e (diptongación) ، وهذا التفسير يعطى لفظ piniellus نفس المعنى الذى يحمله الاسم الذى يطلق على الموضع حاليا . ومن الممكن أن يكون حرف الألف الذى يبدو فى أول صيغة الاسم كما وردت فى الوثائق قد أضيف ليقوى النطق بالحرف الذى يبدأ به الاسم ، وهو حرف p وذلك بتحويل ذلك الحرف الشفوى الصائت إلى حرف صامت . وعلى أى الأحوال فإنه لما يثير الدهشة بقاء اسم هذا الموضع على الصورة التى كان ينطق بها أيام العرب رغم زوال سيادة اللغة العربية وحلول أخرى ، فإن الناس يسمونه اليوم Pinillos متجاهلين التسمية الرسمية ومحافظين على الصورة التى كان يسمى بها فى القرن الثامن على الأقل .

ومن بين أسماء الأعلام الجغرافية الصغيرة نجد إسم بِينَتَر مطلقاً على واد يمر بقرية اللطاخ Alitaje وهو يشرح لنا معنى أداة atar التى نجدها فى ذيل كثير من الألفاظ ، فمن الواضح أن صيغة بينتر (بالباء المخففة) هى الصورة العربية للفظ Pinatar الذى يكثر توارده فى أسماء الأعلام الجغرافية الإسبانية

(مثال ذلك نهر Pinatar فى مرسية و San Pedro del Pinatar وغيرها) وهو مكون من الاسم اللاتينى القديم pinus مضافاً إليه atar ، وهذه الأداة الأخيرة نتجت بدورها عن ازدواج أداتين أخريين ale + etus < al (e) + at (su) < ar + at والأولى منهـا تعطى معنى الجمع أو التجمع colectivo والثانية أداة للمكان locativo ومن المهم هنـا الإشارة إلى الأصل المستعربى الواضح لأداة atar بهذه الصورة بالذات التى تؤيدها الوثيقة العربية التى أتحدث عنها هنا .

وفى أسمـاء مواضع صغيرة أخرى يتجلى لنا الأصل اللاتينى أو المستعربى واضحاً ، ومن أمثلة ذلك بطره وهى الصورة العربية للفظ petra ومُلينه molinum وقُرْتينه Cortina وطرامرته (وتكتب فى بعض الأحيان طنرامرته) < terra-morta وهناك أمثلة أخرى لذلك نجدها فى فهرس الأعلام . وأظن أن اسم قنبجاغر لفظ هجين يتألف من لفظ قنب وهو الصورة النطقية العربية للفظ اللاتينى Campus مضافاً إليه لفظ جاغر الذى لم أصل إلى أصله وفصله .

ونتبين فى اسم بُقَيْقار نوعاً عجيباً من صيغة تصغير لصيغة تصغير ، وهى خاصية من خصائص اللهجة العربية الأندلسية ، وهى تصاغ بتضعيف الحرف الثانى من الحروف الأصلية للفظ (القاف فى هذه الحالة) وإجراء الصيغة الحاصلة مجرى صيغة التصغير الصرفية فى العربية الفصحى . وفى رأيى أن بقيقار مصغر المصغر الفصيح بقير وهو يقابل Vaquitilla وهى صيغة تصغير أندلسية لصيغة التصغير القشتالية Vaquita . وصيغة تصغير التصغير هذه أندلسية صرفة كثيرة التوارد ، ويمكن اعتبارها اقتباساً من عربية اسبانيا ، ولا يقتصر ظهورها فى هذه الوثائق على الأعلام الجغرافية بل نجدها كذلك فى أعلام الأشخاص ، ويدخل فى هذا الطراز الصرفى من التصغير بواسطة تضعيف الساكن الثانى لفظ عليلش (كذا فى الأصل وهو تحريف يغلب أنه مقصود وأعتقد أن صحته عليلج) ومعناه elchecillo وهو تصغير للمصغر عليج .

ومن خلال هذه الوثائق تبدو لنا نقطتان لغويتان أخريان جديرتان بالملاحظة . أولاهما زيادة ūn فى اسم مستعربى صريح الأصل ، ومثال ذلك بطرون (Biṭr + ūn وربما كانت نقلا عربياً بالحروف اللاتينى Petrus + ūn) وهنا نتساءل : ماذا يكون عمل ūn فى هذه الحالة ؟ هل يراد به التصغير كما هو الحال عند ما كان يضاف إلى الأسماء فى عربية المشرق ، وفى عربية الأندلس أيضاً ؟ هل هى إضافة تعين أصل الشخص كما هو الحال فى ez القشتالية ؟ أو هى تقابل on الاسبانية التى تعنى زيادة المعنى ؟

وأما النقطة الثانية فهى ظهور هذه الزيادة (ūn) فى صيغة المؤنث ، فهى توجد فى أسماء أعلام النساء مثل عيسونه ، وأعتقد أن هذا الاسم مكون من عيسى مضافاً إليه ـونه مع افتراض حذف حرف العلة الطويل عند التقائه بواو ـونه .

ولا تقل عن ذلك أهمية هذه الوثائق فى تعريفنا بالنقود التى كانت متداولة فى عصرها ، فهى تزودنا بمعلومات قيمة عن العملات التى كانت جارية فى مملكة غرناطة إذ ذاك وعن القيم التى وصلت إليها هذه العملات بحسب سكتها وعن نسب قيم المسكوكات المتداولة من المعادن المختلفة بعضها إلى بعض . فبفضل هذه الوثائق أصبح من المستطاع التعرف على حقيقة بعض أنواع النقود التى كنا نجهلها ، وأعنى بذلك العملات الفضية والنحاسية الموجودة فى مجموعات النميات الأندلسية وهى عملات كانت تضرب فى نفس القالب الذى تضرب فيه الدُّبلة dobla وهى عملة ذهبية كما هو معروف .

وجميع هذه القطع الفضية أو النحاسية التى سكت لتتداول على أنها دُبلات ذهبية تدخل فى مجموعة العملة النصرية ، وهى من سك سلاطين حكموا غرناطة خلال القرن الخامس عشر . ويتضح من الوثائق أن هذه العملة الفضية التى سكها سلاطين بنو نصر وأعطوها قيمة عملة ذهبية معينة احتفظت بالتقليد الموحدى فيما يتصل بهيئتها ، أى أنها مربعة لا مدورة كما كانت الدبلة . وهذه الهيئة المربعة هى التى حيرت علماء النميات ، إذ أنهم لم يكونوا يتصورون أن هذه

الدبلات الفضية أو الفضية المموهة بالذهب أو النحاسية كانت تتداول بين الناس بقيمة العملة الذهبية ، وظنوا أنها عملات مزيفة سكت لتحل محل العملة الذهبية عن طريق الغش .

وأما الدبلة أو القطعة الذهبية فإن قيمتها تساوى قيمة عدد معين من الدنانير ، وفى وثائق هذه المجموعة نجد ثلاثة أنواع من الدنانير شرعية متداولة بين الناس فى معاملاتهم التجارية ، وكلها كانت معتبرة نقوداً صحيحة بقيمة الدينار الذهبى . وهذه الثلاثة هى الدينار الذهبى نفسه والدينار الفضى ثم الدينار العينى ، وهى لفظة كانت تستعمل للدلالة على نوع من العملات بمعنى يقابل ما تعنيه لفظة العملة النحاسية de vellón فى مصطلح النميات عندنا .

ويبدو بوضوح أن الأنواع الثلاثة من العملة التى ورد ذكرها فى وثائقنا وهى الدبلات الذهبية والفضية والعينية المعاصرة لهذه الوثائق تنطبق على الأنواع الموجودة فى مجموعات عملاتنا ، ولهذا لم أتردد فى القول بأن هذه هى تلك واستنتجت من ذلك أن قطع العملة الفضية أو العينية التى ضربت بسكة الدبلة الذهبية ليست زيوفا كما حسب علماء النميات ، وإنما هى عملات صحيحة كانت تتداول بقيم شرعية وإن كانت تعتبر دون الذهبية فى القدر كما هو الحال مع عملتنا الورقية الحالية .

وتعيننا بعض الوثائق على تعرف قيم بعض أصناف النقود بالنسبة إلى بعضها البعض . وبصورة عامة كانت الأثمان تقدر بالعملة الذهبية ، أما الدفع فقد يكون بالدنانير الذهبية أو العينية . فالوثيقة رقم ٥٤ تتضمن عقد معاوضة تم سنة ١٤٨٥ ومن نصها يتبين ان الدينار الذهبى يعادل سبعة ونصفا من الدنانير الفضية . فإن قيمتى العقارين المتعاوضين (المتبادلين) فى هذه الوثيقة اختلفتا فكان على أحد المتعاملين أن يؤدى إلى الآخر فرق القيمة نقدا وهو « ٢٨ من الذهب بالصرف المعتاد » دفع له منها فى الحال « ١٦٠ دينارا من الفضة الجديدة » وبقيت عليه خمسون دينارا فضية من نفس النوع « تندفع بالحلول »

أى فيما بعد عندما يطلبها الدائن . ومعنى ذلك أن ٢٨ دينارا ذهبيا تعدل ٢١٠ دينارا فضيا ، أى أن الدينار الذهبى الواحد يساوى سبعة ونصفا من دنانير الفضة .

والوثيقة رقم ٦٥ ب وموضوعها عقد بيع تم سنة ١٤٩١ تعرفنا بأن الدينار الذهبى كان يساوى ٧٥ درهما ، وكان الدرهم هو وحدة العملة الفضية المتداولة . وقد عرفنا من الوثيقة السابقة أن الدينار الذهبى يساوى ٧ ½ من دنانير الفضة ، ومن ثم فإننا نستنتج من الوثيقتين معاً أن دينار الفضة يساوى ١٠ دراهم فضية . ولهذا السبب فإننا نجد الدنانير الفضية إذا ذكرت فى الوثائق أُتْبِعَت فى كثير من الأحيان بلفظ عَشْرية أى ذات العشرة دراهم . وعلى هذا تكون نِسَب قيم العملات السالفة الذكر كما يلى :

دينار ذهبى واحد = ٧,٥ من دنانير الفضة = ٧٥ درهما فضيا .

ولا تذكر النقود التى يتم بها الدفع فى هذه الوثائق إلا محددة بدقة : دينار فضة عشرية ، دينار ذهبى جديد (أو قديم) ، ويشار كذلك : دينار عَيْنى سعدى (أى من التى ضربها السلطان سعد) ، دينار عينى جديد من سكة السلطان أبى عبد الله (ربما كان المقصود السلطان محمد التاسع) ، دنانير غالبية (من سكة سلطان تلقب بالغالب بالله) ، دنانير من سكة السلطان أبى عبد الله الصغير (محمد الثامن) . . . الخ . وكانت العملة القشتالية جارية متداولة فى غرناطة فى القرن الخامس عشر ، ففى بعض الوثائق نُصَّ على الثمن المتفق عليه دفع « بالريالات القشتالية » . وقد ذكر المثقال مرة واحدة .

وتتضمن الوثائق معلومات مفيدة لدراسة الحالة الاقتصادية فى غرناطة خلال القرن الخامس عشر . وهذه المعلومات تتعلق بصفة خاصة بقيم عقارات . وهى عبارة عن جنات (حدائق أو أراض زراعية بداخلها دار) داخل غرناطة وخارجها أو دور بداخل العاصمة ، وتتعلق كذلك بأثمان بعض المحصولات

والآلات الزراعية والأثاث وماعون البيوت وآنية المطبخ والملابس والأطعمة وأدوات الصناع .

وليس فى نيتى أن أقوم بدراسة شاملة لهذه الناحية ، فإن المتخصص الذى تهمه الناحية الاقتصادية يستطيع أن يقوم بهذه الدراسة على الوثائق نفسها ، ولكنى أعرض هنا طرفاً من هذه المعلومات على سبيل التقديم . ولما كان من العسير تحديد النسبة بين نقودنا الجارية اليوم والنقود التى كانت جارية فى ذلك العصر ، فإنه من الممكن أن نتخذ أساساً لتقديراتنا وزن الوحدة الذهبية للعملة الغرناطية والعلاقة بين هذه ووحدة العملة الفضية . كان وزن الدينار الغرناطى الوافى العيار (٢٢ قيراطاً) جرامين على وجه التقريب . ومن المناسب لهذا المقام أن نذكر أن الدينار الذهبى كان يساوى ٧ ½ من الدنانير الفضية ، وأن الدينار الفضى يساوى عشرة دراهم فضة ولم أصل إلى تعرف العلاقة بين قيمة الدينار العينى وقيم هذه العملات التى ذكرتها آنفاً . ولكن لما كانت الأثمان تقدر أساساً بدنانير الذهب — فإذا كان الثمن أقل من دينار ذهبى قدر بدنانير الفضة ، وإذا كان الثمن أقل من دينار فضة قدر بالدراهم الفضية — فإن تقدير النسب بين هذه العملات بعضها إلى بعض ليس بالغ التعقيد كما يبدو .

ففى سنة ١٤٩١ بيع مرجع من الأرض (والمرجع مقياس تزيد مساحته على ٥٠٠ متر مربع بقليل) داخل مدينة غرناطة فى الموضع المعروف اليوم باسم حديقة لوس انخيليس ، وكان يعرف إذ ذاك بجنة عصام بمبلغ تسعة دنانير ذهبية (٢٠ جراماً من الذهب عيار ٢٢ قيرطاً) . وكانت تلك الدنانير التسعة تساوى بالصرف الجارى إذ ذاك ٦٧٥ درهما من الفضة . وهذه الأرض بالغة الجودة وفيها منهل ماء لريها .

وفى قرية اللطاخ الواقعة فى مرج غرناطة بيع ٥٠ مرجعاً من أرض السقى بمبلغ ٢٠٠ دينار من الفضة العشرية ، أى بمبلغ ٢٠٠٠ درهم من الفضة ، أى أن ثمن المرجع الواحد كان ٤٠ ديناراً فضية (تساوى ٥,٣٦ ديناراً ذهبيا

مجموع وزنها حوالى ١٣ جراماً عيار ٢٢ قيراطاً) . وهذه الأربعون ديناراً فضية كانت تساوى ٤٠٠ درهم من الفضة .

وفى نفس الموضع بيع ٧٥ مرجعاً من أرض تسقى بالمطر بخمسة وأربعين ديناراً فضية ، أى بمبلغ ٤٥٠ درهما . وعلى هذا يكون ثمن المرجع ٦ دراهم فضية تعادل ٠,١٧ جراماً من الذهب عيار ٢٢ قيراطاً .

وليس من الميسور أن نعرف ، ولو على وجه التقريب ، قيمة العقارات من المبانى وما يتصل بها من الحدائق داخل المدن ، إلا إذا كانت لدينا أوصافها ، ووثائقنا لا تصف هذه العقارات وإنما تكتفى بتعيين مواضعها وحدودها . أما أثمان المحاصيل الزراعية والأثاث وماعون البيت وآنيته فيمكن تقديرها بنفس العملات التى سبق ذكرها . وقد قمت بتحويل هذه الأثمان إلى دراهم فضية ويستطيع القارىء أن يعرف القيم والأسعار إذا عرف أن درهم الفضة كان يعادل على وجه التقريب ٠,٠٢٧ من الجرام من الذهب عيار ٢٢ قيراطا . هذا ومن غير الممكن معرفة هذه الأثمان والقيم إلا على وجه التقريب ، لأنها — أى الأثمان — كانت تتفاوت دون شك بحسب نوعها وحجمها وما إلى ذلك مما يتعلق بالأشياء والمحاصيل ، والأثمان والقيم التى أوردها فيما بعد تصدق على الوسط من ذلك كله :

طيفور (منضدة صغيرة منخفضة أو طبق عميق)	= ٤ دراهم
مرفعه (دولاب صغير)	= ٨ دراهم
تابوت (صندوق) من الخشب	= ١٦ درهما
مقلاة نحاس	= ١٢ »
برمة نحاس	= ٣٠ »
برمة فخار	= ١٠ »
مضربة (قارورة) زجاج	= ٢٥ »

مضربة مالقية (من مالقة) = ٦٠ درهما

مهراس صينى = ٣٠ «

طبيرة (إناء) فخار = ٢ «

خابية = من ٢٥ إلى ٣٠ درهما

خابية للماء = ٨،٣٢ درهما

خابية للدقيق = ٤ دراهم

مطرج (مرتبة) جلد = ١٣٠ درهما

قطيفة (بساط) صوف = ٨٠ «

قطيفة (غير معينة المادة) = ٣٠ «

سلايخ = ١٠ دراهم

ملحفة سرير من الحرير = ٤٠ درهما

إزار (مفرش سرير) من الكتان = ٦٠ «

مخدة حَلْفَا (من الحلفاء) = ٣ «

لحاف = من ٨٠ إلى ١٢٠ درهما

سجادة صلاة = « ٢ إلى ٢٥ درهما

ملوطة ملف = « ١٥٠ إلى ٢٢٠ درهما

قميجة (قميص) = ٥ دراهم

قميجة شقة (قميص من الكتان) = ٥٠ درهما

زوج جوارب = ٣٢ «

بذلة منشف (مئزر وخمار) مستعملة = ٥ دراهم

منشف غزل (كتان) = من ١٢ إلى ٣٠ درهما

بذلة دُرنوق (أى مستعملة مَرْفُوَّه) = ٨ دراهم

سروال نساء = ١٠ «

منديل مرقوم (أى مطرز) = ١٦ درهما

سَبَّاطان جلد = ١٣ درهما
ملحفة راس = ١٣٠ «
عمرونة (أى خمار) = من ٢ إلى ١٢ درهما
فضالة شقة = ٣٦ درهما
منشار نجار = ١٠ دراهم
مرمة (منسج من الخشب) = ١٠ دراهم
بشاطير (يد من الخشب وهى من أدوات الصناع) = ٣ دراهم
وعاء للخبز = ٣ دراهم
اسكرفاج (مبرد) ومغرفة للنار (ماشة) = ٥ دراهم
شقور (مِنْجل) = ٢٠ درهما
سلوم (سلم) صغير من الخشب = ١٦ «
منقش = ٥ دراهم
مسجاة بلطية = ٢٤ درهما
رَتعة للدواب = ٤ دراهم
جوهر = ١٠ «

وفيما يلى بيان ببعض تقديرات أخرى :

حمار = ٣٠٠ درهم فضية
شيء من الجوهر = ١٠ دراهم
كمية من غزل الكتان غير معروف وزنها = ٦ دراهم
أتعاب خبير = ١٥٠ درهما
نفقات تجهيز ميت = من ٢٨٦ إلى ٣٠٢ درهما
افتكاك أسير = « ١٣٠ إلى ٢٠٠ درهم
أتعاب قَسم تركة = « ٣٠ إلى ٦٠ درهما
أتعاب قسم التركة وتحرير الوثيقة اللازمة = ٣٠٠ درهم من الفضة

مبلغ الكراء الشهرى لمصرية (غرفة فى
طابق مرتفع يوصل إليها بسلم خارجى)
كائنة بدرب القرافين بغرناطة وهو موقع
مركزى فى البلد = ١٠ دراهم

وينبغى أن نشير إلى بعض ما تكشف لنا المجموعة عنه من مظاهر أخرى تتصل بالحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد التى جرى عليها أهل غرناطة فى ذلك العصر . فمن ذلك أنه عندما يحرر عقد بيع عقار فى المدينة ويشترط فيه أن يكون دفع الثمن منجما على الشهور تكون هذه الشهور هى القمرية ، كلما انقضى منها شهر حل موعد أداء جزء من الثمن ، أما إذا كان المبيع عقارا زراعيا فإن الحساب يكون على أساس نهاية السنة الزراعية ، وكانت هذه السنة تنتهى فى شهر اكتوبر فى الأندلس ، ولهذا ونظرا لتغير مواقيت الشهور الهجرية فقد كانوا عند حساب المواعيد التى تحل فيها آجال أداء الدين يتخذون الشهور الشمسية أساسا .

ويتبين من هذه الوثائق أن أثاث البيت فى غرناطة فى القرن الخامس عشر كان فقيرا قليلا ، فقد كان يتكون من طيافير (جمع طيفور وهو الطبق العميق أو المنضدة الصغيرة) ومَرْفَعات (جمع مرفعة وهى دولاب صغير منخفض) وتابوت (صندوق) ومراتب ومخدات للنوم والجلوس وسجاجيد وأبسطة للحماية من برد الأرضية . وهذا هو كل أثاث البيت وماعونه الذى تذكره هذه الوثائق .

وتقدم لنا الوثائق كذلك معلومات ذات فائدة للتاريخ السياسى للأندلس الإسلامى فى القرن الخامس عشر ، وقد انتفعت بهذه المعلومات فى دراسات سابقة ، وهذه المعلومات تعيننا على تحديد التواريخ الخاصة ببعض سلاطين غرناطة وأقربائهم وتحقيق شخصياتهم .

وقد نشرت فى هذا الكتاب النص العربى لهذه الوثائق مصحوبا بترجمة اسبانية لها . وذيلت كلا من النص العربى والترجمة الاسبانية بفهارس عامة للمواد وأعلام الأشخاص والأعلام الجغرافية . وقد اجتهدت فى تحقيق هذه الأخيرة والتعريف بأسمائها الحالية ، وهذه الأسماء فى الغالب ليست إلا رسما بالحروف لأسمائها العربية .

وذيلت النص الاسبانى بجامع مفردات صغير يضم ألفاظا عربية دخلت اللغة الاسبانية ، وكانت جارية الاستعمال فيما مضى ولكنها لا تستعمل ، أو تستعمل على ندرة فى أيامنا هذه . وذيلت النص العربى بجامع مفردات آخر صغير يضم أيضا الألفاظ الخاصة باللهجة العربية الأندلسية والتى استعملت بمعان خاصة فى هذه الوثائق ، ومن ثم فإنه يعسر العثور عليها فى المعاجم المتداولة .

وأختم هذا التقديم الموجز بكلمة تقدير وشكر لمعهد الدراسات الإسلامية فى مدريد والقائمين بالعمل فيه على ما بذلوا من جهد فى معاونتى فى مراجعة تجارب الطبع وفى إخراج هذه الوثائق وترجمتها وفهارسها على الصورة التى يراها عليها القارىء .

لويس سيكو دى لوثينا

نقلها من الإسبانية إلى العربية حسين مؤنس

وثائق تاريخية جديدة
عن عصر المرابطين

لست أضيف جديداً إذا قلت إن تاريخ دولة المرابطين فى المغرب والأندلس ما زال من أغمض فترات تاريخ الغرب الإسلامى على الرغم مما أحرزته النصوص والدراسات الأندلسية فى السنوات الأخيرة من اهتمام كبير وتقدم لا بأس به .

والسبب فى ذلك جلىّ بيّن ، إذ لم يصلنا من الكتب التاريخية التى تناولت عهد المرابطين إلا شىء يسير نجده فى ثنايا ما كتب عن تاريخ المغرب مثل ما ورد فى « الحلل الموشية » لمؤلف مجهول و « المعجب » لعبد الواحد المراكشى و « روض القرطاس » لابن أبى زرع و « الاستقصا » للسلاوى و « العبر » لابن خلدون ، وهى كتب تتحدث عن المرابطين فى إيجاز شديد لا يكاد يشفى غلة ، كما أن كثيراً منها متأخر لا يكاد يمدنا بتفصيل واف عن أخبار هذه الدولة التى قدمت للاسلام فى المغرب والأندلس أجل الخدمات ، وجاهدت فى سبيله أعظم الجهاد .

ولاشك فى أن نبأ العثور على الجزء الخاص بالمرابطين من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى سوف يسد جانبا كبيراً من هذا الفراغ ، وقد كان من دواعى الغبطة أن نخبة من علماء المغرب يقومون الآن بإخراج هذا الكتاب إلى النور بالاشتراك مع المستشرق الإسبانى الأستاذ أمبروسيو أويثى الذى تخصص فى تاريخ المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس[1] .

---

(١) أذكر بهذه المناسبة أننى تمكنت من الاطلاع على هذا الجزء المرابطى من « البيان المغرب » بعد أن مضيت شوطاً فى هذا البحث ، وكان الفضل فى ذلك يرجع إلى تلطف الأستاذ أويثى الذى تكرم على المعهد بتقديم نسخته التى كتبها بخطه من هذا الكتاب إلى الأستاذ الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد ، فللأستاذين الكريمين خالص الشكر على ذلك .

أما فى الأبحاث الحديثة فلم تكن الدولة المرابطية أسعد حظا فى الحكم الذى استحقته من أصحاب هذه الأبحاث ، وقد سبق لأستاذنا الدكتور حسين مؤنس أن بين ما فى كتابات معظم المؤرخين الأوربيين المحدثين من حملة ظالمة على المرابطين كان الدافع إليها إما التعصب الدينى أو الكراهية التى كادت تكون « شخصية » كما نرى فيما كتبه عنهم الباحث الهولندى العظيم راينهارت دوزى[١] .

ولما كانت المادة التاريخية المبعثرة فى المراجع الأندلسية والمغربية ضئيلة نزرة فقد كان من المتعين على دارس هذه الفترة أن يجمع كل الوثائق التى وردت فى ثنايا كتب الأدب والتراجم المطبوعة والتى لا زالت مخطوطة بعد ، إذ لاشك فى قيمة هذه الوثائق فى المساهمة بإعادة بناء التاريخ المرابطى بشكل يمكن من كتابته على نحو أقرب إلى الدقة وأبعد عن الاشتطاط .

وقد قام الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بتوجيه نظر الباحثين إلى قيمة مجموعتين من الوثائق المرابطية عثر عليهما فى بعض مخطوطات مكتبة الاسكوريال ، وقام هو نفسه بنشر سلسلة منها يتبين لقارئها مدى ما تشتمل عليه من أخبار تلقى كثيرا من الضوء على هذه الفترة[٢] .

وهكذا بدأت بعض نواحى التاريخ المرابطى تتضح ، وإن ظل الكثير منها ما زال يكتنفه الغموض ، هذا على الرغم من المحاولات التى اضطلع بها بعض

---

(١) الدكتور حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثانى (سنة ١٩٥٤) ، ص ٥٧ — ٥٨

(٢) نشر الدكتور حسين مؤنس المجموعة الأولى من هذه الوثائق تحت عنوان « الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين مع أربع وثائق جديدة » فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٤٩ ، ص ٩١ — ١٤٣ ؛ والمجموعة الثانية فى صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤ تحت العنوان الذى أوردناه فى الحاشية السابقة ، ص ٥٥ — ٨٤ ؛ والمجموعة الثالثة فى المجلد الثالث من هذه الصحيفة ، سنة ١٩٥٥ ، ص ٩٧ — ١٤٠ تحت عنوان « نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين » .

الباحثين المحدثين من أجل كتابة « تاريخ » شامل لدولة المرابطين[١] ، وهى محاولات نراها — رغم قيمتها والجهد المبذول فيها — سابقة لأوانها ، إذ أنه ينبغى أولا العمل على جمع كل النصوص المتعلقة بالمرابطين فى الكتب المطبوعة والمخطوطة ، مما لا غنى للمؤرخ الحديث عن الاطلاع عليه والانتفاع منه إذا أريد كتابة تاريخ علمى أقرب ما يكون إلى الكمال لهذه الدولة .

وقد كان من بين النوادر المخطوطة التى قدر لمعهد الدراسات الإسلامية فى مدريد أخيرا أن يحصل عليها من تركة المستشرق الفرنسى الأستاذ ليفى بروفنسال بعد وفاته فى سنة ١٩٥٦ — كتاب مخطوط فيه مجموعة من الرسائل السياسية والأدبية القيمة مما كتب عن سلاطين المغرب والأندلس فى عصرى المرابطين والموحدين خلا عدد قليل لا يتجاوز أربع رسائل مما حرره كتاب مشارقة .

وكان الأستاذ جورج كولان قد حصل على هذه النسخة المخطوطة فى فاس فى نحو سنة ١٩٢٦ ، وأعارها الأستاذ ليفى بروفنسال ، فاستخرج هذا منها الرسائل المتعلقة بتاريخ الموحدين ونشر نصها العربى فى الرباط فى سنة ١٩٤١ بعد أن أضاف إليها نص رسالة موحدية استخرجها من كتاب « صبح الأعشى » للقلقشندى[٢]؛ ثم أتبع المستشرق الفرنسى هذه الطبعة بترجمة فرنسية لتلك الرسائل السبع والثلاثين مع دراسة سياسية تاريخية نشرت فى مجلة « إسبريس »[٣] .

(١) نذكر من هذه المحاولات فى المكتبة العربية الحديثة كتاب الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود عن « قيام دولة المرابطين » ، القاهرة سنة ١٩٥٧ ، وهو بحث لا يتناول التاريخ المرابطى كله بل هو كما يدل عليه عنوانه خاص بالفترة الأولى من تاريخهم ، ومن الكتب الأوربية البحث الذى وضعه المستشرق الإسبانى الشاب بوسك بيلا تحت عنوان « المرابطون » ، نشر معهد الجنرال فرانكو للدراسات والأبحاث الاندلسية ، ط. تطوان سنة ١٩٥٦ : Jacinto Bosch Vila: *Los Almorávides*, ed. Instituto General Franco de Estudios e Investigación Hispano-Arabe; Tetuán, 1956.

(٢) نشر هذا النص تحت عنوان « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » ، الجزء العاشر من مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، الرباط سنة ١٩٤١

(٣) E. Lévi-Provençal: *Un recueil de lettres officielles almohades. Etude diplomatique et historique*, Hespéris, t. XXVIII, 1941, pp. 1—80.

وقد بقيت من المخطوطة بعد ذلك الرسائل المشرقية الأربع التى أشرنا إليها ، ومنها اثنتان للكاتب أبى اسحاق ابراهيم الصابى وزير الدولة البويهية ، والأخريان للكاتب عبد الرحيم بن على البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل فى فتح بيت المقدس ؛ ثم اثنتان وعشرون رسالة كلها من عصر المرابطين فيما عدا رسالة واحدة لأبى حفص ابن برد المعروف بابن برد الأصغر ، وهو من كتاب عصر ملوك الطوائف .

وقد رأيت أن أستخرج الوثائق المرابطية التى تركها ليفى بروفنسال من هذا المجموع فأنشرها هنا ، وهى كما ذكرت إحدى وعشرون رسالة ، وقد ألحقت بها كذلك رسالة ابن برد المنوه بها .

المخطوط

أما النسخة المخطوطة التى اسْتُخْرِجَتْ منها تلك الرسائل سواء منها الموحدية التى نشرها ليفى بروفنسال أو المرابطية التى هى موضوع هذا البحث فإنها مبتورة الأول والآخر مما يتعذر معه معرفة اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، وهى تقع فى ١١٨ ورقة حفظت كلها فى حالة جيدة ، وأما الخط فمغربى متوسط الجودة ، وتبلغ مساحة الورقة نحو ٢٠×١٨ سنتيمترا ، ومسطرتها تتراوح بين ٢٨ و ٢١ سطراً فى الصفحة ، ومتوسط عدد الكلمات نحو إحدى عشرة أو اثنتى عشرة كلمة ، وقد كتبت عناوين الرسائل فى كثير من المواضع بمداد أحمر[1] .

وتقع مجموعة الرسائل التى أنشرها هنا بين وجه الورقة رقم ٧٦ وظهر الورقة ٨٧ من الأصل المخطوط .

---

(١) أوردت هذا الوصف المخطوط إذ أن الأستاذ ليفى بروفنسال لم يتحدث عن ذلك فى مقدمة نشرته للنص العربى لمجموع الرسائل الموحدية ولا فى ترجمته الفرنسية لها ، وكان قد اعتذر عن ذلك فى تقديمه لتلك الترجمة بأن المخطوط لم يكن بين يديه فى وقت كتابته لها . انظر *Un recueil de lettres officielles...*, p. 3, n. 6.

كتاب الرسائل

عدد الرسائل كما ذكرنا اثنتان وعشرون ليست فيها إلا واحدة لم ينص على كاتبها ، أما الباقية فمنها واحدة لأبى حفص ابن برد ، وسائرها مما كتبه كتاب مرابطيون بين سنتى ٤٩٩ و ٥٢٣ هـ . (١١٠٦—١١٢٩ م) .

أما ابن برد فهو الكاتب الوحيد الذى لا نستطيع أن نعده من كتاب المرابطين ، إذ أنه لم يدرك أيامهم ، وهو أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن برد ، ويلقب بالأصغر تمييزاً له عن جده كاتب الدولة العامرية احمد بن برد الأكبر[١] . وأسرة بنى برد تنتمى بالولاء إلى بنى شهيد وزراء الخلافة الأموية والدولة العامرية بالأندلس ، أما أبو حفص هذا فقد تربى فى كنف جده ابن برد الذى كان رئيس ديوان الإنشاء فى دولة عبد الملك المظفر ابن المنصور بن أبى عامر ، والذى كتب بعد ذلك لبعض خلفاء عصر الفتنة وتوفى بسرقسطة فى سنة ٤١٨ (١٠٢٧)[٢] ، كذلك درس على أبيه محمد بن أحمد بن برد الذى نقل ابن الأبار أنه كان من ذوى الأدب والنباهة وإن لم يبلغ فى ذلك شهرة أبيه ولا ابنه[٣] . وقد انتقل ابن برد الأصغر بعد الفتنة

---

(١) فى ترجمة ابن برد الأصغر انظر : الحميدى : جذوة المقتبس ، ترجمة ١٩٢ ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ١٨/٢ — ٥٢ ؛ الضبى : بغية الملتمس ، ترجمة ٣٥٤ ؛ الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس ص ٢٧ — ٢٨ ؛ ابن سعيد : المغرب ٨٦/١ — ٩١ ؛ ابن سعيد : رايات المبرزين ص ٤٠ — ٤١ ؛ المقرى : نفح الطيب ٨٧/٥ — ٨٨ ؛ ياقوت : معجم الأدباء ٤١/٥ — ٤٣ ؛ وانظر كذلك ما كتبه نيكل فى « الشعر الأندلسى » ، ص ١٢١ ؛ والبحث الذى أعده الأستاذ فرناندو دى لا جرانخا تحت عنوان « رسالتان لأبى حفص ابن برد الأصغر » ، وهو دراسة ستظهر فى المجلد الخامس والعشرين من مجلة «الأندلس» : Fernando de la Granja: *Dos epístolas de Abū Ḥafṣ Ibn Burd al-Aṣgar*, Al-Andalus, XXV (1960), fasc. II, p. 383 ss.

(٢) انظر فى ترجمة ابن برد الأكبر : ابن بسام : الذخيرة ق ١ — ٨٤/١ — ١١٠ ؛ ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة ٧٢ ؛ الضبى : بغية الملتمس ، ترجمة ٣٨٧

(٣) التكملة ، ترجمة ٤٣٥

القرطبية إلى إشبيلية ، إذ أننا نراه فى بلاط القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، وكان هو الذى كتب لابن عباد عقد البيعة التى أعلنها لهشام بن الحكم الذى زعم ظهوره فى إشبيلية ودعا الناس إلى الدخول فى طاعته فى سنة ٤٢٧ (١٠٣٥)[١] . ولعل ابن برد تقلبت به الحال بين بعض ملوك الطوائف الآخرين حتى نراه أخيرا فى المرية لدى ملكها أبى الأحوص معن بن محمد بن صمادح التجيبى الذى ولى أمر هذه المملكة فى سنة ٤٣٣ (١٠٤١) ، ولهذا الملك ألف ابن برد كتابه « سر الأدب وسبك الذهب » على ما يذكر ابن بسام . ويظهر أن ابن برد انتقل إلى المرية مع أبيه وسائر أفراد أسرته واستقر بها ولم يدعها إلى غيرها[٢] ، على أن عمره لم يطل إذ أنه توفى بالمرية فى حياة أبيه سنة ٤٤٥ (١٠٥٣) على ما يذكر ابن الأبار[٣] .

أما الرسائل العشرون الباقية فكلها مما تولى تحريره كتاب أندلسيون نبغوا فى دول ملوك الطوائف ثم عملوا بعد ذلك فى خدمة الدولة المرابطية بعد أن ضم يوسف بن تاشفين الشطر الأكبر من الأندلس إلى الامبراطورية المغربية .

وأول هؤلاء الكتاب ابن القصيرة الذى له فى هذا المجموع أكبر عدد من الرسائل إذ أنه يبلغ تسعا . وهو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعى الإشبيلى المعروف بابن القصيرة[٤] ، نشأ فى دولة المعتضد بن عباد ملك إشبيلية ،

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٣/١٩٠

(٢) يذكر الحميدى فى ترجمته (رقم ١٩٢) أنه — أى الحميدى — شاهده بعد سنة ٤٤٠ غير مرة زائراً لأبى محمد ابن حزم .

(٣) التكملة ، ترجمة ٤٣٥ ؛ وابن الابار هو المؤرخ الوحيد الذى أورد هذا التاريخ نقلا عن ابن حيان فيما يظهر .

(٤) فى ترجمة ابن القصيرة انظر : ابن بشكوال ، ترجمة ١١٣٧ ؛ الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١٠٤ — ١٠٦ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٥٠ — ٣٥١ ؛ ابن بسام : الذخيرة (مخطوطة بغداد) ق ٢ ، ص ١٥١ — ١٨٥ ؛ عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٦٤ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة (مخطوطة الأسكوريال رقم ١٧٦٣) ص ٦٤ — ٦٥ ؛ وانظر كذلك : R. Dozy: *Historia Abbadidarum*, I, p. 81, n. 47.

وكان على ما يذكر ابن بسام ممتنعاً من خدمة السلطان قاعداً بنفسه عن مرتبة نظرائه حتى فطن له ذو الوزارتين ابن زيدون ، فنبه عليه المعتضد فى آخر دولته ، فتصرف فيها قليلا حتى أفضى الأمر إلى المعتمد بن عباد ، فرفع من مكانته وولاه وزارته ، وكثيراً ما عول عليه فى السفارات التى كان يبعث بها إلى جيرانه وحلفائه من ملوك الطوائف ، ولما استولى النصارى على طليطلة واشتد نكيرهم على ملوك الأندلس كان ابن القصيرة هو الذى قام بعبء السفارات التى رددها المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين ، وهكذا ارتفعت منزلة ابن القصيرة لدى المعتمد حتى « استولى على الدولة استيلاء قصر عنه أشكاله » على حد قول ابن بسام ، كما كان لابن القصيرة دور له خطره فى الأحداث التى أحاطت بمعركة الزلاقة وفى أثنائها فى سنة ٤٧٩ (١٠٨٦)[١] .

ولما قام يوسف بن تاشفين بخلع المعتمد وغيره من ملوك الطوائف أصابت ابن القصيرة نكبة أقصته عن رتبته وأخملته مدة ثلاث سنوات حتى تذكره يوسف بن تاشفين بسبب كتاب ورد إليه من مصر فأراد الجواب عليه فاستدعاه لساعته ، وقربه من ذلك الوقت[٢] ، ويقول ابن الخطيب إن تقديم ابن تاشفين لابن القصيرة للكتابة عنه كان بعد وفاة كاتبه عبد الرحمن بن أسباط فجأة فى سبتة سنة ٤٨٧ (١٠٩٤)[٣] ، ومنذ هذا التاريخ بقى ابن القصيرة يتولى منصب الكتابة ليوسف بن تاشفين حتى وفاة الأمير فى سنة ٥٠٠ (١١٠٧) ، ثم لابنه على بن يوسف طوال السنوات الأولى من حكمه . وكانت وفاة ابن القصيرة بمراكش فى سنة ٥٠٨ (١١١٤ — ١١١٥) عن سن عالية وبعد أن أصابه خرف عطله قبيل وفاته .

---

(١) ابن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار ص ٩١ ؛ السلاوى : الاستقصا ٢/٣٧ ، ٤٢ ؛ الحلل الموشية ص ٤٧ — ٤٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ٨/١٤٢

(٢) ابن بسام : الذخيرة ق ٢ ص ١٥٢

(٣) الإحاطة ص ٢٥٦ فى ترجمة عبد الرحمن بن أسباط ، وابن الخطيب يعتمد فى هذا الموضع على أبى بكر الصيرفى مؤرخ الدولة المرابطية .

وكان لابن القصيرة مكان عظيم فى الشعر والنثر بدولة المرابطين ، أخذ عن الأعلم الشنتمرى وابن شريح الإشبيلى ، ونقل ابن بسام وابن خاقان جملة كبيرة من آثاره الأدبية ، ولعل من أهم الرسائل التى احتفظت لنا بها المراجع من نتاج قلمه رسالته عن المعتمد بن عباد حول هزيمة أذفونش (ألفونسو السادس) فى موقعة الزلاقة ، وهذه الرسالة كانت من بين ما نقله له ابن بسام فى ذخيرته ، كذلك أورد الفتح بن خاقان له عدة رسائل إخوانية وسلطانية لها فائدتها التاريخية العظيمة إلى جانب قيمتها الأدبية .

ولدينا فى هذه المجموعة التى ننشرها هنا خمس رسائل بقلم كاتب مرابطى آخر هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهرى[١] ، وكان من أسرة بنى الجد من أعيان لبلة وإشبيلية ، وقد برز من هذه العائلة كتاب ووزراء مشهورون ، وقد بدأ ابن الجد حياته مشتغلا بالحديث والفقه والأدب والأنساب حتى تبحر فيها ، ثم قلده يزيد الراضى بن المعتمد بن عباد وزارته ، وظل مقربا فى دولة العباديين حتى خلعهم يوسف بن تاشفين ، فبقى مدة معتزلا لمناصب الحكم ، وقدمه أهل بلده لبلة فولوه خطة الشورى بعد امتناع منه وكراهية ، ثم استدعاه على بن يوسف بن تاشفين لتولى الكتابة فى ديوان رسائله ، فأجاب إلى ذلك ، ويبدو أنه بقى فى هذا المنصب حتى وفاته فى سنة ٥١٥ (١١٢١) .

وقد نقل ابن خاقان من رسائل ابن الجد عن على بن يوسف جملة تلقى كثيرا من الضوء على تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين نذكر منها رسالته فى تولية أبى زكريا يحيى بن أبى بكر المعروف بابن الصحراوية على سبتة وفاس ،

---

(١) فى ترجمة ابن الجد انظر : ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة ١١٤٩ ؛ ابن خاقان : القلائد ص ١٠٩ — ١١٥ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٤١ — ٣٤٢ ؛ عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٧٣ ؛ ابن دحية : المطرب ص ١٩٠ — ١٩٢ ؛ ابن بسام : الذخيرة (مخطوطة بغداد) ق ٢ ص ١٨٥ — ٢١٣

ورسالته إلى القائد أبى محمد عبد الله بن فاطمة عامله على إشبيلية ، وأخرى عنه إلى أهل غرناطة ينعى فيها عليهم اختلافهم وتنازعهم ومطالباتهم لعامله على المدينة ويأمرهم بالانقياد له والطاعة[١] ، وهاتان الرسالتان الاخيرتان هما اللتان نجدهما فى مجموعة الرسائل التى تنشرها هنا مع اختلافات سنشير إليها فى موضعها .

ومن كتاب هذه الرسائل أيضاً الوزير أبو بكر بن القَبْطُرْنُه[٢] ، وهو عبد العزيز بن سعيد بن عبد العزيز البطليوسى ، وكان من بيت نباهة وشهرة فى الأدب على الرغم من انحدار أسرته — على ما يبدو من لفظ « القبطرنه » — من أصل مسيحى إسبانى قديم[٣] . وقد كان له أخوان أبو محمد طلحة وأبو الحسن محمد كانا كذلك من جلة الوزراء والكتاب فى بلاط المتوكل بن الأفطس ببطليوس ، إلا أن أبا بكر كان على ما يذكر ابن بسام « علم بردهم وواسطة عقدهم » ، ولما خلع المرابطون بنى الأفطس كتب ابن القبطرنه لهم حتى توفى بعد سنة ٥٢٠ (١١٢٦) .

ومنهم أبو نصر الفتح بن خاقان[٤] ، وهو الكاتب المشهور صاحب

---

(١) القلائد ص ١١٣ — ١١٤

(٢) انظر فى ترجمته : ابن الأبار : التكملة ، ترجمة ١٧٤٣ ؛ ابن خاقان : القلائد ص ١٤٨ — ١٥٥ ؛ ابن سعيد : المغرب ١/٣٦٧ — ٣٦٨ ، ٢/٨٨ ، ٢٤٩ — ٢٥٠ ؛ ابن دحية : المطرب ص ١٨٦ — ١٨٧ ؛ ابن بسام : الذخيرة ق ٢ ص ٤٦٨ — ٤٨٠ ؛ المقرى : نفح الطيب ٤/٢٥٠ ، ٦/٤٨ ؛ ابن الخطيب : الإحاطة (ط. الاستاذ محمد عبد الله عنان) ١/٥٢٨ — ٥٣١

(٣) قبطرنه كلمة من أصل لاتينى دارج مركبة من كلمتى caput أى رأس (وفى بعض اللهجات الاسبانية القديمة cap) ، وطرنه Torno أى دائرة أو مستديرة ؛ فمعنى الكلمة إذن « ذو الرأس الدائرة » . انظر فى اشتقاق هذه الكلمة : R. Dozy: *Supplement...*, II, p. 302; Simonet: *Glosario...*, p. 97.

(٤) فى ترجمته انظر ابن خلكان : وفيات الاعيان ٣/١٩٤ ؛ ابن الابار : معجم أبى على الصدفى ، ترجمة ٢٧٥ ؛ ياقوت : معجم الادباء ١٦/١٨٦ — ١٩٢ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٤/١٠٧ ؛ وكذلك : Dozy: *Historia Abbadidarum*, I, pp. 2—3; Pons Boigues: *Ensayo...*, pp. 201—204; Brockelmann: *Geschichte...*, *Suppl.*, I, p. 579.
وتاريخ الفكر الاندلسى لجونثالث بالنثيا (ترجمة الدكتور حسين مؤنس) ص ٢٩٦ — ٢٩٩

كتابى « مطمح الأنفس » و « قلائد العقيان » ، ويقول ابن الخطيب عنه إنه لم يدع ملكا من ملوك الطوائف إلا استرفده ، فلما جاءت دولة المرابطين اتصل ببعض أمرائهم ، وكان من بين هؤلاء أبو إسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين أخ الأمير على بن يوسف وباسمه طرز الفتح كتاب « القلائد » وكانت وفاته بفندق فى مدينة مراكش وجد فيه قتيلا سنة ٥٢٩ (١١٣٤) .

وآخر هؤلاء الكتاب وفاة هو أبو عبد الله ابن أبى الخصال واسمه محمد ابن مسعود الغافقى الشقورى[١] ، وكان هو وأخوه أبو مروان عبد الملك من أعظم كتاب الدولة المرابطية ، ويقول ابن خاقان إنه كان خامل النشأة إلا أنه تميز بعد ذلك منذ اتصاله بأبى يحيى محمد بن الحاج أحد رجالات الدولة ، وما زال شأنه يرتفع حتى أصبح أنبه كتاب على بن يوسف وأعظمهم مكانة لديه ، حتى وقع منه ومن أخيه أبى مروان ما أدى إلى غضب على بن يوسف عليهما وإقصائه لهما ، إذ أن أمير المسلمين أمرهما — على ما يذكر عبد الواحد المراكشى — أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا حتى أوقع بهم ابن رذمير هزيمة قبيحة ، فكتب أبو عبد الله أو أخوه أبو مروان فى ذلك رسالة أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم فى القول مما تسبب فى موجدة أمير المسلمين[٢] ، وحينما رأى أبو عبد الله ذلك استعفى على بن يوسف فأعفاه

---

(١) انظر فى ترجمته : ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة ١١٧٨ ؛ ابن خاقان : القلائد ص ١٧٥ — ١٨١ ؛ عبد الواحد المراكشى : المعجب ص ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ — ١٧٦ ؛ ابن دحية : المطرب ص ١٨٧ — ١٨٩ ؛ ابن القاضى : جذوة الاقتباس (ط. فاس الحجرية) ص ١٤٨ — ١٤٩ ؛ ابن بسام : الذخيرة ق ٣ (مخطوطة المجمع التاريخى الملكى بمدريد) ورقة ١٣٤ — ١٣٨ ؛ الضبى : بغية ، ترجمة ٢٨٢ ؛ ابن خير : الفهرسة ص ٢٢١ وما بعدها ، وكذلك : Brockelmann: *op. cit.*, I, p. 454—455; *Suppl.* I, p. 629. Pons Boigues: *op. cit.*, p. 205—206.

(٢) نشر الدكتور حسين مؤنس نص هذه الرسالة فى الحلقة الثالثة من مجموعة الرسائل المرابطية التى نشرها فى صحيفة المعهد (المجلد الثالث سنة ١٩٥٥) ص ١١٦ — ١١٨ ؛ على أن الدكتور مؤنس بين أن الرسالة التى نسبها عبد الواحد المراكشى إلى أبى مروان بن أبى الخصال والتى كانت السبب فى اعتزاله منصب الكتابة إنما هى لأخيه أبى عبد الله نفسه .

ورجع إلى داره بعد وفاة أخيه أبى مروان بمراكش سنة ٥٣٩ (١١٤٥) ، وبقى ملتزماً داره بقرطبة حتى مات فى السنة التالية سنة ٥٤٠ (١١٤٦) .

وكان ابن أبى الخصال من أبرز أعلام النثر الأندلسى ، وقد نص من ترجموا له على مدى المكانة التى بلغها فى هذا الميدان ، فعبد الواحد المراكشى يقول إنه كان « له ديوان رسائل يدور بأيدى أدباء الأندلس قد جعلوه مثالا يحتذونه »[١] ، وقد بقى من إنتاجه الأدبى قدر لا بأس به لا يزال أكثره مخطوطا[٢] .

الرسائل

وأول ما نلاحظه على هذه المجموعة من الرسائل المرابطية هو أنها كلها تقريبا صادرة عن ديوان الإنشاء الرسمى فى عهد السلطان المرابطى على بن يوسف ابن تاشفين الذى حكم المغرب والأندلس بين سنتى ٥٠٠ و ٥٣٧ (١١٠٦— ١١٤٣) ، ولهذا فإن لها قيمة عظيمة من الناحيتين الأدبية والتاريخية ، هذا فضلا عما تطلعنا عليه من بيان المراسم التى كانت تجرى عليها كتابة الإنشاء السلطانى فى هذا العصر ، مما يمكننا معه تتبع تطور هذه الكتابة فى المغرب والأندلس والمقارنة بين تلك المراسم وما كان يجرى عليه العمل فى المشرق . وفيما نشر من قبل من الرسائل المرابطية والموحدية وما احتفظ لنا به القلقشندى فى « صبح الأعشى » من وصف مكاتبات ملوك المغرب فى تلك الفترة[٣] ،

---

(١) المعجب ص ١٧٥
(٢) بروكلمان : تاريخ الآداب العربية ١/٤٥٤
(٣) صبح الأعشى ٦/٤٤٣ وما بعدها ، ٨/٧٨ — ٧٩

وما لم يزل بعد مخطوطاً من تلك الرسائل — مادة طيبة تمكن من القيام بدراسة شاملة لهذا الموضوع[1] .

ولسنا نريد أن نلقى فى هذا المقام حكما عاما على الكتابة فى عهد المرابطين على أساس هذه الرسائل التى نقدمها هنا ، إذ أنها لا تمثل إلا جانبا من الكتابة السلطانية ، فمعظمها كما ذكرنا صادر عن على بن يوسف بن تاشفين إلى بعض عماله أو قضاته أو أمثالهم من كبار رجال الدولة .

وتبدأ هذه الرسائل دائما بقوله « كتابنا . . . » ثم دعاء قصير بصيغة المخاطب إلى الشخص الذى توجه إليه الرسالة ، يلى ذلك ذكر البلد الذى أصدرت منه وتاريخ تحريرها ، هذا وقد احتفظ لنا جامع الرسائل فى بعضها بذكر التاريخ والمكان وأهمل ذكرهما فى بعضها الآخر ، ويلى ذلك موضوع الرسالة منتهياً بتحية قصيرة .

أما أسلوب الرسالة فهو فى الغالب موجز مركز ليس فيه الإسهاب الذى نراه فى رسائل الموحدين ، وهو مسجوع قصير الفقرات إلا أنه يأخذ من المحسنات اللفظية بقدر فهو بعيد عن التعقيد والتكلف الشديد الذى نلاحظه فى الرسائل التى كانت تكتب عن سلاطين دول المشرق فى ذلك الوقت أو التى كتبت عن السلاطين المغاربة فى العصور التالية ، ونستثنى من ذلك بعض الرسائل التى كتبها الفتح بن خاقان وابن القبطرنه فهما أديبان يغلب عليهما التكلف والتعقيد وتقليد النثر المشرقى والبعد عن الأصالة .

ولعل خير هؤلاء الكتاب هو ابن القصيرة الذى لم يبعد المراكشى عن الصواب إذ وصفه فقال إنه « كان على طريقة قدماء الكتاب من إيثار جزل

---

(١) انظر كذلك ما كتبه ليفى بروفنسال عن مراسم الكتابة فى عصر الموحدين فى مقدمة ترجمته للرسائل الموحدية السبع والثلاثين : E. Lévi-Provençal: *Un recueil...*, p. 10—19.

الألفاظ وصحيح المعانى من غير التفات إلى الأسجاع التى أحدثها متأخرو الكتاب اللهم إلا ما جاء فى رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء »[1] .

وفى ذلك مظهر لبساطة الدولة المرابطية بالنسبة للموحدية وما تلاها من الدول المغربية والأندلسية التى نجد فيها كثيراً من التكلف فى الأسلوب وإسهابا فى ذكر ألقاب السلطان الموجه للرسالة أو المتلقى لها .

هذا ونلاحظ كذلك أن جميع هؤلاء الكتاب أندلسيون ، وأن أكثرهم كانوا من بين الذين برزوا فى ظل ملوك الطوائف ممَّن قدر للأدب فى عهدهم نهضة كبيرة ، فابن القصيرة وابن الجد كانا ممن خدموا بنى عباد فى إشبيلية ، وابن القبطرنه اشتهر فى بلاط بنى الأفطس ملوك بطليوس ، والفتح بن خاقان كان يتردد بين جميع ملوك الطوائف ، وليس بين هؤلاء كاتب مرابطى النشأة إلا ابن أبى الخصال وإن كان قد تتلمذ على أعلام الجيل السابق الذى اكتمل فى ظل ملوك الطوائف .

وقد كانت استعانة المرابطين بهؤلاء الكتاب من أجلى مظاهر توثق الصلات بين الأندلس والمغرب والتقريب بين ثقافتى البلدين ، ونحن نعلم أن هذه الصلات لم تنقطع قط منذ أصبحت إسبانيا جزءاً من العالم الإسلامى ، إلا أن جواز المرابطين إلى الأندلس وحكمهم إياها كان معناه الوحدة الكاملة بين هذه البلاد والمغرب الإسلامى لأول مرة ، وهى وحدة استفاد منها الجانبان ، فقد ضمنت للاسلام بعض الاستقرار والقوة فى الأندلس بعد أن كاد تخاذل ملوك الطوائف وتفرقهم يقضى على الدولة الإسلامية فى تلك البلاد ، وأما المغرب فقد عرف كيف ينتفع من الحضارة الأندلسية ومقوماتها ويصطنعها فى سرعة تدل على تحامل من زعم أن

---

(١) المعجب ص ١٦٤

المرابطين كانوا شعبا خشنا بدويا محاربا لم يأخذ بنصيب من رقة الحضارة وتهذيبها[١] .

وهذا التحامل على المرابطين ليس أمراً جديداً بين المؤرخين الأوربيين المحدثين الذين رسموا لعهد المرابطين صورة قاتمة مصورين رجالهم جفاة غلاظاً لا يكادون يتذوقون الأدب العربى ولا يفهمونه ، ولا يقدرون العلماء والأدباء حق قدرهم كما نجد فيما كتبه دوزى ومن تابعه عن الدولة المرابطية[٢] ، فهو أمر نجد بوادره لدى هؤلاء الأدباء الأندلسيين الذين كان شعورهم بقوميتهم الأندلسية يدفعهم إلى النظر إلى هؤلاء اللمتونيين نظرتهم إلى أجنبى فاتح متناسين العاطفة الدينية التى كانت توجب عليهم أن يعترفوا للمرابطين بفضلهم الأكبر : وهو إنقاذهم للاسلام الأندلسى بعد أن ضاق الخناق عليه منذ أوائل القرن الخامس الهجرى ، على أنه لم يكن من الغريب أن يتحامل على المرابطين أمثال هؤلاء الأدباء ممن كانوا يجدون فى حياة الترف المنحل التى كان ملوك الطوائف غارقين فيها مرتعاً خصباً ومعينا يروون منه أطماعهم وشهواتهم ، وقد كان من مظاهر ذلك ما كتبه الشقندى فى رسالته عن يوسف بن تاشفين الذى « لولا توسط ابن عباد لشعراء الأندلس فى مدحه ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا لملكه قدرا »[٣] ، وهو كلام إن دلنا على شيء فإنما يدل على غرور أمثال

---

(١) انظر الملاحظات التى سجلها فى ذلك الأستاذ ليفى بروفنسال فى مقاله « آراء حول الدولة المرابطية فى أوائل القرن الثانى عشر » :

Lévi-Provençal: *Reflexions sur l'Empire Almoravide au début du XII^e siècle* (Cinquantenaire de la Faculté des Lettres d'Alger, 1881—1931), Alger, 1932; p. 314 sqq.

(٢) أورد الأستاذ غرسية غومز موجزاً وافيا لآراء المؤرخين الأوربيين المحدثين فى الثقافة الأندلسية فى ظل المرابطين فى بحثه عن « اضمحلال الشعر فى اشبيلية فى عصر المرابطين » :

E. García Gómez: *Un eclipse de la poesía en Sevilla. La época almorávide,* pp. 22—26.

(٣) المقرى : نفح الطيب ٤/١٨١ ، هذا ونلاحظ أن هذه الأحكام كانت كثيراً ما تكتب بدافع الملق ، فالشقندى كتب رسالته متزلفا إلى الموحدين ، وكأن تزلفه لم يكن ليتم إلا بالتهجم على المرابطين والافتراء عليهم .

هؤلاء الأدباء كأن الحكم على أقدار الممالك والدول منوط بهم وحدهم يرفعون ويخفضون ، ويعزون ويذلون[١] .

والواقع أن عناية المرابطين بالثقافة والأدب نثره وشعره لم تكن دون عناية ملوك الطوائف بهما ، وقد أقبل المرابطون أمراؤهم وعمالهم على الثقافة الأندلسية ينهلون من مواردها فى تواضع المستفيدين لا فى كبرياء الملوك الحاكمين ، وكان من أجلى مظاهر ذلك ما أشرنا إليه من تسامحهم فى الاستعانة بمعظم أولئك الكتاب والشعراء الذين خدموا ملوك الطوائف حتى الذين استمروا على ولائهم وإخلاصهم لدولهم الزائلة . وهذه الرسائل التى ننشرها هنا تدل على مدى استعانة المرابطين بأولئك الكتاب الأندلسيين على الرغم من أنهم لم يكونوا كلهم أهلا لثقتهم .

ولهذه الرسائل كما سبق أن بينا قيمة تاريخية كبيرة ، وسوف نتحدث لذلك عنها واحدة واحدة فى الصفحات التالية .

الرسالة الأولى

كتب هذه الرسالة أبو عبد الله بن أبى الخصال عن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، ولم يعين جامع الرسائل مكان إصدارها ولا تاريخه .

غير أن ما ورد فى هذه الرسالة يمكن أن يدلنا بوجه التقريب على تاريخ كتابتها وعلى الظروف التى كتبت فيها ، فموضوع الرسالة هو وفود الفقيه المشاور ابن رشد إلى المغرب ولقاؤه لأمير المسلمين وما وصفه من سوء أحوال الأندلس ، ويبدو من الرسالة أن هذه الأحوال بلغت حداً عظيما من الاضطراب

(١) للمؤرخ المغربى السلاوى صفحة رائعة سجل فيها ما أخذه البعض على حكم المرابطين ورد فيها على تلك التهم فى عدل وأمانة جديرين بالإعجاب . انظر الاستقصا ٢/٥١ — ٥٢

إذ أن أمير المسلمين بعد فيها بأن يتخذ للأمر أهبته : « . . . ولن نألو جهداً مبذولا ، وجهدا حفيلا ، وعزما لا نابيا ولا كليلا ، فيما ندرأ وندفع ، ونذود عن حوزة الملة ونمنع ، ونذأب لذلك [الدأب] الحثيث ، ونتبع القديم فيه بالحديث » .

فما هى هذه الأمور التى أزعجت أمير المسلمين كل ذلك الإزعاج ؟ من الواضح أن الأمر يتعلق بخطر كان يتهدد الإسلام فى بلاد الأندلس ، خطر حمل الفقيه بن رشد القرطبى إلى تجشم مشاق الرحلة إلى مراكش حتى يبسط الأمور بين يدى على بن يوسف .

وابن رشد هو أبو الوليد محمد بن أحمد جد الفيلسوف الأندلسى المشهور الذى حمل هذا الاسم أيضا ، ولد بقرطبة فى سنة ٤٥٠ (١٠٥٨) ودرس فى الأندلس على جلة علمائها ، ثم تولى قضاء الجماعة فى قرطبة سنة ٥١١ (١١١٧) وظل فى هذا المنصب حتى سنة ٥١٣ (١١١٩) أو ٥١٥ (١١٢١) حين استعفى من القضاء حتى يفرغ لكتابة مجموعته الفقهية الكبيرة « البيان والتحصيل » ، وكانت وفاة ابن رشد فى قرطبة فى الحادى عشر من ذى القعدة سنة ٥٢٠ (أول يولية سنة ١١٢٦)[١] .

أما سفارته إلى مراكش فقد أمدنا مؤرخو المغرب عنها ببيان مفصل ، وأوفى ما جاء فى ذلك هو ما ذكره صاحب « الحلل الموشية » الذى قال إن الفقيه ابن رشد جاز إلى المغرب فى سنة ٥١٩ (من ٧ فبراير ١١٢٥ إلى ٢٦ يناير ١١٢٦) فوصل إلى مراكش عاصمة المرابطين حيث استقبله أمير المسلمين بكثير من الحفاوة ، وكان الهدف من سفارته هو إطلاع على بن يوسف على

(١) فى ترجمة ابن رشد انظر : ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة ١١٥٤ ؛ الضبى : البغية ، ٢٤ ؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ص ٢٧٨ — ٢٧٩ ؛ بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ١/ ٣٨٤ ؛ والذيل ١/٦٦٢

أحوال الأندلس وما جناه عليها النصارى المعاهدون من استدعائهم الملك النصرانى « ابن رذمير » ، وهو ألفونسو الأول الملقب بالمحارب Alfonso I el Batallador ملك أرغن Aragon ، وكان الملك المسيحى قد توجه فى أواخر شعبان سنة ٥١٩ (أوائل سبتمبر ١١٢٥) على رأس حملة كبيرة إلى بلاد الأندلس فاخترقها من الشمال إلى الجنوب ، فخرج من سرقسطة ، ثم توجه إلى بلنسية فخرب بسائطها ، ثم هاجم جزيرة شقر Alcira ودانية Denia ومنها إلى مرسية ثم إلى بسطة Baza ووادى آش Guadix ، ومن هناك توجه إلى غرناطة مخربا كل القرى التى مر عليهـا فى طريقه وضرب الحصار على غرناطة وإن لم يستطع دخولها ، ثم واصل سيره مخترقا إقليم قرطبة وملحقا بجيش المسلمين هزيمة فادحة فى الرنيسول Anzul بقرب اليسانة Lucena ، ثم تابع مسيره إلى الساحل مقتحما إقليم رية (مالقة وأرشذونة) والبشرات Alpujarras حتى وصل إلى قرية بلش Vélez-Málaga على ساحل البحر الأبيض ، وأنشأ بها جفنا صغيرا يصيد له حوتا ، فأكل منه كأن ذلك كان رمزاً لاقتحامه بحر المسلمين . ومن هناك توجه الملك المسيحى عائدا إلى بلاده بعد أن بقى نحو سنة يجوب بلاد المسلمين دون أن يجد من أهلها مقاومة تذكر[1] .

وقد كان مما أعان ألفونسو الأول على القيام بهذه الحملة أن النصارى المعاهدين كانوا هم الذين كاتبوه وتوالت عليه رسلهم مطمعة إياه فى دخول غرناطة ، ثم إنهم كانوا يعزونه ويقوون صفوفه أينما توجه ويدلونه على عورات

---

(١) عن هذه الحملة انظر : الحلل الموشية ص ٧٥ — ٨٠ (وترجمة أويثى الاسبانية ص ١٠٩ — ١١٠) ؛ ابن الخطيب : الاحاطة (ط . محب الدين الخطيب) ١/٢٠ — ٢٤ ؛ الاحاطة (ط . الأستاذ محمد عبد الله عنان) ١/١١٤ — ١٢٠ ؛ وكذلك Dozy: *Recherches...*, I. pp. 348—363; Codera: *Decadencia...*, p. 13—16; Bosch Vila: *Los Almoravides*, pp. 233—236; ويوسف أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين (ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان) ص ١٤٦ — ١٥٠

البلاد حيثما سار ، وقد أوغر ذلك صدور المسلمين عليهم بطبيعة الحال ، وفى ذلك يقول ابن الخطيب نقلا عن ابن الصيرفى : « ولما بان للمسلمين من مكيدة جيرانهم المعاهدين ما أجلت عنه هذه القضية أخذهم الإرجاف . . . ووجه القاضى أبو الوليد ابن رشد الأجر ، وتجشم المجاز ، ولحق بالأمير على بن يوسف بن تاشفين بمراكش ، فبين له أمر الأندلس وما منيت به من معاهدها وما جنوه عليها من استدعاء الروم وما فى ذلك من نقض العهد والخروج عن الذمة ، وأفتى بتغريبهم وإجلائهم عن أوطانهم ، وهو أخف ما يؤخذ به من عقابهم »[١] .

فالرسالة التى بين أيدينا تشير إذن إلى سفارة ابن رشد هذه التى قام بها لإطلاع أمير المسلمين على حال الأندلس بعد تلك الغزوة الجريئة التى قادها الملك المسيحى فى قلب بلاد المسلمين والتى أفتى ابن رشد نفسه بعدها بإجلاء النصارى المعاهدين (Los Mozárabes) عن أرض الأندلس . ولعل هذه السفارة هى آخر ما اضطلع به الفقيه القرطبى ، إذ أنه توفى فى بلده قرطبة بعد عودته بقليل فى أواخر سنة ٥٢٠ (يولية ١١٢٦) . أما ما وعد أمير المسلمين فى نهاية الرسالة باتخاذه من إجراءات لمواجهة الموقف فلا شك فى أنه كان من أولها قراره بتغريب النصارى المعاهدين عملا بمشورة ابن رشد ، وقد تم ذلك فى رمضان من هذه السنة نفسها (من ٢٠ سبتمبر إلى ١٩ أكتوبر ١١٢٦) أى بعد وفاة ابن رشد بنحو شهرين . فأجلى عدد كبير من هؤلاء النصارى إلى منطقتى مكناس وسلا وغيرها من أراضى المغرب[٢] .

---

(١) الاحاطة (ط. عنان) ١/١١٩ — ١٢٠

(٢) الحلل الموشية ص ٧٩ — ٨٠ (وترجمة أويثى الاسبانية ص ١١٥) .

الرسالة الثانية

كاتب هذه الرسالة هو ابن أبى الخصال ، وهى صادرة عن على بن يوسف من حضرة مراكش فى يوم الاثنين من منتصف شوال سنة ٥٠٧ (٢٥ مارس سنة ١١١٤) ، وهى موجهة فى صورة بيان من الأمير إلى أهل الأندلس كافة . أما موضوعها فهو إعلام الشعب الأندلسى بما استقر عليه عزم أمير المسلمين من التجهز للغزو والجهاد فى سبيل الدفاع عن الإسلام ، ونأخذ من الرسالة أن الأمير قد اتخذ أهبته واجتهد فى الاستعداد وبالغ فيه : « . . . ونحن وإن كنا بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستنهضنا من الأجناد والأمداد ، ما يربى على الاحصاء والتعداد . . . الخ » .

وإذا قابلنا ذلك باليسير النزر مما احتفظت به المراجع التاريخية من أخبار هذه السنة من حكم المرابطين فى الأندلس فإننا نجد فى الواقع تأكيداً لما تشير إليه الرسالة من احتفال المرابطين واهتمامهم بدفع النصارى عن بلاد الأندلس . فقد كانت سنة ٥٠٧ (١١١٣—١١١٤) فى الحقيقة سنة جهاد متصل ونشاط عسكرى لم يتكلل دائماً بالنصر ، إلا أن المرابطين أبلوا فيه على أية حال أجمل البلاء ، ولم يقصروا خلاله فى الدفاع عن الاسلام قط ، ونحن نرى من ذلك أن على بن يوسف بن تاشفين ومن ورائه عماله وقواده فى الأندلس لم يكلوا عن الكفاح أبداً على الرغم من تجمع قوى النصرانية عليهم من جهة ، وكراهية بعض طبقات الشعب الأندلسى لحكمهم من جهة أخرى ، وهى كراهية ليس لها ما يبررها ولا تفسر إلا بعاطفة قومية متعصبة ضيقة التفكير قصيرة النظر .

ونحن نعرف من غزوات المرابطين الموفقة التى وجهت فى سنة ٥٠٧ المذكورة غزوة مزدلى بن سلنكان الذى أرسله على بن يوسف خاصة من مراكش إلى الأندلس عاملا على قرطبة وغرناطة ، ولم يضع مزدلى وقته إذ

أنه لم يصل إلى مقر عمله حتى توجه بقواته إلى إشبيلية مستمداً عاملها الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى ، وسارت جيوش المرابطين إلى طليطلة عاصمة مملكة قشتالة ، ففتح مزدلى كثيراً من حصون طليطلة ودوخ بسائطها وأبلغ فى نكايتها ، ويذكر ابن أبى زرع أن خبر اقتحام مزدلى لأرض طليطلة اتصل بالقائد المسيحى البرهانس Alvar Fañez ، فأقبل للقاء مزدلى ولكنه لم يسعه إلا الفرار أمامه ، ورجع القائد المرابطى إلى قرطبة ظافراً غانما ، وما زالت حملات مزدلى تتردد على طليطلة حتى استشهد غازيا فى شوال سنة ٥٠٨ (مارس ١١١٥)[١] ، وخلفه على قرطبة ابنه محمد الذى استشهد أيضاً بعد ثلاثة شهور .

كذلك من مظاهر الجهود العسكرية المتزايدة التى بذلها المرابطون فى هذه الفترة تلك الحملة التى قادها فى سنة ٥٠٨ القائدان المرابطيان محمد بن الحاج ومحمد بن عائشة إلى أرض برشلونة (إمارة قطلونية Cataluña) ، وهى منطقة لم يعد أحد من أهل الأندلس المسلمين يجرؤ على اقتحامها منذ أكثر من مائة عام حينما كانت تتوالى عليها هجمات المنصور بن عامر وابنه عبد الملك المظفر . ولا غرو فإن هذين القائدين كانا من خيرة من أنجبه الحكم المرابطى من عباقرة السياسة وفرسان الحرب . وقد بدأت غزوتهما الجريئة بداية طيبة إذ أصابا كثيراً من الغنائم ، غير أن ابن الحاج عند عودته اتخذ طريقا آخر غير الذى سلكه فى ذهابه ، وكان طريقا جبليا ضيقا ، وما كاد يتوسطه حتى أطبق عليه كمين من النصارى فقاتلهم قتال من أيقن بالموت . واستشهد فى هذه المعركة

---

(١) عن هذه الغزوة انظر : ابن عذارى : البيان المغرب (الجزء المخطوط الخاص بدولة المرابطين) ورقة ٢٤ ؛ ابن أبى زرع : روض القرطاس ٢/٨٦ — ٨٧ ؛ السلاوى : الاستقصا ٢/ ٥٩ (وهو اختصار لما كتبه ابن أبى زرع) ؛ ابن الكردبوس : الاكتفا (حسب الترجمة الانجليزية التى قام بها باسكوال دى جاينجوس وجعلها ذيلا لترجمته لكتاب نفح الطيب للمقرى) : Pascual de Gayangos: *History of Mohammedan Dynasties in Spain*, vol. II, Appendix C, p. XLVIII.

التى يعرفها مؤرخو المسيحيين باسم كونجست دى مارتوريل Congost de Martorell ؛ أما ابن عائشة فلم يفلت إلا بصعوبة شديدة[1] .

وهكذا نرى أن النشاط العسكرى للمرابطين فى هذه السنة وما تلاها قد بلغ أوجه ، وأقبلت جيوشهم تسد الثغرات التى كانت تضعف من قوة الخطوط الدفاعية الاسلامية فى الأندلس فى جميع الجهات ، وفى كل ذلك تأييد لما تذكره الرسالة التى بين أيدينا من اجتهاد الحكومة المرابطية فى الاستعداد للجهاد واتخاذ الأهبة له .

هذا وفى الرسالة المذكورة ناحية أخرى جديدة بالملاحظة ، ونعنى بها اهتمام الحكومة المرابطية إلى جانب الاستعداد المادى بالاستعداد الروحى ، فأمير المسلمين يدعو أهل الأندلس إلى إخلاص الدعاء والنية والتضرع لله وسؤاله النصر والمعونة إذ « أن الدعاء إذا وافق إجابة يمضى حيث ينبو الحديد المذرب ، ويكبو العديد المتهيب » ، وهو أمر لا نستغربه من سلطان عميق التدين مثل على بن يوسف ، وهذا الجانب الدينى من حكم المرابطين هو الذى كثيراً ما حمل بعض المؤرخين المحدثين من أجله على حكومتهم ، إلا أن الذى يتأمل أحوال الأندلس فى عهد ملوك الطوائف فإنه يرى ما بلغته من تحلل دينى وخلقى كان هو العلة الأولى للتفكك السياسى الذى بقى يتهدد الاسلام بالانهيار فى هذه البلاد منذ أوائل القرن الخامس الهجرى لولا أن هرع المرابطون إلى نجدته واستنقاذه ، ولهذا كان من الطبيعى أن يلح الأمير المرابطى على هذه الناحية ويطلب إلى أهل الأندلس مزيداً من العناية بذلك « الجهاد الأكبر » — جهاد أنفسهم وإخلاص نيتهم لله دون أن يعنى ذلك تقصيرا فيما كانت الدولة المرابطية مشتغلة به من أمر الجهاد العسكرى .

(١) عن هذه الواقعة انظر : ابن أبى زرع : روض القرطاس ٢/٨٣ — ٨٤ ؛ السلاوى : الاستقصا ٢/٥٨ ، وانظر ما كتبه عنها :

الدكتور حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى . . . ، ص ١١٢ — ١١٣

F. Codera: *Decadencia...*, pp. 20-22, 272-278; Bosch Vila: *Almorávides*, pp. 189-190.

الرسالة الثالثة

كاتب هذه الرسالة هو ابن أبى الخصال ، وهى صادرة عن على بن يوسف إلى ابنه أبى بكر من حضرة مراكش يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة ٥٢٠ (٢٤ مارس سنة ١١٢٦) .

ولهذه الرسالة قيمة عظيمة فى بيان عدة نواحى متعلقة بتاريخ المرابطين أولها ما توضحه من أسرة على بن يوسف نفسه وأبنائه ، وهذه مسألة من أكثر نواحى التاريخ المرابطى غموضا وأجدرها بالإيضاح ، إذ أن حديث المؤرخين القدماء عنهم مضطرب أشد الاضطراب ، والروايات التاريخية عن ذلك حافلة بالتناقض والتضارب ؛ ثم إن فى هذه الرسالة ما يطلعنا على بعض التفاصيل الخاصة بالنظام الإدارى والسياسى والعسكرى للمرابطين وطريقتهم فى الحكم .

والذى يفهم من هذه الرسالة أنها رد على كتاب من أبى بكر بن على بن يوسف إلى أبيه وصف فيه « الحال الجارية بحكم الأقدار النافذة الماضية » ، وهى إشارة يفهم منها وقوع حادث خطير مؤسف ، فإننا نجد فى جواب على ابن يوسف بعد هذه العبارة « وألا صارف لما أمضاه ، ولا معقب لما شاءه وقدره لا إله سواه » ، ثم إن الرسالة تتحدث بعد ذلك عما قد يكون لهذا الحادث من تأثير على المسلمين فى الأندلس من تثبيط لعزائمهم وإضعاف لروحهم المعنوية ، فتدعو أبا بكر بن على إلى أن يعمل على ضبط الأمور ومواصلة الجهاد ، ثم تتبع ذلك بما قرره أمير المسلمين من تقديم ابنه أبى بكر على جميع الجيوش فى الأندلس عموما يشمل من كان هناك منها ومن وصل من المغرب إليها ، وأنه قد كتب إلى جميع عمال الدولة (بالأندلس) بالسمع منه والطاعة له ، ثم تضيف الرسالة إلى ذلك إشارة لها مغزاها : « وليست الحال الآن كالحال قبل ، فإنها الآن يتنوط بك الدق منها والجل ، والكثر والقل » ،

ومعنى هذا أن أبا بكر كان فى هذا الوقت يتولى بعض أعمال الأندلس ، إلا أن رسالة على بن يوسف هذه قد قدمته إلى مكان أرفع وأسمى : إلى مكان القيادة العامة لجميع جيوش المرابطين فى الأندلس ، وتنتهى الرسالة بوصية أبيه إليه بمواصلة الجهاد وبالتشاور مع سائر القواد بحيث لا يستأثر ولا يستبد ولا يتخذ قراراً إلا بعد عرضه على أهل الرأى .

وأول ما يستحق التعليق هنا هو ما يتصل بأبى بكر بن على بن يوسف الذى وجهت إليه الرسالة : من هو ؟ وما مكانه من سائر أبناء أمير المسلمين على بن يوسف .

الواقع أن الأخبار الخاصة بأبناء السلطان المرابطى محوطة بالغموض مما يحملنا هنا على الحديث عنهم بشىء من التفصيل[١] . وقد ذكر ابن أبى زرع من هؤلاء الأبناء ثلاثة : تاشفين المولى بعده ، وأبا بكر ، وسير (فى الأصل سيرى)[٢] ؛ أما صاحب « الحلل الموشية » فهو يذكر منهم — فى آخرين — تاشفين المولى بعده ، وسير ، وأبا بكر الذى يقول إنه كان يلقب ببكور ، وإنه كان شجاعا مقداما وإن أباه سجنه فى الجزيرة الخضراء حتى توفى فى سجنه ، ويضيف إلى ذلك أن مولده كان لستة عشر عاما من مولد أبيه (أى

---

(١) كان كوديرا قد اختص أبناء على بن يوسف بالبحث فى دراسته التى كتبها عن أسرة بنى تاشفين (*La famifia real de las Beni-Texufin,* en *Estudios críticos de historia árabe-española,* vol. IX, pp. 75-165).

غير أن المخطوطـــات الجديدة التى اكتشفت فى السنوات الأخيرة قد قللت من قيمة هذه الدراسة وكشفت النقاب عن كثير مما أغمض على هذا الباحث ، ولعل خير ما كتب أخيراً عن هذا الموضوع هو البحث الذى وضعه الأستاذ أويثى بعنوان «على بن يوسف وأعماله فى الأندلس» : A. Huici Miranda: *ʿAlī b. Yūsuf y sus empresas en al-Andalus,* en Tamuda, Tetuán, 1959, pp. 77-122.

إذ أنه أفرد بعض صفحات هذا البحث للكلام عن أبناء على بن يوسف (الملحق رقم ١ ص ١٠٤ — ١٠٦) .

(٢) روض القرطاس ٢/٧٨ ، هذا وإن كان المعروف أن أبناء على بن يوسف أكثر من هذا العدد بكثير ، وقد تحدث ابن أبى زرع فى مواضع مختلفة من كتابه عن بعض من لم يذكر أسماءهم هنا .

أنه ولد فى سنة ٤٩٣/١٠٩٩—١١٠٠ إذا عرفنا أن على بن يوسف ولد فى سنة ٤٧٧/١٠٨٤—١٠٨٥)[١] ، وقد أدى هذا الاضطراب إلى اختلاف المؤرخين المحدثين حول أبى بكر هذا ، فاعتبره معظمهم هو نفسه المذكور باسم « سير » وأن « أبا بكر » ليست إلا كنية له[٢] .

على أننا نستطيع أن نؤكد أن « أبا بكر » و « سير » أخوان مختلفان متميزان كل التميز[٣] .

أما سير فإنه هو الذى أعلنه أبوه على بن يوسف ولياً لعهده فانعقدت له البيعة فى يوم الجمعة ١٤ جمادى الأولى سنة ٥٢٢ (١٥ يونيه ١١٢٨) كما ينص على ذلك ابن عذارى[٤] والوراق فى كتابه « المقباس »[٥] ، ويضيف ابن الخطيب إلى ذلك أن على بن يوسف ولى ابنه الثالث تاشفين فى نفس الوقت على الأندلس كلها فكبر ذلك على سير وفاوض أباه فى عزله معبراً عن حسده لأخيه لما حمله من ثناء الناس وذكرهم حتى إن اسم تاشفين غطى على اسمه وأمال إليه جميع أهل المملكة ، فلم يسع أباه إلا أن عزل تاشفين عن الأندلس وأمره بالوصول إلى حضرته ، فرحل عن الأندلس فى أواسط سنة ٥٣١

---

(١) هذا هو مجمل نص « الحلل الموشية » حسب طبعة الأستاذ ا. علوش الذى لم يعتمد فى نشره لهذا النص على مخطوطاته الأخرى التى كانت محفوظة ببعض المكتبات الأوربية ، وهى تختلف عن نص علوش اختلافاً بيناً ، فقد نقل دوزى هذا النص عن مخطوطتى ليدن ومجموعة جاينجوس بهذه الصورة : «أبو بكر سير درج فى حياته ويدعى ينكور ، وكان ذا حدة وشجاعة . . . الخ » — انظر :
Dozy: *Loci de Abbadidis*, I, pp. 18-19.

(٢) F. Codera: *La familia real de los Beni-Texufin*, en *Estudios críticos de historia árabe-española*, vol. IX, pp. 117-120.

(٣) كنت قد رجحت ذلك مما جمعته من مختلف المراجع المعروفة التى استطعت الانتفاع منها ، حتى وقعت إلى مخطوطة البيان المغرب (المرابطى) التى قام بنسخها الأستاذ أويثى تمهيداً لنشرها ، والتى تفضل باطلاعى عليها المستشرق الإسبانى الجليل ، وحينئذ أصبحت متأكداً من صواب هذا الرأى .

(٤) البيان المغرب ، ورقة ٣٤

(٥) حسبما نقل عنه ابن الخطيب فى الإحاطة (ط. عنان) ١/٤٥٤

(أوائل سنة ١١٣٧) ، فوصل إلى مراكش وصار فى جملة من يتصرف بأمر أخيه سير ويقف ببابه كأحد حجابه[1] .

وقد بقى سير ولياً للعهد منذ سنة ٥٢٢ حتى وفاته سنة ٥٣٣ (١١٣٨/١١٣٩)[2] ، ويذكر ابن الخطيب أنه توفى « على الصورة القبيحة » التى وعد بتفصيلها عند ترجمته له ، وقد حاول دوزى أن يفسر هذه الصورة القبيحة على أنها كانت وفاة سير فى سجن الجزيرة الخضراء ، إذ افترض دوزى أن نص « الحلل الموشية » يدل على ذلك[3] ، على أن كوديرا استبعد ذلك إذ لو كان صحيحا لكان المعقول هو أن يعزله أبوه عن ولاية العهد أولا ، والنقود التى عثر عليها منصوصا فيها على ولاية سير لعهده أبيه مستمرة إلى سنة ٥٣٣ التى توفى فيها . على أن نص « البيان المغرب » المرابطى قد قطع الجدل فى ذلك ، إذ أنه يصرح لنا فى حوادث سنة ٥٣٣ بأن سيرا « كان يركن إلى الراحة ويصطحب أهل الفكاهة ، فاقتحم ليلا على أخيه تاشفين فى داره ، فضربه وقضى عليه فمات[4] » ، ويبدو أن سيراً حاول اغتيال أخيه تاشفين ، فتنبه هذا إليه ودارت الدائرة على المتعدى .

وأما أبو بكر فإنه أقل هؤلاء الثلاثة من أبناء على بن يوسف نصيباً من عناية المؤرخين حتى إن بعض المؤرخين المحدثين خلطوا بينه وبين أخيه

(١) نفس الموضع السابق ، والبيان المغرب ، ورقة ٣٥

(٢) يتفق هذا التاريخ تماماً مع ما ذكره كوديرا من أن من بين النقود المرابطية التى عثر عليها مجموعة ضربت فى مراكش والمرية وإشبيلية منصوصاً فيها على « سير ولى العهد » ، أما تاريخ ضرب هذه النقود فإنه ينحصر بين سنتى ٥٢٢ و ٥٣٣ ؛ انظر Codera: *La familia real...*, pp. 119-120.

(٣) Dozy: *Loci de Abbadidis*, I, pp. 18-19 ؛ وهذا ما يمكن أن يفهم من نص « الحلل » حسب مخطوطتيه الأوروبيتين اللتين رجع إليهما دوزى ، أما النص كما نشره علوش فإنه لا يستنتج منه شىء من ذلك .

(٤) البيان المغرب ، ورقة ٤٦ ؛ أما ابن القطان فإنه يسوق خبر مصرع سير بصورة أخرى ، إذ يقول : « وفى هذه السنة [٥٣٣ هـ.] هلك سير بن على بن يوسف فى آخر صفر ، وكان على بن يوسف قد فتن به وقدمه ولى عهده ، ولم يكن أهلا لشىء ، فعكف على البطالة ، ودخل متسوراً على أخيه عمر يريد زوجته ، فجرح جراحة عجلت منيته » (نظم الجمان ، ورقة ٨٢ ب) .

سير ، وشكوا فى وجود ابن لعلى بن يوسف يحمل هذا الاسم[١] .

ومجمل ما استطعنا جمعه من أخبار أبى بكر بن على فى المراجع التاريخية هو أنه كان أكبر أبناء على بن يوسف إذا أنه ولد فى سنة ٤٩٣ (١٠٩٩—١١٠٠) حينما كان أبوه يناهز السادسة عشرة من عمره ، وكان يلقب ببكور أو بكو[٢] ، ويبدو أنه نشأ فى الأندلس كما جرت عادة على بن يوسف فى تربية أبنائه ، فدرج فى إشبيلية وقام على رعايته وتأديبه الطبيب الأندلسى المشهور أبو مروان ابن زهر ، على أنه — فيما يظهر — لم يكن مكبا على الدرس منصرفا إلى التحصيل مما دعا والده فى إحدى المناسبات إلى تقريعه ونهره ، وكل ذلك نأخذه من وثيقة مهمة كانت من بين الرسائل المرابطية التى اضطلع بنشرها الدكتور حسين مؤنس ، وهى رسالة قصيرة صادرة من على بن يوسف إلى ابنه أبى بكر المذكور يقول فيها : « كتابنا ألهمك الله رشد نفسك . . . من حاضرة مراكش . . . بعد وصول الوزير الجليل أبى مروان ابن الوزير . . . أبى العلاء ابن زهر محل أبينا . . . يشكو ما يكابده من

---

(١) نلاحظ بهذه المناسبة أن من أسباب اضطراب أخبار المؤرخين عن أمراء المرابطين ورجال دولتهم بوجه عام هو أن كثيراً منهم كانوا يذكرون بكناهم أو بأسماء أمهاتهم أو أجدادهم دون أسمائهم ، ولنشر من أمثلة ذلك إلى : أبى بكر بن عمر (ابن عم يوسف بن تاشفين وأمير المرابطين قبله) ؛ وأبى بكر بن يوسف بن تاشفين (الذى توفى بسبتة بينما كان أبوه فى معترك وقعة الزلاقة) ؛ والقائد أبى محمد ابن فاطمة ؛ وابن عائشة ؛ وابن الصحراوية . . . الخ ؛ ويبدو أن هذه التسميات كانت جرياً على عادة قديمة ذائعة فى أوساط القبائل البربرية ، ونلاحظ بوجه خاص أن اسم « أبى بكر » كان من أكثر الأسماء ذيوعاً لدى صنهاجة ولمتونة ومسوفة وغيرها من قبائل المرابطين ، فقد تسمى به كثير من أمرائهم ورجالاتهم لا على أنه كنية وإنما اسم علم لا يعرف الشخص إلا به .

(٢) فى نص الحلل الموشية (ط. علوش) ص ٦٨ : « . . . ويدعى ببكور » ، وقد قرأ دوزى هذه الكلمة عند نقله لهذا النص معتمداً على المخطوطتين الأوربيتين « ينكور » وفسرها بأن معناها « الأسد » تشبيهاً له به فى الاقدام والشجاعة (*Loci de Abbadidis*, I, p. 18) ؛ أما أويثى فقد قرأها « بكور » وفسرها بأن أبا بكر كان أول أبناء على بن يوسف أو « باكورتهم » (ص ٩٩ — ١٠٠ من الترجمة الاسبانية للحلل) ، ومن الجلى أن تفسير دوزى فيه كثير من الابعاد والتعسف ، وأما تأويل أويثى فهو أقرب إلى المعقول .

تشغيبك ، ويقاسيه من تضريبك ، فأمسك عليك رمقك ، وخذ من الأمور ما يسر ، وإلا أنفذناك إلى ميورقة . . . »[١] .

ولعل أول منصب رسمى أسند إلى أبى بكر بن على بن يوسف كان توليه حكم إشبيلية خلفاً لعمه تميم بن يوسف بن تاشفين الذى عزل عن حكم هذه المدينة فى ذى الحجة سنة ٥١٧ (يناير—فبراير ١١٢٤) ، على أنه لم يضطلع بحكم إشبيلية إلا فى شهر المحرم سنة ٥١٨ (فبراير—مارس ١١٤٢)[٢] .

وقد أمدنا « البيان المغرب » بتفاصيل قيمة عن بعض ما قام به أبو بكر فى أثناء حكومته لاشبيلية ، من ذلك دوره فى تلك الحملة المشهورة التى قادها ابن رذمير (ألفونسو المحارب) إلى بلاد الأندلس فى سنة ٥١٩ (١١٢٥— ١١٢٦) ، إذ أن أبا بكر تحرك على رأس جيوش إشبيلية فى أثر ألفونسو حينما وصل هذا إلى قبرة Cabra ، ويبدو أنه اشترك فى الموقعة التى دارت بين المسلمين و بين ألفونسو عند حصن أرنيسول ، وهى التى انتهت بهزيمة المسلمين ، ولما حل ابن رذمير بوادى آش سار إليه أبو بكر وأرغمه على فك الحصار عن هذه المدينة[٣] .

ونستنتج من الرسالة التى بين أيدينا أن أبا بكر بن على قد كتب إلى أبيه فى هذه المناسبة شارحا الظروف التى وقعت فيها حملة ألفونسو المحارب على الأندلس ومبينا ما أصاب المسلمين من جراء هذه الحملة ، وقد رأينا كيف حمل سوء أحوال شبه الجزيرة قاضى الجماعة بقرطبة أبا الوليد بن رشد على الجواز

---

(١) الدكتور حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة . . . ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد الثانى ، ص ٦٨ — ٧٠

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ورقة ٣٠ ؛ وانظر كذلك كتاب مفاخر البربر ص ٨١ حيث يورد قائمة بأسماء ولاة اشبيلية وفيها يجعل أبا بكر عاملا لهذه المدينة خلفاً لمن يسميه « القائد أبا يعقوب بن على » ؛ وانظر كذلك أويثى : على بن يوسف وأعماله فى الأندلس ص ٩٦ ، ١٠٤

(٣) البيان المغرب ، ورقة ٣١ مكرر ؛ أويثى : على بن يوسف . . . ص ٩٨ — ٩٩

إلى مراكش والتحدث إلى أمير المسلمين بنفسه حول ذلك ، والرسالة التى وجهها على بن يوسف إلى أهل الأندلس بهذه المناسبة ، ويمكن أن نلحق بذلك هذه الرسالة الثانية التى وجهها الأمير إلى ابنه أبى بكر يحثه على بذل أقصى الجهد والمال فى سبيل حماية المسلمين وتجنب عودة مثل هذه الحملات النصرانية إلى التكرر .

وأهم ما فى هذه الرسالة التى احتفظ لنا بتاريخها (٢٧ صفر سنة ٥٢٠ أى ٢٤ مارس ١١٢٦) أن على بن يوسف قد أسند بمقتضاها إلى ابنه أبى بكر قيادة الجيوش بجزيرة الأندلس : « . . . وقد رأينا . . . أن نقدمك على جميع الجيوش بتلك الجزيرة . . . عموما يشمل من كان هناك منها ومن وصل من هذه العدوة . . . إليها ، وخاطبنا عمالك بالسمع منك والطاعة لك » ، ولم ينص أى مرجع تاريخى مما وصل إلينا على هذه التولية إلا أنها ثابتة لنا بحكم هذه الرسالة ، ومعنى ذلك أن القيادة العليا للجيوش الأندلسية قد أسندت إلى أبى بكر فى نفس الوقت الذى كان يتولى فيه حكم إشبيلية إذ أننا نعرف أنه لم يعزل عن هذه المدينة إلا فى رجب سنة ٥٢٢ (يولية ١١٢٨)[١] .

وربما كان مما يؤكد صحة ما جاء فى هذه الرسالة من تعيين أبى بكر قائداً عاما بالأندلس ذلك الخبر الذى نقله ابن عذارى[٢] وذكر فيه أن أبا بكر توجه فى جيوشه من إشبيلية إلى غرناطة التى كان يحكمها أخوه أبو حفص عمر ابن على فدخلا المدينة فى أجمل هيئة واستعرضا معا جيوش هذه المنطقة وبقى أبو بكر بظاهر غرناطة أياما ثم قصد إلى شرق الأندلس واقتحم فى طريقه حصنا كان الروم قد تملكوه غدراً فنصب عليه الحرب ودخله عنوة وامتلأت أيدى المسلمين بكثير من الأسلحة والآلات والمتاع ، ثم عاد إلى غرناطة ومنها

---

(١) البيان المغرب ، ورقة ٥١ ؛ أويثى : على بن يوسف . . . ص ١٠٨
(٢) البيان المغرب ، ورقة ٣٣ ؛ أويثى : على بن يوسف . . . ص ١٠٢

توجه راجعا إلى إشبيلية . وفى هذا الخبر ما يدل على أن سلطة أبى بكر بن على بن يوسف كانت أكبر من سلطة مجرد عامل لأمير المسلمين على إحدى المدن الأندلسية وهو ما يمكن أن نفسره بما تنص عليه الرسالة من إسناد القيادة العليا إليه .

ويذكر صاحب « مفاخر البربر »[1] أن أبا بكر أسند إليه عمل غرناطة ولكننا لا نجد فى غير هذا الكتاب تأكيداً لهذا الخبر إلا ما يذكره ابن الخطيب نقلا عن الملاحى فى معرض الحديث عن الأمير المرابطى أبى بكر ابن ابراهيم بن أبى يحيى المسوفى الصحراوى إذ يقول إنه ولى غرناطة فحدث خلاف بينه وبين قومه فقبضوا عليه ووجهوه إلى على بن يوسف ، فآثر الإبقاء عليه ؛ فابن الخطيب يعلق على ذلك الخبر بقوله : « وعندى أن الأمر ليس كذلك ، وأن الذى جرى له ذلك أبو بكر بن على بن يوسف بن تاشفين ، فليتحقق»[2] .

على أن الذى نعرفه بوجه التأكيد أن أبا بكر بن على قد عزل بعد ذلك عن إشبيلية وعن مركز قيادة الجيوش بالأندلس فى رجب سنة **٥٢٢** (يوليه ١١٢٨) ، ويقول ابن القطان فى سبب ذلك « وفيها [فى سنة **٥٢٢**] استرعى على بن يوسف البيعة لابنه سير فعقدت له البيعة بقرطبة ، وفيها عزل على ولده أبا بكر عن إشبيلية وغربه مكبولا إلى الصحراء لأمر نسب إليه لأنه لم يرض بيعة أخيه »[3] ، ويبدو أن أبا بكر الذى رأيناه منذ صباه وشبابه حاد الطبع شديد الاعتداد بنفسه لم يرض عن تولية أخيه سير العهد ، ولعله كان يرى نفسه أحق بذلك إذ أنه كان أكبر إخوته مما جعله يكثر الخوض فى ذلك حتى عزله أبوه ونفاه إلى الصحراء كما نرى من هذا النص .

---

(١) ص ٨٢

(٢) الاحاطة (ط. عنان) ١/ ٤١٦

(٣) نظم الجمان ورقة **٣٣** ب .

وقد بقى أبو بكر فى المغرب مدة ، ويظهر أن أباه رضى عنه بعد ذلك ، إذ أننا نراه يسند إليه بعض مناصب القيادة على جيوش المرابطين التى كانت تحاول إخماد الثورة الموحدية فى المغرب ، وينص المؤرخ الموحدى البيذق على أن جيوش ابن تومرت أحرزت نصراً كبيراً على أبى بكر فى منطقة السوس[1] ، ثم عاد الموحدون فألحقوا به هزيمة عظيمة فى أغمات بعد مقتلة شديدة استمرت ثمانية أيام[2] ، وأخيراً اشترك أبو بكر فى قيادة الجيوش المرابطية التى انتصفت بعد ذلك من الموحدين وأوقعت بمحمد بن تومرت فى سنة ٥٢٤ (١١٣٠) تلك الهزيمة المشهورة فى الوقعة التى عرفت باسم « البحيرة »[3] .

وفى سنة ٥٣٣ توفى ولى العهد سير بن على فجعل على بن يوسف ولاية العهد بعده إلى ابنه تاشفين ، فعاد أبو بكر إلى إبداء سخطه وتذمره ، إذ رأى نفسه — وهو أكبر إخوته — منحًّى عن ولاية العهد مرة أخرى ، ولما ضاق به أبوه أمر بنفيه ثانية ، ويقول فى ذلك ابن عذارى : « أمر [على ابن يوسف] عند ذلك بإخراج ابنه أبى بكر من مراكش وحمله إلى الجزيرة الخضراء ليسجن بها لأنه خاف من خوضه فى أمور ، فأصاب أبا بكر مرض فكان الرجال يحملونه على أعناقهم ، ووصل المذكور إلى الجزيرة فسجن بها

---

(١) البيذق : أخبار المهدى ص ١٣١ من النص العربى و ص ٢٢٢ من الترجمة الفرنسية ؛ وانظر كذلك كتاب أويثى عن « تاريخ الدولة الموحدية » A. Huici: *Historia política del Imperio Almohade*, I, p. 70. هذا ونص البيذق يسميه « بكو بن على بن يوسف » ويحتمل هذا إما أن يكون تحريفاً لاسم « أبى بكر » (وسنرى فى معرض بعض الوقائع الأخرى أن ابن أبى زرع والسلاوى يسميانه أبا بكر بالفعل) ، وإما أن يكون ذلك هو اللقب الذى عرف به والذى حرف فى النسخة المطبوعة من « الحلل الموشية » إلى « بكور » كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

(٢) ابن أبى زرع : روض القرطاس ٢/١١٨ — ١١٩ ؛ السلاوى : الاستقصا ٢/٨٤ ؛ ابن القطان : نظم الجمان ، ورقة ٣٩ ب ؛ وقد سماه المرجعان الأولان « أبا بكر » والثالث « بكو » ؛ هذا وقد تحدث عن هذه الوقعة صاحب الحلل الموشية (ص ٩٢) وابن خلدون دون الاشارة إلى أحد هذين الاسمين ؛ وانظر ما كتبه عنها أويثى فى « تاريخ الدولة الموحدية » ١/٨٠

(٣) السلاوى : الاستقصا ٢/٨٠ — ٨١ ؛ وقد نقل السلاوى هذا النص عن تاريخ ابن خلدون (العبر ٦/٢٢٨) إلا أن ابن خلدون يسميه هنا « بكر بن على » لا أبا بكر كما ذكر السلاوى .

ولم تطل مدة محبسه هذا إلى أن هلك »[١] ، وهكذ مات هذا الأمير بعد حياة مضطربة صاخبة .

ونضيف إلى ذلك أنه كان لأبى بكر بن على هذا ابن يدعى يحيى اشترك بعد ذلك فى القتال الذى دار بين الموحدين والمرابطين فى أواخر أيام هؤلاء ، فقد أشار ابن الأبار إلى يحيى هذا الذى كان يلقب بابن الصحراوية ، وقال إنه كان عاملا لعمه تاشفين بن على على تلمسان فى الوقت الذى أحدقت فيه جيوش الموحدين بسائر مدن المغرب فى سنة ٥٣٩ (١١٤٤/١١٤٥) ، وكان خبر موت عمه تاشفين قد بلغه والموحدون ضاربون حصارهم على المدينة فلم يسعه إلا أن يسلمها لعبد المؤمن ويخرج عنها[٢] . وتذكر المراجع التاريخية بعد ذلك فى أخبار سنتى ٥٤٢ و ٥٤٣ أن شخصاً يسمى يحيى بن أبى بكر الصحراوى قام بإعلان الثورة على الموحدين فى مدينة سبتة بعد أن كانت قد خضعت لهم ، وقد درس المستشرق الإسبانى الأستاذ كوديرا هذه الثورة وانتهى منها إلى أن يحيى المذكور هو الذى أشار إليه ابن الأبار فى النص السابق ، واستدل على ذلك بقطعة من النقود عثر عليها أخيراً ، وهى دينار من الذهب مضروب فى سبتة سنة ٥٤٣ مكتوب فيه « . . . المهدى الذى يشرك النبى ، أمير المسلمين يحيى بن أبى بكر بن على بن يوسف »[٣] . على أن كوديرا كان قد اعتبر اسم « أبى بكر » مجرد كنية للأمير سير بن على بن يوسف جاعلا من هذين الأخوين شخصاً واحداً ، ولهذا فإنه لم ير مفرًّا من القول بأن يحيى هذا كان ابنا لسير وإن كان قد استغرب أن يسمى مرة باسمه ومرة بكنيته[٤] ، وقد أوضحنا صحة الأمر فى ذلك فيما سبق بما فيه الكفاية .

---

(١) البيان المغرب ، ورقة ٤٩

(٢) الحلة السيراء (ط. دوزى) ص ١٩٨

(٣) انظر تعليق كوديرا على ذلك وتفصيل أخبار ثورة سبتة فى بحثه عن « بنى تاشفين » ص ١٥٤ — ١٥٥

(٤) نفس المرجع ص ١٦٠ — ١٦١

الرسالة الرابعة

كاتب هذه الرسالة هو ابن أبى الخصال ، وهى صادرة عن على بن يوسف من حضرة مراكش لخمس بقين من ذى الحجة سنة ٥٢٣ (٢٨ ديسمبر ١١٢٩) .

أما الوحيدى الذى وجهت إليه الرسالة فإنه بغير شك أبو محمد عبد الله ابن أحمد بن عمر القيسى المالقى[1] ، وكان من عائلة وجيهة عرفت بالعلم والنباهة ، ولد فى سنة ٤٥٦ ، وكان فى شبابه مقبلا على لذاته وإن لم يترك طلب العلم ، فقد درس الفقه والحديث على القاضيين أبى المطرف الشعبى وأبى الوليد الباجى ، ثم انقطع للعبادة والعلم ، وولى القضاء بريه ، ثم ببلده مالقة ، واستمرت ولايته ثمانية عشر عاما ، فلما آنس فى نفسه ضعفا وكبرة استعفى من القضاء وقبض يده عن أخذ الجراية كالمعتاد لأمثاله من القضاة ، وما زال يلح على الأمير فى ذلك حتى أعفاه ، وتوفى فى ٢٦ من المحرم سنة ٥٤٣ ، ودفن بمسجد حكمه الذى ظل يحمل اسمه فى داخل أسوار مالقة حتى القرن الثامن الهجرى على ما يذكر النباهى .

وأما هذه الرسالة التى وجهها إليه على بن يوسف فإنها تطلعنا على بعض جوانب صورة النظام الحاكم والإدارة فى عهد المرابطين ، والعلاقة بين السلطتين القضائية والتنفيذية ، ومدى اختصاص القضاة فى المناطق التى يَلُونَ عملهم فيها ، ومبلغ رعاية سلاطين المرابطين لشئون رعيتهم وإقرار العدل بينها .

---

(١) انظر ترجمته فى ابن بشكوال : الصلة ، ترجمة ٦٤٧ ؛ الضبى : بغية الملتمس ، ترجمة ٩٠٢ ؛ ابن دحية : المطرب ص ٢١٨ ؛ النباهى : المرقبة العليا ص ١٠٤ — ١٠٥ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٥٥ ، المقرى : نفح الطيب ٤/٣٦١ — ٣٦٣

وينبغى أن نبين أولا أن هذه الرسالة الموجهة إلى قاضى مالقة لم تكن مجرد خطاب مرسل إليه من قبل السلطة العليـا ، بل إنها كانت فى الوقت نفسه أشبه ببيان رسمى عام تعلنه الحكومة على الشعب الأندلسى أجمعه ، ويدل على ذلك هذه الإشارة الخاصة التى جاءت بعد نهاية نص الخطاب : « . . . ليقرأ الكتاب على الكافة بالمسجد » ، وفى هذا ما يضاعف من قيمة الرسالة إذ أنها ليست خاصة بحالة معينة محدودة ، بل هى أشبه بدستور تسنه الدولة ، وتحدد فيه اختصاص السلطة القضائية والعلاقة بينها وبين سائر السلطات .

ومناسبة هذه الرسالة هى أن وفوداً من أهل مالقة وأعمالها على ما يظهر كانت قد حلت بعاصمة المملكة « مراكش » متوجهة بظلاماتها أو « أرفاعها » — كما تقول الرسالة — إلى حضرة الأمير على بن يوسف ، وأن الأمير فى تيقظه واستقامته وتحريه وجه الحق — وهو ما لم ينكره أحد من المؤرخين على على بن يوسف[1] — رأى أنه قد يختلط فى هؤلاء الشاكين والمتظلمين المحق بالمبطل ، والصادق بالكاذب ، وهكذا قرر ألا ينظر فى ظلامات الجميع شارعا لذلك قاعدة محددة : هى أنه لن تقبل شكاية من أحد إلا إذا كان معها بيان من قاضى بلده يدل على صحة ظلامته .

وهو يتبع ذلك بالحديث عن واجبات القضاة ، ولا شك فى أن هذا البيان الذى تتضمنه رسالة على بن يوسف يزيد فى اختصاصات القضاة ودائرة أعمالهم ، فهو يكل النظر فى كل تلك الظلامات إلى قضاة البلدان حتى لا يتجشم المظلومون مشقة السفر إلى العاصمة لعرض شكاواهم على السلطان .

---

(١) انظر ما كتبه حول ذلك ابن أبى زرع : روض القرطاس ٢/٩٤ ، الحلل الموشية ص ٦٩ ، السلاوى : الاستقصا ص ٥٣ — ٥٥ ، وانظر الفصل الذى كتبه عن المرابطين عامة المستشرق الاسبانى فرانسسكو كوديرا فى كتابه « انحلال دولة المرابطين . . . » ص ١٨٩ — ٢٢١ ، ويكاد كوديرا يكون أحد المؤرخين الأوربيين القلة الذين أنصفوا حكم المرابطين — ولا سيا حكم على بن يوسف — من العبارات الظالمة التى صورهم بها دوزى .

ولهذا فهو يخاطب الوحيدى قائلا : « وقد قلدناك تقليداً تاماً أن تنظر بجهتك من شكاوى العامة فى اللطيف والجليل » ، ويأمره بتقضى أحوال الرعية ومراقبة عمالها وولاتها . فمن رأى منه ظلما أو تقصيراً فلينه أمره إلى « صاحب البلد » أى حاكم الإقليم ، فإن أنفذ عزله وإلا فليكتب بأمره إلى أمير المسلمين ؛ وفى هذا ما يدلنا على أن سلطة القاضى أصبحت فوق سلطة الحاكم الإدارى فهو الرقيب على هذا الحاكم وعلى الولاة والعمال التابعين له ، وهو المسئول عن ذلك كله وعليه تقع تبعة ما يحدث من ظلم العمال والولاة ، والسلطان موافق له فى كل ما يقرر كما يظهر من قوله له « وأى عذر لك وقد شددنا من أزرك ؟ . . الخ » .

ثم إن فى الرسالة إشارة إلى ناحية مهمة من نواحى النظام القضائى فى المغرب والأندلس على عهد المرابطين تلك هى الوظائف التى كان يتولاها من يسمونه بـ « الحكام » ، ووظيفة « الحاكم » هذه ليست عملا إدارياً كما قد يبدو من هذا اللفظ لأول وهلة ، وإنما هى وظيفة قضائية خالصة كان يطلق على متوليها كذلك لقب « صاحب الأحكام » ، ويرجع وجود هذه الوظيفة إلى أواخر عهد الخلافة الأموية فى الأندلس كما ذكر الأستاذ ليفى بروفنسال[1] ، على أنها تبدو بشكل واضح مفصل فى عهد الدولة المرابطية ، وفى الرسالة الموجهة إلى القاضى الوحيدى والتى هى موضوع هذه الدراسة بيان واف بأحكام هذا المنصب . نشير هنا إلى أهم جمله « ومدار هذا الأمر اختيار « الحكام » الذين استنبتهم فى أقطارك القاصية ونصبتهم فى الجهات النائية . . . الخ » ثم يمضى محدداً الشروط التى ينبغى أن تتوفر فى هؤلاء الحكام من ثقة وديانة

---

(١) انظر تاريخ إسبانيا الإسلامية ٣/١٢٦ — ١٢٧ ، وقد اعتمد الاستاذ بروفنسال فى التدليل على ذلك بما ورد فى كتاب « الأحكام الكبرى » لابن سهل وفى عدة تراجم لبعض هؤلاء « الحكام » جاءت فى « صلة » ابن بشكوال و « تكملة » ابن الأبار ورسالة ابن عبدون فى الحسبة .

وأمانة وعفاف وزهد وتحفظ ، وللقاضى — كما يبدو من عبارات الرسالة — سلطة مطلقة فى تعيين هؤلاء وعزلهم وعقابهم دون رجوع إلى أمر السلطان نفسه ولا أمر عامله على الإقليم .

الرسائل الخامسة والسادسة والسابعة

كاتب هذه الرسائل الثلاث هو أبو بكر ابن القصيرة الذى كان كاتباً من قبل للمعتمد بن عباد ثم ليوسف بن تاشفين وبعد ذلك لابنه على ، على أن هذه الرسائل التى هى موضوع بحثنا إنما ترجع إلى عهد هذا الأمير الأخير كما ينص على ذلك جامعها ، والخامسة والسادسة منهما وجهتا من عاصمة الدولة المرابطية مراكش ، أما السابعة فإن على بن يوسف وجهها من « محلته بظاهر قرطبة » أى أنها كتبت فى الأندلس خلال إحدى الزيارات العديدة التى قام فيها السلطان المرابطى بالجواز إلى هذا الجزء من مملكته . ولم يحتفظ لنا الجامع بتواريخ هذه الرسائل غير أنه يمكن أن نقول إن جميعها كانت فى الفترة الواقعة بين سنة ٥٠٠ وهى التى ولى فيها على بن يوسف أمر المغرب والأندلس بعد وفاة أبيه وسنة ٥٠٨ التى كانت فيها وفاة ابن القصيرة .

ويجمع بين هذه الرسائل أنها كلها تقريباً وصايا من السلطان المرابطى إلى رعيته الأندلسيين . وجماع هذه الوصايا يكاد ينحصر فى تقوى الله ، والاتحاد واجتناب التفرق والحزازات ، ثم طاعة ولاة السلطان وعماله والبعد عن التشغيب عليهم والعصيان لأوامرهم ؛ والروح الدينية هى الغالبة على كل هذه الرسائل وهو أمر تميزت به الدولة المرابطية وجميع أمرائها ، كذلك يبدو لنا من الإلحاح على دعوة الأندلسيين إلى الطاعة والانقياد ما يدلنا على أن الأمور كانت قد بدأت تضطرب على الحكم المرابطى منذ السنوات الأولى لإمارة على بن يوسف ،

حتى إننا نراه مضطراً إلى توجيه هذا الإنذار الشديد إلى رعاياه من الأندلسيين كما نرى فى الرسالة السابعة التى كتبها من ظاهر محلته بقرطبة حيث يقول : « وإياكم والخوض فى أمر جعلناه إليه [إلى واليه على بعض الأعمال] ، واحذروا من تعقب ما صغر أو كبر عليه ، وأضربوا عنه ، ودعوا ما لا يعنيكم منه ، وليرشد خياركم شراركم ، وليبصر كباركم صغاركم ، وحسبنا هذا إنذاراً لكم ، وإعذاراً إليكم ، ولا عذر بعد ، ولا يَلُمْ من تعدى إلا نفسه » .

وشىء آخر نستنتجه من هذه الرسائل هو اتجاه الحكم المرابطى إلى ضرب من « اللامركزية » فى إدارتهم . فنحن نرى على بن يوسف فى الرسالة السادسة يقول عن واليه إنه « بلساننا متكلم ، وعما فى ضميرنا مترجم ، وفى قالب رأينا مفرغ . . . ما أمضاه أمضيناه ، وما وقفه وقفناه » ؛ وفى الرسالة السابعة يعود إلى مثل ذلك وفى نفس هذا العبارات تقريباً إذ يقول « قد فوضنا إليه فى ذلك كله ، وأفردناه النظر فى دقه وجله . . . وما فعل من ذلك كله فنحن فعلناه ، وما قاله فيه فكأنما نحن قلناه . . . الخ » .

الرسالتان الثامنة والتاسعة

كاتب هاتين الرسالتين هو ابن القصيرة ، وأولاهما وجهت عن على بن يوسف من مراكش دون تحديد لتاريخها ، أما الثانية فقد وجهت من محلة الأمير بظاهر مدينة سبتة فى يوم الاثنين منسلخ ذى الحجة سنة ٥٠٦ (١٧ يونيه ١١١٢) ويجمع بين الرسالتين أن كلتيهما تصور مركز الفقهاء فى الدولة المرابطية ، وهو أمر كثرت كتابة المؤرخين القدماء والمحدثين عنه ، فهو فى الرسالة الأولى التى يبدو أنه وجهها إلى أحد عماله يأمره أن يستشير أحد الفقهاء فى مختلف أمور الحكم : « فينبغى أن تشاوره فى كل ما تأتى وتذر ، وتورد

وتصدر ، وتقدم وتؤخر » ، وإذا كنا قد لاحظنا مما رأيناه فى الرسائل السابقة أن نظام الحكم المرابطى كان متجهاً إلى « اللامركزية » بحيث كان لعامل الأمير سلطة واسعة فى التصرف فى أمور الحكومة دون رجوع إلى السلطان فإننا نجد هنا خاصية أخرى من خصائص حكم المرابطين ، وهى « الديمقراطية » ، والواقع أن حكم المرابطين منذ إمارة يوسف بن تاشفين كان ذا طابع ديمقراطى إلى حد بعيد ، فقد كان سلاطينهم لا يكادون يبتون فى أمر إلا ورجعوا فيه إلى كبار أهل الرأى ، وإذا قدرنا غلبة الروح الدينية على حكم المرابطين فإنه يمكن أن نخلص من ذلك إلى أن « أهل الرأى » هؤلاء إنما كانوا كبار الفقهاء وأصحاب الفتوى ، وقد كان يوسف بن تاشفين على ما يذكر المترجمون له « يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الأمور إليهم ويأخذ فيها برأيهم ويقضى على نفسه بفتياهم »[1] وسار على بن يوسف على نهج أبيه فى ذلك ، فرد أحكام البلاد إلى القضاة وعول على الفقهاء[2] بل إننا نجد مظهراً واضحاً « لديمقراطية » على بن يوسف عند أخذه البيعة لمن يخلفه بعد وفاته[3] فإنه لم يكتف باستشارة من جرت العادة بطلب رأيه من الفقهاء والعلماء ، بل إننا نراه يتوجه إلى المسجد الجامع فيجمع الناس فيه خاصة وعامة ويعرض عليهم الأمر فينادون كلهم فى صوت واحد بإسناد العهد إلى تاشفين فلم يسعه حينئذ إلا أن ينزل على حكمهم ويعقد لتاشفين البيعة ، وأما تاشفين فإن الأخبار التى حفظت عنه تدل على أنه اقتدى بأبيه وجده فى ذلك .

والرسالة التاسعة تؤكد لنا هذه الناحية فعلى بن يوسف فيها يعبر عن غضبه واستيائه لما كانت تقابل به أحكام « الفقيه قاضى القضاة بالشرق » من اعتراض

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب (القسم المرابطى) ورقة ١٨

(٢) الحلل الموشية ص ٦٩ ، ابن أبى زرع : روض القرطاس ٢/٧٩

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة (ط. عنان) ١/٤٥٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب (المرابطى) ورقة ٤٧

طائفة من الناس فى هذه المنطقة ، وهو لهذا يحث عامله عليها على حماية جانب هذا القاضى وإنذار المعترضين عليه بتوقيع أشد العقاب عليهم إن لم يدعوا مخالفة أحكامه وأوامره .

هذا ويستوقف النظر هنا لقب « قاضى قضاة الشرق » ، والمعروف أن اللقب الذى كان يتخذه قضاة الأندلس فى قرطبة على عهد الخلافة الأموية هو « قاضى الجماعة » الذى كان يشبه لقب « قاضى القضاة » بالمشرق ، على أنه حينما انفرط عقد الخلافة الأموية عاد قضاة قرطبة إلى اتخاذ لقب « قاضى القضاة » تقليداً للرسوم المشرقية[١] ، ويبدو أن المرابطين أدخلوا على النظام القضائى تعديلا له أهميته حينما آلت الأندلس إلى حكمهم إذ أنهم قسموها إلى ثلاث مناطق إدارية كبيرة : الشرق والغرب والموسطة كما سبق أن أشار إلى ذلك الدكتور حسين مؤنس فى تعليقه على إحدى الوثائق المرابطية التى نشرها[٢] .

هذا ولم نهتد إلى معرفة شخصية « قاضى القضاة بالمشرق » المذكور وإن كنا نعتقد أنه يمكن أن يكون أبا أمية ابرهيم بن عصام المعروف بابن منتيل الذى توفى سنة ٥١٦ (١١٢٢ — ١١٢٣) وهو يتولى هذا المنصب[٣] .

الرسالة العاشرة

هى من تأليف ابن القصيرة أيضاً ، كتبت عن على بن يوسف من حضرة مراكش وهى مجهولة التاريخ وإن كان يغلب على الظن أنها صدرت

---

(١) انظر ليفى بروفنسال : تاريخ ٣/١١٨ — ١٢٠

(٢) سبع وثائق جديدة : صحيفة المعهد مجلد سنة ١٩٥٤ — ص ٧٣

(٣) انظر ترجمته فى قلائد العقيان ص ٢٠٣ ؛ ابن سعيد : المغرب ٢/٢٥٨ ؛ ابن الأبار : التكملة (الجزء الأول ، ط. بن شنب بالجزائر) ص ١٧٣ ؛ ابن الأبار : معجم أبى على الصدفى ، رقم ٤١ ص ٥٦

عن الأمير فى أوائل أيام حكمه أى فى نحو سنة ٥٠٠ (١١٠٦) ، إذ أنها رد على كتاب بيعة ورد إليه من بعض أعمال مملكته بالأندلس ، ويعد الأمير فيه بأن يولى أهل البلد ما يستحقونه من الرعاية والاهتمام ، ويقول إنه أنفذ إليهم مع كتابه هذا صكا « يحملون فيه على ما تضمن كتاب بيعتهم » .

الرسالة الحادية عشرة

من إنشاء ابن القصيرة أيضاً من حضرة مراكش ، وتاريخها آخر ذى الحجة سنة ٤٩٩ (١ سبتمبر ١١٠٦) ، ومعنى ذلك أن هذا الكتاب إنما وجه عن على بن يوسف قبل وفاة أبيه يوسف بن تاشفين بيوم واحد ، إذ أننا نعلم أن يوسف توفى فى مستهل شهر المحرم سنة ٥٠٠ (٢ سبتمبر ١١٠٦)(١)، بعد مرض استطال منذ سنة ٤٩٨ ، ونفهم من الرسالة التى بين أيدينا أن يوسف بن تاشفين حينما اشتد به المرض أسند إلى ابنه وولى عهده علىّ التصرف فى أمور الدولة باسمه(٢) .

وقد جاء فى الرسالة أن الأمير تلقى الكتاب الذى وجهه إليه عدد من الفقهاء لم يثبت جامع الرسائل أسماءهم ، وكان قد تكفل بحمل هذا الكتاب سفارة تتألف من بعض رجالات الأندلس ، فأطلع هؤلاء أمير المسلمين على

---

(١) انظر روض القرطاس ٢/٧٧ والبيان المغرب (القسم المرابطى) ورقة ١٧ وهذان المرجعان يذكران أن وفاته كانت فى يوم الاثنين مستهل شهر المحرم ، أما ابن خلكان (وفيات ٦/١٢٠) فإنه يذكر أن يوسف توفى لثلاث خلون من شهر المحرم .

(٢) ويدل على ذلك ما ذكره ابن عذارى فى البيان المغرب (ورقة ١٨) من أنه فى سنة ٤٩٩ قرىء كتاب نفذ من « ولى العهد » (أى على بن يوسف) فى إشبيلية بعزل قاضيها ، مما يدل على أنه كان يتصرف فى أمور الحكم نيابة عن أبيه ، كذلك ذكر ابن عذارى أنه لما استأثرت العلة بأمير المسلمين أوصى بالأمر إلى ولده ولى عهده (أى على) فاضطلع أبرع اضطلاع وقام أحمد مقام... الخ

أحوال هذا الجزء الكبير من المملكة المرابطية ، كما تذكر الرسالة أن الأمير أبا الطاهر (يعنى تميما بن يوسف أخا على) قد تقدم بجلاء أحوال هذه البلاد ، وكان تميم بن يوسف قبل ذلك واليا لأبيه على شرق الأندلس حتى بلغه مرض أبيه فانتقل إلى مراكش فى خلال سنة ٤٩٩ كما ينص على ذلك صاحب البيان المغرب[١] .

ونلاحظ أن الحديث عن أمثال هذه السفارات قد تكرر فى تلك الرسائل مما يدلنا على أن اهتمام أمراء المرابطين بالأندلس لم ينقطع طيلة عهدهم حتى فى الوقت الذى اضطربت فيه عليهم بلاد المغرب من جراء بوادر الثورة التى أضرمها عليهم محمد بن تومرت المهدى .

الرسالة الثانية عشرة

تشابه هذه الرسالة التى سبقتها فى كثير من النواحى فالموضوع تقريبا هو نفسه ، ولهذا فإننا نرجح أنها كتبت فى نفس السنة التى وجهت فيها الرسالة المتقدمة أى سنة ٤٩٩ ، ولعلها كانت قبل هذه بقليل إذ ينص كاتبها على أنها رد على رسالة بعثها أحد عمال المرابطين على الأندلس فى مستهل ذى القعدة (أغسطس سنة ١١٠٦) ، على أن لها أهمية خاصة فهى تشير إلى وفد قدم إلى مراكش متألف من أعلام مدينة بلنسية ، وكانت بلنسية قد دخلت فى طاعة المرابطين منذ أن استنقذها قائدهم مزدلى فى سنة ٤٩٥ (١١٠٢) بعد أن ظلت طيلة ثمانى سنوات تحت حكم السيد القنبيطور El Cid Campeador ، ولنا أن نتصور أن مهمة هذه السفارة كانت إطلاع يوسف بن تاشفين على آخر تطورات الموقف فى الأندلس عامة وفى شرق الأندلس بوجه خاص ، ويبدو أن هذه

---

(١) ورقة ١٧

السفارة وصلت إلى مراكش فى الوقت الذى كانت العلة فيه قد اشتدت بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين كما سبق أن بينا فى التعليق على الرسالة السابقة ، وهذا هو ما يفسر أن المضطلع بتوجيه هذا الكتاب إنما كان هو ولى العهد على بن يوسف .

كذلك نرى فيها إشارة إلى اجتماع على بن يوسف بأخيه أبى الطاهر تميم وما ألقى به هذا إليه من وصف أحوال « تلك الجهات » (أى بلنسية وشرق الأندلس) بصورة وافية مفصلة ، وهذا يتفق مع ما ذكره ابن عذارى من أن تميما كان فى هذه السنة (٤٩٩) يتولى شرق الأندلس ، ثم إنه لما بلغته علة أبيه توجه إلى مراكش فى نفس هذه السنة ، ولعله قدم على رأس تلك السفارة التى تتحدث الرسالة عنها[1] .

وتشير الرسالة إلى شخصية أخرى قدمت مع هذا الوفد ، إلا أن الاسم لم يذكر كاملا إذ هو فى النص «أبو عبد الله محمد بن أبى [ويتلو ذلك بياض صغير] » ، ونرجح أن يكون تمام الاسم « . . . بن أبى بكر اللمتونى » ، وكان هذا من أكبر قواد المرابطين الذين اتصلوا اتصالا مباشراً بمحنة بلنسية حينما استولى عليها السيد القنبيطور ، وذلك بشهادة ابن عذارى الذى يذكر أن أهل شرق الأندلس كانوا قد خاطبوا يوسف بن تاشفين بفساد بلادهم منذ أن أخذ بمخنقها الفارس القشتالى المشهور فتحرك يوسف إلى سبتة وأقام هناك يجند الأجناد وجعل قيادة تلك الجيوش وأمرها إلى نظر ابن أخيه الأمير أبى عبد الله ، ويزيدنا ابن عذارى تعريفا به فيقول إنه كان ابن أخى يوسف بن تاشفين لأمه[2] ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب الحلل الموشية كذلك وإن كان

---

(١) البيان المغرب ورقة ١٧

(٢) انظر القطعة التى نشرها ليفى بروفنسال من البيان المغرب فى مقاله الذى كتبه عن « استيلاء السيد على بلنسية » : E. Lévi-Provençal: *La toma de Valencia por El Cid*, en Al-Andalus, vol. XIII, 1948, p. 115.

خبره شديد الإيجاز[١] ، وقد أفاض ابن عذارى فى الحديث عن الوقائع الدائرة ببلنسية ، وبين لنا كيف أعمل السيد الحيلة على القائد المرابطى الذى كان مريضاً فى هذا الوقت حتى هزم قواته واقتحم محلته مما تسبب فى غضب عمه يوسف بن تاشفين عليه مدة ، ثم عاد إلى الرضا عنه وأمره بلزوم شاطبة وقطع الطرق إلى بلنسية ، وما زال يمده بالأموال والرجال حتى عظم جيشه ، إلا أنه كتب إليه بعد ذلك يأمره بالقدوم عليه وأرسل مكانه لتولى قيادة الجيوش أبا الحسن على بن الحاج[٢] . وأبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن تاشفين هو الذى نراه بعد ذلك والياً على قرطبة من قبل على بن يوسف فى سنة ٥٠١ (١١٠٧)[٣] .

وتذكر الرسالة أيضا أن على بن يوسف أصغى إلى الأعيان الواردين من قبل « يحيى بن تاشفين » و « محمد بن تومرت » . أما يحيى بن تاشفين فحول اسمه وشخصيته خلاف كبير بين المؤرخين ، ونعتقد أنه هو الذى ذكره ابن عذارى باسم أبى بكر يحيى بن تاشفين وقال إنه كان ابن عم على بن تاشفين شقيق أبيه لأمه[٤] ، وإذا ذكرنا أن ابن عذارى قال أيضا فى الحديث عن نسب أبى عبد الله محمد بن أبى بكر اللمتونى أنه كان ابن أخى يوسف بن تاشفين لأمه فإنه يمكن أن نستنتج أن محمداً ويحيى هذا كانا أخوين ، ويكون اسم يحيى الكامل إذن هو أبا بكر يحيى بن أبى بكر بن تاشفين ، وهو الذى نعلم مما أورده عنه ابن عذارى أنه ولى على قرطبة فى سنة ٥٠٩ (١١١٥—

---

(١) الحلل الموشية ص ٥٧ من النص العربى و ٨٥ من ترجمة الأستاذ أويثى الاسبانية وقد ذكره صاحب الحلل باسم « محمد بن تاشفين » فقط .

(٢) انظر القطعة المشار إليها من البيان المغرب ص ١١٨ — ١١٩ وانظر ما كتبه حول ذلك بوسك فيلا فى كتابه عن المرابطين ص ١٥٦ — ١٥٩

(٣) البيان المغرب ورقة ١٦ وانظر مقال أويثى *Alī b. Yūsuf y sus empresas en el-Andalus*, en Tamuda, 1959, p. 110.

(٤) البيان المغرب ورقة ٢٠

١١١٦) بعد مصرع واليها محمد بن مزدلي[١] ولعله هو نفسه الذى يذكره ابن أبى زرع والسلاوى[٢] قائلين إنه توجه إلى لاردة فى سنة ٥١١ (١١١٧) مع عبد الله بن مزدلى مُمِدَّيْنِ لتميم بن يوسف فى جهوده لرد النصارى عن حصار هذه المدينة ، ويبدو أنه ظل حاكما على قرطبة حتى سنة ٥١٤ (١١٢٠— ١١٢١) حينما خلفه عليها يحيى بن رواد[٣] .

وأما « محمد بن تومرت » فإن الإشارة إلى شخص يحمل هذا الاسم فى تلك الرسالة المرابطية على الصورة الواردة هنا أمر محير حقاً . فمن الواضح أنه لا يمكن أن يكون بطل الثورة على المرابطين ومهدى الموحدين ، ويبدو كذلك من الغريب أن يكون أحد رجالات المرابطين وأن يوافق اسمه اسم مؤسس الدولة الموحدية على هذا النحو دون أن يستحق ذلك التوافق الغريب إشارة من مؤرخى الدولة المرابطية أو الموحدية . هذا وإن كنا نعرف أن اسم « تومرت » لم يكن غريباً على المغرب والأندلس قبل محمد بن تومرت المهدى فقد تسمى به من قبل كاتب أندلسى عاش فى القرن الرابع الهجرى وتوفى سنة ٣٩١ هـ. قبل مولد تومرت أب المهدى بسنوات كثيرة كما نبه على ذلك الباحث المستشرق جولدتسيهر[٤] .

أتراه خطأً من الناسخ إذ أقحم اسم محمد بن تومرت هنا سهواً ؟ لا نستطيع أن نقطع بذلك ونكتفى بأن نعرض هنا هذا الاسم كما جاء فى الرسالة التى بين أيدينا لعل أحداً يهتدى إلى علة وجوده فى هذا السياق .

---

(١) نفس الموضع السابق .
(٢) روض القرطاس ٢/٨٨ (وقد حرف الاسم إلى « ابن يحي بن تاشفين ») والاستقصا ٢/٦٠ (إلا أنه سماه « أبا يحي بن تاشفين ») .
(٣) انظر مقال أويثى المشار إليه ص ١١٠
(٤) انظر كتاب أويثى عن تاريخ الدولة الموحدية ١/٢٦

أما باقى فقرات الرسالة فيدور حول اهتمام أمير المسلمين بهذه المنطقة المشرقية من الأندلس ، ويبدو من عباراتها مدى ما أصاب هذه الناحية من جراء احتلال السيد لبلنسية وإضرار المسيحيين بها واهتمام الحكومة المرابطية بتحصينها وإلقاء الطمأنينة فى قلوب أهلها .

الرسالة الثالثة عشرة

من إنشاء ابن القصيرة أيضاً ، وهى موجهة من الأمير على بن يوسف من حضرة مراكش فى يوم الأربعاء دون تحديد لليوم وإن كان قد ذكر الشهر والسنة (محرم سنة ٥٠٠ = سبتمبر سنة ١١٠٦) أى بعد أيام من تنصيب على بن يوسف على عرش المغرب والأندلس بعد وفاة أبيه ، ويبدو من الرسالة أنها موجهة إلى أهل أحد الأعمال الأندلسية بالانصياع والطاعة لواليه على هذا البلد وهو شخص يسمى « أبا محمد عبد الله بن محمد » ، وإذا تأملنا الأخبار التى احتفظت لنا بها المراجع عن حكام الأندلس فى هذه الفترة فإنه يسهل علينا أن نستنتج أن هذا الحاكم المقصود ينبغى أن يكون أبا محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة ، أما الجهة التى تنص الرسالة على توليته عليها فينبغى أن تكون بلنسية .

أما ابن فاطمة المذكور فقد كان أحد مشاهير القواد المرابطين فى عهد يوسف بن تاشفين وابنه على ، وقد اضطربت المراجع التاريخية فى اسمه كعادتها عند الحديث عن رجالات هذه الفترة ، إذ نجد ابن أبى زرع والسلاوى يسميانه فى بعض المواضع أبا عبد الله محمد بن فاطمة[1] وتابعهما على ذلك

---

(١) روض القرطاس ٣/٧٦ ، الاستقصا ٢/٥٩

بعض الباحثين المحدثين[١] والواقع أن هذا خطأ ، والصواب فى الاسم أنه أبو محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة ، وقد أمدنا « البيان » المرابطى عنه بأخبار مفصلة تطلعنا على نشاطه العسكرى والإدارى فى الأندلس والمغرب ، ونعرف من هذه الأخبار أنه تولى قيادة جيش قوامه ألف وخمسمائة فارس مدداً للقائد مزدلى بن سلنكان الذى استنقذ بلنسية فى سنة ٤٩٥ (١١٠٢) من أيدى المسيحيين بعد استيلاء السيد القنبيطور عليها ، وكان توجه ابن فاطمة إلى شرق الأندلس فى سنة ٤٩٦ (١١٠٣)[٢] ، وفى السنة التالية يسند إليه يوسف ابن تاشفين القيادة العليا لجيوش المرابطين فى منطقة شرق الأندلس ويشترك بحكم هذا المنصب العسكرى مع عامل بلنسية أبى الحسن على بن الحاج الذى اجتمع به فى قلهرة Calahorra فى مهاجمة قوات ألفونسو السادس ملك قشتالة حينما تصدى هذا لمدينة سالم ، وقد قام الاثنان معاً بغزو طليطلة وطلبيرة[٣] ، ونحن نعرف أن أبا الحسن على بن الحاج وجد ميتاً بعد هذه الغزوة ، ويبدو لنا أن يوسف بن تاشفين عهد إليه بأن يخلف ابن الحاج على ولاية بلنسية بعد هذه الغزوة[٤] ، وفى رجب سنة ٤٩٧ (أبريل ١١٠٤) يتوجه إلى سهلة بنى رزين Albarracin فيستولى على هذه المملكة الصغيرة ويضمها إلى سلطان المرابطين[٥] ، ويبدو أن ابن فاطمة ظل عاملا ليوسف بن تاشفين بقية أيام

---

(١) مثل بوسك فيلا فى كتابه عن المرابطين ص ١٦٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ — ١٨٣

(٢) البيان المغرب ورقة ١٥

(٣) نفس المرجع ورقة ٦١ ، ومقال أويثى عن « على بن يوسف وأعماله فى الأندلس » ص ٩٣

(٤) يذكر ابن خلدون (العبر ١٨٨/٦) أن يوسف ولاه على بلنسية خلفاً لمزدلى بن سلنكان الذى استقدمه يوسف بن تاشفين إلى المغرب ، وقد تابعه على ذلك أويثى فى مقاله المشار إليه ص ١١٣ ، على أن ما ذكرناه أشبه بالصواب .

(٥) ابن الكردبوس : الاكتفا ، حسب الترجمة الانجليزية لباسكوال دى جاينجوس Append. p. XLIII ، وانظر كتاب بوسك فيلا عن المرابطين ص ١٦٦

حكمه . وأن على بن يوسف حينما خلف أباه على العرش أقره على منصبه ، وفى رمضان سنة ٥٠١ (مايو ١١٠٨) نراه بصفته عاملا على بلنسية مشتركا مع القائد ابن عائشة عامل مرسية فى الغزوة الموفقة التى قادها تميم بن يوسف بن تاشفين ضد جيوش قشتالة وهى المعروفة بغزوة أقليش Uclés التى هزم فيها المسيحيون هزيمة ساحقة وقتل شانجه بن ملك قشتالة ألفونسو السادس[١].

وفى سنة ٥٠٣ (١١٠٩—١١١٠) تحرك ابن فاطمة إلى سرقسطة طامعا فى ملكها بعد وفاة المستعين أحمد بن هود وولاية ابنه عماد الدولة عبد الملك فلما انتهى إلى مقربة منها توجه إليه نفر من أهلها وطلبوا إليه أن ينصرف عنهم ولا يبدأ الفتنة خشية استصراخ ابن هود بالنصارى ، فأقلع عن سرقسطة[٢].

وفى آخر هذه السنة صدر أمر على بن يوسف بعزل ابن فاطمة عن بلنسية وتعيينه عاملا على غرناطة خلفاً لأخيه تميم بن يوسف فوصل إلى مقر حكمه الجديد قبل آخر ذى القعدة سنة ٥٠٣ (مايو سنة ١١١٠)[٣] وظل حاكما لهذه القاعدة نحو سنة إذ أننا نجده يترك هذه المدينة فى سنة ٥٠٤ (١١١٠—١١١١) ويخلفه عليها مزدلى بن سلنكان ، ويظهر أن على بن يوسف عينه فى هذه السنة عاملا على مدينة فاس بالمغرب حيث بقى عدة سنوات[٤] ، وفى شهر المحرم من سنة

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ، ورقة ٧ ، روض القرطاس ٢/٨٢ ، الاستقصا ٢/٥٧ ؛ وانظر الحديث بالتفصيل عن دور ابن فاطمة فى هذه المعركة فى الرسالة التى وجهها تميم بن يوسف إلى أخيه على عن هذه الوقعة ، وقد نشر هذه الرسالة الدكتور حسين مؤنس فى مقاله « الثغر الأعلى الأندلسى . . . » ص ١٠٧ — ١٠٨ ، وقد أعاد الأستاذ أويثى نشرها فى كتابه « المعارك الكبرى لحرب الاسترداد المسيحية ص ١٢٠ — ١٢٦ ، وانظر مقال أويثى عن « وقعة اقليش ومصرع الأمير شانجه » — مجلة تطوان ص ١٩٥٧ — العدد الثانى ص ١٢٤ — ١٢٥

(٢) البيان المغرب ورقة ٢٢

(٣) البيان ورقة ٢٢ ، وانظر مقال أويثى عن «على بن يوسف وأعماله بالأندلس» ص ١١٢

(٤) مقال أويثى المذكور ص ١١٢

٥٠٩ (يونية ١١١٥) يعود ابن فاطمة إلى الأندلس عاملا على إشبيلية بعد عزل واليها يحيى بن سير بن أبى بكر ، ويظل على حكم هذه المدينة حتى وفاته فى رمضان سنة ٥١١ (يناير سنة ١١١٨)[١] .

أما الرسالة التى بين أيدينا فإن على بن يوسف — فيما نرى — وجهها إلى أهل بلنسية معلما إياهم بإقرار ابن فاطمة على حكم هذه الجهة إذ أنه قد كان يتولى حكمها خلال السنوات الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين .

الرسالة الرابعة عشرة

هذه الرسالة من إنشاء أبى القاسم ابن الجد ، وهى موجهة من أمير المسلمين على بن يوسف بحضرة مراكش إلى الكاتب ابن أزرق ، بتاريخ الثالث عشر من محرم سنة ٥١٤ (١٤ أبريل سنة ١١٢٠) ، وفيها يستدعيه إلى حضرة مراكش لاستخدامه فى ديوان إنشائه .

ولم نستطع التحقق بشكل قاطع من شخصية ابن أزرق المذكور ، على أننا نرى أنه يمكن أن يكون هو الأديب الأندلسى الذى يترجم له ابن الأبار والضبى[٢] تحت اسم أبى بكر يحيى بن هام بن يحيى المعروف « بابن أزراق [كذا] السرقسطى » ، ويقول ابن الأبار إنه كان كاتبا للمستعين أبى جعفر ابن هود ، ثم كتب ليوسف بن تاشفين ولابنه على وكان أول استدعائه إلى مراكش فى سنة ٤٩٥ . وتوفى بقرطبة سنة ٥٣٧ .

(١) البيان ورقة ٥١ ، مفاخر البربر ص ٨١ ، نظم الجمان ورقة ٤ ب ، وقد ذكر ابن أبى زرع (روض ٨٦/٢) والسلاوى (استقصا ٥٩/٢) أنه ولى على إشبيلية فى سنة ٥٠٧ وأنه توفى فى سنة ٥١٠ ، على أن ما جاء فى البيان أجدر بالتصديق والثقة .

(٢) التكملة ، ترجمة رقم ٢٠٣٩ ؛ بغية الأنفس ، رقم ١٤٩٦

الرسالة الخامسة عشرة

من إنشاء ابن الجد أيضاً ، وهى موجهة من على بن يوسف من حضرة مراكش إلى أحد عماله فى تاريخ لم يحتفظ به جامع الرسائل .

على أننا استطعنا أن نتعرف على هذا العامل وعلى التاريخ الذى وجهت فيه الرسالة ، فقد احتفظ لنا بنص هذه الرسالة مرجعان : أولهما كتاب « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان[١] والثانى الجزء المرابطى المخطوط من كتاب « البيان المغرب »[٢] وكلاهما ينص على أن هذه الرسالة وجهت إلى أبى محمد عبد الله ابن فاطمة العامل على إشبيلية ، أما تاريخها فقد نقله ابن عذارى إذ ذكر أنه سنة ٥١٠ (١١١٦—١١١٧) .

وأما موضوعها فوصية من الأمير يبدو أنه كان معتاداً على تجديدها وتكرارها إلى عماله وولاته بالتزام الرفق بالرعية وإقامة العدل بينها ورفع الحجاب عن المظلومين والشاكين .

الرسالة السادسة عشرة

من إنشاء ابن الجد ، وهى موجهة من على بن يوسف بحضرة مراكش ، إلى أهل بعض أعماله فى تاريخ لم يذكر ، هذا وقد احتفظ ابن خاقان فى « قلائده » أيضاً بهذه الرسالة ناصاً على أنها كانت إلى أهل غرناطة وعلى أن تاريخها هو يوم الجمعة ١٩ رمضان سنة ٥٠٧ (٢٧ فبراير سنة ١١١٤)[٣] ،

---

(١) ص ١١٢ — ١١٣

(٢) ورقة ٢٨

(٣) ص ١١٣

وقد كان يحكم غرناطة فى هذا الوقت القائد المرابطى المشهور مزدلى بن سلنكان فاتح بلنسية على ما يستنتج الأستاذ أويثى من نص « البيان » الخاص بتاريخ المرابطين(١) ، فقد خلف مزدلى هذا عبد الله بن فاطمة على حكم غرناطة فى سنة ٥٠٤ (١١١٠—١١١١) ، وأضيف إليه مع غرناطة حكم قرطبة والمرية ، وقد ظل مزدلى يقاوم هجمات القشتاليين على الأندلس فى بسالة وشجاعة حتى قتل فى ميدان المعركة فى شوال سنة ٥٠٨ (مارس سنة ١١١٥) ، وخلفه على حكم غرناطة ابنه عبد الله بن مزدلى .

وموضوع الرسالة هو تقريع أهل غرناطة على تشغيبهم وكثرة تحاملهم وتعصبهم على واليهم ، ودعوتهم إلى التزام الطاعة والهدوء ، وفى هذا ما يطلعنا على هذه النزعة التمردية التى كانت تسود أوساط الأندلسيين ضد حكامهم من المرابطين ، على الرغم من الجهود التى لم يقصر هؤلاء فى بذلها لحماية الأندلس من هجمات المسيحيين المتزايدة ، وقد كانت حياة القائد العظيم مزدلى صورة رائعة للمحارب الذى قضى عمره فى معركة دائمة ودفع حياته ثمناً لجرأته واستبساله ، وإن الذى يتأمل حياة هذا الرجل ليزداد إعجابه به فى كل الميادين التى خاضها من سياسية وعسكرية ، ومع ذلك فإن الأندلسيين لم يكفوا عن إبداء تذمرهم وسخطهم على هؤلاء الولاة .

الرسالة السابعة عشرة

من إنشاء ابن الجد ، وهى موجهة من على بن يوسف بحضرة ملكه مراكش إلى شخص لم يحتفظ لنا جامع الرسائل — مع الأسف — باسمه ،

(١) انظر مقاله عن « على بن يوسف وأعماله بالأندلس » ص ٩٠ — ٩٢ ، ١١٢

بتاريخ عشرين أو واحد وعشرين من ربيع الأول سنة ٥١٠ (٢ أو ٣ أغسطس سنة ١١١٦) وموضوع الكتاب هو تولية لهذا الشخص الذى وجهت إليه الرسالة على جزيرة ميورقة .

ولهذه الرسالة قيمة عظيمة إذ أنها تطلعنا على تفاصيل تاريخية لفترة لا يعرف عنها الكثير من تاريخ الجزائر الشرقية فى السنوات الأولى لاستيلاء المرابطين عليها .

ونحن نعلم أن يوسف بن تاشفين حينما جاز إلى الأندلس واستولت جيوشه على ممالك الطوائف عازلا عنها هؤلاء الأمراء الذين أثبتوا ضعفهم وعجزهم وتخاذلهم لم يتعرض بسوء للأمير الذى كان يحكم الجزائر الشرقية ميورقة ومنورقة ويابسة منذ سنة ٤٨٦ (١٠٩٣) ، وكان فى هذا الوقت مبشر بن سليمان الملقب بناصر الدولة ، ولعل يوسف بن تاشفين اتبع فى علاقاته بمملكة الجزائر الشرقية نفس السياسة التى اختطها مع بنى هود ملوك سرقسطة والثغر الأعلى ، إذ رأى أن كلتا المملكتين تقوم حائلا بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد المسلمين ثم إن أمراءها لم يحالفوا النصارى المتاخمين لهم ضد جيوش المرابطين ولم يقفوا من الدولة الإسلامية موقف الخيانة والتقاعس الذى وقفه غيرهم من ملوك الطوائف(١) ، بل إن الذى تدلنا عليه المراجع هو أن مبشر بن سليمان أمير الجزائر الشرقية كان أكثر غيرة من بنى هود على مصالح المسلمين وأقدر على حماية عمله من غارات النصارى فضلا عن أنه أقر العدل وأحسن الحكومة وأرضى الرعية ، وهكذا لم يتعرض له يوسف بن تاشفين بسوء ، وبقى مبشر

---

(١) انظر ما كتبه عن العلاقات بين المرابطين وبنى هود فى هذه الناحية الدكتور حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين ص ١٠٤ — ١٠٥

يحكم الجزائر الشرقية فى عهده وفى السنوات الأولى من حكم ابنه على بن يوسف حتى سنة ٥٠٨ (١١١٤)[١] .

وفى هذه السنة كانت الحملة التى ائتلفت بعض الممالك المسيحية فى غرب البحر الأبيض على توجيها إلى الجزائر الشرقية ، وقد اشترك فى هذه الحملة أهل بيزة وجنوة وإمارة برشلونة إذ سيروا أسطولا مكوناً من نحو ثلاثمائة قطعة بحرية إلى جزيرة يابسة أولا فحاصروها حصاراً شديداً ، واستبسل فى مقاومتهم عامل الجزيرة الذى تسميه المراجع المسيحية Abunazare (أبا نصر ؟) إلا أن القوات المتحالفة استطاعت الاستيلاء على الجزيرة ، وأقبلت بعد ذلك على النهب والتخريب بأفظع صورة ممكنة . ثم توجهوا إلى جزيرة ميورقة فضربوا عليها حصاراً شديداً ، وأبلى مبشر بن سليمان ناصر الدولة فى مقاومة المهاجمين أعظم البلاء ، إلا أنه كان قد شعر بأنه لم يكن له قبل بالاستمرار فى القتال فأرسل إلى أمير المسلمين على بن يوسف يستصرخه ، وحمل رسالته إلى أمير المسلمين قائد مرابطى يسمى أبا عبد الله ابن ميمون كان يقود فى هذا الوقت سفينة راسية فى ميناء ميورقة حينما وقع عليها هجوم المسيحيين ، فخرج ابن ميمون سراً من الميناء دون أن تفطن إليه أساطيل المحاصرين للجزيرة ، غير أنهم شعروا به أخيراً ، فتوجهت بعض سفنهم لمطاردته ولكنه تمكن من الفرار .

وشدد المسيحيون الحصار على ميورقة طوال عشرة أشهر حتى استولوا عليها أخيراً ، وكان مبشر ناصر الدولة قد مرض وتوفى فى أثناء الحصار فخلفه أحد قرابته واسمه أبو الربيع سليمان (وتسميه المراجع المسيحية Burabé) وواصل هذا

(١) عن مبشر بن سليمان ناصر الدولة ، انظر ابن سعيد : المغرب ٢/٤٦٦ — ٤٦٧ ؛ ابن خلدون : العبر ٤/١٦٥ ؛ ابن الكردبوس : الاكتفا (حسب الترجمة الانجليزية التى ذيل بها باسكوال دى جاينجوس ترجمته لكتاب نفح الطيب) Vol. II, — Appendix C p. XLVII-XLVIII. وانظر كذلك : Prieto y Vives: *Los reyes de taifas*, p. 41; Campaner y Fuertes: *Bosquejo histórico de la dominación islamita en las islas Baleares*, p. 91 y sigts.

المقاومة بمثل بسالة سلفه ولكن النصارى أفلحوا فى الاستيلاء على معاقل الجزيرة وقد تم ذلك فى سابع ذى القعدة ٥٠٨ (٣ أبريل ١١١٥) فألحقوا بها من الخراب ما يجل عن الوصف[١] .

أما على بن يوسف فإنه لم يصله صريخ مبشر حتى أمر باتخاذ العدة لاستنقاذ ميورقة من أيدى القراصنة المسيحيين الذين أطبقوا عليها فأسرع على الفور بتجهيز أسطول كبير يتألف من ثلاثمائة قطعة وأسند قيادته إلى القائد المرابطى ابن تافرطست . وما إن شعر القراصنة باقتراب الأسطول المرابطى منهم حتى عزموا على الجلاء عن الجزيرة بعد أن قتلوا كثيراً من أهلها وأسروا كثيرين آخرين وأضرموا النيران فى المدينة ، وهكذا دخل ابن تافرطست الجزيرة دون مقاومة بعد أن أخلاها غزاتها من النصارى ، وكان ذلك فى سنة ٥٠٩ (١١١٥ — ١١١٦)[٢] .

أما ولاة المرابطين على ميورقة فإن أسماءهم ومدد ولايتهم من المسائل المضطربة فى كتب المؤرخين أشد الاضطراب خلال السنوات العشر المنقضية بين سنة ٥٠٩ و ٥٢٠ حينما عقد على بن يوسف بولاية الجزر الشرقية لقائده المشهور محمد بن على بن يحيى المسوفى المعروف بابن غانية فى سنة ٥٢٠ (١١٢٦) .

ولعل ابن خلدون هو المؤرخ الوحيد الذى أولى هذه الفترة بضعة سطور فى موضعين من تاريخه[٣] ومجمل قوله فيهما أن على بن يوسف ولى على ميورقة

---

(١) انظر كامبانير إى فورتس : Op. cit., p. 119.

(٢) فى هذه الحوادث انظر ما كتبه كامبانير إى فورتس فى بحثه الذى أشرنا إليه عن « تاريخ الحكم الإسلامى فى جزر البليار » ص ٩٦ — ١٣٥ ، وهو بحث عظيم الفائدة اعتمد فيه كاتبه على المراجع الإسلامية والمسيحية على السواء ؛ وانظر كذلك كوديرا : انحلال المرابطين ص ١٦٧ — ١٧١ ، ٣٢٤ — ٣٢٦ ؛ وأخيراً بوسك فيلا : المرابطون ص ١٩١ — ١٩٢ ، وهو مجرد ملخص لما كتبه المؤرخان المذكوران .

(٣) ابن خلدون : العبر ٤/١٦٥ ، ٦/٢٤٢ ؛ والترجمة الفرنسية للبارون دى سلان تحت عنوان *Histoire des Berbéres,* (II, p. 206—207 ed. Paris 1927). وكامبانير إى فورتس : المرجع المذكور ١٣٦ — ١٣٧

من قبله وانور بن أبى بكر اللمتونى فعسف بأهل الجزيرة وأرادهم على بناء مدينة أخرى بعيدة عن البحر فامتنعوا عليه ، وأوقع بهم نتيجة لذلك فقتل زعيم هذه الحركة ، وحينئذ أعلنوا الثورة على وانور وصفدوه وبعثوا إلى على ابن يوسف فأعفاهم منه وولى عليهم محمد بن على بن غانية الذى كان يتولى قرطبة فى هذا الوقت تحت إمرة أخيه يحيى بن على بن غانية العامل على غرب الأندلس ، ولما وصل ابن غانية صفد وانور وبعث به إلى مراكش ، وكان ذلك فى سنة ٥٢٠ ﻫ .

وقد علق كوديرا على هذا النص فبين أن فيه عدة أخطاء تاريخية ، ثم عرض تاريخاً تقريبيا لهذه الفترة وفق فيه بين ما قاله ابن خلدون وما ذكره غيره من المؤرخين مثل عبد الواحد المراكشى وابن الكردبوس ، وهذا هو ما يراه كوديرا فى تاريخ عمال المرابطين على ميورقة منذ استيلائهم عليها حتى تولية محمد بن غانية عليها :

تم فتح ميورقة بعد جلاء الجنويين والبيزيين والقطلانيين عنها فى سنة ٥٠٩ على يد ابن تافرطست قائد الأسطول المرابطى الذى توجه لاستنقاذ الجزر الشرقية ، وكان أول ما فعله هذا القائد هو تأمين الجزر وإصلاح مدنها وبناؤها من جديد ، وقد رغب ابن تافرطست جنوده وبحارته فى الإقامة بالجزيرة والاستقرار بها فعاد إليها أهلها الذين كانوا لاذوا بالجبال عند وقوع الغزو المسيحى ، ويبدو أن إقامة ابن تافرطست على حكم الجزيرة كانت مؤقتة ريثما يتم تعيين عامل عليها ، وقد وصل هذا العامل بالفعل خلال نفس هذه السنة وكان قائدا مرابطيا هو وانودين بن سير الذى ظل حاكما لها فترة قصيرة لا تزيد على ثلاثة أشهر ، ثم خلفه أبو بكر تاكراتت ، وأعقب هذا وانور بن محمد الذى ثار عليه أهل الجزيرة لأنه أمرهم ببناء مدينة أخرى بعيدة عن البحر ، فتمكن الثوار من القبض عليه وصفدوه وبعثوا إلى أمير المسلمين مبينين له ما وقع ، فقبل على بن يوسف عذرهم ، وولى عليهم فى هذه الأثناء أبو

بكر على بن ورقاء الذى توفى على الأرجح فى سنة ٥٢٠ ، وحينئذ عهد أمير المسلمين بحكم الجزيرة إلى محمد بن غانية[1] .

والرسالة التى بين أيدينا هنا تضيف جديداً إلى ذلك ، هذا وإن كان جامع الرسائل لم يحتفظ لنا مع الأسف باسم العامل الذى وجهت إليه هذه الرسالة . على أننا نخلص منها بأن جزيرة ميورقة تعاقب عليها ثلاثة عمال فى الفترة القصيرة الواقعة بين استنقاذها من أيدى النصارى فى سنة ٥٠٩ وأوائل سنة ٥١٠ (١١١٥—١١١٦) . وأول هؤلاء العمال هو المذكور فى تلك الرسالة بكنيته « أبى السداد » الذى ورد على مراكش الخبر اليقين بموته كما تنص الرسالة على ذلك ، ويصرح الأمير بأنه لم يقر أبا السداد على ميورقة إلا بشكل مؤقت « إقرار منعة وفى سبيل قلعة » على ما تقول الرسالة وهو ما يمكن أن نفهم منه أن تعيين أبى السداد كان لغرض عسكرى بحت ، وتضيف الرسالة إلى ذلك « وغرضنا كان أن نولى عليها من يصلح من أعيان الرجال فإنها بلدة كبيرة تحتاج إلى من يسوس أمرها ويحوط أهلها » ، ويبدو أن موت أبى السداد المفاجىء حمل أهل الجزيرة على أن يولوا بعده ابنه دون رجوع إلى أمر على بن يوسف ، وأن ابن أبى السداد قد أساء الحكومة وأوحش أهل الجزيرة وروعهم حتى إن أمير المسلمين لم ير بأسا فى أن يلقبه فى هذه الرسالة بـ « السفيه المعتوه » وأن يطالب عامله الجديد بأن يزيل الأثر السىء الذى خلفه فى نفوس الرعية حكم ابن أبى السداد .

وإذا قابلنا بين ما جاء فى هذه الرسالة والقليل الذى نعرفه عن ولاة ميورقة قبل سنة ٥٢٠ فإنه بوسعنا أن نلاحظ تشابها له دلالته بين ما تذكره المراجع من حكم وانور بن أبى بكر اللمتونى وعسفه بأهل الجزيرة وما تشير إليه الرسالة من حكم ابن أبى السداد مما يجعلنا لا نستبعد أن يكون هذان

---

(١) انظر كوديرا : انحلال المرابطين ص ١٧٠ — ١٧١

شخصا واحدا ، وإذا صح ذلك فإن الرسالة التى بين أيدينا قد تكون وجهت إلى أبى بكر على بن ورقاء الذى كان آخر عامل على ميورقة قبل أن يولى عليها محمد بن غانية . وربما كان من الأدلة على ذلك ما سبق أن ذكره ابن خلدون من أن وانور بن أبى بكر هذا أراد أهل الجزيرة على بناء مدينة أخرى بعيدة عن البحر فامتنعوا من ذلك فقتل زعيم هذه الحركة وترتب على ذلك ثورة أهل الجزيرة عليه وحبسهم إياه ومكاتبتهم الأمير فى عزله عنهم[1] ، ففى الرسالة ما يوصى بالإشارة إلى ذلك الحادث : « واسع بحسن سياستك فى استرجاع من خرج من جيرانهم واجتهد فى صرفهم إلى أوطانهم حتى يكثر بفضل الله عددهم وينجبر بلدهم » .

وفى نهاية الرسالة إشارة إلى الأسطول وضرورة اهتمام عامل الجزيرة به ، ويبدو أن مقر قيادة الأساطيل الأندلسية فى ذلك الوقت كان مدينة دانية ، وقد كان من الطبيعى بعد مهاجمة القراصنة الجنويين والبيزيين والقطلان للجزر الشرقية أن تهتم الحكومة المرابطية بزيادة قوتها البحرية وتشديد الحراسة على سواحل الأندلس وجزرها كما تدل على ذلك الفقرة الأخيرة من الرسالة .

الرسالة الثامنة عشرة

تدلنا هذه الرسالة على ناحية من نواحى حكم المرابطين للأندلس ، إذ هى خاصة بتولية قاض لبعض أعمال البلاد ، ونستدل من هذه الرسالة على أن حكم المرابطين كان — كما أشرنا إلى ذلك من قبل فى هذه التعليقات — حكما ديمقراطيا شوريا إلى حد بعيد ، فقد كان اختيار القضاة موكولا إلى أهل البلاد نفسها لا فرضا من أمير المسلمين عليهم ، حتى حين قدم أهل البلد اسمى رجلين

(١) ابن خلدون : عبر ١٦٥/٤ ، ٢٤٢/٦

لكى يختار الأمير أحـدهما آثر هذا ألا يقطع فى الأمر وترك ذلك لأهل البلد حتى يقوموا هم بانتخاب واحد منهما ، على أن ذلك لم يكن منه تفريطا أو إهمالا ، إذ ينص فى آخر الرسالة على أنه إن استمر بهم الخلاف ولم يستقروا على أحدهما فإنه سيرى نفسه مضطراً إلى أن يضطلع بذلك مخرجا الأمر عنهم .

كذلك تدلنا الرسالة على أن السلطة القضائية كانت تتمتع باستقلال كبير عن السلطة التنفيذية ، ولو كان الأمر غير ذلك لترك الأمير مسألة اختيار أحد الرجلين لمنصب القضاء إلى عامله على البلد .

الرسالتان التاسعة عشرة والعشرون

ليس فى هاتين الرسالتين أكثر من إعطائنا نموذجا لكتابة اثنين من أعلام الأدب الأندلسى فى هذه الفترة وهما أبو بكر بن القبطرنه والفتح بن خاقان ، أما الأولى فإنها كما ذكر جامع الرسائل « فى الحض على قتل الجراد »[1] ، ومع ذلك فإن الكاتب يخصص جل الرسـالة لإطلاعنا على مدى براعته اللفظية واقتداره على الأسجاع وتوليد الصور كأن الغاية منها هى إظهار افتنانه وسعة اطلاعه ، أما الرسالة الثانية فهى من هذا الطراز وتزيد على هذه بما ملأ به ابن خاقان عباراتها من الملق والنفاق والتقرب إلى القاضى الذى وجهت إليه

---

(١) أمدنا ابن القطان فى كتابه « نظم الجمان » بأخبار وافية مفصلة عن إضرار الجراد بزرع الأندلس فيما بين سنتى ٥٢٧ و ٥٣١ هـ . (١١٣٢ — ١١٣٦ م .) ، فقد تتبع أخبار ذلك فى دقة بالغة (انظر الأوراق ٧٢ ب ، ٧٤ ب ، ٧٨ ب ، ٧٩ ا) ، وقد اختص بالذكر سنة ٥٢٩ (١١٣٤) إذ يقول فى أخبارها : « . . . ومحت الجراد ما على الأرض من زرع وكلأ ، وأمر الناس بالخروج إليها ، فساقوا منها خمسة آلاف عدل وثلاثمائة عدلا ، وما غاب عن العيون أكثر تركت فى الموضع الذى قتلت فيه ولم تحمل » (ورقة ٧٧ ا) ؛ ولسنا نستبعد أن تكون رسالة ابن القبطورنه المشار إليها هنا عن هذه المناسبة بصفة خاصة .

الرسالة ، وليس هذا غريبا من ابن خاقان الذى كان متهما فى دينه وخلقه ، فهذا الأديب الذى نعرف عنه أنه لم يكن يستفيق من السكر نراه هنا يغدق الثناء على القاضى ويسأله أن يكفى المسلمين شر الخمر بعد أن « استحل حرامها واستسهل مرامها » ! على أن الكلمات تخونه وتكشف عن حقيقة شعوره فإذا بنا نراه ينطلق واصفا الخمر مشبها كئوسها بالدر يحمل ياقوتا . . . إلى آخر ما ذكر . . .

ولا غرو فهذان الكاتبان إنما هما من نتاج فترة ملوك الطوائف ، وإذا كان ما كتباه يدل على تنطعهما وغلبة الهزل عليهما فإن « أدبهما » فى الواقع لا يمثل لنا إلا نوعا من الانحطاط الفكرى والتكلف فى الأسلوب ، ولهذا فإن نصيهما — إلى جانب قلة قيمتهما من الناحية التاريخية — ليسا جديرين بأن يوضعا فى النصوص الأدبية الأندلسية القيمة .

الرسالة الحادية والعشرون

هذه الرسالة هى الوحيدة التى لم ينص على كاتبها ، وهى موجهة على ما يبدو من أمير المسلمين على بن يوسف من حضرة غرناطة إلى عاصمة ملكه مراكش . وأغلب الظن أن على بن يوسف وجهها فى إحدى المناسبات التى جاز فيها إلى الأندلس برسم الجهاد ، إذ أنه يبشر المسلمين فيها بما قدره الله له من انتصار على النصارى فى بعض غزواته ، ولهذا فهو يأمر بأن تقرأ على الجماهير فى المسجد الجامع . وهو يذكر فيها أنه قد أرسل معها نسخة من رسالة أخرى كتبها « أبو عبد الله محمد بن يسير » فى تفصيل هذا الفتح والحديث عن وقائعه ، ويظهر من ذلك أن كتاب ابن يسير هذا قد وزعت نسخة على جميع أعمال البلاد المغربية والأندلسية حتى يقوم حكامها بقراءته على المسلمين فى المساجد الجامعة ، وهذا يدلنا على أن ذلك الانتصار الذى فتح الله به على أمير المسلمين فى تلك الغزوة كان من الخطر بمكان كبير .

الرسالة الثانية والعشرون

هذه الرسالة الأخيرة لا ترجع إلى فترة حكم المرابطين كما سبق أن بينا . إذ أن كاتبها هو أبو حفص ابن برد المعروف بالأصغر والذى توفى فى سنة ٤٤٥ (١٠٥٣) ، كما أن معظم هذه الرسالة وردت فيما اختار ابن بسام من نثر ابن برد فى كتاب « الذخيرة »[١] .

محمود على مكى

(١) ق ١ — ٢/٢٩ — ٣٠

النصوص

١ – وكتب أبو عبد الله بن أبى الخصال :

[٧٦ ا] كتابنا — أبقاكم الله ، وأكرمكم بتقواه ، وعصم جانبكم وحماه ، وتمم عليكم عوارف نعماه — من فلانة حرسها الله ، وقبلُ ما وفد إلينا وورد علينا الفقيه الأجل المشاور أبو الوليد ابن رشد — أعزه الله بطاعته — ، فبسط لدينا شأن تلك الجزيرة — كلأها الله — وجلّاه ، ووصف من حالها ما أصخنا له حتى استوفاه ، وجال بميدان البيان أفصح مجال ، وعرض الأمور فى معرضها بأبلغ مقال ، فأشفقنا — علم الله — كل الإشفاق ، وتضاعف ما كان عندنا وكيداً لصلة النظر والاشتياق ، ولن نألو[1] جهداً مبذولا ، وجِدًّا حفيلا ، وعزماً لا نابيا ولا كليلا ، فيما ندرأ وندفع ، ونذود عن حوزة الملة ونمنع ، وندأب لذلك [الدأب][2] الحثيث ، ونتبع القديم فيه بالحديث ، وننصب له النصب الذى ليس حبله السحيل ولا النكيث ، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أهمّ ، بل نصرف نحو جنابكم الحزم الأتمَّ الأهمَّ ، وجهد الكفاية مادهم حادث وألمّ ، فاستشعروا أن أموركم إزاء ناظر اهتبالنا ، ومن آكد موكدات اشتغالنا ، وقد عاين الفقيه الأجل المتقدم الذكر حقيقة الأمر ، وسيبلغكم ذلك عنه ، فلا تكونوا فى ريب منه ، والله تعالى يعيننا على ما نحن بصدده ، ويمنحنا من تأييده ما يعز الإسلام ويقيم من أَوَدِه ، بحوله وطَوْله ، وعدله وفضله .

---

(١) فى الأصل : نألوا .

(٢) إضافة يقتضيها السياق .

٢ ــ وكتب عن أمير المسلمين :

[٧٦ ب] كتابنا أعزكم الله بتقواه ، وكنفكم بظل ذراه ، ووفر حظوظكم من حسناه ، من حضرة مراكش ــ حرسها الله ــ يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة بين يدى حركتنا يَمَّن الله فاتحتها وعقباها ، وقد قرعنا الظنابيب ، وأشرعنا الأنابيب ، وضَمَّرنا اليعاسيب[١] ، واستنفرنا البعيد والقريب ، مستشعرين إخلاص نية ، وصدق حمية ، فى نصر دين الإسلام ، ومنع جانبه أن يضام ، أو يناله من عدوه اهتضام ، ونحن إن كنا قد بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستنهضنا من الأجناد والأمداد ، ما يربى على الحصى[٢] والتعداد ، فإنا نعتقد اعتقاديقين ، بقول رب العالمين ، فى كتابه المبين لرسوله الأمين « قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم[٣] » . إن استنفار الدعاء ، واستفتاح أبواب السماء بخالص الثناء ــ من أنفع الأشياء ، وأنجع الدواء فيما أعضل من الأدواء ، وإن الدعاء إذا وافق إجابة يمضى حيث ينبو الحديد المذرَّب ، ويكبو العديد المتهيب ، ولذلكم ما رأينا مخاطبتكم مستنفرين دعاءكم وأدعية[٤] من وراءكم من خيار المسلمين وصالحى المؤمنين ، لأن يمدنا الله بالنصر والتمكين والملائكة المؤمنين ، ويقطع بكل من يريد القطع بنا عن حماية الدين ، ويرفع رأيه فى خلافنا من المفسدين المعتدين ، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا أعزكم الله فامتثلوا مذهبنا فيه ، وأشيعوه عند الخاص والعام ، ليرفعوا أيديهم بالتضرع فى أوقات المناجاة والقيام ، ويجمعوا بين تعفير الجباه ، وتحريك

---

(١) قرع الظنابيب كناية عن الإسراع فى الأمر ، والأنابيب الرماح ، ويقصد باليعاسيب الخيل .
(٢) الحصى أى العدد الكثير .
(٣) سورة الفرقان ، آية رقم ٧٧
(٤) فى الأصل : وأوعية .

الشفاه ، تحت جنح الظلام ، ويستوهبوا الله من إعزاز جانبنا ، وإذلال مُجانبنا ، مالهم فيه أوفر الحظوظ والأقسام ، [١٧٧] وهو الكفيل بإنجاز ما وعد به من الإجابة ، لا إله إلا هو ذو الجلال والإكرام ، والطول والإنعام ، والسلام .

٣ — وكتب عنه الى أبى بكر ابنه :

كتابنا يَمّن الله أنحاءك ومذاهبك ، وأمّن أرجاءك وجوانبك ، وأسمى بتقواه أحوالك ومراتبك ، من حضرة مراكش — حرسها الله — يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة عشرين وخمسمائة ، وقد وردنا فى اليوم المذكور كتابك الأثير مضمَّناً صفة الحال الجارية ، بحكم الأقدار النافذة الماضية ، وألا صارف لما أمضاه ، ولا معقب لما شاءه وقدره لا إله سواه ، والله جل ذكره الملىء بالخير وأجمل الصنع ، وإصارة المسلمين فى كنف الحماية والمنع ، والذى أتيته وتوخيته من الثبوت[1] والوقوف ، والعمل البادى الصواب والشفوف ، مشكور لك محمود ، فَلْيَطِرْ عليك منك جَدٌّ موجود ، واعتمال لا يكون عليه لمستزيد مزيد ، فهذا وقت بذل النفوس ، فضلا عن الأموال ، التى تدخر لحاجات الرجال ، وهو متعين على الحشوة والكافة ، فكيف علينا أو على من كان منا أو منتسبا إلينا ! فجَرِّد عن ساعد اعتزامك ، واستنفد ما يبقى لك ذكراً ، ويذخر أجرا ، متعاقب أيامك ، فيحوز لك خير الدارين ، ويحوز شرف المنزلتين ، وقد رأينا — والله الموفق للصواب — أن نقدمك[2] على جميع الجيوش بتلك الجزيرة — عصمها الله — عموما يشمل من كان هناك

(١) فى الأصل : البيوت ، ولعلها كما أثبتنا .
(٢) فى الأصل : يقدمك .

منها ، ومن وصل من هذه العدوة — حرسها الله — إليها ، وخاطبنا عمالك بالسمع منك والطاعة لك ، وأن يطابق كل واحد منهم رأيك ، ويوافق عملك ، وليست الحال الآن كالحال قبلُ ، فإنها الآن يتنوط بك [٧٧ ب] الدِّقُّ منها والجل ، والكُثر والقُل ، فقف إزاء العدو ، وصِلْ فى المدافعة والمواثبة الرواح بالغُدُوّ ، ومل حيث مال ، وصل الاجتهاد والاعمال ، وتشاور مع القواد ، وأهل الرأى من الأجناد ، وابعد عن الاستئثار والاستبداد ، وأيد فى جميع الأنحاء ، وانفذ نفوذ السهم المسدد فى غرضه بعد تردد الارتياء ، وقدم الاستخارة لله تعالى على كل عمل مالكِ الأشياء ، والمتدارك فى اللأواء ، ورتب الناس فى مراتبهم ، وأنزلهم أمكن منازلهم ، واعلم قدر هذا الذى نطناه وعصبناه بنظرك ، فإنه عظيم جدا ، ويتعين عليك أن تقدره حق قدره ، وتستفرغ فيه جهدا وجدا ، ووسع صدرك ، وَابْنِ على الصبر والأناة أمرك ، واحتمل ما تكرهه ، لتنال من مغبة ذلك ما تحمده ، ولا غاية بعد ما لدينا من تطلع وكيد إليك ، وإن أمكنك أن تُعَرِّفنا مع الأيام بالأنباء ، فصل بذلك معهود الاحتفاء ، اِطَّلع الله على السراء ، وتكفل بقمع الأعداء ، بمنه .

٤ — وكتب عنه الى الوحيدى يوصيه :

كتابنا كتب الله أعمالك مبرورة ، ومساعيك مشكورة ، وعرَّفك الآلاء موفورة ، من حضرة مراكش حرسها الله لخمس بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وإن من رتب من الأمر حيث رتبت ، وحسب من القيام بالمهمات حيث حسبت ، لم يسعه أن ينام عن قضية تجرى ببلده ، ولا أن تدركه غفلة عن تفقد ما تحت يده ، وقد تجمعت الآن بهذه الحضرة

عصائب الشاكين ، وكثرت أرفاع[1] المتظامين ، وكان من أمورهم بيِّن ومشكل ، [١٧٨] وفيهم محق ومبطل ، فلم يَخْلُ ما كانوا يجيئون به من قول مزور ، وباطل فى صورة الحق مصور ، وعندما التبس الكذب من ذلك بالصدق ، والتف المبطل بالمحق ، صددنا أرفاعهم عن الوصول ، وصرفنا دونها وجه القبول ، وأوعزنا إلى جماعتهم لما خفناه من تلبيسهم فى الأمور ، وشوبهم المباح بالمحذور ، بأنّا لا ننظر لأحد منهم فى حق يدعيه ، ولا أمر يوجبه أو ينفيه ، إلا بعد أن يأتى ببيان من قاضى بلده ، وكتاب ينطق عن صحة ما بيده ، فانصرفوا وفى نفوسنا — علم الله — من قِبَلِهِمْ ما يشق حمله ، ولا يخف مثله ، فإنه لا يمكن إلا أن يكون فيهم الصادق البر ، والرجل المضطر ، لكن الخيرَ أردنا ، والبر قصدنا ، ولما كان هذا وجب أن نلتمس لأمورهم وجها يتوصل به إلى معرفة الصحيح من السقيم ، والمعوجِّ من القويم ، فوكلنا ذلك إلى قضاة البلدان ، وألزمناهم القيام به والفحص عنه مع الأحيان ، لأن موضوع القضاء إنما هو لرفع المشكلات ، وتمييز الحقائق من المتشابهات ، والفصل بعد التبرم[2] فى الدعاوى والمنازعات ، ومع هذا فنقول إن هؤلاء الرافعين لو وجدوا فى بلادهم إشكاءً[3]، وألفوا عند متقلدى الأمور لرد ظلاماتهم وفاء ، لما تجشموا إلينا بعد الشقة ، ولا تحملوا نحونا عظيم المشقة ، ولولا أنّا لا نخليهم من التعسف ، وسوء[4] التكلف ، لشددنا فى جهة القضاء عارضة الكلام ، ولثقلنا عليهم[5] وطأة الملام ، وقد قلدناك تقليداً تاما أن تنظر بجهتك من شكاوى العامة فى

---

(١) جمع « رفع » وكان يطلق فى المغرب والأندلس على الرسالة التى ترفع إلى العامل أو الأمير متضمنة طلبا أو شكاية . انظر ما كتبه عن هذا اللفظ دوزى فى « ملحق القواميس العربية » ٥٤٢/١

(٢) كذا فى الأصل ، وربما كانت تحريفا للفظ « التفهم » .

(٣) أى رفعاً للشكوى وإزالة لأسبابها .

(٤) فى الأصل : وسواء ، ولعلها كما أثبتنا .

(٥) كذا فى الأصل ، وربما كان الأصوب أن يقول « عليه » إلا إذا كان يعنى بهذا الضمير « القضاة » .

اللطيف والجليل ، وسمناك القيام بالخفيف منها والثقيل ، فتفقد ما قبلك حق تفقده ، [٧٨ ب] وتعهده[١] أحق تعهده ، فإنك إذا أمعنت التطلع ، وأدمنت إلى جانب الرعية التلفت والتسمع ، لم يشذ عن علمك ما يجرى ببلدك لاجتماعه وانحصاره ، وتقارب ما بين مسافاته وأقطاره ، وإن حقا على الجار أن يفرج ضغطة جاره ، فاستكشف — وفقك الله — الأحوال وتعرف صورها ، واستعلم مع الرعية شأن الرعية وخبرها ، فكل ما رفعته إليك من أحوالها ، وتظلمت فيه من عُمَّالها ، أجريته مع الحق كيف جرى ، وعممت بالنظر ولم تخص قضية دون أخرى ، فكلٌّ بك معصوب ، وأنت عنه محاسَبٌ وبه مطلوب ، ومدار هذا الأمر اختيار الحكام الذين استَنَبْتَهُمْ فى أقطارك القاصية ، ونصبتهم فى الجهات النائية[٢] ، فشرطهم الثقة والديانة ، والصون والأمانة ، فإنهم إذا كانوا بهذه الصفة جرت أمورهم على سبيلها القاصد ، وسيرها الراشد ، وأمنت فى جهات الرعية والأحكام ، وأمِنَّا بك فيها من اللبس والمداخلة مع الأيام ، فلا تقلد عملك إلا معروفا بلطف النفس والعفاف ، ونقيا يقنع بالكفاف ، ويتنزه عن الإسفاف ، وتحفظ من كل منهوم لا يشبع ، ومُسِفٍّ لا يتورع ، فالحريص أصم أعمى لا يرى ولا يسمع ، وبعد توليتك إياهم فأشرف عليهم إشرافا يتعقب أحوالهم ، فمن رأيت منه[٣] جنفاً ، أو نقص عليك من أطراف الحق طرفا ، صرفته مذموما ، وأخرته ملوما ، فتفقد هذا من أمورهم ، فإنك مضطر إليه فى الديانة ، وفيما يباشرونه من أمور الرعية التى لا ترضى بهضمها ، ولا تقرُّ أحداً على ظلمها ، ومما نعيده [١٧٩] ونتقدم[٤] إليك فيه أمر اللوازم الجارية هناك أن تتصفحها وتلمحها ، فما لم يكن منها فى عهودنا موجودا ، ولا من قبلنا محدوداً ،

---

(١) فى الأصل : وتعاهده .

(٢) فى الأصل : التايية .

(٣) فى الأصل منهم ولعل الصحيح ما أثبتنا .

(٤) هذه الكلمة مكررة فى الأصل .

ولا فى مصالح المسلمين معدوداً ، فهو رد على كل والٍ رسمه ، ومصروف على كل من ألزمه ، لا يؤدى منه نقير ، ولا يحمل منه فتيل ، وأى عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعديه ، وعلمت صحة استهدافه وتصديه ، فأْنِهِ أمره إلى صاحب البلد مستعمله ومُوَلِّيه ، وأشعره بما ثبت عندك فيه ، فإن غل يد أذيته ، وأنفذ عزله عن رعيته ، وإلا فَأَخِفَّ(١) ذلك إلينا فى سائر ما يتوقف لديك من الأمور التى تقصر عنها يدك ، وتنقطع دون النفوذ فيها غايتك وأمدك ، لينفذ من عندنا ما يقف منازعك عنده ، ويسهل لك كل صعب بعده ، ومما تتفقده من أحوال الرعية ما يؤخذ به الحاضر عن الغائب ، ويطلب به الباقى بعد الذاهب ، فهذا الصنف أيضا من الظلامات تبطله وترد حكمه ، وَتُعَفِّى أثره ورسمه ، وأمر الزكوات على تباينها فى الصفة ، وأنواعها المختلفة ، تجرى على موجب فريضتها ، وتوقف على حد شريعتها ، لا تحرف ولا تبدل ، ولا تصرف عن جهتها ولا تعدل ، هذه — أعزك الله — أمثال مضروبة ، وهدايات منصوبة ، وقوانين موضوعة ، وأعلام على طرق الحق مرفوعة ، قد تبرأنا إليك من وزرها ، وتخففنا بإسنادها إلى نظرك من إصرها ، وفى أكثرها كانت الأرفاع تَرِدُ ، وعصائب المتظامين تحتشد ، وأنت إذا كشفت غيبها(٢) ونفضت طرقها ، وأعطيتها من بحثك [٧٩ ب] وتأملك حقها ، ارتفعت الشبهة ، وانزاحت العلة ، وتوفرت على المسلمين الرحلة ، وهدأت الرعية وتفرغت لأشغالها ، ولزمت صالح أعمالها ، فانظر فى هذه الأمثلة والجمل إلى أقصى ما ينقسم إليه أقسامها ، وقفها على حد ما تقف عليه الشريعة وأحكامها ، واكفنا ما استكفيناك ، وانهض نهوض المستقل بما حَمَّلْناك ، وأى عذر لك وقد شددنا من أزرك ، وعضدنا من أمرك ، وإنَّ تَطَلُّعَنا لوكيد لما نجده عندك من النفوذ . هذه الوصايا

(١) أى فعجل بإبلاغه .
(٢) فى الأصل : عيبها .

الجامعة ، والحجة البالغة ، وستبلغنا الأنباء ، ويتصل بنا الثناء ، وبعد ذلك الثواب والجزاء . لا إله غيره والسلام . أعزك الله ليقرأ الكتاب على الكافة بالمسجد ، فإن فيه زجراً للمعتدين ، وأخذاً فوق أيدى المفسدين ، وبلاغا يحمله ويصيره الراكب ، ويتلقاه عن الشاهد الغائب إن شاء الله تعالى .

٥ — وكتب أبو بكر ابن القصيرة عنه موصيا :

كتابنا أبقاكم الله ، وأسبغ عليكم نعماه ، وآواكم إلى كنفه المنيع وحماه ، من حضرة مراكش حرسها الله ، ونحن على أولنا يعلم الله حرصا على ما ينفعكم ، وجريا إلى ما تطمئن به نفوسكم ، ويتمكن تمهيدكم وتودعكم ، حسبما يقتضيه حق الله تعالى علينا فى رعاية من استرعيناهم ، وحياطة من أمرنا بين يدى نظرنا نأمرهم ونهاهم ، إلى مزية بينة لكم مما تقرر عندنا من صحة ولايتكم وصدق صاغيتكم ، واستواء سريرتكم فى طاعتنا وعلانيتكم ، والله يثبت أقدامكم فى مواطن الرضا ، ويهديكم السبل المفضية بكم إلى الحسنى بمنه . ومما نوصيكم به ونحثكم عليه — وهو — ولا [١٨٠] توفيق إلا بالله — مجمع صلاح دينكم ودنياكم ، وداعية انتظام أموركم فى أسلاك مناكم — تقوى الله ، والائتلاف على الرضا والكون فى ذات الحق إخوان وداد ، لا ينطوى بعضكم لبعض على حزازات ولا حرارات أحقاد ، وأن تكونوا لواليكم أبى فلان — أبقاه الله وأعزه بتقواه — على طويات سليمة ، وطريقة له[١] فى الانصياع[٢] له والاقتداء به قويمة ، فيما ذهب إليه مما فيه حماية حوزتكم ، وصيانة حريمكم ، وشد أطرافكم ، وسد ثغوركم ، فوالوه على توليه ، ولتكن أيديكم مع يده على سنن

---

(١) هذه الكلمة تبدو زائدة لا محل لها هنا .
(٢) فى الأصل : الانطباع .

واحد فيه ، ولا تنكلوا[١] فى حد من حدود ذلك عنه ، ولا تتسللوا[٢] لواذاً منه ، ولن تزالوا — ما سلكتم هذه السبيل ، وتلوتم هذا[٣] الدليل — على حال ترضى أولياءكم ، وتشجى أعداءكم ، إن شاء الله ، وهو هاديكم إلى سبيل الخير ، ومرشدكم إلى قصد الصلاح ، لا رب سواه ، والسلام .

٦ — وكتب أيضا فى الوصاة :

كتابنا أبقاكم الله ، وأكرمكم بتقواه ، ويسّركم لما يرضاه ، ووفر حظوظكم من حسناه ، يوم كذا من عام كذا ، ويتأدى إليكم من قبل واليكم ، وخليفتنا فيكم ، وهو النائب عنا فى تدبيركم ، وإقامة أموركم ، وسياسة صغيركم وكبيركم ، ليس لأحد معه فى شىء من ذلك يد ، ولا مع مشهده إلا بإذنه وإباحته مشهد ، قد فوضنا إليه فى ذلك كله ، وأفردنا النظر فى دقه وجله ، وكثره وقله ، ولن يألوكم نظراً يصلح أحوالكم ، وينجح أعمالكم ، ويحسن به الله عقباكم ومآلكم ، وهو بلساننا متكلم ، وعمَّا فى ضميرنا مترجم ، وفى قالب[٤] رأينا مُفْرَغٌ ، وعلى منواله مُسَدّ ومُلْحِم ، ما أمضاه أمضيناه ، وما وقفه وقفناه ، فاسمعوا منه فى ذات الله [٠٨ ب] وأطيعوه ، ولا تخالفوه فيما يراه من مصالحنا ومصالحكم ولا تعصوه ، وما دعاكم إليه فابتدروه ، وما حَدَّ لكم اجتنابه فاجتنبوه ، وإياكم وما يسخطه[٥] من التشغيب عليه فيما ينتحيه ، والفقيه الأجل القاضى أبو

---

(١) فى الأصل : تنكلوا .
(٢) فى الأصل : يتسللوا .
(٣) فى الأصل : هذه .
(٤) فى الأصل : قلب .
(٥) فى الأصل : يستخطه .

فلان يصل فى ذات الله على سنن الحق يده ، ويقصد مقصده ، وكذلك أولو الرأى من جميعكم يكون معه جماعة ، وعلى حبل ذراعه طاعة ، ويهدون إليه ما يغيب عنه من أمور سائركم ، ويطلعونه على ما يخفى عليه من أحوال أكابرهم وأصاغركم ، حَسْبُنا هذا توصية ، وتذكرة جامعة مستوفية ، ولا حجة بعدُ لمن جار عن السنن ، وخالف الواجب عليه المتعين ، ولا يَلُمْ من خالف عهدنا ، وتعدى قصدنا ، إلا رأيه ونفسه الأمَّارة بالسوء ، وبالله التوفيق ، والسلام .

٧ — وكتب أيضا فى المعنى :

كتابنا أبقاكم الله وسلمكم ، وتولاكم وأكرمكم ، ووقاكم الأسواء وعصمكم ، من محلتنا يَمَّنها الله بظاهر قرطبة — حرسها الله — فى يوم كذا من شهر كذا عام كذا ، ويتأدى إليكم من قبل واليكم وخليفتنا فيكم أبى فلان أبقاه الله ، وأعزه بتقواه ، وهو النائب عنا فى تدبيركم وإقامة أموركم ، وسياسة صغيركم وكبيركم ، ليس لأحد معه فى ذلك يد ، ولا مصدر ولا مورد ، ولا مقام ولا مقعد ، قد فوضنا إليه فى ذلك كله ، وأفردناه النظر فى دقه وجله ، وكثره وقله ، وحكمناه فى جميعكم : يثيب من استحق الثواب ، ويعاقب من استحق العقاب ، ويكرم أهل الإحسان ، ويهين من أساء أشد الهوان ، ويمتسك منكم بمن أراد ، ويسرح من رأى تسريحه ويبعد من كان سبيله الإبعاد ، وما فعل من ذلك كله [١٨١] فنحن فعلناه ، وما قال فيه فكأَنَّا نحن قلناه ، ولا نوقف ما أمضاه ، ولا نمضى ما وقفه وأباه ، ولا نرى فى أحد منكم إلا ما يراه ، ولا نتولاه — كائنا ما كان — إلا أن يتولاه ، ولا نرضى من أحواله ما لا يرضاه ، بلساننا يتكلم ، وعمَّا فى جناننا يترجم ، وعلى

ما يوافقنا يسدى ويلحم ، وإلى ما يرضينا يمضى ويتقدم ، فاسمعوا وأطيعوه ولا تخالفوه ، فلن يعدو وجه القصد ولا تعصوه ، ولا تألوه انقيادا وطاعة ، ولا تدخروا عنه فيما يستعملكم فيه جهدا ولا استطاعة ، وإياكم والخوض فى أمر جعلناه إليه ، واحذروا من تعقب ما صغر أو كبر عليه ، وأضربوا عنه ، ودعوا ما لا يعنيكم منه ، وليرشد خياركم شراركم ، وليبصر كباركم صغاركم ، وحسبنا هذا إنذاراً لكم ، وإعذاراً إليكم ، ولا عذر بعدُ ، ولا يَلُمْ من تعدَّى إلا نفسه ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم .

٨ ــ وكتب عنه أيضا :

كتابنا أطال الله فى طاعته مدتك ، وأدام بتقواه حرمتك ، وأفاض نعمتك ، وتولى توفيقك وعصمتك ، من حضرة مراكش حرسها الله ، وقد علمت محل ذى الوزارتين الأجل الفقيه الأفضل ولينا أيده الله بتقواه من صدق ولايتنا ، ومكانه من حسن رعايتنا ، وأنه ممَّن يُستشفى برأيه ، ويهتدى بهديه ، ويستثمر النجح من سعيه ، ويتعرف السداد فى رأيه ، فينبغى لك أن تشاوره فى كل ما تأتى وتذر ، وتورد وتصدر ، وتقدم وتؤخر ، فلن تعدم منه مشيرا نصيحا ، وظهيراً مشيحا ، وطبيبا للعلل مريحا ، ورأيا خالصا صريحا ، فامتثل فى ذلك عهدنا ، ولا تتعدَّ فيه حدنا ، وتوخَّ معه من مصالح البلد ما [٨١ ب] يحسن موقعه عندنا ، ويقتضى شكرنا وحمدنا إن شاء الله ، والسلام .

٩ ــ وكتب عنه :

كتابنا أبقاك الله ، وأعزك بتقواه ، ويسَّرك لما يرضاه ، وجَنَّبك ما يسخطه وينعاه ، من محلتنا يمَّنها الله بظاهر سبتة حرسها الله ، يوم الاثنين منسلخ

ذى الحجة سنة ست وخمسمائة عند ما اتصل بنا وصح عندنا أن الفقيه الجليل الحافظ قاضى القضاة بالشرق أبا[1] فلان أبقاه الله وأعزه بتقواه — قد ضاق صدره ، وقل صبره ، بتعصب أقوام هناك على اعتراض أحكامه ، والشَّرَق بمكانه ، ويزعمون أن شان الحق غير شانه ، وشتان ما بينهم و بينه فى الفضل والدين والسَّنَن المستقيم ، فأنكرنا ذلك أشد النكير ، واعتقدنا فيهم إن لم يكفوا عنه أبلغ التغيير ، وما أظن رأس هذا الحال ، وأصل هذا الخبال ، ينبغى حتى يقع فى خطتى خسف لا حظَّ فيهما لمختار : إما الإخمال والإقعاد ، وإما الإخراج إلى حيث رأينا من البلاد ، فقد بَرَّح بنا هذا الأمر ، وأضر فيه الحلم والصبر ، فإذا وصلك كتابنا هذا فابذل جهدك فى حسم هذا الداء قبل أن يقابله[2] بمر الدواء ، وابلغ من حماية جانب الفقيه الأجل القاضى المذكور أعزه الله إلى الغاية التى لا مزيد عليها ولا أمد وراءها ، واعلم أن ستراعى هذا الأمر أتم مراعاة ، وتحامى دونه أسدَّ محاماة ، إن شاء الله ، والسلام .

١٠ — وكتب أيضا :

كتابنا أبقاكم الله ، وأكرمكم بتقواه ، ويسَّركم لما يرضاه ، ووفر حظوظكم من نعماه وحسناه ، من حضرة مراكش حرسها الله فى تاريخ كذا عند ما ورد كتابكم الأثير ووقفنا على معانيه ، [١٨٢] وأحطنا علما بمجمل قولكم ومفصله فيه ، ونحن بما سبق من انقطاعكم إلينا وتأميلكم لنا عارفون ، وبحقه — مراعاةً لكم وتحفِّياً بكم — مُوفون ، لا نغفل مرادكم ، ولا نتوا كل فيما يقوى أعضادكم ، ويوهن قوى من كادكم ، إن شاء الله عز وجل ، وهو ولى أحوالكم يصلحها ، وأعمالكم ينجحها لا رب سواه ، وقد أنفذنا إليكم صكا يصلكم

(١) فى الأصل : أبى .
(٢) لعل الأصح : نقابله ، أو : يقابل بصيغة المبنى للمجهول .

صحبة جوابنا هذا تحملون فيه على ما تضمن كتاب بيعتكم ، لا يخالف بكم عنه ، ولا تخرجون فى دقيق من الأمور ولا جليل عن سبيله ، والله ولى جانبكم يحميه ، وما فيه مَزَاحُ عللكم يُسَنِّيه ، بمنه ويمنه ، والسلام .

١١ — وكتب أيضا عنه :

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ، واستعملكم فيما يرضاه ، وحملكم على أقرب سبيله إلى حسناه ، من حضرة مراكش حرسها الله ، عقب ذى الحجة سنة تسع وتسعين وأربعمائة عن أحوال سامية ، وأعمال على سوق النجاح قائمة ونامية ، والحمد لله رب العالمين ، وقد وردنا كتابكم الأثير من قبل الفقيه الأجل أبى فلان ، والفقيه القاضى أبى فلان ، والفقيه أبى فلان وسلمهم ، فوقفنا على ما وعاه ، وأحصينا ما أودعتموه إياه ، ولم يمر على سمعنا فصل من فصوله إلا تأملناه ، وخرج لنا مناولوه — أبقاهم الله — عَمَّا كان لديهم وأبْدَأوا وأعادوا فيه ونحن مصغون إليهم ، مقبلون عليهم ، وقد كان الأمير أبو الطاهر أخونا الأعز علينا — أدام الله عزه — تقدم لنا بين يدى ذلك بجلاء تلك الأحوال فى مناصِّها ، وعرض ما تستدعيه من الأعمال عامها وخاصها ، وما كنا بذلك جاهلين ، ولا عنه غافلين ، وإنَّا بما قبلكم لمهتبلون ، وإلى ما يلم الشعث ويرم المنتكث لديكم ناظرون ، وفيما نرجو به الصلاح الشامل لكم عاملون ، ويعلم الله الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا تنطوى دونه سريرة ولا علانية ، [٨٢ ب] ولا تفوت إحاطته قاصية ولا دانية — أنا لا نألو من قلَّدنا الله أمورهم من المسلمين نصرة ، ولا ندخرهم — حيث كانوا — نظراً فيما يحوطهم وعملا بما يصلحهم قدرة ، وحسبنا الله معينا بأعباء ما حملناه ، ومنتهضا إلى ما يقتضى وفور الحظ من قبوله ورضاه ، ولا معين غيره ولا منتهض سواه ، وها نحن — أبقاكم الله — فى تلافى ما أشرتم إليه آخذون ، وعلى ما يسد الخلل

ويربح العمل عندكم عاطفون ، وبه — دون كل مهم — مبتدئون ، ولا عمل لنا بعد من سميناه من أعلامكم — أبقــاهم الله — غير ذلك : إليه نغدو ونروح ، وبه نقوم ونقعد ، وعما قليل ينصات لكم الأمل ، ويفضى إليكم بما استدعيتموه العمل ، إن شاء الله ، وعند أعيانكم المتقدمى الذكر أبقاهم الله ، وتولاهم وإياكم بحسناه ، فى بسط ما قبضناه ، وتفصيل ما أجملناه ، بما يوردونه عليكم ، ويلقونه حسبما تَلَقَّوه إليكم ، فاسمعوه منهم ، وعوه عنهم ، واسكنوا إليه ، واطمئنوا به ، والله ولى التأييد ، والملىّ بالصنع الحميد ، لا إله إلا هو عزَّ وتعالى ، والسلام .

١٢ — وكتب أيضا عنه :

كتابنا أطال الله فى طاعته عمرك ، وأعز قدرك ، وأجرى على ما تتخير وحسبما تؤثر أمرك ، من فلانة سنة كذا ، عن أحوال صالحة ، وأعمال مع النجاح غادية ورائحة ، والحمد لله رب العالمين ، وقد وردنا كتابك الأثير المؤرخ بمستهل ذى القعدة الموفى بين يدى الشهر المذكور ، فاجتليناه وتصفحناه ، وأتينا على مجمل ومفصل ما وعاه ، ولم نتجاوز حرفا إلى ما بعده حتى تأملناه ، وأحطنا علماً بفحواه ونجواه ، وألقى إلينا الأمير أبو الطاهر أخونا الأعز علينا الأجل لدينا ، أدام الله عزه ، على ما يتأدى إليه بطول المشاهدة من أمور تلك الجهات فتوسمناه ، وصرنا — علماً به وتمثلا له — كأنا قد باشرناه وعاينّاه ، وتلاه بمثل ذلك أبو عبد الله محمد [١٨٣] بن أبى [بكر[(١)] ؟] أبقاه الله ، ثم أصغينا إلى

(١) فى هذا الموضع بياض بالأصل ، وقد سبق أن أشرنا عند التعليق على هذه الرسالة (ص ١٤٩) أننا نرجح أن يكون تمام الاسم « أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن تاشفين اللمتونى » الذى كان ممن تولوا منصب القيادة فى منطقة شرق الأندلس فى هذا الوقت ، وقد سقنا حججنا على ذلك فى موضعه .

الأعيان الجلة أعلام حضرة بلنسية أدام الله حراستها وأبقاهم ، والواردين معهم من تلقاء يحيى بن تاشفين ومحمد بن تومرت سامها الله وأكرمها[١] بتقواه ، فخرجوا إلينا عما كان عندهم ، وجدوا فى بيانه لنا وجلائه علينا جدهم ، وكل ذلك وعينا دقه وجله ، وتأمّلنا وعره وسهله ، ويعلم الله عز وجل أنا بأحوال تلكم الجهات مهتبلون ، ولمجارى الأمور بها مخيّلون ، ولارتباكها بما أحاط بها من طوائف الأعداء متأملون ، وإلى كل ما عسى أن تنحى به عليها المخالب ناظرون ، لا يخفى علينا شىء من ذلك ، ولا يزال فكرنا يطلع من تلك الثنايا ويتعسف تلك المسالك ، ومالنا — والله الشاهد — إلا النظر فى كل ما تتمهد به هناك الأوساط وتحتمى الأطراف ، وتتحصن الغِرَّات ويرتفع المخاف ، إن شاء الله تعالى ، فاعلم ذلك العلم اليقين ، واستوضح حقيقته كما تستوضح الصبح المبين ، وها نحن فيه آخذون ، وبه عاملون ، وإلى الله عز وجل نسند فيما نحاول وبه نستعين ، وأنت — أبقاك الله — فى تلك السبيل بمثابة بِرّ ، وعلى مظنة أجر ، فاستقبل فى أعمالك وجه الله ، واعتمد مصالح المسلمين فى كل ما تتولاه ، والله يصل يدك ، ويسهل مقصدك ، ويسعد يومك ويجعل أسعد منه غدك ، بمنّه ويمنه . وقد ذكر لنا أبو فلان حسن مجراك وجميل مكارمتك له وأتبع ذلك شكراً جزيلا ، وأضاف إليه حمدا عريضا طويلا ، وما فعلت معه — أبقاك الله — فمعنا فعلته ، وما أجملته لديه فلدينا أجملته ، وإنا لشاكروك على ذلك كشكره ، وناشرو محاسنك نحو نشره ، وقادرو معتقدك المبرور فيه وفق قدره ، والله يبارك لنا فيك ، ويجعل عليك واقية تقيك ، ولا يخليك من التوفيق فى جميع مناحيك ، إنه على ما يشاء قدير ، والسلام .

(١) كذا ، ولعل الصواب « سلمهما الله وأكرمهما » .

١٣ — وكتب عنه أيضا :

[٨٣ ب] كتابنا أبقاكم الله وسلمكم ، ووقاكم الأسواء[1] وعصمكم ، وتولاكم بإحسانه وأكرمكم ، من حضرة مراكش حرسها الله يوم الأربعاء من محرم سنة خمسمائة ، ونحن نوصيكم بتقوى الله تعالى واعتماد ما فيه الرضا ، واجتناب ما يخل بمن أتاه فى الدنيا والأخرى ، وأن تكونوا لواليكم أبى محمد عبد الله بن محمد[2] — أبقاه الله وأعزه — على طاعة صحيحة ، ونفوس محضة صريحة ، ما أمركم به أتيتموه ، وما نهاكم عنه تركتموه ، لا تختلفون فى حال يأتيها من مصالح المسلمين ومضار المشركين عليه ، ولا تتلكئون دونه فى سهل ولا وعر عمّا ينوبكم إليه ، وحسبنا هذا بيانا لكم ، وتقدما بالوصاة إليكم ، فكونوا من القبول والاحتمال على الجنس الجميل فى الحد الذى يكون عليه من يشفق على حاله ، ويجرى إلى ما فيه حسن عاقبته ومآله ، وما بلغنا عنكم إلا خير ، لكن أردنا التأكيد ، والله ولى التسديد ، والمليُّ بالصنع الحميد ، لا إله إلا هو ، والسلام .

١٤ — وكتب أبو القاسم ابن الجد عن أمير المسلمين يستدعى الكاتب ابن أزرق للكتابة :

كتابنا أبقاك الله ، وأعزك بتقواه ، ويسّرك لما يرضاه ، وأسبغ عليك عوارف نعماه ، من حضرة مراكش حرسها الله فى الثالث عشر من محرم سنة

---

(١) فى الأصل : الأسماء .

(٢) ذكرنا فى التعليق على هذه الرسالة (ص ١٥٢) أن الأرجح هو أن يكون المقصود « أبا محمد بن فاطمة » القائد المرابطى المشهور .

أربع عشرة وخمسمائة ، وقد ذكر لنا وقدر قِبَلَنا من زكاء خلالك ، واعتدال أحوالك ، ما بعث على استجلابك واستكتابك ، ودعا إلى استقدامك واستخدامك ، فإذا وصل إليك كتابنا هذا فانظر فى الحركة نحونا والنقلة ، واستشعر الخير والخيرة فى الرحلة ، واحفز نفسك فى الوصول إلينا ، والقدوم علينا ، إن شاء الله .

١٥ — وكتب فى الرفق بالرعية[1] :

[١٨٤] كتابنا أطال الله فى طاعته عمرك ، وأعز بتقواه قدرك ، وشد فيما تتولاه أزرك ، وعضد بالتوفيق والتسديد أمرك ، من حضرة مراكش حرسها الله ، وقد رأينا والله ولى التوفيق ، والهادى إلى سواء الطريق ، أن نجدد عهدنا إلى عمالنا — عصمهم الله — بالتزام أحكام الحق ، وإيثار أسباب الرفق ، لما نرجوه فى ذلك من الصلاح الشامل ، والخير العاجل والآجل ، والله تعالى ييسر[2] لما يرضيه من قول وعمل بمنه ، وأنت — أعزك الله — ممن يستغنى بإشارة التذكرة ، ويكتفى بلمحة التبصرة ، لما تأوى إليه من السياسة والتجربة ، فاتخذ الحق إمامك ، وأجْرِ عليه فى القوى والضعيف أحكامك ، وارفع لدعوة المظلوم حجابك ، ولا تسُدَّ فى وجه المضطهد المهضوم بابك ، ووَطِّىء للرعية — حاطها الله — أكنافك ، وابذل لها إنصافك ، واستعمل عليها من يرفق بها ، ويعدل فيها ، واطَّرِح كل من يحيف عليها ويؤذيها ، ومن سبب عليها

(١) لم ينص جامع الرسائل على اسم من وجهت إليه هذه الرسالة ولا تاريخها ، على أن هذه الرسالة وردت فى مرجعين آخرين هما « قلائد العقيان » لابن خاقان ص ١١٣ ، و « البيان المغرب » (الجزء المرابطى) ورقة ٢٨ ، ومن هذين المرجعين نعرف أنها وجهت إلى أبى محمد عبد الله بن محمد ابن فاطمة ، ويضيف ابن عذارى إلى ذلك أنها كتبت فى سنة ٥١٠

(٢) فى القلائد والبيان : ييسرنا .

من عمالك زيادة ، أو خرق فى أمرها عادة ، أو غيَّر رسما ، أو بدَّل حكما ، أو أخذ لنفسه درهما ظلما ، فاعزله عن عمله ، وعاقبه فى بدنه ، وألزمه رد ما أخذ [متعديا إلى أهله ، واجعله نكالا لغيره ، حتى لا يقدم[1] منهم أحد] على مثل فعله إن شاء الله تعالى ، وهو ولىّ تسديدك ، والملىّ بعضدك وتأييدك ، لا إله غيره ، ولا خير إلا خيره .

١٦ ـ وكتب موصيا[2] :

كتابنا عصمكم الله بتقواه ، ويسركم لما يرضاه ، وجنبكم ما يسخطه ويبنعاه ، من حضرة مراكش حرسها الله ، وقد اتصل بنا أنكم من مطالبة فلان على أولكم ، وفى عنفوان عملكم ، وأنه لا يعدم تشغيبا وتأليبا من قبلكم ، فإلى متى تلحون فى الطلب ، وتجدون فى الغلب ، وتقرعون [٨٤ ب] النبع بالغرب ؟ لقد آن لحركتكم فيه أن تهدأ ، وللنائرة بينكم أن تطفأ[3] ، ولذات بينكم أن تنصلح[4] ، ولوجوه المراشد بينكم أن تتضح ، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا فاتركوا سابقة[5] الهوى ، واسلكوا معه الطريقة المثلى ، ودعوا التنافس على حطام الدنيا ، وليقبل كل واحد منكم على ما يعنيه ، ولا يشتغل بما ينصبه ويُعَنِّيه ، ولا بد لكل عمل من أجل ، ولكل ولاية من غاية ، ولن يسبق شىء أناه ، وإذا أراد الله أمراً سنّاه ، « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير

---

(١) سقطت هذه الكلمات من الأصل ، واستكملناها عن القلائد والبيان .

(٢) أورد ابن خاقان هذه الرسالة فى « القلائد » (ص ١١٣ — ١١٤) ونص على أنها وجهت عن على بن يوسف إلى أهل غرناطة فى يوم الجمعة التاسع عشر من شهر الصوم المعظم سنة ٥٠٧

(٣) فى القلائد : لجمرتكم فيه أن تطفأ ، وللنائرة بينكم أن تهدأ .

(٤) فى الأصل : تصلح ، وقد أثبتنا ما جاء فى القلائد .

(٥) فى القلائد : متابعة .

لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[١] ، وفقكم الله لما فيه صون أديانكم وأعراضكم ، وسدد[٢] جميع أنحائكم وأغراضكم بمنه ، والسلام .

١٧ — وكتب بولاية ميورقة :

كتابنا أبقاك الله ، وأعزك بتقواه ، وأناف بك على ما تتمناه ، من حضرة مراكش — حرسها الله — لتسع بقين من ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة عندما ورد علينا الخبر اليقين بموت أبى السداد رحمه الله ، ورأينا — والله الموفق للصواب — أن نوليك جميع ما كان يتولاه ، على أنا ما كنا أقررناه بميورقة — حرسها الله — إلا إقرار منعة ، وفى سبيل قلعة ، وغرضنا كان أن نولى عليها من يصلح من أعيان الرجال ، فإنها بلدة كبيرة تحتاج إلى من يسوق أمرها ، ويحوط أهلها ، فتولَّ ما وليناك منها ومن جميع ما كان تحت يد المذكور مضافا إليها بصدر منشرح ، وأمل منفسح ، واستشعر تقوى الله سرك وجهرك ، واجعلها عماد أمرك ، فعليها مدار الأعمال ، وبها صلاح الأحوال ، وحَسِّنْ فى أهل تلك الجزائر — جبرهم الله — سيرتك ، وأخلص فى النصح لهم والرفق بهم سريرتك ، وأكد فى إيثار [١٨٥] العدل فيهم وسلوك طريق الحق بهم بصيرتك ، وسَكِّنْ بلين الكلمة وحسن النصفة أحوالهم ، وارفع بحزمك وعزمك فى ضبط البلد أوجالهم ، واسْعَ بحسن سياستك فى استرجاع من خرج من جيرانهم ، واجتهد فى صرفهم إلى أوطانهم ، حتى يكثر بفضل الله عددهم ، وينجبر بلدهم ، وانظروا فى أمر الأسطول والمستخلص بدانية حرسها الله ، واستَنِبْ فى ذلك من ترضاه ، وإذا وصل إليك خطابنا هذا فلا تتوقف

(١) سورة البقرة ، آية ٢١٦
(٢) فى القلائد : وتسديد .

عن النفوذ نحوهم واللحاق بهم ، فإنهم مستوحشون بانفرادهم ، ثم لاسيما بما أحدثه السفيه المعتوه ابن أبى السداد من إيحاشهم وترويعهم ، وبوصولك إليهم يستقيم أمرهم ، ويذهب ذعرهم ، إن شاء الله تعالى ، والسلام .

١٨ - وكتب أيضا :

كتابنا أبقاكم الله وعصمكم بتقواه ، ووفقكم فى أقوالكم وأعمالكم لما يرضاه ، من فلانة عندما وصلت إلينا مراجعتكم عما كنا خاطبناكم فيه من اختيار رجل منكم يصلح لولاية القضاء عندكم ، ووقفنا منها على اختلافكم فى الرجلين المذكورين فى العقدين الواصلين من قبلكم ، فرأينا التوقف فى الأمر حتى يقع اتفاقكم ، وينعقد فى الاختيار إجماعكم وإصفاقكم ، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا فاتفقوا على واحد ترضونه غير متنازعين فيه ، وخاطبونا باتفاقكم لنلقى الأمر بعد استخارة الله تعالى ، وإن استمر بكم الخلاف أخرجنا الأمر عنكم ، واجتهدنا فى الاختيار لكم إن شاء الله تعالى ، والسلام .

١٩ - وكتب أبو بكر ابن القبطرنه يحض على قتل الجراد :

كتابنا إليكم وفقكم الله من كذا ، وقد علمتم أن الجراد داء عضال ، وإن كان[١] — كما قالوا — من البحر نثرة[٢] ، فإنما هو جمرة ، تحرق البلاد ،

---

(١) فى الأصل : كانوا .

(٢) إشارة إلى حديث ينسب إلى رسول الله (صلعم) : « إن الجراد نثرة الحوت فى البحر » (انظر سنن ابن ماجه ٢/٢٩٣) .

وتجمع[١] البلاد ، وشأنها الفساد ، دعت اللهَ صارة[٢] أن يطعمها لحماً لادم [٨٥ ب] فيه فأطعمها الجراد ، فقالت : اللهم أعشه بغير رضاع ، وتابع بينه بغير شياع[٣] ، فهى كذلك تثبت بالروضة فوق اليفاع ، ذبابها هزج يسُنُّ ذراعا بذراع[٤] ، قد نادمت الذراع[٥] ، ورقمها كف الثريا الصَّناع ، فهى ترقرق عليها للحَوذان لُعَاع[٦] ، فيتركها مُسْوَدَّةَ البقاع ، كأنما جرت عليها التى جعلها الله تذكرة وللمقوين متاع[٧] ، وينزل بالوادى قد امتلأ عُشُبا ، وطلعت أزهاره شهبا ، قد وشاه الربيع ودبج ، وخالط الخزامى فيه العرفج ، وجاده المِرْزَمُ والسِّماك جَوْدا ، فيتركه حَرَّةً

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعل صحتها « وتجيع » .

(٢) هذه القصة التى يرويها الكاتب هنا عن صارة — ولعله يعنى بها سارة زوجة رسول الله ابرهيم عليه السلام — تروى فى أكثر المراجع عن مريم بنت عمران عليها السلام ، إذ يقال إنها هى التى نطقت بهذه العبارة ، وقد ساقها الدميرى نقلا عن البيهقى عن أبى أمامة الباهلى مسنداً إلى النبى (صلعم) ذلك الحديث (انظر حياة الحيوان الكبرى ١/٣٣٧) .

(٣) فى الأصل : وتابع دينه ، وقد صححناها عن كتب الحديث واللغة ، أما الشياع فقد فسره الدميرى فى الموضع الذى سلف ذكره بأنه الصوت ، وقال صاحب لسان العرب إن الشياع هو الدعاء بالإبل لكى تنساق وتجتمع كما يشايع الراعى بإبله لتجتمع ولا تتفرق عليه ، فكأنه شبه بهذا الصوت .

(٤) حل الكاتب فى هذه الجملة قسيم البيت المعروف لعنترة بن شداد العبسى (ديوان عنترة ص ١٤٥) :

هزجا يسن ذراعه بذراعه   قدح المكب على الزناد الأجذم

(٥) الذراع نجم من نجوم الجوزاء على شكل الذراع ، وقيل يسمى ذراع الأسد وهما كوكبان نيران من منازل القمر .

(٦) الحوذان نبات له زهرة حمراء فى أصلها صفرة ، واللعاع كل نبت لين فيه ماء كثير لزج ، ونرى الكاتب هنا يشير إلى بيت ابن مقبل :

كاد اللعاع من الحوذان يسحطها . . . الخ (انظر لسان العرب تحت مادة لعاع) .

(٧) يريد بذلك كأنما أتت عليها النار ، وهو يشير إلى الآيات القرآنية الكريمة ﴿أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين *﴾ (سورة الواقعة ، آيات ٧١ — ٧٣) ، ومعنى الآيات أن الله سبحانه وتعالى خلق النار تذكرة للنار الكبرى نار جهنم ليتعظ بها المؤمنون ، ومتاعا أى منفعة للمقوين أى المسافرين ، إذ أن المقوى هنا هو نازل القواء أى البلد القفر ؛ هذا ونلاحظ أن التزام السجع قد اضطر الكاتب إلى تغيير ضبط كلمة « متاع » الأخيرة إذ كان ينبغى أن تكون « متاعاً » .

سَوْدَا ، لا يجد فيها الضبُّ عَرَادَا[(١)] ، ولا النِّيبُ[(٢)] أرا كا ولا قتادا ، ولا تطعم فيه الحُبَارَى راء[(٣)] ، ولا الظليم تَنُوماً وآءً[(٤)] ، ولا يَسْتَحْلِسُ فيها سَعْدَانة[(٥)] ، ولا يجد بعير صِلِّيانة[(٦)] ، فراشة محقورة ، تجتمش النجم اجتماش النُّورة[(٧)] ، وقد نزل منه رِجْلٌ[(٨)] بموضع كذا ، فإن تركتموه أرداكم ، فتعشوه قبل أن يتغداكم ، وانفروا إليه وبالله العون ، واعلموا أنه أعظم ما أنزل من العذاب على آل فرعون ، حتى خرقت ثيابهم ، وأكلت مساميرهم وأبوابهم ، فأخرجوا إليه الجمَّ[(٩)] الغفير ، ولا يتخلف الكبير منهم ولا الصغير ، ولا يأو[(١٠)] أحد منكم فِرَاشه ، حتى تحرقوا فَرَاشه ، وتبيدوا[(١١)] آثاره ، ولا تكونوا كأبى حِسْل[(١٢)] الذى أجاره ، فإن فعلتم غمر الغامر[(١٣)] ، وكنتم كمجير أم عامر[(١٤)] ، فجدوا فى إطفاء هذا الجمر ، ولا تتهاونوا بهذه الصفر ، التى تكنى أم عمرو ، والسلام .

---

(١) العراد شجرة من شجر البادية صلبة العود منتشرة الأغصان ، وهى شجرة يألفها الضب ، ويقصد : أصبحت الأرض مقفرة لا يكاد الضب يجد فيها نبتا يصلح له .

(٢) فى الأصل : الينب ، والنيب جمع ناب وهى الناقة المسنة ، والأراك والقتاد مما ترعاه الابل .

(٣) الراء شجيرة جبلية ، والحبارى ضرب من الطير ، وإنما أشار إليها الكاتب لأنها أبعد الطير نجعة .

(٤) فى الأصل : . . . وراء ، ولعل الصواب ما أثبتنا ، والظليم ذكر النعام ، والتنوم والآء شجر من مراتع النعام ، وفى هذه العبارة إشارة إلى بيت زهير بن أبى سلمى فى وصف الظليم :

أصك مصلم الأذنين أجنى　　له بالسى تنـــوم وآء

(انظر ديوان زهير بشرح ثعلب الشيبانى ص ٦٤) .

(٥) يستحلس لعله يعنى بها يتحلس ، ويقال تحلس الشيء أى أصاب منه ، والسعدان نبت ذو شوك يعتبر من أطيب مراعى الابل .

(٦) الصليان نبت ترعاه الابل ، والعرب تسميه خبزة الابل .

(٧) النورة الشعر ، وتجتمش مشتقة من جمش الشعر أى حلقه أو إحراقه .

(٨) الرجل من الجراد الجماعة الكثيرة .

(٩) فى الأصل : الجما .

(١٠) فى الأصل : ويأوى .

(١١) فى الأصل : وشيدوا ، ولعل الصواب ما أثبتنا .

(١٢) أبو حسل كنية الضب .

(١٣) الغامر هو الخراب .

(١٤) أم عامر كناية عن الضبع ، وإجارة أم عامر كناية عن مسدى المعروف إلى غير أهله .

٢٠ – وكتب الفتح بن خاقان :

أطال الله بقاء الفقيه الأجل القاضي الأعدل قاضي القضاة للملة يبدى أعلامها ، ويبرئ آلامها ، قد أظهر الإسلام — أدام الله توفيقك — بك استبشارا ، واستشعر بعثا وانتشارا ، ورجا العدل نظم متناثره ، وإقالة عاثره ، وأطفأ ارتقابك جمر الباطل وأخمده ، وألبسه كآبته وكمده ، ولا شك [١٨٦] أنك تصرح الشوائب ، وترفع هذه النوائب ، وتسرع اللحاق ، وتطلع الحق كاملا بعد المحاق ، فأنت — والله يعضدك — الذى أحييت الدين بعد مماته ، وشفيته من ملماته ، وطلعت هاتكا لظاماته ، حتى غدا متهلل الجبين ، وبدا كالصبح المبين ، أيام توليتك تلك الأقطار ، وأهديت إليها نفس عهدك المعطار ، وهذا ميدان اجتهادك ، ومكان حجتك وجهادك ، والشر قد تشعبت طرقه ، والدين قد عظم غَصَصه بالباطل وشَرَقه ، والراح قد اسْتُحِلَّ حرامها ، وَاسْتُسْهِلَ مرامها ، وغدت فى كل منزل قوتا ، وبدت كئوسها دُرًّا يحمل ياقوتا ، مع انتحاء أهل الذمة وانتزائهم ، وذلك أعظم مصائب المسلمين وأرزائهم ، وإذا كفيت قبيح هذا ومحاله ، فقد بلغ هديك محِله ، ورميت الجمرة ، وأتممت الحج والعمرة ، وشفيت الملة من إشفائها ، وأوضحت آثارها بعد عفائها ، وقد نهض فلان الطالع عليك من ربى الصدق وثنيّاته ، الصادع لك بالحق وآياته ، الذى لا تلهيه الأعراس والولائم ، ولا يزدهيه العيش الملائم ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وهو يورد عليك ما ينبذ به الكسل ، وتُشْحَذ به الصوارم والأسل ، وفى الحضرة أعيان يصلون يدك بأيديهم ، ويستأصلون لك شأفة معتديهم ، ولن تعدم منهم عونا يرضيك ، وعضدا يشيمك فى ذات الله ويقتضيك ، إن شاء الله ، والسلام .

٢١ – وكتب غيره :

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم ، ووقاكم المحاذير وعصمكم ، ووصل بموفور مزيده آلاءكم وقسمكم ، من حضرة غرناطة حرسها الله [٨٦ ب] عن أنفس مملوءة ثَلَجا ، وأنباء سارة ملأت الأرض أرجا ، ولم تدع فى قناة الدين أمتا ولا عِوَجا ، لله على ذلك من المحامد أعمها ، وهو ولىّ منحه الحافلة يكملها ويتمها ، وشرح ذلك مضمن نسخة اندرجت طيه منقولة من كتاب أبى عبد الله محمد بن يسير[1] أعزه الله وأكرمه بتقواه وازنته وصفا ، وقابلته حرفا حرفا ، أبدى فيه عن صفة الصنع الجميل الجسيم ، والفتح الوسيم ، الذى منحه الله فى الكافرين أعدائه ، المكذبين رسله الملحدين فى أسمائه ، وقد طيّرنا بها مسرعين ، وتقدمنا بها إلى أسماعكم ممتعين ، لتتحققوها جلاء ، وتتدافعوا المسرة بها ولاء ، وتحمدوا الله على هذه المنحة الواقعة ، والبشرى الناجمة الطالعة ، التى ملأت العيون قرة ، وطلعت فى جبين الدهر غرة ، وبعثت للدين وأهله جذلا ، وأوضحت من المسرات فصولا وجملا ، ولتأخذوا من ذلك بأوفر نصيب ، وترتعوا منه فى جناب مريع ومرعى خصيب ، فأنتم الأولياء والأشياع ، ولكم الانجذاب المحقق والنزاع ، فإذا طلع بحول الله عليكم ، ومدت هذه المسرة خطوها إليكم ، أعلن بقراءته فى المسجد الجامع ، حيث يكون مطمح الأبصار ومصغى المسامع ، حتى يستوى فى اجتلائه الأبعد والأدنى ، وتتلاحق الأفراح فيه من هنا ومن هنا ، وإنه لكما ترون من أحسن ما تطالع به النفوس وتهنا ، وارتقبوا أمثالها مع الأنى ، وعلى التتابع والولا ، وارفعوا أيديكم إلى بارئكم جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، فى أن يجعلها نسقا ، ويذر الشرك وأهله لقى ، ويوطئهم من آرائهم الوخيمة صعيدا زلقا ، [١٨٧] فهو ولىّ ذلك يصحبه القبول ، والصنع الجميل والفتح الموصول ، بعزته لا ربَّ غيره ولا معبود حاشاه ، والسلام .

(١) لم أهتد إلى التحقق من شخصية ابن يسير هذا .

٢٢ – وكتب أبو حفص ابن برد فى الاصطلاح بين قبيلتين[(١)] :

أما بعد ، فإن أفضل ما تناجى به المسلمون ووجهوا أبصارهم إليه ، وصححوا نياتهم فيه ، ولم يلوهم لاوٍ عنه ، ولا لفتهم لافت دونه ، وما قَرَّب من رضا الله تعالى و بَعَّد من سخطه ، وعمل فيه بأمره ، وأحصنت له[(٢)] خلافة رسوله عليه السلام فى أمته من الإصلاح بين المتحار بين منهم والمتحارسين[(٣)] فيهم وتحذيرهم ما فى سفك الدماء وتأريث[(٤)] الشحناء وتوكيد مِرَرِ الحُقود[(٥)] وإيقاظ عيون الحروب من فساد الدين ، ووهن[(٦)] اليقين ، وذهاب الرجال ، ونفاد الأموال ، واجتياح النعم ، واستنزال النقم ، قال الله عز وجل : ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس[(٧)] ﴾ وقال تقدس اسمه : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله[(٨)] ﴾ ، وقد علمتم أن الحرب مشكلة[(٩)] النفوس ، متلفة الأموال ، مندمة فى العواقب والمآل[(١٠)] ،

---

(١) جاء بعض هذه الرسالة فى الذخيرة لابن بسام ، ق ١ – ٢/٢٩ – ٣٠

(٢) فى الذخيرة : واحتسب فيه .

(٣) كذا فى الأصل ، ولعلها « والمتحارشين » مشتقة من الحرش وهى تعنى إغراء الناس بعضهم ببعض والافساد بينهم ، ولم ترد هذه الكلمة ولا التى تليها فى الذخيرة .

(٤) فى الأصل : وتأثير ، وقد اخترنا ما جاء فى الذخيرة .

(٥) فى الأصل : العقود ، وقد آثرنا ما جاء فى الذخيرة .

(٦) فى الأصل : وهوى ، والتصحيح عن الذخيرة .

(٧) سورة النساء ، آية ١١٤

(٨) سورة الحجرات ، آية ٩

(٩) فى الأصل : مشكلة ، والتصويب عن الذخيرة .

(١٠) فى الذخيرة : مجلبة للندامة فى العواقب .

تلذ مباديها للأشرار ، وتلقى كلاكل عواقبها[١] على الأخيار ، وقلما تقدح شعلها ويغلى مرجلها إلا فراش الشر وذؤبان الطمع[٢]، ممن لا يحفل بعار ، ولا يستحيى من فرار ، فإن هلك لم يفقد ، وإن نجا لم يحمد ، ثم ترتكس[٣] جماهير الناس وأولو الذكر [والأعاظم أخطاراً ، والأحاسن آثاراً][٤] ، فى لجج تبعد عنها السواحل ، ويبوءون بفوادح تنهد عنها الكواهل ، وأصح الناس لُبًّا وأنفذهم نظرا وخيرهم احتسابا وأعلمهم بما حاز رضا الله وأحاط نفسه والمسلمين فيه من حضّ[٥] على الصلح ، وندب إلى أُسى[٦] الجرح ، ولم يأْلُ [٨٧ ب] إرشاداً وتبصيراً ، ومن سوء العواقب تخويفاً وتحذيرا ، وبادر نار الفتنة بالإطفاء ، وعصب المتحاربين بالإرضاء[٧] ، وشوكة الحرب بالخضد ، فحقن الدم ، وحمى الحرم ، وأوطأ[٨] النعم ، وأمّن الستور من الانحسار ، وضمائرها من الإجهار ، ولا توفيق إلا بالله العلىّ العظيم ، والسلام .

---

(١) فى الذخيرة : عاقبتها .
(٢) فى الأصل : وتبقى مرحلها فراش الشر وديوان الطمع ، وقد آثرنا ما جاء فى الذخيرة .
(٣) فى الأصل : ترتكش ، وفى الذخيرة : ترتكص ، وما أثبتناه أقرب إلى الصحة والارتكاس فى الفتنة هو التقلب والتخبط فيها .
(٤) ما بين الحاصرتين زيادة جاءت فى الذخيرة .
(٥) فى الأصل : حط .
(٦) فى الذخيرة : إبراء .
(٧) فى الأصل : . . . بالإضاء ، وفى الذخيرة : وعصب المتحازبين بالارخاء .
(٨) فى الذخيرة : وأوطن .

مراجع البحث

المراجـع العربية :

ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى) :

— التكملة لكتاب الصلة (المجلدان الخامس والسادس من المكتبة الأندلسية) ، نشر فرانسسكو كوديرا ، مدريد ١٨٨٧ — ١٨٨٩

— المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى (المجلد الرابع من المكتبة الأندلسية) ، نشر فرانسسكو كوديرا ، مدريد ١٨٨٥

— الحلة السيراء ، نشر رينهارت دوزى تحت عنوان :
Notices sur quelques manuscrits arabes, ed. Leyden, 1847—1851.

ابن أبى زرع (أبو عبد الله محمد بن عبد الحليم) :

— الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ط. الرباط سنة ١٩٣٦ فى ثلاثة أجزاء .

ابن الأثير (على بن أحمد بن أبى الكرم) :

— الكامل فى التاريخ ، ط. القاهرة سنة ١٣٤٨ — ١٣٥٣ (١٩٢٩ — ١٩٣٤) .

ابن بسام (على بن بسام الشنتريني) :

— الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة :
القسم الأول فى مجلدين ، ط. كلية الآداب بجامعة القاهرة ، سنة ١٩٣٩ — ١٩٤٢
القسم الثانى (نسخة مصورة من مخطوطة بغداد) .
القسم الثالث (مخطوطة المجمع التاريخى الملكى بمدريد — مجموعة المستشرق باسكوال دى جايانجوس رقم ١٢) .

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن أحمد بن عبد الملك) :

— الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم وفقهائهم ومحدثيهم ، نشر فرانسسكو كوديرا ، ط. مدريد سنة ١٨٨٢

البيذق (أبو بكر الصنهاجى) :

— كتاب أخبار المهدى وابتداء دولة الموحدين ، نشر ليفى بروفنسال ، ط. باريس سنة ١٩٢٨ ، مع ترجمة فرنسية ومقدمة تحت عنوان : *«Documents inédits d'histoire almohade»*

ثعلب الشيبانى (أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد) :

— شرح ديوان زهير بن أبى سلمى ، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٤٤

الحلل الموشية فى الأخبار المراكشية :

— لمؤلف مجهول ، نشر الأستاذ أحمد عاوش ، ط. الرباط سنة ١٩٣٦ (وانظر كذلك أويثى).

الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) :

— جذوة المقتبس ، نشر الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، ط. القاهرة سنة ١٩٥٢

الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم) :

— صفة جزيرة الأندلس (منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار) نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، ط. القاهرة سنة ١٩٣٧ مع مقدمة وترجمة فرنسية تحت عنوان :
La Péninsule Ibérique au moyen-age d'après le Kitāb ar-Rawḍ al-Mi'ṭār, ed. Leiden, 1838.

ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله السلمانى) :

— الإحاطة فى أخبار غرناطة :
نشر محب الدين الخطيب فى جزأين ، القاهرة سنة ١٣١٩ هـ.
نشر الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة سنة ١٩٥٥
مخطوطة الاسكوريال ، رقم ١٦٧٣

— أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، ط. بيروت سنة ١٩٥٦

ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد) :

— العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط. القاهرة فى سبعة أجزاء ، سنة ١٢٨٤ هـ. (١٨٦٧م.)

ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن ابرهيم) :

— وفيات الأعيان ، نشر الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد (فى ستة أجزاء) ، ط. القاهرة سنة ١٩٤٨

ابن خير (أبو بكر محمد بن خير الإشبيلى) :

— فهرسة ما رواه عن شيوخه (المجلدان التاسع والعاشر من المكتبة الأندلسة) ، نشر الأستاذين فرانسسكو كوديرا وخوليان ريبرا ، ط. مدريد ١٨٩٣ — ١٨٩٥

ابن دحية (أبو الخطاب عمر بن الحسن الكلبى) :

— المطرب من أشعار أهل المغرب ، نشر الأساتذة ابرهيم الابيارى والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد بدوى ، ط. القاهرة سنة ١٩٥٤

الدميرى (كمال الدين) :

— حياة الحيوان الكبرى ، جزءان ، ط. القاهرة سنة ١٣٣٠ هـ.

ابن سعيد المغربى (على بن موسى بن عبد الملك) :

— المغرب فى حلى المغرب ، نشر الدكتور شوقى ضيف ، ط. القاهرة فى جزأين ، سنة ١٩٥٢ — ١٩٥٥

— رايات المبرزين وغاية المميزين ، نشر الأستاذ إميليو غرسيه غومز مع مقدمة وترجمة إسبانية ، ط. مدريد سنة ١٩٤٢ تحت عنوان : *«El libro de las banderas de los campeones»*

السلاوى (أحمد بن خالد الناصرى) :

— الاستقصا فى أخبار دول المغرب الأقصى ، ط. الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ — ١٩٥٦ فى عشرة أجزاء .

الضبى (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة) :

— بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، المجلد الثالث من المكتبة الأندلسية ، نشر الأستاذ فرانسسكو كوديرا ، مدريد سنة ١٨٨٤ — ١٨٨٥

عبد الواحد المراكشى :

— المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، نشر الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العلمى ، ط. القاهرة سنة ١٩٤٦

ابن عذارى المراكشى :

— البيان المغرب فى أخبار المغرب ، الجزء الثالث (الخاص بملوك الطوائف فى الأندلس) ، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، باريس سنة ١٩٣٠

— البيان المغرب (الجزء الرابع الخاص بدولة المرابطين ، مخطوطة الأستاذ أمبروسيو أويثى) .

ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى) :

— شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ط. القاهرة (مكتبة القدسى) ، سنة ١٣٥٠ هـ.

عنترة بن شداد العبسى :

— شرح ديوان عنترة ، بتحقيق الأستاذ عبد المنعم عبد الرءوف شلبى ، ط. المكتبة التجارية بالقاهرة ، بدون تاريخ .

الفتح بن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى) :

— قلائد العقيان ، ط. القاهرة سنة ١٢٨٣ (١٨٦٦) .
— مطمح الأنفس ، ط. القاهرة سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧) .

ابن فرحون (برهان الدين ابرهيم بن على بن محمد) :

— الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، ط. القاهرة سنة ١٣٥١ (١٩٣٢) .

ابن القاضى (أحمد بن محمد بن أبى العافية) :

— جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس ، طبعة حجرية بمدينة فاس سنة ١٣٠٩هـ.

ابن القطان :

— نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان ، المجلد الثالث عشر منه ، نسخة خطية كانت لدى الأستاذ ليفى بروفنسال .

القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله) :

— صبح الأعشى فى كتابة الإنشا ، ط. دار الكتب المصرية ، القاهرة سنة ١٩٢٢

ابن الكردبوس :

— كتاب الاكتفا فى أخبار الخلفا (مقتطفات منه مترجمة إلى الانجليزية بقلم الأستاذ باسكوال دى جايانجوس Pascual de Gayangos تحت عنوان : *«Extracts from the historical work entitled Kitabu-l-Iktifá fi Akhbári-l-Kholafá»*.
وقد جعل جايانجوس هذه الترجمة من ملحقات ترجمته الانجيزية لكتاب نفح الطيب للمقرى :
The History of the Mohammedan Dynasties in Spain, vol. II, London, 1843, Appendix C.

ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزوينى) :

— سنن المصطفى ، فى جزأين ، ط. القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ.

المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى) :

— نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، فى عشرة أجزاء ، نشر الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ، ط. القاهرة سنة ١٩٤٩

النباهى (أبو الحسن على بن عبد الله بن الحسن الجذامى المالقى) :

— تاريخ قضاة الأندلس المسمى بـ «كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا» ، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، القاهرة سنة ١٩٤٩

نبذ تاريخية جامعة فى أخبار البربر فى القرون الوسطى :

— منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر ، لمؤرخ مجهول ، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، ط. الرباط سنة ١٩٣٤

ياقوت الحموى (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله) :

— معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) نشر الدكتور أحمد فريد رفاعى ، ط. القاهرة فى عشرين جزءاً ، سنة ١٩٢٢ — ١٩٣٨

المراجع الأوربية :

Bosch Vila, Jacinto: *Los Almorávides,* ed. Instituto General Franco de Estudios e Investigación Hispano-Arabe, Tetuán, 1956.

Brockelmann, Carl: *Geschichte der Arabischen Literatur.* Leyden, 1943.

Campaner y Fuertes, Alvaro: *Bosquejo histórico de la dominación islamita en las Islas Baleares,* Palma de Mallorca. 1888.

Codera, Francisco: *Decadencia y desaparición de los almorávides,* vol. III de la Colección de Estudios Críticos de Historia Arabe Española, Zaragoza, 1899.

Familia real de los Benitexufin, en el vol. IX de la Colección de Estudios Críticos de Historia Arabe Española, páginas, 75-165, Madrid, 1917.

Dozy, Reinhardt: *Scriptorum arabum Loci de Abbadidis,* Leyden, 1846-1853.

Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen âge, éd. [3], Leyden, 1881.

Supplément aux dictionnaires arabes, París — Leyden, 1927.

García Gómez, Emilio: *Un eclipse de la poesía en Sevilla. La época almorávide,* Madrid, 1945.

Huici Miranda, Ambrosio: *Historia política del imperio almohade,* vol. I, ed. Tetuán, 1956.
Las grandes batallas de la Reconquista durante las invasiones africanas, Madrid, 1956.
«Al-Ḥulal al-mawšiyya», crónica árabe de las dinastías almorávide, almohade y benimerin, traducción española, Tetuán, 1951.

Lévi-Provençal, E.: *Histoire de l'Espagne Musulmane,* vol. IIIe, París, 1953.

Nykl, A. R.: *Hispano-Arabic Poetry,* Baltimore, 1946.

Pons Boigues, Francisco: *Ensayo bio-bibliográfico sobre los historiadores y geógrafos arábigo-españoles,* Madrid, 1898.

Prieto y Vives, Antonio: *Los reyes de taifas,* Madrid, 1926.

Simonet ,Francisco Javier: *Glosario de voces ibéricas y latinas usadas entre los mozárabes,* Madrid, 1888.

De Slane, M. G.: *Histoire des Berbères,* ed. Paul Casanova, París, 1925-1934, 3 vols.

الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس

من البداية الى الحجارى

١ — الجغرافية عند المسلمين وتراث الهنود والفرس واليونان

ظهر علم الجغرافية فى الأندلس مع علم التاريخ فى آن واحد كما هو الحال فى المشرق ، فكما كان هشام بن محمد السائب الكلبى (توفى ٢٠٤ أو ٢٠٦) وأبو حنيفة الدينورى (توفى ٢٨٢ / ٨٩٥) وابن قتيبة (توفى ٢٧٦ / ٨٨٩) وابن واضح اليعقوبى (توفى ٢٨٤ / ٨٩٧) وغيرهم من رواد علم التاريخ فى المشرق رواداً لعلم الجغرافية فى نفس الوقت ، وأُثرت عنهم وعن معاصريهم المؤلفات الصغيرة والكبيرة فى هذه الناحية أو تلك من نواحى جغرافية الجزيرة العربية والعالم الإسلامى[1] ، فكذلك كان أول مؤرخ أندلسى كبير وهو أحمد ابن محمد الرازى مؤرخاً وجغرافياً . بل هو الذى وضع أساس هذين العلمين فى الغرب الإسلامى .

ذلك أن التاريخ والجغرافية كانا فى نظر العرب فرعين متلازمين من شجرة المعارف العامة التى كانت تسمى « الأدب » بصورة عامة ، فكما كان من الضرورى للعربى أن يعرف لغته ، نثرها ونظمها وشعراءها وكتابها ، فكذلك

---

(١) راجع فى هذه النقطة ما كتبه نفيس أحمد فى كتابه القيم « جهود المسلمين فى الجغرافيا » ترجمة فتحى عثمان (مجموعة الألف كتاب ، رقم ٢٧٢) القاهرة ، بدون تاريخ ، وخاصة الفصل الثانى ص ٤٢ وما يليها .

كان لا بد له أن يعرف أنساب العرب وأخبارهم وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبار الفتوح الإسلامية وتواريخ الخلفاء والدول ، وكان لزاماً عليه — إكمالا لثقافته — أن يعرف بلاد الإسلام ومدائنها والطرق إليها مع ما يتيسر من أحوال أهلها وصفاتهم وعاداتهم . ومن هنا فإنه من العسير أن تفصل بين المؤرخ والجغرافى والأديب فى تاريخ الفكر الإسلامى . ولو أننا تناولنا كتاباً أدبياً صرفاً كالبيان والتبيين للجاحظ ودرسناه دراسة تدقيق لاستخرجنا منه من المعلومات التاريخية الصرفة والملاحظات الجغرافية الخالصة ما يضع أبا عثمان عمرو بن بحر فى صفوف المؤرخين والجغرافيين . وقد أفاض فى هذه الناحية شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموى فى فاتحة « معجم البلدان »[١] .

وإن من يقرأ هذه المقدمة وما يماثلها من مقدمات كتب البلدان كفاتحة « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » لأبى عبد الله محمد بن أحمد المقدسى ليتبينُ بوضوح أن الاتجاه إلى التأليف فى الجغرافية لم يصدر عند المسلمين عن مجرد الرغبة فى معرفة طرق الحج ، كما يذهب عامة المؤلفين الغربيين المحدثين ومن تابعهم من كتاب العرب ، فإن طرق الحج كانت معروفة مقررة لا يحتاج طالب الحج إلى الاطلاع على كتاب ليعرفها ، ثم إن الحاج كان يخرج فى ركب كبير يقوده أدلاء عارفون بالطرق ومسالكها ، وقلما كان أولئك الأدلاء ممن يقرأون الكتب . ومن المستبعد أن نتصور أدلاء قوافل الحج يسيرون على هدى ما كتبه الاصطخرى وابن رستة مثلا ، بل الأصح أن مؤلفى هذه الكتب كانوا يسترشدون بالأدلاء فيما يكتبون . إنما صدر التأليف فى الجغرافية عند المسلمين عن ذلك النزوع العام نحو المعرفة الذى امتازت به أمم الإسلام فى عصر

---

(١) ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، طبعة الساسى ، القاهرة ١٩٠٦ ، ج ١ ص ٢ وما يليها .

النهوض ، وهو مظهر من مظاهر الشعور بالعزة الذى يصاحب الأمم الصاعدة ، والعلم — كما يقولون — سيادة[1] .

ولو أن العلم الجغرافى عند المسلمين سار فى طريقه وتطور فى اتجاهه البسيط الأول ، وهو جمع المعلومات عن الأرض وأهلها لكان توفيق المسلمين فى ميدان الجغرافية أعظم مما وصلوا إليه ، ولما وقعوا فى أخطاء كبيرة فى تحديد المواقع والتعريف بمواضع القارات والمحيطات ومجارى الأنهار وما إلى ذلك . ولكن اتصالهم بإيران والهند جلب إليهم نظريات جديدة أصبحت بعد ذلك أساساً لاتجاه جديد للتأليف الجغرافى عندهم ، وهو الاتجاه الكونى أو الفلكى الذى سنشير إليه بعد قليل ؛ وعلى الرغم من أن بعضهم استبان أن هذا الاتجاه الهندى الإيرانى يقوم على نظريات وهمية لا تستند إلى أساس من بحث أو تحقيق ، فإنهم مضوا فيه وزادوا عليه ، واجتهد بعضهم فى ضبطه وتحقيقه فلم يصلوا إلى نتيجة ، لأن الأساس نفسه كان خاطئاً .

---

(١) راجع مثلا قول المقدسى فى مقدمة أحسن التقاسيم : « ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم ، فصنفوا على الابتداء ، ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه ، وأنفرد بفن لم يذكروه إلا على الإخلال ، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار . . . وعلمت أنه باب لا بد منه للمسافرين والتجار ، ولا غنى عنه للصالحين والأخيار ، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء ، وتطلبه القضاة والفقهاء وتحبه العامة والرؤساء . . . » .

تحقيق دى خوية (الطبعة الثانية ١٩٠٦ ، ص ١ و ٢

وقول ابن حوقل فى مقدمة صورة الأرض : « وكان مما حضنى على تأليفه وحثنى على تصنيفه وجذبنى إلى رسمه أنى لم أزل فى حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك ، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق ، وتباينهم فى المذاهب والطرائق . . . وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة الموصوفة ، فلم أقرأ فى المسالك كتاباً مقنعاً ، وما رأيت فيها رسماً متبعاً ، فدعانى ذلك إلى تأليف هذا الكتاب . . . » .

صورة الأرض ، تحقيق ج. هـ. كرامرز ، لايدن ١٩٣٨ ، ج ١ ص ٣

وانظر أيضاً فى هذا المعنى مقدمة كتاب البلدان لأحمد بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى ، ليدن ١٨٦٠ ص ٢ — ٣

وأهم هذه النظريات تقسيم الأرض إلى أقاليم سبعة ، والقول بأن للأرض خط طول رئيسياً يمر بما سموه « قبة العَرين » وهو تحريف لاسم موضع زعموا أن الهنود أقاموا فيه مرصداً اتخذوه أساساً لخطوط الطول الأخرى ، مع أن « العرين » هذا كان اسماً اصطلاحياً لجزيرة وهمية بين الهند والحبشة ذكرها ديودور الصقلى باسم أورانوس . وعلى أساس هذا الوهم رسموا خطوط طول وهمية حافلة بالخطأ ، وجعلوها تتقاطع مع خطوط عرض وهمية هى الأخرى أخذوها من حدود الأقاليم السبعة وأجزائها ، واجتهدوا فى أن يضعوا المعالم الجغرافية على هذه الشبكة التخيلية ، فكان من ذلك أن اضطربت صورة الأرض فى أذهانهم .

وزادهم استمساكاً بهذه النظريات نقل كتابى الجغرافية والمجسطى لبطليموس الاسكندرى إلى العربية ، فقد فتنوا بهما وترجموهما أكثر من مرة خلال القرن التاسع ومنتصف العاشر ، وزادهم إقبالا على بطليموس أنهم وجدوه يؤكد نظرية الأقاليم السبعة ويكمل ما أخذوه من الهنود بمعلومات طريفة عن الجانب الغربى للأرض ، ويربط بين الأجرام السماوية والأماكن الأرضية ، فثبتوا على القول بذلك ونقلوا عن بطليموس نقولا محرفة جعلت معلوماتهم خارج مملكة الإسلام مجموعة أوهام وتصورات وعجائب وخوارق ، هذا إلى الخلط الشديد فى تحديد مواضع الأمكنة والبقاع داخل العالم الإسلامى نفسه ، ومن هنا فإن سلسلة الجغرافيين الفلكيين التى تبدأ بمحمد بن موسى الخوارزمى صاحب كتاب « صورة الأرض » تعتبر من أقل ما ألف المسلمون فى الجغرافية قيمة من الناحية العلمية . ومع أن المدققين المحققين من علماء الإسلام استبانوا فيما بعد خطأ الجغرافية البطليموسية ، فإنهم لم يستطيعوا التحلل من القول بالأقاليم السبعة وخطوط الطول الوهمية وتشويش أذهانهم بها . ومثال ذلك أن أبا الريحان البيرونى استبان خطأ الحساب البطليموسى ، وتبين أن هناك أماكن كثيرة « نجدها

الآن مبينة فى الجغرافية البطليموسية إلى الشرق من أماكن أخرى فى حين أنها تقع إلى غربها والعكس بالعكس » إلا أنه استمر يقول بالأقاليم السبعة مما عرضه لكثير من الخطأ (١) .

بيد أن البيرونى استطاع بعبقريته الفذة أن يعود بعلم الجغرافية عند العرب إلى قواعده الأولى : قواعد المشاهدة والرحلة والتجربة الشخصية ، فقد رحل

(١) كان وصول آراء الهنود والإيرانيين فى الفلك والجغرافية إلى العرب سابقاً على معرفتهم لآراء الإغريق ، فقد ترجم المسلمون كتابى السادهانتا (السند هند) وأركاند الذين ألفهما براهما جوبتا حوالى سنة ١٥٤/٧٧١ وقام على الترجمة نفر من الهنود ورواد الفلك والجغرافية المسلمين مثل ابراهيم ابن حبيب الفزارى ويعقوب بن طارق وغيرهما . وعن الهنود أخذ العرب القول بالخط الذى يقسم القبة الأرضية ويمر بموقع أرين أو العرين . ثم قسموا دائرة القبة بعد ذلك إلى ٣٦٠ قسما سمى كل قسم منها درجة ويمر بكل منها خط من خطوط الطول . أما كلاوديوس بطليموس الاسكندرى فقد عاش فى القرن الثانى المسيحى ، وقد عرف العرب مؤلفه الرياضى الكبير «جامع الرياضيات He Mathematike Syntaxis » الذى اشتهر بعد ذلك باسم Magiste وعربه العرب أيام المأمون إلى المجسطى وعنهم أخذ علماء أوروبا فى العصور الوسطى ذلك الكتاب باسمه العربى Almageste وقد جمع بطليموس فيه كل النتائج التى وصل إليها سابقوه من الفلكيين الإغريق وخاصة هيباركوس . أما كتاب بطليموس الثانى الذى يسميه المسلمون « جغرافيا » فهو كتاب « دليل الجغرافية» Geographike Huphegesis ولم ينشر نصه الاغريقى إلا فى سنة ١٥٣٣ فى مدينة بازل بسويسرا بتحقيق ارازموس ، أما قبل ذلك فقد كان عماد الناس فى الرجوع إليه على ترجمات لاتينية عملت مباشرة أو عن العربية ، وسبب أهميته أنه قال إنه لا يمكن رسم خريطة للأرض إلا على أساس تقسيمها إلى أقاليم Klimata أى مناطق عرضية ، وقد أخذ هذا القول عن هيباركوس . أما خطوط الطول فيحتمل أن يكون قد أخذها عن هيباركوس أيضاً ، وهذا أخذها عن مرينوس الصورى ، وهو الذى نقل هذا المفهوم الهندى إلى الاغريق ناقلا الخط الرئيسى من قبة العرين إلى جزائر الخالدات أو فرطناطش . وقد جعل بطليموس خط الاستواء أعلا بكثير مما هو فى الحقيقة ، ثم تصور حدود الأقاليم السبعة بعد ذلك موازية له شمالا . وجغرافية بطليموس ليست إلا جدولا لتقسيم سطح المعمور من الأرض مع ذكر أسماء البلاد والنواحى فى منطقة البحر الأبيض على الخصوص ، ولكنه لا يعطى أى تفاصيل عن المناخ أو السكان أو النبات والحيوان ، وقد أكمل العرب ذلك بمعلوماتهم الواسعة عن نواحى المعمور .

Cf. M. Ninck, *Die Entdeckung Europas durch die Griechen*. Basel 1945.

O. Cuntz, *Die Geographie des Ptolomaios*. Berlin 1923.

H. Berger, *Geshichte der wissenschaftlichen Erdkunde der Griechen*. 3 Bände, Leipzich, 1903.

Ruska, Georg, *Zur geographischen literatur im islamischen Kulturbereich*. Geographische Zeitschrift, Band 33 (1927) pp. 517-589.

بنفسه إلى البلاد التى كتب عنها وسأل واستقصى ، ودون ثمرة ذلك فى كتب فريدة فى نوعها مثل « تحقيق ما للهند من مقولة ، معقولة فى العقل أو مرذولة » وصنع بيده أدوات الرصد التى أقام عليها كتابه « القانون المسعودى » وسار على منهج الجاحظ فى التأمل والمشاهدة . ووصل إلى ما لم يصل إليه العلم الحديث إلا بعد قرون ، كالقول بأن الكثير من الأرضين كانت أصلها قيعان بحار ، فقال مثلا « فهذه بادية العرب ، وقد كانت بحراً فانكبس ، حتى أن آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها ، فإنها تبدى أطباقاً (= طبقات) من تراب ورمل ورضراض ، ثم فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يُحمل على دفنٍ قاصدٍ اياها هناك ، بل تخرج منها أحجار إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع وما يسمى آذان السمك ، إما باقية على حالها وإما بالية قد تلاشت ، وبقى مكانها متشكلا بشكلها »(١) .

والبيرونى يجرى هنا على الطريقة العقلية الواقعية التى سار عليها رواد الجغرافية العربية مِمَّن نهضوا بذلك العلم العربى الصرف الذى عرف بالمسالك والممالك ، وما أشبه منهجه فى المثل الذى ضربناه بمذهب ابن رستة فى التدليل على كروية الأرض : « أجمعت العلماء على أن الأرض أيضاً بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ، والدليل على ذلك أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع مَن فى نواحى الأرض فى وقت واحد ، بل يُرى طلوعُها على المواضع المشرقية قبل غيبوبتها عن المغربية . ويتبين ذلك من الأحداث التى تعرض فى العلو ، فإنه يُرى وقت الحدث الواحد مختلفاً فى نواحى الأرض ، مثل كسوف القمر ، فإنه إذا رُصد بين بلدين متباعدين بين المشرق والمغرب ، فوجد وقتُ كسوفه فى البلد الشرقى منهما على ثلاث ساعات من الليل مثلا ،

(١) انظر الفصل القيم عن البيرونى فى كتاب « جهود المسلمين فى الجغرافيا » تأليف نفيس أحمد وترجمة فتحى عثمان (مجموعة الألف كتاب ، رقم ٢٧٢) . القاهرة ، بدون تاريخ .

أقول : وُجد ذلك الوقت فى البلد الغربى على أقل من ثلاث ساعات بقدر المسافة بين البلدين ، فتدل زيادة الساعات فى البلد الشرقى على أن الشمس غابت عنه قبل غيبوبتها عن البلد الغربى[١] » فأين هذا من قول المسعودى فى « التنبيه والاشراف » ناقلا عن اليونان ومتابعاً لهم فى مذاهبهم الفلكية الرياضية ومجملا بعض آرائهم : « قد تنازع الناس فى الفلك ممن سلف وخلف ، فقال أفلاطون وثامِسْطِيُوس والرواقيون وعِدَّةٌ ممن تقدم عصر أفلاطون وتأخر عنه من الفلاسفة : إنه من الطبائع الأربع التى هى الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، إلا أن الغالب عليه النارية ، وليست ناريَّتُه محرقة ، إنما هى مثل النار الغريزية فى الأبدان . وقال آخرون : إنه من النار والهواء والماء دون الأرض . وذهب ارسطاطاليس وأكثر الفلاسفة مِمَّن تقدم عصره وتأخر عنه وغيرهم من حكماء الهند والفرس والكلدانيين إلى أنه طبيعة خاصة خارجة عن الطبائع الأربع ، ليست فيه حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ، وأنه جسم مدور أجوف يدور على محورين وهما القطبان ، أحدهما رأس السرطان ، ومنتهى « بنات نعش » من تلقاء نقطة الجنوب ، والآخر رأس الجدى ، وفيه كواكب مثل « بنات نعش » من تلقاء نقطة الشمال . وخط الاستواء فى وسط الفلك ، وهو خطٌّ ما بين الشمال والجنوب ، وأوسع موضع فيه من نقطة المشرق إلى نقطة المغرب . وهو منقسم بأربعة أرباع ، كل ربع منها تسعون درجة على خطين يتقاطعان على مركزه ، وهو موضع الأرض ، منه أحد الرُّبعين ، وهو أحد القطبين ، نقطة الشمال وبأزائه نقطة الجنوب . والربع الثالث نقطة المشرق ، وبأزائه نقطة المغرب . وهو يدور دوراناً طبيعياً دائماً ، وبدورانه ودوران الكواكب التى فيه تنفعل الكيفيات ، وانبسطت الأركان

(١) ابن رستة ، أبو على أحمد بن عمر ، كتاب الأعلاق النفيسة . نقل هذه الفقرة ر. بلاشير و هـ. درمون فى « منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى » ، الطبعة الثانية ، باريس ١٩٥٧ ، ص ٤٢ — ٤٣

الأربعة وهى الماء والهواء والنار والأرض . . . »[1] . فهذا كلام نقله المسعودى دون أن يحققه ، إذ هو مستحيل التحقيق .

وهذه الآراء وأمثالها هى التى أضعفت التفكير الجغرافى عند المسلمين وأضاعت جهد الكثيرين من علمائهم ، وجعلت العلم الحديث ينظر إليها على أنها أوهام لا تدرس إلا فى مجال البحث عن تاريخ علم الجغرافية وآراء القدماء فيه ، فى حين أن كلام ابن رستة الذى ذكرناه حقيقة علمية ثابتة اليوم يتعلمها التلاميذ فى المدارس .

ومن هنا فإن الخط الحقيقى للجغرافية الإسلامية هو خط « المسالك والممالك » و « البلدان » أو « البرود » ، فهو خط سليم قائم على الرحلة والمشاهدة وسؤال أهل البلاد وتحقيق ما يدلون به من معلومات ومقارنتها بغيرها ودراسة الكتب السابقة ومراجعتها .

وليس بغريب أن يكون الميلاد الحقيقى لهذا النوع هو نفس ميلاد التاريخ العالمى عند المسلمين ، فإن أول من وضع كتاباً فى « البلدان » هو أحمد بن أبى يعقوب ابن واضح الكاتب المعروف باليعقوبى (توفى بعد ٢٧٨ / ٨٩١) وهو واضع أول تاريخ للعالم عند المسلمين . وهذا فى ذاته مثال واضح للارتباط الوثيق بين الجغرافية والتاريخ عند المسلمين . وإليك منهج اليعقوبى كما بينه فى فاتحة كتاب البلدان ، أثبت فقرات منه لأنه يعيّن — فى نفس الوقت — الاتجاه الذى سارت عليه الجغرافية عند الأندلسيين ابتداء من محمد الرازى وابنه أحمد بن محمد ، قال : « إنى عنيت فى عنفوان شبابى وعند احتيال سنى وحدة ذهنى « بعلم أخبار البلدان » والمسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأنى سافرت حديث السن ، واتصلَتْ أسفارى ودام تغربى ، فكنت متى لقيت رجلا من تلك

---

(١) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على : التنبيه والاشراف ، « منتخبات من آثار الجغرافيين فى القرون الوسطى » ، ص ٢١٣ — ٢١٤

البلدان سألته عن وطنه ومقره ، وإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده ذلك فى . . . لدته[١] ما هى وزرعه ما هو ، وساكنيه من هم : عرب أم عجم ؟ . . . شرب أهله حتى أسأل عن لباسهم . . . ودياناتهم ومقالاتهم والغالبين عليه والمترأسين فيه . . . [وما] مسافة ذلك البلد ، وما يقرب منه من البلدان . . . ثم أثبت كل ما يخبرنى به من اثق بصدقه ، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالماً من الناس فى الموسم وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب . وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم ، وذكرت من فتح بلداً بلداً ، وجَنَّد مِصْراً مصراً من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراجه ، وما يرتفع من أمواله ، فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتاب دهراً طويلا ، وأضيف كل خبر إلى بلده ، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندى معرفته[٢] . . . » .

ومن هذا الاتجاه السليم تفرع أدب الرحلات الذى نعتبره جانباً هاماً من جوانب الجغرافية الإسلامية ، فإن الرحالة جغرافى متنقل ، ووصفُ رحلته مصدر مأمون إلى حد كبير للمعلومات الجغرافية من كل نوع . وإذا كان العربى بطبعه رحالة دقيق الملاحظة متفتح الذهن فقد كان من الطبيعى أن يوفق المسلمون فى هذه الناحية توفيقهم فى أدب المسالك والممالك والبلدان ، بل كان توفيقهم فى هذا الميدان أعظم وأبعد مدى ، حتى أصبحت بعض كتب رحلاتهم من معالم الأدب العالمى .

والرحالة المسلمون الذين أثرت عنهم أوصاف لرحلاتهم من كل نوع وصنف من الناس : فيهم الرسول الذى ترسله الدولة إلى ناحية من النواحى للكشف عن مسألة علمية مثل سلاَّم الذى أرسله الخليفة الواثق (٨٤٢/٢٢٧—٨٤٧/٢٣٢)

(١) كذا فى الأصل الذى نشره دى خويه ص ٢ ، والغالب أن هذه بقية كلمة « بلدته » .

(٢) اليعقوبى ، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ، كتاب البلدان بتحقيق ميخائيل يانوس دى خويه ، ليدن ١٨٦٠ ص ٢ — ٣

ليستطلع أمر سد ياجوج وماجوج[١] . وفيهم صاحب البريد ، أى من المتولين أمور هذا المرفق الهام من مرافق الإدارة الإسلامية الذى يتولى نقل مراسلات الدولة ورُسُلها ، كما نجد عند أبى الفرج قدامة ابن جعفر (المتوفى بعد سنة ٣٢٠/ ٩٣٢) ، فقد تصدى لكتابة موسوعة شاملة لكل ما يحتاج إليه كتَّاب الدولة من المعارف وأسماه « كتاب صناعة الكتابة » اختص منه البرد والطرق بجزء كبير دون فيه معلومات وملاحظات لا تتأتى إلا عن الرحلة والمشاهدة المباشرة ، وهذا الجزء هو الذى نشر بعضه دى خويه (ليدن ١٨٨٩) باسم « كتاب الخراج » . وفيهم الجاسوس الذى ترسله جماعة سياسية دينية لاستطلاع الأخبار وتعرف الأحوال كما نرى فى حالة أبى القاسم محمد بن حوقل النصيبى المتوفى بعد سنة ٣٦٧ / ٩٧٧ . وفيهم الطُّلَعة الذى يرحل لمجرد الرحلة ويكتب ليشبع رغبة فى نفسه كأبى حامد الغرناطى (٤٧٣ — ٥٦٥ / ١٠٨١ — ١٠٦٩ — ٧٠) ، وفيهم المغامر الذى يتجشم المشاق ويتعرض للأخطار مدفوعاً بشوق عظيم نحو المعرفة كأبى عبد الله محمد بن أحمد المعروف بالمقدسى (توفى بعد ٣٧٨ / ٩٨٨) الذى يبدأ المغامرة فى فاتحة كتابه نفسها ، فينقد سابقيه جميعاً فى أسلوب لاذع لا يغفره له إلا أن كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » أحسن ما ألف المشارقة فى باب المسالك والممالك والبلدان والرحلات . وفيهم السفير الذى يندبه الخليفة للسفارة إلى بلد غريب مثل أحمد بن فضلان (كتب فى أوائل القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) الذى أرسله الخليفة رسولا إلى ملك البلغار فى حوض الفلجا ، فعاد يحكى غرائب أولع الناس بها وبأمثالها ولعاً شديداً فيما بعد ، مثل خبر السمكة التى تخرج كل يوم للناس من البحر فيقطعوا حاجتهم من لحمها ثم تعود إلى الماء لترجع إليهم فى اليوم التالى . وفيهم

(١) أورد طرفاً منها ابن خرداذبة فى المسالك والممالك ، طبعة دى خوية ليدن ١٨٨٩ ص ١٦٢ وما بعدها ، وكذلك الإدريسى فى نزهة المشتاق . وكلامه حافل بأحاديث العجائب التى استهولها الجغرافيون المسلمون وشكوا فى صدقها .

الملاح الذى يتحدث عن عجائب البحر مثل بُزُرْج بن شهريار الذى كتب فى نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . وفيهم التاجر الذى يقطع آلاف الأميال فى برار وقفار ومخاطر ثم يسجل ذكرياته ومشاهداته ، مثل سليمان التاجر (كتب فى نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى) وقد وصف فى كتابه « سلسلة التواريخ » الرحلة بالبر إلى الصين والهند عن طريق فارس .

ومهما يكن من رأى النقاد المحدثين فى هذه المؤلفات ، فلا شك أنها تعطى فى مجموعها صورة واضحة عن عالم العصور الوسطى سواء داخل مملكة الإسلام أو خارجها ، وهى من هذه الناحية ذات قيمة علمية باقية ، بخلاف ما كُتب اعتماداً على كتب الهنود والفرس واليونان وغيرهم ، فهو غير ذى قيمة حقيقية كما ذكرنا .

أما ما نجده فى ثنايا هذه الكتب من حديث العجائب ، فقد كانوا يكتبونه للتسلية والتشويق دون أن يأخذوها هم وقراؤهم — نحسب — مأخذ الجد ، وقد تجمعت هذه المادة القصصية واندرجت فى ألطف مجموع قصصى أخرجته العصور الوسطى وهو « ألف ليلة وليلة » (١) .

وفى هذين الضربين : المسالك والممالك أو البلدان والرحلات كتب أهل الأندلس والمغرب ووصلوا بهما إلى القمة كما سنرى عند آل الرازى وأبى عبيد البكرى والإدريسى وابن جبير وابن بطوطة ، وسنرى أيضاً كيف نبغوا فى نوع آخر من الرحلات وهو رحلات العلم أى للقاء الشيوخ والأساتذة والأخذ معهم والحديث عنهم ، كما سنرى عند ابن رُشيد الفهرى والعبدرى .

---

(١) انظر عن اتجاهات الجغرافية عند المسلمين وعلاقتها بعلوم اليونان :

César E. Dubler, *Abū Ḥāmid el Granadino y su Relación de Viaje por Tierras Euroasiátias* (Madrid 1953).

فقد قدم الأستاذ دوبلر لترجمته لنص رحلة أبى حامد بمقدمة وافية أجمل فيها كل آراء المستشرقين عن الجغرافية الاسلامية بأوفى مما فعله ج. هـ. كرامرز فى مادة جغرافية Djughrâfiya التى نشرها فى ملحق الطبقة الأولى لدائرة المعارف الاسلامية ص ٦٢ وما يليها .

٢ — أصول التأليف الجغرافى عند الأندلسيين

ا — البلدان والمسالك والممالك والرحلات

على هذين الأساسين السليمين (البلدان أو المسالك والممالك والرحلات) قام التأليف فى الجغرافية عند الأندلسيين ، فلا نحس فى مؤلفاتهم ذلك التأثر البعيد بالنظريات الشرقية واليونانية الذى نجده غالباً على كثير من المؤلفات الجغرافية فى المشرق . وقد عرف الأندلسيون كيف يفيدون من مؤلفات الإغريق واللاتين ومن أخذ عنهم واعتمد عليهم من الاسبان خلال العصر القوطى : أفادوا منهم فى الوصف العام لشبه الجزيرة الأندلسية وما اتصل بها وقرب منها من بلاد أوروبا ، وأفادوا منهم فى تحديد المواقع وتقدير المسافات ، وانتفعوا بهم فيما ذكروا من تاريخ شبه الجزيرة وتاريخ بعض بلدانها فى القديم . ولكنهم لم يتقيدوا بهم فى التقسيم الجامد إلى أقاليم ذات خصائص فلكية أو علاقات ببروج الفلك .

وإذا كان ابن حزم قد أشار إلى أثر الأقاليم التى يقع فيها الأندلس فى أخلاق أهله وملكاتهم فى رسالته المعروفة فى « فضل الأندلس » فقد كان ذلك فى معرض المفاضلة بين الأندلسيين وأهل المشرق ، فكأنه أراد أن يجاريهم فى مذاهبهم ويحاورهم على أسلوبهم ليبين فضل بلاده على بلادهم عند ما قال : « وأما فى قَسْم الأقاليم ، فإن قرطبة ، مسقط رءوسنا ، مع سُرَّ من رأى فى إقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه اقليمنا ، وإن كانت الأنوار لا تأتينا إلا مُغربة عن مطالعها على المعمور ، وذلك عند المحسنين للأحكام التى تدل عليها الكواكب ناقص من قُوى دلائلها ، فلها من ذلك على كل حال حَظٌّ يفوق حظَّ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد النَّيِّرَيْن بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة التمكن فى العلوم والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدَّق

ذلك الخبر وأبانته التجربة . . . »[١] وأغلب الظن أن ابن حزم اعتمد فى ذلك على كتاب مشارقة ، لأننا لا نجد أحد من جغرافيي الأندلس سلك ذلك المذهب الفلكى فى الجغرافية ، فيما عدا على ابن سعيد ، وهو متأخر على ابن حزم[٢] .

وغاية ما نجد من تأثر الجغرافيين الأندلسيين بالتقسيم البطليموسى هو اجماعهم على أن الأندلس تقع فى الأقاليم الرابع والخامس والسادس ، وهم يكتفون بذلك لتحديد موقع شبه الجزيرة من « أطلس الإسلام »[٣] ، أى تحديد هذا الموقع بالنسبة لبقية البلاد الإسلامية . ولا يستطردون إلى ما وراء ذلك .

---

(١) ابن حزم ، رسالة فى فضل الأندلس ، نفح الطيب ، طبعة محي الدين (القاهرة ١٩٤٩) ج ٤ ص ١٥٧ — ١٥٨

(٢) قد يكون ابو عبيد البكرى تكلم عن التقسيم إلى أقاليم وأثر ذلك فى أخلاق الناس وملكاتهم فى الجزء الأول من مسالكه الذى خصصه للمقدمات الجغرافية ، ولم يبق لنا من هذا الجزء إلا قطع قليلة أوردها ابن فضل الله العمرى فى الجزء الأول من مسالك الابصار .

(٣) كان أول من استعمل هذا المصطلح ا. ميلر فى مجموع الخرائط القيم الذى نشره تحت عنوان :
A. Miller, *Mappae Arabicae. Arabische Welt und Länderkarten* des 9.—13. *Jahrhunderts.* Bände I-V und Beihäfte. Stuttgart 1929-1930.
وقد جمع فيه كل الخرائط التى توجد فى كتب الجغرافية الاسلامية ورتبها مع شرح يسير ، وكلا الترتيب والشرح لا يخلوان من أخطاء .

وقد جعل ملر لفظ أطلس مرادفاً للفظ « صورة » الذى يستعمله الجغرافيون المسلمون فى مقابل ما نسميه نحن اليوم خريطة (انظر الاصطخرى ، ص ٣) واستعمل لفظ Mappemundi مقابلا لما يسميه المسلمون صورة الأرض . وقد ذهب ملر إلى أن أول من رسم الخرائط بين المسلمين هو أبو زيد أحمد ابن سهل البلخى المتوفى سنة ٣٢٢/٩٣٤ فقد وضع فى سن متقدمة كتاباً سماه « صور الأقاليم » ورجح ملر اعتماداً على إشارة للمقدسى فى فاتحة « أحسن التقاسيم » أن هذا الكتاب كان أطلساً ، أى مجموعة من الخرائط لا يصاحبها إلا نص قصير . وقد ضاع النص ولكن فقرات منه مع معظم الخرائط نقلها الاصطخرى وابن حوقل ، وإلى هذا يرجع التشابه اللفظى تقريباً بين كثير من فقرات فاتحة هذين الكتابين ، ويتضح من هذه الفقرات أن البلخى وضع أطلساً لبلاد الاسلام بالفعل ، فقد جاء فيما نقله الاصطخرى عنه : « ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيهـا شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج إلى علمه مما آتى على ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى » (ص ٣) .

وانظر ما ذكره كرامرز عن « أطلس الاسلام » فى مادة جغرافية . ملحق دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الأولى) ص ٧٠ ، والمراجع الوافية المعطاة فى آخر هذه المادة (ص ٦٨) ونشير بصفة خاصة إلى كتاب :
Ahmet Zeki Walidi, *Der Islam und die geographische Wissenschaft. Geographische Zeitschrift*, 1934.

ب — أوصاف الفينيقيين واليونان والرومان لشبه الجزيرة (١)

وقد كتب اليونان والرومان عن شبه الجزيرة كثيراً ، ولا يعنينا هنا مما كتبوه إلا ما يتصل بالنقط التى أفاد المسلمون منهم فيها ، أى ما يتصل بهيئة شبه الجزيرة ومسافاتها . أما ما ورد عند أولئك المؤلفين من إشارات إلى المدن والأعلام الجغرافية فسنذكر ما تمس إليه الحاجة منه فى تعليقاتنا على نص جغرافية شبه الجزيرة الإيبيرية لأحمد بن محمد الرازى التى نرجو أن يتسع المجال لنشرها بعد الفراغ من هذا البحث .

يصف معظم كتاب اليونان والرومان إيبيريا بأنها شبه جزيرة Χερσόνησος أو شبه جزيرة تتسع كلما سرنا نحو الجنوب ακρα أو ακτή كما نجد عند إراتوسثينيس ، واكتفى بلينيوس بالقول بأنها رأس كبير بارز من أوربا يربطه بها برزخ ضيق Sinus Europae ، وأن هذا الرأس يبرز بين خليجى بسكاية وجنوا . وقد أخذ بهذا الرأى الأخير باولوس أوروزيوس الذى كتب أيام القوط ولكنه سمى شبه الجزيرة رأس أقطانية Sinus Aquitanicus .

ويسمى استرابون الجزء الضيق الذى يصل شبه الجزيرة بالقارة الأوروبية — وهو الذى تقطعه جبال البرت من طرف لطرف — بالبرزخ ισθμός ، ويصفه مارسيانوس بأنه عنق αὐχήν . وهذا الوصف يقوم على ما كانوا يتصورونه من أن شبه الجزيرة إنما هو بمثابة الرأس لبدن القارة الأوروبية .

وقد صور بعض هؤلاء القدماء شبه الجزيرة على أنه مربع أى يستوى طوله مع عرضه ، وقدروا أن طوله وعرضه ٨٥٠ كيلومتراً . وتصوره بعضهم الآخر على أنه معيّن مقلوب ، ضلعه الأصغر فى الجنوب ، وجعلوا الضلع الأعلى

---

(١) اعتمدت فى هذا الفصل على :
Adolf Schulten, *Iberische Landeskunde Geographie des Antiken Spanien.* Band I (Strasbourg / Kehl, 1955). SS. 12 sqq.

(الكبير) يمتد من رأس أورتِجَال[١] إلى رأس بِيَار[٢] ، أما الضلع الأسفل — الأصغر — فيمتد من رأس سان فيثنتى[٣] إلى رأس غاطه[٤] . ومنهم من جعلها فى هيئة المخمس .

وذهب افيينوس Avienus ثم بطليموس إلى أن الساحل الشرقى لاسبانيا ينتهى عند رأس غاطة هذا ، أى إلى الشمال قليلا من المرية ، ومن هذا الموضع يتجه الساحل من الشرق إلى الغرب حتى رأس جبل طارق الذى قالا إن عنده أعمدة هرقل . ولكن نفراً من القدماء قالوا إن الساحل الشرقى يصل إلى أعمدة هرقل ، وهى عندهم موضع التقاء البحر الأبيض بالمحيط . وقالوا أن هذه الأعمدة تقع فى منتصف المسافة للراحل بالبحر من رأس بيار إلى رأس أورتيجال ، وجعلوا هذه المسافة ٦٠٠٠ استاديوم[٥] .

وجاء فى وصف الرحلة التى قام بها رجل يسمى مَسَّاليوس واحتفظ أفيينوس Avienus بقطع منه أن طول ساحل إيبيريا على البحر الأبيض (من رأس بيار إلى أعمدة هرقل) ٧٠٠٠ استاديوم ، تُقطع فى سبعة أيام بلياليها . وهذا التقدير أقل من التقدير السابق بألف استاديوم . وجعل ساحل المحيط (من

(١) رأس أورتجال هو الطرف الأخير للساحل الشمالى المطل على خليج بسكاية وهو غير رأس فنستر Cabo Finisterre (نهاية الأرض ، الذى قال العرب أن عنده الصنم المشبه بصنم قادس ، وهو عندهم الركن الثالث من أركان الجزيرة) وسماه أبو عبيد البكرى صنم جليقية (نفح ١/١٢٥) .

(٢) يقابل على وجه التقريب رأس باخور Cabo Bajur والعرب يجعلون بدلا من ذلك موضعاً يسمونه هيكل الزهرة وهو يقابل Port-Vendres الذى كان يعرف فى القديم باسم Portus Veneris .
انظر الروض المعطار ، ص ٢ ، وترجمة ليفى بروفنسال ص ٥ وهامش ص رقم ١
وتقويم البلدان لأبى الفدا ، طبعة م. رينو ودى سلين ، باريس ١٨٤٠ ص ١٨٢

(٣) يعرف عند العرب برأس كنيسة الغراب . وعند الرازى : هو الموضع الذى فيه صنم قادس المشهور بالأندلس . نفح ١/١٢٨

(٤) لم يشر العرب إلى هذا الركن الرابع ، لأنهم أخذوا بالرأى القائل بأن شبه الجزيرة مثلث كما سيجىء .

(٥) الاستاديوم Stadium مقياس رومانى للمسافات . والكيلومتر يساوى ٥,٤٣٢ استاديوم .

رأس أورتجال إلى الأعمدة) ٥٠٠٠ استاديوم . وجعل صاحب هذه الرحلة طول جبال البرت من شاطىء بسكاية إلى البحر الأبيض مسيرة سبعة أيام ، أى ٣٥٠ كيلومتراً (١) .

وحوالى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد قام ملاح يسمى بيثياس Pytheas برحلة على طول سواحل اسبانيا وصل فيها إلى الشاطىء الجنوبى لخليج بسكاية ، واستبان أن إيبريا فى الحقيقة شبه جزيرة لا تفصلها عن بقية أوروبا إلا جبال البرت ، وأن هذه الجبال تسير من الشرق إلى الغرب فى امتداد ساحل بسكاية ، وأن الإنسان يستطيع السير على الأرض من رأس أورتجال إلى رأس بيار . وقال إن طول الساحل الشرقى من رأس بيار إلى أعمدة هرقل ٦٠٠٠ استاديوم . ولكنه قال إن الساحل الجنوبى يصل إلى رأس روكا Cabo Roca أى إلى موضع الاشبونة الحالية . وجعل المسافة من أعمدة هرقل إلى رأس روكا ٣٠٠٠ استاديوم ، ومن رأس روكا إلى رأس أورتجال ٣٠٠٠ أخرى . وتابعه فى ذلك كله إيراتوثنيس ، غير أنه قسم المسافة من أعمدة هرقل حتى رأس روكا إلى قسمين : من الأعمدة إلى قادش Gades ٥٠٠ استاديوم ، ومن قادش إلى رأس روكا ٢٥٠٠

وابتداء من بوليبيوس يختفى هذا التصور السليم لشبه الجزيرة ومسافاتها الذى أقامه اليونان على تجارب الرحالة والحساب الهندسى . وبدلا من ذلك نجد صورة غريبة لشبه الجزيرة أهم معالمها ما يلى :

١ — أن الشاطىء الغربى لشبه الجزيرة يسير فى خط مستقيم من الشرق إلى الغرب ، أى أنه يصبح الشاطىء الشمالى ، وتختفى بهذا الحقائق السليمة الخاصة بخليج بسكاية وسواحله حتى الشاطىء الجنوبى لشبه جزيرة بريتانى .

---

(١) قدر ابن سعيد هذه المسافة بأربعين ميلا . نفح ١/١٢٧

٢ — أن جبال البُرت تسير من الشمال إلى الجنوب . وعلى هذا فهى تتعامد مع الساحل الشمالى فى رأى بوليبيوس ومن تابعه (الشمالى والغربى فى الحقيقة) .

٣ — وهو يسمى جبال البرت الناحية الشرقية لشبه الجزيرة ويجعل طولها ٣٠٠٠ استاديوم .

٤ — أما الساحل الشرقى (رأس بيار — أعمدة هرقل) فقد اعتبره ساحلا جنوبياً . جعل طوله ٩٥٠٠ استاديوم .

٥ — والساحل الشمالى يلتقى مع الساحل الجنوبى عند أعمدة هرقل . أى أن شبه الجزيرة أصبح فى هيئة المثلث الطويل الممتد برأسه ناحية الغرب .

وعن بوليبيوس أخذ هذا التصور من جاء بعده مثل ابيانوس Appianus وأرتيميدور Artimidor وفارو Varro وإن اختلفوا فى موضع رأس المثلث ، فبعضهم قال إنه رأس سان فيثنتى (ابيانوس وأرتيميدور) ، وبعضهم الآخر قال إنه رأس روكا (فارو) . وهذا الأخير يسمى رأس روكا البروز الأعظم Promentium Magnum ، وقال إن جزء الساحل الممتد من رأس روكا إلى قادش هو جبهة اسبانيا Frons Hispaniae . وجعل طول الساحل الشمالى ١٢٥٠ ميلا ، وطول الساحل الجنوبى ١١٨٢ ميلا . ومعلوماته عن سواحل اسبانيا تقف عند رأس روكا .

وعن بوليبيوس أيضاً أخذ اسطرابون هذه الصورة لشبه الجزيرة مع تعديل واضح يبدو أنه أخذه عن بوزايدينيوس : جعل الساحلين الشرقى والجنوبى لشبه الجزيرة ساحلا واحداً يمتد من الشرق إلى الغرب ، أى من رأس بيار إلى أعمدة هرقل ، ومن هناك يطلع إلى الشمال ما يسميه بالساحل الغربى . أما الساحل الشمالى فيجعله أقصر من الجنوبى . أى أن شبه الجزيرة عنده مستطيل ممتد إلى الغرب فى البحر قاعدته إلى الجنوب ، وضلعه الشرقى (جبال البرت) أقصر من ضلعه الغربى المطل على المحيط .

والصورة التى يرسمها ميلا Mela لشبه الجزيرة أصح من صورة اسطرابون فهو يذكر خليج بسكاية وشبه جزيرة بريتاني، ويبدو أنه أخذ ذلك عن بوزايدنيوس الذى اعتمد على فارو، ولكنه يتمسك بأن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب. والساحل الغربى يسير موازياً له، ولكنه لا يبدأ عند أعمدة هرقل أو رأس سان فيثنتى وإنما عند رأس الطرف الأغر. وهو يسمى الزاوية الشمالية الغربية برأس الكلت Promontium Celticum.

وتصور بطليموس شبه الجزيرة فى هيئة مربع يكاد يكون ضلعاه الشمالى والغربى على استقامة واحدة، رؤوسه الأربعة رأس بيار ورأس غاطة ورأس سان فيثنتى ورأس ناريجه Nariga (بدلا من رأس أورتجال)، وهيئته العامة نتيجة لذلك أقرب إلى المثلث، وهو يجعل جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب، أى أن بطليموس عاد إلى التصور السليم الذى رأيناه عند بيثياس وايراتستينس، وإن كان الذين أتوا بعده فهموا كلامه على أنه تصوير لشبه الجزيرة فى هيئة المثلث.

جـ — كتب هروشيش

ثم نصل إلى أوروزيوس Horosius الذى عرف العرب كتاباته وأخذوا عنه وسموه باسمه هُروشِيُشْ[١]، وكان راهباً شاهد دخول قبائل السُّوِيف اسبانيا واستقرارهم فى غربها، ثم فر خوفا منهم إلى افريقية سنة ٤١٥ ميلادية، وهناك لقى القديس أوغسطين، فنصحه هذا بالذهاب إلى بيت المقدس، حيث اشترك فى النزاع المذهبى الذى كان يفرق أهل الكنيسة المسيحية شيعاً، وقد أخذ جانب القديس جيروم الكاتب المسيحى الأشهر. وفى بيت المقدس أخذ يكتب بادئا برسالته المسماة كتاب المديح Apologeticus Contra Pelagium فى نقض مذهب

(١) يسمى عادة باولوس أوروزيوس، ولكن الحقيقة أننا لا نعرف اسمه. أما باولوس فقد وضعه بعض العلماء تفسيراً لحرف .P الذى كان يسبق اسم أوروزيوس، والمراد به فى الحقيقة Presbiter وهى مرتبة من مراتب القسس، وقد عربه الأندلسيون إلى برشبتر.

بالأَجْيُوس ، فحنق عليه القساوة واضطر إلى الانزواء خوفا منهم . ثم عاد إلى اسبانيا . ويبدو أنه مر بافريقية ولقى أوغسطين مرة أخرى ، وكان هذا قد فرغ من كتابه « مدينة الله » ، وقرأه هروشيش وأعجب بما قاله من أن ما أصاب الامبراطورية الرومانية من التفكك والاضطراب إنما هو عقاب من الله سبق أن أنزل مثله بأمم سابقة انحرفت عن الطريق السوى ، وقرر أن يكتب كتابا يتوسع فيه فى هذا الرأى ويفصله تفصيلا . فكتب كتابه الذى يعرف عادة باسم تواريخ أوروزيوس وعنوانه الكامل :

«Adversus Paganos Historiarum Libri Septem»

أى « كتب التواريخ السبعة فى الرد على الوثنيين » وهو ذيل على « مدينة الله » ، وخاصة الجزء الثالث منه المتعلق بالتاريخ . وهو تاريخ للدنيا منذ آدم إلى سنة ٤١٦ ميلادية ، ألفه فى سنة ونصف معتمداً على « مدونة أُوزِيب » وكتابات تيتوس ليفيوس ويوليوس قيصر وتاسِيتُوس ويُوسْتِينُوس وغيرهم . واعتمد بعد ذلك على نفسه فيما يتصل بأحداث أيامه وما سبقها بقليل .

وقد لقى كتاب هروشيش إقبالا شديداً ، وأثنى عليه معاصروه ثناء عظيما ، وأصبح معتمد الناس فيما بعد فيما يكتبون عن تاريخ العصور القديمة ، وبلغ من ذيوعه أن عدد مخطوطاته الباقية إلى اليوم يزيد على مائتين ، منها ما كتب فى القرنين السادس والسابع . وفى العصور الحديثة طُبع أصله اللاتينى أو مترجماً إلى اللغات الأوروبية مرات كثيرة . وهو يعتبر أول تاريخ عالمى كتب من وجهة النظر المسيحية ، وهو يشيد فيه بجامعة الثقافة الرومانية والعقيدة المسيحية التى تضم المسيحيين جميعا ، وهو يتابع القديس أوغسطين فى القول بأن عظمة روما إنما قامت على تعاسة بقية بلاد الدنيا ، ويفخر بأن اسبانيا قاومت الرومان مائتى سنة[1] .

---

(١) Juán Hurtado, J. de la Serna y González Palencia. *Historia de la Literatura Española* (6ª edición, Madrid 1949), p. 14.
Justo Pérez de Urbel. *Las Letras en la Epoca Visigoda en Historia de España;* dirigida por Ramón Menendez Pidal, vol. III *España Visigoda*, pp. 382--387.

لا غرابة والحالة هذه أن يجد العرب عند دخولهم ذكر هذا الرجل وكتابه على كل لسان ، وأن يطلع الكثيرون منهم على ما فيه عن طريق بعض نصارى الأندلس الذين استعربوا أو دخلوا فى الإسلام ، وكان الكثيرون منهم يعرفون اللاتينية ، أو يستطيعون على الأقل أن ينقلوا إلى إخوانهم جُملا من كلام هذا المؤرخ الكبير . وإذا كان كتّاب المسلمين لم يجدوا شيئا ينقلونه عنه فيما يتصل بتاريخ الشرق القديم ، فقد كانت لديهم أصول شرقية عربية أخرى ينقلون عنها فى هذه الناحية ، فإنه لم يكن لهم مفر عن الأخذ عنه فيما يتعلق بتاريخ الدولة الرومانية وتاريخ اسبانيا . ومن هنا فقد أخذوا عنه معلومات طيبة عن تاريخ الرومان وتلك اللمحات القليلة الاسطورية الطابع التى نجدها عندهم عن الأمم التى حكمت اسبانيا قبل الإسلام ، وعن آراء الأقدمين فى صفة شبة الجزيرة ثم ما أضافه هو نفسه إلى هذه الآراء .

ويعنينا هنا كلامه عن جغرافية الجزيرة ، فقد قال إن هيئتها ذات ثلاثة أركان ، أحدها فى الشرق عند بيار والثانى عند بِرْغَنْسِيه (بريجانتيوم Brigantium) فيما يعرف اليوم بكورونيا ، والثالث فى الجنوب عند قادش . وقال إن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب تقريبا ، أى أننا نجد عنده نفس الخلط بين الصحيح وغير الصحيح الذى وجدناه عند اسطرابون وبطليموس[1] .

وقد أخذ الجغرافيون الأندلسيون عن هروشيش هذه الآراء المتصلة بهيئة شبه الجزيرة وثبتوا عليها ، ثم أضافوا ما تجمع لهم من مادة جغرافية سليمة دقيقة مبنية على الخبرة والرحلة والمشاهدة . ونجد هروشيش مذكوراً باسمه فى مؤلفاتهم وخاصة عند العذرى والبكرى وابن خلدون ، وربما يكون الرازى قد أشار إليه

---

(١) اعتمدت فى هذا العرض على ما أورده شولتن فى كتاب :

Adolf Shulten, *Iberische Landeskunde. Geographie des Antiken Spanien* (Band I, Strasbourg—Kehl 1955) SS. 1-21.

وهذا الكتاب يورد بأكمل تفصيل ما أجمله اليمانى بولوفر فى بحثه المعروف :

Alemany Bolufer, J., *La Geografía de la Península Ibérica en los textos de los escritores griegos y latinos.* Separata de la Revista de Archivos, Bibliotecas y Museos. Madrid, 1911.

إلا أن جغرافيته التى استطعنا جمع أشتاتها من مختلف الأصول إنما هى مختصر لكتابه المطول . ولم يعن الجغرافيون والمؤرخون المسلمون بتصحيح هذه الآراء ، لأنهم كانوا يجعلونها فى مقدمات كلامهم عن صفة الجزيرة على اعتبار أنها معلومات عامة غير داخلة فى صلب الجغرافية . والسبب فى ذلك أنهم ألَّفوا فيها على مذهب البلدانيين والمسالكيين ، تعنيهم البلاد وأوصافها والأقاليم وما فيها والمسافات وأطوالها . وفى هذا المجال كانوا فى غنى عن النقل عن غيرهم ، فقد كانوا أهل البلاد يعيشون فيها ويذرعونها طولا وعرضا .

وجدير بالملاحظة أن الهيئة المثلثة البطليموسية لشبه الجزيرة كانت توافق تصورهم العام لشبه الجزيرة ، وتؤيدها تجارب الملاحين الذين كانوا يتنقلون بسفنهم بين موانى شبه الجزيرة وما يقابلها من موانى المغرب . وسنلاحظ عند كلامنا عن جغرافية البكرى كيف أن أولئك الملاحين كانوا يعتقدون أن موانى المغرب (حتى بجاية) تقابل موانى شرق اسبانيا (حتى طركونة) ، ومن هنا تأكد لديهم صدق النظرية البطليموسية فى توازى الساحلين ، ونتيجة لهذا ثبتوا على القول بأن جبال البرت تسير من الشمال إلى الجنوب .

٢ — التراث الجغرافى للأندلس

لا نستطيع أن نكتب تاريخاً لعلم الجغرافية عند الأندلسيين إلا معتمدين على تجميع مُجْهِدٍ لما نُقِلَ من المؤلفات الأولى فى المراجع التى وصلت إلينا ، لأن الذى وصل إلينا كاملا من مؤلفاتهم فى هذا الباب جزء ضئيل . وقد يدهش القارىء إذا قلنا إننا لا نملك — باستثناء الإدريسى — كتاباً واحداً كاملا ألفه أندلسى فى جغرافية الأندلس فى لغته العربية . فأما جغرافية الرازى فليس لدينا من نصوصها الكاملة إلا ترجمات مقتضبة محرفة إلى البرتغالية والاسبانية ومختصرات عربية لها وصلتنا قطعاً متناثرة فى ثنايا الكتب ، وسنحاول إثبات هذا النص اعتماداً على هذه المختصرات والنقول إذا اتسع المجال . أما

كتبه الأخرى فإما اختفت كاملة أو بقيت لنا منها شذرات قليلة ، وكتاب « الجغرافية » لمحمد بن أبى بكر الزّهرى لا نملك منه إلا قطعة صغيرة نظن أنها جزء من مختصر من الكتاب الأصلى ، وكتاب « نظام المرجان » لأبى عمر أحمد بن يوسف الدلائى لم نجد منه إلا قطعا أعدها للنشر ضمن مطبوعات هذا المعهد الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، ومؤلفات محمد بن يوسف الوراق اختفت هى الأخرى إلا من نقول وردت متفرقة فى أصول شتى ، وليس لدينا من صفة الأندلس لأبى عبيد البكرى إلا أوراق قليلة ، وما لدينا من كتابى اليسع ابن موسى بن عبد الله بن اليسع وأبى بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بالنظام لا يعدو فقرات قليلة فى « نفح » المقرى ، أما كتاب الروض المعطار فمعجم جمعه صاحب محمد بن عبد المنعم الحميرى فى الزمن المتأخر ، وهو لا يعتبر كتاب جغرافية أو بلدان من الطراز الذى ننشده ، والكتاب الوحيد الذى لدينا فى وصف الأندلس هو القسم الخاص بهذا البلد من جغرافية الادريسى وسنتحدث عنها فى موضعها .

وهذا هو كل ما لدينا من الانتاج الجغرافى الغزير لأهل الأندلس ، وهو انتاج لا يقتصر على جغرافية الأندلس بل كان الكثير منه كتباً واسعة فى الجغرافية العامة ، وسنرى بعد قليل أن « نزهة المشتاق » للادريسى إن هو إلا تتويج لجهود كثيرة سابقة وتجميع طيب لمادة غزيرة قامت على تقليد أندلسى عريق فى التأليف الجغرافى . وليس ذلك بغريب فقد كان الأندلسى بطبعه رحالة طلعة ذكياً يحب أن يرى بنفسه ويختبر بمشاهدته ، وسنرى شواهد ذلك كله عندما نتحدث عن جغرافييهم واحدا واحدا .

ولا شك أن الأندلسيين كتبوا الكثير فى وصف بلدهم ، فعلاوة على الكتب التى ذكرناها ، لابد أن نحسب كتب التاريخ أيضا ، ما وجدناه منها وما لم نجده بعد ، لأن التاريخ لم ينفصل عن الجغرافية فى المفهوم الاسلامى إلا نادرا كما قلنا ، وفى الأندلس بالذات لا نجد جغرافيا إلا وجدناه مؤرخا فى

نفس الوقت ، والرازى الذى سنرى أنه أبو الجغرافية الأندلسية هو أبو التاريخ الأندلسى أيضا .

وإذا نحن تركنا جانبا كتب التاريخ الأندلسى العام[1] أو التى كتبت فى تاريخ عصر بعينه أو دولة أو ناحية معينتين ، وجدنا أمامنا حشداً من المؤلفات عن تاريخ شتى نواحى الأندلس وبلادها أو تاريخ الأدب والأدباء والفقهاء فيها ، وهذه الكتب تبدأ دائماً بفصول طويلة عن جغرافية هذه النواحى كما نرى فى الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ، ومن هنا فنحن حريون بأن نعد هذه الكتب فى الحصاد الوافر الذى كتبه أهل الأندلس فى هذا الباب ، وفيما يلى بعض أسامى هذه الكتب ومؤلفيها نذكرها على سبيل المثال لا الحصر :

قاسم بن سعدان (ت ٩٥٨/٣٤٧) تاريخ فقهاء ريه .

عمر بن عبيد الله بن يوسف الزهراوى (٣٧٠—٩٨١/٤٥٤—١٠٦٢) : تاريخ قرطبة .

مطرف بن عيسى الغسانى (ت ٩٨٧/٣٧٧) : المعارف فى أخبار كورة إلْبيرة وأهلها وفوائدها وأقاليمها وغير ذلك من منافعها .

أبو الأصبغ عيسى بن محمد (ت ١٠١٢/٤٠٣) : تاريخ فقهاء إلبيرة .

اسحاق بن سَلَمة الليثى (عاش أيام الحكم المستنصر) : أخبار رَيُّه وحصونها وولاتها وفقهائها وشعرائها . وكتاب أخبار الأندلس .

عبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجارى (النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ، والنصف الأول من القرن السادس الهجرى/الثانى

---

(١) لدينا على الأقل أسماء ستة ألف كل منهم تاريخا عاما للاندلس وهم : احمد بن موسى العروى وأحمد الحجام وابن الحكيم الرندى وعيسى ابن أحمد الرازى وأبو الوليد الفرضى ومحمد بن مزين .

عشر الميلادى) : مغناطيس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار .

احمد بن عبد الرحمن بن المطاهر الأنصارى (ت ٤٨٩/١٠٩٥) : تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها .

محمد بن عبد الواحد بن ابراهيم بن مفرج الملاحى (٥٤٩—٦١٩/١١٥٤—١٢٢٢) : تاريخ علماء إلبيرة وكتاب انساب الأمم والعرب والعجم المسمى بالشجرة .

ابن المواعينى ، محمد بن ابراهيم بن خَيره (ت ٥٦٤/١١٦٨) : تاريخ غرناطة .

أبو المطرف بن احمد بن عبد الله بن عميرة (٥٨٠ أو ٥٨٢—٦٤٨ أو ٦٥٦ أو ٦٥٨/١١٨٤ أو ١١٨٦—١٢٥١ أو ١٢٥٨ أو ١٢٦٠) : كتاب فى كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها .

أبو عبد الله محمد بن على بن خضر المالكى المعروف بابن عسكر (٥٨٤—٦٣٦/١١٨٨—١٢٣٨) : تاريخ مالقة أو الاكمال والاتمام فى صلة الأعلام من أهل مالقة الكرام .

ابن حمامة (من أهل القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى) : تاريخ لوشة .

ابن الحاج البلفيقى ، أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم (ت ٧٧٤/١٣٧٢) : تاريخ المرية وبجانة .

وغيرها كثير ، ونضيف إليها كتبا مثل « تاريخ بنى الطويل » و « كتاب فى أصحاب المعاقل والأجناد الستة بالأندلس » وكلاهما نجهل مؤلفه ، ثم كتاب « تاريخ المنتزين والقائمين بالأندلس » لابن فرج الجيانى وما شاكلها ، وما ضاع من كتب الجغرافيين والمؤرخين الذين سنلم بذكرهم . وهو كثير أيضا .

والخلاصة أن الحصاد الجغرافى فى الأندلس كان وافرا غنيا ، وإننا إذ نعرض تاريخ هذا العلم فى ذلك القطر معتمدين على ما لدينا فحسب إنما نعرض جانبا صغيرا مما ألفوه . والغالب أن ما ندَّ عنا أكثر مما أحصيناه . ولا بد أن نقرر ذلك ، فقد يظهر فى مقبل الأيام من الكتب ما يعين غيرنا على استكمال البحث بصورة أوفى .

٣ — ميلاد التأليف فى الجغرافية فى الأندلس

ليس لدينا ما يدل على أن أحدا من أهل الأندلس كتب فى البلدان قبل احمد بن محمد الرازى . وليس لدينا كذلك ما يفيد أن شيئا مما كتبه المشارقة فى هذا الباب دخل الأندلس فى زمن مبكر ، ونحن نجد فى فهرسة ابن خير ذكرا لطائفة من المؤلفات المبكرة فى التاريخ مثل مغازى ابن عقبة ومغازى ابن اسحاق ، ولا نستبعد لهذا أن يكون الأندلسيون قد عرفوا بعض الكتابات الجغرافية الأولى مثل كتاب « البلدان الكبير » وكتاب « البلدان الصغير » وكتاب « الأنهار » وكتاب « الأقاليم » وما إليها مما ألفه أبو عبيدة السَّكونى والحسن الهمدانى وأبو الاشعث الكندى وغيرهم من أصحاب البواكير فى التأليف الجغرافى فى المشرق ، فقد كانت هذه كلها مراجع ينتفع الناس بها فى تفسير القرآن وفهم الأحاديث وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم[١] . ونقول هذا لأننا نجد أبا بكر بن خير يذكر فى فهرسته رسائل من هذا الطراز كانت تقرأ فى الأندلس مثل كتاب الأنواء وكتاب النبات وكتاب القبلة لأبى حنيفة الدينورى وكتاب المعارف وكتاب الانواء لابن قتيبة[٢] ومن الملاحظ بصفة عامة أن أصحاب كتب

(١) اقرأ عن هؤلاء : بهجة الاثرى : الجغرافيا عند المسلمين ، مجلة المجتمع العلمى العراقى ، سنة ١٩٥٢ والمراجع الواردة هناك .

(٢) فهرسة ابن خير ص ٣٧٦ و ٣٧٧

التراجم يهملون ذكر كتب الجغرافية والعلوم ، لأنها لم تكن فى حسابهم مؤلفات تؤيد مركز العالم ، ويكفى أن نذكر المواد التى لدينا فى معاجم الترجمة الأندلسية لا تذكر شيئا عن جغرافية البكرى أو مؤلفات ابن رشد الفلسفية .

وقد كتب عبد الملك بن حبيب فى كتاب « مبتدأ خلق الدنيا » المعروف بتاريخ ابن حبيب شيئاً فى الجغرافية ، ولكن كتابته فى هذا الفن تدخل فى باب « العجائب » الذى سيكثر فيه نفر من الجغرافيين ، وواضح من كتابته أنه أخذ ما كتبه فى هذا الباب عن المشرقيين والمصريين منهم خاصة ، ومن الغريب أنه وهو أندلسى يكتب عن بلده يصوره وكأنه مجمع أعاجيب وغرائب لا تصدق(١) .

وقد أثبت الدكتور مكى فى دراسته عن « مصر وأصول التاريخ فى الأندلس » أن القسم الطويل الذى يدور حول حياة موسى بن نصير من كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة مأخوذ من تأليف لمصرى أندلسى الأصل هو معارك بن مروان حفيد موسى بن نصير ، وفى هذا الجزء إشارات جغرافية لا بأس بها وإن كانت من باب العجائب أيضاً :

١ — محمد بن موسى الرازى

ولكن أول من أُثر عنه التأليف فى التاريخ مع جانب من الجغرافية هو محمد بن موسى بن بشير بن جناد بن لقيط الكنانى الرازى الذى يقول عنه ابن الأبار فى التكملة « والد أبى بكر أحمد بن محمد صاحب التاريخ ، غلب

---

(١) راجع عن ذلك مقال الدكتور محمود على مكى :
Egipto y los Orígines de la Historiografía Arábigo-Española.
صحيفة معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد . المجلد الخامس سنة ١٩٥٧ ص ١٥٧ وما بعدها من القسم الافرنجى . وانظر النموذج الذى نشره الدكتور مكى ذيلا على هذا المقال من كلام عبد الملك ابن حبيب ، وخاصة ابتداء من الفقرة ١٧ ص ٢٢٧ وما بعدها .

عليه اسم بلده ، وكان يفد من المشرق على ملوك بنى مروان تاجرا ، وكان مع ذلك مفتنا فى العلوم ، وهلك منصرفه من الوفادة على الأمير المنذر بن محمد بإلبيرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣ (اكتوبر ٨٨٦) ذكره ابن حيان »[١] .

وقد أورد محمد بن عبد الوهاب الغسانى سفير مولاى اسماعيل إلى كارلوس الثانى ملك اسبانيا فى كتاب « رحلة الوزير فى افتكاك الأسير » اشارة عظيمة الفائدة عن كتاب اسمه «كتاب الرايات» ألفه محمد بن موسى الرازى ، قال : « قال محمد بن مُزَين : وجدت فى خزانة باشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربع مائة ، أيام الراضي بن المعتمد ، سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازى سماه بكتاب الرايات ، ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نصير ، وكم راية دخلت الأندلس معه من قريش والعرب ، فَعَدَّهَا نيفا وعشرين راية ، منها رايتان لموسى بن نصير ، عقد له إحداها الأمير عبد الملك بن مروان على افريقية وما وراءها ، والأخرى عقدها له أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك على افريقية أيضا وما يفتحه وراءها إلى المغرب ، وراية ثالثة لابنه عبد العزيز الداخل معه ، وسائر الرايات لمن دخل معه من قريش ومن قواد العرب ووجود العمال ، وذكر فيه سائر البيوتات ممن دخل دون راية » ثم قال بعد ذلك : « . . . فقيل إن اجتماعهم لهذا المشهد الكريم كان فى الموضع الذى كان فيه مسجد الرايات فى الجزيرة الخضراء ، وأنه باجتماع الرايات فى ذلك اليوم سمى ، وبها سَمَّى الرازى كتابه . وقال إن موسى بن نصير رحمه الله لم يبرح موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجدا[٢] » .

---

(١) ابن الأبار ، التكملة ، ترجمة رقم ١٠٤٨ ص ٣٦٦

(٢) رحلة الوزير فى افتكاك الأسير لمحمد بن عبد الوهاب الغسانى بتحقيق الفريد البستانى (منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو) تطوان ١٩٣٩ وقد نشر هذه الفقرة جايانجوس فى ترجمته الأنجليزية لفصول من نفح الطيب المعروفة باسم :
History of the Muhammedan Dynasties in Spain.
(ج ١ ص ٣١٤) وعنه أخذها يونس بويجيس ص ٤٥ — ٤٧

وفى نبذة قصيرة عن محمد بن موسى الرازى يكرر المقرى نفس المعلومات التى أوردها ابن الأبار نقلا عن المقتبس لابن حيان[١] .

وإذن فقد كان أول من دخل الأندلس من بيت الرازى تاجراً سَفَّاراً يتردد بتجارته بين المشرق والأندلس ، وكان إلى جانب ذلك ذا علم وأخبار ومعارف تؤهله لصحبة الملوك والوزراء ، فأصبح من جملة رجال الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، فصار يعهد إليه فى مهام كبيرة ، فبعثه فى الوفد الذى ذهب للتوفيق بين العرب والمولدين عندما وقعت الفتنة الكبيرة بينهم ، وقد توفى وهو عائد من هذه المهمة فى بلدة إلبيرة فى شهر ربيع الآخر سنة ٢٧٣/ ٨٨٦ اكتوبر أيام الأمير المنذر .

وهذه الفقرة التى أوردناها من كتاب محمد بن موسى الرازى تدل على أنه اشتغل بالتأليف ، وأن من آثاره كتاب الرايات هذا الذى نعتبره كتاب تاريخ وجغرافية فى آن واحد ، فإن ذكر القبائل التى دخلت الأندلس مع موسى « من قريش ومن قواد العرب ووجوه العمال وذكر سائر البيوتات ممن دخل دون راية » عظيم القيمة بالنسبة للجغرافية البشرية للأندلس ، ولا شك فى أن ابنه احمد بن محمد انتفع بهذه المعلومات فيما كتب عن جغرافية الأندلس وتاريخه . ولا شك كذلك فى أن المعلومات الطبية التى يوردها ابن حزم فى جمهرة انساب العرب عن القبائل والبيوت العربية التى دخلت الأندلس ، وكذلك البيان الذى يورده ابن غالب فى فرحة الأنفس وأورده المقرى فى نفح الطيب عن منازل العرب فى الأندلس ، إنما يرجع الفضل فيها إلى ما دونه محمد بن موسى فى هذا الكتيب الذى ذكره محمد بن مزين .

---

(١) نفح الطيب (طبعة محي الدين) : ٤/١٠٨

ب — قاسم بن أصبغ البيانى وترجمة كتب هروشيش

وقبل أن نتحدث عن أحمد بن محمد الرازى لا بد أن نقف هنا وقفة قصيرة عند استاذه قاسم بن أصبغ البيانى ، فسنرى أنه صاحب فضل كبير فى توجيه الناس إلى التأليف فى التاريخ والجغرافية فى الأندلس إلى جانب دوره العظيم فى تطور علوم الدين واللغة فى الأندلس ؛ وهو من رجال جيل فريد من علماء الأندلس عاش خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى والنصف الأول من القرن الرابع ، وعاصر العصر الذهبى الأندلسى ، عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، جيل جليل نقل الأندلس بعمله وجهده وإخلاصه للعلم من دور النقل والتبعية إلى دور الإبداع واستقلال الشخصية ، بل إلى القيادة فى كثير من نواحى المعرفة . ورجال هذا الجيل هم الذين وسعوا نطاق العلم والمعرفة فى الأندلس ، فلم تقتصر عنايتهم على علوم الدين من قرآن وحديث وفقه ، بل شمل اهتمامهم الأدب والتاريخ وتراجم الرجال والجغرافية والفلسفة والطب والنبات وعلوم الأوائل أيضا . ومعظم رجال هذا الجيل من أصحاب الرحلات الطويلة إلى الشرق ، رحلات البحث والطلب والسماع على الشيوخ فى شتى نواحى العالم الاسلامى ، وانتساخ أمهات الكتب والعودة بها إلى الأندلس ونشرها بين أهله . ومن أعلام هذا الجيل محمد بن عاصم المعروف بالأقُشتين (ت ٣٠٧/٩١٩) الذى يوصف بأنه كان « متصرفا فى علم الأدب والخبر » وهو أول من ألف فى طبقات الكتاب فى الأندلس ؛ وعثمان بن ربيعة (ت ٣١٠/٩٢٢) وهو صاحب كتاب فى طبقات الشعراء فى الأندلس ؛ وأبو عبد الله محمد بن عمر بن لُبَابه (ت ٣٢٠/٩٣٢) الأديب الشاعر المحدث المؤرخ ، وهو أستاذ ابن القوطية ، وكان شيخ أهل الأدب فى عصره ؛ وأبو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الذى نقل فى « عقده » جانباً كبيراً من الثروة الأدبية المشرقية إلى الأندلس ، وقد طال عمره حتى عاصر خمسة من أمراء

الأندلس آخرهم عبد الرحمن الناصر ، وتوفى سنة ٩٣٩/٣٢٨ ؛ واحمد بن محمد ابن عبد البر (ت ٩٤٩/٣٣٨—٩٥٠) — وهو غير أبى عمر بن عبد البر — وقد ألف فى انساب العرب وفى تاريخ فقهاء الأندلس ، واعتمد عليه أبو الوليد الفرضى فى كتابه « تاريخ علماء الاندلس » المعروف وغيرهم كثيرون .

وقاسم بن أصبغ البيانى من أعلام هذا الجيل فقد ولد فى ٢٠ ذى الحجة سنة ٢/٢٤٤ نوفمبر ٨٥٩ فى بلدة بيانة من أعمال قرطبة وعمّر ستا وتسعين سنة هجرية « وخمسة أشهر غير ستة أيام » كما يقول أبو الوليد الفرضى ، فكانت وفاته فى ١٥ جمادى الأولى سنة ٢٠/٣٤٠ اكتوبر ٩٥١ أيام الحكم المستنصر . رحل قاسم فى شبابه رحلة طويلة إلى المشرق فسمع من أعلام العصر فى مصر والحجاز والشام والعراق ، واهتم اهتماما خاصا بالتاريخ ، فسمع من أحمد بن زهير بن حرب المعروف بابن أبى خيثمه « تاريخه » الذى ألفه فى رجال الحديث والأسانيد على غرار التاريخ الكبير للبخارى ، واتصل بعبد الله بن مسلم بن قتيبة وسمع منه كثيرا من كتبه ، ومعظمها تاريخ وجغرافية وأنساب وأدب ومعلومات شتى ، وسمع من احمد بن يحيى بن يزيد المعروف بثعلب ومن محمد بن يزيد المبرد وغيرهم من أئمة اللغة والنحو ، ولم يفته أن يسمع فى القيروان من محمد بن يزيد المعلم وبكر بن حماد التاهرتى الشاعر « فى عدة سواهم وهم كثير ممن أذكرهم فى الكتاب الكبير الذى أؤمل جمعه على المدن واقتصاهم فيه إن شاء الله » . وانصرف قاسم بن أصبغ إلى الأندلس بعلم كثير ، ومال الناس إليه فى تاريخ احمد بن زهير بن حرب (ابن أبى خيثمه) وكتب ابن قتيبة ، وكانت الموردة عليه فى هذه الكتب دون صاحبيه محمد بن أيمن وابن أبى عبد الأعلى ، وسمع منه كثيرا من هذه الكتب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد (الناصر) قبل ولايته الخلافة ، ثم سمع منه ولى عهده الحكم رحمه الله وأخوته ، وطال عمره فسمع منه الشيوخ والكهول والأحداث ، ولحق الصغارُ الكبارَ فى الأخذ عنه . وكانت الرحلة فى الأندلس إليه ، وفى المشرق إلى أبى سعيد بن

الأعرابى ، وكانا متكافئين فى السن . وكان قاسم ابن اصبغ بصيرا بالحديث والرجال ، نبيلا فى النحو والغريب والشعر ، وكان يشاور فى الأحكام[1] » .

وليس فى هذا كله إشارة إلى اشتراك قاسم بن أصبغ فى ترجمة تاريخ هروشيُش ، وهو فى اعتبارنا من أهم ما أداه هذا العلامة الجليل من خدمات إلى الحركة العلمية فى الأندلس ، فإن هذه الترجمة وذيوعها بين أيدى الناس كانت نقطة البدء بالنسبة لعصر جديد من عصور التأريخ فى الأندلس من ناحية ، ونقطة البدء بالنسبة للتأليف الجغرافى من ناحية أخرى ، فإن كتاب هروشيش فى صورته العربية يبدأ بمقدمة جغرافية وافية يوجز فيها وصف المعمور على أيامه ، وقد اعتمد فيها على كثير من المؤلفات الإغريقية واللاتينية التى كانت فى متناول يده ، وهى مقدمة قصيرة بعض الشىء ولكنها دقيقة وافية بالغرض ، وفيها كلام عام عن جغرافية شبه الجزيرة الأندلسية ، وسنرى أنه مع إيجازه أصبح فيما بعد أساسا من أسس الوصف الجغرافى لشبه الجزيرة وهيأتها عند مسلمى الأندلس ، وسيزددونه جميعا من أحمد بن محمد الرازى إلى أحمد ابن محمد المقرى .

أما قصة ترجمة هروشيش إلى العربية فقصة طريفة تناولها بالبحث نفر من العلماء قدامى ومحدثين ، وقد اختصها المستشرق الإيطالى ج. ليفى دِلاَّ فيدا فى بحث مطول نشره فى مجـلة الأندلس (مجلد ١٩ سنة ١٩٥٤ عدد ٢ ص

(١) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس طبعة (كوديرا ، مدريد ١٨٩٠) رقم ١٠٦٨ ص ٢٩٧ . وانظر أيضا عن قاسم بن أصبغ : جذوة المقتبس للحميدى (طبعة محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥٣) رقم ٧٦٩ ص ٣١١ ، وبغية الملتمس للضبى رقم ١٢٩٨ ونفح الطيب للمقرى (طبعة محي الدين) ج ٢ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ ، والديباج المذهب لابن فرحون ص ٢٢٢ وبغية الوعاة للسيوطى (القاهرة ١٣٢٦) ص ٢٧٥ وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب للعماد الحنبلى (القاهرة ١٣٥٠) ج ٢ ص ٣٧٥ وكشف الظنون لحاجى خليفة (طبعة فلوجل ، لايدن) ج ١ ص ١٤٥٨ ويونس بويجيس رقم ١٩ ص ٥٩ وما يليها .

٢٥٧ — ٢٩٣) ، ونظراً لأهمية هذا المقال فقد رأيت أن أعرض ما يهمنا منه بخصوص هذه الترجمة مع ترجمة الفقرات الهامة وتعليقاتها [١] .

قال الاستاذ دلا فيدا انه لم يكن أول من تنبه إلى وجود مخطوطة للترجمة العربية لتاريخ هروشيش ، فقد سبقه إلى ذلك إجناس كراتشكوفسكى مع أن الشائع فى أوروبا انه هو الذى نبه إلى وجوده ، وقال انه رغب من زمن بعيد فى [٢] نشره ثم حالت الظروف دون ذلك ، قال : « إن باولوس أوروزيوس [٣] (هروشيش) « حجة العصور المسيحية » الذى قبس القديس أغسطين من لغته اللاتينية (دانتى ، الفردوس . النشيد العاشر . سطور ١١٩ —١٢٠) غير معروف كثيرا فى أيامنا هذه إلا فى أوساط الدارسين للتاريخ والأدب القديمين » بل إن هناك باحثين معروفين فى ذلك الميدان يجهلون اسم

---

(١) النسخة الوحيدة المعروفة لنا إلى الآن من الترجمة العربية لتاريخ هروشيش محفوظة فى مكتبة جامعة كولومبيا فى نيويورك تحت رقم .X, 993.712 H وهى مخطوطة جيدة تقع فى ١٢٩ ورقة . تنقصها بضع أوراق فى الأول إذ هى تبدأ عند جزء من الفهرس وينقصها جزء كبير فى آخرها ، لأنها تصل بالحوادث إلى سنة ٣١٣ ميلادية فى حكم قسطنطين الكبير امبراطور الدولة البيزنطية فى حين أن الأصل اللاتينى يصل إلى سنة ٤١٦ ميلادية . والمخطوطة مكتوبة بخط أندلسى واضح جميل ولكنها مصابة بقطوع كثيرة من فعل الأرضة وأوائل الكثير من الصفحات متآكل تعسر قراءته .

(٢) نشر فيليب حتى بحثا قصيرا عن مخطوطة تاريخ هروشيش فى :
Journal of the American Oriental Society, 59 (1939) p. 125.
وكتب كراتشكوفسكى بحثا عن نفس المخطوطة فى نفس المجلة مجلد ٥١ سنة ١٩٥١ ص ١٧١ — ١٧٢ ومجلد ٦٣ (سنة ١٩٤٣) ص ١٨٧ . وانظر أيضا :
Michelangelo Guidi: « *Roma e gli arabi* », in Roma, Revista di Studi e di Vita Romana, 20 (1942) 17—18.
O. A. Machado, *La Historia de los Godos según Ibn Jaldūn*, en *Cuadernos de Historia de España*, I—II (1944), 143—144.
C. Sánchez Albornóz: *San Isidiro, Rasis y « La Pseudo-Isidoriana »*, en *Cuadernos de Historia de España*, IV (1946), 73—113.

(٣) وانظر أيضا إشارة رامون منندذ بيدال إلى مكانة أوروزيوس فى تاريخ الثقافة فى العصر القوطى فى مقدمة المجلد الثانى من تاريخ اسبانيا العام الذى يشرف على إصداره ، المجلد الثانى (اسبانيا الرومانية) (مدريد ١٩٣٥) ص‌ص ٣٤ — ٣٨ من المقدمة ، والمجلد الثالث « اسبانيا القوطية » (مدريد ١٩٤٠) ص ٣٨٢ — ٣٨٦ (هذا القسم كتبه الأب Justo Pérez de Urbel) .

هروشيش ، وأن الترجمة الانجليزية التى صدرت منذ بضع سنوات لم تنفع فى تعريف الناس به أكثر مما نفعت الترجمة الانجليزية القديمة التى أمر بعملها الفريد الكبير ملك انجلترا فى القرن التاسع الميلادى[١]، أما فى العصور الوسطى فقد كان لتاريخ أوروزيوس المعروف باسم Historiarum Libri Septem adversos Paganos (كتب التاريخ السبعة فى الرد على الوثنيين) من الشهرة ما يزيد على أى كتاب آخر فى التاريخ العام . ومع أن هدفه لم يكن رواية الأخبار الماضية وإنما التدليل على أن الله هو المحرك الدائم لحوادث التاريخ ، إلا أن كتابه كان يُقرأ ويشرح على أنه مرجع تاريخى . ثم ان قيمته العامة من هذه الناحية قليلة إلا فيما يتصل بقسمه الأخير ، لأن عصرنا لم يعد يتذوق أسلوب الطعن الذى يجرى عليه ولا تلك السذاجة اللاهوتية التى يتسم بها تلميذ القديس أوغسطين . . » .

كان من المعروف منذ زمن طويل أنه توجد ترجمة عربية لهروشيش ، وهو الوحيد من بين مؤلفى اللاتين فى العصور القديمة الذى ترجمه العرب إلى لسانهم ، وهم من نعرف اهتماماً بترجمة كتب اليونان ؛ فقد أشارت إلى هذه الترجمة تواريخ الأدب اللاتينى[٢]. وإذا لم أكن مخطئاً فإن أول من أشار إلى

(١) قام بترجمة تاريخ أوروزيوس من اللاتينية إلى الانجليزية I. W. Raymond ونشرت الترجمة فى نيويورك سنة ١٩٣٦ (مطبعة جامعة كولومبيا) .

(٢) يقول سيمونيت فى كتابه « تاريخ مستعربى إسبانيا » (مدريد ١٨٩٧ — ١٩٠٣) ص ٤٧ من المقدمة — دون أن يذكر المراجع التى استند إليها — إن بعض ما كتبه Colomella فى الزراعة ترجم إلى العربية ، ولم أعثر على خبر يؤكد ذلك . وبمناسبة الترجمة العربية لهروشيش أبلغنى صديقى الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب أن لديه مخطوطة تشبهها ، وتفضل فأرسل إلى صورتها الفوتوغرافية . وأصل هذه المخطوطة محفوظ فى مكتبة جامع سيدى عقبة فى القيروان ، وبعض أوراقها اضرت به الأرضة والرطوبة ، وبعض صفحاتها ملتصق ببعضها الآخر بحيث لا يمكن فصلها إلا باستخدام الوسائل الفنية اللازمة لذلك . وفى الأوراق التى أمكن تصويرها ، وعددها ٣٢ ورقة ، نقرأ عرضاً عظيم القيمة لتاريخ الدنيا ، ومنه يتبين دون شك أن هذا التاريخ مسيحى يتناول الحوادث من أوائل أيام المسيحية حتى نهاية الفتح العربى لاسبانيا مع أخبار وحكايات كثيرة مستقاة من الانجيل أو الكتب القديمة أو الكنسية ، وهذا الكتاب يقسم التاريخ إلى سبعة عصور ، وهو تقسيم تقليدى عند المؤرخين القدامى ، وقد أتبعه ايزيدور الاشبيلى . وقد ورد ذكر هروشيش وجيرولامو فى هذه المخطوطة . =

وجود هذه الترجمة هو اسحاق سلفستر دى ساسى ، فقد نشر نصا غريبا أخذه من « عيون الانباء فى طبقات الأطباء » لموفق الدين أحمد بن أبى القاسم المعروف بابن أبى أصيبعة من أهل القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى ، وهذا النص وارد فى ترجمة أبى داوود سليمان المعروف بابن جلجل (عاش فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى) ، وقد نقله ابن أبى أصيبعة عن مقدمة كتاب « تفسير أسماء الأدوية المفردة لديسقوريديس » وهو نص طويل نوجزه فيما يلى : أن كتاب ديسقوريديس ترجم فى بغداد أيام الخليفة المتوكل على يد اصطفن بن بسيل الترجمان ، ثم راجع الترجمة وصححها حنين بن اسحاق . وقد ترجم اصطفن ما استطاع ترجمته من أسماء الأدوية وترك ما لم يعرفه على صورته اليونانية لعل أحداً ممن يأتون بعده يستطيع العثور على ما يقابله بالعربية . وقد ظلت هذه الترجمة مستعملة بالمشرق والأندلس إلى أيام عبد الرحمن الناصر ، « فكاتبه أرمانيوس الملك ملك قسطنطينية ، أحسب فى سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وهاداه بهدايا لها قدر عظيم » فى جملتها كتاب ديسقوريدس « وكتاب هُروسيُس صاحب القصص ، وهو تاريخ للروم عجيب فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة ، وكتب أرمانيوس فى كتابه إلى الناصر إن كتابَ ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليونانى ، ويعرف أشخاص تلك الأدوية ، فإن كان فى بلدك من يحسن ذلك فزتَ أيها الملك

= ولا شك فى أنهـا من كتابات المستعربين . ولكننى لم استطع أن أتبين ما إذا كانت ترجمة لأصل لاتينى يمكن التعرف عليه أو جمعاً وتصنيفاً من أصول شتى ، وربما كان الفصل فى ذلك يتعدى حدود قدرتى . وقد تبينت فى بعض أوراق مخطوطـة القرويين التى تتناول التاريخ العام فقرات من محاورات نصرانية اسلامية ، وبعض هذه الفقرات تضم المحاورة المعروفة بين الجاثليق النسطورى طيماوس (Timoteo) والخليفة العباسى المهدى (انظر عنها كتاب G. Graf المسمى *Gesch, der christl. arab. Literatur* II, 115—118) وفقرات أخرى من محاورة بين كاثوليكى و « أعرابى » ولم استطع التعرف على حقيقتها . وهذان النصان يدلان على أنه كانت هناك علاقات أدبية بين المستعربين والكنائس المسيحية الشرقية ، ووجود هذه العلاقات ثابت من الترجمة اللاتينية لمقال الكندى فى فضل الاسلام .

بفائدة الكتاب ، أما كتاب هروسيُس ، فعندك فى بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطينى ، وإن كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطينى إلى اللسان العربى[(١)] ».

« ولم يكن امبراطور الدولة البيزنطية فى سنة ٩٤٨ أو ٩٤٩ هو رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩ — ٩٤٤) أو رومانوس الثانى (٩٥٩ — ٩٦٩) وانما قسطنطين السابع المعروف ببورفيروجينيتوس (٩٤٤ أو ٩٤٥—٩٥٩) الذى يذكر المؤرخون الأندلسيون بالفعل أنه أرسل سفارة إلى قرطبة فى صيف ٣٣٨/٩٤٩ وأخرى سابقة عليها سنة ٣٣٦/٩٤٧—٩٤٨ ، فقد ذكر ابن خلدون ذلك وأضاف أن خليفة قرطبة أرسل سفارة ردا على هاتين السفارتين ، ولا أهمية هنا للاختلاف الواضح فى التواريخ ، فإن للخطأ فيها أسبابا شتى[(٢)] ».

« ومع أنه لا يبدو أنه ليس هناك ما يدعو إلى الشك فى اهداء الامبراطور البيزنطى لكتاب ديوسقوريدس ، رغم الخلط بين رومانوس وقسطنطين السابع ، فإن الشك فى إرساله كتاب هروشيش له ما يبرره ، فإنه ليبدو لنا مستحيلا — أو بعيد الاحتمال على الأقل — أن توجد فى القسطنطينية مخطوطات لاتينية فى القرن العاشر[(٣)] ، وربما يكون اسم كتاب هروشيش قد أضيف إلى اسم

(١) انظر ابن أبى أصيبعة : كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء — الباب الثالث عشر فى أطباء افريقية والأندلس . بتحقيق نور الدين عبد القادر والحكيم هنرى جاهيه (الجزائر ١٩٥٨) ص ٣٩ — ٤٠ وانظر أيضا : مقدمة كتاب « طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل بتحقيق فؤاد السيد (القاهرة ١٩٥٥) ، وقد أفرد الأستاذ المحقق فى تلك المقدمة فصلا ضافياً عن كتاب هروشيش وترجمته إلى العربية وأورد فى أثناء هذا الفصل ملخصاً لمقال ليفى دلا فيدا الذى نحن بصدده ، انظر ص كط — لج من المقدمة .

(٢) انظر :

E. Lévi-Provençal, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, II, (Paris 1950) 143—153

ولاحظ نفس المراجع الخاصة بمخطوطات ديوسقوريدس فى ص ١٥٠ من المقال المذكور .

وانظر : César Dubler, *La Materia Médica de Dioscorides*, I (Barcelona 1953), 50—51

(٣) ربما لا يكون ذلك بعيد الاحتمال إلى هذا الحد ، انظر :

F. Dőlger: *Rom in der Gedankenwelt der Byzantiner*, in Zeitschrift für Kirchengeschichte. LVI (1937), 1—42

وخاصة ص ٦ — ٧ من هذا المقال وآخره .

كتاب ديوسقوريدس بسبب الخلط والاضطراب الذى أحاط بالخبر كله ، وربما يكون السبب كذلك أن ترجمة عربية لكتاب هروشيش ظهرت فى الأندلس حوالى ذلك الوقت » .

« ويعطينا ابن خلدون ، وهو المؤلف العربى الوحيد الذى انتفع انتفاعا كبيراً بكتب هروشيش فى تصنيف تاريخه المعروف[١] ، معلومات دقيقة عن ظروف هذه الترجمة ومن قاموا بها ، فقد قال فى كلامه عن حكام بنى اسرائيل بعد يوشع يذكر بعض مراجعه : « وما نقله أيضا هروشيوش مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجمه للحكم المستنصر من بنى أمية قاضى النصارى وترجمانهم بقرطبة وقاسم ابن أصبغ . . .[٢] » ويقول فى فصل آخر « وخبر هروشيوش مقدم ، لأن واضعيه مسلمان كانا يترجمان لخلفاء الإسلام بقرطبة ، وهما معروفان ووضعا الكتاب ، فالله أعلم بحقيقة الأمر فى ذلك[٣] » .

« والحكم المستنصر هو ثانى خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، فقد خلف أباه عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣٥٠/٩٦١ ، ولكن ترجمة كتاب هروشيش لابد أن تكون قد تمت قبل ذلك بسنوات ، أى بينما كان الحكم لا يزال وليا للعهد . وقد عمّر قاسم بن أصبغ البيانى طويلا فقد ولد فى سنة ٢٤٤/٨٥٩ ومات سنة ٣٤١/٩٥٢ وفقد ذاكرته قبل موته بسنوات (فى سنة ٣٣٧/٩٤٨ —٩٤٩) بسبب كبر السن ، ومن هنا فإننا نستبعد أن يكون قد قام بترجمة كتاب ضخم مثل تاريخ هروشيش وصل إلى الأندلس فى تلك السنة الأخيرة أو فى التى قبلها على أقل تقدير . وإذن فلا بد أن يكون قاسم قد قام بهذا العمل قبل ذلك ، ربما بسنوات كثيرة . لقد كان قاسم مؤدّبا للحكم فى شبابه

---

(١) أشار إلى انتفاع ابن خلدون بتاريخ هروشيش : O. A. Machado فى مقاله الآنف الذكر مجلد ١ و ٢ ص ١٤١ — ١٤٢

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر . طبعة بولاق ، ج ٢ ص ٨٨

(٣) نفس المصدر والجزء ص ١٩٧

(عندما تولى الحكم الخلافة بعد حياة أبيه الطويلة كانت السن قد تقدمت به) ومن الممكن أن يكون قيامه بالترجمة أيام كان مؤدبا للحكم . والآن نسأل : من كان « قاضى أو مترجم النصارى » الذى اشترك فى العمل مع قاسم ؟ لا نستطيع أن نقطع برأى فى ذلك ، وعلى أى حال فإننا نستبعد أن يكون مسلماً كما قال ابن خلدون ، فإن وظيفة قاضى النصارى التى يرد ذكرها مراراً فى المراجع الأندلسية كان يتولاها نصرانى ، بل يبدو لى أنه كان من رجال الدين[1] . وقد كان سيمونيت هو آخر من توفر على دراسة هذا الموضوع . وقد ذكر اثنين من قضاة النصارى يحتمل أن يكون أحدهما قد قام بذلك العمل وهما حفص بن ألبر (أو ألفارو) والوليد بن خيزران الذى كان يسمى أيضا ابن مغيث ، والثانى منهما كان معاصراً للحكم المستنصر ، ومن الممكن أن يكون هو الذى اشترك مع قاسم فى ذلك العمل » .

« والغالب أن التعاون بين الاثنين جرى على أن يقوم النصرانى بنقل مضمون النص إلى صاحبه ، وذلك بحسب معرفته باللاتينية والروايات التاريخية القديمة ، مهما كانت هذه المعرفة ، ويتولى قاسم صياغة ذلك فى قالب عربى مضفيا عليه بلاغة تسيغه لقراء العربية . ونلاحظ آثاراً واضحة لعمل كل منهما فى مخطوطة جامعة كولومبيا . ولا شك أن المخطوط اللاتينى الذى ترجمه الاثنان كان من أصل اسبانى ، وذلك يبدو واضحا من الطابع الخاص الذى تبدو به هذه الترجمة العربية إذا راجعناها على أصول لاتينية أخرى » .

« ولم يشك فى أصالة الترجمة العربية لتاريخ هروشيوش أحد من العلماء القلائل الذين تتبعوا آثارها فى الكتب العربية المختلفة ، ولو أن بعض الفقرات

(١) Simonet, *Historia de los Mozárabes de España*, pp. 111—112, 171, 622
وانظر أيضا : E. Lévi Provençal, *Hist. de l'Espagne Musulmane*, III (Paris 1953), 219

التى وردت فى تلك الكتب لا توجد فى الأصل الذى لدينا[١]، مما جعل دى سلان يقول إن ترجمة هروشيش مختلقة أو مزعومة[٢]، وذهب اشتاينشنايدر إلى أن ترجمة عربية لهروشيش لا وجود لها إلا فى رأى بعض العلماء[٣]، وبعد ذلك بقليل قرر وليام مارسيه بما عُرف عنه من ملكة النقد الدقيق أن المعلومات التى يوردها ابن خلدون عن تاريخ الرومان قبل الامبراطورية لا بد أن يكون مرجعها الأخير تاريخ هروشيش ، ولو أنه وقع فى أخطاء كثيرة عند النقل[٤]» .

إلى هنا ينتهى ما نقلناه من كلام ليفى دلا فيدا بهذا الصدد[٥] .

وإذن فقد تداول أهل العلم فى الأندلس خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجرى كتاباً عاماً فى الجغرافية والتاريخ يقدم إليهم جانباً طيباً من المعلومات الصحيحة إلى حد ما عن وصف المعمور وتاريخ العصور القديمة ، وهو كتاب مصوغ فى لغة أدبية جيدة تغرى القارىء بالمطالعة وتفتح أذهان المتطلعين إلى الجغرافية والتاريخ على آفاق جديدة من العلم والمعرفة وتبعث من يريد منهم على الاتجاه بملكاته إلى هذه الناحية . ومن الواضح أن أثر هذه الترجمة فى هذا الميدان كان مباشراً ، فمن بين تلاميذ قاسم بن أصبغ ظهر أول مؤرخ جغرافى أندلسى وهو أحمد بن محمد الرازى ، وقد كتب كتابه على غرار

(١) لم يعن بعد سلفستر دى ساسى بتتبع آثار ترجمة هروشيش فى الكتابات العربية إلا جوستاث فلوجل فى المقال الذى نشره فى *Allgemeine Encyclopidie der Wissenschaften und Künste* التى قام بتحريرها Ersch und Gruber ، القسم الثالث ، الجزء الخامس (١٨٣٤) ص ٥١٤ ، فقد أضاف إلى المادة التى جمعها سلفستر دى ساسى عبارة وردت فى كشف الظنون لحاجى خليفة (طبعة أوروبا ج ٥ ص ١٧١ — ١٧٢ تعليق رقم ١٠٦٢) ، وإشارة أخرى وردت فى فهرست ابن النديم ، ص ٢٥٥ يعتقد فلوجل أن المراد بها هروشيش .

(٢) انظر ترجمته الفرنسية لمقدمة ابن خلدون ، ج ١ ص ٤٧٤ وج ٣ ص ٢٤١ وكذلك مجموع مختاراته المسمى *Notices et Extraits des Manuscrits Arabes* المختارتان رقم ١٩ و ٢١

(٣) Steinschneider, *Die arabische Uebersetzungen aus dem Griechischen*, in *Beihefte zum Centralblatt für Bibliotekswesen*, V (1890), 18—19

(٤) أنظر Revue critique d'historie et de littérature, N. S. 96 (1929), 262

(٥) G. Lévi Della vida, *Ta Iraduzione Arabe della Storie di Orosio*. Al Andalus, vol. XIX, fasc. 2, pp. 257—265

كتاب هروشيش : مقدمة جغرافية وافية يليها التاريخ ، وأخذ عن هروشيش الوصف العام لشبه الجزيرة والتصور البطليموسى لهيئتهـا ووصفها . وعلى هذا الأسلوب مضى من أتى بعد الرازى من مؤرخى الأندلس وجغرافييه ، فقد حرص كل مؤرخيه على أن يقدموا لمؤلفاتهم بمقدمات جغرافية ، وأما الجغرافيون منهم فقد ضمنوا أوصافهم للبلاد ما حضرهم من وقائع التاريخ كما نرى عند العذرى والبكرى . ومن الجدير بالملاحظة أننا لا نجد كتاباً فى التاريخ فى الأندلس لا نستطيع أن نعده أيضاً كتاب جغرافية .

ويرجع هذا فى المكان الأول إلى الصورة التى ظهر بها تاريخ هروشيش فى ترجمته العربية ، ويرجع فى المحل الثانى إلى أسلوب قاسم بن أصبغ ، فهو أسلوب سليم قوى بليغ فى معظم أجزائه وإلى مكانة قاسم نفسه ، فقد كان اشتراكه فى ترجمة هذا الكتاب إعزازاً للجغرافية والتاريخ وإشعاراً للناس بأنهما من العلوم الجديرة بعناية أهل العلم وطالبيه .

ولا شك فى أن قاسم بن أصبغ بذل جهداً عظيما فى صياغة هذه الترجمة ، فإن النص حافل بالأعلام الجغرافية والتاريخية التى كانت تعتبر جديدة على العرب إذ ذاك . ومع أن نص هروشيش جامد جاف يسرد أسماء المواضع وحدودها على طريقة بطليموس ، ويورد وقائع الحروب متوالية لا يربط بينها إلا منهجه الخاص فى تفسير التاريخ ، إلا أن قاسماً عرف كيف يعرِّب الأعلام الجغرافية والتاريخية أو يرسمها على نحو بالغ الدقة يذكرنا بأسلوب رفاعة رافع الطهطاوى ومدرسة المترجمين التى عملت معه فى القاهرة منذ قرن ونيف ، وما أشبه الأمس بأول أمس ! وواضح أن الوليد بن خيزران وقاسم بن أصبغ اجتهدا فى أن تكون الترجمة مطابقة للأصل على قدر الإمكان ، حتى فاتحة الكتاب التى يخاطب هروشيش فيها أُغَشْتِينَ (القديس أوغسطين) والتى يشبه نفسه فيها بالكلب الأمين الذى يتبع « أربابه » عن حب غريزى لهم مُرَكَّب فى طبعه ، حتى هذه يوردها فى صورة هى أقرب ما تكون إلى صورتها اللاتينية ، مع مجافاة هذا التشبيه للذوق العربى .

ويعنينا هنا القسم الجغرافى ، وهو صغير ولكنه دقيق . هذا القسم هو الباب الثانى من الجزء الأول من الكتاب ويبدأ بقوله : « قسم العلماء الماضون دَوْرَ الأرض المحدق عليه البحر المحيط على ثلاثة أقسام : قسم يسمى أشبه أشيَه ، وهو سهم سام بن نوح ، وقسم يسمى أورُبّا ، وهو سهم يافث بن نوح ، وقسم سُمِّى إفريقية ، وهو سهم حام بن نوح » . وقاسم بن أصبغ لا يستعمل اسم « قارة » بل يسميها « قسما » أو « سهما » ولعل هذا هو الذى حال بين الكثيرين من جغرافيي الأندلس وبين أن يتبينوا انقسام الدنيا القديمة إلى قارات ثلاث .

والترجمة العربية لهروشيش فى هذا القسم الجغرافى مطابقة للأصل اللاتينى كلمة كلمة تقريبا ، فلم يسقط المترجمان إلا عبارات قليلة لا تؤثر فى السياق . وقد تبينت عند مقابلة الترجمة على الأصل عِظَم الجهد الذى بذله قاسم للعثور على مرادفات عربية صحيحة لمصطلحات جغرافية لاتينية كثيرة استعملها هروشيش . أما الرسم العربى للأعلام فدقيق غاية الدقة ، وقد تكلف قاسم عناء شديداً فى إيراد هذه الأعلام فى صورة هى أقرب ما تكون لرسمها اللاتينى ، كما سنتبين فى النماذج التى سنعرضها فيما يلى .

بعد كلام عام مختصر عن تقسيم العالم القديم إلى ثلاثة أقسام يبدأ الكتاب بنظرة عامة على كل قسم منها ، فيقول عن قسم أوروبا « إن ابتداءه من ناحية الجوف من النهر الذى يدعى طناي (Tanai) من مهرق ماء الجبال المنحرفة على المحيط الذى يدعى شَرْمَطِقُم (Sarmaticum) ، ثم يجاوز ذلك النهرُ متالعَ الاسكندر الأعظم ومواضع محاربة قيصر إلى تخوم الروبشكين[1] . فهناك يغمر المروج التى تدعى مَؤُطِدِش (Maeotides) . وتفيض تلك المياه فيضاً

(١) المراد هنا « حتى نهر الروبيكون Rubicon » وهو النهر الذى كان يحدد منطقة نفوذ قيصر قبل محاربة بومبى . والنص اللاتينى الذى نراجع عليه يقول هنا : Roxonalorum Sinibus Situs أى تخوم خليج الروكسلانيين . والأصل العربى أصح هنا وهو مترجم عن مخطوطة يرد فيها اللفظ فى صورة Rhobascorum و Robascarum كما نرى فى مخالفات النص اللاتينى المنشور (راجع تعليق ١٠ ص ١١) وقول المترجمين « مواضع محاربة قيصر » يدل على أنهما كانا يعرفان المراد بهذا اللفظ .

عظيما عند مدينة طودوشية (Theodosia) . ثم يتسع موقعها فى البحر الذى يدعى أخشين (Pontus Euxinus) . وهذه المروج تمتد متضايقة نحو القسطنطينية إلى أن تتصل ببحرنا (mare Nostrum) هذا الذى نسميه المتوسط . وآخر قسم أوروبا فى الغرب بلد الأندلس (Hispania) والبحر المحيط . وأقصى ذلك عند جزيرة قادس حيث ضم هَرْكُلَش ، وحيث يكون مدخل البحر المتوسط فى البحر المحيط » وهذا مثل من أسلوب الترجمة تظهر فيه الدقة فى الأداء ورسم الأعلام وسلامة الأسلوب ، بل بلاغته .

وبعد أن يلقى هروشيش نظرة موجزة عن كل من قسمى افريقية وآسية ، يعود إلى تفصيل ما أجمل قائلا : « وسنصف سهم أوروبا بأقصى ما ندرك من وصف » . ولكنه لا يفصل الكلام ، وإنما يعرض بلاد أوروبا بلداً بلداً فى إيجاز شديد .

وقد رأيت أنه من المفيد فى هذا المجال أن آتى بنص كلامه عن أوروبا حتى نتبين قيمة المادة الجغرافية التى أتاحها عمل قاسم بن أصبغ لأهل العلم فى الأندلس[1] . وإنما اخترت أوروبا لأنها كانت إلى ذلك الحين بالنسبة لأهل الجغرافية فى شرق العالم الإسلامى وغربه أشبه بالعالم المجهول ، وستنير التفاصيل الواردة فى هذه الترجمة الطريق أمام جغرافيي الأندلس بعد ذلك . وسنرى فيما يلى من أجزاء هذا البحث كيف طوّر الجغرافيون الأندلسيون هذه المعلومات القليلة الجافة التى لا تزيد على ذكر أسماء البلاد وحدودها إلى جغرافية بشرية حقيقية ، فيها كلام عن السكان وصفاتهم وأعمالهم وصناعاتهم وزراعاتهم وعوائدهم ، وسنتبين هذا بوجه خاص فيما يتصل بالأندلس . وفرق عظيم بين كلام هروشيش وكلام الرازى عن ذلك البلد ، وكلاهما من أبنائه . فعلى حين يكتفى هروشيش بحدود البلد وبعض أقسامه ومدنه ، نجد الرازى يبدأ بمقدمة طويلة عن الجغرافية العامة لشبه الجزيرة ، ثم يتكلم عن كل ناحية من نواحيه بتفصيل واف ، ثم

(١) القطعة التى سأوردها خاصة بأوروبا توجد فى مخطوطة هروشيش من أسفل ص ١٧ إلى منتصف ص ٨ ب . ويقابلها فى الأصل اللاتينى المطبوع الذى نراجع عليه من ص ٢٢ إلى ص ٢٨

يجيء العذرى فيزيد ويفصل ويعرض نواحى الزراعة والحاصلات والرى والخراج والضرائب ، ثم يليه مَن بعده فينوعون الكلام ويوسعون أطرافه حتى نصل إلى قمم علم الجغرافية فى أوروبا فى العصور الوسطى على الاطلاق : الادريسى وابن خلدون وابن سعيد وابن الخطيب .

ومن أسف أن المخطوطة التى نعتمد عليها أفسدت بعض أجزائها الأرضة وأكل الزمن والإهمال أطراف صفحاتها ، وسنحاول أن نعوض بعض الناقص بالمقابلة على الأصل اللاتينى ، وتبقى بعض ذلك فراغات يسيرة وقلقٌ فى بعض العبارات ، ونرجو أن تتاح لنا مخطوطة أخرى تعيننا على تدارك ما لم يسعفنا به ما بين أيدينا . وقد وضعتُ المقابل اللاتينى لكل الأعلام الجغرافية كما وردت فى النص المطبوع لكتاب هروشيش ، ولم أورد مفارقات هذا الأصل اللاتينى ، لأنها كثيرة جدا ، وانما اكتفيت منها بالصورة القريبة من الرسم العربى فى الترجمة التى بين أيدينا .

«[من جبال رفايه المجاورة لنهر طَنَاى وسهول مؤطدش][1] والتى هى فى الشرق ، وعلى [سيف][2] البحر المحيط الجوفى حتى إلى بلد [غَالِّيشْ بليقه ونهر رُودَنُه][3] الذى هو من ناحية الغرب ، ومنها إلى نهر دنوبية Danubium الذى هو فى القبلة ، وجريته إلى الشرق حتى يدخل فى البحر المتوسط[4] .

(١) العبارة ناقصة من الأصل ، وقد أكملتها من اللاتينية ، ونصها هناك :
A montibus Riphaeis ac flumine Tanai, Maeotidisque paludibus...

(٢) هذه الكلمة فى الأصل متآكلة ، وهى تقرأ هناك : ريف . وقد جعلتها سيف ، لأن النص فى اللاتينية : per littus septentrinalis oceani وسيف البحر هو شاطئه .

(٣) اسم البلد وما بعده متآكل فى الأصل ، وفى اللاتينية :
ad Galliam Belgicam et flumen Rhenum
وسيرد الكلام على غالية بليقه هذه ، وهى جزء من غالة كانت تسكنها قبائل البلجيين Belgae . أما نهر رودنه فهو الرين .

(٤) النص اللاتينى لا يحدد هنا البحر الأبيض ، بل يقول : ponto excipitur وواضح أن المراد هنا تحديد عام لجزء كبير من شرق أوروبا يعتبره المؤلف اقليا واحدا ، ويقول إنه يبدأ من جبال فى الشرق يسميها جبال رفايه عند نهر طناى الذى يبدو أنه الدنيبر ثم يقول إن المحيط الشمالى (الجوفى) يحيط بها (من الشمال) حتى ما يعرف الآن ببلجيكا ، ويحدها من الغرب نهرا الرين والطونه .

«فإن شرق هذا البلد يدعى ألانية (Alania) وفى وسطها بلد داجية (Dacia) وبعدها غوشية (Gothia) وبعدها يرمانية (Germania) ، الذى أعظم أجزائه بأيدى الشّوابين (Suevi)[١] . فى رجوا[٢] وفى جميع هذه البلاد من الأجناس أربعة وخمسون جنساً .

« وسنصف ما يغلق عليه نهر دَنُوبية (Danubium) إلى بحرنا المتوسط دون الأجناس التى وصفتها .

« البلد الذى يدعى مُوَاشية (Moesia) : شرقه مدخل نهر دنوبية ، ومن تحت الشرق إلى الجنوب بلد طراجية (Thracia) ، ومن ناحية القبلة بلد مجدونية (Macedonia) ، وفيما بين القبلة والغرب بلد دلمازية (Dalmatia) . ومن ناحية الغرب [بلد إشتريه Istria] ، وما بين الغرب والجوف بلد بنونية (Pannonia) ومن ناحية الجوف نهر دنوبية[٣] .

البلد الذى يسمى طراجية : شرقه خليج خارج من البحر المتوسط[٤] ومدينة قسطنطينية[٥] . ومن ناحية الجوف بعض بلد دلمازية ، وخليج خارج من البحر الذى يقال له أخشينوس Pontus Euxinus المتوسط فى الغرب . وما بين الغرب والقبلة بلد مجذونية . وفى القبلة الموضع الذى يقال فيه للبحر المتوسط أياؤه[٦] .

---

(١) المؤلف هنا يذكر القبائل الجرمانية التى استقرت فى ذلك الجزء الكبير الذى يصفه ، وهو ينسب كل جزء من أجزائه إلى القبيلة التى سكنته معتبرا إياه بلدها .

(٢) وردت هذه الكلمة هكذا فى الأصل . ولا وجود لما يقابلها فى النص اللاتينى :
...Suevi tenet: quorum omnium sunt gentes quinquaginta quatuor

(٣) هذه العبارة محرفة فى النسخة التى لدينا ، لأن مقابلها اللاتينى :
Ab occasu Istriam, a circio Pannoniam وإلى الغرب إستريه ، ومن ناحية الجوف بنونية .

(٤) الأصل اللاتينى يقول هنا : Propntidis sinum .

(٥) هنا أسقط المترجمان عبارة quae Byzantium prius dicta est .

(٦) كذا . وفى الأصل اللاتينى Aegaeum وهو ما يعرف اليوم ببحر إيجه ، وعلى هذا فيمكن تصويب الصورة الواردة فى الترجمة إلى إيجاوه أو إجاوة .

« البلد الذى يدعى مجذونية (Macedonia) : شرقه المرضع الذى يسمى فيه البحر المتوسط أياؤه [وجنوبه بلد طراجية ، ومن تحت الشرق إلى الجنوب بلد أوبويه وخليج مجدونية][1]. وفيما بين الشرق والقبلة بلد أقاييه (Achaia) ، وخليج خارج من المتوسط ، وهو خليج بلد مجذونية . ومن ناحية القبلة والغرب بلد دَلْمَازِيه ،[2] وما بين الغرب والجوف بلد دَرْدَانية (Dardania) ، وفى الجوف بلد مُواشِيَة (Moesia) .

« البلد الذى يدعى أقايية (Achaia) : يكاد البحر يحدق به من كل جهاته . شرقه بحر مِرْتيَه (Myrtoum mare) ، وما بين الشرق والقبلة بحر جزيرة قريطش (mare Creticum) ، وفى القبلة البحر اليونانى (Ionium mare) ، وما بين الغرب والقبلة ، وفى الغرب الجزيرتان اللتان يقال لهما جَبَلاَنِيَة (Cephalonia) وقسبورية (Cassiopa) ، وفى الجوف خليج مدينة قُرِنْته (Corynthium) ، ليس بالبعيد من مدينة الأطيناشيين (Atenaii) من الروم الغريقيين (Graeci) .

« البلد الذى يدعى دَلْمَازية (Dalmatia) ؛ شرقه بلد مجذونية ، وفيما بين الشرق والجوف بلد دردانية (Dardania) ، وفى الجوف بلد مواشية ، وفى الغرب بلد إشترية (Istria) والخليج الذى يسمى لِبُوريه (Sinum Liburicum) والجزائر التى يقول لها لِبُرْنِقِشْ (Liburnicas)[3] ، وفى القبلة الخليج الذى يدعى أدرياطِقُو (Adriaticum) .

---

(١) أسقط الترجمان هذه العبارة وهى فى الأصل اللاتينى :
à borea Thraciam, ab euro Euboeam et Macedonicum sinum.

(٢) سقطت من الترجمة العربية هنا عبارة كبيرة :
a favonio montes Acroceraunios in angustius Adriateci Sinus, qui montes sunt contra Apuliam atque Brundusium.

(٣) فى الأصل لبثرقش وهو تصحيف ، لأن الأصل اللاتينى Liburnicum وقد قومت الكلمة فى المتن على هذا الأساس . وقد سقطت هنا من الأصل العربى الذى بين أيدينا عبارات كثيرة . راجع الأصل اللاتينى ص ٢٤

« البلد الذى يدعى بنونية ونورقش[١] [وراتيه] : شرقها بلد مواشية وبعض بلد اسْترية (Istria) ، وفيما بين القبلة والغرب جبل أَلْبَشْ (Alpes Penninas) المتصل بالأندلس الأعلى . وفى الغرب بلد غالية بِلِيقَه ، [وفيما بين الجوف والقبلة من نهر دنوبية توجد الحدود الفاصلة بين بلد يرمانية وبلد غالية الواقع فيما يلى نهر دنوبية . وفى الجوف نهر دنوبية][٢] وبلد يرمانية .

« البلد الذى يدعى إيطالية : وهو بلد مستطيل ما بين الشرق والقبلة إلى ما بين الغرب والجوف ، وحَدُّهُ فيما بين القبلة والغرب البحرُ المتوسط ، وما بين القبلة والشرق الخليج المسمى أدرياطقو ، ويحصر هذا البلد من هذه الناحية مستطيلا جبال ألبة (Alpes) ، وذلك فى ناحية الموضع الذى يقال فيه للبحر [الخليج] الغالقّ (sinum Gallicum) إلى الخليج المسمى لِغُشْتِقو (Ligusticum sinum) متاخما لكورة نربونه . ثم إلى بلد غالِّيُش وبلد راسية (Raetia أو Rhetia) [حيث ينفصل بلد غالِّيُش عن بلد راسية][٣] حتى ينتهى إلى الخليج المسمى لِبُرْنِقُو (Sinum Liburnicum) .

« البلد الذى يدعى غالية بِلِقَه (Gallia Belgica) : شرقه ريف نهر رانه (Rhenus = الرين) وبلد يرْمَانيَه . وما بين الشرق والقبلة جبل ألبة (Alpes) الذى يقال له أبنينه (Alpes Penninas) ، وفى القبلة بلد نربونه ، وفى الغرب بلد لغدون (Gallia Lugdunensis) . وما بين الغرب والجوف البحر المحيط الذى هو بلد برطانية[٤] . وفى الجوف برطانية .

---

(١) فى الأصل اللاتينى Pannonia et Naricus et Raetia ولهذا فينبغى تقويم نورقش إلى نوريقو.

(٢) هذا السطر يقع فى أول الورقة وهو متآكل غير مقروء ، وقد عوضت النقص من النص اللاتينى الذى يقول هنا :

...a circio Danubii fontem, et limitem, qui Germaniam et Gallia inter Danubium Galliamque secernit, a septentrione Danubium et Germaniam.

(٣) العبارة الواردة بين الحاصرتين ساقطة من المخطوط ، وهى فى الأصل اللاتينى :

deinde Galliam Rhetiamque secludit

(٤) النص اللاتينى يختلف هنا بعض الشىء عن ذلك ، فهو يقول : a circio oceanum Britannicum = وفى الجوف بحر بريطانيا .

« البلد الذى يدعى غالِّية لُغدُون (Gallia Lugdunensis) : هو بلد مستطيل ضيق مستدير يحيط بنصف أرض أقطانية (Aquitania) ، شرقه بلد غالية بليقة ، وقبلته بعض بلد نربونه (Provincia Narbonensis) حيث مدينة أرلَطَه[١] ، ومدخل نهر ردانه (Rhodanus) فى البحر المتوسط الذى يدعى البحر الغالى[٢] .

« البلد الذى يدعى نربونه (Provincia Narbonensis) : شرقه بعض بلد غَالِّية ، وجبل ألبة ، حيث يسمى الجبل قوتَشْ (Cottias)[٣] فى غرب الأندلس[٤] . وما بين الغرب والجوف بلد أقطانية ، وفى الغرب بلد لُغْدُون . وما بين الجوف والشرق كورة غالية بليقة . وفى القبلة البحر الغالى الذى بين سردانية وجزائر ميورقة ومنورقة . وله جزائر فى الموضع الذى يدخل فيه نهر رُودَنُه (Rhodanus) فى البحر المتوسط تسمى اشتقاذس Insulas Stechadas » .

ثم يلى ذلك الكلام على اسبانيا ، وهو أهم ما يعنينا ههنا ، ولهذا ، فقد رأيت أن أضع الأصل اللاتينى فى مقابل الترجمة العربية تيسيراً للمقابلة وإظهاراً لما بذله المترجمان العربيان من جهد فى العمل الذى قاما به :

« البلد الذى يدعى الأندلس[٥] : جميعه محدَقٌ عليه إلا قليلا بالبحر	«Hispania universa terrarun situ trigona est, et circumfusione

(١) المراد هنا مدينة آرل Arles . وفى الأصل اللاتينى Arelas والصورة العربية صحيحة لأنها تقابل Arelate .

(٢) الترجمة العربية هنا موفقة جدا ، لأن الأصل اللاتينى :
... et mare Gallico Rhodani flumen excipitur...

(٣) فى المخطوط قرتش وقد قومته بما يقابل الاسم فى الأصل اللاتينى . والاسم القديم الكامل لجبال الألب هنا Alpes Cottiae

(٤) كذا ، والصحيح فى شرق الأندلس . والمراد بالأندلس هنا شبه جزيرة إيبيرية .

(٥) يلاحظ أن المترجمين غيرا فى نظام بعض الجمل ، كهاتين الجملتين الأولين مثلا ، ولذلك لم أستطع أن أضع كل واحدة منها أمام ما يقابلها من الترجمة العربية ، ولكنى اجتهدت فى ذلك ابتداء من جملة « فركنه الواحد . . . » . وقد استغنى المترجمان عن بعض العبارات فيما يلى من النص ، وذلك واضح من مقارنة النصين .

المحيط والبحر المتوسط ، وهو بلد
مُرَكَّنٌ ذو ثلاثة أركان ، فَرُكْنه
الواحد يقابل الشرق ، فيما بين بلد
أقطـانية وبين البحر المتوسط مقابل
جزيرة ميورقة ومنورقة . وهناك يجاور
بحر نَرْبُونه .

وركنه الثانى فيما بين الغرب والجوف
بناحية مدينة برغنسية فى جليقية[1]
حيث الجبل العالى الذى فيه المنارة
مقابل بلد برطانية .

وركنه الثالث بناحية جزيرة قادس
بين الغرب والقبـلة ، مقابل جبل
إفريقية المسمى اتلانتش

والأندلس أندلسان[2]
فالأندلس الأدنى مبتدأه من ناحية
الشرق ، ماضياً مع جبل البرنيو مع
الجوف حتى إلى مدينة قنتابريه[3]
وكورة اشتورية ثم إلى البَشْقُنس
والأوريطيين ، وهم غربه ، حتى يبلغ
بحرنا الأوسط عند [ساحل قرطاجنة .

Oceani Terrhenique pelagi pene insula efficitur. Hujus angulus prior, spectans ad orientem, a dextris Aquitanica provincia, et sinistris Balearico mari coartatus, Narbonensium finibus inseritur. Secundus angulus circium intendit: ubi Brigantia Calleciae civitas sita, altissimam pharum, et inter pauca memorandi operis, ad speculam Britanniae erigit. Tertius ejus angulas est, qua Gades insulae intentae in africun, Atlantem montem interjecto sinu Oceani prospiciunt.

Hispaniam citeriorem ab oriente incipientem, Pyrenaei saltus a parte septentrionis usque ad Cantabros Asturesque deducunt, atque inde Vaccaeos et Oretanos, quos ab occasu habet, posita in

(١) فى الأصل بغرنسية فى جليقية ، وذلك سهو من الناسخ ، إذ قدم الغين على الراء .

(٢) أضاف المترجمان هذه العبارة زيادة فى الإيضاح . وقد أصبحت بعد ذلك عبارة تقليدية نجدها عند كثير من جغرافيي الأندلس .

(٣) هنا أيضاً وهم الناسخ أو الملى فكتب قنتاربية بدل قنتابرية .

والأندلس الأقصى حده من ناحية الشرق بلد البشقنس والشلطبريين والأوريطيين وفى] الجوفِ والغربِ منه البحر المحيط الغربى وفى القبلة [البحر الذى يحيـ]ـط بقادس (١) [والخليج الخارج المتصل ببحرنا الذى يسمى بحر تيران] (٢) » .

Nostri maris littore Cartago determinat. Hispania ulterior habet ab oriente Vaccaeos, Celtiberos, et Oretanos: a septentrione Oceanum, ab occasu oceanum, a meridie Gaditanum Oceani fretum: unde mare Nostrum, quod Tyrrhenum vocatur, immittitur.

ثم يستطرد النص ليستكمل ذكر بلاد أوروبا ، وسأكتفى هنا بالترجمة العربية مع إيراد مقابل الأعلام الجغرافية فى الأصل اللاتينى :

« وفى البحر المحيط جزيرتان يقال لهما برطانية وإ[بارنية واقعتان مقابل شاطىء الأند]لس (٣) بناحية بلد غالية ، رأيت أن أضيفهما فى هذا الموضع وهما : [جزيرة برطاني]ـة (٤) التى فى البحر المحيط ، فإنها مستطيلة من القبلة إلى الجوف

---

(١) وضعت هذه العبارة فى مقابل Gaditanum Oceani Fretum لأن ذلك المصطلح اللاتينى كان يستعمل للدلالة على المضيق الذى يفصل إفريقية عن اسبانية . ويسمى عند بلينيوس Fretum Herculeum وعند تيتوس ليفيوس Fretum Hispanum . ولفظ Fretum معناه الذراع الممتد من البحر بين أرضين .

انظر : Valbuena, *Diccionario Latino-Español* (Paris) ص ٣٧٩ عمود ٢

(٢) ما بين الحواصر كله ساقط من الأصل . وقد ترجمته عن الأصل اللاتينى . وعبارة بحر تيران أو البحر التيرانى موجودة فى الجغرافية العربية ويفسرونه بأنه البحر الذى يقسم الأرض ، وذلك قريب جداً من معنى Mare Tyrrhenum .

(٣) فى موضع هذه العبارة قطع كبير فى الورقة ، والنص اللاتينى هنا :

Et quoniam oceanus habet insulas, quas Britanniam et Hiberniam vocant, quae in aversa Galliarum parte ad prospectum Hispaniae sitae sunt, breviter explicabuntur.

(٤) القطع فى الورقة يمتد حتى يضيع هاتين الكلمتين .

وقبلة [غالا]يش[١] . ومرسى هذه الجزيرة عند مدينة روط (Rhutubi Portus)[٢] التى فى ساحلها ، وطولها ثمانى مائة ميلا ، وعرضها ألف ومائتا ميل ، ويظهر منها فى لجة البحر جزائر الأركاذيين (Orchney = Arcadas) ، منها عشرون جزيرة مقفرة وثلاث عشرة جزيرة مسكونة ، وخلفها جزيرة تسمى تلْيَة (Thulia) متفردة من غيرها فى لجة البحر ، قل من يعرفها لبعدها .

« وأما جزيرة إبارنية (Hibernia وهى إيرلندا) فإنها بين جزيرة برطانية والأندلس ، ممتدة مما بين الشرق والقبلة ، إلى بين الغرب والجوف ، مقابل الجبل المطل فى البحر مدخل نهر شِنَا (Scenae flumen وهو نهر الشانون) فى البحر المحيط . وهى أضيق قاعة من جزيرة برطانية ، إلا أنها أطيب جواً وأكثر ثماراً ، يسكنها معا الاسكوثيون (Scotti) ، وهم من الفرنج . وتجاورها أيضاً جزيرة يقال لها مفانية (Mevania)[٣] . طيبة القاعة معتدلة الجو يسكنها الاسكوثيون أيضا

وهذا انقضاء وصفنا بلاد أوروبا » .

وإنما أوردت الفصل الخاص بأوروبا من هذه الترجمة على تواليه لأنه يعطينا فكرة واضحة عن المادة الجديدة التى أضافتها هذه الترجمة إلى الثروة الجغرافية لدى مسلمى الأندلس فى ذلك العصر ، وهى مادة طيبة تقدم صورة موجزة سهلة التصور للمعمور من الأرض فى ذلك الحين ، فقد عرف الناس أن اليابس ينقسم إلى ثلاثة أقسام كبرى ، فى كل قسم منها بلاد وشعوب ومدن وبحار وأنهار وجبال ، وأخذ الناس فكرة واضحة عن ذلك كله ، وانضاف

(١) تكملة من الأصل اللاتينى : Gallias .

(٢) كذا فى الأصل اللاتينى ، والصحيح Portus Rutupiae وهو الإسم اللاتينى لبلدة Richsborough على مقربة من لندن .

(٣) كذا فى الأصل والترجمة . والاسم الصحيح Mannia وهو الأصل اللاتينى لاسم جزيرة مان Isle of Man

إلى معلوماتهم حشد من أسماء الأعلام الجغرافية ما بين أسماء دول وشعوب وقبائل وأنهار وجبال وخلجان وشواطىء وما إلى ذلك . وإذا كان الجغرافيون من أهل المشرق قد عرفوا قبل ذلك معلومات أوفى مما يقدمه كتاب هروشيش عن آسيا وافريقية ، فإن المعلومات الخاصة بأوروبا كانت جديدة دون شك ، وهذه كتب الجغرافية والرحلات التى كتبها المشارقة حتى أوان هذه الترجمة بل إلى أواخر القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى لا تكاد تجد فيها شيئا تستطيع الاعتماد عليه عن أوروبا ، فأما رسالة ابن فضلان فلا تصف إلا البلقان وبلاد الروم والبلغار ، وأما كتاب البلدان لليعقوبى فيقف بالكلام عند الأندلس ، وأبو زيد البلخى لا نجد عنده أى إشارة إلى أوروبا ، وكذلك المقدسى . أما الذى يتحدث عنها بعض الشيء فهو ابن حوقل فى الفصل الذى أداره على « بحر الروم » والصورة التى رسمها له مع شرحها ، ومادته لا تتعدى سواحل البحر الأبيض وجزائره وبعض بلاد الدولة البيزنطية مع خلط وخطأ كثير(١) .

وإذن فهذه هى أول مادة مقبولة عن ذلك القسم من المعمور كتبت بالعربية ، صحيح أنها تصور أوروبا وشعوبها فى النصف الأول من القرن الخامس الميلادى ، ولكنها أعطت على أى حال صورة واضحة معقولة لجزء من العالم كان إلى ذلك الحين مجهولا أو كالمجهول تماماً .

وشيء آخر جدير بالتنويه ، وهو المصطلح الجغرافى الذى استحدثته هذه الترجمة ، وهو مصطلح جديد يختلف إلى حد كبير عن المصطلح المشرقى الذى كان جارياً إلى ذلك الحين ، وقد صاغ قاسم بن أصبغ هذه المصطلحات بمهارة ودقة بالغتين ليعبر عن مفهومات جديدة سواء فيما يتصل بالمعالم الجغرافية كمنابع الأنهار ومصابها أو السهول الخضراء المغطاة بالغابات أو الخلجان الصغيرة أو تحديد

---

(١) انظر كتاب صورة الأرض لابن حوقل طبعة كرامرز (ليدن ١٩٣٨) ج ١ ص ١٩٠ — ٢٠٥ .

الاتجاهات بما يقابل قولنا اليوم مثلا الشمال الشرقى أو الجنوب الغربى ، هنا كان توفيق قاسم بن أصبغ عظيما حقا ، وسأورد هنا — على سبيل المثال — بعض المصطلحات التى نجدها فى ذلك القسم الخاص بأوروبا وما يقابلها فى الأصل اللاتينى ومعناها فى مصطلحنا اليوم ، وسنلاحظ أن هذه المصطلحات ستجرى فى الاستعمال الجغرافى الأندلسى فى نفس الحدود الدقيقة التى استعملها قاسم ابن أصبغ فيها :

قسم	Pars	قارة
فى الجوف — من ناحية الجوف	a septentrione	فى الشمال
فى الشرق	ab oriente	
فى الغرب	ab africo (١)	
فى القبلة فى الجنوب	a meridie	فى الجنوب
بين القبلة والغرب	ab africo	فى الجنوب الغربى
بين الغرب والجوف	a circio	فى الشمال الغربى
تحت الشرق من تحت الشرق إلى الجنوب ما بين الشرق والجنوب	ab euro	فى الجنوب الشرقى
بين الغرب والقبلة	ab occasu	فى الجنوب الغربى
بين الشرق والقبلة	a borea ab euro	فى الجنوب الشرقى
فيما بين الشرق والجوف	ab aquilone	فى الشمال الشرقى

(١) المعنى الدقيق لهذا المصطلح : من ناحية الجنوب الغربى راجع : Valbuena, *Diccionario Latino-Español.* مادة Africus ص ٣٥

متلع (متالع)	terminus	سهل ، سهول
حد	lime	
يغلق على	secludit	يحيط بـ
خليج	sinus	
مستدير	inflexus	منحن أو مقوس
كورة	provincia	ولاية
ركن	angulum	زاوية
مُرَكَّنٌ	trigonus	مثلث
ضيِّق ، متضايق	angustius	
محيط	oceanus	
مستطيل	obiscius-longus	

وهذا النموذج الذى قدمناه من جغرافية هروشيش يكفى للدلالة على قيمة الثروة الجغرافية التى قدمها قاسم بن أصبغ إلى أهل العلم فى عصره وعلى الروح التى بثها فيمن حفزته ميوله إلى التأليف فى التاريخ والجغرافية . فقد أصبح فى متناول الأندلسيين مرجع قيم فى تاريخ العصور القديمة ، وخاصة اليونان والرومان والبيزنطيين ، وأطلعوا على تاريخ متصل الحلقات للمسيحية كما يرويه أهلها ، فاتسع أفقهم التاريخى وصارت أحكامهم على ذلك كله أدق وأسلم من أحكام من لم يعتمدوا على أساس طيب كهذا ، وسنرى أثر ذلك بوضوح عند ابن خلدون ، وهو المؤرخ المغربى الأندلسى الوحيد الذى تصدى لكتابة تاريخ عالمى ، وهو يشير فيه المرة بعد المرة لكتاب هروشيش ، ولا غرابة والحالة هذه أن يكون هذا التاريخ قمة من قمم التأليف التاريخى عند المسلمين ، لأن قدر المؤلف يتوقف على ملكاته ومراجعه معاً ، وفى هذا المجال كان حظ ابن خلدون أوفر من حظوظ أمثاله من أعلام المؤرخين ، وعن ابن خلدون أخذ تلاميذه وخاصة

تقى الدين احمد بن على المقريزى ، وهو من الذين اعتمدوا على هروشيش وأشاروا إليه .

أما من الناحية الجغرافية فهذه المقدمة الجغرافية الموجزة التى قدم بها هروشيش لتاريخه وضعت قاعدة سار عليها كل مؤرخى الأندلس بعد ذلك وهى التقديم للتاريخ بالجغرافية ، أى وصف الميدان قبل ذكر الحوادث ، أى أنهم أصبحوا جغرافيين ومؤرخين فى آن واحد ، وعنوا بالجغرافية عنايتهم بالتاريخ ، ومن هنا غنيت المكتبة الجغرافية الأندلسية على نحو فريد فى بابه حقا ، وانفسح المجال أمام هذا العلم الإنسانى الكبير ليتطور ويرقى فى كل اتجاه : اتجاه الوصف الطبيعى والاتجاه البشرى (السكان وعلاقتهم بالبيئة واستخدامهم الموارد الطبيعية وأثر ذلك فى أحوالهم وأخلاقهم) واتجاه وصف الرحلات .

وعند أحمد بن محمد الرازى أول تلاميذ قاسم بن أصبغ سنرى نموذجا بديعاً للاتجاهين الأولين ، سنراه يأخذ المادة البسيطة التى يقدمها هروشيش بالإضافة إلى المادة المشرقية الطيبة التى وصلت إليه ، ويبنى على ذلك كله جغرافية متكاملة للأندلس تتناول الوصف الطبيعى : الهيأة العامة لشبه الجزيرة ووصف الموقع والسطح (خاصة الجبال والأنهار) ثم تتناول الأقسام الإدارية واحداً واحداً بالوصف والتفصيل مع ذكر ما فيها من منابع الثروة ووجوه الانتفاع بها . وقد كانت بداية الرازى أساساً اعتمد عليه من أتى بعده من المؤرخين والجغرافيين ، فأما المؤرخون منهم فقد اقتصروا على نقل كلامه وربما اختصروه ، وأما الجغرافيون فقد اعتبروه نقطة بداية وأساساً وزادوا وتوسعوا ، كلٌّ بحسب ميوله ومفهوم الجغرافية عنده . وفى كلا الحالتين نرى الخيط متصلا وخطوات التطور مرتبط بعضها ببعض حتى نصل إلى أعلام من طراز البكرى والإدريسى وابن خلدون ، وكل واحد منهم مدرسة قائمة بذاتها فى تاريخ علم الجغرافية عند العرب .

وإنها لصفحة مشرقة فى تاريخ العلوم عند العرب نراها فى انتقال كتابات هروشيش إلى عرب الأندلس عن طريق عالم فقيه طموح إلى المعرفة وقَسّ

نصرانى مستعرب لسانا وروحا وثقافة ، وقد قاما بهذا العمل بايحاء خليفة مستنير هو الحكم المستنصر كان أقرب إلى العلماء المنصرفين إلى البحث والدرس منه إلى ذوى الجاه والسلطان ، ثم تناولها جغرافى مؤرخ موهوب هو احمد بن محمد الرازى فبنى على كلام هروشيش ووسعه ، وأضاف إليه المادة المشرقية الوافرة وأنشأ جغرافية طبيعية بشرية متكاملة ، ثم جاء من بعده فأكملوا بناءه ووصلوا به إلى أبعد ما وصلت إليه الجغرافية عند العرب من شمول وضبط وتحقيق . ثم تنقضى أيام المسلمين ويجىء ملك علامة نصرانى هو ألفونسو العاشر فيأمر بترجمة جغرافية الرازى إلى الاسبانية ويضمنها تاريخا عاما لاسبانيا ، وعلى أساس هذا التاريخ العام يقوم التأليف فى الجغرافية والتاريخ فى اسبانيا إلى نهاية القرن السادس عشر الميلادى .

فأى برهان هو أنصع من هذا على اتصال شجرة المعرفة الانسانية واستمرارها من عصر لعصر وتعاون الأجيال على رعايتها والعناية بها رغم اختلاف الأديان واللغات والعصور ؟ وأى برهان هو آكد من هذا على ما قام به العرب من دور جليل فى تطوير المعرفة الانسانية والسير بمشعل الحضارة الانسانية خلال العصور التى تسمى مظلمة — وما هى مظلمة بحال ؟ هنا نرى دور العرب من الوضوح بحيث يكاد يلمس باليد . وهذا فى فرع واحد من العلوم ، وفى الميادين الأخرى براهين أخرى لمن درس وبحث وطلب الحقيقة فى بطون المؤلفات .

٤ — احمد بن محمد الرازى ومعاصروه

يعتبر احمد بن محمد الرازى أبا الجغرافية والتاريخ فى الأندلس فى آن واحد ، فقد أخذ عن أبيه محمد بن موسى الميل إلى التاريخ والاهتمام بالتأليف فيه ، وزاده اهتماما بهذا الفن شيخه قاسم بن أصبغ البيانى ، وقد رأينا عنايته

بالتاريخ واشتهار أمره به فى الأندلس ، ورأينا كيف انصرف مع الوليد بن خيزران إلى ترجمة كتاب هروشيش وكيف قاما بها على ذلك النحو الفريد . فإذا ذكرنا أن هذه الترجمة لم تكن إلا جزءً يسيراً من ذلك النشاط الثقافى الذى زخرت به قرطبة أيام الحكم المستنصر ، تصورنا البيئة العلمية الأندلسية فى ذلك العصر : بيئة تأليف وترجمة وتجديد وطلب دءوب للعلم والمعرفة مما جعل قرطبة خلال القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى مركزاً من مراكز القيادة والاشعاع للحضارة فى العالم أجمع .

فى هذه البيئة المواتية نشأ احمد بن محمد الرازى ، وكان بطبعه طلعة مُتَهَمِّما بأحوال الدنيا وأخبار البشر ، فانصرف إلى الجغرافية والتاريخ انصرافا تاما أرسى به أسس هذين العلمين فى بلاده ، فلا تقتصر أهمية عمله فى هذا الباب على ما كتبه بنفسه ، وهو كثير ، بل تشمل الحركة التى قادها والأسس التى وضعها وسار عليها من أتى بعده . وستكون كتبه المعين الذى سيستقى منه كل مؤرخى الأندلس وجغرافييه فيما بعد ، والمدرسةَ التى سيمضى التأليف والجغرافية فى الأندلس على أصولها إلى آخر أيام الأندلس الإسلامى .

ويعنينا هنا احمد بن محمد الرازى الجغرافى لا المؤرخ ، وإن كان الفصل بينهما عسيراً نظراً للترابط الوثيق بين مفهومى هذين العلمين عنده . والمعلومات التى لدينا عن حياته قليلة على أى حال ، معظمها يعتمد على الفقرة القصيرة التى كتبها عنه أبو الوليد الفرضى فى « تاريخ علماء الأندلس » ونقلها عنه ووسعها بعض الشىء أبو محمد على بن حزم فى رسالته المعروفة عن فضل الأندلس التى أورد نصها المقرى . قال ابن الفرضى : « احمد بن محمد بن موسى بن بشير بن حماد بن لقيط الرازى الكنانى ، من أَنفُسِهم . من أهل قرطبة ، يكنى أبا بكر . وفد أبوه على الإمام محمد ، وكان من أهل اللسانة والخطابة . وُلد احمد بالأندلس ، وسمع من احمد بن خالد وقاسم بن أصبغ وغيرهما . و (كان) كثير الرواية حافظاً للاخبار ، وله مؤلفات كثيرة فى أخبار الأندلس

وتواريخ دول الملوك فيها ، أديباً بليغاً شاعراً ، توفى رحمه الله يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ٣٤٤ وكان مولده يوم الاثنين فى عشر ذى الحجة سنة ٢٧٤ . ذكر ذلك محمد بن حسن[١]» أما كلام ابن حزم فهذا نصه : « ومن الأخبار تواريخ احمد بن محمد بن موسى الرازى فى أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم[٢] كتاب كبير ، وذلك كثير جداً ، وكتاب له فى صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو ما بدأ به ابن أبى طاهر فى أخبار بغداد ، وذكر منازل صحابة أبى جعفر المنصور بها[٣] » ثم قال بعد ذلك : « وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى فى أنساب مشاهير أهل الأندلس فى خمسة أسفار ضخمة ، من أحسن كتاب فى الأنساب وأوسعها[٤]» .

وقد اعتمد محمد بن فتوح الحميدى على كلام ابن حزم فى المادة التى اختص بها احمد بن محمد الرازى ، ولكن الأمر اختلط عليه ، فأورد مادتين فى الجذوة أولاها عن « احمد بن محمد التاريخى (رقم ١٧٤) والأخرى عن احمد ابن محمد بن موسى الرازى (رقم ١٧٥) ، فأما الأولى فنصها : « احمد بن محمد التاريخى ، عالم بالأخبار ، ألف فى مآثر المغرب كتبا جمة ، منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة ، وخواص كل بلد منها ، وما فيه مما ليس فى غيره ، ذكره أبو محمد على بن احمد (ابن حزم) وأثنى عليه[٥] » وأما الثانية فقد أورد فيها كلام ابن حزم الذى

---

(١) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣٥ ص ٤٠

(٢) كذا فى النص كما أورده المقرى وكما نقله عن الضبى . وقد جعلها ناشر جذوة المقتبس للحميدى « وركبائهم » واعتقد أن صحتها « وكتابهم » .

(٣) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٦٦

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ١٦٧

(٥) الحميدى ، جذوة المقتبس (بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ١٩٥٢) رقم ١٧٤ ص ٩٧

ذكرناه وختمه بقوله : « كذا قال أبو محمد (ابن حزم) ولم يبين إن كان هو الأول أو غيره ، لأنه ذكر ذلك فى موضعين ، وأنا أظنه الذى قبله والله أعلم[١] » ولم يكن الحميدى بحاجة إلى هذا التساؤل فإن احمد بن محمد التاريخى هو احمد بن محمد الرازى ، والمادتان تدوران على رجل واحد فى الحقيقة ، ولكن الحميدى كان يكتب فى بغداد بعيداً عن مراجعه وأصوله ، فلم يستطع التثبت مما نقل عن أستاذه ابن حزم .

ولكن مادتى الحميدى تنطويان رغم ذلك على فائدة تنفعنا هنا ، فقد ذكر فى أولاهما كتاب الرازى عن « مسالك الأندلس » وفى الثانية ذكر تآليفه فى التاريخ ، فكأن الأولى عن الرازى الجغرافى والثانية عن الرازى المؤرخ ، وهذا توفيق لم يقصده الحميدى ، ولكنه كان من حظه ، لأن أحداً غيره من أصحاب معاجم التراجم لم تتيسر له هذه الاشارة اللطيفة إلى ما كتب الرازى فى الجغرافية ، نعم إن ما يسمى هنا « بمسالك الأندلس ومراسيها . . . » إنما هو المقدمة الجغرافية لتاريخ الرازى الكبير ، ولكن هذا لا يقلل من فضل الحميدى فى هذا المقام . وكما هى العادة نقل احمد بن يحيى بن عميرة الضبى المادتين بنصهما فى بغية الملتمس دون أن يكلف نفسه عناء التثبت من أمر يسير كهذا[٢] .

وصف الأندلس للرازى

تناول احمد بن محمد الرازى الجغرافية على أنها علم متمم للتاريخ ، وجغرافيته الباقية بين أيدينا هى فى الغالب مقدمة لكتابه «أخبار ملوك الأندلس» ، لأن القطعة الباقية منها فى ترجمتها إلى البرتغالية والاسبانية القديمتين تستطرد بعد

(١) نفس المصدر رقم ١٧٥ ص ٩٧
(٢) الضبى ، بغية الملتمس ، رقما ٣٢٩ و ٣٣٠ ص ١٤٠

وصف الأندلس إلى الكلام عمن ملكه ومن دخله من الشعوب قبل الفتح العربى .
ولا شك فى أن النقول الجغرافية الكثيرة التى نجدها فى نفح الطيب متصلة بقرطبة إنما هى من كتاب احمد الرازى فى صفة قرطبة . أما كتاب « أعيان الموالى بالأندلس » فيغلب أنه كان كتاب تراجم لا يضم مادة جغرافية كثيرة ، وإن كنا لا نستبعد أن تكون فيه هذه الاستطرادات الجغرافية المعروفة فى كتب التراجم المطولة .

سلك احمد الرازى فى جغرافية الأندلس طريقا لا نجد له شبيها فيما نعرف من كتب الجغرافية السابقة عليه فى المشرق : بدأ بتحديد موقع شبه الجزيرة من الأقاليم دون إسراف فى ذلك ، فاكتفى بالقول بأنه فى الإقليم الرابع ، فى حين أننا سنجد على بن سعيد فيما بعد يجعل بعض الأندلس فى الإقليم الرابع وبعضه فى الخامس ، ويجعل له حظاً فى السادس أيضاً . ثم تحدث الرازى بعد ذلك عن هيأة شبه الجزيرة ، فقال إنها هيئة « مركنة ذات ثلاثة أركان » أى مثلثة ، ناقلا بذلك عبارة هروشيش Hispania trigona est ، ثم يلى ذلك تحديد مواضع تلك الأركان . ويغلب على الظن أنه اتبع ذلك بالفقرة الخاصة بالأسماء التى كانت تطلق على شبه الجزيرة قبل الإسلام ، لأن القطعة التى تدور حولها والمنسوبة لأبى عبيد البكرى ترد فى سياق كلام كله لأحمد بن محمد الرازى .

ثم عقد الرازى بعد ذلك فصلا لمناخ شبه الجزيرة بادئا إياه بعبارة سينقلها عنه الكثيرون من الجغرافيين بعده ، وهى عبارة « والأندلس أندلسان » وقد أضافها الرازى من عنده إلى ما أخذه عن ترجمة هروشيش من تقسيم اسبانيا إلى قسمين كبيرين ، وبينما نجد تقسيم هروشيش لاسبانيا لا يزيد على أن يكون تقسيما سياسياً منقولا عن التقسيم الرومانى الأول إلى Hispania Citerior و Hispania Ulterior مع بيان لحدود كل منهما ، نجد الرازى يستطرد إلى ما هو أبعد من ذلك ، فيجعل قسمى اسبانيا اقليمين مناخيين متباينين « فى اختلاف هبوب أرياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها : أندلس غربى وأندلس شرقى ، فالغربى منهما ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربى ، وتمطر بالرياح الغربية . .

والحوز الشرقى المعروف بالأندلس الأقصى ، وتجرى أوديته إلى الشرق ، وأمطاره بالريح الشرقية »[١] . هنا نجد ذلك الجغرافى المؤرخ الحصيف يمس نظرية كبرى سيعرضها ويفصلها مؤرخو اسبانيا فى العصر الحديث : حقيقة انقسام اسبانيا إلى اسبانيتين : متوسطية La España Mediterranea واسبانيا أطلسية La España Atlántica وهى نظرية سيتوسع فيها رامون مننذ بيدال فى مقدمة الجزء الأول من تاريخ اسبانيا العام الذى ينشر تحت اشرافه وفى الفصول الأولى من تاريخه لاسبانيا فى القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى المعروف باسم « اسبانيا فى عصر السيد » . وهذه الالتفاتة من جانب احمد بن محمد الرازى تدل على صدق تصوره الجغرافى والتاريخى وعلى فهمه العميق لطبيعة البلد الذى انتمى إليه وعاش فيه وتصدى للكتابة فى جغرافيته وتاريخه .

ولدينا بعد ذلك من جغرافية الرازى فى نصّيها البرتغالى والاسبانى فقرتان على أعظم جانب من الأهمية الجغرافية ، الأولى تتحدث عن أنهار الأندلس والثانية تتحدث عن جباله . وقد وردت هاتان الفقرتان فى نهاية هذين النصين ، أى بعد ذكر الكور والمدن[٢] . ويغلب على ظننا أن مكان هاتين

(١) رواه المقرى فى نفح الطيب ، ج ١ ص ١٢٨ — ١٢٩

(٢) انظر الترجمة البرتغالية لجغرافية الرازى الواردة فى :

Crónica Geral de Espanha de 1344, (edição critica do texto português per Luís Filipe Lindley Cintra), vol. II, (Lisboa, 1954), pp. 39 sgg.

ويؤيد ما قلناه فى المتن أن الفقرة الخاصة بتقسيم اسبانيا إلى قسمين تأتى هنا قبل ذكر الأنهار والجبال مباشرة .

أما الترجمة الاسبانية الواردة فى *Crónica General de España de 1344* فقد أورد نصها Pascual de Gayangos فى خطاب الاستقبال الذى ألقاه فى حفل قبوله عضوا فى مجمع التاريخ الاسبانى ونشر بعنوان : *Memoria sobre la autentecidad de la Crónica denominada del Moro Rasis.* ص ٦١ و ٦٢

وقد عثر ليفي بروفنسال على أوراق من جغرافية البكرى تضم هاتين الفقرتين ، ونشر الأولى فى الذيل رقم ٤ الذى علقه على الترجمة الفرنسية للروض المعطار فى خبر الاقطار لابن عبد المنعم الحميرى ، ص ٢٥٠ من القسم الفرنسى . ونشر الثانية الخاصة بالأنهار ذيلا على الترجمة التى عملها من البرتغالية لجغرافية الرازى ، التى نشرها بعنوان :

La Description de l'Espagne de Razi, Al-Andalus, vol. XVIII, fasc. I. p. 101—104

وعثرنا نحن على مخطوط أوفى سنتحدث عنه فى الفصل الخاص بأبى عبيد البكرى .

الفقرتين يجيء بعد الفقرة التى أوردنا طرفا منها عن تقسيم الأندلس إلى أندلسين ، لأن الطبيعى ، بعد ذكر التقسيم بحسب الرياح والأمطار ومجارى الأنهار أن يجىء تفصيل هذه الأخيرة ، خاصة وأن الذين أتوا بعد الرازى ، كابن النظام سيتوسعون فى هذه النظرية ، وسيذكرون كيف أن جبال اسبانيا أيضاً تسير من الغرب إلى الشرق أو من الشرق إلى الغرب « هابطة جبلا بعد جبل » .

هاتان الفقرتان تعتبران من أجمل نماذج التدقيق فى الوصف والتحديد الذى تمتاز به جغرافية الرازى ، ولا نستطيع القول بأنه نقلهما عن مؤلفين قدامى ، فإننا لا نجد فى كتاباتهم شيئا مجتمعا واضحا عن أنهار شبه الجزيرة وجبالها كما نجد فى كلام الرازى ، نعم إن المعلومات التى أوردها توجد عند كتاب اليونان واللاتين ، ولكنها متفرقة فى كتب كثيرة ، والكثير منها يرد فى أثناء التفاصيل التاريخية ، وليس من المعقول أن يكون الرازى قد أطلع على ذلك كله ثم قام بايجازه ، ثم إن أحدا من أولئك اليونان واللاتين لم يشر إلى العلاقة بين رياح شبه الجزيرة وأمطارها وأنهارها ، ولم يكن اهتمامهم منصرفا إلى أهمية هذه الأنهار فى الرى كما نجد عند الرازى ، بل إلى ناحيتها الملاحية ، لأن اليونان والرومان اعتمدوا عليها فى التوغل داخل شبه الجزيرة . ومن الجدير بالملاحظة أن أنهار شبه الجزيرة كانت فى العصور القديمة أغزر ماء وأوسع وديانا وأحواضا ، ومن هنا فقد كانت أهميتها الملاحية أكبر وأهم ، وكانت هى التى استلفتت اهتمام اليونان والرومان . والفرق الرئيسى بين وجهتى النظر اليونانية الرومانية من ناحية والعربية من ناحية أخرى هو أن الأوَل كانوا يكتبون عن بلاد أجنبية عنهم يريدون احتلالها والسيطرة عليها ، فلا يهتمون إلا بما ييسر ذلك لهم ، أما الرازى فقد كان أندلسيا عربيا يكتب عن بلاده واصفاً نواحيها وجبالها وأنهارها مهتما بناحية الرى والزراعة فيها . فحتى إذا كانت بعض معلومات كتاب اليونان والرومان قد وصلت إليه فإن فضله يتبين فى توجيه تلك المعلومات

هذه الناحية الأندلسية الصرفة ، والنظر إلى شبه الجزيرة على أنه معاش ووطن لا على أنه ميدان للغزوات والاستغلال .

ولنضف إلى ذلك أن معلومات الكثير من أولئك الكتاب اليونان واللاتين قامت على السماع ، ومن ثم فقد حفلت بالأخطاء ، أما معلومات الرازى فمبنية على المشاهدة والمعلومات المأخوذة من وثائق الدولة . ومِنْ ثَمَّ فهى أقرب إلى الصواب وأحرى بالثقة . ومثال ذلك أن افيينوس يقول اعتمادا على كلام صاحب « الطواف حول شبه الجزيرة » أن نهر الابرو يسمى نهر الزيت Oleum flumen ، وحوض الإبرو لم يكن مشهورا فى تلك الأعصر بأشجار الزيتون ، وانما بحقول القمح والكروم أى بالنبيذ ، وانما أتى الخطأ من تحريف لما قاله صاحب الطواف من أن نهر الإبرو يسمى Ελαίος وربما كان ذلك تحريفا للفظ Elaisos وهو أحد أسماء شبه الجزيرة فى القديم . ومن[1] الواضح أن الرازى لم يأخذ معلوماته عن الأنهار عن بطليموس ، فإن هذا الأخير يقول مثلا إن طول هذا النهر (الابرو) ٢٥٠٠ ستاديوم أى ٤٦٠ كيلومترا فى حين أن الرازى يجعل طول النهر ٢٠٤ ميلا أى نحو ٣٠٠ كيلومترا .

ومن أسف أن البكرى عندما نقل الفقرة الخاصة بالجبال أوجزها إيجازاً أضاع الكثير من قيمتها (ولعل كاتب النسخة التى وصلتنا هو الذى فعل ذلك) ، ونصها عنده « ومن الجبال المشهورة بالعظم فى بلد الأندلس منها جبل إلبيرة (La Sierra de Elvira) وجبل الثلج (Sierra Nevada) وهو متصل بالبحر المتوسط ، منتظم بجبل ريُّه ولاصق بالجزيرة مع البحر . . . ومنها جبل البرت ، وهو الحاجز بين بلاد الإسلام وبلد غاليش ، ومبتدأه من البحر القبلى المتوسط

(١) Cf: Adolf Schulten, *op. cit.* I, p. 308

المجاور طرطوشة ، ومنتهاه إلى البحر الغربى بين الأشبونة وجليقية ، ومنها الجبل الحاجز بين بلاد افرنجة وبلاد الصقالبة »[1] (يريد جبال الألب) .

وهذه الصورة الموجزة لا تعطى إلا فكرة مشوهة عن حقيقة ما كتبه الرازى عن جبال اسبانيا ، وها هو مستخرجا من الترجمة البرتغالية ومقربا إلى أسلوب الرازى قدر الإمكان : « وليس فى الأندلس على ما عرفناه فى الحقيقة إلا ثلاثة جبال تقطعه مستعرضة من البحر إلى البحر ، ولا يقطع هذه الجبال نهر فى أى موضع من مواضعها . وفى هذه الجبال حصون منيعة لكل حصن منها الأراضى الواسعة الكثيرة الخيرات ، وأول هذه الجبال جبل قرطبة (Sierra Morena) ومبتدأه فى شرق الأندلس عند ساحل البحر الذى يتوسط الأرض ماراً ببلنسية وباجة واشطمبار[2] واقليم الجوف ومنتهاه عند البحر الغربى الكبير .

« أما الجبل الثانى فمبتدأه عند ساحل البحر الشرقى مقبلا من ناحية أربونه ، وهو الحاجز بين الأندلس وبلاد إفرنجة ، والفرنجة تسميه جبل رنشفالة (Roncesvalles) ، ويسير موازيا لبلد بشقاية (Vizcaya) وبلد اشتريس ومنتهاه عند البحر فى جليقية فى اقصى الشمال[3] .

« والجبل الثالث فمبتدأه عند البحر المتوسط مجاوراً لطرطوشة ، ويمر غير بعيد من قرطبة ومنتهاه عند البحر الغربى على خمسة عشر مجرى[4] من الاشبونة .

---

(١) انظر الذيل رقم ٤ على الترجمة الفرنسية للروض المعطار التي قام بها ليفى بروفنسال ونشرها باسم : *La Péninsule Ibérique au Moyen Age d'après le Kitāb ar-Rawḍ al-Mi'ṭār* (Leiden 1938). p. 250

(٢) علق بسكوال جيانجوس على ذكر باجة هنا بقوله إنها لا يمكن أن تكون فى اقليم الجوف el Algarve خاصة وهو يتحدث هنا عن جبل قرطبة (سيرا مورينا) (ص ٦١ تعليق ٣) . أما اسطمبار فقد وردت فى الأصل اسطمبه Estumba ، ولا وجود لموضع بهذا الاسم ، ولهذا عدله إلى هذه الصورة . (تعليق ٤) .

(٣) فى النص الاسبانى : en derecho del septentrione

(٤) فى الاسبانية 15 migeros وهو جمع لفظ مجرى العربى وهو مقياس لطرق البحر عند المسلمين ومعناه مرحلة من مراحل الرحلة بالبحر .

« ومن جبال الأندلس الأخرى غير هذه جبل الثلج ، ومبتدأه عند إلبيرة وينتهى عند البحر المتوسط عند الجزيرة الخضراء ، والجبل الذى يسمونه جبل ريه (Sierra de Málaga) . ويلتقى هذان الجبلان عند إلبيرة[١] » .

وهذه الفقرة تعطينا فكرة عن الجغرافية الطبيعية لشبه الجزيرة الإيبيرية كما كتبها الرازى . وربما كان كلامه عن الأنهار أدق وأوفى من كلامه عن الجبال . لأن اهتمام العرب بالمياه ومجاريها وقيمتها بالنسبة للرى كان عظيما . وسنورد منه فقرة واحدة فيها غناء . قال الرازى عن نهر الوادى الكبير : « ومن الأنهار المشهورة ببلاد الأندلس نهر قرطبة ، ويعرف بنهر بيطى (Baetis) . مخرجه من ناحية رَيْمِيَّه[٢] . وبين منبعثه إلى موقعه فى البحر بعد اشبيلية ثلاثمائة ميل وعشرة أميال ، ويقع فيه سنجيل (شِنِّيل) ، وهو ينبعث من الثلج من جبال إلبيرة . وعليه مدينة استجه »[٣] . فهذا كلام جغرافى يعرف حدود العلم الذى يتولاه ومطالبه ، فهو يصف منبع النهر ومصبه وما يمر به من النواحى وما يقع فيه من الروافد ، ويذكر طوله . وعندما يتحدث عن الأندلس من الناحية السياسية والبشرية ، سيأتينا بمعلومات أوفى وأدق عن الأقاليم التى يمر بها ومدنها ومعادنها وحاصلاتها ، أى أننا نخرج بفكرة واضحة دقيقة عن حوض الوادى الكبير من كل ناحية تقريباً .

---

(١) فى الاسبانية :

Et otra sierra que llaman Raya entra la dicha sierra de la Elada et metese una por otra, et vase a Elibera.

راجع مقال جايانجوس الآنف الذكر ص ٦١ وكذلك مقال ليفى برفنسال عن جغرافية الرازى الذى أشرنا إليه ص ١٠٠ — ١٠١

(٢) علق ليفى بروفنسال على هذا اللفظ بقوله إن كل المخطوطات تورده فى صورة Reymon أو Remon وصحته ريميه ، وهو موضع ذكره ياقوت باسم ويميه (٤ / ٩٤٥) . وقد ورد ذكره فى الروض المعطار بصورته الصحيحة (انظر رقم ٨٠ ص ٧٩ من النص العربى) وقال إنها تعرف بمدينة بنى راشد .

(٣) انظر الذيل رقم ٦ على مقال ليفى بروفنسال الآنف الذكر ، ص ١٠٠ — ١٠١

فإذا فرغ الرازى من هذه المعلومات العامة عن الجغرافية الطبيعية للأندلس دخل فى القسم الأهم ، وهو الجغرافية السياسية والبشرية ، فقسّم الأندلس إلى كور ومدن ، والمدينة فى الأندلس قسم إدارى كالكورة له زمام واسع تقع فيه مدن وقرى وحقول واسعة ، وكان الأندلسيون يسمون القسم الادارى الواقع على الحدود أو المحيط بالعاصمة مدينة ، وقد أخذوا ذلك عن النظام الرومانى الذى كان سائداً فى شبه الجزيرة قبلهم ، وكان يجعل لكل مدينة زماماً واسعاً يتبعها ويخضع لسلطان المجلس البلدى فيها ، وكانت تسمى عندهم مونيثبيا Municipia ، وقد تناولنا هذا الموضوع بما فيه الكفاية من الشرح والتفصيل فى كتابنا « فجر الأندلس » فليرجع إليه من يريد التوسع فيه[1] .

وسأورد هنا نموذجين من كلام الرازى عن كور الأندلس ومدنها ، الأول خاص بكورة والثانى خاص بمدينة من الطراز الذى تحدثت عنه آنفا حتى يتبين الفرق بين مفهوم الكورة ومفهوم المدينة عند الأندلسيين ، إلى جانب ما يتجلى من خصائص هذه الجغرافية البشرية التى كتبها الرازى :

« كورة بلنسية[2] : ويتصل بحوز كورة تدمير حوز كورة بلنسية ، وهى شرق من تُدْمِير وشرق من قرطبة[3] ، ونِخِطَّةِ بلدها مسافة بعيدة ، ومنافعها

---

(١) فجر الأندلس ، ص ٥٦٥ وما بعدها .

(٢) أخذت هذه القطعة من نص « تعليق منتقى من فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس للحافظ محمد بن أيوب بن غالب الغرناطى الذى نشره الدكتور لطفى عبد البديع فى مجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ١ ج ٢ ص ٢٨٥ ، فقد تبين لى بعد البحث والمقارنة أن معظم القطع التى أوردها الذى قام بعمل ذلك التعليق المنتقى إنما هى من كلام الرازى نفسه . وسيرى القارىء فيما يلى كيف أن مواضع الخلاف بين هذا النص والترجمتين الاسبانية والبرتغالية لجغرافية الرازى قليلة .

(٣) فى الترجمه البرتغالية : E. Vallença jaz no levante de Tussuyr et ao levāte de Cordova

وفى الترجمة الاسبانية : et Valencia yace al levante de Tudemir et al levante de Córdova

وقد ترجمها ليفى بروفنسال « شرق من تدمير وغرب من قرطبة » وهو غير صحيح لأن الأقرب إلى المفهوم الجغرافى فى تلك العصور : شرقى من تدمير وشرقى من قرطبة ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الساحل الشرقى الحالى كان يسير من الشرق إلى الغرب موازيا لساحل افريقية ، وعلى هذا فتكون بلنسية إلى شرق تدمير وهى مرسية وهذه إلى شرق قرطبة . و Tussuyr الواردة فى النص البرتغالى تصحيف للفظ تدمير وقد ورد فى صورته الصحيحة فى هامش الصفحة السابقة ٤٨

لأهلها عظيمة . جمعت البر والبحر والزرع والضرع ، ولها السهل والجبل .

« وبها مدن عظيمة وحصون قديمة ، فمن مدائنها مدينة بلنسية ، وهى المعروفة بمدينة التراب ، ولها حصن ارغيرة ؛ ودانية ، وهى على ضفة البحر ، ولها أقاليم كثيرة متسعة ، ومرساها من أعجب المراسى ، وجميع أقاليمها وجبالها مغترسة بالكروم وأشجار التين والزيتون ؛ ومدينة الجزيرة ، ومبتناها على نهر شقر .

« ولها من المدن والمعاقل حصن شاطبة ، وهو قديم أوَّلىٌّ مطل على بطاح وأنهار ؛ ومدينة مُرْبيطَر ، ولها قصر يطل على بطحائها وعلى البحر ، يحار فيه الناظرُ وتعجز عنه الحكاية .

« ويتصل بها إقليم بُرِّيانة ، ولها أرض طيبة . ولها مدينة أُنْدَه ، وهى كثيرة المياه غزيرة الفواكه ، فيها معدن حديد . ولها مدينة شُبْرُب[1] ، يجود فيها القمح والكتان . ولها حصن شارقة وغيره من الحصون . ومدينة جزيرة شقر فيما بين بلنسية وشاطبة » .

وهذه عبارة موجزة ولكنها وافية بالغرض من مقدمة جغرافية ، وكل لفظ فيها له قيمته الجغرافية ومعناه الاصطلاحى الخاص . فالحوز هو زمام الكورة كله ، أى ما يتبعها من الأرضين والبلاد . وخطة البلد هى المساحة التى تغطيها المدينة نفسها وما يتبع حكومتها من الارباض والقرى . ومعنى أنها جمعت البر والبحر هو أنها ميناء له ميزات الموانى ومدينة لها خطة واسعة ، أى يتبعها ما يسمى بالهِنْتَرْلاَنْد أى الأرض الزراعية التى تغذيها بالاطعمة والمحاصيل الوافرة ، ولهذا يقول بعد ذلك أنها جمعت الزرع والضرع ، ثم يضيف أنها جمعت ميزات السهول وميزات الجبال ، وهى عبارة لها معناها الاقتصادى والعمرانى .

---

(١) هكذا ضبطها ياقوت (معجم البلدان ٥/٢٣١) والغالب أنه نقل رسمها من العذرى . وليس بين بلدان بلنسية موضع بهذا الإسم ، وإنما الموجود Segorbe وهى اسقفية تابعة لبلنسية من الناحية الدينية ولمديرية قسطليون Castellón de la Plana من الناحيتين الإدارية والقضائية .
Cf. Madoz, *op. cit.* XIV, 67-74.

أما قوله إن لها مدنا عظيمة وحصونا قديمة فيراد به إحصاء ما يتبع كورة بلنسية من المدن الكبيرة وما يدخل فى زمامها من الحصون المنيعة ، لأن « القديمة » هنا تشمل معنى القدم ومعنى المنعة فى آن واحد ، ولم تكن هناك حصون مهجورة أو متروكة ، لأن الحصون كانت تقام فى مواقع معينة لها ميزاتها العسكرية والدفاعية ، فكانت لهذا تجدد وتعمر بالجند وتشك بالسلاح عصراً بعد عصر . وذكر الحصون هنا إشارة إلى منعة الكورة وأمان ساكنيها .

ثم يبدأ الرازى بذكر المدن ، وكلامه عنها مختصر ، لأنه سيفصل تاريخ إنشائها وبناء عمائرها فيما يلى من التاريخ ، وسنرى العذرى يأخذ من المادة التاريخية للرازى ما يتصل بإنشاء المدن وما أضافه الأمراء والخلفاء إلى عمارتها ويجعله مع جغرافيته . وهو يذكر من مدن كورة بلنسية القاعدةَ نفسها ويقول إنها المعروفة بمدينة التراب ، ويضيف إليها حصنا لم أستطع تحقيقه وهو أرغيره ، ويبدو أنه تحريف لاسم حصن صغير لم يبق له وجود . والنص البرتغالى يحرفه إلى Aljazira أى الجزيرة ، والمراد جزيرة شقر ، وهو غير صحيح ، لان الرازي سيذكر جزيرة شقر بعد ذلك ، وقد راجعت مادة بلنسية المطولة عند العذرى فلم أجد فيها حصناً بهذا الاسم . وهو لا يفصل بعض الشىء إلا عند الكلام على دانية . وقد لاحظت عند المراجعة أن نص فرحة الأنفس سقط منه اسم مدينة مربيطر ، وهو موجود فى الترجمتين الاسبانية والبرتغالية .

وإذا نظرنا إلى هذه المادة فى مجموعها تبينا أنها تقدم لأهل العصر أهم ما يحتاجون إليه من المعلومات عن كورة بلنسية ، فهو يحدد الموقع والحدود والمدن والحصون ويذكر الميزات الخاصة من الوقوع على البحر والاتصال بالسهول والأنهار ، ثم يذكر الحاصلات سواء أكانت زراعية أم معدنية ، مع إشارة واضحة إلى الحصون التى تعطى الناس فكرة عن منعة الناحية وأمان من فيها .

وننتقل الآن إلى نموذج من كلامه عن مدينة ، أى عن قسم إدارى يشبه الكورة ، ولكنها كورة عسكرية تقوم فى منطقة الثغر أو فى ناحية هامة من الوجهة

الحربية ، كالمنطقة التى تقوم فيها عاصمة الخلافة وهى قرطبة ، فهذه لم تكن معتبرة كورة بل مدينة كورة ؛ والمنطقة الواقعة إلى شمالها ، وهى فِرِّيشْ ، كانت أيضا معتبرة مدينة لها حكومة يغلب عليها الطابع العسكرى الدفاعى ، مدينة كورة إذا شيئا مزيدا من التوضيح . وسنختار مدينة تُطِيلَة :

«[وتتصل أحواز مدينة أشقة بأحواز مدينة تطيلة][١] ، [وهى فى جوفى أشقة وشرقى قرطبة][٢] ، حازت الغاية من شرف البقعة ، وحوت طِيبَ الزرع ودَرَّ الضرع وكثرة الثمار والأنهار[٣] . [وأنهارها كلها تنصب فى نهر إبره][٤] ، ويطيف بِجَنَّات تطيلة نهر كالش[٥] ، وهى أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التى يدخل منها إلى أرض المشركين[٦] ، [وعند باب تطيلة القنطرة المقامة على نهر إبره ، وتحت أقواس القنطرة الارحاء التى تدفعها مياه النهر أبدا[٧]] ، واختطت تطيلة فى أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية[٨] . [وكان الذى اختطها عمروس بن يوسف ، وكان يوسف هذا عاملا على سرقسطة وتوابعها][٩] .

[ومن كبار مدائنها طرسونة[١٠]] وكانت مستقر العمال والقواد بالثغور ، وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان المعروف بصاحب الارض اختارها محلا وآثرها

---

(١) ترجمت هذه العبارة عن الترجمتين البرتغالية والاسبانية مستخدما مصطلح الرازى . وعند ياقوت « مدينة بالأندلس فى شرق قرطبة تتصل بأعمال أشقه » (٢/٣٩٢) ، وفى الروض المعطار : « مدينة بالأندلس فى جوفى وشقة ، وبين الجوف والشرق من مدينة سرقسطة » (ص ٦٤) .

(٢) ترجمت هذه العبارة أيضا مستعينا بعبارة الروض المعطار الواردة فى التعليق السابق .

(٣) هذه العبارة واردة بنصها فى « التعليق المنتقى » (ص ٢٨٧) .

(٤) وردت هذه العبارة فى الترجمتين البرتغالية والاسبانية ، ولم ترد فى الأصول العربية التى لدينا .

(٥) وردت هذه العبارة فى الترجمتين وفى الروض المعطار (ص ٦٤) ونهر كالش هو Queiles من نهيرات إبره .

(٦) انفرد بايراد هذه العبارة « التعليق المنتقى » (ص ٢٨٧) ومن الطبيعى أن تسقط فى الترجمتين .

(٧) هذه العبارة وردت فى الترجمتين ولم ترد فى أى من الأصول العربية ، فأضفتها بين حواصر .

(٨) كذلك هذه العبارة ، ولكنها وردت مفصلة عند العذرى .

(٩) هذه العبارة وردت فى الترجمة البرتغالية محرفة جدا وقد أصلحها على هذه الصورة ليفى بروفنسال فى ترجمته الفرنسية (ص ٧٦) .

(١٠) لم ترد هذه العبارة فى الترجمتين ؛ والسياق لا يستقيم بدونها .

على مدن الثغور منزلا . وكانت تَرِدُ عليه عشر مدينة أربونه وبرشلونة . ثم عادت طرسونة من بنات تطيلة عند تكاثر الناس بتطيلة ، وإيثارهم لها لفضل بقعتها واتساع خطتها[١] .

« ولإقليم تطيلة مدن وحصون كثيرة ، أخصها أرنيط Arnedo ، وهى مدينة أولية[٢] . [وهناك أيضاً مدينة قلهرة ومدينة ناجرة وبقيرة Viguera ولها حصن فى غاية المنعة على ضفة نهر يفصل بينها وبين الجبل المطل عليها][٣] .

[ومن تطيلة إلى سرقسطة ٣٠ ميلا ، ومن قلعة أيوب إلى تطيلة ٢٥ ميلا ، ومن قلهرة إلى تطيلة ١٢ ميلا ، ومن ناجرة إلى تطيلة ٥٠ ميلا ، ومن بقيرة إلى تطيلة ٣٣ ميلا ، ومن أرنيط إلى سرقسطة ٨٠ ميلا ، ومن طركونة إلى تطيلة ١٢ ميلا] »[٤] .

وواضح جداً من وصف الرازى « لمدينة » تطيلة أنه يتحدث عن منطقة عسكرية ثغرية ، فهو يتكلم عن الحصون والقلاع والميزات الحربية للمنطقة كلها ، بخلاف ما رأينا من كلامه على كورة عادية مثل بلنسية ، فهو يتكلم هناك عن الزروع والثمار والخيرات والمراسى والمعادن وما إلى ذلك . ومما يستوقف النظر استعماله

---

(١) هذه العبارة كلها وردت فى الروض المعطار ص ١٢٣ وقد أخذها ابن عبد المنعم الحميرى بنصها عن الرازى بدليل وجودها فى الترجمتين الاسبانية (طبعة جايانجوس ص ٤٥) والبرتغالية (طبعة لندلى سنترا ص ٥٤ — ٥٥) . وانظر أيضاً مقال ليفى بروفنسال عن جغرافية الرازى مقابل ص ٥٦) .

(٢) وردت هذه العبارة فى الروض المعطار رقم ١١ ص ١٤ . وقد أدخل المترجم الاسبانى بخصوص هذا البلد ما يلى :
Et quando Espania de Moros era, era Arrayt (sic. L. Arnyt) su escudo contra los cristianos
= وعندما كانت اسبانيا بيد العرب كانت ارنيط درعا لهم من النصارى .

(٣) ترجمت هذه العبارة من الترجمتين الاسبانية (ص ٤٥) والبرتغالية (ص ٥٥) . وقد وردت فى التعليق المنتقى مختصرة هكذا : « ومدينة فارة ومدينة تاجرة » وأظن أن فارة هذه تصحيف لاسم قلهرة إذ لا توجد هنا مدينة باسم فارة .

(٤) ترجمت هذه الفقرة عن الترجمتين الاسبانية والبرتغالية .

لفظ قصر بمعنى الحصن ، فقد استعمل الأندلسيون هذا اللفظ بمعناه الأصلى ، إذ من المعروف أن العرب أخذوه من Castra اللاتينى . وهذا يعلل لنا استعمال لفظ alcázar فى الاسبانية بمعنى القلعة .

وهذان النموذجان كافيان لاظهار ميزات هذه الجغرافية وما استطاع أحمد بن محمد الرازى أن يحشده فيها من المعلومات على اختصارها . فلو اننا أردنا أن نقدم اليوم وصفاً جغرافياً جامعاً مختصراً للأندلس الإسلامى لما احتجنا أن نضيف إلى كلام الرازى شيئاً ، وهذا خير تقدير لذلك الجغرافى العربى الذى كتب فى القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى .

ومن الدلائل الناصعة على أهمية جغرافية الرازى اعتماد الاسبان عليها حتى القرن الثالث عشر فى حل الكثير من مشاكل التنظيم الإدارى التى اعترضتهم فيما استولوا عليه من بلاد المسلمين . ومما يؤيد ذلك أن الرازى أورد فى جغرافيته هذه بعد ذكر الأنهار والجبال تقسيمها الكنسى ، وهو المعروف بقسمة قسطنطين ، والمراد به تقسيم اسبانيا إلى مناطق كنسية تتبع كل منها لأسقفية على رأسها أسقف ، وهو تقسيم عام للعالم المسيحى كله وضعه رجال الدين من النصارى بعد صدور منشور ميلان سنة ٣١٣ ميلادية . وقد أخذ الرازى ما يخص اسبانيا منه عن إحدى القوائم التى تبين ذلك التقسيم Nomina Sedium Episcopalium والتى كانت متداولة فى اسبانيا على أيام العرب . ومن الغريب أن هذه القوائم اللاتينية كلها كانت قد ضاعت قبل منتصف القرن الثالث عشر الميلادى . فقد ذكر بسكوال دى جيانجوس انه عندما استولى الملك خايمه الملقب بالغازى Jaime el Conquistador على بلنسية سنة ١٢٣٩ ثار نزاع بين اسقفيتى طليطلة وطركونة حول تبعية اقليم بلنسية لأيهما ، ولم ينحسم النزاع إلا بعد أن « قدِّمت إلى المجلس المختص أربعة كتب عربية وقرئت بمعرفة رجل عربى وآخر يهودى ، وأحد هذه الكتب للرازى الذى قيل إنه عربى ألف كتباً كثيرة فى الفيزياء ، والثانى تأليف Abiba Cacahabi الذى كان ضليعاً فى

شريعة العرب ، وتبين من هذين الكتابين ومن الاثنين الآخرين — أنه فى تقسيم قسطنطين لاسبانيا إلى ست مناطق (كنسية) يتبع اقليم بلنسية اسقفية طليطلة[١] » .

ويبدو أن Abiba Cacahabi المشار إليه فى النص هو أبو عبيد البكرى ، إذ أن صورة اسمه كما كانت تكتب كانت شيئاً قريباً من Abuuba(id) Albakri والتحريف من هذه الصورة إلى الصورة التى وردت فى النص اللاتينى ممكن جداً ، خاصة فى الكتابات الاسبانية من القرن الثانى عشر فصاعدا ، فقد كان معظم أصحابها لا يعرفون من الأسماء العربية شيئا ، ويحرفون ما يصادفونه منها على نحو قل أن نجد له مثالا فيما نعرف من صور التحريف والتصحيف .

والمهم لدينا أن هذا النص يثبت أن قسمة قسطنطين التى أورد نصها البكرى منقولة عن جغرافية الرازى ، ولهذا فسنوردها ضمن نص هذه الجغرافية عند ما يتيسر لنا نشرها[٢] .

---

(١) أورد بسكوال دى جيانجوس نص هذا الخبر باللاتينية مع ترجمته إلى الاسبانية . ونظرا لأننى اعتمدت على هذا النص فى القول بأن قسمة قسطنطين التى أورد نصها البكرى منقولة من الرازى ، أورده هنا :

« Postquam cuatuor libros arabicos in judicio nobis exhibitos inspetimus, et fecimus legi in libris illis per unum judaeum et alium sarracenum, et ipsi legentes in dictis libris, scilicet in libro Rasis, qui multos libros feceret de physica, ut sarracenus decibat, et in libro Abiba Cacahabi, qui peritus fuerat in legibus eorum, et in duodus aliis libris, quorum auctores non erant; dixerunt nobis quod intra sex divisiones dictas factas a Constantino imperatore in Hispania, erat civitas Valentia sub civitate Toleto », Loaysa, *Collectio Conciliorum Hispaniae*, p. 131. Cf.: Pascual de Gayangos. *Memoria sobre la autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis*, leída en la Real Academia de la Historia, p. 9.

(٢) راجع عن ذلك الفصل الحادى عشر عن « الادارة والمال » فى فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩ فقد تناولنا فيه الأصول العربية التى نعتمد عليها فى جمع جغرافية الرازى وخصوصا ابتداء من ص ٥٣٤ . وقد ناقش موضوع أصول الرازى الأستاذ كلاوديو سانشيث البرنوث انظر :

Claudio Sánchez Albornoz: *Fuentes latinas de la historia romana de Rasis* (Publicaciones del Instituto Argentino Hispano Arabe). Vol. I. Buenos Aires, 1942.

ولنفس المؤلف :

Fuentes para el estudio de las divisiones eclesiásticas visigodas. (Boletín de la Universidad de Santiago, 1934) p. 44 sqq.

Fr. Javier Simonet, *Historia de los Mozárabes de España*, pp. 739-808.

الوراق ، أبو عبد الله محمد بن يوسف

ومن معاصرى احمد بن محمد الرازى رجل يعد فى طليعة جغرافيى المغرب والأندلس وإن لم يبق لنا مما كتب إلا قطع قليلة معظمها عند أبى عبيد البكرى وابن عذارى . وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالوراق (٢٩٢/٩٠٤—٣٦٣/٩٧٣) ويلقب بالتاريخى لكثرة اشتغاله بالتأليف فى هذا الفن . وهو أندلسى أصله من وادى الحجارة ، ثم هاجر به أهله إلى إفريقية واستقروا بالقيروان ، وبها نشأ وتعلم وانتشر له صيت فى العلم بأحوال إفريقية والمغرب وتاريخهما ، واجتذبه بلاط الحكم المستنصر الأموى والجو العلمى الذى يحيط به ، فشد رحاله إلى قرطبة ، واتصل بالحكم ، وكان هذا معنيا بشئون المغرب مهموما بمحاولات الفاطميين لبسط نفوذهم عليه ، فوجد فى هذا القيروانى عالما بشئون أقطار المغرب وتاريخها ، فقربه إليه وحفزه على التأليف ، فكتب له « كتابا ضخما فى مسالك افريقية وممالكها » وألف « فى أخبار ملوكها والغالبين عليهم (أى على أهل افريقية) كتبا جمة » ، وكذلك ألف أيضاً « فى أخبار تيهرت ووهران و تِنِس وسجلماسة ونكور والبصرة هنالك ، وغيرها تواليف حسانا[1] ». فأما كتابه عن مسالك افريقية وممالكها فقد استصفاه أبو عبيد البكرى فى كتابه « المسالك والممالك » وأما رسائله الأخرى فأعتقد أن ابن عذارى لخص الكثير منها فى « البيان المغرب » ؛ فنحن نجد فى الجزء الأول الخاص بتاريخ المغرب من هذا الكتاب فصولا معترضة عن تاريخ بعض نواحى المغرب التى نسب الحميدىّ إلى الوراق كتبا فى تاريخها ، ففى أثناء حديثه عن أبى عبد الله الداعى ومسيره إلى سجلماسة لاستنقاذ عبيد الله الشيعى من سجن صاحبها اليسع بن مدرار

(١) جذوة المقتبس للحميدى رقم ٩٠ — بغية الملتمس للضبى ، رقم ٣٠٤ ص ١٣١ — التكملة لابن الأبار ، رقم ٣٤٤ ص ٣٤٤

يضيف فصلا قائما بذاته فى « التعريف بأمر سجلماسة من ابتدائها إلى هذه السنة المؤرخة »[١] ، وبعد أن يورد خبر خروج أبى القاسم الشيعى لغزو مصر للمرة الثانية يورد فصلا عن « تلخيص أخبار أمراء مدينة نكور من حين بنائها على الجملة إلى هذه السنة[٢] المؤرخة » وفى أثناء كلامه عن حوادث سنة ٣١٨/٩٣٠ أثناء حكم عبيد الله الشيعى نجد كلاما عن « مدينة جراوة »[٣] ثم ذكر « مدينة تيهرت »[٤] ثم نجد فصلا قائماً عن تاريخ تيهرت بعنوان « ذكر من ملك مدينة تيهرت من حين ابتدائها من بنى رستم وغيرهم[٥] » ، وفى حوادث ٣٥٢/٩٦٣ وبمناسبة وفود أبى صالح زمور البرغواطى رسولا من أمير برغواطة على الحكم المستنصر فى هذه السنة يقول إن الحكم سأل الرسول عن نسب برغواطة ومذهبهم ، فأخبره ، ثم يلى ذلك « خبر برغواطة » وهو فصل كامل عن تاريخ هذه[٦] القبيلة ، وبعد ذلك بقليل نجد فصلا عنوانه « ذكر مدينة[٧] أصيلا » وهو تاريخ مجمل لها ، ويليه فصل عن تاريخ مدينة البصرة (المغربية) بعنوان « ذكر من ولى مدينة البصرة »[٨] .

وهذه الفصول كلها معترضة ، وابن عذارى بعد أن يفرغ من كل منها يقول : « فلنرجع إلى نسق هذا التاريخ » مما يدل على أنه أخذ هذه القطع من أصول غير التى كان يعتمد عليها فى « نسق التاريخ » . فإذا لاحظنا أن معظم هذه الفصول يدور حول تواريخ تلك النواحى من إفريقية التى نسبت للوراق

---

(١) البيان المغرب لابن عذارى ، (طبعة كولان وبروفنسال) ج ١ ص ١٥٦
(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٦
(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٦
(٤) نفس المصدر والصفحة .
(٥) نفس المصدر ، ص ١٩٧
(٦) نفس المصدر ، ص ٢٢٣
(٧) نفس المصدر ، ص ٢٣٢
(٨) نفس المصدر ، ص ٢٣٥

كتب عنها مال بنا الظن إلى أنها مستقاة من رسالات الوراق . ويقوى هذا الظن ذلك الخبر المروى عن تاريخ برغواطة ، وهو خلاصة حديث أُدلى به إلى الحكم المستنصر ، وكان الوراق هو العالم الموكل بهذه الناحية فى بلاطه ، ومن المستبعد أن يكون قد فاته تدوين هذا الخبر الطويل ، وهو الإفريقى المعنى بأخبار المغرب وجغرافيته ، خاصة وقد كانت له عناية بأنساب البربر واشتغال بالتأليف فيها ، فقد ذكر له البيدق خادم محمد بن تومرت كتابا سماه « أنساب البربر » وأخذ عنه فى موضعين . ومن الغريب أن هذا الكتاب فات صاحب « مفاخر البربر » فلم يذكره أو يشر إليه أو إلى صاحبه ، ربما لأن الوراق لم يكن بربرى الأصل والنسب ، لأن مؤلف مفاخر البربر لا يعنى إلا بذوى الأصول البربرية .

والمهم لدينا أن محمد بن يوسف الوراق أول من كتب فى الغرب الإسلامى كتابا بعنوان « المسالك والممالك » ؛ وهكذا نرى أن أول جغرافى أندلسى — احمد الرازى — كان بلدانيا ، فى حين أن ثاني جغرافى كتب فى الأندلس كان مسالكيا . ومن المقتبسات التى نقلها عنه البكرى يتبين أنه هو الذى ابتكر مزج الجغرافية بالتاريخ ، أى الوقوف عند كل موضع وقعت فيه واقعة تاريخية وذكرها فى شىء من التفصيل ، وهى طريقة سيسير عليها البكرى فى أجزاء كثيرة من « مسالكه » ، وسيتبعها نفر من الرحالة كالتجانى بعد ذلك .

وقد اعتمد البكرى على مسالك الوراق اعتمادا تاما فى الجزء الذى كتبه عن افريقية ، ومن حسن الحظ أن هذا الجزء قد وصل إلينا كاملا . والبكرى يسند إليه ما يقتبسه منه أحياناً ، ولكنه لا يسند أحيانا أخرى ، ولهذا فنحن لا نستطيع أن نتبين على وجه التحديد نصيب الوراق من كتاب البكرى ، خاصة وأن هذا الأخير لم يكن مجرد ناقل ، بل كان جغرافيا متصرفا يعدِّل فيما ينقله ويزيد عليه وينقص منه ، ويعسر لهذا إصدار رأى قاطع فى هذه الناحية ، وسنشير إلى ذلك فى كلامنا عن البكرى . ويكفى أن نقرر هنا أن محمد بن

يوسف الوراق كان أحد أعلام المدرسة الجغرافية التى ازدهرت أيام الحكم المستنصر برعايته وتشجيعه . وانه لمن الفريد فى تاريخ الفكر الإسلامي ذلك النشاط المتعدد الجوانب الذى بعثه ذلك الخليفة العلامة فى بلاده ، فهو يستجلب كتب اليونان واللاتين ويأمر بترجمتها ، ويستدعى علامة مغربياً ويطلب إليه التأليف فى تاريخ بلاده وجغرافيتها ، بل لا يكاد يفد عليه رسول من بلد بعيد حتى يطلب إليه أن يكتب رسالة أو رسائل عن بلاده أو عن أمر من أمورها ثم يحتفظ بهذه الرسالات فى مكتبة القصر العامرة ، لا لتكون جزءً من محفوظات الدولة ، بل لكى تكون مرجعاً للعلماء والبحاثين فيما يطلبونه من المعلومات عن هذا البلد أو ذاك ، فقد رأينا الوراق يورد نص رسالة كاملة أدلى بها رسول من أهل إفريقية للحكم . وفى الفقرة التالية سنرى فضلا آخر من أفضال الحكم المستنصر على العلم الذى يعنينا فى هذا البحث .

ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى

ومن معاصرى احمد بن محمد الرازى أيضاً يهودى من أهل طرطوشة يسمى ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى ، ويسمى أيضاً ابراهيم بن يوسف ، وكتبه بعضهم ابراهيم بن احمد . وهو تاجر ممن كانوا يعملون فى جلب الرقيق الأوروبى إلى الأندلس ، ولهذا كان يقوم برحلات إلى المانيا وبلاد الصقالبة وشمالى أوروبا . وقد كتب هذا الرجل رسالة للحكم المستنصر عن رحلة قام بها إلى المانيا أيام الامبراطور أوتو الكبير على الأغلب ، واحتفظ لنا البكرى بجانب كبير من هذه الرسالة فيما بقى لنا من أجزاء جغرافيته . وقد عنى بهذا الجزء نفر من المستشرقين مثل كونِكْ وروزن وفيجَرْسْ وجيورج ياكوب فنشروه على حدة وترجموه إلى الروسية والألمانية والهولندية .

ومن الباحثين من كان يستبعد أن يكون ابراهيم بن يعقوب أندلسياً ، وغلب على رأيهم أنه من المغرب ، ولكن العذرى يسميه الطرطوشى ، والبكرى يضيف إلى اسمه : الإسرائيلى ، وعنه فى الغالب أخذ ابن عبد المنعم الحميرى صاحب الروض المعطار . وقد أورد له العذرى فقرة تدل على أنه كان بالفعل أندلسياً عارفا بشئون الأندلس ، وأورد له البكرى قطعة أخرى من هذا الطراز[1]. ثم إن رسالته إلى الخليفة المستنصر تؤيد هذا الرأى .

والقطعة التى أوردها البكرى من رسالة ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى تصف رحلته إلى شرق أوروبا ، وكيف عبر البحر الأدرياتى ووصل إلى بلاد « صقالبة الغرب » ، وزار براج وشرقى المانيا ووصل إلى مجدبرج حيث كان الامبراطور أوتو يقيم ، وهناك التقى مع أعضاء سفارة من عند ملك البلغار ، ثم سار بحذاء نهر الألب ، ومضى فى بلاد الصقالبة حتى وصل إلى إشفارن (Schwerin) على مقربة من البحيرة المسماة بذلك الاسم . ومن العسير تحديد خط سيره على وجه الدقة ، لأن أسمــاء المواضع فى النص الذى لدينا محرفة تحريفاً شديداً ، ولكن التفاصيل التى يعطيها عن بلاد الصقالبة ذات أهمية كبرى بالنسبة لتاريخهم ، وخاصة الغربيين منهم . ويقدم لنا الطرطوشى معلومات طريفة عن تجار العرب الذين لقيهم فى المـانيا مقبلين من بلاد المجر ، فيقول إنهم كانوا يحملون من هناك الدقيق والقصدير والفراء . ومن الطريف أنه زار بلاد الخزر جنوبى ما يعرف اليوم ببحر قزوين ولم يقل إن أهلها يهود ، وكتَّاب اليهود يطيلون الحديث عن دخول الخزر فى اليهودية وانتشار هذه الديانة بينهم فى ذلك الحين .

(١) لم نعثر إلا على فقرتين من كلام ابراهيم بن يعقوب عن اسبانيا ، وسننشرهما فى آخر هذا الكلام نقلا عن مخطوطة المسالك والممالك للبكرى التى احتفظت لنا بقطعة لا بأس بها من صفة الأندلس .

وهذه القطعة ذات أهمية كبرى بالنسبة للروس القدامى وأحوالهم ، وقد فصل ذلك كونك وروزن تفصيلا وافيـاً فى دراستهما حول هذه القطعة[١] .

ويذكر القزوينى فى « عجائب المخلوقات » أن أحمد بن عمر بن أنس العذرى اعتمد على ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى فى مواضع كثيرة من جغرافية الأندلس التى كتبها (وسنتحدث عنها) ، وبالفعل نجد فى نص العذرى إشارة إلى ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى ونقلاً عنه فى مادة تُدْمير (مرسية) بمناسبة شجرة زيتون عجيبة « فى حومة بجبل على مقربة من مدينة لورقة[٢] » وقد نقل ذلك الخبر ابن عبد المنعم الحميرى (عن البكرى عن العذرى فى الغالب)[٣] . والخبر مؤرخ بسنة ٣٥٠ / ٩٦١ (يجعله ابن عبد المنعم الحميرى

---

(١) بين أهمية هذه الرسالة دى خويه فيما درسه من « المسالك والممالك » للبكرى ، وكان شيفر Schefer قد عثر على ذلك الجزء فى مكتبة جامع نورى عثمانى فى الاستانة سنة ١٨٧٥ . وفى سنة ١٨٧٨ نشر النص العربى للرسالة ا. كونك و ف. روزن مع مقدمة وترجمة إلى الروسية :

A. Kunik i V. Rosen: *Izvestija al-Bakri i drugich avotrov o Rusi i Slavjanach*, I, St. Petersburg 1878.

(أخبـار البكرى وغيره من الكتاب عن الروس والصقالبة) . وقد أضاف كونك إلى النص تعليقات ضافية . وفى سنة ١٨٨٠ نشر دى خويه ترجمة هولندية للأصل العربى وجانباً كبيراً من تعليقات كونك فى :

Verslagen in Medeclingen der Konigelijcke Akademie van Wetenschappen. Afdeeling Letterkunde. 2 de Reeks. Deel IX. Amsterdan 1880, S. 187-216.

وانظر أيضاً :

Mémoires de l'Académie Impériale des Sciences de Saint-Petersburg. (Appédice vol. XXXVI).

أما بحث فيجرز Th. Wiggers فقد نشر فى

Jahrbericht des Vereins für macklenburgische Geschichte und Altertumskunde. 43. Jahrgang, Schverin 1880. S. 3-20.

G. Jacob: *Ein arabischer Berichterstatter aus dem 10. Jahrh. über Fulda, Sehlesuvig, Soest, Paderborn und andere Städte des Abenlandes.* Berlín, 3, Auflage 1896.

Arabische Beriscthe von Gesandten an germanische Fürstenhöfe des 9. u. 10. Jahrhts. übersetzt und erläutert (Quellem zur deutschen Volkskunde, 1) Berlín, 1927.

وانظر : بروكلمان . ملحق ١/٤١٠

(٢) العذرى ، نظم المرجان ، مخطوط ، مادة تدمير .

(٣) الروض المعطار : ١٧١ ويسميه ابراهيم بن يوسف .

سنة ٣٠٥ خطأً) مما يدل على أنه كان عند « ملك الروم » فى هذه السنة ، والمراد به أتو الكبير امبراطور الدولة التيوتونية التى تسمى بالرومانية المقدسة أيضاً ، وهذا التاريخ صحيح فإن ف. روزن و ا. كونك يجعلان زيارته لأتو حوالى سنة ٩٧٣ (٣٦٢ و ٣٦٣ هـ) .

وقد اعتمد البكرى على ما كتبه ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى اعتماداً يكاد يكون تاماً فيما كتب عن وسط أوروبا وشرقها ، والقطع التى أدرجها فى مسالكه هى أطول ما بقى من كتابه وأدله على طبيعة مادته الجغرافية ، ومن حسن الحظ أننا عثرنا عليها ، وقد نشرها كونك وفون روزن كما قلنا ، واعتمادنا هنا على نشرتهما التى سبق أن أشرنا إليها وكذلك على الترجمة الألمانية التى قام بها جيورج ياكوب .

وعلى الرغم من التحريف الشديد للاعلام الجغرافية فى مخطوطة البكرى فقد استطاع الناشران والمترجم تحقيق معظمها . ويكفى أن نذكر أن اسم مجدبورج ورد « مادى فرغ » وبوهيميا (Bőhmen) وردت بويمية والنورمان ورد المرمان وما إلى ذلك . وبعد تحقيق هذه الأسماء وأعلام الأشخاص تبينت القيمة الحقيقية لما كتب سواء من الناحية الجغرافية أو التاريخية . وأهم ما فى الكتاب من هذه الناحية الأخيرة كلام ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى عن تجارة الرقيق فى أوروبا فى ذلك العصر ، وقد كان هو نفسه من المشتغلين بها على ما ذكرناه .

وابراهيم بن يعقوب الطرطوشى رحالة ، ولكن وصف رحلته أقرب إلى كتب البلدانيين والمسالكيين ، فهو يذكر البلدان ويصفها ويعدد حاصلاتها وما يتاجر فيه أهلها ، ثم يذكر الطرق ومسافاتها بالأميال ، وكل ذلك بتفصيل واسع تتخلله معلومات هامة عن الأحوال الاجتماعية والسياسية .

وفيما عدا الفقرات القليلة التى أوردها العذرى وابن عبد المنعم الحميرى مما كتب ابراهيم بن يعقوب عن الأندلس لا نجد إلا فقرات قصيرة بقيت فيما وصل

إلينا من وصف الأندلس للبكرى ، وهى أوراق قليلة محرفة تحريفاً مؤسفاً بل إن سياقها مضطرب اضطراباً لم أستطع التعرف على سببه ، فإننا نجد فيه فقرة عن الأنهار تذكر نهراً من أنهار الأندلس ثم تقطعها وسط السطر بكلام عن الجليقيين وبعد بضع صفحات يعود الكلام عن الأنهار وهكذا .

وقد رأيت أن أورد هنا فقرتين استطعت أن أجمع شتاتهما ، وهى فى ص ٢٢٦ و ٢٢٧ من مخطوطة الخزانة العامة بالرباط :

« جملة القول فى بلاد الجليقيين وغيرهم من قبائل النصارى إلى بلد الصقالبة على ما أورده ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى الطرطوشى :

قال ابراهيم : بلد الجليقيين جميعه سهل ، والغالب على أرضه الرمل ، وأكثر أقواتهم الدخن والذرة ، ومعولهم فى الأشربة على شراب التفاح والبشكة[١] ، وهو شراب يتخذ من الدقيق . وأهله أهل نجدة ودناءة أخلاق . ولا يتنظفون ولا يغتسلون فى العام إلا مرة أو مرتين بالماء البارد ، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تتقطع عليهم ، ويقولون إن الوسخ الذى يعلوها من عرقهم ينعم أجسامهم . وثيابهم أضيق الثياب ، وهى مُفَرَّجَة يبدو من تفريجها أكثر أبدانهم . ولهم بأس وشدة ، لا يرون الفرار عند اللقاء فى الحرب ويرون الموت دونه .

ذكر البرتونيين[٢] : لهم لغة تمجها الأسماع ومناظر قبيحة وأخلاق سيئة . ولهم لصوص يقطعون على الافرنج ويسرقونهم . والافرنج يصلبونهم إذا ما ظفروا بهم . ومن البرتونيين والجليقيين والبشاكشة حشد طيطوش إلى الشام حين خرج يريد بيت المقدس .

---

(١) لعلها تقابل Vasco .

(٢) Bretones .

احمد عمر بن أنس العذرى الدلائى

أما العذرى الذى أشرنا إليه أكثر من مرة فيما سبق فهو احمد بن عمر ابن أنس العذرى الدَّلائى ، نسبة إلى دلاية Dalías احدى قرى المرية ، ولهذا فهو يسمى كذلك بالمرِّى نسبة إلى هذه الأخيرة ، وهو من أهل الطبقة الثانية من الجغرافيين الأندلسيين بعد احمد بن محمد الرازى ومعاصريه ، فقد ولد فى المرية سنة ١٠٠٢/٣٩٣ وتوفى سنة ١٠٨٣/٤٧٦ أو ١٠٨٥/٤٧٨ ببلنسية .

وقد ترجم للعذرى الحميدى والضبى وابن بشكوال ، ولكن ترجماتهم قليلة الغناء بالنسبة لنا ، فالحميدى يذكر أنه من المرية وأنه رحل مع والده « بُعَيْد الاربعمائة » إلى مكة ، « فسمع الكثير من شيوخها ومن القادمين عليها » ثم يلى ذلك بيان بمن سمع منهم ، وكلهم رجال فقه وحديث ، ثم يقول : « وكتب هناك قطعة كبيرة من المصنفات والتواريخ ، وسمعنا منه بالأندلس ، وكان حياً بها وقت خروجي منها فى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة » ثم يلى ذلك خبران أحدهما عن البخارى والثانى عن الخليفة المأمون أنفق الحميدى فيهما صفحتين كاملتين كنا نود لو انتفع بهما فى ذكر شيء من أخبار أستاذه هذا الذى لا نعرف عنه إلا القليل[1] .

ونقل هذه الترجمة الضبى حرفياً تقريباً على عادته مع جذوة الحميدى[2] .
ويورد ابن بشكوال فى « كتاب الصلة » ترجمة أوفى ، فهو يذكر لنا اسمه الكامل ونسبه : احمد بن عمر بن أَنَس بن دَلْهَات بن أنس بن فُلْذَان بن عمران بن مُنِيب بن زُغَيْبَه بن قُطْبِة العُذرى ويعرف بابن الدَّلاَئى ، من أهل

(١) الحميدى ، جذوة المقتبس بتحقيق محمد بن تاويت الطنجى . القاهرة ١٣٧٢ ، رقم ٢٣٦ ص ١٢٧ — ١٢٩

(٢) الضبى ، البغية ، رقم ٤٤٦ ص ١٨٢ — ١٨٤

المرية ، يكنى «أبا العباس» . ومن هذا النسب نستنتج أن العذرى يرجع أصله البعيد إلى المغرب وأن قبيلته هاجرت إلى الأندلس واستقرت بناحية المرية ، وانتسبت إلى العرب بالولاء . ومن المحقق أن دَلَاية كانت دار عُذرة بالأندلس ، كما يقول ابن حزم فى الجمهرة(١) . فكأنّ بيت الرجل دخل فى ولاء بنى عذرة ونسب إليهم . ويذكر ابن بشكوال أن احمد العذرى خرج مع أبويه إلى المشرق سنة ٤٠٧/١٠١٦—١٠١٧ ووصلوا إلى بيت الله الحرام فى شهر رمضان سنة ٤٠٨/١٠١٧—١٠١٨ « وجاوروا به أعواماً جمة » استمرت إلى سنة ٤١٦/١٠٢٥ ، ويبدو أنه رجع من الحجاز إلى بلاده مكتفياً بمن سمع هناك من الشيوخ ، ومر بمصر « ولم يكن له بها سماع » واستمر فى الطلب بعد عودته إلى الأندلس ، فسمع من شيوخ نذكر منهم أبا عمر بن عفيف وأبا محمد بن حزم ، ثم تصدر للاقراء فسمع منه رجال نذكر منهم أبا عمر بن عبد البر وأبا محمد بن حزم وأبا الوليد الوقشى وأبا على الغسانى ، وقد قال هذا الأخير : « أخبرنى أبو العباس أن مولده فى ذى القعدة ليلة السبت لأربع خلون منه سنة ٣٩٣ وتوفى رحمه الله فى آخر شعبان سنة ٤٧٨ ، ودفن بمقبرة الحوض بالمرية ، وصلى عليه ابنه أنس بتقديم المعتصم بالله محمد بن معن(٢) (بن صمادح) » .

وتستوقف نظرنا فى هذه التراجم حقيقتان ، الأولى أنها تخلو من أى إشارة إلى اهتمامه بالجغرافية والتأليف فيها ، أما الثانية فهى أن أبا محمد بن حزم الذى أسمعه وسمع منه لم يشر إليه فيمن ذكر من العذريين الأندلسيين فى الجمهرة ، ولم يشر إليه كذلك فى رسالته فى فضل الأندلس .

---

(١) انظر عن منازل بنى عذرة بالأندلس :
Elias Terés, *Linajes Arabes en Al-Andalus,* Segunda parte Al-Andalus XXIII fasc. 1, 1958, p. 365.

(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، رقم ١٣٩ ص ٦٩ — ٧٠

أما الذين أشاروا إلى تأليفه فى الجغرافية فهم الجغرافيون ، فقد ذكره البكرى وكتابه « نظام المرجان فى المسالك والممالك » وكذلك ذكره الإدريسى فى مقدمة « نزهة المشتاق » وذكره ابن عبد المنعم الحميرى ونقل عنه دون أن يذكر اسم الكتاب . وفى فهرسة ابن خير ذكر لكتاب آخر من تأليفه هو « افتضاض أبكار أوائل الأخبار » وظاهر من عنوانه أنه فى التاريخ ، وإن كان هذا العنوان ذاته لا يخلو من تكلف . وذكره ياقوت الحموى فى كلامه على المرية قال : « وينسب إليها أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذرى ، ويعرف بالدَّلاَئى المَرِىّ . رحل إلى مكة ، وسمع من أبى العباس أحمد بن الحسين الرازى وطبقته ، وبمصر جماعة أخرى . وهو مكثر . سمع منه الحميدى وابن عبد البر وأبو محمد بن حزم ، وكانا شيخيه ، سمع منهما وكان قديماً كلما رجع من المشرق سمعا منه . وله تآليف حسان منها كتاب أعلام النبوة ، وكتابه المسمى بنظام المرجان فى المسالك والممالك ، ومولده فى ذى القعدة سنة ٣٩٣ وتوفى سنة ٤٧٦ وقيل ٧٨ ببلنسية[١] » .

ومن حسن الحظ أن لدينا الآن قطعة من كتاب « نظام المرجان فى المسالك والممالك » وقد حقق ما وجده منه الدكتور عبد العزيز الأهوانى لينشر بين مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ونحن نعتمد هنا على ذلك التحقيق الوافى ، وقد وجد المخطوط فى صورة أوراق غير مرتبة أو مرقمة ، بل لا توجد فى أواخرها ألفاظ الإحالة التى تعين على تعرف الورقة التالية ، وقد بذل الدكتور الأهوانى جهداً عظيما فى ترتيب الأوراق[٢] . والذى لدينا بعد ذلك يتضمن كور تدمير (مرسية) وبلنسية وسرقسطة ووشقة وقرطبة وإلبيرة واشبيلية ولبلة وشذونة والجزيرة الخضراء .

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان (طبعة الخانجى ، القاهرة ١٩٠٦) : ٤٣/٨

(٢) ولهذا فإننا لن نشير إلى صفحات المخطوط فى الفقرات التى سنوردها من جغرافية العذرى ، ونحن نعتمد على النسخة التى كتبها الدكتور الأهوانى بيده .

ومن هذه الأجزاء التى لدينا يتبين أن الكتاب كتاب جغرافية وتاريخ ، فإلى جانب المعلومات الجغرافية يورد العذرى تفاصيل تاريخية خاصة بالمواضع التى يصفها ، وهى تفاصيل طويلة معتمده فيها على أحمد بن محمد الرازى وابنه عيسى ، وفى أحيان كثيرة يكمل العذرى الأخبار إلى أيامه ، بل لدينا خبر يصل إلى سنة ٤٧٦ أى قبل وفاة المؤلف بسنتين .

وإذا كان العذرى قد لجأ إلى الاختصار فيما يتصل بالتاريخ ، فإنه على العكس من ذلك أسهب فى الجغرافية الاسهاب الذى نرجوه . وهو ينهج فى هذه الناحية منهجاً سليما لا نعرفه عند أحد ممن سبقه من الجغرافيين ، ويتلخص هذا المنهج فيما يلى :

١ — يقسم العذرى كتابه إلى ما يشبه الفصول ، كل فصل يدور حول كورة من كور الأندلس .

٢ — يبدأ الكلام بمكان الكورة من قسمة قسطنطين لا من تقسيم بطليموس ، وهو أمر يستوقف النظر ، فإن قسمة قسنطين تقسيم كنسى اتفقت عليه المجامع الدينية النصرانية التى بدأت تنعقد بعد اعتراف قسطنطين بالمسيحية ، والغرض منه تقسيم البلاد التى فيها مسيحيون إلى مناطق اسقفية ، وقد تم ذلك التقسيم على أساس التقسيم الإدارى للدولة الرومانية ، فاعتبرت كل مديرية من مديريات الدولة منطقة اسقفية يقيم الأسقف فى قاعدتها وتتبعه من الناحية الدينية كل البلاد الداخلة فى زمام تلك المديرية ، وهذا التقسيم الكنسى هو الذى أصبح فيما بعد أساساً للتقسيم الإدارى للدول التى قامت فى أوروبا بعد انتهاء الغارات الجرمانية واستقرار كل جماعة من الجرمان فى ناحية وإنشائهم دولة فيها . وقد حافظ العرب فى الأندلس على هذا التقسيم ولم يدخلوا عليه تعديلا إلا بالقدر الذى اقتضته الظروف الخاصة بنظام دولتهم ، وقد سبق أن شرحنا ذلك بالتفصيل فى بحث آخر .

٣ — ثم يعقب ذلك بذكر الطريق من قاعدة الكورة السابقة إلى قاعدة الكورة التى يتحدث عنها ، وهو يصف الطريق على أساس المحلات أو على أساس الأميال أو الفراسخ . والمحـلة فى مصطلحه هى الموضع الذى يستطيع الركب أو المسافر أن يريح فيه ويتزود لما يليه . والأغلب أن تكون هذه المحلات هى المحطات المتعارف عليها فى تنقلات الجيوش ورجال الدولة ، فإذا صح هذا الفرض جاز القول بأن خطوط هذه المحلات تعين لنا الطرق الرئيسية التى كانت الدولة تعنى بصيانتها فى الأندلس .

٤ — ثم يلى ذلك الكلامُ على المدن التابعة للكورة واحدة واحدة . وهو يتكلم عن كل منها كلاماً مفصلا يعتمد على ما أخذه من أحمد الرازى أولا ، ثم يضيف من عنده تفصيلات غاية فى الأهمية تدل على اطلاع ومعرفة ومشاهدة أيضاً ، خذ مثلا المـادة التى كتبها عن مدينة بلنسية : يبدأ بعبارة من كلام أحمد الرازى : « وهى قاعدة من قواعد العمال القديمة ، وإليهـا تنسب الكورة ، وهى مدينة التراب » ثم يقول : « قال أحمد بن عمر : وهى مدينة مسورة ، قد أتقن سورها المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ، ولا يُعلم ببلاد الأندلس أتقن بناء من سورها ولا أجمل منه ، ولهـا خمسة أبواب :

البـاب الشرقى يسمى بباب القنطرة ، ويُخْرَج منه على قنطرة قد صنعهـا المنصور عبد العزيز بن أبى عامر ، ليس فى الأندلس أتقن منها ، وعلى هذه القنطرة تخرج الرفاق إلى طليطلة وسرقسطة وطرطوشة وما هنالك .

وبعده إلى ناحية الشرق باب يعرف بباب الوراق ، ويُخْرَجُ منه ويُسْلَكُ إلى الربض على قنطرة خشب يُعْبَرُ عليها الوادى إلى ربض هناك .

وفى القبلة باب ابن صخر

وفى الجوف باب الحنش

وفى الغرب باب يعرف بباب بُيْطَالة

ويليه فى الغرب باب يعرف بباب القيسارية . ومن هذين البابين تخرج الرفاق إلى غرب الأندلس ، وإلى دانية وشاطبة والجزيرة » .

ثم يعقب ذلك بكلام عن أهل بلنسية وخلقهم فيقول : « وقد أطبعت مدينة بلنسية بقلة الهم ، لا تكاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم ، مليئاً كان أو فقيراً ، قد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحات والفُرَج ، ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شىء من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك ، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغانى . يقولون عند فلان عودين (كذا) وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك . وقد أُخْبِرْتُ أن مغنية بلغت فى بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة . وأما دون الألف فكثيرات » .

ثم يعود بعد ذلك فيضيف شيئاً خاصاً بوصف البلد يغلب أنه أخذه عن احمد الرازى : « وهى أطيب البلاد وأحسنها هواء وأجملها بساتين . ولها خطة فسيحة . وهى بلدة منيعة ، جمعت البر والبحر والزرع والضرع والفواكه . ولها سهل وجبل ومدن كثيرة وحصون » .

٤ — ثم يتحدث عن ثلاث مدن من كورة بلنسية هى شاطبة ودانية وجزيرة شقر . وحديثه عنها حديث العارف بما يصف المشاهِد له . وتتخلل كلامه ملاحظات عظيمة الأهمية ، ففى حديثه عن شاطبة يقول « وفيها يتجهز التجار بالأمتعة إلى غانة وبلاد السودان وإلى جميع بلاد المغرب » وهى ملاحظة فريدة فى بابها بالنسبة لمن يدرس الأحوال الاقتصادية للأندلس وعلاقاته التجارية مع غيره من البلاد . وفى كلامه عن جزيرة شقر يقول « وهى جزيرة قد أحاط بها الوادى من جميع جهاتها ، ولم يبق لها إلا موضع لطيف يُدخل منه إلى هذه الجزيرة ، قد صُنِع فيه حفير ، وعليها مما يلى ذلك الموضع سور

وباب يُصعد إليه على درج » وهذا كلام دقيق لا يصدر إلا عن مشاهدة شخصية ، وتتبين لنا دقته إذا قارناه بما يقوله ابن عبد المنعم الحميرى فى هذا الموضع : « شقر ، جزيرة بالأندلس قريبة من شاطبة ، وبينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلا . وهى حسنة البقعة ، كثيرة الأشجار والثمار والأنهار ، وبها أناس وجلة . وبها جامع ومسجد وفنادق وأسواق . وقد أحاط بها الوادى . والمدخل إليها فى الشتاء على المراكب ، وفى الصيف على مخاضة[1] » فهذا كلام عام لا يحدد شيئاً كثيراً ، وقد اختصر الحميرى ما قرأه عند العذرى اختصاراً مخلاً .

٥ — وللعذرى اهتمام خاص بالطرق ومسافاتها والمحلات التى تمر بها ، وإلى أى النواحى يؤدى كل منها ، وأى باب من أبواب المدن يفضى إليها . وهو دقيق جداً فيما يعطى من تفاصيل خاصة بذلك . ففيما يتصل بكورة بلنسية مثلا يذكر :

ا — أبواب مدينة بلنسية وإلى أى ناحية يؤدى كل باب .

ب — الطرق من مدينة بلنسية إلى المواضع التى من عملها ، فيذكر الطريق إلى مربيطر وإلى جزيرة شقر (٢٥ ميلا لا ١٨ كما قال الحميرى) وإلى حصن المنارة .

ج — المسافات بين هذه البلاد بعضها وبعض ، وبينها وبين البلاد الهامة الأخرى من بلاد الكورة .

د — الطريق من قاعدة الكورة السابقة إلى قاعدة الكورة التى يتحدث عنها .

هـ — وهو يذكر مسافات هذه الطرق بالأميال فى الغالب ، ولكنه يكتفى بذكر المحلات فى أحيان قليلة ، والمحلات هى المحطات فى عرفنا ، وذكر الطرق على أساسها لا يقل قيمة ولا تحديداً عن ذكرها بالأميال بالنسبة للمسافرين فى العصور الوسطى .

---

(١) الروض المعطار : ١٠٢ — ١٠٣

وهو يذكر هذه الطرق ذكر من سار فيها وعرف ما يشاهده الإنسان فيما يمر به من مدنها وقراها ، فيقول مثلا : « من بلنسية إلى مُربيطَر ، وهو حصن شرق مدينة التراب ، خمسة عشر ميلا ، وفى مدينة مربيطر أثر للأُول ، ولها من آثار الأول قصر يحار فيه الناظر وتعجز عنه الحكاية[١] » ويقول فى موضع آخر : « ومن أُنده على ثلاثة أميال قرية أرطانة ، وفى أعلى هذه القرية منبع عين يخرج من غار إلى حوض[٢] ، فيغزر الماء فى الحوض مرة ويقل أخرى ، كالمد والجزر ، يُرى ذلك فى كل يوم مراراً فى ذلك العين ، ولا يخفى على من تأمله . ولقد وقفت إلى ذلك العين وحُملت إليه لأراه ، فرأيتُه كما ذُكر : يمد ويجزر[٣] » .

٦ — وأهم ما فى جغرافية العذرى ذكره لأقاليم كل كورة وأجزائها ، والاقليم فى الأندلس كما قال ياقوت قسم من الكورة ، وهو يعدل الرستاق فى المشرق ، أى أنه قسم إدارى أصغر من الكورة ، وقد بينا فى « فجر الأندلس » أن الإقليم كان وحدة زراعية مالية تضم قرى كثيرة ، ولكن الضرائب كانت تقدر عليه جملة ، وبينا كذلك أن الأجزاء كانت مساحات واسعة من الأرض تركتها الدولة مشاعا للمرعى ، ولم تقدر عليها جباية ما ، وذكرنا أن العرب ساروا فى ذلك على أساس قديم وجد من أيام الرومان ، وهو يجعل لكل مدينة أو قرية منطقة مراع مشاعاً معفاة من الضرائب[٤] .

---

(١) يقول مادوث فى معجمه الجغرافى أنه لم يبق فى مربيطر على أيامه شىء من الآثار القديمة التى خلفها السغونتيون Los Saguntinos وهم منسوبون إلى بلدة سغنتم Saguntum وكانوا يدافعون عن هذه الناحية ضد الرومان أثناء الحروب بين قرطاجنة وروما فى اسبانيا .
Pascual Madoz, *Diccionario Geográfico, Estadistico, Histórico de España...* (Madrid 1818), vol. XI, p. 776.

(٢) ذكر هذه العين مادوث فى معجمة الآنف الذكر . وقال إنها تنبع من أصل جبل مونتى Monti . مجلد ١٢ ص ٢٧٥ مادة Onda .

(٣) فى الأصل : يملأ ويحصر ، وهو تحريف من الناسخ .

(٤) انظر المناقشة فى كتابنا « فجر الأندلس » ص ٥٨٥ — ٥٨٧ . وانظر كذلك مقالنا :
La División Político-Administrativa de la España Musulmana, en Revista del Instituto de Estudios Islámicos, vol. V, (1957), pp. 102 sqq.

والعذرى يذكر أقاليم كل كورة ثم يتبع ذلك بالأجزاء التى فيها ، وربما أهمل هذه القاعدة فى بعض الكور ، ولكن هذا هو الغالب على كتابه . وهو يذكر فى الغالب أيضاً عدد القرى فى كل اقليم ومقدار الضرائب المقدرة عليه ، وهو يفصل هذه الضرائب تفصيلا دقيقاً ، فيقول مثلا :

« عدد أقاليم قرطبة ، وهى خمسة عشر اقليما :

اقليم المدور : عدد قراه فى المغارم تسعون قرية ، منها فى العشور ثلث[. . .]

القمح : ٨٥ مديا و ٤ أقفزة
النَّاضُّ : ٣٩٨٠
الطبل للعام : ٤٢٤٠ ديناراً
الصدقة والبيزرة : البيزرة ٤١٢ ديناراً و ٤ دراهم

اقليم القصب : القرى فى الوظائف ٨٧ منها فى العشور ٥٦

القمح : ١٠٠ مُدى و أر[. . .]
الشعير : ١١١ مدياً
الطبل للعام : ٢٧٠٠ [. . .] و ٤ دراهم
ومن الناض للحشد : ٤٧٠٢ ٢/٧
الصدقة والبيزرة : ٢٠٣ دنانير و ٤ دراهم

وهكذا فى بقية أقاليم قرطبة . ومع أنه يقول إنها خمسة عشر إلا أنه لا يذكر إلا اثنى عشر .

ومثل هذه البيانات لا يأتى بها إلا رجل مطلع على سجلات الدولة ينقل عنها ، فإن الذى يقول مثلا إن ضريبة الناض للحشد ، أى الضريبة المالية المقررة على اقليم القصب لمعونة الجيوش تبلغ ٤٧٠٢ ٢/٧ (ديناراً فى الغالب) لا يمكن أن يقول ذلك إلا نقلا عن سجلات إمامه . وسجلات الدولة لم تكن فى

هذه الأيام فى متناول كل إنسان ، وإنما كان يطلع عليها من يعملون فى دواوين الدولة وفى إدارتها المالية بوجه خاص . وهذا فى ذاته يكشف عن حقيقة لم نكن نعلمها عن العذرى ، وهى أنه لابد أن يكون قد عمل فى الإدارة وتناولت يده الأوراق ونظر فيها ، أو على أقل تقدير لابد أن يكون قد اتصل برجل له هذه الصفة ونقل من دفاتره هذه البيانات . وما الذى يجعل رجلا كأحمد عمر ابن أنس العذرى ، فقيه محدث كل همه منصرف إلى السماع والاسماع ورواية الأحاديث على نحو من الضبط يجعله من شيوخ العصر الذين يسمع منهم رجل مثل أبى محمد بن حزم ، ما الذى يجعل رجلا كهذا يميل إلى الكتابة فى صفة الأندلس ونواحيها وأقاليمها وأجزائها وحدود كل ناحية واقليم وضرائبه وما إلى ذلك ؟ إلا أن تكون المعلومات قد يُسِّرت له ووجد فى نفسه ميلا إلى أن يسجلها فى كتاب ، ودفعه هذا إلى استيفاء الموضوع فقرأ ما كتب غيره ورحل ليرى بنفسه حتى يكون كتابه فى مستوى ما كتبه الرازى مثلا ؟

هذا ما نعتقده ، ويؤيدنا فيه أن الكثير من المعلومات التى يسجلها تبدو لنا ناقصة ، كأنه سجل ما لديه وانتظر بالباقى حتى يستكمله ، ثم لم يجد وسيلة إليه أو صرفته شواغل الأيام فترك الكتاب كما هو : فهو مثلا يقول إن أقاليم قرطبة خمسة عشر ثم لا يذكر إلى اثنى عشر ، وهو يذكر كل أنواع الضرائب فى إقليم ويغفل بعضها فى أقاليم أخرى ، وقد يذكر أن مدن الكورة الفلانية هى كذا وكذا وكذا فإذا بدأ يتحدث عن كل منها بالتفصيل لم يذكر إلا اثنتين أو ثلاثا وترك الباقى ، وهذه طريقة مُصَنِّفٍ جَمَع ونقل وأثبت ما استطاع الوصول إليه وانتظر بالباقى ليستكمله ، ثم لم يستطع ، ولو أنه عمد إلى تأليف كتاب فى الجغرافية من أول الأمر كما فعل المقدسى مثلا لرأينا فى الكتاب تناسقا أكثر مما فى نسخته التى لدينا .

ولكن ذلك لا يقلل من الفائدة التى نخرج بها من ذلك الكتاب ، فهو بشكله الحالى أحسن وأوسع ما لدينا فى صفة الأندلس الإسلامى ، سواء من

حيث الطريقة التى سلكها العذرى فى تأليفه أو من حيث المادة التى ضمنها إياه ، هذا إلى دقته فى التحديد وضبطه فى رسم الأعلام . ويبدو أنه عندما شرع فى جمع المادة حرص على أن يقرأ ما كتب غيره قراءة فهم وتدبر ، ومن هنا فإننا نجد عنده عبارات ذات أهمية كبرى بالنسبة لتصور العرب ومن قبلهم لشبه الجزيرة . مثال ذلك قوله بعد الفراغ من الكلام على كورة تدمير ، وسنقسم كلامه هنا إلى فقرات نعطيها أرقاماً حتى تسهل مناقشتها :

١ — « تم ذِكر الأندلس الأول على قسمة قسطنطين ، وهو الذى جزّأها ستة أجزاء :

٢ — أضاف الثلاثة فسماها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحَلْفَاء وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة إلى أقصى الغرب .

٣ — وأضاف الثلاثة أيضاً فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوريولة إلى سرقسطة وما وازاها .

٤ — وسماها غير قسطنطين بالأندلس الغربى وبالأندلس الشرقى ، وذلك بجرى الأنهار ، فما جرى منها إلى الغرب سماه الغربى ، وما جرى من أنهاره إلى الشرق سماه بالشرقى .

٥ — والقسمة من تدمير ، ونهرها جار إلى الشرق .

وهذا الكلام أقرب إلى أن يكون محاولة للتوفيق بين تقسيمات إدارية وكنسية مختلفة لاسبانيا ، أو محاولة لشرح مصطلحات إدارية وجغرافية رومانية أو قوطية وصلت إلى علم العذرى ، فاجتهد فى توضيحها قدر ما استطاع ، شأن العالم المتخصص الحريص على استيضاح كل ما يصل إليه من المعلومات .

وسنناقش عبارة العذرى فقرة فقرة :

١ — فأما قوله « تم ذكر الأندلسى الأول على قسمة قسطنطين » فمعناه فيما نظن : تم ذكر الأقسام الداخلة فى الأندلس الأدنى Espania Citerior كما قسمه قسطنطين (إلى خمسة أجزاء هى : نربونه Narbona وجليقية Galicia وقرطاجنة Cartagena ولشدانية Lusitania وباطقة Betica) .

ويلاحظ أن العذرى وضع بلنسية فى الجزء الرابع من قسمة قسطنطين ، أى من التقسيم الكنسى الذى أشرنا إليه . ولورقة عنده تقابل قرطاجنة فى التسمية الكنسية .

٢ — وأما قوله « أضاف الثلاثة فسماها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحلفاء وهى لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة إلى أقصى الغرب » ففيه خلط ظاهر ، فإن قسمة قسطنطين لم تضف الثلاثة ولم تُسَمِّهَا الأندلس الأدنى ، بل الذى حدث هو أن التقسيم الإدارى الرومانى الأول الذى تم حوالى سنة ١٩٧ ميلادية تقريباً كان يجعل اسبانيا قسمين إداريين كبيرين هما ولاية اسبانيا الدنيا Provincia Hispania Citerior وولاية اسبانيا القصوى Provincia Hispania Ulterior ، والأولى توازى الساحل الشرقى ، والثانية توازى الساحل الجنوبى حتى مصب نهر الوادى الكبير ، وكان يحكم كلا منهما قنصل سابق Proconsul ثم استبدل فى تلك السنة بمُقَدَّمٍ Praetor . والحد الفاصل بين هذين القسمين كان يبدأ بالفعل من قرطاجنة اسبانيا أو قرطاجنة الجديدة Cartago Nova ويسير فى اتجاهٍ شمالى غربى إلى أقصى ما عرف فى المصطلح الجغرافى العربى ببلاد الغرب . فكان خط التقسيم يصل إلى Emerita Augusta وهى ماردة . وكانت تدخل فى هذه الولاية شاطبة Saetabis . ودخلت فيها فيما بعد بلنسية Valentia عندما أنشئت لتحل محل سغونتوم Saguntum التى خربتها الحروب البونية .

فإشارة العذرى إذن إنما هى إلى ذلك التقسيم القديم الأول ويبدو أنه ظل

واضح المعالم فى أذهان أهل الجزيرة رغم ما ناله من تغير وتطور على أيدى الاباطرة بعد ذلك .

وقد سبق أن ذكرنا أن قسمة قسطنطين هذه كانت معروفة فى الأندلس الإسلامى ، يتداول نصاراه نسخاً مختلفة منها ، بعضها عربى . وقد أثبت أحمد الرازى نص إحداها فى جغرافيته ونقلها عنه البكرى ، ويغلب على الظن أيضاً أن العذرى ذكرها فيما ضاع من أقسام كتابه ، بدليل إشارته إليها فى الفقرة التى نناقشها .

٢ — وأما قوله « وأضاف الثلاثة أيضاً ، فسماها الأندلس الأقصى ، وذلك من أوريوله إلى سرقسطة » فحقيقة ما وقع أن قسمة قسطنطين قسمت الأندلس الأقصى Provincia Hispania Citerior إلى ثلاث ولايات أسقفية هى :

باطقة Baetica (وهى الجزء السادس فى الترجمة العربية لقسمة قسطنطين التى أوردها أحمد الرازى والبكرى) وقاعدتها اشبيلية .

لشدانية Lusitania : وهى الجزء الخامس من هذه الترجمة ، وقاعدتها ماردة .

جليقية : Galicia : وهى الجزء الثانى من هذه الترجمة ولم تحدد لها قاعدة .

٣ — أما قوله فى نهاية هذه الفقرة الثانية « وأضاف الثلاثة أيضاً فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوريوله إلى سرقسطة وما وازاها » فيريد به أن الحد الفاصل بين الأندلس الأقصى والأندلس الأدنى خط يسير من أوريوله إلى سرقسطة .

وهكذا نرى كيف سار أحمد بن عمر بن أنس العذرى بعلم الجغرافية فى الأندلس خطوة واسعة إلى الأمام . فإذا كان الرازى قد وضع الأساس السليم الذى حدد مفهوم الجغرافية الطبيعية والبشرية فى أذهان الناس ، فقد بدأ العذرى من حيث انتهى الرازى ، فحاول أن يضيف تفاصيل جديدة إلى وصف

هيئة شبه الجزيرة وتقسيمها الجغرافى العام ، وتوسع فى الجغرافية البشرية ، فأطال الكلام عن كل كورة أو قسم إدارى ، فلم يكتف بوصفه العام ومدنه الرئيسية ومنابع الثروة فيه ، بل فصل الوصف تفصيلا علمياً حافلا بالمعلومات ، ووصف المدن نفسها واحدة واحدة ذاكراً زمامها وحدودها وأبوابها إذا استطاع ، ثم ذكر الطرق بين بلاد الكورة نفسها وبين قواعد الكور المجاورة وبلادها ، حريصاً دائماً على ذكر المسافة من قاعدة الكورة إلى قرطبة عاصمة الدولة . وهو لا يكتفى بذلك بل يورد أقاليمها وما يتبع كل واحد منها من قرى ، ثم يذكر الأجزاء ، ويضيف إلى ذلك فائدة كبرى : ينقل من سجلات الدولة مقادير الضرائب المقررة بأنواعها على كل إقليم يذكره ، ويوردها بغاية الدقة مما يلقى ضوءاً باهراً على نظام الضرائب فى الأندلس وأحواله الاقتصادية بصفة عامة .

وإذا كان الوصف الدقيق لجغرافية الرازى هو أنها من طراز البلدان فقط فإن جغرافية العذرى ضمت البلدان والمسالك والممالك ، فهى تصف الطرق وتقدر المسافات وتعين المراحل والمحلات فى دقة تشهد بدقة علمية جديرة بالتنويه . وقد رأينا الرازى يتحرر من أسر القيود التى وضعها بطليموس على علم الجغرافية ، فينقله من جداول فلكية وهمية تحشد فيها البلاد على صورة جافة ، إلى دراسة إنسانية تتناول الأرض ومن عليها من الناس وعلاقة هؤلاء بهذه ، ثم يجىء العذرى فيضيف حشدا من المعلومات عن الجغرافية السياسية والاقتصادية للبلاد ، ولا يشير إلى أقاليم بطليموس وإنما إلى قسمة قسطنطين ، أى إلى التقسيم الإدارى المالى ، ويقترب بالجغرافية من مفهومها فى العصر الحديث ، فهو لا يكتفى بذكر المحاصيل الرئيسية للناحية ، بل يضيف مقادير الجبايات من كل نوع ، معتمداً فى ذلك على سجلات الدولة الرسمية ، وهذه البيانات الدقيقة عن الضرائب تمكننا من تعرف مساحات الأراضى الزراعية وأعداد السكان . ثم إن كلامه الدقيق عن مجارى المياه وعيونها وذكره الأنهار وفروعها والترع

وما تسقيه ، يكشف لنا عن ناحية كبرى من نواحى الحضارة العربية فى الأندلس : ناحية الري والسقيا والقنوات . والمعلومات التى يقدمها العذرى فى هذه الناحية تزيد فى الدقة على ما يقدمه المقريزى فى خططه عن هذه الناحية فى مصر ، وذلك فضل ينبغى أن نذكره لذلك الجغرافى الأندلسى الفريد .

والعذرى دقيق فيما يستعمل من مصطلحات دون أن يلجأ إلى التعبير عنها تعبيراً عاماً يفقدها قيمتها الاصطلاحية ، فهو يسمى عاصمة الكورة بالقاعدة ، ويسمى عاصمة المدينة أى الكورة الثغرية « قرار العمال والقواد » ويسمى منبع النهر « عُنصره » والقناة التى تشق للرى بالساقية ، وهو لا يقول « شق قناة » وإنما « أخرج ساقية » ، وهو يفرق تفريقاً واضحاً بين الساقية والناعورة . وهو يذكر « المعادن » أى المناجم ، ويعين قدر ما يستخرج منها فى العام . وعند كلامه على الفُنْدُون يقول « صفته صفة النيل ، إنما يسقى مرة واحدة ، ولا يحتاج إلى غير ذلك » ، أى أنه يسقى بفيض النهر عندما يعلو ماؤه ويروى ما حوله ، فإذا انحسر الماء زرع الناس دون حاجة إلى سقى آخر ، ثم يضيف بعد ذلك بيانات عن وفرة ثمر ما يزرع فيه . وهو يسمى الفتحات التى توجد فى الجبال أو تصنع فيها لكى يصل الناس إلى الماء الجاري داخلها بالمناهر ، مفرده منهر ، وهو مصطلح نقرؤه عنده أول مرة فى كتب الجغرافيين .

وهو يقف عند كل موضع هام ويذكر ما تيسر من تاريخه ، ومعلوماته هنا دقيقة يبدو أن معتمده فيها على تاريخ أحمد بن محمد الرازى ، وهذه المعلومات المفصلة أدخل فى باب التاريخ ، ولكنها لا تخلو من فائدة لدارس الجغرافية البشرية والاقتصادية والسياسية ، فنحن نتبين من خلالها الأقوام التى سكنت الناحية وتاريخهم فيها واختلاطهم بأهلها ، وصورة ذلك الاختلاط وفوائد أخرى ذات أهمية كبرى ؛ ففى أخبار ابن وضاح فى لورقة يقول : « وكان بقربها رجل يسقى على نوبة له » فنفهم أن الناس كانوا يتناوبون فى الانتفاع بالسواق ، كل منهم يسقى وقتاً معيناً يسمى « النوبة » ؛ وعند كلامه على أوريولة يقول إن تفسيرها

باللاتيني الذهبية ، وهو تفسير صحيح لأن أصل الاسم Aureola . وعند كلامه على ديسم بن اسحاق يقول إنه أدى « قطيعاً » من الجباية أى جانباً منها ، ويقول إنه « كان يحبِّس الخيل والسلاح على أهلها » أى يرصد خيلا وسلاحاً خاصة للدفاع عن أهل لورقة . ومن خلال كلامه نعرف المعنى الدقيق لعبارة « سَجَّل له بها » أى اعترف الأمير بولايته على الناحية وكتب له سجلا بذلك ، وعبارة « استعمل الراحات والفرج » أى أخذ بأسباب الملاهى وهو يذكر « بَلَد نُوبَه » وهو المصطلح الأندلسى لذلك الطراز من المدن الذى ظهر فى أوروبا ابتداء من القرن العاشر الميلادى Villa Nova (Villeneuve أو Villa Nueva) ولفظ « نازل » ويراد به الذين استقروا من العرب الفاتحين فى ناحية ما ، فيقال مثلا ان حسين بن يحيى الأنصارى « مِنْ نَازِل سرقسطة » ؛ ولفظ « ضغط » بمعنى طارد ؛ ولفظ الثمر أو الثمرة أو الثمار بمعنى شجر الفاكهة ؛ وغير ذلك كثير .

ويهتم العذرى بأحاديث العجائب والغرائب ، ولكنه يذكرها تحت هذا العنوان ولا يخلط بينها وبين الوصف الجغرافى ، ثم اننا إذا قرأنا الكثير مما يورده على أنه « غرائب » وجدناه فى كثير من الأحيان يتحدث عن ظاهرة طبيعية يمكن تعليلها وقد تكون باقية إلى اليوم ، وهو لا يسرف ولا يغرب فى عجائبه تلك على أى حال .

بين العذرى والبكرى

فيما بين العذرى والبكرى ، أو كان معاصرا لأحدهما ، عدد من أئمة التاريخ فى الأندلس تضمنت كتبهم مقدمات جغرافية أو استطرادات فى ذلك الفن على النحو الذى جرى عليه أصحاب التاريخ فى الأندلس عامة ، فقد رأينا كيف أن الفاصل بين التاريخ والجغرافية عندهم كان غير واضح ، وأنه ما من مؤرخ عندهم إلا يمكن اعتباره جغرافياً ، وما من جغرافىّ إلا وهو مؤرخ فى نفس

الوقت . وتلك من خصائص التاريخ والجغرافية عند الأندلسيين ، نعم إن نفراً من الجغرافيين أو المؤرخين فى المشرق جرى على هذا النهج ، ولكن ذلك كان قليلا ، والأغلب أن يكون المؤرخ فى المشرق محدثا أو مفسراً ، أما فى الأندلس فإن الجغرافية والتاريخ كانا متلازمين ، وهذا يفسر لنا السبب فى أن معظم ما كتبوه فى الجغرافية إنما هو من قبيل الجغرافية البشرية .

ومن أسف أننا لم نعثر بَعدُ على الجانب الأكبر من مؤلفات أولئك المؤرخين ، ولكن ما وصل إلينا من بقاياه يكشف عن طبيعته ومزاياه كما ينم الحطام على السفين الغارق ، ومن حسن الحظ أن المتأخرين من مؤرخى الأندلس مضوا على سنن المتقدمين من افتتاح كتبهم بالمقدمات الجغرافية وتضمينها ما تدعو إليه الحاجة من التفاصيل الجغرافية عند الإلمام بالمواضع والبلاد ، وقد أخذوا ذلك من مؤلفات السابقين عليهم ، فحفظوا لنا بذلك فقرات وإشارات طويلة أو قصيرة تعيننا على تكوين فكرة سليمة عن الأصول التى أخذوا عنها . وأحفل هذه الكتب بالنقول نفح الطيب للمقرى والمعجب لعبد الواحد المراكشى والإحاطة لابن الخطيب ومقدمة ابن خلدون وتاريخه ومعجم البلدان لياقوت ونزهة المشتاق للادريسى والروض المعطار لابن عبد المنعم الحميرى وأصول أخرى تضم قطعاً أقل أهمية ، وعلى هذه كلها معتمدنا فيما سنذكر عن هؤلاء الكتاب كجغرافيين ، وسنكتفى منهم بمن لدينا من النقول عنهم ما يسمح بتكوين فكرة عنهم كجغرافيين ، أما من أُثر عنه السطر والسطران أو لم يرد إلا اسم كتابه مثل اسحاق بن سلمة الليثي (عاش أيام الحكم المستنصر) الذى ألف كتابا فى « أخبار رَيَّه وحصونها وولاتها وحروبها وفقهائها وشعرائها[(١)] » وكتابا آخر فى « أخبار الأندلس[(١)] » وأبى مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد المعروف بابن المطاهر (توفى ٤٨٩ / ١٠٩٥) الذى ذكروا له

(١) الضبى ، تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٥٦

كتابا فى « تاريخ فقهاء طليطلة » وأبى عمر أحمد بن محمد بن عفيف (٣٤٨—٤٢٠/٩٥٩—١٠٢٩) الذى يصفه الضبى بأنه « تاريخى مشهور »[1] فقد استطردنا عن ذكرهم لأن ما لدينا عنهم لا يغنى .

وسنقف عند أربعة من أهل النصف الثانى من القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس لدينا من كتاباتهم وأقوال المؤرخين عنهم ما يجعل لهم مكانا فى تاريخ التأليف الجغرافى فى الأندلس ، بل إن إشارات بعضهم تبلغ من الدقة والتفصيل ما لا يستغنى عنه من يجمع أقوال الأندلسيين فى جغرافية بلادهم . وهؤلاء الأربعة هم : ابن الفرضى وابن حيان وابن النظام وابن أبى الفياض ، ولن نطيل الوقوف عند كل منهم ، فهذا مكانه فى الكلام عنهم كمؤرخين ، وإنما سنكتفى بقدر يسير يتناسب مع ما لدينا من الفوائد الجغرافية لكل منهم .

ابن الفرضى

فأما ابن الفرضى (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى) (٣٥١—٤٠٣/٩٦٢—١٠١٢) فهو شيخ أصحاب معاجم التراجم الأندلسية ومقرر أصول هذا الفن الذى اتصل فى الأندلس والمغرب بعد ذلك قرونا طويلة ، وكتابه الوحيد الباقى بين أيدينا « تاريخ علماء الأندلس » إن هو إلا ثبت طويل بأسماء علماء الأندلس إلى عصره يتضمن ما كان الناس يحتاجون إليه فى ذلك العصر من المعلومات عن أولئك العلماء . ولسنا فى حاجة إلى التنبيه على أن « تاريخ العلماء » الذى لدينا إنما هو اختصار للكتاب ، فإن ابن الفرضى ينص فى المقدمة على أنه كان يريد أن يؤلف كتابا « موعبا على المدن يشتمل على الأخبار والحكايات ، ثم عاقت عوائق عن بلوغ اعداد فيه ، فجمعنا هذا

---

(١) نفس المرجع رقم ٣٤٤

الكتاب مختصراً . . »[١] ويؤكد فى نهاية تلك المقدمة أن نيته لا زالت معقودة على « جمع الكتاب الذى تقدم ذكره على البلدان وتقصى ما اختصرناه فى كتابنا هذا من الحكايات والأخبار إن تأخرت بنا مدة وصحبتنا من الله معونة »[٢] . وقد كشف ليفى بروفنسال فى مقال ممتع عن طوق الحمامة لابن حزم عن فقرات لابن الفرضى موسعة مفصلة بأكثر مما فى « التاريخ » الذى لدينا بكثير[٣] ، مما يحمل على الظن بأن ابن الفرضى شرع على الأقل فى الكتاب المطول ، ومن الجائز أيضاً أن يكون قد أتمه ، وعاش الكتابان جنباً إلى جنب حتى أخملت المختصرة المطولة كما حدث « لمطمح » ابن خاقان . ومن هذه النسخة المطولة أخذ ابن الخطيب ما أورده فى أعمال الأعلام وابن حزم ما أورده فى الطوق . وما يعنينا هنا هو أن رجلا يزمع أن يؤلف معجم تراجم على البلدان ، أى مرتباً بحسب بلدان الرجال الذين يترجم لهم ، لابد أن يتكلم عن هذه البلدان فى ذاتها . ومن هنا على الأغلب أخذ المقرى الفقرات التى أوردها فى الفصل الخاص بقرطبة من النفح ، وهى فقرات طويلة تدور الأولى منها على زيادة المنصور ابن أبى عامر فى جامع قرطبة ، وهى فقرة طويلة من ذلك النوع الذى نجده عن ذلك الجامع عند الجغرافيين من أمثال الرازى وابن عبد المنعم الحميرى[٤] . والثانية تدور حول مدينة الزهراء ، قال : « كان يعمل فى جامعها حين شُرِع فيه من حذاق الفعلة كل يوم ألف نسمة منهم ثلثمائة بناء ومائتا نجار وخمسمائة من الأُجَرَاء وسائر الصنائع ، فاستتم بنيانه وإتقانه فى ثمانية وأربعين يوماً ، وجاء فى غاية الاتقان من خمسة أبهاءٍ عجيبة الصنعة ، وطوله من القبلة إلى الجوف — حاشا المقصورة —

---

(١) ابن الفرضى ، المقدمة ، ص ٦ — ٧

(٢) نفس المصدر ، ص ٧

(٣) E. Lévi-Provençal, *En relisant le «Collier de la Colombe»* Al-Andalus, vol. XV, (1950) fasc. 2, pp. 335—877.

(٤) المقرى ، نفح الطيب ٢/٨٦ — ٨٧

ثلاثون ذراعا ، وعرض البهو الأوسط من أبهائه من الشرق إلى الغرب ثلاث عشرة ذراعاً[١] . . . » وهذه الفقرة وبقيتها لا يكتبها إلا رجل مقتدر على الكتابة فى البلدان وأوصافها والمبانى وهيآتها ومقاييسها ، ولا يحتمل أن يكون ابن الفرضى قد أخذ ذلك الكلام عن غيره ، فإنه هو نفسه معاصر لبناء الزهراء وجامعها ، ومعلوماته تدل على أنه سأل واستقصى وقاس وحقق بنفسه . وأدل على هذه الناحية عند ابن الفرضى قوله فى الفقرة التالية التى نقلها المقري : « وفى صدر هذه السنة كمل للناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التى جرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربى قرطبة فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة ، يجرى ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الدهر[٢] . . . » ولا حاجة إلى إيراد بقية الفقرة على تواليها ، فهى فى كتاب مطبوع بأيدى الناس ، ويكفى ما أوردناه لتتجلى موهبة ابن الفرضى الوصاف المدقق المعنى بمجارى المياه ومنابعها ومواردها وأطوالها وما ترويه من أرض .

أبو مروان بن حيان ، جغرافياً

أما أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان (٣٧٧ — ٤٦٩ / ٩٨٧ — ١٠٧٠) عميد مؤرخى الأندلس فمن المعروف أن معتمده الأول فى كتابه « المقتبس » كان على أحمد بن محمد الرازى ثم على ابنه عيسى بن أحمد ، وهو يتابعهما فى دقة ، مما يحمل على الظن أنه نقل الجزء الجغرافى الذى صدَّر به أحمد بن محمد الرازى تاريخه ، ومن دلائل ذلك أن المقرى أورد فى النفح

---

(١) نفس المصدر ، ٢/١٠٠

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ٢/١٠٠ ١٠١

نقلا عن مقتبس بن حيان الفقرة الطويلة الخاصة بأشبان والأمم التى حكمت الأندلس قبل العرب ، وهى قطعة من المقدمة الجغرافية[١] للرازى . وقد مضى ابن حيان على هذا المنهج فى بقية تاريخه ، فأورد فى ثناياه فقرات جغرافية طويلة على سبيل الشرح والتوضيح ، فقد نقل عنه المقرى كلامه عن جسر قرطبة[٢] ووصفه لمدينة الزهراء[٣] وكلاماً طويلا عن مساجد قرطبة ودورها وحماماتها[٤] وعن مبانى الزهراء . وهو فى هذه الفقرات يجرى على طريقته فى الاعتماد على الأصول المباشرة ، فهو فى كلامه عن الزهراء يقول : « ألفيت بخط ابن دحون الفقيه ، قال مسلمة بن عبد الله العريف المهندس : بدأ الناصر بعمارة الزهراء أول سنة ٣٢٥ . . »[٥] . أما ما يرد فى ثنايا المقتبس من التفاصيل الجغرافية عن المواضع فيمكن أن يكون كتيباً لا بأس به إذ جمع فيه ما فى الأجزاء التى وجدت من هذا الكتاب . ولا يستغنى من يريد أن يتعرف جغرافية الأندلس الإسلامى عن أن يستصفى الفوائد الجغرافية الواردة فى كتابات ابن حيان ، فإنه يعنى بذكر المدن والحصون والقرى والكور وحدودها وما فيها ، ويؤرخ لاختطاط المدن وإنشاء الحصون والموانى والجسور والقناطر والأسوار . وهو فى وصف الغزوات ومسير الجيوش يذكر الطرق التى تمر بها ويصفها ويذكر ما فيها من جبال وهضاب ، وما يلقاه الجيش من حصون ومدن وقرى ، كل ذلك فى دقة كاملة لا نظفر بها فى مرجع آخر . ويكفى أن نذكر أن الجزء الصغير الذى نشره الأب ملشور انطونية من تاريخ ابن حيان خاصاً بإمارة الأمير عبد الله يضم أسماء نحو ٦٠٠ موضع كلها مضبوط برسمه ومكانه ووصفه فى كثير من الأحيان .

---

(١) نفس المصدر ، ١/١٣٤ وما يليها .
(٢) نفح الطيب ، ١/١٤٧
(٣) نفس المصدر ، ٢/٦٧
(٤) نفس المصدر ، ٢/٧٩
(٥) نفس المصدر ، ٢/١٠٣

أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم بن النظام

ويعتمد ابن حيان فى بعض ما يورد على ابن النظام ، وهو أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم بن النَّظَّام الذى أورد له المقرى فى النفح قطعة طويلة تدل على ملكة جغرافية سليمة ، ولسنا نعلم عن حياته شيئاً ، ولولا أن ابن حيان أخذ عنه وذكره لما عرفنا أنه من المتقدمين عليه . وقد ذكر بونس بويجس أن الضبى اختصه بمادة يقول فيها أن أبا عامر بن مسلمة ذكره (فى كتاب حديقة الارتياح فى وصف الراح على الأغلب) وأورد له ستة أبيات من شعر فى الخمر ، وقد نقل الضبى هذه المادة عن الحميدى ، ولكن ذلك غير صحيح ، فإن المذكور هناك اسمه عبد الملك أما عبد الله بن النظام الذى يعنينا هنا فقد اختصه ابن بشكوال فى التكملة بمادة من سطرين ، يقول فيها : « عبد الله بن عبد الحكم من أهل قرطبة يعرف بابن النظام ، ويكنى أبا بكر كان أديباً اخباريا تاريخياً ، يحكى عنه ابن حيان فى كتابه »[١] .

والعبارة التى أوردها المقرى لابن النظام[٢] تكاد تكون أحسن ما لدينا عن مناخ شبه الجزيرة وأمطارها وأثر ذلك فى مجارى الماء فيها ، وهى عبارة مشهورة تعتبر توسيعاً وشرحاً لعبارة مماثلة للرازى أوردها المقرى قبلها . والعبارات التاريخية التى يقتبسها ابن حيان منه تحمل أيضاً طابع الرازى ، فكأن ابن النظام ألف كتابه ناسجاً على منوال شيخ مؤرخى الأندلس وآخذاً عنه ومضيفاً إلى مادته ما حضره من شىء جديد ، وليس فى هذا ضير ، فقد كانت هذه طريقة الأجيال المتعاقبة من مؤلفينا ، والمهم لدينا أنه يضيف من عنده إضافات جعلت ابن حيان ينص عليه وينسب إليه فضلها ، ولو أنه كان يكتفى بالنقل عن

(١) الحميدى ، جذوة رقم ٦٣٣ ص ٢٦٧ — الضبى بغية رقم ١٠٧٠ ص ٣٦٨ — ابن الأبار ، التكملة ، رقم ١٢٧٠ ص ٤٤٢ . وانظر أيضاً بونس بويجس رقم ٩٩ ص ١٢٤

(٢) نفح الطيب : ١/١٢٩ — ١٣٠

الرازى لما وجد ابن حيان ما يدعو إلى النص عليه فى بعض المواضع . والعبارة التى أتى بها المقرى مقتبسة دون شك من المقدمة الجغرافية .

وقد أورد المقرى فى نفح الطيب عبارتى أحمد بن محمد الرازى وابن النظام عن مناخ شبه الجزيرة جنباً إلى جنب (جـ ١ ص ١٢٨ — ١٣٠) مما يغنينا عن إيرادهما هنا . وفيما يلى مقارنة بينهما تبين كيف أن ابن النظام اعتمد على كلام الرازى ، ثم أضاف من عنده ملاحظات تكشف عن ملكة جغرافية أصيلة . والعبارتان تختلفان فى اللفظ والتفاصيل ، ولكن الفكرة الرئيسية التى تقومان عليها واحدة ، وهى انقسام شبه الجزيرة من ناحية الأمطار والرياح واتجاه مجارى الأنهار إلى قسمين : غربى وشرقى ، وأن الحد الفاصل بين هذين القسمين منطقة وسطى يختلفون فى تحديدها ، فالرازى يقول إنها تبدأ « مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية طالعاً إلى حوز إغريطة المجاورة لطليطلة مائلا إلى الغرب ، ومجاوراً للبحر المتوسط الموازى لقرطاجنة الحَلْفَاء » وهى عبارة غير دقيقة ومليئة بالمشاكل ، إذ أننا لا نعرف ما هى « المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية » والغالب أن المراد هنا شنتمرية الغرب وهى التى تكتب أحياناً شنتبرية وبالاسبانية Santaver ، فتكون المفازة المرادة هنا هى المنطقة التى تعرف اليوم باسترامادوره ، وهى بالفعل فى امتداد ما كان يعرف بالجوف فى المصطلح الجغرافى الأندلسى ، وهو مساحة واسعة تغطِّى فى التقسيم الحالى لاسبانيا الجزء الشمالى من مديرية ولبة Huelva وكل مديريتى بطليوس وقصرش Cáceres وجزءًا مما يحاذى هذه المديريات طولا من البرتغال . والتعبير فى استرامادوره بالمفازة تعبير لا بأس به . وعلى هذا التفسير يكون الفاصل بين منطقتى الأمطار الغربية والشرقية هى المنطقة القليلة المطر التى ذكرناها . وبقية عبارة الرازى تتعلق بامتداد هذه المنطقة الفاصلة إلى الشمال : « طالعاً إلى حوز اغريطه المجاورة لطليطلة مائلا إلى الغرب » إذ يبدو أن المراد بحوز اغريطه هذه منطقة سلسلة جبال جريدوس Serranía de Gredos . والمراد أن المنطقة التى تمطر

بالرياح الغربية وتجرى أنهارها غرباً تقع غرب خط يخترق الجوف والمفازة ماراً بشنتمرية الغرب ومنتهياً عند جبال جريدوس .

أما المنطقة الشرقية التى تمطر بالرياح الشرقية وتجرى أنهارها شرقاً فتقع بناء على كلام الرازى شرق خط يبدأ عند قرطاجنة الحلفاء على الساحل الشرقى ويصعد فى اتجاه شمالى غربى حتى بلدة شنتمرية الشرق المعروفة عند العرب أيضاً بالسهلة أو سهلة بنى رزين (اليوم Albarracín فى مديرية ترويل) حتى يصل إلى حوض نهر إبره ويسير محاذياً الحافة الشرقية لسلسلة الجبال الايبيرية El Sistema Ibérico ثم يصل إلى جبال البشكنس ، والأغلب أن المراد بها سلسلة جبال كنتبرية Pirineos Cantábrios .

وهذا التحديد — إن صح — يبدو لنا غريباً من الرازى وهو الذى يعرف أن ثلاثة من أكبر أنهار الجزيرة وهى الوادي الكبير والوادى آنة والدويرة لا تنبع من أىّ من الحدين الذين عينهما . ولكن الحقيقة أن الجغرافيين كانوا ينقلون أمثال هذه التصورات العامة عن مراجع سابقة أو يأخذونها عن « علماء أهله » أى علماء الأندلس دون التعرض لها بنقد أو تحقيق .

وعلى هذا الأساس أيضاً نستطيع أن ننظر إلى عبارة ابن النظام وما تضمنته من تحديدات ينقصها التحقيق ، فهو يقرر صراحة أنه أخذها عن علماء الأندلس ، أى أنه لم ينقلها عن الرازى أو غيره من المؤلفين العرب ، وهى أوضح من عبارة الرازى فيما يتصل بتقسيم اسبانيا إلى منطقتين مختلفتين من حيث هبوب الرياح وسقوط الأمطار وجريان الأنهار ، وهى دقيقة فى تصوير اتجاهات الأودية وأنهارها وسلاسل الجبال التى تفصل بينها « هابطة جبلا بعد جبل » أى سلسلة بعد سلسلة ، ولا يمكن فهم عبارته كما تصورها هو إلا إذا تصورنا أيضاً الهيأة المثلثة لشبه الجزيرة على ما وصفناها ، وهو نفسه ينص عليها نصاً صريحاً مفصلا فى الفقرة التالية ، وهى فيما يبدو منقولة عن الرازى . وهو يسترسل فى النقل فيتحدث عن الأمم التى سبقت العرب إلى سكنى شبه الجزيرة

على الصورة التقليدية التى قبسها الرازى من كتاب الاسبان النصارى ونقلها عنه من جاء بعده من الجغرافيين والمؤرخين العرب، على ما هو معروف .

والأغلب أن المقدمة الجغرافية لتاريخ ابن النظام كانت تستطرد على النحو الذى نجده عند غيره ، موسعاً كما عند الرازى ومختصراً كما نرى عند ابن عذارى ، ولكنه يضيف من عامه كثيراً كما رأينا فى الفقرة التى أوردناها . وفيما عدا التصورات العامة (وقد ظلت مواضع خلاف عند كافة الجغرافيين حتى نشوء علمى الجغرافية والخرائط نتيجة لحركة الاستكشافات فى مطالع العصر الحديث) فإن الحس الجغرافى لابن النظام سليم وعبارته تدل على ملكة جغرافية أصيلة عرفت كيف تستفيد مما كتب السابقون وتضيف إليها وتخطو بالعلم الجغرافى فى الأندلس خطوة إلى الأمام .

أبو بكر أحمد بن سعيد بن أبى الفياض

وليس لدينا من كتاب العبر لابن أبى الفيَّاض (أبى بكر أحمد بن سعيد ابن محمد بن عبد الله) إلا بضع ورقات اندرجت خطأ فى نهاية مخطوطة « الحلة السيراء » التى لدينا . وهذه الأوراق على قلتها ربما كشفت لنا عن حقيقة هامة تتصل بكتاب العبر هذا ، فهى تبدأ بالتفاصيل الأخيرة لحملة طارق على الأندلس ، وفى نهاية الصفحة الأولى من هذه الأوراق نجد عبارة « تم الجزء الأول » مكتوبة بخط يخالف خط المخطوط ، ثم يلى ذلك عنوان كبير « ذكر استفتاح طارق لجزيرة الأندلس » والسياق يدل على أن هناك خطأً فى ذلك العنوان وأن المراد « ذكر استفتاح موسى لجزيرة الأندلس » . ولا تدل عبارة « تم الجزء الأول » إلا على أن هذا موضع نهاية الجزء الأول من كتاب ابن أبى الفياض وأن الجزء الثانى يبدأ بحملة موسى بن نصير .

فإذا صح هذا فعلام يدور الجزء الأول ؟ قياساً على التقليد الأندلسى الذى أشرنا إليه من التمهيد للتاريخ بالجغرافية نستطيع القول بأن هذا الجزء الأول كان يدور على جغرافية الأندلس ، ولدينا على ذلك دليل وهو أن عبد الواحد المراكشى يقول فى الذيل الجغرافى الذى ألحقه بكتاب المعجب : « . . . هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التأليف ، وداخل فى باب المسالك والممالك ، وقد وضع الناس فيه كتباً كثيرة ، ككتاب أبى عبيد البكرى الأندلسى ، وكتاب ابن فياض الأندلسى أيضاً ، وكتاب ابن خرداذبه الفارسى ، وكتاب الفرغانى ، وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة[1] له » ولم تذكر مراجعنا أن ابن أبى الفياض كتب كتاباً مفرداً فى المسالك والممالك ، أى الجغرافية ، فلم يبق إلا القول بأن المقدمة الجغرافية لتاريخه كانت طويلة مستوعبة جعلت عبد الواحد المراكشى يدرج ابن أبى الفياض ضمن أصحاب كتب المسالك والممالك « المفردة لهذا الشأن المستوعبة له » .

ويؤيد هذا أن مؤلف روض القرطاس يذكر كتابين لابن أبى الفياض نقل عنهما ، الأول مذكور دون تعيين لعنوان (ص ٩ من طبعة أوبسالا) والثانى هو كتاب العبر ، ولم يذكر المؤرخون لابن أبى الفياض إلا كتاباً واحداً فى التاريخ ، فالغالب أن الكتاب الثانى هو المسالك والممالك الذى ذكره

---

(١) ابن عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب (بتحقيق الأستاذين سعيد العريان ومحمد العلمى العربى ، القاهرة ١٩٤٤) ص ٣٤٦

وقد ولد ابن أبى الفياض فى استجه حوالى سنة ٣٧٩ / ٩٨٩ — ٩٩٠ ولكنه عاش وعمل فى المرية ، أى فى نفس البلد الذى ولد وعاش فيه العذرى ، ولعل لذلك أثراً فى اتجاهه نحو التاريخ والجغرافية ، وقد اختصه ابن الأبار فى الصلة بمادة قال فيها « أصله من استجه وسكن المرية . يكنى أبا بكر . سمع باستجة من يوسف بن عمروس وبالمرية من أبى عمر الطلمنكى وأبى عمر بن عفيف والمهلب ابن أبى صفرة وغيرهم . وله تأليف فى الخبر والتاريخ . وتوفى سنة ٤٥٩ وقد خانق (كذا والأغلب أن صحتها جاوز) الثمانين سنة . ذكره ابن مدير » رقم ١٢٤ ص ٦٣ . وانظر عنه دوزى مقدمة البيان ، ص ٧٥ وجاينجوس الترجمة الإنجليزية للجزء الأول من النفح ج ١ ص ١٩٤ و ٤٧٤ و كتابات العرب عن بنى عباد ، ج ٢ ص ٣٤ وبونس بويجس رقم ١٠٤ ص ١٣٨

عبد الواحد المراكشى ، ويغلب أن ابن أبى الفياض جعل كتابه من قسمين أحدهما خاص بالجغرافية والآخر خاص بالتاريخ ، فاعتبرهما بعض المؤرخين كتابين .

نقول هذا وليس لدينا شىء من كلام ابن أبى الفياض فى الجغرافية ، ولكننا ننبه إلى هذه الحقيقة حتى يتطلب المتخصصون هذا الجزء الأول من تاريخ ابن أبى الفياض ويعرفوا أن معظمه يدور حول جغرافية الأندلس ، فلعلنا نعثر عليه ، فتفيد هذه الإشارة فى التعرف عليه .

أبو عبيد البكرى

كان أبو عبيد البكرى من تلاميذ أحمد بن عمر بن أنَس العذرى ، وهو دون شك من أعلام الجغرافية عند العرب ، وهو واحد من هذه الجماعة الباهرة من الفحول الذين أطلعهم الأندلس خلال القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى ، فهو معاصر للعذرى وابن حزم وابن حيان وابن بسام ومن إليهم . وهو يشترك معهم فى الاتجاه الموسوعى ، سواء فى تحصيل المعارف أو فى الرغبة فى إذاعة هذه المعارف بين الناس . وإذا كانت هذه الموسوعية تتبدى فى كتابات ابن حيان وابن بسام وفى شعر الفحول من شعراء ذلك العصر مثل أبى عمر بن دراج القسطلى وأبى بكر بن عمار والمعتمد بن عباد وعبد المجيد ابن عبدون فى صورة إشارات وكنايات فى ثنايا النثر والنظم تدل على إحاطة تدعو إلى الإعجاب بتاريخ العرب وأدبهم ، حتى ما خفى منها فى أطواء الشروح والتعليقات ، فإنها تتجلى عند ابن حزم ومعاصره أبى عبيد البكرى فى التأليف والتجويد فى أكثر من صنف من العلوم ، وكما كان ابن حزم فقيهاً مؤرخاً فيلسوفاً متبحراً فى العلم بالأديان والعقائد وعالماً بأسرار النفس الإنسانية وشاعراً فلسفي النزعة والأسلوب ، فإن أبا عبيد البكرى كان عالماً لغوياً ومؤرخاً وجغرافياً

ونباتياً وشاعراً أيضاً ، وإن كان شعره أقل أدواته وأضعف ملكاته . وهو يمتاز إلى جانب ذلك بميزة كبرى يشارك فيها ابن حزم وبقية أعلام هذا الجيل الموسوعى الفريد ، وهى الدقة ، فقد كان محققاً مدققاً لا يكتب شيئاً إلا بعد أن يستوثق منه تماماً ، ولا يزال يبحث وينقب حتى يصل إلى آخر شىء فى الموضوع ، ونظرة يسيرة فى كتابه معجم ما استعجم تكشف عن هذه الملكة فيه بأجلى بيان ، وهى ليست بالقليلة فى رجل يشتغل بالعلم ويتصدى للتأليف فيه .

وحياة أبى عبيد البكرى صورة من مأساة العصر الذى عاش فيه ، مثلها فى ذلك مثل حَيَوات معاصريه من أعلام الفكر الأندلسى فى ذلك القرن الخامس الحافل بالمآسى والقلق والحيرة فى الأندلس ، فقد كان أولئك جميعاً من ثمرات عصر الخلافة نشأوا ودرسوا على أيامها ، وأعدوا أنفسهم لحياة حافلة بالنشاط والعمل فى ظلال الأمن والاستقرار ، ثم فاجأتهم الفتنة الكبرى فى مطالع شبابهم ، فإذا الدنيا تنقلب من حولهم وتُصوِّح آمالهم ، وتفرض الظروف القاسية عليهم طريقاً غير التى أرادوا ، وتجرفهم الحوادث فتصبح حياتهم حيرة متصلة وقلقاً دائماً يصورها ابن بسام بأبلغ بيان فى فاتحة « الذخيرة » ، ويصورها ابن حزم فى صفحاته الباكية من « طوق الحمامة » ، ويصورها ابن حيان فى تلك المرارة التى تفيض بها صفحات كتابه « المتين » ويصورها ابن دراج القسطلى فى شعره الذى يتمشى اليأس والألم والموت فى أبياته ، ويصورها عند أبى عبيد البكرى اقبال على الخمر اقبالا لا يعلل إلا بالرغبة فى النسيان ، فقد قضى معظم عمره مثلهم مشرداً منتقلا من ناحية إلى ناحية ، لا يكاد يطمئن فى بلد حتى يشد رحاله إلى أخرى ، يطارده طواغيت الطوائف من بلد لبلد ويطل عليه شبح المصير الحزن الذى كان الأندلس يقترب منه فى سرعة مخيفة لم يطامن منها إلا تدارك المرابطين إياه .

وأبو عبيد البكرى ، واسمه الكامل عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو ، من بيت يوصف بأنه بيت إمارة ، على عادة الأندلسيين فى

الحديث عمن استبدوا بأمور نواحيهم عند قيام الفتنة الكبرى . وأول من نعرف أخباره من أجداده هو أيوب بن عمرو البكرى (نسبة إلى بكر وائل) قال فى حقه ابن بشكوال : « صاحب خطة الرد بقرطبة ، والقاضى ببلدة لبلة ، كان ذا علم وفضل وسرو وعفة ومروءة ورحل إلى المشرق فأدى الفريضة ، ولقى جماعة من العلماء ، وكان شديداً فى أحكامه ، وتوفى فى شهر رمضان سنة ٣٩٨ (مايو ١٠٠٨) ، ودفن بمقبرة الربض ، وحضره جمع الناس ، فأتبعوه ثناء حسناً جميلا . ذكره ابن حيان [١] » وهى عبارة يفهم منها أن أصل هؤلاء البكريين من لبلة Niebla وأن أيوب بن عمرو سار فى طريق غيره من الراغبين فى العلم فرحل إلى المشرق وحج ودرس ثم عاد ، فتولى القضاء ببلده لبلة ، ثم انتقل إلى قرطبة ، فتولى خطة الرد ، أى إدارة الشكاوى ، واختصاصها النظر فيما يرد إلى مركز الدولة من شكاوى الناس والعمل على إنصافهم ورد المظالم عنهم ، ولهذا تسمى خطة الرد أو رد المظالم ، وهى ليست وظيفة « قاضى القضاة » أو Grand juge كما قال دوزى[٢] . وكان الرجل من أهل النباهة والذكر فى قرطبة ، فقد ذكر ابن الأبار أن ابن حيان سماه فى الذين سمعوا من هشام المؤيد ما أمر بعقده للمنصور محمد بن أبى عامر مجدداً للألفة ، وسمى معه محمد بن عمرو أخاه ، وتاريخ ذلك العقد شهر صفر سنة ٣٨٧ (فبراير مارس ٩٩٧[٣]) . أى أن أيوب وأخاه كانا من شهود العقد الذى كتبه

---

(١) ابن بشكوال ، الصلة (بتحقيق كوديرا ، مدريد ١٨٨٢) رقم ٢٦٣ ص ١١٧

(٢) كتب دوزى فى الطبعة الأولى من أبحاثه المعروفة فصلا طيباً عن البكريين هؤلاء . وقد أسقط هذا الفصل من الطبعتين الثانية والثالثة . ورجعنا هنا إلى الطبعة الأولى (لايدن سنة ١٨٤٩) :

R. P. A. Dozy, *Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen-Age* (Leyde 1849), I.

وعنوان الفصل :

Notice sur les Becrites, seigneurs d'Huelva et de Djezîrah Schaltisch, et sur la vie et les ouvrages du célèbre Géographe Abou Obaid al-Becrî. pp. 282—307.

(٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، أورده دوزى فى الفصل المذكور فى الهامش السابق ص ٢٨٥

هشام المؤيد على نفسه مفوضاً أمور السلطان فى خلافته للمنصور محمد بن أبى عامر ، بعد جفوة وقعت بينهما عند ما شاء هشام ورجاله استرجاع السلطان من يد محمد بن أبى عامر .

ويبدو أن هذه الواقعة تضع يدنا على حقيقة هامة تتصل بالبكريين ، وهى أنهم كانوا من رجال المنصور بن أبى عامر ومؤيديه فيما سما إليه من الاستئثار بالسلطان ، وإلا فما معنى أن يكون أيوب وأخوه محمد شاهدين على عقد أخرج السلطان من يد الخليفة ورجاله ؟ . ولابن بسام رواية أخرى — عن ابن حيان أيضاً — يمكن تفسيرها بأن أيوب تولى ولبة وشلطيش فى أخريات أيامه ، فقد قال ابن حيان فى حديثه عن ابنه أبى زيد محمد « وكان هذا الفتى أبو زيد البكرى وارث ذلك العمل لأبيه ، وكان أبوه من بيت الشرف والحسب والجاه والنعمة والاتصال بسلطان الجماعة »(١) ، وإذا كان الناس لا يتولون الأعمال فى تلك الأيام إلا إذا كانوا من رجال المنصور وأهل ثقته ، استطعنا أن نقول إن أيوب وابنه كانا أولاً من رجال الخلافة والجماعة ثم دخلا فى زمرة الحزب العامرى الكبير الذى قبض على أزمة الأمور فى الأندلس واستبد بها دون الخليفة وآله . ويؤيد ذلك قول ابن بسام بعد الفقرة التى رويناها : « وكان له — أى لأبى زيد محمد البكرى — وسلفه قِبَل اسماعيل بن عباد جد المعتضد رسائل وأذمة خلفاها فى الأعقاب ، اغتر بها عبد العزيز (بن أبى زيد محمد) البكرى » ومعنى هذا أن أيوب وابنه كانت لهما صلات وثيقة وذمم قديمة مع اسماعيل ابن عباد جد بنى عباد أظهر رجال الحزب العامرى أواخر أيام المنصور ، ومن أول الخارجين على الجماعة والبادئين بالاستبداد ، وضارب المثل السىء لغيره من حكام النواحى فى الانتزاء بنواحيهم والسير فى طريق الفرقة المحزن المخوف .

وخلف أبا زيد محمد البكرى ابنه أبو المصعب عبد العزيز مستبدا بأمر هذا

(١) رواه ابن بسام . انظر دوزى : جامع أقوال العرب فى بنى عباد ج ١ ص ٢٥٢

الجزء الصغير من الأندلس الإسلامى ، وهو رقعة صغيرة من الأرض عند ملتقى نهرى التنتو Rio Tinto والأوديل Odiel وتكوينهما مصباً واسعاً بعض الشىء ينتهى فى المحيط الأطلسى . وفى هذا المصب توجد جزائر صغيرة أكبرها جزيرة شلطيش Saltes وهى جزيرة صغيرة كان يسكنها نفر من الصيادين يعيشون من سمك يستخرجونه من البحر ويملحونه ويصدرونه إلى اشبيلية وغيرها من بلاد الأندلس كما يقول الإدريسى ، وليس لهم مورد ماء عذب ، لأن مدخل النهر هناك يطغى عليه ماء المحيط ، وهم يجلبون ما يلزمهم من ماء الشرب من الضفة الأخرى لنهر تنتو ، ولا يفصل جزيرتهم عنها إلا مجرى النهر الضيق الذى يقول الإدريسى أن اتساعه لا يزيد على نصف رمية حجر . وهذه هى « الإمارة » التى « اقتعد صهوتها وتسنم ذروتها » أولئك البكريون على حد تعبير ابن بسام .

ومن الطريف أن لبلة المجاورة لولبة ، وهى كانت مهد البكريين ، استبد بأمرها رجل آخر يسمى احمد بن يحيى اليحصبى سنة ٤١٦ / ١٠٢٥ — ١٠٢٦ بقليل ثم توفى سنة ٤٣٣ / ١٠٤١ — ١٠٤٢ تاركا إياها لابنه يحيى بن احمد ابن يحيى اليحصبى .

ولم يهنأ الأمر للمستبدَّين الصغيرين فيما اقتطعاه من تراث الخلافة الأموية ، لأن جارهما المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية طمع فيهما وفى كل جيرانه من أصحاب الإمارات الصغيرة التى قامت غربى الوادى الكبير . ولكنه شغل بحرب طويلة بينه وبين جاره المظفر بن الأفطس عن التفرغ للاستيلاء على هذه الإمارات الصغيرة ، وحرص ابن الأفطس كذلك على أن يعين أصحابها على المعتضد ، وجرت بين الجانبين حروب طويلة حول لبلة خاصة . ولكن أبا الوليد بن جهور صاحب الأمر فى قرطبة خاف مغبة الصراع الطويل بين جاريه المتحار بين والعدو على الأبواب ، فتوسط فى عقد صلح بينهما ، وتم ذلك فى ربيع الأول سنة ٤٤٣/١٠٥١ وكان صلحاً مؤقتاً على دخن ، ككل الاتفاقات التى تمت بين أولئك المستبدين ، وكان المعتضد طامعاً منذ تولى أمر اشبيلية فى لبلة

بسبب ضعفها ، وما زال يضيق الخناق على صاحبها محمد بن يحيي اليحصبي الذى خلف أخاه احمد سنة ٤٣٤/١٠٤٢ ، حتى اضطره إلى التنازل عن الأمر لابن أخيه أبى نصر فتح بن خلف اليحصبي (سنة ٤٤٣/١٠٥١—١٠٥٢) الذى أبى رغم سوء الحـال إلا أن يتلقب بناصر الدولة ، ودام الأمر لهذا الأخير دون السنتين ، واضطره المعتضد إلى تسليم لبلة له ، فتركها بأهله وأمواله ومضى إلى قرطبة ليقضى بقية أيامه فيها (٤٤٥/١٠٥٣) . ومما لا يخلو من معنى أن هذا المسكين الذى تلقب بناصر الدولة لم يجد نفراً من الجند يرافقه إلى ملجئه ، فأرسل إليه المعتضد « قطعة من خيله أوصلته إلى قرطبة » .

وعند ما سقطت لبلة فى يد المعتضد أحس عبد العزيز البكرى أن أيامه فى ولبة وشلطيش قد دنت ، وملكه الخوف ، فأرسل إلى المعتضد يهنئه باستيلائه على لبلة « وذكره بالذمام الموصول بينهما ، واعترف بطاعته ، وعرض عليه التخلى عن ولبة ، واقراره بشلطيش إن شاء ، فوقع له ذلك من المعتضد موقع إرادة ، ورَدَّ الأمر إليه فيما يعزم عليه ، وأظهر الرغبة فى لقائه ، وخرج نحوه يبغى ذلك ، فلم يطمئن عبد العزيز إلى لقائه ، وتحمل يسبقه بجميع ماله إلى جزيرة شلطيش ، وتخلى للمعتضد عن ولبة ، فحازها حوزه للبلة ، وبسط الأمان لأهلها ، واستعمل عليها ثقة من رجاله ، ورسم له القَطْعَ بالبكرى ، ومَنْعَ الناس طرا من الدخول إليه ، فتركه محصوراً فى وسط الماء إلى أن ألقى بيده عن قُرْب ، ولم يعزب عنه الحزم ، فسأل المعتضد أن ينطلق انطلاق صاحبه ، فأمنه ولحق بقرطبة »[١] .

ويستطرد ابن حيان — برواية ابن بسام فيقول « وبوشر منه رجلا سرياً عاقلا عفيفاً أديباً يفوق صاحبه ابن يحيي جلالا وخلالا ، إلى زيادة عليه ببيت

---

(١) أورد دوزى هذه القطعة من كلام ابن حيان برواية ابن بسام فى مجموع النصوص الخاصة ببنى عباد . *Scriptorum Arabum Loci de Abbadides*, I, 252—253.

السرو والشرف ، وبان له بذ الاقران جمالا وبهاء وسروا وأدباً ومعرفة يكنى أبا عبيد . وتحدث الناس من حزم عبد العزيز يومئذ أنه لما احتل بشلطيش عَلِم أنه لا يقاوم عَبَّاداً ، فأخذ بالحزم أَوَّلاً ، وتخلى له عنها بشروط ، وَفَى له بها ، فباع منه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال ، واحتل قرطبة فى كنف ابن جهور ، المأمون على الأموال والأنفس ، وصفت لعباد تلك البلاد ، وإن شاء الله يدوم صفاؤها ، والملك لله وحده »[١] .

تلك هى قصة إمارة البكريين فى ولبة وشلطيش : إمارة صغيرة لم تقم إلا بسبب تلاشى الحكومة المركزية ، فلم يكن لأصحابها من القوة ما يعينهم على الثبات لأول خطر تعرضوا له ، بل لم يكن لديهم أى نوع من القوة العسكرية ، فقد رأينا أبا المصعب عبد العزيز البكرى يفر إلى جزيرة فى مصب النهر لينجو من المعتضد ابن عباد ، وعندما تم الاتفاق على أن يبيعه سفنه وأثقاله بعشرة آلاف مثقال من الذهب لم يجد قوة من الجند ترافقه حتى قرطبة . قال ابن الأبار فى الحلة السيراء : « وحكى غيره — أى غير ابن حيان — أن البكرى فى قصده قرطبة اجتاز بإقليم البصل وطلياطة (Tejada) . وقد أعد له المعتضد النزل والضيافة هنالك ، ومذهبه القبض عليه وعلى نعمته ، فقدم[٢] إلى صاحب قرمونه محمد بن عبد الله البرزالى يعلمه باجتيازه عليه ، وبأنه لا يأمن غائلة عبَّاد ، ويسأله مشاركته[٣] وغفارته ، فعجل له قطعة من خيل مجردة لقيته بموضع اتفقا عليه ، ولم يَلْوِ البكرى على موضع النزل ، وحث حمولته حتى لقيته خيل ابن عبد الله (البرزالى) ، فوصل معها إلى قرمونه . ثم توجه منها

(١) نفس المصدر السابق .
(٢) أى أرسل رسالة قبل وصوله .
(٣) يريد مرافقته .

إلى قرطبه ، ونجا من حبائل المعتضد . قال : « وكانت مدة البكريين بشلطيش وما إليها إحدى[1] وأربعين سنة (هجرية) » .

وكان أبو عبيد البكرى فى صحبة أبيه وآله عندما وردوا إلى قرطبة لاجئين على هذه الصورة . وقد ذكر جايانجوس فى احدى تعليقاته على ما ترجمه من نفح الطيب أن أبا عبيد ولد سنة ٤٣٢/١٠٤٠—١٠٤١ أى أن سنه عندما دخل به أبوه قرطبة (سنة ٤٤٣/١٠٥١—١٠٥٢) كانت إحدى عشرة سنة . ولم يورد جايانجوس مصدره الذى اعتمد عليه ، مما جعل دوزى يرفض هذا التاريخ ، ويؤيد دوزى فى ذلك قول ابن حيان أن أبا عبيد فى ذلك الحين « بذ الاقران جمالا وبهاءً وسرراً وأدباً ومعرفة » وهو كلام لا يقال عن صبى فى الحادية عشرة أو نحوها . ثم إن الآراء متفقة على أن أبا عبيد البكرى توفى سنة ٤٨٧/١٠٩٤ عن سن عالية ، فإذا كان قد ولد سنة ٤٣٢ فقد كانت سنه يوم توفى ٥٥ سنة على هذا الحساب ، وهى ليست بالسن العالية . ولنضف إلى ذلك أن ابن خاقان يقول فى ترجمته « رأيته وأنا غـلام ما أقمر هلالى ، ولا نبغ فى الذكاء كوثرى ولا زلالى ، فى مجلس ابن منظور ، فى هيئة كأنما كسيت بالبهاء والنور ، وله سَبلة كأنما يروق العينَ إيماضُها . ويفوق السوادَ بياضُها ، وقد بلغ سِنَّ ابن مُحَلِّم » أى أن أبا عبيد كان فى الثمانين من عمره عندما كان ابن خاقان غلاما ، لأن ابن محلم هذا هو عوف بن محلم الشيبانى صاحب البيت المشهور :

إن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

وما دام ابن حيان يذكر أن أبا عبيد لم يطل مقامه فى قرطبة حتى عرف بسعة العلم ، فإننا نستطيع القول إنه دخلها شابا ، بين العشرين والخامسة والعشرين فى الأغلب ، ومن الغريب أن ابن بشكوال يعد فى « الصلة » أبا

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، روى هذه القطعة دوزى فى مجموعة نصوص بن عباد ، ١/٢٨٧

حيان بين شيوخ البكرى ، ومع هذا فإن ابن حيان لم يختصه إلا بمادة قصيرة لا تغنى كثيراً فى التعريف به ، وقد أوردناها برواية ابن بسام ، وربما يكون قد اختصرها . وهى رغم اقتضابها وانصرافها إلى سجعات قليلة الغناء تنبىء عن المكانة التى وصل إليها أبو عبيد بين علماء عصره ، وتشبهها فى ذلك المادة التى أدارها أبو نصر الفتح بن عبيد الله بن خاقان على أبى عبيد البكرى فى القلائد ، فهى على طولها لا تنقع الغلة ، ولا يكاد الإنسان يستخرج منها شيئاً نافعاً من خلال حجب السجع والتكلف البالغ .

ولا ندرى كم أقام أبو عبيد فى قرطبة ، ولكن الثابت أنه لم يغادرها إلا بعد أن ذاع صيته بالعلم ورغب بعض أمراء النواحى فى أن ينتقل إلى بلادهم ، ولا تكون هذه الشهرة خارج مقامه فى قرطبة إلا نتيجة لكتب ألفها وتناقلها الناس ، ولهذا فيغلب على ظننا أنه ألف إذ ذاك بعض كتبه الأدبية الصغيرة السابقة على « اللآلى » . فأمثال هذه الكتب التى تعرض علم صاحبها باللغة والأدب « ومعانى الأشعار والغريب والأنساب والأخبار » هى التى كانت تقرر للناس مكانهم من العلم والعلماء إلى جانب كتب الفقه والحديث ، أما كتب الجغرافية والفلسفة والطب والأعشاب وما إليها ، فلم يكن يقدرها أو ينظر إليها إلا المعنيون بها ، ونادرا ما كان أهل الفكر وأصحاب التراجم يحتفلون بأصحابها أو يعتبرونها مؤلفات جديرة بالذكر ، إنما كان أصحاب هذه العلوم والفنون يمارسونها لمزاجهم الخاص ، وحتى فى الحالات التى بلغ اهتمام بعض العلماء بها مبلغ التخصص وتكريس الحياة لها ، كان عليهم أن يصرفوا جانباً من نشاطهم إلى علوم الدين والأدب إذا شاءوا أن يكون لهم مكان بين العلماء أو ذكر فى معاجم الرجال .

وأبو عبيد البكرى مثال ظاهر لتلك الحقيقة (التى لاحظناها فى كلامنا عن العذرى وسنلاحظها فى كلامنا عن ابن عبد المنعم الحميرى) ، فإن من ترجموا له أو تحدثوا عنه من معاصريه لا يذكرون إلا كتبه الفقهية واللغوية ، فابن

حيان وابن بسام وابن خاقان لا يشيرون إلا إلى علمه الواسع باللغة والأدب وبلاغته وبيانه ، وابن بشكوال فى الصلة لا يذكر له إلا كتابه فى « أعلام النبوة » والإشارات فى كتب الأدب كثيرة إلى بعض كتبه الأدبية الأخرى مثل « اشتقاق الأسماء » الذى ذكره السيوطى وكتاب « شفاء عليل العربية » الذى ذكره حاجى خليفه ، ثم مؤلفه الأدبى الأكبر « اللآلى » الذى اعتبر منذ تأليفه من الأصول الأساسية فى الأدب واللغة .

ويبدو كذلك أنه كتب فى هذه الفترة كتابه « التنبيه على أغلاط أبى على فى أماليه » فإن الكتاب يحمل طابع الشباب والرغبة فى الظهور عن طريق تعقب شيخ من شيوخ الأدب كأبى على القالى واستدراك أخطاء عليه . وقد أخطأ أبو عبيد فى الكثير من استدراكاته على القالى ، ووقع فى أغلاط أخرى ، مما يدل على أنه لم يكن قد اكتمل علمه بعد ، وأن الرغبة فى ذيوع الاسم هى التى حملته على الإقدام على هذا التأليف ، وكان التعرض بالنقد لكبار أساتذة المشرق أو من قدموا منه ومحاولة اثبات أن الأندلسيين لا يقلون عنهم باعا سمة من سمات التأليف فى ذلك العصر ، وهذا هو الذى دفع ابن فرج الجيانى إلى تأليف كتاب الحدائق وابن بسام إلى تأليف الذخيرة . ويبدو ذلك الاتجاه واضحاً فى قول ابن بسام فى أثناء كلامه عن أبى عبيد البكرى : « ولولا تأخر ولادته لأنسى ذكر كنيِّه المتقدم الأوان » . وكنيه المراد هنا هو أبو عبيد القاسم بن سلام صاحب كتابى الأموال والغريب المصنف ، ويلاحظ أن لأبى عبيد البكرى كتاباً يسمى « صلة المفصول فى شرح أبيات الغريب المصنف » ورد ذكره فى « اللآلى » وفى فهرسة ابن خير ، مما يحملنا على الظن أنه أيضاً من نتاج هذه الفترة القرطبية الأولى .

وفى أثناء هذه الفترة الأولى اتصلت الاسباب بينه وبين بعض شعراء قرطبة ، منهم ابراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقاط وزير أبى الوليد بن

جهور ، وله فى وداعه بضعة أبيات انشدها ابن حيان فى تاريخه الكبير وأوردها ابن الأبار فى الحلة السيراء مطلعها :

كذا فى بروج السعد ينتقل البدر   ويُحْسِنُ حيث احتل آثاره القَطْرُ

وهى من ضعيف الشعر الذى يدل على أن صاحبه كان فى البداية . ولم يكن أبو عبيد بالشاعر ، ولكن قول الشعر كان من لوازم الوجاهة ودلائل العلم فى العالم العربى كله ، وقل أن نجد فقيهاً أو كاتباً أو وزيراً إلا وله أبيات ليس فيها من الشعر فى الغالب إلا الوزن والقافية . وقد ظل أبو عبيد يقول هذا الطراز من الشعر طول حياته دون أن يكون ذلك سبيلا إلى نظمه فى سلك الشعراء .

وأبو عبيد يخاطب ابن السقاط فى هذه الأبيات مخاطبة التابع ، وكان ابن السقاط وزيراً لابن جهور ، ونستنتج من هذا أن أبا عبيد لم يصل إلى درجة الوزارة فى قرطبة على هوان أمرها فى ذلك الحين ، ويرجع هذا دون شك إلى أنه لم يكن ذا هوى بالمناصب وخدمة الأمراء ، ولو شاء لبلغ فى هذه الناحية ما بلغه غيره ممن كانوا أقل منه ، ولكنه كان رجل علم وبحث وأدب واطلاع وانصراف إلى شيء من اللهو والشراب .

وتدل إشارة قلقة لابن الأبار فى « الحلة » على أن أبا عبيد انتقل من قرطبة إلى المرية وعاش ردحا من الزمن فى كنف محمد بن معن صاحبها ، وهذه الاشارة هى قوله : « وحكى الفتح بن عبيد الله (أى ابن خاقان) فيما وَجَدَ بخط ابن حيان على زعمه أن عبيد الله صار إلى محمد بن معن صاحب المرية ، فاصطفاه لصحبته ، وآثر مجالسته والأنس به ورفع مرتبته ووفر طعمته » وهذه العبارة قلقة من ثلاث نواح : أولاها أننا لا نجدها فى واحدٍ من كتابى الفتح بن خاقان المعروفين ، وثانيتها أن الفتح بن خاقان لا يروى عن ابن حيان أبداً والثالثة هى هذا التحفظ الذى يلتزمه ابن الأبار بقوله « على زعمه » ،

ولكننا نعتقد أن لها نصيباً من الحقيقة ، فقد عد ابن بشكوال فى الصلة أبا العباس احمد بن عمر العذرى بين شيوخ أبى عبيد البكرى ، والعذرى من أهل المرية وعلمائها . وربما يكون هذا اللقاء مع العذرى الجغرافى هو الذى حبب الجغرافية إلى البكرى ورغَّبه فى التأليف فيها ، فإن اتجاه أديب لغوى كأبى عبيد البكرى إلى التأليف فى الجغرافية لا يأتى عفواً ، وانما التأليف فى هذه الفروع من العلم كان هواية يأخذها رجل عن رجل إذا صادفت من نفسه ميلا ، ومن حسن الحظ أن أبا عبيد كان عظيم الاستعداد للبحث فى هذا العلم ، فأقبل عليه وأجاد فيه حتى صار من أعلامه ، واتصل عن طريقه تقليد التأليف الجغرافى فى الأندلس من الرازى إلى العذرى إليه .

ونمر مسرعين بما لدينا من معلومات عن بقية حياة البكرى لكى نفرغ بعد ذلك لدراسة انتاجه العلمى الوافر .

لم يستقر المقام بأبى عبيد فى المرية ، فقد كان كغيره من أهل العلم والفن فى ذلك العصر قلقاً لا يستقر به المقام طويلا فى بلد واحد ، ثم إن إمارة بنى صمادح فى المرية كانت من أصغر إمارات الطوائف وأضعفها وأفقرها بالتالى ، وكان العلماء وأهل الأدب يتجمعون رويداً رويداً فى اشبيلية فى كنف المعتمد ابن عباد ، وأخذ نجمها يعلو كعاصمة فكرية للأندلس الإسلامى . فشد أبو عبيد رحاله إليها .

لم يتقلد أبو عبيد فى اشبيلية منصباً أو وظيفة ، ويبدو أنه كان فى سعة من المال لا يحوجه الأمر إلى راتب أو مورد عيش ، بل اكتفى بأن يكون من أصحاب المعتمد الذين يحضرون مجالسه ، وقد يقول شيئاً من الشعر فى مديحه ، وانصرف بكليته إلى البحث والتأليف . ويغلب على الظن أن انتقاله إلى اشبيلية كان بعد وفاة المعتضد وولاية المعتمد فى سنة ٤٦١/١٠٦٨ ، إذ أننا نستبعد أن يكون قد ذهب إلى المعتضد بعد الذى فعله بأبيه وآله . وفى اشبيلية

أقام أبو عبيد حتى توفى وقد نيف على الثمانين كما ذكرناه سنة ٤٨٧/١٠٩٤ أى أنه قضى فيها قرابة خمس وعشرين سنة هى دون شك أحفل سنوات عمره بالدراسة والانتاج .

وقد نعم أبو عبيد طوال هذه الفترة بهدوء وصفو لم يعكرهما شىء من الاحداث ، ولكن ما أصابه فى الماضى من ضياع ملك أبيه والاضطرار إلى مغادرة وطنه واللجوء إلى قرطبة هارباً مع أبيه وهو بعد فى شبابه الباكر ، ثم ما حاق بالأندلس كله من النكبات وسوء المصير ، وما تهدده من الأخطار ، كل هذا كان حقيقاً بأن يؤثر فى نفسه وفى مزاجه ، وكان بطبعه رجلا مرهف الحس رقيق الحاشية ، لا يستطيع أن يفصل نفسه عن مأساة وطنه وعصره ، فمال إلى شىء من الخمر يتسلى به ويغرق فيه همومه إذا سئمت نفسه القراءة والكتابة . وقد أسرف بعض من ترجموا له فى نعى هذا العيب عليه ، وأشدهم فى ذلك ابن خاقان فقد قال : « . . . على هنات كانت فيه مستبشعة الذكر ، مستشنعة النكر ، تمجها الأوهام والخواطر ، ويثبتها السماع المتواتر . فإنه كان رحمه الله مباكراً للراح لا يصحو من خمارها ، ولا يمحو رسم إدمانه من مضمارها ، ولا يريح إلا على تعاطيها ، ولا يستريح إلا إلى معاطيها . . . » ولا شك أن الصفدى نقل عن ابن خاقان عند ما قال إن أبا عبيد « كان معاقراً للراح لا يصحو من خمارها يدمنها أبداً . . . »[1] .

والحقيقة أننا إذا نظرنا فى مؤلفات البكرى تجلى لنا رجل هو أبعد ما يكون عن هذا الادمان الذى رمى به ، فكيف يجمع هذا الجمع الغزير ويصنف هذا التصنيف العلمى الدقيق الرائق رجل لا يفيق من الخمر ؟ أقرب الآراء إلى الصحة — كما قال دوزى — أن أبا عبيد كان ذا طبيعة شاعرة وحب للطبيعة والزهور وميل إلى شىء من اللهو والمسرة ، وأنه لم يكن يتحرج من كأس

(١) رواه عبد العزيز الميمنى فى مقدمة سمط اللآلى ، صفحة و .

من الخمر طلباً لمزيد من مسرة أو التماساً للسلوان عن هموم الأيام ، وقد يكون الذى أصابه بهذه السمعة المبالغ فيها شىء من شعر غير متحفظ قاله فى مجلس أنس كقوله :

خليلَىَّ إنى قد طربتُ إلى الكاس وتُقت إلى شم البنفسج والآس
فقوما بنـــا نلهو ونستمع الغنا ونسرق هذا اليوم سراً من الناس
(فإن نطقوا كنا نصارى ترهبوا وإن غفلوا عدنا إليهم من الراس)
فليس علينا فى التعلل ساعـــة وإن وقعت فى عُقب شعبان من باس

فهذه ليست أبيات مخمور أو مدمن للشراب ، وإنما أبيات رجل يحب الطبيعة والزهر ولا يجد بأساً من شىء من الشراب ، وليس من الضرورى أن يكون تفسير المصراع الثانى من البيت الأخير أن أبا عبيد كان يستحل الشراب فى رمضان ، وإنما هى مطاوعة للقافية ، وقد كان أمثال البكرى إذا قالوا مثل هذا الشعر افترضوا أن الناس لا يأخذونه بحرفيته ، ثم إن ابن خاقان لم يره يشرب أو مخموراً ، وإنما قال عن خلة الادمان التى رماه بها : « تمجها الأوهام والخواطر ، ويثبتها السماع المتواتر » . أما الذى رؤى يشرب بالفعل ، وحضر مجلس القاضى عياض مخموراً حتى استنكهه ليتثبت قبل أن يوقع عليه الحد ، فهو ابن خاقان نفسه ، والخبر مشهور .

مؤلفات البكرى

أحصى الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مقدمته القيمة لكتاب اللآلى اثنى عشر كتاباً لأبى عبيد البكرى ، وهذه المؤلفات تقع فى ثلاثة أنواع : وها هو بيانها مع ملاحظات الأستاذ الميمنى عليها :

مؤلفات لغوية وأدبية

١ — كتاب « الإحصاء لطبقات الشعراء » وهو كبير ذكره فى اللآلى (٢٠ ، ٥٧) ويظهر أنه حَوْلَ كتاب الآمدى (المؤتلف والمختلف من أسماء الشعراء) وقد كان البكرى وقف عليه أيضاً .

٢ — كتاب « اشتقاق الأسماء » ذكره السيوطى .

٣ — « التنبيه على أغلاط أبى على فى أماليه » وطبع قبل بضعة أعوام عن نسخة متقنة الكتابة والضبط جليلة كتبت سنة ٦٦٢ هـ . ولما كان البكرى وقف على الأصول التى أملى منها أبو على « النوادر » فقد أمكنه أن ينبِّه على مظان الوهم والخطأ والاختلاف فى « الأمالى » بعد معارضتها بتلك الأصول . . .

٤ — « شفاء عليل العربية » ذكره الحاج خليفة .

٥ — كتاب « صلة المفصول ، فى شرح أبيات الغريب المصنف » (لأبى عبيد القاسم بن سلام) . ويرويه ابن خير عن أبى بكر اللخمى المذكور ، وعن الفقيه الشريف أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن القرشى ، المعروف بابن الأحمر ، قالا : حدثنا به البكرى .

٦ — « فصل المقال فى شرح كتاب الأمثال » يرويه ابن خير بسَنَدَىْ المفصول (فهرسة ص ٣٤٤) ووقف عليه ابن الشيخ البلوى (ألف باء ٣٨/١ و ٤٢٩—٨٥/٢ و ٤٤٤) . وذكره الحاج خليفة أيضاً . توجد منه نسخة فى مكتبة الاسكوريال . رقم ٥٢٦

٧ — « اللآلى فى شرح أمالى القالى » وهو أكبر مؤلفاته فى ميدان اللغة والأدب . نشره الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مجلدين (القاهرة ١٩٣٦) مع إضافات وتعليقات واستدراكات تحت عنوان سمط اللآلى .

مؤلفات جغرافية

٨ — المسالك والممالك .

٩ — مجعم ما استعجم من أسماء الأمكنة والبقاع .

مؤلفات فى موضوعات أخرى

١٠ — « أعلام نبوة نبينا محمد » . ذكره ابن بشكوال كما تقدم .

١١ — « التدريب والتهذيب فى ضروب أحوال الحروب » . ذكره فى معجمه (٣٩٨) .

١٢ — كتاب « النبات » كذا سماه ابن خير ، ورواه بسند صلة المفصول ، وسماه ابن أبى أصيبعة كتاب « اعيان النبات والشجريات الأندلسية » .

ويهمنا من هذه كلها كتاباه فى الجغرافية ، ومن حسن الحظ أن واحداً منهما وصل إلينا كاملا ، ونشر مرتين (المعجم) والثانى وصلت إلينا قطع كثيرة منه (المسالك والممالك) .

معجم ما استعجم

يبدو لنا أن هذا الكتاب هو أول ما ألف البكرى فى الجغرافية . وإذا كان اتجاهه إلى التأليف فى هذا الفن قد بدأ فى المرية بتأثير شيخه أبى العباس احمد بن عمر بن أنس العذرى ، فإن الأغلب أنه بدأ تأليفه إياه فيها ، ومما يؤيد ذلك أنه وسط بين اللغة والجغرافية أو خطوة انتقال بينهما . ويتضح هذا من قوله فى فاتحة الكتاب معرفا بغرضه من تأليفه : « هذا كتاب « معجم

ما استعجم » ذكرت فيه — إن شاء الله — جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار ، منسوبة محددة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيدة . فإنى لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس ، أردت أن أفصح عنه ، بأن أذكر كل موضع مبين البناء ، معجم الحروف ، حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف . . » أى أنه إنما وضعه ليستعين به الذين يدرسون الحديث والأدب والأخبار فى التعرف على المواضع التى تستعجم عليهم ، وتحرى أن يقيد كل علم بالضبط الكامل حتى لا يقع فى رسمه ونطقه لبس .

وهذا فيما أعرف أول معجم جغرافى فى تاريخ التأليف الجغرافى عند العرب ، فان التأليف فى ذلك الفن اقتصر حتى الآن على البلدان والمسالك والممالك . أما أن يفكر عالم فى وضع معجم أبجدى لأسماء المواضع فهو حدث يعين ميلاد نوع جديد من التأليف الجغرافى عند العرب ، نوع سيتطور ويزهر حتى يصل إلى ذروته فى معجم ياقوت المعروف . نعم إن البكرى قصره على ما ورد فى الحديث والأخبار وكتب الأدب المشرقية من المواضع ، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية الخطوة التى خطاها أبو عبيد البكرى بالتأليف الجغرافى عند العرب عندما شرع فى تأليف معجمه هذا . ومن الواضح أن التفكير فيه يدل على عقلية منظمة منهجية عند صاحبها ، فإن إحصاء هذه المواضع وضبطها يتطلب قراءة أصول الحديث والسيرة والشعر والنثر لتقييد ما فيها من الأعلام الجغرافية مع ضبطها وما يرد عنها من التعريف فى كل أصل من هذه ، وهذا مطلب عسير لا يعتمد على سعة الاطلاع وحدها ، بل على منهج مقرر فى القراءة والتقييد والمقارنة على مثال ما يفعله العلماء اليوم فى أمثال هذه التآليف .

والأخبار متواردة عن عناية البكرى بالكتب واجتهاده فى نسخ أصوله منها بيده ومراجعة ما ينسخ مراجعة دقيقة ، ثم العناية الكاملة بالمحافظة عليها ، حتى كان يحفظها فى سبانى الشرب ، والسَّبَنِيَّة شيء أشبه بالمنديل من القماش

الرقيق الغالى ، وسبنيات الشرب أغلاها وأرقها ، فقد كان الناس يدخرونها للولائم وساعات الشراب ، ورجل يبلغ به الحب للكتب مبلغ أن يصون كل كتاب فى سبنية لا بد أن يكون ذا حب عظيم للكتب وعناية خاصة بحفظها وصيانتها .

وقد رتب البكرى معجمه على حروف الهجاء حسب ترتيبها عند الأندلسيين فى عصره وهو : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش ه و ى « وجعل ترتيب الكلمات فى كل باب على ترتيب الحرفين الأول والثانى الأصليين من الكلمة ، دون نظر إلى ترتيب ما بعدها من الحروف ، وإذا كان الحرف الثانى ألفا زائده ، كألِف صاحب وفاضل ، أهمله ، ولم ينظر إليه ، واعتبر الحرف الثانى ما بعد الألف ، وفى هذا ما فيه من العسر والتكلف . ولذلك يضطر الباحث عن كلمة فى حرف من الحروف أن يقلب صفحات المعجم فى هذا الحرف حتى يعثر على ضالته بالمصادفة ، لا بأن يطلبها فى موضعها الذى ينبغى أن تستقر فيه ، بحسب نظام الفهرسة الدقيقة لألفاظ المعاجم » كما يقول الأستاذ مصطفى السقا فى مقدمته الجامعة لمعجم ما استعجم واتباع البكرى لهذه الطريقة لم يكن تكلفا ، ولكنّ علم المعاجم كان فى طريق التكوين ولم تكن قد تقررت له أصول ثابتة عند العرب ، فكان كل صاحب معجم يتبع الترتيب الذى يحسبه أيسر من غيره وأعون للباحثين . وقد تغلب فرديناند فستنفلد الذى نشر هذا المعجم أول مرة على هذه الصعوبة بأن أورد فى نهايته ثبتاً أبجديا عاديا للاعلام مع أرقام الصفحات . أما الأستاذ مصطفى السقا الذى نشره مرة أخرى فى القاهرة فقد أعاد ترتيب الأعلام الجغرافية جميعاً ترتيباً أبجدياً حديثاً صرفاً .

وقبل أن يبدأ البكرى فى إيراد ألفاظ معجمه وضع دراسة شاملة لجغرافية شبه الجزيرة العربية ، وهى أوفى ما لدينا فى هذا الباب ، بل إن هذه الدراسة أوفى من صفة جزيرة العرب لأبى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف

ابن داوود الهمدانى اليمنى المعروف بابن الحائك (توفى ٣٣٤) فمع أن الهمدانى من أبناء شبه الجزيرة العربية وقد جابها من طرف لطرف باحثاً منقباً ، إلا أنه لم يصل إلى دقة البكرى وشموله ، إلا فيما يتصل باليمن وجنوبى الجزيرة . مما يشهد للبكرى بقدرة فائقة على الجمع والاستيعاب والتنسيق والترتيب وسلامة التصور الجغرافى ، فإنه لم يكن من الجغرافيين الرحالة الذين يكتبون عن مشاهدة ومعاناة مباشرتين ، بل كان يكتب فى الجغرافية معتمداً على القراءة والتصنيف والتصور ، وقد فاق فيما وصل إليه من النتائج أهل الرحلة والمشاهدة ، ونستطيع كذلك أن نقرر أن القسم الخاص بمصر مثلا من مسالك البكرى هو أحسن وأوفى ما ألف فى جغرافية مصر قبل المقريزى وهكذا .

وذلك كله يرجع إلى أن البكرى كان يتصف بدقة لا يدانيه فيها إلا القليلون جداً من مؤلفينا القدامى ، فهو لا يكتفى بما يقع تحت يده من الكتب ، بل يبحث عن الأصول ، ثم يرجع إلى المراجع التى استند إليها أصحاب هذه الأصول يدرسها بنفسه درساً دقيقاً عميقاً صبوراً ، وهى خاصيته الأولى التى رافقته فى كل ما ألف . قال الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مقدمته « للآلى » : « لا غرو أن البكرى كان حريصاً على انتقاء الكتب ذوات الخطوط المنسوبة ، مغرماً باقتنائها ، ثبتاً فى ضبط الألفاظ وتقييد الروايات على حسب ما كان يجده مثبتاً فيها . وقد ذكر ابن خير فى فهرسته (ص ٣٩٥) أسماء كتب دخل بها أبو على (القالى) الأندلسى ، ونرى صاحبنا (أى البكرى) وقف على الكتب التى أملى بها أبو على « النوادر » وعلى أصوله «كالابدال » لابن السكيت و « أمالى » ابن الأنبارى و « نوادر » ابن الأعرابى بخط أبى موسى الحامض ، وعلى كثير من المجاميع كالمنتسخة من كتاب أبى سعيد السكرى ، وكتاب أبى على بخطه الذى قرأ فيه على ابن دريد ، والكتاب الذى قرأ فيه على نفطويه ، وهو بخط ابراهيم بن سعدان وشعر ابن أحمر ، وذكر أشعار هذيل رواية القالى ، واصلاح المنطق روايته ، إلى غيرها من أصول القالى ورواياته . وقد وقف على كثير

من غير خطه أيضاً ككتاب بخط ابن الأعرابى ، وآخر بخط ابن السكيت ، وأنساب عبد شمس للأصبهانى بخطه ، وشعر امرىء القيس بخط ابن برد ، وكتاب قرأه الزجاج على اليزيدى وأثبت عليه خطه ، وكتاب بخط ثابت الجرجانى ، وآخر بخط عبد الله بن حسين بن عاصم اللغوى إلى غيرها[١] » وهذه المعلومات أخذها الميمنى من كلام البكرى فى اللآلى والمعجم ، لأنه — أى البكرى — كان يحرص على الاعتماد على أصول الكتب بخطوط مؤلفيها أو بخطوط رجال موثوق فيما ينقلون وينسخون . وهى مرتبة فى التدقيق والتحقيق نادرة فيمن نعرف من المؤلفين كما قلنا .

ولا يتسع المقام لإيراد فقرات من وصفه لبلاد العرب للتدليل على ضبطه ودقته ووضوحه ، فالكتاب مطبوع طبعتين جيدتين لا يعسر الرجوع إليهما على أحد ، ويكفى أن نشير مثلا إلى تحديده لجبال السراة والحجاز وتهامة ونجد ، فإننا نلاحظ الضبط الكامل فى الكلام والتحديد ، ونلاحظ إلى جانب ذلك شيئاً آخر على أكبر جانب من الأهمية ، وهو دقة تصور البكرى لما يصف ، كأنه كان يرسم لنفسه خرائط ورسوماً يضع عليها أسماء المعالم الجغرافية حتى يعرف بالضبط موضع العَلَم الذى يتحدث عنه . خذ مثلا قوله عن تهامة : « وأما تهامة ، فإنك إذا هبطت من الأُمَاية إلى الفُرُع وغَيْقَة إلى طريق مكة إلى أن تدخل مكة : تهامة ، إلى ما وراء ذلك من بلاد عك ، كلها تهامة ، والمجازَةُ وعُلَيِّب وتَنَوْنَى ويَرَن كلها تهامة . وأنت إذا انحدرت فى ثنايا ذات عرق مُتْهِم ، وأنت إذا تَصَوَّبْتَ فى ثنايا العرج إلى أقصى بلاد فزارة أنت مُتْهِم ، فإن جاوزتَ بلاد فزارة إلى أرض كلب فأنت[٢] بالجناب . . . » وهذا كلام لا

(١) مقدمة سمط اللآلىء ، صفحة ك .

(٢) معجم ما استعجم ، طبعة مصطفى السقا ، ١٣/١

يكتبه رجل إلا وأمامه مخطط ينظر فيه ويتكلم بناء عليه ، مخطط عليه الأماكن والطرق واتجاهاتها والجبال ومجاريها والقبائل ومنازلها والبلاد وزمامها .

ولم يكن ذلك ميسوراً للبكرى إلا بعد دراسة طويلة لكل ما ورد من الإشارات الجغرافية فيما قرأ من الكتب ، وهو ينص على مصادره وأصوله بغاية الدقة ، وقائمة مراجعة طويلة ، ويكفى أن نذكر أنه فى الصفحتين الأوليين فحسب من « ذكر جزيرة العرب » يرجع إلى هشام بن محمد بن السائب الكلبى وعبد الله ابن وهب واحمد بن المعذّل والمغيرة بن عبد الرحمن والأصمعى وأبى عبيد عبد الله بن بشر السَّكونى والشعبى والخليل وأبى اسحق الحربى . وهو لا يكتفى بذكر المرجع بل يأتى بسنده . هذا إلى إيراد أمثلة من الشعر ورد فيها ذكر المواضع وإشارات طويلة إلى القبائل ومنازلها وحدود هذه المنازل ، وتتخلل ذلك كله إشارات تاريخية طويلة وحكايات قصيرة تتصل بالموضوع .

ويبدو لنا أن البكرى كتب هذه المقدمة الطويلة فى جغرافية الجزيرة بعد أن فرغ من المعجم ، فإنه لا يشير إليها فى خطبة الكتاب التى يصف فيها منهجه فى تأليفه وأسلوبه فى الترتيب الأبجدى ، وهو يقول فيها : فجميع أبواب هذا الكتاب ٧٨٤ بابا وهو ما يجتمع من ضرب ٢٨ فى مثلها » و ٢٨ هو عدد حروف الهجاء فى حسابه ، والرقم الذى أعطاه هو عدد المواد ، ولو كان منهج المعجم كما وضعه البكرى قبل التأليف يتضمن تلك المقدمة الفريدة لأشار إليها أو لأضاف لها بابا فى الحساب على الأقل .

هذا ومن الملاحظ إلى جانب ذلك أن النسخ المخطوطة للمعجم تختلف فيما بينها اختلافا يسيراً ، ففى بعضها مواضع وتحديدات لا تبدو فى بعضها الآخر ، « وقد علل فستنفلد ذلك فى مقدمته القيمة لطبعته بأن البكرى كتب المعجم أولا ، ثم أذاعه وتهاداه الناس والرؤساء ، ثم ردد النظر فى المعجم متصفحاً منقحاً ، فبدت له فيه أشياء لم يفطن لها أول الأمر ، فأصلحها على هامش بعض النسخ ، أو كما يقول العلامة فستنفلد فى أوراق وجزازات ، وألحقها بموضعها

من الكتاب ، ثم جاء الناسخون ينقلون الكتاب ، فبعضهم عثر على نسخة منه قبل التنقيح ، فنقلها ناقصة ، وآخر عثر على نسخة منه منقحة ، فنقلها كاملة ، وبعضهم نقل الجزازات كلها ، وبعضهم وجدها ناقصة ، فاختلفت نسخ الكتاب فى أيدى الناس ، وهذا أمر عهدنا مثله فى مقدمة ابن خلدون ، وفى دواوين كثير من الشعراء[1] » .

فإذا انتقلنا إلى المعجم نفسه وجدنا تحديداً وضبطاً ودقة تشفى غلة أكثر الباحثين طموحاً وتدقيقاً ، ولقد أصاب راينهارت دوزى عند ما قال عنه : « لقد أصدر عالم مشهور هو البارون دى سلان[2] حكماً غير منصف لهذا الكتاب عند ما قال : « فبدلا من كتاب طيب فى الجغرافية ، وهو ما كنا ننتظره من مؤلف ممتاز مثل أبى عبيد البكرى ، تبينت أن كتابه هذا إن هو إلا معجم للأعلام الجغرافية الواردة فى أشعار العرب القديمة » ولكننى لا أستطيع أن أعتبر هذا الكلام نتيجة لدراسة نهائية . إن الفكرة العالية عندى عن علم البارون دى سلان وذوقه وذكائه لا تسمح لى بذلك . وليس ذنب البكرى قطعاً أنه لم يؤلف كتابه على النحو الذى يريده السيد دى سلان ، خاصة وأن البكرى كتب كتابه الكامل فى الجغرافية الذى تحدثت عنه (الإشارة هنا إلى المسالك) . وعلى هذا فلا بد أن ننظر إلى الكتاب من زاوية أخرى ، لكى نستطيع أن نصدر عليه حكماً أقرب إلى الإنصاف . وإننى لأشعر نحو البكرى بشعور عميق من العرفان ، وهو شعور صادر عن انتفاع طويل بالمعجم يحتم على الاعتراف له بالفضل ، وما دمنا لن نتطلب فى هذا الكتاب أشياء لا ينتظر أن توجد فيه ، نتيجة للخطة التى رسمها المؤلف لنفسه

---

(١) رواه الأستاذ السقا فى مقدمة معجم ما استعجم .

(٢) يشير دوزى فى الهامش إلى الموضع الذى أصدر فيه دى سلان هذا الرأى وهو : *Rapport adressé à M. le ministre de l'instruction publique sur les manuscrits de la Bibl. de Cid Hammouda à Constantine.* Voyer aussi M. Reinaud, Introduction à la traduction française d'Abou-l-feda, p. CIV.

فى تأليفه ، فإننا نستطيع القول بأنه أحسن فى نوعه من « المسالك » . ومن البديهى أن المعجم لا يهم بنفس الدرجة عامة القراء الأوربيين ، ولكن لدينا كتباً عربية كثيرة من ذلك النوع (المسالك والممالك) ، ولا بد من تجاوز كثير حتى يمكن القول بأنها كلها أقل قيمة من كتاب البكرى (فى المسالك) . وعلى العكس من ذلك نجد « المعجم » فريداً فى نوعه ، ومن المؤكد الثابت أننا لا نملك أى مؤلف آخر نستطيع أن نقارنه به سواء من ناحية الشمول أو ناحية الدقة والتحقيق فى التفاصيل ، فهو يضم أسماء حشد من أسماء أعلام الأماكن والجبال والأنهار وما إلى ذلك مما يرد فى كتب التاريخ العربية القديمة والأحاديث النبوية والأشعار خاصة ، مرتبة بحسب ترتيب الابجدية المغربية . وهو يدرسها برسمها الدقيق ويعين مواضعها ويورد عدداً لا حصر له من الأبيات الشعرية التى يرد فيها ذكر هذه المواضع . وليس هناك ما يحير من يقرأون الشعر العربى القديم أكثر من أسماء المواضع التى لا نعرف فى الغالب نطقها وأماكنها . وهذا الكتاب إذن ذو فائدة لا تقدر فى حل هذه الصعوبات . ولا غنى عنه لكل من يدرسون تاريخ العرب القديم وجغرافية بلادهم وأشعارهم والأحاديثَ النبويةَ ذات المعنى التاريخى ، وقصارى القول أننى أقرر أنه فريد فى نوعه ، وقد سبق أن قلت ذلك ، ولكنى أعيد قوله . وكل ما لدينا سواه فى هذا الموضوع ضئيل هزيل وغير دقيق بصفة خاصة إذا قورن بهذا المؤلف الجليل الحافل بالتفاصيل الغريبة والذى اعتمد مؤلفه فى تأليفه على ألوف من الأصول تعتبر اليوم فى حكم المفقودة ، ثم إنه — أى المؤلف — أديب وجغرافى كفء كل الكفاية للقيام بالعمل العسير الذى اضطلع به . هذا ولا يخرج الإنسان من كتب الجغرافيين الآخرين إلا بمزيد من الحيرة ، فهم يكدسون الأخطاء فوق الأخطاء والمتناقضات فوق المتناقضات . وخذ مثلا اسم موضع يرد فى قصيدة قديمة وابحث عنه — لا أقول فى « مراصد الاطلاع » فهذا الكتاب فوق النقد فى هذا المجال — وإنما فى أى مؤلف جغرافى آخر ،

وعلى فرض أنك تجد فيه اسم ذلك الموضع (وهو ما يندر وقوعه) فقارن ما عنده بما عند البكرى ، وهنا ستجد — وأنا لا أتردد فى ذلك القول — أن المعلومات التى يقدمها الكتاب الأول خاطئة ، أو على الأقل مضطربة ، فى حين أن معلومات البكرى واضحة ناصعة دقيقة وصحيحة بعد ذلك كله . وتزيد قيمة هذا الكتاب بسبب مقدمته التى يعين البكرى فيها حدود جزيرة العرب وأقسامها : الحجاز وتهامة واليمن ويتحدث عن القبائل العربية التى نزلت هذه النواحى ، وما أصاب هذه المنازل من تغيير[١] » .

وهذا أحسن تقدير لمعجم البكرى ، وقد نقله بنصه الفرنسى فرديناند فستنفلد فى مقدمته لتحقيقه ونشره له ، وأورد ترجمة موجزة له الأستاذ مصطفى السقا فى مقدمته لطبعته للمعجم ، وهذا الحكم يضع البكرى فى مكانه الصحيح بين جغرافيينا ، ويبين أهمية معجمه كنوع فريد لا نظير له فى المكتبة العربية ، وهذا يكفى لإفساح مكان ممتاز للبكرى بين الجغرافيين ، ولكننا سنرى أن فضله فى « المسالك والممالك » لا يقل عن فضله فى المعجم بل يزيد .

وقد نشر المعجم مرتين ، أولاهما على يد فرديناند فستنفلد ، اعتمد فيها على أربع مخطوطات ، وانتسخها بيده وطبعها طبعة حجر فى مجلدين ، صدر أولهما سنة ١٨٧٦ والثانى سنة ١٨٧٧ فى جونتجن فى ألمانيا[٢] . والثانية قام بها الأستاذ مصطفى السقا اعتمد فيها على مخطوطات أخرى وقابلها بطبعة فستنفلد فجاءت غاية فى الدقة والكمال وصدرت فى أربعة أجزاء فى القاهرة سنة ١٩٤٥ .

---

(١) Dozy, *Recherches sur l'histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen Age* (première édition, Leyde 1840) tome I, 303—305.

(٢) Ferdinand Wüstenfeld, *Geographische Wörterbuch des Abū Obeid Allah ibn Abd el-Aziz al-Bekri, nach den Handschriften zu Leiden, Cambridge, London und Mailand* (Göttingen — Paris, 1876—1877).

المسالك والممالك

وننتقل الآن لدراسة كتاب البكرى الثانى فى الجغرافية ، وهو المسالك والممالك .

لم يدرس هذا الكتاب إلى الآن ككل واحد ، لأن القطع التى وجدت منه متفرقة فى مكاتب ومجموعات شتى ، مما حال دون تكوين فكرة كاملة عنه ، ولهذا فيحسن أن نحصى الموجود منه إلى الآن ، سواء فى صورة مخطوطات أو قطع منشورة أو فى صورة نقول فى كتب أخرى .

١ — أكبر القطع التى لدينا من هذا الكتاب محفوظة فى مكتبة نور عثمانية (رقم ٣٠٣٤) ، وتقع فى ٢٤٦ ورقة ، ومنها نسخة مصورة فى دار الكتب بالقاهرة ، وقد تفضل المسئولون فى الدار فوافونا بصورة منها وعليها معتمدنا فى هذا الكلام .

وهذه القطعة أطول ما لدينا من قطع هذا الكتاب ، ومن أسف أن البكرى أنفق معظمها فى مقدمات طويلة تتناول موضوعات لا تدخل فى صلب الجغرافية ، فهى تتناول « القول فى مدة عمارة الأرض » و « كيفية خلق الجنين » و « القول فى ذرية نوح عليه السلام » و « ذكر زرادشت الذى يدعى موبذ المجوس » و « عيسى وزكريا عليهما السلام » و « من كان فى الفترة من أصحاب الأخدود » وما إلى ذلك ؛ وهذه كلها فصول معلومات عامة وحكايات ونقول تشبه ما نجده عند المسعودى فى « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » ، ولكنها أقل تفصيلا وأقل ترابط ، ويبدو أن ذلك يرجع إلى الناسخ ، فإننا نلاحظ انتقالات سريعة من مبحث لمبحث دون تمهيد . وليست لدينا فاتحة الكتاب حتى نعرف منهج البكرى فى تأليفه .

غير أن بعض المباحث التى ترد فى هذه المقدمـة الطويلة ذات قيمة جغرافية ، فهناك فصل عنوانه « جملة القول فى جزيرة العرب وشىء من أخبارها » يورد البكرى فيه ملخصاً لوصف شبه الجزيرة الذى أورده فى « معجم ما استعجم » ، ثم ينتقل إلى « ذكر أخبار العرب العاربة والأمم الداثرة ومذاهبهم ودياناتهم وسيرهم » ثم « ذكر معبودات العرب وعلة عبادتهم الأصنام » ثم « ذكر بيوت النيران » .

وفى هذا الفصل نجد إسم تيتوس (ليفيوس) مذكوراً لأول مرة فى العربية إلى جانب نفر من الجغرافيين والرياضيين اليونانيين ، وهو يأخذ فيه عن العذرى مباشرة ويقول « أخبرنى العذرى » . وهو يجمع فى هذا الباب أخباراً وغرائب نقلها من الكثير مما نعرف من كتب الجغرافيين والأخباريين .

وبعد ذلك ، وفيما نعتقد ، يبدأ القسم الجغرافى من هذه المقدمة ، وهو قسم يدل على تصور جغرافى سليم واطلاع واسع على المهم مما كُتب قبله فى المباحث التى تعرض لها . وإذا كان « معجم ما استعجم » يضع البكرى فى الصف الأول من الباحثين فى الجغرافية فى العصر الوسيط ، أولئك الذين يجمعون المعلومات الجغرافية ثم يرتبونها على النحو الذى يختارونه ، فإن هذا القسم من المقدمة يقرر بوضوح كيف كانت صورة الأرض واضحة فى ذهن أبى عبيد ، وكيف كانت هيأتها وتقاسيمها — بحسب ما انتهى إليه علم العصور التى سبقته — قد تجمعت فى ذهنه وعرف كيف يعرضها عرضاً سهلا مبسطاً يذكرنا بأحسن ما كتب المنقطعون لهذا الشأن من أمثال أحمد النهاوندى والخوارزمى وأبى معشر والبتانى وأبى محمد بن زكريا الرازى وعلى بن يونس وغيرهم . بل عرف كيف يختار من أقوال أولئك الفلكيين والرياضيين وأصحاب الزيوج أقرب ما لديهم إلى فهم القارىء العادى ، ويعرضه عرضاً حسناً يستكمل به صورة الكون والأرض وأقاليمها ، وعلاقة هذه الأخيرة بالبروج دون تكلف أو تعقيد .

وللبكرى فى ثنايا ذلك لمحات يكشف بها عن حقائق سبق بها زمانه بكثير ، خذ مثلا قوله : « وأقيانُس البحر المحيط ، لا يدرى ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا ، والشمس إذا غابت فى أقصى الصين طلعت فى الجزائر (الخالدات) وبالضد » وهذه — ولا زيادة — هى الفكرة التى جعلت من كولومبوس ما هو فى تاريخ البشر ، وكأنما أخذ أبو عبيد البكرى بيده وقاده إلى ما وقع إليه من كشف عظيم . وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يكون أبو عبيد من أبناء ولبة على أميال قليلة من الرابطة La Rábida وفيها الدير الذى لجأ كولومبوس إلى أحباره لكى ييسروا له مقابلة فرناندو وإيزابلا ، ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون أبو عبيد قد كتب هذه السطور فى إشبيلية ، البلد الذى عاش فيه كولومبوس زمنا ، وتعلم من أهله وعلمائه وبحارته الشىء الكثير ، بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبوس إلى العالم الجديد من ميناء سان لوكار San Lúcar أقرب بلد إلى ولبة ، والمسافة بينهما بضعة كيلومترات .

والبكرى يعتمد فى كلامه فى هذا الفصل على كتابى بطليموس : الجغرافية والمجسطى ، ويحقق كلام ايراتوسثنيز (يكتبه ارذوستانس) عن محيط الأرض وقطرها ، و يُجْمِل بعد ذلك أقوال الجغرافيين والرياضيين عن أطوال محيط الأرض قائلا : « فهى كَوْرُ كَوْرَةِ الأرض المحيطة بالبر والبحر ، فقطرها على هذا ٦٤٢٤ ⅕ ميلا بتقريب » وهو تقرير صريح لكروية الأرض ، ولو جمعنا هذه العبارة إلى عبارته السابقة عن إقيانس تبينا أن فكرة خروج السفن من غربى أوروبا لتصل إلى شرق الصين كانت عند البكرى بديهية من البديهيات . ومع ذلك فهو يقول فى تواضع عظيم : « وإنما ننقل فى كل موضع من هذا الكتاب ما يُسْتَنْسَخُ لنا ، وعندنا كتب الناس فننقل ذلك عنهم على حسب ما نجده ، لا ما نقع على صحته » .

ونؤكد ما قلناه آنفاً من معرفة البكرى بأن الخارج من غرب أوروبا يصل شواطىء الصين بهذا الخبر الذى يرويه عن بحر الظلمات أو البحر الأخضر أو المحيط : « وقد خاطر بنفسه فتى من أهل الأندلس يسمى خشخاش . وكان من فتيان قرطبة فى جماعة من أحداثها ، فركبوا مراكب استعدوها ودخلوا هذا البحر وغابوا مدة ثم أتوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة » ولا ندرى إن كان هذا هو خبر الفتية المغررين (أو المغربين) أو خبر آخر ، وعلى أى حال فهو دليل على أن الخروج فى المحيط الأطلسى والإيغال إلى الغرب والوصول إلى سواحل بعيدة كان أمراً يستهوى نفوس الأندلسيين وربما تكرر مراراً .

وهو يتحدث فى ذلك الفصل عن علة المد والجزر فيقول إنها « القمر على ما بيّن أبو معشر » ويستطرد إلى أحاديث عجائب كثيرة معظمها نجده عند غيره . ولكننا نجد فيه فصلا قائماً عن أنهار الأرض ، هو أحسن ما لدينا إلى الآن فى ذلك الباب ، وهو يتحدث فيه عن دجلة والفرات حديثاً طويلا ، ثم عن النيل ويقول « فأما النيل فإن منبعثه من تحت جبل القمر وراء خط الاستواء بسبع درجات ونصف من اثنتى عشرة عين فيجتمع من بحيرتين كالبطائح » ، وكلامه عن هذه الأنهار هو الأصل الذى نقل عنه الإدريسى ، فإن كلامهما يتطابق فى بعض الفقرات حرفياً ، وفى ذلك الباب نجد فصلا طويلا عن أنهار الأندلس ، وهو أوسع فى بعض المواضع مما لدينا فى القطعة الباقية بين أيدينا من وصفه للأندلس[١] .

وبعد هذه المقدمة الطويلة يبدأ كلامه عن الممالك والمسالك ، فهو يبدأ فصلا عنوانه : « ابتداء الممالك » ثم يتكلم من مملكة الهند . وقد أخذ البكرى مصطلح الممالك والمسالك بحرفيته ، فهو يبدأ بالكلام عن المملكة ثم يذكر مسالكها . والمملكة هنا هى القطر ، وأبو عبيد يتحدث عن كل مملكة يذكرها

(١) سبق أن أشرنا إلى هذه القطعة وتحقيق ليفى بروفنسال إياها .

بتفصيل ، فيصفها ويذكر حدودها ويأتى بشيء من تاريخها ، ويذكر عادات أهلها وخصائصهم ، وبعد ذلك يتحدث عن الطرق ويذكر المسافات ، فيبدأ بالهند كما قلنا ، ثم الصين ثم فارس ، وكلامه عن هذه الثلاثة شديد الشبه بكلام المسعودى ، وهو ينص عليه فى أكثر من موضع . ثم يتحدث عن الروم ، وهنا نراه يأخذ عن هروشيش دون أن يشير إليه ، ثم ينتقل إلى بلاد الصقالبة والروس ؛ ومعتمده هنا على ابراهيم بن يعقوب الإسرائيلى ، وهنا موضع القطعة الطويلة التى نشرها فون روزن وكونك وأشرنا إليها آنفاً .

ويختم كلامه عن أوروبا بالكلام على مملكة الجلالقة ، ويبدو أن معتمده هنا على ابراهيم بن يعقوب وأصول عربية أخرى ، لأنه يذكر فى نهاية كلامه عن مملكة الجلالقة وقائع عبد الرحمن الناصر معهم ويختمها بقوله : « وهى للمسلمين عليهم إلى وقت التاريخ » ، ولا يمكن أن يكون البكرى صاحب هذه العبارة .

٢ — وتلى ذلك قطعة محفوظة فى مكتبة القرويين بفاس تحت رقم ٤٨٨ وفيها جغرافية إيران (ايرانشهر) ومصر والمغرب وقطعة من وصف الأندلس .

٣ — ثم قطعة أصغر محفوظة فى مكتبة لا له لى (رقم ٢١٤٤) ، عدد أوراقها ٧٧ ورقة وتشمل جزءا من جغرافية الشام والجزيرة العربية .

٤ — قطعة تبدأ بنهاية وصف مصر ثم تورد وصف المغرب ثم صفحات من صفة الأندلس ، محفوظة فى المكتبة الأهلية فى باريس تحت رقم ٥٨٠ (anciens fonds) ، وهى أسوأ ما لدينا من مخطوطات البكرى .

٥ — قطعة تشبه الأولى عثر عليها المسيو Berbrugger وضمها لمكتبة الجزائر .

٦ — نسخة ثالثة من نفس القطعة محفوظة بمكتبة المتحف البريطانى تحت رقم ٣٧٤ وهذه القطع الثلاث هى التى اعتمد عليها البارون ماك جوكين دى

سلان فى نشر صفة المغرب للبكرى المعروفة فى النسخة المطبوعة باسم كتاب صفة المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب وبالفرنسية باسم :

Description de l'Afrique Septentrionale par Abou Obeid el Bekri (Paris 1875)

ثم أعيد طبعها سنة ١٩١١ وكان قد ترجمها إلى الفرنسية قبل ذلك ونشر الترجمة بنفس العنوان سنة ١٨٥٨ فى باريس .

٧ — قطعة تتناول جغرافية بلاد الروس والصقالبة نشرت مع ترجمة روسية بتحقيق كونيك والبارون فون روزن فى بطرسبرج سنة ١٨٧٧ وقد تحدثنا عنها وأتينا بعنوانها فى كلامنا عن ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى .

٨ — نقول من الأجزاء الأولى من الكتاب تتناول هيئة الأرض والكون وردت فى الجزء الأول من مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى . وقطع أخرى منه تتصل بصفة بعض نواحى الأندلس أوردها ياقوت فى معجمه والمقرى فى نفح الطيب .

ومن هذه القطع والنقول نستطيع أن نقول إن المسالك والممالك للبكرى يتناول فى نسخته الكاملة جغرافية الدنيا كلها على طريقة المسالك والممالك . ولكن منهجه فيها يختلف بعض الشىء عن مناهج الآخرين كما قلناه ؛ والأجزاء الخاصة ببلاد العرب ومصر والمغرب تنفرد بميزة كبرى ، وهى أنه يقف عند كل موضع وقعت فيه حادثة تاريخية ويتحدث عنها بتفصيل . ومن أسف أن معظم الجزء الخاص ببلده هو — أى الأندلس — لم يعثر عليه إلى الآن . ومن الطبيعى أن يكون هذا الجزء أحفل أجزاء كتابه بالقيمة والفائدة ، وهو دون شك معتمد كل من كتب فى جغرافية المغرب بعده وخاصة الإدريسى وابن سعيد . فإذا ذكرنا أن الجزء المطبوع الخاص بالمغرب وحده يعدل نصف حجم « صورة الأرض » لابن حوقل ، وهو أوسع كتب المسالك والممالك التى بين يدينا وأكثرها تفصيلا ، تبينا أن كتاب البكرى هو أوسع ما ألف العرب فى هذا الباب وأشمله على الإطلاق .

وللبكرى ميزة أخرى تؤيد ما قلناه ، وهى دقته فى رسم الأعلام وحرصه على التثبت منها والرجوع فيها إلى مظانها وسؤال الناس عنها . ومثالا لهذا نناقش الفقرة الخاصة بأسماء شبه جزيرة إيبيريا ، وهى فى فاتحة الجزء الخاص بالأندلس :

« ذِكر جزيرة الأندلس وجمل من أخبارها : يُذكَر أن اسمها فى القديم إباريه (Iberia) من وادى إبره (Ebro) ثم سميت بعد ذلك باطقه (Baetica) من وادى بيطى (Baetis) ، وهو نهر قرطبة ، ثم سميت إشبانية (Hispania) من إسم رجل ملكها فى القديم ، كان اسمه إشبان ، وقيل سميت بالإشبان ، سكنوها فى أول الزمان على حرمة النهر (يقصد الوادى الكبير) وما والاه . وقيل إن اسمها فى الحقيقة إشبارية (Hesperia) ، مسماة من أشْبَرُشْ (Haspéros) ، وهو الكوكب المعروف بالأحمر ، وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش (Vandali) الذين سكنوها على ما يأتى ذكره » .

وقد وضعت بين قوسين إلى جانب كل علم غير عربى أصله اللاتينى حتى تتبين دقة البكرى فى رسم هذه الأعلام ، بيد أن هذه الدقة تتجلى بصورة أوضح إذا نحن بحثنا عن أصول هذه الأسماء التى كانت تطلق على شبه جزيرة إيبيريا فى كتابات الجغرافيين الإغريقيين والرومان .

فأما قوله إن « اسمها فى القديم إبارية من وادى إبره » فقد كان القدماء من الإغريق والرومان يقولون هذا ويجعلون إيبيريا مشتق من إبرو ، وعنهم أخذه البكرى (ربما بطريق الرازى) . أما الحقيقة فهى أن إيبيريا نسبة إلى إيبيروس Ἴβηρος وهو الاسم الذى أطلقه الإغريق القدامى على سكان شبه الجزيرة . وقد ظهر لفظ إيبيريا Ἰβηρία للمرة الأولى خلال القرن السادس قبل الميلاد . وكان هذا الإسم يطلق على جزء من شاطىء شبه الجزيرة محصور بين مصب الوادى الكبير ومصب النهر الأحمر Guadalahmar وهو الجزء الذى نزل فيه الإيبيريون

عند هجرتهم الأولى من شمال إفريقية إلى شبه الجزيرة ، ثم شمل الاسم شبه الجزيرة كله بعد ذلك تبعاً لانتشار الإيبيريين فى البلاد .

وقوله أنها كانت تسمى فى القديم « باسم باطقة نسبة إلى وادى بيطى » فمأخوذ عن كتاب اليونان والرومان أيضاً ، فإن اليونان نزلوا الجزيرة أول الأمر فى الجنوب وسكنوا على ضفة نهر بيطى Baetis الذى عرف فيما بعد بالوادى الكبير ، وأطلقوا على هذا الجزء من شبه الجزيرة اسم Baetica ، ثم غلب على شبه الجزيرة عند بعض كتابهم ، أما الرومان فقد قصروه على جنوب شبه الجزيرة فحسب .

أما قوله « ثم سميت إشبانية من اسم رجل ملكها فى القديم كان اسمه اشبان . وقيل سميت بالاشبان الذين سكنوها من أول الزمان » فقد أخذه عن كتاب الاسبان فى العصر القوطى ، وخاصة عن ايزيدور الباجى ، فقد ورد ذلك فى كتابه المسمى Etimologías أى أصول الكلمات . والشك كثير فى حقيقة ايزيدور نفسه ، فهناك من يقولون إنه اسم منتحل ابتكره نفر من الوضاع فى العصر القوطى ونسبوا إليه ما وصل إلينا من الكتب باسمه ، وقد اطلع العرب الأندلسيين على كتاباته ، وهم مشكورون على هذا الاطلاع ، ولا ذنب لهم إذا قبلوا ما فيها على أنه معلومات صحيحة قالها عالم من أكبر علماء اسبانيا المسيحية كما قيل لهم .

أما الحقيقة فهى أن لفظ اسبانيا هو أقدم أسماء الجزيرة التى عثرنا عليها ، فهو مذكور فى كتابات الفينقيين قبل سنة ١١٠٠ قبل الميلاد ، أى قبل إنشائهم لمدينة قادش Gades . وهو مذكور فى هذه الكتابات فى صورة i-sh-phannim’ ومعناه « ساحل الأرانب البرية » وكان شبه الجزيرة مشهور بهذه الأرانب حتى أصبحت صورة الأرنب البرى رمزاً عليها فى بعض العصور ، كما نجد فى بعض قطع العملة التى ضربها الامبراطور هادريان . واللفظ سامى قديم ، فهو فى العبرية القديمة « شْفَهَان » وفى اليمنية القديمة طَفَنْ ، وجمعه فى العبرية

القديمـة شفانيم Shphannīm . وعن الفينيقيين أخذ اللفظ القرطاجنيون ، ثم الرومان بعد استيلائهم على ما كان بيد هؤلاء الأخيرين من شبه الجزيرة وحرفوه إلى اسبانيا I-spania أو هسبانيا Hispania وقالوا إن الإسم منسوب إلى سْبَانْ أو سْفَهان Sphan . وأطلقوا الاسم على شبه الجزيرة . ومنهم من جعل « اسبانيا » مشتقاً من اسم الاله « بان » أو نسبة إلى رجل يسمى هيسبالوس Hispalus وهذه النسبات الثلاثة الأخيرة واردة فى « الاتيمولوجيا » لإيزيدور الباجى . وعنهـا أخذه العرب . وقد وقف البكرى عليها عند ما نقل ، أما غيره فقد أطلق لخياله العنان ، فجعل سْفَهان أصبهان وقالوا إن أصله من أصبهان ، وأضافوا قصصاً طويلا لا يخلو من طرافة .

والإسبان ، أهل اسبانيا ، هى الصيغة العربية لثلاث من الصور كانت تستعمل فى مقابله فى اللاتينية : Hispani (مفرد us-) و Hispanici (مفرد cus-) و Hispalensi (مفرد is-) ، وورد أيضاً فى صيغ شتى : Hispalus للمذكر Hispalia للمؤنث ، ومن هذه الصورة الأخيرة أخذ العرب اسم اشبيلية .

وكذلك قوله : « وقال قوم إن اسمها إنما هو فى الحقيقة اشبارية ، مسماة من إشبِرُش وهو الكوكب المعروف بالأحمر » يرجع إلى إيزيدور الباجى ، فقد ترجم به البكرى قول إيزيدور ab Hespero, Hispaniae rege وهو خطأ ، لأن اشبارية من Hesperia أى أرض المغرب ، وهو لفظ شاعرى استعمله الإغريق للدلالة على إيطاليا أولا ثم على اسبانيا أيضاً . أما اشتقاقه من Hesperus الذى يعرف فى العربية بالنجم الأحمر فقد دل التحقيق الاشتقاق على أنه غير صحيح[1] .

---

(١) مرجعنا فى ذلك التحقيق اللغوى إلى آدولف شولتن فى كتابه الذى أشرنا إليه قبل ذلك مراراً .

والعبارة الأخيرة من كلامه « وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها » تدل على أن البكرى ومن أخذ عنه كانوا عارفين بأصل الإسم الذى استعمله العرب للدلالة على البلاد كلها .

وواضح من هذا كله أن البكرى بحث ونقب عن أصل الاسم وأتى بروايات شتى كلها له أصول فى كتابات قديمة لها مكانها من الاحترام ، وهو لم يقل فى أثناء ذلك أن أندلس من الدلس أو التدليس كما فعل غيره ، لأنه يعرف بطبيعة العالم المفكر أن هذه الأسماء لا تفسر هذه التفسيرات اللغوية اليسيرة التى لا يأخذ بها إلا السطحى من الكتاب .

وكذلك يقال فيما بقى لنا من أوراق صفة الأندلس للبكرى التى ثبت أنه نقلها عن الرازى ، فسواء نظرنا فى قسمة قسطنطين أو فى كلامه عن أنهار اسبانيا وجبالها ، فكلامه دقيق واضح مضبوط . أما القطع الخاصة بالكور والمدن وأقاليمها فواضح أنه أخذها عن العذرى واختصرها اختصاراً جيداً لا يقلل من قيمتها .

وتتجلى لنا دقة البكرى الجغرافى ووضوح الصور الجغرافية فى ذهنه وادراكه لما يتطلب الناس فى كتاب فى صفة البلدان إذا نحن نظرنا فى جزء مما بين أيدينا من مسالكه وممالكه ، وإلى أن تُنْشَر الأجزاء المخطوطة منه نكتفى هنا بالنظر فى القسم الخاص بالمغرب ، فهو مطبوع متداول بين أيدى الناس .

من الواضح أن البكرى اعتمد فى هذا الجزء اعتماداً كبيراً على ما كتبه محمد ابن يوسف الوراق ، وهو يقرر ذلك فى مواضع كثيرة من كتابه ، ولكننا نلمح فى كل فقرة أثر البكرى وطريقته ودقته . فيقول مثلا : « برقة : واسمها بالرومية الإغريقية بنطابلس ، تفسيره خمس مدن (Penta-Polis) » ثم يقول بعد قليل فى وصف الجبل المعروف اليوم بالجبل الأخضر : « وعلى ستة أميال منها — أى من برقة — الجبل ، وهى (أى منطقة برقة) دائمة الرخاء ، كثيرة الخير ، تصلح بها السائمة ، وتنمى على مراعيها ، وأكثر ذبايح أهل

مصر منها ، ويحمل إلى مصر منها الصوف والعسل والقطران ، وهو يعمل بها بقرية من قراها يقال لها « مقة » فوق جبل وعر ، لا يرقى إليها فارس على حال ، وهى كثيرة الثمار من الجوز والأترج والسفرجل وأصناف الفواكه ، وبمدينة برقة قبر رويفع (بن ثابت الأنصارى) صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحول برقة قبائل من لواته ومن الأفارق»[١] فإذا قارنا ذلك بما عند ابن حوقل — وقد زار برقة وأقام فيها — تبينا امتياز البكرى ، فهو يبحث عن أصل اسم البلد ويفسره ، ويفرق بصورة واضحة بين برقة البلد والجبل الأخضر الذى يبعد عنها ستة أميال ، فى حين أن ابن حوقل لا يفرق ، ويتحدث كما لو كان الجبل ملاصقاً لبرقة تماما . ومع أن ياقوت قد اعتمد على البكرى فى هذا الموضع إلا أنه أيضاً لم يفرق بين البلد والجبل ولا يعطى هذه الصورة الواضحة[٢] .

ويتجلى ذلك أيضاً إذا قارنا ما كتبه البكرى بما كتبه ابن حوقل عن طرابلس ، فهو يقول « ويذكر أن تفسير اطرابلس بالاعجمية الإغريقية ثلاث مدن (Tri-polis) وسماها اليونانيون طْرِبُلِيطَه (Tripolitania) لأن طْرِ (tre) معناه ثلاث وبليطة politis يعنى مدينـة . ويُذكر أن أشفـاروش قيصر (Septemius Severus) هو الذى بناها ، وتسمى أيضاً مدينة اطرابلس مدينة أناس . . »[٣] وأظن أن أناس هذه مصحفة وأن صحتها أُياس ، لأن إسم طرابلس فى القديم كان أويا Oea وهى ثالثة المدائن التى نشأ عن جمعها معا إسم طرابلس (الاثنتان الأخريان لبده Leptis Magna و صبره Sabratha) . ثم يصف المدينة وصفاً عاماً يعقبه شىء من الاستطراد التاريخى ، ويعود إلى البلد فيذكر موارد مائه فى تفصيل دقيق ويسمى الآبار واحداً واحداً ، ثم

(١) صفة افريقية للبكرى ، طبعة دى سلان ، الجزائر ١٩١٠ ، ص ٤ — ٥
(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ١/٦٦ — ياقوت : ٢/١٣٤
(٣) صفة افريقية للبكرى ، ص ٦ — ٧

يتكلم عن فحص البلد المسمى سويجين ويذكر حاصلاته ، ويلم بذكر جبل نفوسه فيصفه ويذكر قراه واحدة واحدة ، ويستطرد حتى زويلة وما فيها من القرى مثل ودان وكاوار والقبائل التى تسكنها ، وينفرد بمعلومات غاية فى الأهمية عن هذه النواحى الصحراوية ، ويتحدث فى أثناء ذلك حديث الباحث المدقق فيقول عن ودان أنها مدينتان ، ويسمى كلا منهما ويذكر سكانها وجنسهم ويقول « وأكثر معيشتهم من التمر ، ولهم زرع يسير يسقونه بالنضح » وهو التعبير العربى الفنى المقابل لقولهم culture à sec أو al secano . ولم أجد هذا التعبير إلا عند البكرى ، وكذلك المعلومات عن واحات الصحراء هذه لا نجدها إلا عند هذا الجغرافى المدقق .

وبينما نجد ابن حوقل لا يذكر القيروان إلا ضمنا أثناء حديثه عن المهدية[١] نجد البكرى يقف عندها طويلا مخصصاً لها ست صفحات لا يدع فيها شيئاً إلا ذكره ، ويصف مسجدها وصفاً مفصلا مع تواريخ بنائه وما مر عليها من تطورات ، وهذه الفقرة الخاصة بالمسجد هى أحسن وأدق ما لدينا عن ذلك الجامع إلى أيام البكرى .

وهكذا ينتقل بنا البكرى فى بلاد المغرب من مرحلة لمرحلة لا يكاد يغادر مدينة أو قرية أو محرساً أو حصناً أو رباطاً أو جبلا أو بحيرة أو نهراً إلا ذكره بتفصيل يدل على جهد كبير فى البحث والاستقصاء ، مع ما لابد منه من الإشارات إلى الموارد والمحصولات والمعادن والصناعات وأصناف الناس وما تيسر له من المعلومات عن طباعهم . فهو فى الواقع ليس مجرد كتاب مسالك وممالك ، وإنما هو جغرافية وصفية بشرية اقتصادية من الطراز الأول . ولم يعتمد البكرى فيه على كتاب محمد بن يوسف الوراق وحده كما يظن ، بل إنه — جرياً على طريقته — جمع كل ما وصل إليه من المراجع وانتفع به انتفاعاً

---

(١) ابن حوقل ، ١/٧١

طيباً ، ودقق فى كل ما قرأ فلم يأخذ منه إلا ما تراءى له أنه الصحيح ، وضبط الأعلام ضبطاً محكما ، ورجع إلى أصولها ما أمكن . وقد اتبع البكرى هذه الخطة أيضاً فيما كتبه عن مصر والشام وغيرها مما عثرنا عليه من كتابه . والنسب بين الأجزاء التى خصصها لكل قطر معقولة ، وهو فى هذا يمتاز على غيره من أصحاب كتب المسالك التى يغلب عليها التفصيل الشامل فى ناحية والإيجاز المخل فى ناحية ، لأن البكرى لم يكتب بحسب ما اتفق له من الأصول ، فما حضرته عنه وفرة أطال فيه وما لم يحضره عبر به مسرعا ، وإنما جمع جمعاً شاملا وقرأ قراءة واسعة ودوّن جزازاته ورتبها قبل أن يكتب ، وبهذا وحده استطاع أن يقدم لنا أوسع جغرافية للدنيا قبل الإدريسى .

وللبكرى فى سياق كلامه عناية بالتاريخ ، فهو يرى أن الكلام على ناحية أو موضع لا يتم إلا بذكر طرف من تاريخه ، وهو يتعمد أن تكون هذه الأطراف التاريخية إما متصلة بفتح العرب للبلد أو ذات علاقة بمعالم عمارته كسورِه ومساجده وأبوابه وأسواقه وما إلى ذلك ، فأما ما يتصل بالفتح فمصدره فيه فتوح ابن عبد الحكم أو بعض أصوله (الليث بن سعد ومسلمة بن عبد الملك وابن لهيعة خاصة) والبلاذرى ، وقلما يأخذ عن غيرهم ، وأما ما يتصل بسواه فمراجعه شتى يصعب تحديدها ، والغالب أنه استمدها من الوراق ، وهى لهذا على جانب كبير من الأهمية ، إذ أن كتب الوراق لم يعثر عليها إلى الآن .

ومن أغرب ما نجد فى هذه القطعة من مسالك البكرى الباب الذى خصصه لذكر مراسى ساحل المغرب من أشلِن (إلى غربى تلمسان بقليل) حتى ساحل الشام ، واستطراده فى وصف ذلك الساحل حتى مدخل بحر ايجه ، فهذا هو أقدم وصف للشواطئ والموانئ الإسلامية على البحر الأبيض ، خاصة وهو يعنى بذكر ما يقابل المراسى الإفريقية من مراسى الأندلس ، حتى إذا وصل إلى مرسى بجاية قال : « قد خرج عن محاذاة جزيرة الأندلس » وهو يذكر كل مرسى ويصفه ويتكلم عن صلاحيته للسفن شتاء وصيفاً ، ويشير إلى درجة

عمران الميناء وموارد مائه وعدد المجارى التى بينه وبين المرسى الذى يليه ، وبينه وما يقابله من مراسى الأندلس ، فكأنه بذلك يصف المسالك البحرية بالإضافة إلى البرية ، وهو منحى فريد فى بابه لم يسبقه إليه جغرافى آخر . وهذا الفصل من كتابه (ص ٨١ — ٨٨) جدير بدراسة وحده ، نظراً لما يضمه من التفاصيل الكثيرة التى تحتاج إلى أن تحقق وتناقش . ومما هو جدير بالملاحظة أنه بعد أن يصل فى الطريق البحرى إلى ساحل الشام ثم يصعد معه إلى أنطاكية يقول : « ثم إلى انطالية (Anatolia) ومن أنطالية تدخل إلى « الجزائر المؤلفة » وهى تسمية لطيفة لأرخبيل بحر إيجه . وبعد أن ينتهى من الحوض الشرقى للبحر الأبيض يعود إلى ساحل تلمسان الذى بدأ منه ، فيذكر مرسى بجزيرة آواى ويصفه ، ثم يعبر عن طريق البر إلى ساحل الأطلسى عند نول ، ثم يأخذ فى ذكر مراسى المغرب الأطلسية واحداً واحداً بدلا من أن يسير مع الساحل من تلمسان إلى سبتة فطنجة ، ثم ينحدر مساحلا إلى الجنوب . ولا يعلل هذا إلا بأنه اتبع طريق التجارة ، وقد كان التجار البحريون الذين يصلون إلى مراسى شاطىء تلمسان يتلاقون فى مرسى جزيرة آواى ، ومن هناك تخرج الرفاق (القوافل) « مواجهةً للمشرق شهرين مَشْىَ الإبل إلى مدينة نول ، ومدينة نول آخر بلد الإسلام وأول العمران من الصحراء ، وتسير السفن من ساحل نول إلى وادى السوس ثلاثة أيام[1] . . . » ثم يعود مرة أخرى إلى الشرق حتى وجدة ، ثم يذكر الطريق من وجدة إلى سجلماسة ، ويعود بعد ذلك ليصف الطريق من وجدة إلى فاس ، وهنا يذكر الطريق البحرى إلى مليلة ونكور وسبتة حتى طنجة ويعود إلى ذكر مراسى الأندلس التى تقابل كل واحد من مراسى افريقية التى يذكرها فى تدقيق بالغ . وهو يعتمد هنا على محمد بن يوسف الوراق ، فإن له تواليف عن

(١) صفة افريقية للبكرى ، ص ٨٦

هذه النواحى كما ذكرنا ، ولكنه لا يقف عنده ، بل يستمر فى رواية الحوادث إلى ما بعد وفاة الوراق بزمن طويل ، فهو يذكر مثلا حوادث وقعت سنة ٤٤٠/١٠٤٨—١٠٤٩ بل يصل فى رواية بعض الحوادث إلى سنة ٤٦٠/١٠٦٧

وهو يقف بمدينة فاس وقوفاً طويلا ، ويتسع استطراده التاريخى فيتناول قيام دولة الأدارسة وجانباً كبيراً من تاريخهم بتفصيل ، ثم يتبع ذلك بفصل عن « ممالك برغواطة وملوكهم » وهو تاريخ صرف رواه عن «أبى صالح زمور ابن موسى بن هشام بن واريزن البرغواطى ، وكان صاحب صلاتهم حين قدم على الحكم المستنصر رسولا من قبل صاحب برغواطة أبى منصور عيسى بن أبى الأنصار . . . بن طريف ، وكان وصوله إلى قرطبة فى شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذى قدم معه ، وهو أبو موسى عيسى بن داوود بن عشرين السطاسى ، من أهل شَلَّه ، مسلم من بيت خيرون بن خير ، فأخبر زمور أن . . . » وهذه المقدمة وما يليها من الخبر أشبه بأن تكون نص وثيقة بتاريخ برغواطة كتبت للحكم المستنصر لتحفظ فى سجلاته . والغالب أن يكون البكرى قد أخذ نصها عن محمد بن يوسف الوراق ، لأن ابن عذارى يأتى بها فى صورة مشوهة مبتورة ، ومع أن ابن عذارى مؤرخ وهذا الخبر أدخل فى موضوع تاريخه إلا أن البكرى أدرك أهميته بحسه العامى المرهف ، فأتى به كاملا ، فأدى لتاريخ المغرب بذلك خدمة لها قدرها[١] . وقد سبق أن أشرنا إلى طريقة ابن عذارى فى النقل عن الوراق .

وابتداء من الفصل الذى عنوانه « الطريق من فاس إلى مدينة سجلماسة[٢] » تزداد أهمية هذا الجزء من مسالك البكرى من الناحيتين الجغرافية والتاريخية ، فهو يصف هنا الحدود الجنوبية للاسلام المغربى من سجلماسة إلى الجنوب وكيف

(١) انظر البيان المغرب لابن عذارى (طبعة بروفنسال وكولان) ، ١/٢٢٢—٢٢٧
(٢) نفس المصدر ، ص ١٤٦

امتدت حتى وصلت إلى بلاد غانة . وفى فصل من الفصول التالية توجد القطعة الفريدة التى كانت إلى حين قريب أوثق مراجعنا عن أصل المرابطين وكيف نشأوا ، وهو يعتمد فى بعض تفاصيل هذه الفصول على محمد بن يوسف الوراق ولكنه يرجع أيضاً إلى أصول مغربية أوثق معرفة بجغرافيـة هذه النواحى وتاريخها ، فهو يقول مثلا فى ص ١٦٠ « الطريق من مدينة أغمات إلى السوس على ما ذكره مؤمن بن يومر الهوارى » .

ويقف البكرى بهذه القطعة من تاريخ المرابطين عند سنة ١٠٦٧/٤٦٠ أى عند ولاية أبى بكر بن عمر اللمتونى ، وهذا أمر يستدعى النظر ، لأن البكرى توفى سنة ٤٨٧ ، أى أنه عاش حتى اكتمل تكوين دولة المرابطين أيام يوسف ابن تاشفين ، بل كان أحد الذين كانوا فى وداع المعتمد بن عباد حين عبر إلى المغرب لإقناع يوسف بن تاشفين بضرورة العبور إلى الأندلس بجيوشه مرة ثانية[1] أوائل سنة ١٠٨٨/٤٧٨ أى قبل وفاة البكرى بتسع سنوات ، فكيف وقف فى رواية تاريخ المرابطين عند سنة ١٠٦٧/٤٦٠ أى سبعة وعشرين سنة قبل وفاته ؟ لا يعلل ذلك إلا بإذن البكرى كتب هذا الجزء من جغرافيته فى تلك السنة ، وأثبت فيه آخر ما وصله من أنباء المرابطين ، ثم انتقل إلى أجزاء أخرى وأعمال أخرى ، ومضت السنون دون أن تتاح له الفرصة ليعود إلى إكمال ما كتب ، ولعله أكمله فى نسخ أخرى لم تصلنا ، فقد رأينا مثل ذلك فيما لدينا من نسخ معجم ما استعجم . وقد كان البكرى يؤلف بعض كتبه على مراحل ، أى يكتب ما حضره فإذا أعياه شىء ترك له بياضاً حتى يعثر عليه أو يذكره فيقيده ، قال الأستاذ عبد العزيز الميمنى فى مقدمته لشرح اللآلى إن

(١) ذكر ذلك ابن الأبار فى ترجمته لأبى عبيد البكرى (انظر النص فى أبحاث دوزى الطبعة الأولى ، ٢٨٦) وقد ذكرت أن هذا العبور كان بعد موقعة الزلاقة معتمداً على ما ورد فى مذكرات الأمير عبد الله الزيرى أمير غرناطة (نشرها ليفى بروفنسال فى القاهرة سنة ١٩٥٥) ص ١٠٨ ، وهذا يسمح لنا بتأريخ هذا الحادث بأوائل ١٠٨٨/٤٧٨

البكرى « بقى يقيد كل ما يمر به من الفوائد برهة ، وما لم يقف له من الأبيات على أثر أخلى له بياضاً ، وقد بقى من هذا النوع كثير لم يستطع سد خلله ، أو لم يتسن له ذلك[1] » . فلعل مثل هذا حدث فى هذا الجزء من جغرافيته . وقف به عند سنة ٤٦٠ التى كتبه بها ، ولم يتسن له العود إليه ، فظل كما هو .

ومهما يكن من الأمر فإن مسالك البكرى تعتبر قمة من قمم التأليف الجغرافى فى هذا النوع عند المسلمين ، فقد وصل بهذا الفن إلى درجة من الشمول والاتساع والدقة لم يصل إليها أحد قبله فى الشرق أو الغرب . واتصل على يده التأليف الجغرافى فى الأندلس خطاً متكاملا يخطو كل جيل من الجغرافيين به خطوة . وسيستمر ذلك بعد البكرى على أيدى من جاء بعده .

عبد الله بن ابراهيم بن وزمر الحجارى

يصعب الكلام عن الحجارى مؤرخاً وجغرافياً ، لأن بنى سعيد الذين اتخذوا كتابه « المسهب فى فضائل (أو غرائب) المغرب » أساساً لكتابهم الكبير « المغرب فى حلى المغرب » أحسنوا إليه من ناحية وأساءوا إليه من أخرى : أحسنوا إذ عرفوا فضله وحفظوا اسمه ، وأساءوا إذ خلطوا كلامه بكلامهم وغيروا وبدلوا فيه ، فلم نعد نعرف على وجه التحديد ماذا قال . وربما كان كتاب « المغرب » حالة فريدة فى تاريخ الفكر العربى ، فهو تأليف بالمشاركة ، أو كتاب جماعى ، قام على أصل كتبه الحجارى ثم تبنته أسرة من الأدباء وهواة التأليف ، فأضاف كل منهم إليه ما تيسر له ، فأصبح الكتاب وكأنه قصة شعبية ، لا تعرف كيف كانت أول ما قيلت ولا ما أضيف إليها

(١) مقدمة سمط اللآلى ، صفحة س .

بتعاقب الرواية والانشاد . نقول هذا مع أن بنى سعيد نسبوا إليه فى كتابهم ما يزيد على ٢٥٠ نقلا ، ولكننا لا نعرف إن كان النقل بحرفه أو مع تعديل وحذف وإضافة . وقد أورد له المقرى فى الفصل الأول الخاص بجغرافية الأندلس من النفح ما يزيد على ٢٠ قطعة كبيرة هى من أحسن ما نقرؤه فى هذا الفصل ، ويندر أن نجد مؤلفاً أندلسياً كتب بعد الحجارى دون أن يشير إليه مما يدل على أن كتابه كان مرجعاً وحجة ، وأنه أضاف إلى المكتبة الأندلسية شيئاً فريداً تميز به عمن سواه ، مما جعل الرجوع إليه والأخذ عنه ضرورة لا معدى عنها لكل من تعرض للتأليف فى أدب الأندلس وجغرافيته وتاريخه .

ويتجلى مما لدينا من المعلومات أن هذا الامتياز لم يقتصر على كتابه بل كان ثمرة من ثمرات شخصيته الفذة وحياته القلقة ، فقد كان الحجارى كبقية الأفذاذ من أبناء ما بعد الخلافـة قلقاً مروعاً جوالا يجوب آفاق الأندلس المتلاشى والعلم يملأ صدره والحسرة تثقل على نفسه ولا يدرى أين يذهب أو أين يستقر له قرار ، وهو من أبناء القرن السادس ، أى من أبناء عصر زاد الحال فيه سوءً عما كان عليه فى القرن السابق ، وقد صور لنا الحجارى حال هذا العصر وبينه فى « المسهب » فى عبارة أوردها المقرى فى النفح ، قال : « وذكر الحافظ الحجارى فى المسهب أنه سأل أبا محمد عبد الله بن ابراهيم عن أفضل من لقى من أجواد تلك الحلبة ، فقال : يا بن أخى ، لم يُقَدَّرْ أن يُقْضى لى الانتصار لهم فى شباب أمرهم وعنفوان رغبتهم فى المكارم ، ولكن اجتمعت بهم وأمرهم قد هرم ، وساءت بتغير الأحوال ظنونهم ، وملوا الشكر وضجروا من المروءة ، وشغلتهم المحن والفتن ، فلم يبق فيهم فضل للافضال ، وكانوا كما قال أبو الطيب :

أتى الزمانَ بنوه فى شبيبته فَسَرَّهُمْ وأتيناه على الهرم

وإن يكن أتاه على الهرم فانا أتيناه وهو[١] فى سياق الموت . . . » .
وفى ظلال الموت والخوف والحاجة عاش أبو عبد الله الحجارى وقال ما قال من الشعر وألف ما ألف من الكتب .

ومع أن ما يربو على ثلث كتاب « المغرب » لبنى سعيد مأخوذ عن الحجارى إلا أن المادة التى نجدها عنه فى مخطوطة المغرب التى حققها الدكتور شوقى ضيف صغيرة لا تقدم كثيراً فى تعريفنا به ، ومعظمها مع ذلك يبين فضل بنى سعيد عليه ، فعلى بن سعيد مثلا يسميه « جاحظ المغرب » ويقول : « هو أول من أسمى هذا التصنيف ، وفتح بابه لمن بعده من بنى سعيد ، وقد أطنب والدى فى الثناء عليه من طريق البلاغة نظما ونثراً ومعرفة التصنيف ، وقال فيه : « وَبِمَ أصفه ؟ وقدرة اللسان لا تنصفه . . . » ثم تلى ذلك قصة وروده على جده عبد الملك[٢] بن سعيد .

ومن الواضح أن هذه المادة الصغيرة التى احتفظ لنا المقري بنصها إنما كانت بداية زاد عليها على بن سعيد وتوسع فيما كتب من نسخ المغرب بعد ذلك ، ودليل ذلك أن لسان الدين بن الخطيب أفرد للحجارى مادة أطول وأكثر تفصيلا نسب معظمها إلى على بن سعيد ونص على ذلك[٣] ، وقد نقل هذه المادة بالنص مع (تغيير لبعض الألفاظ) بدر الدين البشتكى فى مختصره للاحاطة المسمى « مركز الإحاطة » وهذا النص الأخير هو الذى نشره دوزى فى « جامع أخبار بنى عباد » نقلا عن مخطوطة[٤] باريس .

وخلاصة كلام ابن الخطيب أن والد عبد الله الحجارى وهو ابراهيم بن وزمر الحجارى كان « أديب مدينة الفرج بوادى الحجارة ، المصنِّف للمأمون

(١) رواه أيضاً دوزى فى Abbadidis, II, 147 برواية ابن الأبار .
(٢) ابن سعيد : المغرب ، ٢/٣٥
(٣) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة ، مخطوط أكاديمية التاريخ بمدريد ، ص ٢٣٠ — ٢٣١
(٤) Dozy, *Abbadidis*, II, 141 sqq.

ابن ذى النون كتاب « مغنطيس الأفكار فيما تحتوى عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار » .

وقد هاجر عبد الله الحجارى من بلده مدينة الفرج بعد استيلاء النصارى عليها . وقد كان الذى استولى على وادى الحجارة وتوابعها هو ألفونسو السادس ملك قشتاله وليون سنة ١٠٨٥/٤٧٨ فقد صارت إليه هذه الناحية مع غيرها من توابع إمارة طليطلة عند ما تخلى له عنها القادر بن ذى النون فى تلك السنة ، وهذا يعين لنا تاريخ هجرة عبد الله الحجارى من بلده ، ويبدو أنه كان شابا مكتمل التكوين عندما وقع له ذلك ، لأنه وجد طريقه إلى الحياة فى شلب التى هاجر إليها عن طريق الأدب والكتابة .

وقد كانت هذه الهجرة بعيدة الأثر فى نفسه ، فقد مضى بعد ذلك يضرب فى نواحى الأندلس لا يستقر فى بلد حتى يشد رحاله إلى آخر حتى اشتهر بالتجول والرحلة ، قال ابن الخطيب : « وله فى التجول أشعار وأخبار » نعم إن هذه الحالة من القلق والرحلة الدائمة كان يشاركه فيها غيره من أهل الأدب والفكر فى ذلك العصر على ما ذكرناه ، ولكنها ظهرت عند عبد الله الحجارى فى صورة قلق عظيم لا يجعله يطيق المقام طويلا فى ناحية واحدة ، حتى لو وجد فيها سلام العيش ورخاءه كما سنرى ، وقد ألقاه هذا الهيام الدائم فى أهوال وأخطار .

لم يطل به المقام فى شلب ، إذ خلفها إلى غرناطة ، ومنها إلى قلعة بنى سعيد المعروفة بقلعة يحصب ، وتعرف اليوم باسم Alcalá La Real وكانت إذ ذاك من « بنات » غرناطة كما يقول ابن الخطيب ، أى من توابعها ، وكان بنو سعيد قد استبدوا بها بعد انتثار أمر الخلافة كما فعل غيرهم من رؤساء النواحى ، وأول من فعل ذلك منهم خلف بن سعيد الذى يرجع نسبه إلى الصحابى عمار بن ياسر ، ثم جاء بعده ابنه سعيد بن خلف ثم ابن هذا أبو مروان عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد « وصادف الفتنة على الملثمين ،

فامتنع فيها إلى أن تولى لعبد المؤمن ، وخطب له فيها ، وسجنه عبد المؤمن فى مراكش ثم سَرَّحه ، وجل[١] قدره عنده » .

وعلى أبى مروان عبد الملك بن خلف بن سعيد هذا وفد الحجارى ، ويذكر ابن الخطيب أنه استأذن عليه فى زى موحش[٢] [من زى البوادى] فاستخف به القاعدون ببابه إلى أن لاطف بعضهم وسأله أن يعرف به القائد ، فلما بُلِّغَ عنه أمر بإدخاله فأنشده قصيدة مطلعها :

عليك أحالنى الذكر الجميل		فجئت ومن ثنائك لى دليل
أتيتُ ولم أقدِّمْ من رسول		لأن القلبَ كان هو الرسولُ

فأكرمه وأحسن إليه ، وأقام عنده سنة حتى ألف بالقلعة كتابه « المسهب فى غرائب المغرب » ثم « انصرف إلى قصد ابن هود بروطة بعد أن أعزله على التحول عنه ، فقال « النفسُ تَوَّاقه وما لى بغير التغرب طاقة » ثم قال بيتين شبه نفسه فيهما بالحمام الذى لا يكاد يحط على فنن حتى ينتقل إلى آخر . وهو تشبيه ضعيف ، لأن الحمام من أكثر المخلوقات إلفاً لعشه وحنيناً إلى وطنه .

والمهم أن عبد الله بن ابراهيم الحجارى أقام سنة عند عبد الملك بن سعيد ألف له خلالها كتاب المسهب ، وسنتحدث عنه بعد قليل .

ويذكر على بن سعيد أن الحجارى بعد أن غادر قلعة بنى سعيد صار إلى روطة ، وكانت روطة آخر ما بقى لبنى هود من بلاد الثغر الأعلى بعد سقوط سرقسطة فى يد الفونسو الأول المعروف بالمحارب ملك أرجون فى سنة ٥١٢/ ١١١٨ . فانتقل إليها عماد الدولة عبد الملك بن أحمد بن هود الملقب بالمستعين ،

(١) المغرب فى حلى المغرب ، بتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، ٢/١٦١

(٢) ننقل هذه الفقرة عن كلام ابن الأبار فى الحلة السيراء ، وقد نقلها ابن الخطيب فى الإحاطة . والعبارة الواردة بين حواصر لا توجد فى مخطوط الإحاطة ، ولكنها واردة فى مختصر الإحاطة المعروف باسم مركز الإحاطة لبدر الدين البشتكى ، وقد أورد نصها دوزى : Abbadidis, II, 141

وأقام يحكمها تابعاً لألفونسو المحارب ، ثم توفى فى سنة ٥٢٤/١١٣٠ وخلفه ابنه سيف الدولة أبو جعفر احمد بن عبد الملك بن هود الملقب بالمستنصر ، وظل على ولائه لألفونسو المحارب زمناً ، ثم اختلف معه ووقعت بينهما الحرب ، واستعان احمد المستنصر بن هود على ألفونسو المحارب بمنافسه ألفونسو رايمونديث ملك قشتاله الذى تسميه المراجع العربية بالسليطين ، فارتد طمع ألفونسو المحارب عن روطة ، ولكن احمد المستنصر بن هود أحس أنه عاجز عن الاستمرار فى المحافظة عليها فنزل عنها لملك قشتاله ، ومنحه هذا عوضاً عنها « نصف تطيلة » أو حصة من مدينة تطيلة[1] . كما تقول مراجعنا العربية ، والواقع أنه لم يعطه إلا بعض الأراضى المجاورة لطليطلة بصفة اقطاع ، فانتقل إليها .

وفى أثناء هذه الخلافات والحرب بين ألفونسو المحارب واحمد المستنصر بن هود ، وصل الحجارى إلى روطة ، ولم يكن هذا الجوّال الدائم الرحلة ليجد بلداً هو أقل من روطة أماناً ، فقد رأينا حال صاحبها مع جيرانه النصارى ، ويبدو أن المستنصر بن هود قربه وأحظاه ، لأنه خرج معه فى إحدى مواقعه مع ألفونسو المحارب ، ومن سوء الحظ أن المستنصر انهزم ، ووقع الحجارى أسيراً فنقلوه إلى بسقاية وهى بلاد البشكنسى حيث « بقى يحرك ابن هود بالأشعار ويحثه على تخليصه من الاسار ، فلم يُجْدِ عنده ذمامُه ولا تحرك له اهتمامه[2] » وهذا طبيعى ، فإن أحمد المستنصر بن هود نفسه كان فى حاجة إلى من يسعفه وينجده ، وقد آل أمره إلى التخلى عن معقله والمسير إلى بعض نواحى طليطلة والاستقرار بها تابعاً اقطاعياً صغيراً على ما قلناه .

فإذا بلغ به اليأس مبلغه من احمد المستنصر بن هود ذكر صاحبه القديم وراعيه عبد الملك بن سعيد فكتب إليه شعراً يستنجده فيه :

---

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، مخطوط ، ص ١٧١ وانظر بحثنا عن الثغر الأعلى الأندلسى وسقوط سرقسطة ، ص ١١٨

(٢) الإحاطة ، ص ٢٣٠

أصبحتُ فى بسقاية مسلَماً — إلى الأعادى ، لا أرى مسلِماً
مكلَّفاً ما ليس فى طاقتى — مصفداً منتهراً مُرْغَماً
أُطْلَبُ بالخدمة ، واحسرتى ! — وحالتى تقضى بأن أُخْدَما
فهل كريمٌ يُتَرَجَّى لها — إلاك يا أكرمهم[١] منتمى؟

وانتظر الحجارى أن يأتيه الفرج فلم يأت ، فعاد فكتب إلى عبد الملك ابن سعيد بشعر آخر « فاجتهد فى فدائه فلم يمر شهر إلا وهو قد تخلص من أسره ، واستقر لديه ، فكان طليق آل[٢] سعيد وفيهم يقول . . . » وهنا تنتهى أخبار الرجل ، فلا نعود نسمع عنه شيئاً .

وقد ذكر بونس بويجس أن عبد الله بن ابراهيم الحجارى ولد سنة ٥٠٠ وتوفى ٥٥٠ هـ . ولسنا نعلم مصدره الذى اعتمد عليه ، ومن الواضح أن هناك خطأ ظاهراً فى تاريخ ميلاده ، لأنه إذا كان قد غادر مدينة الفرج بعد استيلاء الفونسو المحارب عليها ، فلا بد أنه كان فى قيد الحياة وبل فى سن من يهاجر فى سنة ١٠٨٥/٤٨٧ ، فلو فرضنا أن سنه كانت عشرين سنة إذ ذاك فهو على هذا الحساب من مواليد ١٠٦٥/٤٦٧ أو نحوها ، أما وفاته سنة ١١٥٥/٥٥٠ فممكنة وإن كانت غير مؤكدة ، وقد عاش الرجل برهة قصيرة من عمره فى ظل عبد الملك بن سعيد ، وكان هذا هو الذى افتكه من الاسر ، وقد توفى هذا سنة ١١٩٤/٥٦٠

وإذن فقد عاش الحجارى حياة حَظُّها من الراحة والمتاع قليل ، فقد تشرد فى صدر شبابه عن وطنه واضطر إلى الالتجاء إلى شلب ، وفيها قضى سنوات طويلة يغلب أنها سنوات التحصيل والتكوين ثم التأليف ، فقد وردها بعد سقوط وادى الحجارة أى فى سنة ٤٧٩ أو ٤٨٠ ، وإذا صدق تقديرنا لتاريخ

---

(١) الإحاطة ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ و Abbadidis II, 142
(٢) نفس المرجعين السابقين .

ميلاده بسنة ٤٦٧ فتكون سنه عند ما دخل شلب ١٢ سنة ، ولم يبارحها إلى غرناطة إلا قبيل ٥٣٠ ، وهى السنة التى ورد فيها على عبد الملك بن سعيد ، وقد رأينا ابن الخطيب يقول إن عبد الملك بن سعيد لم يكد يعلم بوصول الحجارى إلى بابه ويعرف اسمه حتى أمر بإدخاله ورحب به ، مما يدل على أنه كان قد سمع به وبمكانه من العلم ، ثم إن على بن سعيد يصفه فى خطبة « المغرب » بأنه « جاحظ الأندلس » ، أى أن الحجارى كان من أهل العلم الواسع الذين يوصفون بلقب الحافظ ، وهذا ظاهر من فقرات كتابه التى بقيت لنا ، ثم يقول على بن سعيد : « وصنف له كتاب « المسهب فى غرائب المغرب » فى نحو ستة أسفار ، وابتدأ فيه من فتح الأندلس إلى التاريخ الذى ابتدأه فيه وهو سنة ثلاثين وخمسمائة[1] » ولا يفهم من هذه العبارة إلا أن المسهب كتاب تاريخ للأندلس خلال هذه الفترة الطويلة ، والفقرات الباقية بين أيدينا منه تدل على أنه لم يكن تاريخا صرفا ، بل تاريخ وجغرافية مع تراجم أدباء وشعراء وقطع مما أثر عنهم من النثر والشعر ، ومن هذه الفقرات أيضاً نستنتج أنه كان كتابا ضخما — « مسهبا » كما سماه — يقع فى أجزاء كثيرة يجعلها ابن سعيد ستة أو نحوها ، ومثل هذا الكتاب لا يؤلف فى عام ، والأغلب أنه وضعه فى أكثر من العام بكثير ، وأودعه علمه الواسع وما جمع وحفظ على مر السنين .

فلنلق نظرة على ما يتضمنه كلامه من هذه العناصر الثلاثة — التاريخ والجغرافية والأدب — حتى نعرف مكان الحجارى بين الجغرافيين والمؤرخين ، وإنصافاً له من الخمول الذى وقع فيه عند ما أرادت الظروف أن يتناول بنو سعيد كتابه بالتغيير والتبديل والزيادة والحذف ليظهر أخيراً باسم « المغرب فى حلى المغرب » .

---

(١) المقرى ، نفح الطيب ، ٣/٩٥

وتهمنا هنا الناحية الجغرافية : ينقل المقرى فى نفح الطيب فقرات كثيرة من مسهب الحجارى ، بعضها يتصل بالجغرافية العامة للأندلس وبعضها متصل بأوصاف المدن والنواحى وخواصها ؛ فأما ما يتصل منها بالجغرافية العامة فينفرد به المقرى ، وأما ما يتصل بالنواحى فنجده فى مغرب بنى سعيد ، كل فقرة فى موضعها من ترتيب الكتاب .

ونعتقد أن الفقرات الخاصة بالوصف الجغرافى العام للأندلس كانت أيضاً فى مغرب بنى سعيد ، فى الفصل الناقص من مخطوطته المنشورة المسمى « وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس » ، فإن ما لدينا من المغرب يبدأ بإمارة الحكم الربضى من الجزء المسمى « كتاب النغم المطربة فى حلى حضرة قرطبة » وقد نبه الدكتور شوقى ضيف ناشر الكتاب على ذلك فى التعليق رقم ١ من صفحة ٣٨ من النص المنشور بقوله : « بهذه الترجمة يبدأ الجزء الحادى عشر من كتاب المغرب ، فهى أول الأوراق التى بقيت من الأندلس فى النسخة التى ننشرها . وبينا فى المدخل أن الجزء العاشر من الكتاب فقد كله ، وهو أول الأجزاء الخاصة بالأندلس ، وفيه كانت المنصة وحديث واسع عن فضائل الأندلس ، ثم القسم الأول من التاج ، ويتضمن ولاة الأندلس الذين اتخذوا قرطبة حاضرتهم ، ثم عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، وفى النفح أكثر هذا الجزء ، نقله المقرى بنصه ، ولم نر إعادة نشره » ونعتقد أن الناقص من المخطوط الذى وصل إلينا هو كتاب وشى الطرس كله ومنصة كتاب الحلة المذهبة فى حلى مملكة قرطبة وجزء من « تاجها » .

وقد استعملت هنا مصطلحى المنصة والتاج مجاراة لبنى سعيد فى تنظيمهم الغريب للمغرب وهو كما يلى على وجه التقريب : المنصة وهى الوصف الجغرافى للناحية أو البلد والتاج وهو يتضمن ذكر حكامه من أمراء أو خلفاء أو سلاطين ووزراء وقواد وعمال وما إلى ذلك ، والسلك ويندرج تحته الكتاب والشعراء والحلة وهى تتضمن العلماء الذين ليس لهم نظم ولا نثر ، ولا ينبغى إهمال تراجمهم ،

والأهداب وهى مختصة بأصحاب فنون الهزل وما ينحو منحاه . وهذا كله مصطلح غريب لا ندرى إن كان صاحبه الحجارى أو بنى سعيد ، وإن كنا نستبعد أن يكون هذا تصور الحجارى الذى يوصف بالبداوة والخشونة ، ونستبعد أيضاً أن يكون من اختراع عبد الملك بن سعيد أو ابنيه أحمد ومحمد أو موسى ابن هذا الأخير ، ويغلب على الظن أنه من ابتكار على بن موسى بن سعيد فقد كان رجلا ذا غرام بالزينة اللفظيه وبهارجها ، ولا نبالغ إذا قلنا إن أحداً من مؤلفى العرب لم يبتكر من الأسامى المسجوعة المزركشة قدر ما ابتكر هذا « المصنف الأديب الرحال الطرفة الأخبارى العجيب الشأن » كما وصفه ابن الخطيب .

المهم لدينا أن الحجارى وضع أساس ذلك كله ، والأغلب أنه جعل كتابه قسمين : قسما للجغرافية وآخر للتاريخ ، وتحت التاريخ أدرج أخبار الأدب والأدباء والعلم والعلماء على طريقة سنراها بعد قليل .

فأما جغرافيته فكانت تحتوى على كلام عام عن صفة الأندلس وفضائله وهذا هو القسم الأكبر من الجزء الناقص من مخطوطة المغرب المنشورة ، وليس بغريب أن يكون هذا الجزء ناقصاً من مخطوطة وصلت إلينا بخط على بن سعيد نفسه ، لأن هذه كانت نسخة أولى أو مسودة ، عاد على بن سعيد فملأ فراغاتها وتممها فى نسخ أخرى لم تصل إلينا ، وقد اعتمد المقرى وغيره على بعض هذه النسخ الكاملة وأوردوا منها تلك النقول الطوال التى لا نجدها فى الأصل الذى بين يدينا .

ومن الفقرات التى نقلها المقرى نتبين أن القسم الأول العام من وصف الأندلس من كتاب الحجارى كان يمضى على نفس الخطوط التى مضى عليها الرازى والبكرى ومن أخذ عنهما ، فهو يذكر أن « طول الأندلس من الحاجز إلى المحيط ١٠٠٠ ميل وأن عرضها فى موسطها عند طليطلة ١٦ يوما » ثم يأخذ كلام الرازى وابن حيان عن أركان الجزيرة ، وفى القطعة التى لدينا يتدخل

ابن سعيد شارحا أو مفصلا أو مضيفا تفصيلات نقلها عن الإدريسى . ونستطيع أن نقول مثل ذلك عن بقية ما أورده المقرى منسوباً إلى ابن سعيد من الأوصاف العامة للأندلس ، فما كان منه منسوبا إلى مؤلفين سابقين على الحجارى أو غير منسوب أصلا فهو منقول عن كتاب الحجارى ، وما كان منه لمؤلفين بعد الحجارى كالإدريسى والشقندى وابن اليسع وأبى الفضل التيفاشى وغيرهم فهو من إضافات بنى سعيد ، أما ما ينسب إلى مؤلفين عاشوا بعد على بن سعيد فهو من جمع المقرى نفسه وتصنيفه .

وبعد هذا الوصف العام للأندلس يتحدث الحجارى فى مسهبه عن كور الأندلس كورة كورة ، وفى كل كورة يتحدث عن مدائنها وقراها وحصونها ، وهذه هى « المنصات » التى نجدها فى مغرب بنى سعيد ، وهى المقدمات الجغرافية التى يبدأون بها الكلام عن النواحى ، وهى كما تبدو فى المغرب لا تجرى على نظام واحد ، فهناك مدن كبار لا نجد فى وصفها غير سطر أو بعض سطر ، وهناك قرى أو أرباض نجد عنها الفقرات الطوال ، مثال ذلك أنهم يقولون عن مورور وكانت من أعظم كور الأندلس وأكثرها عمارة ومكانا : « ذكر الرازى أنها اشتملت على[1] فوائد كثيرة » وهى عبارة لا تقدم ولا تؤخر ، وعن أشونه : « من كور اشبيلية فيما بينها وبين[2] غرناطة » وهى عبارة غير صحيحة على قصرها ، فإن أشونة لم تكن كورة ، بل مدينه كبيرة ، وعن تاكُرُنَّا « هى كانت قصبة هذه الكور ثم خربت[3] » ثم يقولون عن طَرَيَانه وهى من ضواحى اشبيلية « هى مدينة ممتدة على شاطىء النهر الأعظم فى مقابلة النصف من حضرة اشبيلية ، وهى مسورة من جهة الصحراء (أى من جهة البر) وفيها الأسواق والحمامات الضخمة ، وقد بنيت على تاج مطل على النهر ، ومناظرها

(١) المغرب ، ٣١٢/١

(٢) المغرب ، ٣١٧/١

(٣) المغرب ، ٣٣٠/١

التى من جهة النهر سَنَّ فيها المعتمد بن عباد أن تبيض بالكلس ، لئلا تنبو العين عنها ، ومن لا ينهض إلى ذلك فيبنى من جهة الصحراء ، ولا يترك يبنى من جهة النهر ، فجاءت بديعة فتانة المنظر ، أكثر شراجيبها (أى شرفاتها) منقوشة مذهبة تخطف الأبصار ، ويكون فيها من أصناف الطرب فى الليالى القمرية ما هو مشهور فى[١] البلاد » أما عن شذونة ، وهى كورة كبيرة فيقولون : « من أجل كور اشبيلية محرثا وشجراً ومياهاً وماشية ، وهى إلى جانب[٢] البحر المحيط » وهى عبارة عامة لا تحديد فيها وفيها خطأ واضح أيضاً ، فى حين يقولون عن حصن العُقْبين وهو حصن صغير من توابع قلعة بنى سعيد : « حصن من حصون القلعة على وادى فُرجة ونضارة ، أخبرنى والدى أنه كان كثيراً ما يلم به للصيد فى صباه مع أقاربه وأصحابه ، وكان لهم على الوادى قصر جرّوا فيه ذيول الصبا ، وهبوا فى جنباته هبوب الصبا[٣] . . . » والسبب فى ذلك التفاوت والتناقض أن بنى سعيد ، وخاصة آخرهم عليّاً ، حوروا المادة الجغرافية التى أخذوها عن الحجارى إلى شىء نستطيع أن نسميه الجغرافية الأدبية أو الفكرية ، فأهمية البلد أو الموضع لا تتوقف عندهم على خصائصه الجغرافية ، بل على من أنجب من الأدباء والشعراء وأهل العلم ، فرب بلد كبير لم ينجب فى رأيهم من هؤلاء ما لا يستحق به إلا سطراً من الوصف ، ورب ضاحية من بلد انجبت عدداً عظيما منهم ، فاستحقت لهذا وصفا طويلا ، وهذا الطول فى الوصف لا يتناول الخصائص الجغرافية الحقيقية ، بل تلك الخصائص التى تهم الكتاب والشعراء : المناظر الجميلة والأنهار وأماكن الفرجة والنزهة وما إليها مما كان يعتبر مواضع للإلهام الأدبى والشعرى .

---

(١) المغرب : ١/١٩٣
(٢) المغرب : ١/٣٠١
(٣) المغرب : ٢/١٨٥

ولكننا نستطيع أن نتبين من المواد التى بقيت كما كتبها الحجارى أن طريقته تتلخص فى الاتيان بشىء من وصف البلد من الرازى أو ابن حيان (نقلا عن الرازى) وغيرهما ، ثم يورد ما لديه من المعلومات ، وهذه المعلومات على جانب كبير من الأهمية لأنها تعطينا فكرة عن أحوال هذه البلاد وأوضاعها الجغرافية فى الوقت الذى كتب الحجارى فيه ، وهو سنة ٥٣٠/١٠٣٥—١٠٣٦ وما بعدها بقليل . حقيقة أن بنى سعيد غيروا وبدلوا فيما كتب الحجارى ، وأضافوا من عندهم أشياء كثيرة ، ولكننا نستطيع بالرجوع إلى تواريخ الحوادث أن نفرق بين ما وقع إلى أيام الحجارى ، وما جد بعدها ، وعلى أى حال فإن الصورة الجغرافية للأندلس كما تبدو فى كتاب المغرب هى صورته خلال النصف الثانى من القرن السادس الهجرى على وجه التقريب ، فإن ميزان القوى بين الإسلام والنصرانية فى الأندلس لم يختلف كثيراً خلال القرن السادس الهجرى . إنما وقع الاضطراب الشديد بعد موقعة العقاب سنة ٦١٩/١٢١٢ وكان على بن سعيد قد غادر الأندلس ، ولم يدخل على الكتاب من هذه الناحية الجغرافية تعديل على ما أثبته أبوه موسى .

ومن الواضح أن هيكل كتاب المغرب هو نفس الهيكل الذى وضعه الحجارى للمسهب ، فإن على بن سعيد لم يقل إن جده عبد الملك أعاد تنظيم الكتاب ، بل قال بعد أن ذكر تأليف الحجارى للمسهب : « ثم ثار فى خاطر عبد الملك (ابن سعيد) أن يضيف إليه ما أغفله الحجارى ، وتولع بمطالعته ابناه أبو جعفر ومحمد ، وأضافا له ما استفاداه ، ولم يزل يزيد إلى أن استبد به محمد ، فاعتنى به أشد اعتناء ، ثم استبد به والدى . وكان أعلمهم بهذا الشأن . . . » وليس فى هذا كله إشارة إلى وضع نظام جديد للكتاب ، بل مجرد زيادات وإضافات ، والواقع أن تصنيف هذا الكتاب على أساس التوزيع الجغرافى للأعلام وأهل الأدب شىء طريف مبتكر ، فهو أشبه بخريطة أدبية للأندلس إلى أيام موسى بن سعيد ، وهنا موضع الأهمية بالنسبة لبحثنا

هذا ، وما دام الكتاب يشير إلى ما أصاب كل بلد يذكره إلى أيام موسى بن سعيد فأمامنا خريطة جغرافية للأندلس فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى والنصف الأول من السابع ، وهى وثيقة ذات قيمة عظمى فى هذا الشأن .

وإذا كنا قد انتهينا إلى أن الحجارى هو صاحب الفضل فى رسم هذه الخريطة ، وأن بنى سعيد لم يفعلوا أكثر من تجويدها وإكمالها وإضافة ما فات الحجارى من الأعلام فى هذه الناحية أو تلك أو ما سقط من البلاد فى يد النصارى بعد أيام الحجارى فلنأخذ كلام على بن سعيد فى مقدمة « المشرق فى حلى المشرق » شارحاً لمنهجه فى تأليفه على أنه شرح للطريقة التى رسمها الحجارى لتأليف « المسهب » فهو يقول : « كل من التصنيفين مرتب على البلاد ، متى ذُكِر بَلَدٌ ذَكَرْتُ كُوره ، وأتكلم عليه وعلى كل كورة منه ، وابتدىء بكرسى مملكتها وقاعدة ولايتها بحسب مبلغ [علمى] من إعلام بمكانها من الأقاليم ، ومن بناها وما يحف بها من نهر أو منزه أو خاصة معدنية ونباتية ، ومن تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التى لا يجب إغفالها ، ثم نأخذ فى الطبقات واحدة بعد أخرى ، وهى خمس . . . »[١] أى أن خطة الكتاب الأساسية هى أن يكون كتاب تقسيم جغرافى أولا وعلى هذا الأساس الجغرافى يقوم كل شىء بعد ذلك ، وهذا طبيعى من رجل رحالة طلعة مثل الحجارى .

ولكن الحجارى لم يضع هذا التقسيم الجغرافى على أساس الأوضاع الجغرافية السياسية الخاصة بأيامه ، بل وضعه على أساس أقسام الأندلس الكبير بحدوده أيام الخلافة ، وهو معذور فى ذلك ، إذ أنه لو اقتصر على أندلس القرن السادس لأسقط أدباء وعلماء كثيرين ينتسبون إلى نواح كانت قد ضاعت فى

(١) رواه الدكتور شوقى ضيف فى مقدمة تحقيقه المشكور للمغرب : ١/٩

ذلك الحين ، ولا نلاحظ عنده من معالم التقسيم الجغرافى الذى جَدَّ بعد سقوط الخلافة إلا تقسيمه الأندلس إلى موسطة وشرق وغرب ، وهو تقسيم ظهر أولا عند ابن بسام ، وهو تقسيم نظرى صرف ، أى لم تكن تقابله حقيقة سياسية ، ويبدو أن المرابطين اتخذوه أساساً فى التعيينات فى الوظائف الكبرى ، فمن الثابت أنه كان لهم قائد لجيوشهم فى شرق الأندلس ، وقاضى قضاة خاص بهذا القسم ، ولسنا متيقنين مما إذا كان هناك قائد أو قاضى قضاة للغرب أو الموسطة ، فذلك رهين بالعثور على أصول لتاريخ المرابطين أوسع وأدق ما لدينا . وقد عوضنا الحجارى عن إهماله للوضع فى أيامه بملاحظات طيبة أضافها إلى ما نقل من الأوصاف الجغرافية عن القدماء ، ثم أكملها بنو سعيد وهى ملاحظات تعين على تصور الأوضاع فى منتصف القرن السادس وأوائل السابع الهجريين ، فنحن نقرأ مثلا عن رندة مثلا : « كورة خصبة ، كانت أولا من كور قرطبة ثم صارت فى الأخير من كور اشبيلية وفيها مزارع القطن كثيرة »[(١)] وعن رَمَادَه : « إنها من قرى شلب »[(٢)] وعن قرية الزاوية : إنها « من أعمال أونبة وينسب إليها بنو حزم »[(٣)] ويضيف على بن سعيد فى بعض الأحيان إلى مصطلحه القائم على حلية العروس (المنصة ، التاج ، السلك . . . الخ) مصطلحاً يسميه « البساط » وهو يريد البساط الذى تمشى عليه العروس حين زفافها ، والمقصود به هنا زمام البلد ، فيقول مثلا فى بساط أونبة : « غرب من مدينة لبلة إلى جهة البحر ، وهى قاعدة عملها »[(٤)] .

وبهذه المناسبة نذكر أن المصطلحات الإدارية التى تستعمل فى ذلك الكتاب اعتبارية صرفة لا يمكن التعويل عليها ، فهو لا يستعمل فى دقة مصطلحات

(١) المغرب : ١/٣١٠
(٢) نفس المصدر : ١/٣٩٢
(٣) نفس المصدر : ١/٣٥٤
(٤) نفس المصدر : ١/٣٣٩

مثل كورة ومملكة وقرية وحصن ، وقد حاولت أن أتبين له قاعدة فى هذه الناحية فلم أستطع ، وقد كان من المنتظر من رجال تولوا القيادة والحكم والإدارة كعبد الملك بن سعيد وموسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد أن يضيفوا ما فات الحجارى الأديب فى هذه الناحية ، ولكن يبدو أن النزعة الأدبية غلبت على ما عداها فى تصنيف ذلك الكتاب ، ومن ثم فقد استعملت الألفاظ بمعانيها الأدبية لا الإدارية ، وليس أدل على ذلك من قولهم عن بلد مثل شلب « هى[1] عروس » ويريدون أنها قاعدة لها زمام وتوابع ، ومثل ذلك قولهم عن كثير من المواضع ، أنها « حالية » والمراد عروس حالية لها منصة وتاج وسلك وحلة وأهداب .

والخلاصة أن الحجارى فى مسهبه أضاف تفصيلات جغرافية كثيرة إلى ما وجدناه عند سابقيه من الجغرافيين ، وإضافاته نتيجة مشاهداته وملاحظاته ، فقد كان رحالة طلعة زار جانباً كبيراً من نواحى الأندلس وأثبت بعض ما رأى ، وهو لا يصل فى هذه الناحية إلى شأو العذرى ، ولا يقارن بمعاصره الشريف الإدريسى ، ولكن دارس جغرافية الأندلس الإسلامى لابد أن يجمع ملاحظاته وإضافاته كلها معاً حتى تكتمل لديه الصورة التى يريد رسمها .

وحسب الحجارى أنه حدد معالم ما سميناه بالجغرافية الأدبية أو الفكرية وسار بها شوطاً بعيداً نحو الجغرافية بعد أن كان ابن بسام قد بدأ بها على أنها مجرد تقسيم للتسهيل والتيسير . وإذا كنا نجمع أطراف ما لدينا من جغرافية الرازى فإن مسهب الحجارى يعتبر من المراجع الرئيسية لهذه الجغرافية . ولو أننا وجدنا الفصل الأول من مغرب بنى سعيد المسمى « وشى الطرس فى حلى جزيرة الأندلس » لاستطعنا أن نعطى صورة أوفى عن الحجارى الجغرافى ، ولو أن بنى سعيد تركوا كلامه على حاله ثم أضافوا ما أرادوا لكان ذلك أشبه بمقام الرجل

---

(١) المغرب : ١/٣٨٠

وأقرب إلى إنصافه ، ولكنه رغم ذلك كله يحتل مكانا مرموقاً فى تاريخ الجغرافية فى الأندلس .

وقد أطلت الوقوف عند عبد الله بن ابراهيم الحجارى ، لأنه باعتراف بنى سعيد أنفسهم صاحب الفضل الأول فى كتابهم المشهور الذى يعتبر من أحسن ما لدينا من المراجع عن تاريخ الأندلس وحضارته ، وقد كانت مشاركتهم إياه فى كتابه داعية إلى التقليل من شأنه ومن مكانه فى تاريخ الفكر الأندلسى ، مع أنه كما رأينا صاحب طريقة ومنهج ومبتدعُ لون طريف من ألوان التأليف الجغرافى والتاريخى والأدبى فى الأندلس .

حسين مؤنس

بقية البحث فى المجلد القادم

الكُتُب : نقدٌ وعرضٌ

أحمد بن يحيي بن جابر المعروف بالبلاذري : أنساب الاشراف (الجزء الأول) بتحقيق الدكتور محمد حميد الله ، يخرجه معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك مع دار المعارف بمصر (القاهرة ١٩٦٠)

من أظهر مميزات حركة نشر المخطوطات فى أيامنا اهتمام العرب بإخراج أصول تاريخهم وثقافتهم إلى النور فى طبعات تختلف حظوظها من التحقيق العلمى بحسب حظوظ القائمين على نشرها من التكوين العلمى ومن الشعور بمسئولية الناشر تجاه العلم الذى يخدمه أو يستخدمه . ومهما اختلفت آراؤنا حول نصيب الأصل المنشور من التحقيق العلمى أو نصيب صاحبه من الشعور بهذه المسئولية ، فإننا نحمد الله على كل أصل يُيَسَّر لنا ، ونحمد لصاحبه ما تكلف من جهد كبير أو يسير فى خدمة النص ، فكم من أصل نشره صاحبه متعجلا أو مخففاً عن نفسه كل مئونة أو غير محيط بما ينبغى للنشر من أدوات ومع ذلك فقد انتفع به الناس رغم ما عانوه فى تصويب أخطائه وتقويم عباراته ، فقد يسره الناشر لهم على كل حال . ومن ثم فلسنا ممن يقسون على الناشرين فى النقد ، ولا نرى رأى الذين يسنون أقلامهم كأنها السهام ثم يصوبونها إلى الناشر كأن بينه وبينهم ثأراً ، اللهم إلا إذا كان الناشر مستخفاً ظاهر الاستخفاف أو مدلساً ظاهر التدليس أو متلاعباً بالأصل على هواه ، وهؤلاء فى واقع الأمر قليلون جداً ، ومن ثم فنحن نحمد لكل صاحب جهد جهده ،

ونقدر الطبعة التى بين أيدينا بحساب ما أصاب الناشر قبل أن نلومه على ما أخطأ . ونشر المخطوطات محنة لا يعرف متاعبها إلا من عاناها ، وليس فى الأعمال العلمية ما يكلف صاحبه أكبر المتاعب ثم لا يعود عليه بغير اللوم مثل نشر المخطوطات . ومن قام على النشر أولى بالتقدير ممن لم يعرض نفسه لمتاعبه ، ولسنا قضاة يساق إلينا متهمون ، وإنما نحن أهل علم نتعاون على القيام بحقه كل على قدر طاقته ، ومن زعم منا أن عمله كامل لا يأتيه الخطأ فقد ظلم نفسه .

والرأى فى حركة نشر المخطوطات فى بلادنا اليوم أنها جهد كبير بَنَّاء يتعاون فيه أبناء العرب جميعاً على حظوظ متساوية فى جميع بلاد العرب ، فمن عواصم المغرب العربى إلى العراق وإمارات الخليج يقوم العلماء على نشر الأصول فى همة تدل على وعى عربى عام وعلى شعور مبارك بقيمة التراث العربى المجيد الذى وصل إلينا وعلينا أن ننفض عنه غبار القرون ونجدده ونبعثه إلى الحياة ونبنى عليه . ومن الواضح أن النشر اليوم أقرب إلى منهج العلم وخلقه مما كان ينشر قبل عشرين سنة مثلا . وأن الكثير جداً مما ينشر اليوم جيِّد علمى محقق تحقيقاً يدل على معرفة وقدرة وصبر . ومن الواضح كذلك أن حركة نشر الأصول قد انتقلت إلى أيدى العرب بعد أن كان القائمون بالنشر العلمى الصحيح هم المستشرقون وحدهم . وذلك فى ذاته أمر له قيمته ودلالته .

ومن أجود ما أخرجته المطابع العربية أخيراً ذلك الجزء الأول من أنساب الاشراف للبلاذرى ، ولم يكن قد نشر من ذلك الأصل العظيم إلا بضع قطع لم ينتفع منها إلا القليلون ، حتى نهض بالأمر الأستاذ الدكتور محمد حميد الله على أساس مخطوطة محفوظة بمكتبة عاشر أفندى بالاستانة وصورتها دار الكتب فى القاهرة فى ٢٤٥٤ صفحة تقع فى اثنى عشر مجلداً وهى مخطوطة حديثة بعض الشىء إذ فُرغ من نسخها سنة ١١٢٣ هجرية ، ولكنها ترجع إلى أصل مخطوط قديم كتب فى مصر بين سنتى ٣٩١ و ٣٩٥ هجرية . وقد درس الناشر هذا

الأصل دراسة جيدة وانتهى إلى التحقق من أن تواتر النسخ لم يغير من الأصل القديم شيئاً .

وقد قدم الدكتور محمد حميد الله لذلك الجزء الأول بمقدمة طيبة عن البلاذرى ومؤلفاته وكتاب أنساب الاشراف والمقصود بلفظ الاشراف ، ودرس فيها النسخة التى حققها . وبعد المقدمة أورد فهرساً مفصلا بمحتويات كتاب أنساب الاشراف كله ، وهو فهرس جيد عظيم الفائدة .

وهذا الجزء الأول يتناول السيرة النبوية الكريمة فى تفصيل واف غزير الفائدة على طريقة البلاذرى ، وهى إيراد كل خبر من الأخبار فى شتى الصور التى وصلت إليه مع أسانيدها على طريقة المحدثين ، وهى طريقة أصيلة تعين على تحقيق الأخبار عن طريق مقارنة الروايات المختلفة بعضها ببعض . والبلاذرى لا يناقش خبراً ولا يعلق على خبر ، وإنما هو يسرد ما وصل إليه تاركاً القارىء يختار ما يحب . وقد يعاب هذا على البلاذرى ، لأنه بحكم العصر الذى عاش فيه كان حقيقاً بأن يعرف أقدار رجال الرواية التاريخية كما عرف المحدثون أقدار رجال الأثر ، ومن ثم فإن قارئه لا يستبين قيم الروايات التى يوردها إلا بما يعرفه عن أصحابها أو بما يتبين له من مقارنة بعضها ببعض ، ولكن هذه الطريقة فى ذاتها لها محاسنها ، خاصة إذا جرى عليها رجل ثقة معروف بالأمانة والتدقيق مثل البلاذرى .

وقد حقق النص الدكتور حميد الله تحقيقاً ممتازاً ، فراجع كل اسم علم أو خبر على الأصول ، وراجع النقول على أصولها ما تيسر له ذلك ، وأشار فى هوامشه إلى مواضع المراجعة ، وإن كان قد رسم أسماء بعض المؤلفين على نحو غير مقبول ، كقوله ابن كلبى (ص ١٥ ه ٣) يريد ابن الكلبى . وضبط الأعلام جميعاً بالشكل ، وشكل كذلك الضرورى من ألفاظ الأبيات . كل ذلك دون تكلف أو تحميل للحواشى بتعليقات كثيرة . وقد أحسن إذ ميز عناوين الفقرات تمييزاً واضحاً ، وأخذ فى بعض الأحيان أول عبارة من الفقرة فجعلها عنواناً ،

وهو مذهب جيد . ووضع للفقرات أرقاماً تيسيراً للمراجعة . وذيل النص بفهرس واحد واف بالغرض .

وبفضل هذا الجهد المشكور أصبح هذا النص القيم فى متناول الباحثين ، وقد أفدت منه فائدة كبرى سواء فيما يتصل بما قبل الإسلام أو بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم . ونرجو أن يعين الله الدكتور محمد حميد الله على بقية الكتاب ، فهو من أعظم مراجع تاريخنا ولا يستغنى عن الرجوع إليه باحث .

أبو نصر الفارابى : فصول المدنى . قام على تحقيقه وترجمته إلى اللغة الانجليزية مع مقدمة وشروح ضافية د. م. دنلوب أستاذ التاريخ الاسلامى بجامعة كيمبردج . مطبعة جامعة كيمبردج ١٩٦١

الأستاذ دنلوب من أعلام المستشرقين الانجليز اليوم ، وهو يتناول فى دراسته كل نواحى الفكر العربى والإسلامى معالجة متئدة صبوراً ، فلا ينشر شيئاً إلا بعد دراسة طويلة وترديد متصل للنظر فيما يكتبه أو يحققه ، ومن ثم فإن دراساته تمتاز بالعمق والاتقان . وهذا النص الذى يقدمه فى هذا الكتاب وثيقة رائعة مما كتبه أبو نصر الفارابى فى نفس المعنى الذى كتب فيه رسالته المعروفة « المدينة الفاضلة » .

وقد عالج المؤلف فى المقدمة موضوع تاريخ التأليف فى السياسة عند المسلمين وناقش آراء جرجى زيدان . و ح . شروانى ومارتن بلسنر وكارل بروكلمان فى أقدم مؤلف فى ذلك الفن عند العرب . واعتقد أننا فى دراسة تاريخ هذا الفن عندنا ينبغى أن نفرق بين اتجاهين يختلف أحدهما عن الآخر تمام الاختلاف : الأول الاتجاه الاسلامى الخالص الذى يعالج موضوع سياسة الحكم وواجبات الحكام وحقوقهم وواجبات الرعية وحقوقها على أساس آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية والمأثور من أقوال السلف الصالح ، وقد سار هذا الاتجاه

مستقلا بنفسه وتطور دون مؤثرات غير اسلامية حتى نصل إلى أمهات هذا الفن مثل كتاب التبر المسبوك لأبى حامد الغزالى وسراج الملوك للطرطوشى وما ماثلها ، والثانى اتجاه نابع مما ترجم إلى العربية من كتب الهند والفرس واليونان فى السياسة ، وهو الذى سار فيه الفارابى ومن سار على آثاره .

وقد التقى الاتجاهان فيما بعد عند بعض من تعرضوا للتأليف فى الموضوع مثل ابن خلدون ، وذلك ظاهر فى مقدمته .

ومؤلفات الاتجاه الأول أقرب إلى كتب الفقه والمواعظ ، أى أنها مؤلفات فقهية وعظية ، وأما مؤلفات الاتجاه الثانى فأقرب إلى كتب الفلسفة ، وهى فى أسلوبها وطريقة علاجها تدخل فى نطاق الدراسات الفلسفية عند المسلمين .

ويتجلى ذلك بصورة واضحة عند الفارابى ، فإنه يكتب على طريقة الفلاسفة متأثراً أشد التأثير بما ترجم إلى العربية من كتب افلاطون حتى إن المصطلح الذى يستعمله وصياغة العبارات وطريقة التفكير تبدو للقارىء وكأنها مترجمات عن اليونانية . وبينما نجد أصحاب الاتجاه الاسلامى الصرف يخاطبون القلب والعاطفة نجد أصحاب الاتجاه الفلسفى يخاطبون العقل ويعتمدون على المنطق ، فالفارابى يهتم بالتعريفات والتقسيمات والمقارنات بين تكوين المدينة — ويريد بها الدولة والمجتمع — وأعضاء « بدن الإنسان » ؛ وتعريفاته كثيرة بعضها واضح وبعضها لا يفهم إلا على ضوء الأصول العربية وغير العربية التى اعتمد عليها فى وضعها ، وبعضها كذلك سقيم ، والسبب فى ذلك حرصه على أن يعرف كل شىء ، والتعريفات فى ذاتها عسيرة .

وابتداء من الفقرة الثالثة والخمسين (بحسب ترقيم الناشر ، ص ١٣٦) يبدأ الفارابى فى الكلام على المدينة الفاضلة وأهلها وأقسامهم وواجباتهم وشروط كل منهم . وفى الفقرة الرابعة والخمسين يتحدث عن حكومة المدينة الفاضلة فى رأيه ، وهو هنا يتحدث عن نظام المُلْكِ المعروف ونظام « رئاسة الأفاضل » أى جماعة من الناس تدير شئون المدينة ، وهو مفهوم أخذه عن أفلاطون

ثم يسترسل فى الكلام عن أجزاء المدينة ومراتب أجزائها وعن العدل (فقرة ٥٨ ص ١٤١) وهو « يكون أولا فى قسمة الخيرات المشتركة التى لأهل المدينة على جميعهم ، ثم بعد ذلك فى حفظ ما قسم عليهم ، وتلك الخيرات هى السلامة والأموال والكرامة والمراتب وسائر الخيرات التى يمكن أن يشتركوا فيها » وكلامه هنا غاية فى الامتاع والتسلسل المنطقى والوضوح ، ولا يتسع المقام لعرض بقية فصول هذه الرسالة الممتعة ، فهى فى الواقع من أحسن ما كتب المسلمون فى التنظيم السياسى والاجتماعى .

وقد قام الأستاذ دنلوب بتحقيق النص تحقيقاً دقيقاً سليما على مخطوطتين جيدتين ، وبين مواضع الخلاف بين الأصلين فى الهامش بوضوح تام . وترجمته الانجليزية دقيقة ناصعة وهى فى الحقيقة شرح لكلام أبى نصر الفارابى . وقد ذيل النص بفهرس للألفاظ الاصطلاحية والأعلام ، وهو فهرس جيد جدا عظيم الفائدة . ولما كان الكتاب قد ترجم قبل القرن الخامس عشر الميلادى إلى اللغة العبرية فقد ختم الناشر الكتاب ببيان مقارن لنقط الخلاف بين الأصل العربى والترجمة العبرية .

ولا يسعنا إلا أن نشكر للأستاذ دنلوب هذا الجهد الذى بذله وتلك الخدمة التى أداها للتراث العربى الفكرى بتحقيقه هذا الأصل ونشره على ذلك النحو الفريد .

Hans Wehr, *Arabisches Wörterbuch für die Schriftsprache der Gegenwart*. Dritte unveränderte Auflage. (Veb. Otto Harrassowitz) Leipzig, 1958

هانز فير : قاموس للغة الكتابة العربية المعاصرة . الطبعة الثالثة (دار أوتو هارامسوفيتش للنشر) لايبسيج ١٩٥٨

هذا أضخم عمل تم فى ميدان المعاجم العربية فى الغرب فى أيامنا هذه ، وهو دون شك يفوق من ناحية القيمة والدقة العلمية كل ما ظهر فى هذا الباب فى الغرب من أوائل هذا القرن .

وهذا القاموس يعرض الألفاظ المستعملة فى لغة الكتابة والخطابة والاذاعة فى العالم العربى كله ومعانيها التى تستعمل فيها اليوم فى كل بلد عربى . ولكن الأساس هو المصطلح المستعمل فى مصر ، لأنه أوسع من غيره شيوعاً فى العالم العربى كله .

وهذا الطراز من القواميس يقوم على عملية إحصاء للكلمات المستعملة فى الصحف والمؤلفات الأدبية الذائعة والتقاويم الرسمية والاذاعات ، ففى إعداد هذا القاموس راجع هانز فير أعداد الصحف المصرية جميعاً ابتداء من سنة ١٩٢٠ على الأغلب ومؤلفات طه حسين ومحمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم ومحمود تيمور ومصطفى لطفى المنفلوطى وجبران خليل جبران وأمين الريحانى ، وكذلك « تقويم مصر » و « دليل العراق » سنة فسنة ، ومضى يقيد فى بطاقات كل كلمة يقرؤها ومعناها الذى استعملت فيه ، حتى اجتمعت له ٤٥٠٠٠ بطاقة هى مادة ذلك القاموس . وقد ظهر القاموس أول مرة سنة ١٩٤٧ ثم أعيد طبعه مرتين ، وحرص المؤلف من ذلك الحين على إصدار ضمائم (جمع ضميمة) تضم الكلمات الجديدة أو المعانى الجديدة للكلمات بعد صدور طبعة ١٩٥٨ . وقد تولى الأستاذ كووان الأمريكى ترجمة القاموس إلى الانجليزية ، وظهرت الترجمة أوائل هذا العام ، وقد أحسن كووان إذ أدخل مادة الضمائم فى صلب القاموس .

ونحن العرب لا نهتم بالألفاظ الجديدة التى تدخل لغتنا المستعملة اليوم أو المعانى الجديدة التى تنضاف إليها مع الاستعمال والزمن ، ونحسب أننا نستعمل اللغة كما كان يستعملها الماضون ، وذلك لأن الألفاظ الجديدة والمعانى الجديدة تفرض نفسها علينا وتدخل فى صلب اللغة دون أن ندرى ، ولعل سابقينا أيضاً لم يشعروا كيف دخلت مئات من الكلمات غير العربية لغتهم وجرت فى الاستعمال وتعربت حتى أصبح من العسير مع الزمن تبين أصولها غير العربية ، ومثال ذلك لفظ شرطة الذى لا يشك عربى فى أنه أصيل ، وهو لاتينى من Securitas وقصر (Castro) وبلاط (Palatium) وسدره (Sedera = نجم) ونوتى (Nauta = ملاح) وقاموس (Oceanus) وغيرها كثير ، وهذا بخلاف ما تبين العرب أنفسهم أنه دخيل ونبهوا عليه فى كتب كثيرة مثل كتاب الجواليقى فى المعرب والدخيل . وكذلك الحال فى لغتنا اليوم ، فإن تيار الدخيل مستمر وجارف ، وقد ننكره ولكننا نستعمله ، ومع الزمن يضعف الاستنكار وتكتسب الكلمات أو معانيها الحديثة حق المواطنة وتصبح عربية .

ويتجلى ذلك عندما نقرأ مواد قاموس هانز فير ، فإننا نقرأ تحت لفظ بدل : بدل سفرية وبدل جراية وبدل اشتراك وبدل تمثيل ، وتحت لفظ « تحت » : تحت التحضير ، تحت التجربة ، تحت الحفظ ، تحت السداد ، تحت التسوية ، تحت الاشراف ، تحت التصرف ، تحت الطبع ، تحت التمرين . . . الخ ونقرأ تحت تيار : تيار مباشر ، تيار مستمر ، تيار متناوب ، تيار متغير ، تيار سريع ، تيار بطىء التردد ، تيار عالى الجهد ، تيار ذاتى . . . الخ وكلها استعمالات جديدة ذات معان جديدة وقد أصبحت جارية فى الاستعمال وجزءً من اللغة ، ومن ثم فلا بد من تسجيلها فى القواميس .

وقد بسط الأستاذ هانز فير آراءه فى تطور لغة الكتابة العربية فى مقال مفيد جداً نشره فى المجلد ٩٧ (١٩٤٣) من مجلة جمعية المستشرقين الألمان عنوانه :

Entwicklung und traditionelle Pflege der arabischen Schriftsprache in der Gegenwart (Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft, Bd. 97, 1943, S. 16—46)

إن قاموس الأستاذ هانز فير ليس قاموساً عربياً — ألمانياً فحسب ، بل هو قاموس للغة العربية التى نستعملها اليوم وإن كانت المعانى قد أعطيت بالألمانية ، ومن أسف أن الجزء الأول الذى صدر من القاموس الوسيط الذى ينشره المجمع اللغوى فى القاهرة لم يصل إلينا حتى نستطيع المقارنة ونبين وجوه الشبه والاختلاف . ولكننا نستلفت هنا نظر علماء العرب إلى هذا القاموس الجليل وفائدته الكبرى ، ويستطيع من لا يعرف الألمانية منهم أن يرجع إلى ترجمة كووان فهى ترجمة صحيحة راجعها وأقرها المؤلف .

الدكتور ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية
(مكتبة الدراسات الأدبية . دار المعارف بمصر) القاهرة ١٩٥٦

هذا الكتاب من أحسن ما قرأت من الأبحاث والدراسات الأصيلة فى تاريخ العرب قبل الإسلام . فمع أنه دراسة أدبية فى صميمها إلا أن قيمته للمؤرخ لا تقل عن قيمته للأدب ، لأن الشعر الجاهلى أوثق مراجعنا عن تاريخ الجاهليين ونظام حياتهم وحضارتهم . ومن حسن الحظ أن الدكتور ناصر الدين الأسد دخل الموضوع من بابه الواسع ، فوضع المشاكل الرئيسية كلها موضع البحث الدقيق ، وقرأ قراءة مستفيضة وعرف كيف ينتفع بما قرأ أحسن انتفاع ، فجاءت دراسته لهذا حافلة بالخير والفائدة . ومن أحسن فصول كتابه تلك التى خصصها لبحث موضوع اصالة الشعر الجاهلى ، فقد تناول الأصول الأولى بالدرس العميق ثم عرض آراء المستشرقين فى النحل والوضع فى الشعر الجاهلى ووقف طويلا عند آراء الباحثين المحدثين من العرب وخاصة آراء

طه حسين ومصطفى صادق الرافعى ، ثم درس رجال الرواية الأدبية واحداً واحداً ثم تناول الدواوين المفردة بالبحث وقصر كلامه على ديوانى امرىء القيس وزهير بن أبى سلمى ، ونعتقد أن هناك دواوين أخرى كان ينبغى أن توضع موضع الدرس هنا لا لقيمتها الأدبية والتاريخية فحسب ، بل لأن دراستها تعين على حل كثير من المشاكل الخاصة بأصول الشعر الجاهلى ، مثال ذلك ديوانا عروة ابن الورد وعبيد بن الأبرص وغيرهما . وقد لاحظت فى دراستى أن ديوانى عروة وعبيد أدل على حقائق حياة الجاهليين وأعون للباحث على تعرف ناحية الاصالة والوضع من ديوانى امرىء القيس وزهير ، وهذا الأخير بالذات يندر أن تقرأ فيه قصيدة دون أن يترامى إلى نفسك الشك فى اصالة بعض أبياتها .

وقد أعجبنى بصفة خاصة الفصل القيم الذى أداره المؤلف على انتشار الكتابة بين العرب فى العصر الجاهلى ، فهو على إجماله أوفى وأحسن ما قرأت فى العربية فى ذلك الموضوع ، فقد عرض نصوص النقوش التى عثر الباحثون عليها وتتبع تطور الكتابة العربية حتى ظهور الإسلام ، وكشف عن حقيقة كبرى جديرة بأن تستلفت أنظـار مؤرخينا ، وهى أثر قريش وأهل مكة عامة فى تطوير الكتابة العربية ، فإن قريشاً كما أنشأت اللهجة العربية التى عمت الجزيرة العربية وأصبحت عربيتنا التى نستعملها إلى اليوم فكذلك طورت الكتابة العربية ووضعتها فى أول الطريق الذى انتهى بها إلى صورها المعروفة .

وبعد فهذا كتاب جيد لا يستغنى عن النظر فيه مؤرخ أو مشتغل بالأدب العربى ، فإن المشاكل التى تعرض لها مشاكل كبرى لا يستقيم التأريخ لفكرنا إلا إذا وضعت موضع البحث الطويل ، والحلول التى وصل إليها الدكتور الأسد حلول سليمة نافعة قائمــة على البرهان والمنطق . وقد انتفعت انتفاعاً عظيما بكل فصل فيه .

الدكتور نبيه أمين فارس : دراسات عربية (دار العلم للملايين) بيروت ١٩٥٧

الدكتور نبيه أمين فارس مفكر وباحث عربى موسوعى الذهن ، فهو مؤرخ أديب وناقد وعالم اجتماعى لا تقرأ له شيئاً إلا أحسست بعمق وشمول واتجاه إنسانى يضعه فى الطبقة الأولى من مفكرى العرب المعاصرين .

وقد أجاد الدكتور نبيه أمين فارس فن المقالة العلمية القصيرة التى تجمل فى صفحات قليلة ما يحتاج إلى كتاب للاحاطة به ، وله لمحات ذهنية والتفاتات نفسية تبعث الذهن فى آفاق بعيدة من التفكير ، وهو يمتاز إلى جانب ذلك بأسلوب عربى واضح شفاف ، وإذا كتب بالانجليزية ففى بلاغة تمتع القارىء بجمالها ونصوعها .

وهذا الكتاب مجموع من ست مقالات من ذلك الطراز الذى تفرد به ، وهى مقالات ، سبق أن نشرت خمس منها باللغة الإنجليزية فى صحف علمية أو قرئت فى مؤتمرات علمية ، وواحدة منها تنشر لأول مرة فى هذا الكتاب وموضوعها الغزالى .

وتتجلى فى هذه المقالات ميزة اللمحات الذهنية التى أشرنا إليها ، فعلى أساس الدراسة العلمية لكل موضوع من موضوعات البحث ينطلق ذهن نبيه أمين فارس فى تأملات وأفكار تبعث المؤيد أو المعارض على التفكير والبحث ، ففى بحثيه الأولين عن « العرب ودراسة تاريخهم » و « المفكر المسلم » مسائل كثيرة لا نتفق معه فيها ، ولكنها تحرك الفكر وتبعث على التأمل وتحفز على البحث والدراسة وتدعو إلى المناقشة ، وذلك فى ذاته فضل كبير ، فإن سير العلم يحتاج إلى حوافز ، والحقائق تتجلى عن طريق الأخذ والرد ، ومن خلال الرأى وضده يخرج القول السليم ، وما أشد حاجتنا إلى الحوافز والمحركات ، فقد تقدم العلم فى عصورنا السابقة بفضل الجدل والمناظرة ، وفى عصرنا هذا قل أن

نقرأ جدلاً عامياً مجرداً أو نظفر بمناظرة حامية فى موضوع ، وربما كان هذا من أسباب بطء تيار الأبحاث التاريخية والأدبية والفلسفية عندنا الآن .

ويهمنا هنا بصفة خاصة بحث نبيه أمين فارس عن الغزالى ، فهو مقال ممتع طيب يدل على دراسة مستفيضة لحياة أبى حامد حجة الإسلام وأعماله . والغزالى من الشخصيات الفاتنة فى تاريخنا الفكرى ، فقد جمع إلى العلم الغزير إيماناً عميقاً ونزوعاً عن الدنيا وما فيها ورقة إنسانية تجعله دون شك من أعلام التاريخ الإنسانى كله ، ومن ثم فقد أولع بدراسته أهل الاستشراق وكتبوا عنه أكثر مما كتبنا ، وكتاب احياء علوم الدين من أحب الكتب إلى دارسى العربية فى الغرب ، ولا تخلو لغة أوروبية من كتاب أو كتب كثيرة عن الغزالى ، غير الأبحاث والدراسات القصيرة الكثيرة التى تحفل بها المجلات فى أوروبا وأمريكا .

وقد وفق نبيه أمين فارس فى بحثه توفيقاً كبيراً ، فهو ليس مجرد عرض لحياة حجة الإسلام أو لمؤلفاته ، وإنما هو تقدير سليم لمكانته فى تاريخنا الفكرى ، وقد استوقف نظرى بشكل خاص ربطه بين تكوين أبى حامد ونشوء المدارس فى العالم الإسلامى على أيام السلاجقة ، وهى مسألة حوم الكثيرون حولها دون أن يضعوها فى تلك الصورة الواضحة المحددة التى وضعها فيها المؤلف ، وكذلك رأيه فى أسباب التحول النفسى العميق الذى مر به الغزالى حوالى ٤٨٨/ ١٠٩٥ وانصرافه دفعة واحدة عن المجد الدنيوى والجاه والمنصب إلى الزهد و « الاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة » كما قال صاحبه عبد الغفار بن اسماعيل الفارسى ، وكما شرحه هو نفسه بعباراته الآخذة بمجامع النفس فى كتابه الفريد « المنقذ من الضلال » . وقد أجاد المؤلف الكلام على كتاب احياء علوم الدين للغزالى ، فقد قدم للقارىء فى سطور قليلة ما يعطيه فكرة سليمة عن هذا الكتاب الجامع الذى يعد من المعالم الكبرى فى تاريخنا الفكرى .

الدكتور عبد العزيز الدورى : بحث فى نشأة علم التاريخ
عند العرب (المطبعة الكاثوليكية) بيروت ١٩٦٠

تاريخ علم التاريخ عندنا ميدان بكر لم يلق من عناية الباحثين ما هو حقيق به من عناية ، مع أنه الأساس الذى لا تستقيم دراساتنا التاريخية بدونه ، فنحن مثلا ننقل من تاريخ الطبرى ونسند إليه مع أن معظم ما فى تاريخ الطبرى روايات عن أصحاب الروايات الأولى كعروة بن الزبير وأبى مخنف وعوانة ابن الحكم وسيف بن عمر ، وننقل عن ابن الأثير مع أن ابن الأثير ناقل عن الطبرى واليعقوبى إلى أواخر القرن الرابع الهجرى وعن غيرهما بعد ذلك ، ولا تمتاز مادته بالإصالة إلا فيما يتصل بالقرن السادس الذى عاش فيه . وهكذا ، وروايات الطبرى على هذا ينبغى أن تفهم على أساس دراسات لأصحابها . وقد تنبه المستشرقون إلى هذه الناحية واختصوها بأبحاث قيمة قام بها فستنفلد وفلهاوزن وجستاف فايل وهوروفتس بصفة خاصة . ولا أذكر أن أحداً من العرب كتب فى هذا الموضوع قبل الدكتور حسين نصار فى كتابه القيم عن نشأة الكتابة الفنية عند العرب . وقد ترجم الدكتور نصار بعد ذلك كتاب هوروفتس : المغازى الأولى ومؤلفوها .

وقد عنيت بهذا الموضوع من زمن بعيد وأعددت كتاباً مختصراً عن تاريخ التأريخ المسلمين وصلت فيه إلى الطبرى ومعاصريه ، وأرجو أن تعين الظروف على الوصول بالبحث إلى الجبرتى .

ولهذا فقد وقعت من كتاب الدكتور الدورى على مرجع طيب غزير الفائدة . وقد كنت حسبت عند الاطلاع على فهرس الكتاب أن الدكتور الدورى واصل البحث إلى الطبرى ، ولكنى تبينت أن الكتاب قسمان : أبحاث ونصوص ، فأما الأبحاث فلا تحتل إلا ١٣٦ صفحة وباقى الكتاب إلى ص ٤٣٢ نصوص ومختارات ، والأبحاث تسير متصلة خلال الفصول الثلاثة الأولى

عن نشأة التاريخ عند العرب وتطوره خلال القرون الثلاثة الأولى ومدرسة التاريخ فى المدينة وبداية القصص التاريخى ، ثم يلى ذلك بحثان يبدو أن المؤلف كتبهما فى فترات أخرى ، أحدهما عن مدرسة التاريخ فى العراق والثانى عن دوافع الكتابة التاريخية .

وواضح أن الفصل الأول هو أهم فصول الكتاب ، والواقع أنه فصل طيب لولا اختصاره الشديد الذى لا يتيح للقارىء فرصة التعرف على أصحاب الروايات الأولى واتجاهاتهم ، والمؤلف يميل فيهما إلى رأى المستشرقين من الأثر الحاسم الذى كان لترجمة كتب مثل الخداى نامة فى توجيه العرب نحو التأليف فى التاريخ ، وهو رأى ضعيف ناقشناه فى بحثنا الآنف الذكر وأثبتنا أن العناية بالتاريخ أصيلة عند العرب وأنها نبعت من اهتمامهم بتواريخ قبائلهم وانسابها ومن حرصهم على الحفاظ على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأقدم كتابات العرب فى التاريخ ، قبل ترجمة كتاب الخداى نامة ، أفضل بكثير وأقرب إلى روح العلم والبحث من ذلك الكتاب الذى لا يزيد على أنه مجموعة أساطير وحكايات وضعها رجال الدين من الفرس أو كتبت لملوك إيران واشرافهم . والأصوب أن يقال إن نقل هذا الكتاب وأمثاله إلى العربية أفسد مفهوم التاريخ عند مؤرخينا الأوائل وجعلهم يقبلون القصص والأساطير فى صلب مؤلفاتهم بعد أن كانوا منطقيين واقعيين كما نرى فى روايات سيف بن عمر وعوانة بن الحكم . وقد حدث مثل هذا فى علم الجغرافية عند المسلمين ، فقد اتجه العرب إلى التأليف فيه عن رغبة فى المعرفة وولع بالرحلة ومعرفة أحوال البشر ، ثم ترجموا جغرافية بطليموس فأفسدت طريقتهم السليمة الساذجة البسيطة فى كتابة الجغرافية ودخلوا فى موضوعات الأطوال والعروض والأقاليم وتلك التقاسيم الوهمية الحافلة بالخطأ ، فلم يسلم لنا من مؤلفاتهم إلا ما جرى على منهجهم الأول ، أعنى كتب المسالك والممالك والبلدان .

وأحسن ما فى هذه الفصول الثلاثة كلام الدكتور الدورى عن عروة بن الزبير والزهرى ، فهما مبحثان ممتعان ، أما بحثه الأول عن نشأة التاريخ عند العرب فلا يكاد يوفى أحداً من أعلام مؤرخينا حقه ، ومثال ذلك كلامه عن البلاذرى ، فإن كلامه عنه عام لا يخرج عن مادة « البلاذرى » فى دائرة المعارف الإسلامية ، ورأيه فى كتاب انساب الاشراف لا يدل على دراسة شاملة للكتاب . وفى كلام الدورى هنا عبارات ربما فهمناها لو قرأناها فى غير العربية كقوله « أما فتوح البلدان فيظهر خبرة الأمة للأغراض الإدارية والتشريعية » وفى ذلك الفصل لا نجد أى إشارة إلى المدرسة المصرية ، ولا أدرى كيف يمكن إهمال عبد الرحمن بن عبد الحكم وأبى سعيد بن يونس ورواتهما فى دراسة عن تطور التاريخ عند العرب خلال القرون الثلاثة الأولى .

وربما كانت النصوص خير ما فى هذا الكتاب . وقد ذكرنا أنها تحتل نحو ثلثيه . ومن حق المؤلف علينا أن نقرر أنها نصوص مختارة بناء على تصور عامى صحيح ، وخاصة ما يتصل منها بأصحاب الرواية الأولى مثل عروة بن الزبير وابن شهاب الزهرى ووهب بن منبه وموسى بن عقبة وأبى مخنف يحيى بن لوط وعوانة بن الحكم وسيف بن عمر ممن لم نعثر على كتاباتهم إلا فى صورة فقرات متناثرة فى اطواء ما ألفه معاصروهم أو من جاء بعدهم من أصحاب التاريخ ، والاختيار فى هذه الحالات لا يقوم به إلا عالم متمكن بعرف الأصول التاريخية جيداً وكيف يختار منها ، وهذا أمر يشهد للدورى به اطلاعه الواسع على الأصول وخبرته بها وبما فيها . ومن هنا فإن هذه النصوص جيدة ذات فائدة كبرى للطلاب ، وأعتقد أن هذا الكتاب قد ألف لهم .

Rudi Paret, *Symbolik des Islam (Symbolik der Religionen;* herausgegeben von F. Hermann. Band 2). Stuttgart (A. Hiersemann) 1958.

رودى بارت : الرمز فى العقيدة الاسلامية (جزء فى ٩٦
صفحة من مجموعة : الرمز فى الأديان) ستوتجارت ، ١٩٥٨

الأستاذ رودى بارت أستاذ اللغة العربية فى جامعة توبنجن فى ألمانيا من أعلام المستشرقين الألمان ، وهو يدير معهد الدراسات الإسلامية فى تلك الجامعة الألمانية العريقة . وقد تخصص فى أبحاث العقيدة الإسلامية والدراسات القرآنية ، وهو يعد الآن ترجمة وافية دقيقة للقرآن الكريم مع شروح وتعليقات ضافية .

والرموز فى الأديان هى الصور والتماثيل والأشكال والأدوات التى ترمز إلى جوانب رئيسية من العقيدة نفسها كالصليب وصور العذراء والسيد المسيح عند المسيحيين ونجمة داوود عند اليهود . والإسلام يخلو من هذه الرموز أصلا ، لأن طبيعته كعقيدة قائمة على التوحيد المطلق والتنزيه الكامل لله سبحانه وتعالى عن أى تصوير أو تشكيل أو رمز مادى تعارض أى نوع من الرموز المادية أو استعمالها .

والأستاذ رودى بارت يعرف ذلك تماماً ، ويشير إليه فى الصفحات الأولى من كتابه ، ويركز اهتمامه على رموز استعملتها بعض طوائف المسلمين أثناء الصلاة أو العبادات كالصوفيين ، ويتحدث عن الحروفية أى القيم الروحية التى أعطاها بعض المسلمين للحروف والأرقام ، ويقف طويلا عند تقديس الأولياء والصالحين ، ويدرس رموز جماعات الصوفية فى ملابسهم وألوانها وما يستعملونه من أدوات كالمسابح والمباخر . ومن هنا فإن الترجمة الصحيحة للعنوان هى الرموز عند المسلمين لا فى الإسلام ، لأن الإسلام لا يعرف الرموز .

والبحث عميق شامل ككل ما يكتبه الأستاذ رودى بارت ويمتاز أيضاً بالروح الانسانى والفهم الحقيقى للاسلام وقيمه الروحية .

Otto Spies, *Orientalische Kultureinflüsse im Abendland.* Baiträge zum Geschichtsunterricht. Quellen und Unterlagen für die Hand des Lehrers (Albert Limbach) Braunschweig

أوتو شبيس : الآثار الثقافية الشرقية فى الحضارة الغربية .
مراجع ومواد للمدرس . (دار البرت لمباخ) بروانشفايج

الأستاذ أوتو شبيس هو أستاذ اللغة العربية ومدير معهد الدراسات الاسلامية فى جامعة بون بألمانيا ، وهو أستاذ ضليع له أبحاث واسعة فى شتى نواحى الحضارة العربية . وهو يقوم الآن بتأليف كتاب عن طب الأسنان عند العرب .

والكتاب الذى نقدمه اليوم رسالة صغيرة ولكنها عظيمة الفائدة ، فهى موجز فى آثار الحضارة الشرقية والاسلامية خاصة فى حضارة الغرب أو فى فضل الشرق على حضارة الغرب كما نقول ، ألفها ضمن سلسلة كبيرة هدفها تقديم مادة صحيحة موثوق فيها إلى المدرسين الذين يقومون بالتدريس فى المدارس العامة فى ألمانيا ويؤلفون كتب الطلاب ، لكى يعتمدوا عليها وينقلوا منها . ومن هنا كانت القيمة الكبيرة لهذا الكتاب الصغير ، فهو فى الواقع دليل ومرشد للمدرسين الذين يعلمون الملايين ويؤلفون لهم الكتب المدرسية . وقد حرص الأستاذ شبيس على أن يكون كتابه منصفاً للحضارة العربية بالحق فتحدث عن آثارنا فى علوم الغرب وآدابه وعمارته وفنونه حديث العالم المتمكن ، وبسط تراثنا الحضارى عرضاً بسيطاً بديعاً فيه انصاف سليم وتحر للحق جدير بمقامه فى البحث والعلم .

ولا يسع القارىء العربى إلا أن يقدر للاستاذ أوتو شبيس هذا الفضل الكبير ، وحبذا لو اجتهدنا فى أن نضع بين أيدى المدرسين فى انجلترا وفرنسا وإيطاليا وأمريكا وغيرها أمثال هذه الرسالات النافعة حتى لا تمتلىء الكتب المدرسية بما يجافى الحق ولا ينصف العرب والمسلمين .

Wüstenfed —Mahlersche Vergleichungs— Tabellen zur muslimischen und iranischen Zeitrechnung, mit Tafeln zur Umrechnung Orient-Christlicher Aeren. Dritte, verbesserte und erweiterte Auflage der «Vergleichungsm Tabellen der Mohammedanischen und Christlichen Zeitrechnung».
Neu bearbeitet von *Bertold Spuler* unter Mitarbeit von Joachim Mayr.
Deutsche Morgenländische Gesellschaft in Kommission bei Franz Steiner Verlag. Wiesbaden, 1961

جداول فستنفلد ومالر المقارنة لحساب التواريخ الهجرية والميلادية مع جداول لتحويل التواريخ المسيحية الشرقية . طبعة ثالثة منقحة وموسعة لكتاب « الجداول المقارنة للتواريخ الهجرية بمقابلاتها الميلادية » قام بإعدادها برتولد شبولر بمعاونة خواكيم ماير . منشورات الجمعية الألمانية الشرقية . دار فرانتس شتانير للنشر — فيسبادن ، ١٩٦١

صدر هذا الكتاب الجليل ونحن نختم أعمال هذين المجلدين السابع والثامن من صحيفتنا ، فرأينا أن نعجل بتعريف قراء العربية بصدوره دون انتظار المجلد التاسع الخاص بسنة ١٩٦١

لا يستغنى مشتغل بأى فرع من فروع الثقافة العربية والاسلامية عن جداول تعينه على معرفة ما يقابل كل تاريخ هجرى يصادفه من التاريخ الميلادى حتى يحسن تقدير الأبعاد الزمانية ويستطيع تصور التواريخ الهجرية فى إطار التاريخ العالمى . وقد كان معولنا فى ذلك على قوائم نشرتها مطبعة بولاق وحرص المشرفون على إصدار التقويم السنوى لمصر على تصويبها ونشرها فى كثير من اعداد ذلك التقويم القيم . وكنا نعتمد أيضاً على حساب تقديرى عمله على مبارك ، وكنا لا نستغنى عن مراجعة الحساب فى كل حالة .

ثم اعتمدنا على الجداول الدقيقة التى عملها فستنفلد ومالر فى طبعتيها الأولى والثانية ، وهى جداول نادرة لا توجد نسخها إلا فى المكتبات العامة عندنا ، ولا يتيسر الرجوع إليها ساعة العمل بعيداً عن المكتبة ، ولهذا فقد كان معظم

معولنا على جداول الباحث الاسبانى الشاب أوكانيا خيمينيث وهى جداول طيبة دقيقة تسد حاجة الباحث ، وقد انتفعنا — ولا زلنا ننتفع — بها إلى اليوم .

وهذه الطبعة الجديدة لجداول فستنفلد ومالر هى أوفى ما رأيناه من جداول هذا النوع ، فقد راجعها الأستاذ برتولد شبولر أستاذ الدراسات الاسلامية فى جامعة هامبورج بما عرف عنه من الدقة التامة فى كل ما ينشر ، وصوب بعض أخطائها وأكملها بالاشتراك مع الأب خواكيم ماير . ويتضمن الكتاب فى طبعته تلك ما يلى :

١ — جداول مقارنة للسنوات الهجرية وما يقابلها من السنوات الميلادية . ولا يقتصر الأمر على ما يقابل أول كل سنة هجرية من التاريخ الميلادى ، بل يثبت ما يقابل أول كل شهر من شهور السنة الهجرية مما ييسر العثور على المقابلات على وجه الدقة .

٢ — جداول مقارنة للسنوات الميلادية وما يقابلها من الهجرية بما يعادلها معاً من سنوات المالية التركية التى بدأ العمل فيها فى التاريخ التركى ابتداء من أول سبتمبر ١٤٥٣ ، ولا يستغنى عنها باحث فى التاريخ العثمانى أو فى تاريخنا خلال العصور الاسلامية .

٣ — أربعة جداول حساب التواريخ الايرانية القديمة .

٤ — ١١ جدول لضبط حساب التاريخ الهجرى :

ا — جداول لمعرفة اسم اليوم لكل تاريخ هجرى .

ب — مسطرة متحركة لتحديد التاريخ واسم اليوم الذين يقابلان كل تاريخ ميلادى وبالعكس .

ج — جدول لتحويل التواريخ اليوليانية إلى جريجورية .

د — جداول لتحويل التواريخ القبطية والحبشية إلى تواريخ ميلادية يوليانية .

هـ — جداول لتحويل التواريخ الفارسية الحديثة القائمة على الحساب الشمسى للسنوات الهجرية .

و — جدول مقارن لحسابات التواريخ المسيحية الشرقية .

ز — جدول مقارن لأسماء الشهور الميلادية وما يقابلها من أسماء الشهور السريانية والعربية والتركية والبولونية والتشيكية والأوكرانية ومعها جدول آخر لأسماء الشهور القبطية والميلادية والحبشية وجدول ثالث لأسماء الشهور الفارسية وما يقابلها من الميلادية .

وقد ختم الكتاب بقائمة بالمراجع وبإرشادات مفصلة لطريقة استعمال هذه الجداول كلها وخاصة مسطرة التحويل المتحركة التى تعفى الباحث من حساب أيام الشهور على الأصابع كما كنا نفعل .

هذا عمل يمكن اعتباره نموذجاً للدقة الكاملة ، ونفعه للباحثين لا يقدر ، خاصة وكل شىء فيه محسوب حساباً دقيقاً لا يحتاج الانسان إلى أن يراجعه . وقد استوفيت كل التقاويم التى يمكن أن يحتاج إليها الباحث فى التاريخ الاسلامى والشرقى .

Carol A. Fisher And Fred Krinsky: *Middle East in Crisis. A historical and documentary review* (Syracuse University Press. Book Craftstmen Associates, Inc. New York) 1959

كارول فيشر وفريد كرينسكى : الشرق الأوسط فى أزمة . عرض تاريخى مدعم بالوثائق (مطبعة جامعة سرقوسة (سيراكيوز) بالولايات المتحدة ، ١٩٥٩

اخترت هذا الكتاب من بين عشرات الكتب التى ظهرت فى أوروبا وأمريكا خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة عن تاريخ العرب المعاصر ، لأنه يصور فى رأيى حقيقتين هامتين نلمسهما فى كافة الكتب التى تؤلف عن الشرق الأوسط فى

الغرب كله : الأولى هى تصور أهل الغرب أنهم يريدون الخير ويسعون إليه والثانى أنهم يدرسون ويصدرون الأحكام ويرسمون السياسات ويقومون بالتنفيذ بعيداً عن أهل المناطق التى يتصورون أنهم يخدمونها . فأما تصورهم أنهم يريدون الخير فتصور خاطىء لا يطابق الواقع ، وأما انفرادهم بأنفسهم فى التدبير والتقرير فأبسط الدلائل على ضرره أن كل مشروعاتهم فى بلاد الشرق لم تلق أى قبول أو نجاح . ولا زالت الازمة بين الشرق عامة والغرب عامة تتزايد لهذا السبب .

وهذه الحقائق تتجلى فى الفصل السابع من هذا الكتاب وموضوعه : رسم سياسة خارجية للولايات المتحدة The shaping of United States foreign policy وهو خير ما فى هذا الكتاب . وهو دراسة طيبة لتردد سياسة الولايات المتحدة الخارجية بين مبدئى المثالية والواقعية . وقد اعتبر المؤلفان وودرو ويلسن ممثلا للمبدأ الأول والكساندر هاملتون ممثلا للثانى ، وأوردا فقرات من كلام كل منهما دليلا على السياسة التى انتهجاها . والحقيقة أن هناك مبدأ ثالثاً هو المحرك الفعلى لسياسة الولايات المتحدة ، وهو النفعية ، فقد يتحدث رئيس الدولة الأمريكية عن حقوق الإنسان أو الحريات الأربع أو عن واجب الولايات المتحدة حيال غيرها من الأمم ، ولكن أصحاب المصالح والمصانع ورءوس الأموال والشركات والمصارف هم الذين يكيفون آخر الأمر سياسة تلك الدولة وذلك بما لهم من السلطان القوى فى الأحزاب وعلى الحكومة .

ولو كانت سياسة الولايات المتحدة تقوم على المثالية والواقعية فحسب لما اتجهت نحو الاستغلال الصرف والتحكم فى الحكومات تحكما تاما فى كل بلاد أمريكا اللاتينية . فخلال عصر طويل جرت الولايات المتحدة على اخضاع أمريكا اللاتينية لمشيئتها اخضاعا تاما عن طريق حكومات ينشئها عملاء لها تؤيدهم قوات عسكرية محلية تعمل لحساب الولايات المتحدة ويقدمون لها فى مقابل ذلك كل ما تشاء من الامتيازات الاقتصادية والاحتكارات ، مما جعل

نفر الوطنيين فى تلك البلاد من الولايات المتحدة وجعلتهم أعداء لها ، وهذا أمر يعرفه مؤلفا الكتاب جيداً .

وفيما يتصل بالشرق الأوسط قامت سياسة الولايات المتحدة على أساس الاستيلاء على البترول والمحافظة عليه أولا ثم على أساس الخوف من الشيوعية ثانياً ، واعتمادا على هذين الأساسين تمكنت الصهيونية العالمية من أن تدخل نفسها عنصراً هاماً من عناصر السياسة الاميريكية تجاه الشرق الأوسط ، فقد أقنعت أصحاب رءوس الأموال أن قيام دولة صهيونية فى تلك المنطقة ينشىء لبلادهم قاعدة ثابتة تحمى منها مصالحها ، ومن هنا جاءت مأساة موقف الولايات المتحدة من اسرائيل وتأييدها إياها ومدها بالمعونات ، وهى مأساة قضت على كل أمل حقيق للولايات المتحدة فى كسب صداقة حقيقية فى هذه الناحية الهامة من العالم . ومهما حللنا الموقف فإننا ننتهى إلى أن الولايات المتحدة باعت أمم الشرق الأوسط كلها واشترت اسرائيل ، ولا شك أنها تحس الآن أن الصفقة خاسرة بالنسبة لها . وفى يوم من الأيام ستتبين أيضاً أنها لم تشتر شيئاً على الإطلاق ، لأن الصهيونيين لا يشعرون بأى عرفان حقيقى نحو الولايات المتحدة ، وهم مستعدون تمام الاستعداد لبيع صداقتها فى سبيل أى مصلحة تبدو لهم . وإذا نحن تابعنا المؤلفين فيما يقولانه من أن اسرائيل اشتركت فى الاعتداء الثلاثى بدون علم الولايات المتحدة (وهو قول مشكوك فيه) فإننا نتبين أن اسرائيل باعت بالفعل صداقة الولايات المتحدة عندما بدت لها مصلحة عاجلة فى الاشتراك مع انجلترا وفرنسا فى العدوان على مصر أواخر ١٩٥٦

وقد اجتهد المؤلفان فى أن يكونا متجردين فى عرض الحوادث ، ومن الواضح أنهما حرصا على ذلك ، فهما أستاذان يكتبان لطلابهما وأبناء بلادهما ، واحتمال حسن النية فى تلك الحالة قوى ، ولكن الخوف من الشيوعية جرهما إلى كثير من الخطأ كما نرى فى الفصل الرابع المسمى « السوفيوتيون يدخلون الشرق الأوسط » ص (٣٢—٣٨) .

وأحسن ما فى الكتاب مجموعة الوثائق التى أضافها المؤلفان إلى الكتاب وهى مجموعة طيبة من نصوص المعاهدات والاتفاقات اختاراها بعناية . وهذه قائمتها :

١ — اتفاقية حرية الملاحة فى قناة السويس ، ٢٩ اكتوبر ١٨٨٨

٢ — اعلان الحماية على مصر ، ١٨—١٩ ديسمبر ١٩١٤

٣ — مختارات من مراسلات الحسين بن على ومكماهون (١٤ يوليو ١٩١٥—١٠ مارس ١٩١٦) .

٤ — وعد بالفور وتصريحات الحلفاء (٤ يونيو — ٢ نوفمبر ١٩١٧) (يتضمن أيضاً الاعلان الذى أذاعته الحركة الصهيونية فى ١٨ يوليو ١٩١٧ بشأن فلسطين) .

٥ — مشروع توصيات قدمها للرئيس ويلسون قسم المخابرات فى وفد الولايات المتحدة فى مؤتمرات السلام بعد الحرب العالمية الأولى بشأن إقامة نظام سياسى فى العالم العربى (٢١ يونيو ١٩١٩) .

(يتجلى فيها بوضوح ميل السياسة الأمريكية إلى تأييد إنشاء دولة صهيونية فى فلسطين من ذلك الحين) .

٦ — اتفاق حايم وايزمان مع فيصل بن الحسين بن على بشأن إنشاء دولة عربية وأخرى يهودية . الوثيقة يروى نصها حايم وايزمان بنفسه ، (وهى وثيقة كاذبة اختلقها وايزمان نفسه . وكان ينبغى أن يتنبه المؤلفان إلى ذلك) ١٠ يونيو ١٩٣٦

٧ — اعلان الوصاية الانجليزية على فلسطين ، ٢٤ يوليو ١٩٢٢

٨ — سياسة بريطانيا فى فلسطين ، ١٧ مايو ١٩٣٩ (بخصوص ما يعرف عندنا بمؤتمر الدائرة المستديرة فى لندن) .

٩ — اتفاقية جامعة الدول العربية ، ٢٢ مارس ١٩٤٥

١٠— قرار تقسيم فلسطين ، الجمعية العامة لهيئة الأمم ، ٢٠ نوفمبر ١٩٤٧

١١ — الهدنة بين مصر واسرائيل ، ٢٤ فبراير ١٩٤٩

١٢ — نص معاهدة بين دول الجامعة العربية ، ١٣ أبريل ١٩٥٠

١٣ — الاعلان الثلاثى (فرنسا ، انجلترا ، الولايات المتحدة) ، ٢٥ مايو ١٩٥٠

١٤ — قانون تأميم صناعة البترول فى إيران ، ١ مايو ١٩٥٠

١٥ — الاتفاقية المصرية البريطانية بشأن الجلاء عن مصر وقاعدة السويس ، ١٨ اكتوبر ١٩٥٤

١٦ — فقرات مختارة من اتفاقية حلف بغداد ، ٢٤ فبراير ١٩٢٤

١٧ — خطاب السيد الرئيس جمال عبد الناصر بشأن صفقة شراء الأسلحة من تشيكوسلوفاكيا ، ٢٧ سبتمبر ١٩٥٥

١٨ — مرسوم تأميم قناة السويس ، ٢٩ يوليو ١٩٥٦

١٩ — خطاب السيد الرئيس جمال عبد الناصر قبل تلاوة نص مرسوم تأميم القناة ، ٢٦ يونيو ١٩٥٦

٠٢ — نصوص متعلقة بأزمة قناة السويس ، ٣٠ اكتوبر ١٩٥٦

٢١ — خطاب وتصريح من الولايات المتحدة بشأن أزمة السويس فى مجلس الأمن ، ٣٠ اكتوبر ١٩٥٦

٢٢ — مقتطفات من تصريح السير بيرسى ديكسون ممثل بريطانيا فى مجلس الأمن بشأن قناة السويس ، ٣١ أكتوبر ١٩٥٦

٢٣ — تصريح ممثل فرنسا لوى دى جيرينيو ، ٣١ اكتوبر ١٩٥٦

٢٤ — تصريح مندوب روسيا اركادى سوبوليف ، ٣١ أكتوبر ١٩٥٦

٢٥ — تصريح مندوب باكستان السيد نصر الله انتظام ، ١ نوفمبر ١٩٥٦

٢٦ — خطاب مندوب مصر السيد عمر لطفى ، ١ نوفمبر ١٩٥٦

٢٧ — اعلان من رؤساء تسع دول عربية بهذا الشأن ، ١٥ نوفمبر ١٩٥٦

٢٨ — خطاب الرئيس جواهر لال نهرو فى مجلس النواب الهندى بشأن الاعتداء الثلاثى ، ١٦ نوفمبر ١٩٥٦

٢٩ — قرارات الهيئة العامة لهيئة الأمم بضرورة انسحاب المعتدين من الأراضى المصرية ، نوفمبر ١٩٥٦

٣٠ — تصريح الرئيس ايزنهاور المتضمن المبدأ المنسوب إليه ، ٣١ أكتوبر ١٩٥٦

٣١ — خطاب الرئيس ايزنهاور فى الكونجرس بهذا الشأن ، ٥ يناير ١٩٣٧

٣٢ — اقتراح بقرار من الحكومة الولايات المتحدة بهذا الشأن ، ٥ يناير ١٩٣٧

٣٣ — نص القرار كما وافق عليه الكونجريس الأمريكى بمجلسيه ، ٥ مارس ١٩٣٧

٣٤ — قرار آخر أعلنه الشيخ الأمريكى وليام فولبرايت ، ١١ يناير ١٩٥٧

٣٥ — اقتراح قدمه هارى ترومان ، ١٣ يناير ١٩٥٧

٣٦ — اقتراح آخر بهذا الشأن قدمه مايكل مانسفيلد ، ٢٩ يناير ١٩٥٧

٣٧ — فقرات من تصريح لوزير خارجية تركيا فؤاد كوبرولو بشأن سياسة تركيا فى الشرق الأوسط ، ٥ أبريل ١٩٥٦

٣٨ — تصريح السيد الرئيس جمال عبد الناصر بشأن الشرق الأوسط ، ٢١ نوفمبر ١٩٥٦

٣٩ — تصريح لأبا ابيان فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، ٢٣ نوفمبر ١٩٥٦

٤٠ — تصريح مشترك من الاتحاد السوفييتى والصين بشأن الشرق الأوسط ، ٨ يناير ١٩٥٧

٤١ — مقترحات سوفييتية بشأن الشرق الأوسط تضمنتها مذكرة قدمتها الحكومة الروسية إلى تشارلس بولن سفير الولايات المتحدة فى موسكو ، ١٣ فبراير ١٩٣٧

٤٢ — تصريح لجى موليـه فى نادى الصحافة الفرنسى بشأن الشرق الأوسط ، ٢٧ فبراير ١٩٥٧

٤٣ — التصريح المشترك الذى أعلنه رؤساء حكومات مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية ، كما أذاعه راديو القاهرة فى ٢٧ فبراير ١٩٥٧

٤٤ — إعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة ، ١ فبراير ١٩٥٨

٤٥ — إعلان إنشاء الاتحاد العربى (الأردن والعراق) ، ١٤ فبراير ١٩٥٨

٤٦ — قرار الرئيس أيزنهاور بشأن إرسال قوات أمريكية إلى لبنان ، ١٥ يوليو ١٩٥٨

٤٧ — خطاب الرئيس أيزنهاور بشأن لبنان ، ١٥ يوليو ١٩٥٨

٤٨ — قرار للدول العربية فى هيئة الأمم بهذا الشأن ، ٢٠ أغسطس ١٩٥٨

Francisco Gabrieli, *Saggi Orientali*
(Salvatore Sciacia Editore), Roma 1960

فرانشيسكو جابرييلى : مقالات شرقية (دار سلفاتورى شياشيا للنشر) روما ١٩٦٠

لا يسع أى مشتغل بالدراسات الاسلامية والعربية إلا أن يحمد للأستاذ فرانشيسكو جابرييلى اخراج هذا الكتاب ، فهو يضم عشرين بحثا ومقالا نشرها فى مجلات وصحف علمية شتى فيما بين ١٩٤٧ و ١٩٥٤ وهى دراسات عظيمة الفائدة كنا نجهد فى الحصول عليها ، وتلك صعوبة نعرفها جميعاً ، صعوبة الحصول على الدراسات التى تنشر فى مجلات وصحف علمية فى بلاد وتواريخ مختلفة .

والدراسات التي يضمها هذا الكتاب تتناول موضوعات غاية فى الأهمية من الأدب والتاريخ العربى ، والجديد فيها تلك الدراسات الخاصة بموضوعات من الأدب العربى الحديث والمعاصر والعلاقات بين إيطاليا والعرب فى فترات مختلفة من التاريخ . وكلها تمتاز بهذه الخصائص الطيبة التى يمتاز بها كل ما يكتبه فرانشيسكو جابرييلى أستاذ الدراسات العربية فى جامعة روما . وإليك موضوعات الدراسات :

١ — المجتمع البدوى والشعر الجاهلى .

٢ — مهد الإسلام .

٣ — نقد ترجمة إيطالية جديدة للقرآن الكريم نشرها الأستاذ الساندرو باوزانى .

٤ — مشاكل شعر التصوف الإسلامى وصوره .

٥ — شاعر عربى ويوليو سلفادورى .

٦ — هارون الرشيد بين التاريخ والأسطورة .

٧ — النورمان والعرب فى صقلية .

٨ — تبادل السفارات بين السلطان بيبرس والملك مانفريد .

٩ — الأدب العربى المعاصر .

١٠— قصيدة إيطاليا لعبد الرحمن صدقى .

١١— احمد شرقى .

١٢— ترجمة دانتى إلى العربية .

١٣— رحلات قديمة وحديثة .

١٤— إيطاليا وإيران .

١٥— عمر الخيام ومترجموه .

١٦— ميكيلا نجلو تركى .

١٧— الشعر التركى .

١٨ — الحرية والديمقراطية فى الشرق الأدنى .
١٩ — كبار المستشرقين الايطاليين .
٢٠ — المستشرق الايطالى اتورى روسى .

غوستاف فون جرونباوم : شعراء عباسيون (مطيع بن إياس ، سلم الخاسر ، أبو الشمقمق) دراسات ونصوص شعرية (ترجمة الدكتور محمد يوسف نجم ومراجعة الدكتور إحسان عباس) منشورات دار الحياة ، بيروت ١٩٥٩

دراسات الأستاذ جرونباوم فى الأدب العربى أشهر من أن نعرف بها فى هذه السطور ، فهى فى مجموعها أضواء كاشفة تسلط على نواح من أدبنا وفكرنا ولمحات تستوقف الذهن وتدعو إلى المناقشة ، وأيا كان موقفك منها فأنت تحمد لها حيوية وقوة تبعثان على الإعجاب .

وكتابٌ لجرونباوم يترجمه الدكتور محمد يوسف نجم يعتبر هدية للمكتبة العربية ، لأن الدكتور نجم علامة بالأدب العربى ، وهو بحاثة لا يكل ، وهو يمتاز بهذه الفطنة التى تتيح له أن يستكشف ويُجَلِّى ويقدم لنا فى سيل متصل أبحاثا ودراسات من الطراز الأول من المتعة والفائدة . فإذا اشترك فى العمل معه الدكتور إحسان عباس فأنت حقيق بأن تظفر بعمل علمى أدبى ممتاز .

وهذا الكتاب يضم ثلاث دراسات عن ثلاثة من شعراء العصر العباسى الأول ممن يصورون الانتقال السياسى البعيد المدى من الأموية إلى العباسية والتطور الفنى الواسع الذى شمل الشعر العربى خلال ذلك العصر الحافل بالتطورات والهزات .

وترجمة مثل هذه الدراسات لا تعد ترجمة بل هى أقرب إلى التأليف ، فقد جمع المؤلف شعر الشعراء من المراجع الواسعة ، وكان على المترجم أن يبحث

عنها فى الأصول ويوردها بنصوصها ويضيف إليها تعليقات وملاحظات لا تتناول الترجمة الانجليزية وحدها بل تشمل الأصول الشعرية نفسها ، وهو عمل لا يقوم به إلا متمكن من أصول أدبنا وتاريخنا .

لقد سعدت بقراءة هذا الكتاب وأفدت منه أكبر الفائدة ، ولو لم يقل المترجم والمراجع أنه ترجمة لحسبت أنه تأليف ، لأن الأسلوب العربى صاف رائق رصين .

سير المكتبة الأندلسية والمغربية

H. Pérès, *L'Arabe dialectal algérien et Saharien;* bibliographie avec un index méthodique. I vol., tome XIV de la Bibl. de l'Institut d'études supérieures islamique, Alger 1378/1958

هذا هو الجزء الثانى من فهرس ببليوغرافى يقوم على نشره الأستاذ هنرى بيريس الأستاذ بجامعة الجزائر للكتب والأبحاث الخاصة باللهجات التى تستعمل فى المغرب ، وقد كتب الفرنسيون وغيرهم كثيراً جداً فى هذا الموضوع ، ودراساتهم وأبحاثهم مفرقة فى عدد كبير من المجلات والصحف العامية وسلاسل المنشورات ، مما يجعل التعرف إليها والعثور عليها عسيراً غاية العسر . والأستاذ بيريس يصدر هذه السلسلة متضمنة أسماء الكتب والأبحاث ومؤلفيها وعناوينها ومواضع نشرها ، والجزء الذى نقدمه اليوم يتناول اللهجات المستعملة فى الجزائر وصحرائها .

الدكتور إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر سيادة قرطبة (دار الثقافة ، بيروت) ١٩٦٠

الدكتور إحسان عباس عالم شاب واسع النشاط لا يكل من العمل ولا يتردد فى تناول أخطر موضوعات التاريخ الثقافى العربى وأوسعها والتأليف فيها فى آجال يدهش لها الذين لا يتصورون أنّ العمل الطيب المتقن لا يخرج إلا بعد الوقت الطويل والصبر والمعاناة ومعاودة قراءة نفس الأصول مرة بعد مرة وإطالة التفكير فيها ووزن الكلمات قبل أن يجرى القلم على الورق . وأنا أعتبر هذا إقداماً محموداً من الدكتور عباس وأسعد إذ أجده كل مرة يوفق إلى ما يطلب

وإلى جانب كبير جداً مما أطلب ، والسر فى ذلك أنه كون نفسه تكويناً علمياً سليما متيناً ، وجرى فى صبر وطموح على أعراق تلك المدرسة المباركة من أبناء كلية الآداب بجامعة القاهرة التى درست على الشيوخ وتشربت الأصول وبنت على ما أسَّوا وشادوا وسارت بالركب فى الطريق القويم ، وقد قدمنا فى باب عرض الكتب ونقدها هذه المرة كتابين لاثنين من أبناء هذا الجيل العفى المنتج هما الدكتوران ناصر الدين الأسد ومحمد يوسف نجم .

والكتاب الذى أتناوله الآن داخل فى صميم الدراسات الأندلسية ، وهو ذخر جديد ينضاف إلى مكتبتنا الأندلسية ، إذ هو يتناول تاريخ الأدب الأندلسى إلى آخر أيام الخلافة الأموية ، أى إلى منتصف القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ، وربما إلى أواخره .

والموضوع طويل عريض ، فإن الأدب الأندلسى أدب غزير قوى ، وأعلامه فحول يتطلب الإنسان السنين الطوال لدراسة الواحد منهم والإحاطة بنواحى امتيازه وامتياز انتاجه . ولا زلنا بعد على عتبات هذه الدراسات ، فإن تراث الأندلس الفكرى قد أصابه ما لم يصب غيره من تراث أخواته من بلاد الإسلام ، فقد اختفت معظم الدواوين والرسائل والكتب ، وكنا نحسب أنها ضاعت ، ولكن الأيام تكشف لنا شيئاً فشيئاً عن ذخائر تخرج إلى النور من اقباء الخزائن المبعثرة فى طول بلاد العروبة والاسلام وعرضها ، ومنذ عام فقط عثرنا على ديوان أبى عمر أحمد بن دراج القسطلى الذى يمكن أن يقال إنه أعظم عبقرية شعرية أطلعها الأندلس ، عثرنا على ديوانه فإذا نحن أمام فيض جياش من الشعر المبدع الذى يعتز به العرب وتفخر به لغتهم ، وعكف عليه ابن آخر من أبناء هذه المدرسة الزاهرة هو الدكتور محمود على مكى ، وحققه تحقيقاً بديعاً رائقاً ، فعدنا من جديد على آرائنا فى الأدب الأندلسى نصوبها ونقدمها على هذا الضوء الجديد .

وبين أيدينا الآن أصول جديدة ومجموعات شعرية كثيرة حافلة بكل جديد .

ولقد كنت أعددت نص الحلة السيراء للنشر من سنوات ، ثم توقفت عن نشره لأننى لم أتعرف على أصحاب القطع الشعرية الواردة فى فاتحة الكتاب ، وهى قطع كثيرة يقدمها ابن الأبار بقوله : « ومن قولهم دام فضلهم » وقد كان من الممكن نشر الكتاب دون ذكر أصحاب هذه القطع ، ولكنى آثرت التريث لعلى أعثر على ما يعيننى على الكشف عنها ، فإذا أنا أراجع فى بعض تلك المخطوطات المغربية عثرت على مجموع لشعر أمراء الحفصيين ، ووجدت فيه القطع وأسماء أصحابها ، فحمدت الله على التأنى وطفقت أكمل ما بقى وأهيىء النص كله للمطبعة .

لهذا كله فإننى لن أحكم على مؤلَّف الدكتور إحسان عباس إلا على أساس المادة التى أعرف أنها بين يديه سواء فيما يتصل بالمقدمة التاريخية القصيرة التى ساقها بين يدى الكتاب أو الفصول التالية ، ولن أقف طويلا عند بعض التعريفات التى أطلقها فى سرعة اقتضته إياها ضرورة الايجاز كقوله ان من دخل الاسلام من أهل الأندلس كانوا يسمون المسالمة ، والحقيقة أن ذلك كان لا يطلق فى الأندلس إلا على من استسلموا للعرب ولم يكونوا مسيحيين ، ذلك أنه — على خلاف ما يظن — كانت هناك جماعات كثيرة فى شبه الجزيرة لم تدخل المسيحية بعد أو دخلتها دخولا سطحياً وظلت على حال هى أقرب إلى الوثنية ، فلما دخل المسلمون استسلموا لهم ثم دخلوا الاسلام بعد ذلك ، وهذا ظاهر من صيغة اللفظ فهو جمع مُسالم وليس جمع مسلم ، أما الذين أسلموا فكانوا يسمون مسلمين ، وقد أخطأ فى فهم هذا اللفظ سيمونيت وتابعه ليفى بروفنسال ، وأظن أننى تابعتهما فى بعض أبحاثى الأولى ؛ وكذلك قوله أن طالعة بلج بن بشر هى الطالعة الأولى ، لأن الطالعة الأولى هى طالعة موسى ، أما من دخلوا من العرب مع أبى الخطار فكانوا طالعة أيضاً ولكن دون رقم ، وأمثال هذه الطالعة الثالثة كثير ، وقوله عن تفريق أبى الخطار للعرب على النواحى « ولعل هؤلاء هم الذين يسميهم ابن حزم الأجناد الستة ، إذ لا محل لِلَعَلَّ هنا ، وليس

ابن حزم هو أول من سماهم بذلك ، بل سبقه كل مؤرخي الأندلس إلى ذلك ، وقوله « وهؤلاء الشاميون كونوا مع الأمويين عصبة واحدة » وهذا غير صحيح ، وأبسط ما كان ينبغي ملاحظته أن معظم من أيدوا عبد الرحمن الداخل كانوا يمنية ؛ وقوله إن « الخلفاء دون الموالى فى المنزلة » ولأن الخلفاء المقصودين هنا كانوا من موالى الشراء وهم مختلفون تماماً عن الطائفة التى منها بنو أبى عبدة و بنو شهيد ومن إليهم ؛ ولم يكن من الضرورى أن تؤخذ منهم البيعة أولا . أما تسمية الشاميين بالسادة فلم أقرأه إلا فى ذلك الكتاب . وغير ذلك كثير مما أجده دائماً فى المقدمات التاريخية للمؤلفات الأدبية ؛ ولكن ينبغى أن أنبه إلى أن قوله « وفى عهد الخلافة الأموية ظل ما نسميه سيادة قرطبة شيئاً نسبياً » يحتاج إلى استدراك لأن الخلافة نشأت على يد عبد الرحمن الناصر وخلفه فيها الحكم المستنصر ثم هشام المؤيد الذى قام بأمره المنصور بن أبى عامر وابناه من بعده ، وخلال هذه الفترة كانت سيادة قرطبة مطلقة لا نسبية ، وهذه السيادة ملازمة للخلافة وستنقضى بانقضائها . ومن رأيى أن يردد الدكتور إحسان عباس النظر فى فقرات تلك المقدمة واحدة واحدة .

وسأمر سريعاً بالفصل المسمى نشأة الشعر الأندلسى وتطوره ، فهو نظرة عجلى أورد فيها المؤلف كل ما حضره ومثال ذلك أنه وقف وقفة طويلة عند محمد بن مسرة وليس هو بشاعر أو أديب ، وكذلك الفصول التى تليه حتى نصل إلى تراجم الشعراء وهى أحسن ما فى الكتاب . ولا شك أن الدكتور إحسان عباس سيعيد النظر فيما قاله عن القسطلى بعد أن يطلع على ديوانه ، وعن ابن شهيد بعد أن يطلع على ما فى الكتب التى ذكرناها من أشعاره ، وكنت أحب أن يراجع الدكتور عباس ما كتب آسين بلاثيوس عن ابن حزم وهو كثير جداً ، وفيه معظم ما ذكره الدكتور إحسان وأكثر بمراحل كثيرة ، ولديه المقدمة الضافية التى كتبها إميليو غرسية غومس لترجمته لطوق الحمامة ، ففيها الكثير جداً مما كان يمكن أن ينتفع به .

هذا الكتاب مقدمة طيبة جداً لدراسة الأدب الأندلسى ، مقدمة كتبها أستاذ نقادة عارف بتاريخ الأدب العربى المشرقى معرفة تامة ، مما مكن له من أن يربط بين التيارات والأفكار واتجاهات الشعر فى شطرى عالم العرب والاسلام ، ولست أشك فى أن الدارسين سينتفعون به خير انتفاع .

أبو عمرو عثمان بن سعيد الدانى : المحكم فى نقط المصاحف ، بتحقيق الدكتور عزة حسن (مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم ، وزارة الثقافة والارشاد القومى فى الاقليم السورى) دمشق ١٩٦٠

لم ينشر قبل هذا الكتاب من مؤلفات عمدة شيوخ القراءات فى الغرب الاسلامى إلا كتاب « المقنع فى معرفة رسم مصاحف الأنصار » وكتاب « النقط » نشرهما المستشرق الألمانى أتو برتسل فى الاستانة سنة ١٩٣٢ وأعاد الأستاذ محمد أحمد دهمان طبع الكتابين فى دمشق سنة ١٩٤٤

والدانى ، أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر الأموى ، ويعرف أيضاً بابن الصيرفى ، مثال رائع للتخصص العلمى عند العرب ، فقد عمر ثلاثا وسبعين سنة (٣٧١—٤٤١/٩٨١—١٠٥٠) وبدأ دراسته الجدية فى حوالى الخامسة عشرة من عمره ، فألم فى بضع سنوات بما كان لابد منه لكل مشتغل بالعلم فى تلك العصور من حفظ القرآن ودراسة الحديث والفقه ، ثم انقطع بعد ذلك للقرآن وعلومه قرابة الخمسين سنة ، فجاب نواحى العالم الإسلامى طلباً للعلم وشيوخه حتى حصل فى هذا الباب ذخيرة من العلم جعلته إمام القراءات فى عصره ، وألف فى هذا الباب ما يربو على ثلاثين مؤلفاً ، بعضها مؤلفات كبار مثل كتاب « جامع البيان فى القراءات السبع » وكتاب « التيسير فى القراءات السبع » وبعضها أبحاث فى نقط صغيرة من موضوع تخصصه على مثال المونوغرافيات التى ينشرها علماء عصرنا ، مثل كتاب الامالات وكتاب اختلاف القراء فى الياء .

وإن من يتأمل قائمة مؤلفات وأبحاثه التى أوردها الدكتور عزة حسن فى مقدمته القيمة للكتاب (ص ١٥—١٩) ليشعر بالإعجاب نحو هذا العلامة المتخصص الفريد وبالاكبار للتقدم العامى الواسع المدى الذى بلغته أجيالنا الماضية ، فإن حضارة من الحضارات لم تبلغ بأهلها قبل العصر الحديث هذا المبلغ من الرقى العامى ، مبلغ التخصص والتجويد والانقطاع لفرع واحد من العلوم انقطاعاً مجرداً عن الانتفاع ، فما كان أبو عمرو الدانى مأجوراً على ما درس وألف ، وإنما هو انصرف إلى القراءات عن شغف شخصى ، ولو أنه كان يطلب الأجر الوفير لانصرف إلى الفقه والشريعة وكانا باب المكاسب والأرزاق لمن سار فى طريق العلم .

وكتاب « المحكم » مثال ناطق بما اتصف به أبو عمرو الدانى من تدقيق وتحقيق وضبط واتقان ، فهو يكتب فى حساب شديد ، ولا يذكر خبراً إلا أسنده ولا حقيقة إلا أقام عليها الشاهد . وموضوع كتابه موضوع فنى دقيق يتناول ما نسميه نحن اليوم عامة بشكل الحروف أو تشكيلها أو وضع الحركات عليها وتحتها ، وهى مشكلة تعرضت لها كل اللغات السامية التى لا تثبت فى الكتابة إلا السواكن والحركات الطويلة ، فلابد من طريقة ما لتعين القارىء على القراءة المضبوطة وخاصة فى القرآن الكريم ، وهى مسألة مرت فى تاريخ طويل عند علمائنا حتى وصلنا إلى الشكل المعروف حالياً ، وهو أيضاً غير كاف ، فإن بين الفتحة والضمة والكسرة حركات أخرى كثيرة لا نعرف كيف نضبطها بنقط أو شكل .

وقد قام الدكتور عزة حسن بتحقيق نص الكتاب تحقيقاً عامياً متقناً لا يكاد القارىء يستدرك عليه شيئاً رغم صعوبة ذلك النص وضرورة الدقة المتناهية فى تحقيقه ، فكل أمثلته تقريباً من آى القرآن الكريم ، والشروح مسندة إلى علماء لا بد من الرجوع إلى أصولهم للتحقيق منها . ولا شك فى

أن الدكتور عزة حسن عالم بموضوع القراءات متمكن من علوم القرآن ومن النحو والصرف ، فإن تقويمه السليم للنص يستلزم ذلك ، وتعليقاته الضافية خير شاهد على تمكنه من تلك الدراسات . وقد أدى بعمله هذا خدمة جليلة للدراسات القرآنية من ناحية وللدراسات الأندلسية من ناحية أخرى .

ابن أبى أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجى : كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . الباب الثالث عشر فى أطباء افريقية والأندلس . اعتنى بنشره وترجمته إلى الفرنسية والتعليق عليه نور الدين عبد القادر المدرس بالمدرسة الثانوية للتعليم الفرنساوى الاسلامى بالجزائر والحكيم هنرى جاهيه الأستاذ بكلية الطب بالجزائر . الجزائر ، مكتبة فراريس ، ١٩٥٨

نُشر هذا المعجم الفريد لأطباء الاسلام حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى لأول مرة فى القاهرة سنة ١٨٨٢ ، ثم نشره فى كونجزبرج بألمانيا مع ترجمة ألمانية المستشرق أوجوستوس مولر سنة ١٨٨٤ ، ونسخ الطبعتين اليوم من اندر أصولنا العربية على نفاسة الكتاب وحاجة الباحثين إليه فى كل حين .

ولهذا فإن إعادة نشر الفصل الثالث عشر الخاص بأطباء المغرب والأندلس يعتبر خدمة طيبة للباحثين فى تاريخ الأندلس والمغرب وتاريخ العلوم عند العرب بصورة عامة . وهو يضم تراجم ثلاثة من أطباء المغرب وأربعة وعشرين من أطباء الأندلس .

ومن الواضح أن النص العربى لم يتطلب من الناشرين تحقيقا ، فقد اعتمدا على طبعة بولاق وهى فى غاية الجودة وطبعة مولر وهى لا تقل عنها جودة ، أما الجديد هنا فهو الترجمة الفرنسية ، وهى جيدة واضحة تعين على فهم الكثير من المصطلحات وأسماء الأمراض والأعشاب الواردة فى الأصل العربى ، وقد ذيل الناشران النص والترجمة بشروح وتعليقات ذات فائدة عظيمة رجعا فيها إلى كل ما نشر فى الغرب عن الطب عند العرب وهو كثير . وقد انتهيا من عملهما

قبل أن ينشر الأستاذ فؤاد السيد طبقات أطباء الأندلس لسليمان بن جلجل ، وهو خير كتاب فى الموضوع ، بل هو معتمد ابن أبى أصيبعة فى هذه الناحية ، ولو اطلعا عليها لكان عملهما أوفى على الغرض .

K. G. Nweihed, *Arabia. Una Reseña de la Historia Moderna de una Tierra y una Nación* (Ediciones Panarabes) Buenos Aires, 1959

خلدون نويهض : بلاد العرب . موجز للتاريخ الحديث لأرض وشعب . بوينوس أيريس ١٩٥٩

تحيرت فى ترجمة عنوان الكتاب ، لأن لفظ « أرابيا » الذى يستعمله ليس مقابلا فى المألوف للفظ بلاد العرب أو الوطن العربى ، ولكنه فيما أحسب جارٍ فى هذا المعنى فى أمريكا اللاتينية ، فإن صحيفة الجامعة العربية التى تصدر فى بوينوس أيريس تسمى أيضاً أرابيا . ولا بأس — على هذا الأساس — من استعمال اللفظ فى ذلك المعنى .

ومؤلف هذا الكتاب شاب عربى صادق من مهاجرتنا فى كراكاس عاصمة فنزويلا . وهو شاب واسع الثقافة شديد الحماس لعروبته والدفاع عنها . وقد تكلف جهد إخراج هذا الكتاب عارضاً فيه تاريخ العرب الحديث عرضاً ممتعاً متصل الحلقات منذ استيلاء الأتراك العثمانيين على أقطار العرب إلى أيامنا هذه مع فصلين تمهيدين عن تاريخ الامبراطورية العربية والوصف الجغرافى للوطن العربى .

والكتاب يعرض قضايا العرب عرضاً سليما منصفاً كما ينبغى أن يعرضها عربى مخلص يتحرى الحق ويريد أن يؤيد حق بلاده بالحق وحده . ومن هنا فإن هذا الكتاب جدير بكل تقدير ، وما به حقيق بكل تشجيع ، خاصة وهذا هو الكتاب الوحيد من نوعه ، فما نعرف فى الاسبانية كتاباً عن بلادنا وتاريخها وقضاياها الراهنة غير هذا الكتاب .

وقد أطال المؤلف الوقوف عند مأساة فلسطين ، فذكر تاريخها بتفصيل طيب وشرح موضوع اللاجئين شرحاً حبذا لو نشر فى رسالة وحده ، وتكلم عن الاعتداء الثلاثى البشع على مصر ، ثم قيام الجمهورية العربية المتحدة ومغزى قيامها بالنسبة لتطور العرب جميعاً . وختم الكتاب بفصل بديع عن مكان العرب فى التاريخ المعاصر ، واختص الجمهورية العربية المتحدة بفقرات طويلة غاية فى العمق والانصاف ، وانتهى بكلامه عند إشارة يسيرة إلى العرب فى أمريكا اللاتينية .

محمد أبو راس الجربى : مؤنس الأحبة فى أخبار جربة . حققه ومهد له وعلق عليه محمد المرزوق ، وقدم له الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب (نشريات المعهد القومى للآثار والفنون بتونس) المطبعة الرسمية ، تونس ١٩٦٠ .

هذا النص الصغير يعتبر من أقيم الأصول التى وقعت لى خلال العامين الأخيرين ، فإنه ليس مجرد تاريخ لجزيرة جربة ، بل حلقة هامة من تاريخ المسلمين فى البحر الأبيض المتوسط وتاريخ الصراع الطويل بين العرب والغرب على سيادة هذا البحر ومجاريه .

والمؤلف محمد أبو راس سليل أسرة طرابلسية نزحت إلى جزيرة جربة واستقرت فى بلدة غيزن على الساحل الشمالى الشرقى لجزيرة جربة ومن هناك تفرقت فروعها فى شتى نواحيها ، وقد ولد وعاش فى جربة فيما بين سنتى ١١٩١ و ١٢٧١ هجرية على وجه التقريب كما ذكر الناشر فى مقدمته القيمة .

والكتاب يتناول التعرف بجربة أى وصفها الجغرافى وأرضها ومعالمها القديمة وتقسيمها الادارى ومزاراتها وحصونها وما إلى ذلك ، ثم يترجم للظاهرين من مشايخها من الأباضية وغيرهم ، ثم يجمل الأحداث التى وقعت فى الجزيرة من سنة ٥٢٩ إلى ١٢٢٢ هجرية ، أى من أواخر أيام بنى زيرى الصنهاجيين

إلى غزو الاسبان للجزيرة ثم دخولها فى سلطان الأتراك العثمانيين ، ثم يختم الكتاب بالكلام على الأوبئة التى أصابت الجزيرة .

وقد ذيل الأستاذ محمد المرزوقى الكتاب بذيلين ذوى قيمة كبرى بالنسبة لنا ، الأول نص قصير عن تاريخ استيلاء الاسبان على وهران فى الجزائر ثم محاولتهم غزو جربة وفشلهم فى ذلك ، وقد كتبه رجل اباضى معاصر للأحداث فى أسلوب ساذج بسيط يوحى بالثقة فيه ، والذيل الثانى دراسة طيبة جداً لجزيرة جربة اليوم كتبها الأستاذ المرزوقى نفسه .

والنص محقق تحقيقاً مشكوراً على مخطوطتين جيدتين ، وقد علق عليه الناشر بحواش وشروح عظيمة القيمة . وقد قدم للكتاب علامة تونس الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب بتمهيد واف لطيف .

احمد بن حسين بن محمد الأوسى الأنصارى الطرابلسى الشهير بالعسوس :
كتاب النهل العـــذب فى تاريخ طرابلس الغرب . الجزء الأول
(منشورات مكتبة الفرجانى ، طرابلس ، ليبيا) بيروت بدون تاريخ

هذا مختصر مفيد فى تاريخ ذلك القطر العربى الكريم وخاصة عاصمته طرابلس ، كتبه عربى طرابلسى عارف بتاريخ بلاده وأحوالها كان يقيم فى الاستانة وقدمه إلى السلطان عبد الحميد . وكان المؤلف قد عين عضواً فى مجلس « شهر أمانت » نائباً عن بلده ، ولذلك يسمى بأحمد بيك النائب الأنصارى .

والكتاب يوجز تاريخ طرابلس من الفتح الإسلامى إلى دخول طرابلس فى سلطان العثمانيين ، ثم يتوسع بعد ذلك فى تاريخ بلاده أيام هؤلاء ، ويقف هذا الجزء الأول عند ولاية الوزير محمد نظيف باشا أى عند سنة ١٢٩٧ هجرية .

وواضح أن المؤلف ، وقد أهدى كتابه للسلطان العثماني وعاش فى ظله ورعايته ، اجتهد فى عرض التاريخ العثمانى لطرابلس عرضاً مجاملا لآل عثمان ،

فهو يطيل الثناء عليهم ويمدحهم فى اسراف . ولكنه رغم ذلك مرجع طيب مفيد يتتبع القارىء خلاله احداث البلاد ومن توالى عليها من حكام ، مع اشارات جغرافية وعمرانية واستطرادات إلى ذكر الحوادث فى بقية القطر الليبى وتونس وجزائر البحر .

عبد الهادى التازى : أعراس فاس (الرباط ١٩٦١)

الأستاذ عبد الهادى التازى من شباب علماء المغرب العربى الكريم ، وهو شاب مكتمل التكوين العلمى مثقف ثقافة واسعة ، ونشاطه فى البحث والدرس والتنقيب عن الآثار واسع متصل . وقد نشرنا له فى هذه الصحيفة مقاله الممتع عن كشفه لنقش قديم صحح تاريخ إنشاء القرويين .

والكتاب الذى أقدمه هنا رسالة صغيرة عظيمة الفائدة عن العادات والتقاليد التى جرى عليها الناس فى حفلات الأعراس فى القطر المغربى . وهى رسالة نفيسة كتبها الأستاذ التازى عن خبرة ومعرفة بعادات بلاده وتقاليدها ، وعن تنقيب طويل فى أصول هذه العادات وتطورها . ومن المعروف أن المغرب إلى جانب سيره الحثيث فى ميدان الحضارة الراهنة قد عرف كيف يحتفظ بعاداته وتقاليده المغربية العربية السليمة فى حرص شديد ، حتى ليعد فريداً فى بابه فى العالم العربى من هذه الناحية ، ولم أر بلداً عربياً يجمع بين القديم جداً والجديد جداً على نحو يدعو إلى الاعجاب كما رأيت فى المغرب ، وخاصة فى فاس ، مهد العروبة المغربية وموئل جامعة القرويين الخالدة على مر السنين .

ويتتبع المؤلف طقوس الزواج فى فاس من أول إدراك الشاب سن الزواج إلى زفافه إلى عروسه خطوة خطوة . ويصف المراحل وصفاً دقيقاً ويؤيد كلامه بالأمثال المغربية العامية الجارية الاستعمال فى تلك المناسبات .

ومن محاسن الكتاب أن المؤلف يستعمل المصطلح المغربى كما هو ثم يشرحه ، مما له أعظم القيمة بالنسبة للدراسات الاجتماعية فى بلادنا . ثم ختم الكتاب بجامع لتلك المصطلحات مع شروح ما لم يشرحه فى النص منها ثم ختمه بثبت مفيد جداً لتعبيرات وأمثال مغربية تتصل بالزواج والأعراس .

لقد قرأت فى صفحة العنوان عبارة « العادات الشعبية » ففهمت منها أن الأستاذ التازى ينوى أن يتبع هذه الرسالة برسالات أخرى عن التقاليد الشعبية المغربية ، ويسعدنا أن يواصل هذا الجهد ، فنحن فى أشد الحاجة إلى هذه الدراسات الاجتماعية الفياضة بالحيوية والفائدة .

أبو الوفا الغنيمى التفتازانى : ابن عطاء الله السكندرى (مكتبة القاهرة الحديثة) . القاهرة ١٩٥٨

الدكتور أبو الوفا الغنيمى التفتازانى باحث عربى شاب اتجه إلى دراسات التصوف الإسلامي وتخصص فيها ، يرعاه الأستاذ الدكتور مصطفى حلمى رائد هذه الدراسات فى محيطنا العلمى . ومن حسن الحظ أن اختياره وقع فى دراسته لدرجة الماجستير على ابن عطاء الله السكندرى تلميذ أبى العباس المرسى الأندلسى . وفى دراسته الثانية لدرجة الدكتوراه (التى نرجو أن ينشرها قريباً) على ابن سبعين المتصوف الفيلسوف الأندلسى المغربى ، أى أن دراستيه تتناولان موضوعين من موضوعات الاتصال بين الغرب والشرق الإسلاميين ، وهى موضوعات قل من انصرف إليها من الباحثين نظراً لصعوبتها من ناحية وعسر الحصول على مراجعها وأصولها .

وقد تجشم الدكتور التفتازانى عناء الرحلة إلى اسبانيا وقضى معنا هنا عاماً إلا يسيراً باحثاً منقباً ودارساً للغة الاسبانية وهى ذات أهمية خاصة بالنسبة لدراساته .

والبحث الذى نقدمه اليوم بحث قيم عن ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه وكتبه وخاصة كتاب الحكم العطائية ، وهو من عيون التصوف الإسلامى .

وقد درس الدكتور التفتازانى حياة ابن عطاء الله وعصره دراسة مستفيضة ، ثم أفرد بحثاً لحياته التصوفية ، وقد أجاد فى هذا الفصل أى إجادة ، وخاصة فى شرح اسباب الخصومة بينه وبين تقى الدين بن تيمية ، ثم درس مؤلفات ابن عطاء الله ، وخصص الفصول الباقية لأصول تصوفه وطريقه فى الوصول .

والكتاب لهذا من أقيم ما قرأناه فى تاريخ التصوف الإسلامى ، ونحن سعداء إذ تغنى مكتبتنا العربية بهذا المؤلف القيم .

حسين مؤنس

أنبـاء

سنة ١٩٥٩

١ — ندوة تعليم اللغة العربية لغير العرب :

كنا قد أشرنا فى المجلد الماضى من هذه الصحيفة (ص ٣١٠ من القسم العربى) إلى ضرورة إعادة النظر بصورة شاملة فى موضوع تدريس اللغة العربية لغير العرب والمناهج المتبعة فيه والكتب المؤلفة من أجله ، إذ أن هذه المناهج والأساليب ما زالت عاجزة عن تذليل الصعوبات الحقيقية التى تعترض المقدم على دراسة لغتنا ، ولهذا فإنه يتعين على القائمين بتدريس العربية للأجانب عنها أن يشرعوا فى دراسة هذا الموضوع بما يستحقه من الاهتمام والتدقيق حتى يمكن أن توضع أسس الحلول الناجعة لمختلف المشاكل التى تعرض للعاملين فى ميدانه .

وهذا هو ما دفع معهد الدراسات الإسلامية بمدريد — باعتبار تدريس اللغة العربية فى اسبانيا من أهم نواحى رسالته العلمية والتعليمية — إلى اتخاذ الخطوة الأولى فى تلك الطريق ، فاجتهد طوال هذه السنة فى الإعداد لندوة تضم مختلف الباحثين المشتغلين بتدريس اللغة العربية من عرب وأجانب ويكون هدفها هو التباحث فى شتى المشاكل والصعوبات التى تواجههم فى عملهم ، وتقديم ما يرونه من حلول لتلك المشاكل ، ثم الاتفاق على وضع كتاب لتعليم ما يمكن أن نسميه بـ « لغة عربية أساسية » .

وكان من أعظم ما شجعنا على المضى فى طريقنا تلك المعاونة التى لقيها المعهد من اللجنة العليا للعلاقات الثقافية بالقاهرة وغيرها من سلطات وزارة

التربية والتعليم بالجمهورية العربية المتحدة ، وكذلك المساهمة الفعالة التى اشتركت بها منظمة اليونسكو من أجل تحقيق هذا المشروع ، فضلا عن تأييد المتخصصين فى الموضوع للفكرة وتشجيعهم لها ، وكان من ثمرات هذه الجهود المتضافرة أن مشروع هذه الندوة أصبح حقيقة واقعة ، فقد أمكن إتمام انعقاده فى دار معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ما بين يومى الاثنين ٢١ سبتمبر والجمعة ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥٩

هذا وقد اهتمت الأوساط الثقافية فى اسبانيا بأمر هذه الندوة وتابعت أعمالها فى اهتمام كبير ، وقد دعت محطة إذاعة اسبانيا الوطنية الدكتور محمود مكى وكيل المعهد لإلقاء بيان عنها فى صبيحة افتتاح الندوة يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٩ ، وتناول الحديث أهداف الندوة وما هى مقدمة عليه من أعمال وما ترجو أن توفق إليه من نتائج .

وقد رأينا أن ننشر فى آخر هذا المجلد نص التقرير الذى كتبه عن الندوة وأعمالها السيد الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد باعتباره « الأمين العام » للندوة .

٢ — دروس اللغة العربية :

وقد استمرت خلال هذه السنة دروس اللغة العربية فى المعهد كالمعتاد ، واجتهدنا فى أن تكون دروس هذه السنة بمثابة تجارب نسجل خلالها ملاحظاتنا المختلفة حول طرق التدريس المختلفة التى عملنا على تجربتها والصعوبات التى يلاقيها طلابنا حتى نعرض كل هذه التجارب على أعضاء الندوة التى أخذ المعهد على عاتقه عقدها فى نهاية هذه السنة ، أما عدد الطلبة المسجلين فى الفصول الدراسية الثلاثة فكان كما يلى :

الأول : ٤٠ طالباً
الثانى : ١٢ طالباً
الثالث : ٦ طلاب

وقد خصص للفصل الأول ثلاثة دروس أسبوعية ولكل من الفصلين الثانى والثالث درسان أسبوعيان ، وكان يتولى التدريس للفصل الثالث الدكتور حسين مؤنس ، أما الأول والثانى فكان يدرس لهما الدكتور محمود مكى .

٣ — موسم المحاضرات :

١ — الأستاذ أرتورو خاوريتشى : الجغرافية السياسية
كما ترى من نصف الكرة الجنوبى (٢١/١٠/١٩٥٨)

انتهز المعهد فرصة الزيارة التى قام بها الأستاذ الأرجنتينى أرتورو خاوريتشى Arturo Jauretche لإسبانيا ، فدعاه إلى التحدث فى دار المعهد وإلى جمهوره ، والأستاذ خاوريتشى أحد أعلام الفكر والسياسة والصحافة فى بلاده ، وهو متخصص فى علم الجغرافية السياسية ، وقد رأى أن يتحدث فى هذه المحاضرة عن الجغرافية السياسية للعالم من وجهة نظر أمريكا اللاتينية ، وأهم ما جاء فى هذه المحاضرة هو دعوته إلى ضرورة توثيق العلاقات بين الكتلتين اللاتينية والأسيوية الافريقية فى المجال الدولى لما يربط بينهما من علاقات تاريخية وتقارب فى الطبائع والشخصيات والنظرة إلى الحياة .

٢ — الأستاذ أرنالد شتايجر : الدور الروحى للاسلام
فى اسبانيا خلال العصور الوسطى (١٧/١٢/١٩٥٨)

ألقى الأستاذ شتايجر هذا البحث كمحاضرة فى دار المعهد ثم راجعه وأعده للنشر فى صحيفة المعهد ، وقد رأينا — نظراً لأهميته وقيمته — أن نعجل بنشره فى المجلد الماضى من هذه الصحيفة (سنة ١٩٥٨) ويمكن الرجوع إليه فى القسم الافرنجى من ذلك المجلد ص ٤١—٥٧ وملخصه العربى ص ٣٢٢—٣٢٨ من القسم العربى .

٣ — الأستاذ سيكو دى لوثينا : نظم الحكم والادارة فى مملكة غرناطة الاسلامية خلال القرن الخامس عشر الميلادى (١٢/٥/١٩٥٩)

القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) من أكثر فترات تاريخ غرناطة الاسلامية غموضاً وصعوبة ، إذ أنه كان فترة ركود وتدهور سياسى ولهذا فلسنا نرى فيه مؤرخين كباراً من طراز لسان الدين ابن الخطيب الذى يعتبر من أعظم معالم الثقافة الأندلسية فى القرن السابق ، ولهذا لم يكن هناك بد من الاعتماد على ما بقى إلى أيامنا من مجموعات الوثائق التى ترجع إلى هذا القرن وعلى ما كتبه المؤرخون المسلمون والمسيحيون عنه ، وقد اعتمد الأستاذ سيكو دى لوثينا فى حديثه عن نظم الحكم والإدارة على تلك المصادر وخلص من كل ذلك بنتائج بالغة القيمة والأهمية .

وإذا كان عدد محاضرات هذا الموسم قليلا بالنسبة لغيره من المواسم فإن ذلك يرجع إلى ما قام به أعضاء المعهد من الاشتراك فى بعض ميادين النشاط الثقافى فى خارج المعهد أو فى خارج مدريد مما اضطرهم إلى التغيب عن العاصمة الاسبانية ، لالقاء محاضرات مختلفة أو للاشتراك فى بعض المهرجانات الثقافية المختلفة مما سنشير إليه فيما يلى :

٤ — الدكتور محمود على مكى : ماضى العالم العربى وحاضره (القيت فى مدينة بانيولس — بمقاطعة خيرونا ٥/١٢/١٩٥٨)

كان السيد أنطون برات مدير المركز الثقافى والرياضى بمدينة بانيولس التابعة لمقاطعة جيرونا (التى كان الأندلسيون يسمونها جرنده) قد أبلغ معهد الدراسات الإسلامية أنه يرحب بتنظيم يوم يخصص للتعريف بالجمهورية العربية المتحدة وبالعالم العربى فى مقر هذا المركز ، وأبدى السيد برات رغبته فى أن يقوم بعض المسئولين فى المعهد وفى سفارة الجمهورية بالاشتراك فى ذلك ، فاستجابت

السفارة والمعهد لهذه الرغبة ، وسافر إلى بانيولس لهذا الغرض السادة الأستاذ عبد الحميد عوض المستشار الصحفى بالسفارة والدكتور محمود على مكى وكيل المعهد والأستاذ عبد الوهاب داود الملحق الصحفى بالسفارة .

وقام الدكتور محمود مكي بإلقاء محاضرته عن ماضى العالم العربى وحاضره فتناول تاريخ العالم العربى فى العصور الوسطى ولاسيما على حوض البحر الأبيض المتوسط ، والدور الذى قامت به اسبانيا الإسلامية فى إيصال الحضارة والثقافة العربيتين إلى أوربا ، وأشار بصفة خاصة إلى منطقة قطالونيا باعتبارها إحدى حلقات الاتصال بين العالمين الإسلامى والمسيحى . ثم تحدث عن وضع العالم العربى فى العصر الحديث وتاريخ الجهاد العربى فى سبيل التحرر والاستقلال والأصول التى قامت عليها القومية العربية وما بذلته شعوب العرب فى سبيل الوحدة التى كان من أهم مظاهرها قيام الجمهورية العربية المتحدة إلى غير ذلك من مظاهرها النهضة الحديثة فى العالم العربى فى مختلف ميادين الحياة .

وأعقب هذه المحاضرة عرض فيلمين إخباريين عن الجمهورية العربية المتحدة .

٥ — الدكتور حسين مؤنس : الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٩/١/٣)

دعا القائمون على إدارة بيت كلية سان فرناندو للطلبة الجامعيين بمدريد السيد الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد إلى إلقاء محاضرة حول هذا الموضوع ، وتناولت المحاضرة تعريفاً حاملا بجمهوريتنا فى مختلف ميادين الحياة ، وكانت هذه المحاضرة تلخيصاً موجزاً للكتاب الذى يعده الدكتور مؤنس بعنوان « الجمهورية العربية المتحدة » والذى سيصدر إن شاء الله فى العام القادم .

٦ — الدكتور حسين مؤنس : العلاقات الثقافية بين العالم العربى واسبانيا (١٩٥٩/١/١٦)

ألقى هذا الحديث من محطة الاذاعة الوطنية فى مدريد .

٧ — الدكتور حسين مؤنس : الشباب العربى (١٩٥٩/١/١٨)

توجهت إدارة بيت كلية خوسيه أنطونيو للطلبة الجامعيين الأمريكيين بدعوة إلى الدكتور مؤنس لإلقاء حديث فيها عن الشباب العربى والجهود التى تبذل فى الجمهورية العربية المتحدة من أجل رعاية الشباب والعناية بتكوينهم البدنى والثقافى ، وقد ألقى هذا الحديث فى التاريخ المبين ، وأعقبته مناقشة عامة اشترك فيها المحاضر وأعضاء المعهد مع المستمعين .

٨ — الدكتور محمود مكى : يقظة العالم العربى (١٩٥٩/٤/١٩)

كانت جمعية السلام المسيحى Pax Christi قد نظمت خلال شهر ابريل سنة ١٩٥٩ حلقة للدراسات حول مختلف الشئون التى تهم الرأى العام الاسبانى فى الوقت الحاضر ، هدفها التقريب بين الشعوب وتوثيق عرى الصداقة بينها باعتبار ذلك دعامة من دعائم السلام العالمى ، ولهذا دعت للحديث عدداً من الأجانب لكى يتكلموا عن مشاكل بلادهم ويعرضوا وجهات نظرها ، وكان الدكتور مكى من بين المدعويين للمحاضرة فى دار الجمعية عن العالم العربى ونهضته فى الوقت الحاضر ، وكانت هذه هى ثالث المحاضرات التى قامت الجمعية بتنظيمها تحت إشراف الأب الدكتور فيثنتى سيرانو Vicente Serrano .

٩ — الدكتور حسين مؤنس : حقائق حول الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٩/٥/١٦)

كان السيد أجرا كادارسو Agra Cadarso مدير مدرسة الألسن العليا بمدريد قد توجه بالدعوة إلى الدكتور مؤنس لإلقاء محاضرة عن الجمهورية العربية المتحدة فى دار المدرسة وعلى جمهور طلابها ، وذلك بمناسبة ختام الموسم الدراسى فيها ، وقد حضر الحفل جمهور كبير كان يتقدمه السيد سفير الجمهورية

العربية المتحدة فى مدريد وأعضاء السفارة وعدد كبير من هيئـات التمثيل الدبلوماسى فى مدريد ، وأقامت إدارة مدرسة الألسن حفل شاى قبل موعد إلقاء المحاضرة احتفاءً بكبار الحاضرين وتكريماً لهم .

أما المحاضرة فقد تناولت قيام الجمهورية العربية المتحدة والأسس الروحية والمقومات الإيديولوجية التى انبنى عليها كيانها ، وكفاحها فى سبيل الحرية وتحقيق أول مرحلة من مراحل الوحدة العربية ، ثم عرض السيد المحاضر صورة وصفية للجمهورية بإقليميها ومدنها وما فيها من ذخائر أثرية تدل على ماضيها المجد ثم ما وصلت إليه فى الحاضر من نهضة فى شتى ميـادين النشاط الحيوى ، وأخيراً ما هى مقدمة عليه من مشروعات جديدة فى عالم الغد .

٤ — أسبوع ثقافى للجمهورية العربية المتحدة فى مدينة بلنسية :

كانت مؤسسة « الأتينيو ميركانتيل » — وهى أكبر ناد ثقافى فى مدينة بلنسية — قد دعا معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد إلى تنظيم أسبوع ثقافى للتعريف بالجمهورية العربية المتحدة فى بلنسية ، على أن يتألف برنامج هذا الأسبوع من محاضرة تلقى حول الجمهورية العربية ومعرض فنى للوحات الفنان العربى الأستاذ محمد صبرى عضو المعهد ومجموعة من الأفلام السياحية .

وقد لبى المعهد هذه الدعوة الكريمة شاكراً ، وافتتح هذا الأسبوع فى يوم الاثنين الموافق ٢٢ يونيه سنة ١٩٥٩ ، وفى مساء هذا اليوم ألقى الدكتور حسين مؤنس محاضرة عن الجمهورية العربية المتحدة ضمنها تصويراً جغرافياً تاريخياً للجمهورية تناول فيها المشاكل الرئيسية التى وقفت فى اجتيازها والأحداث الهامة التى واجهتها منذ قيام ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ، ولاسيا إلغاء الملكية والإصلاح الزراعى ومأساة فلسطين والاعتداء الثلاثى الغـادر ، ونوه بالجهود الإنشائية والعمرانية الكبرى التى قامت بها الجمهورية .

وفى مساء اليوم التالى (١٩٥٩/٦/٢٣) افتتح معرض لوحات الأستاذ محمد صبرى ، وقد عرض فيه نحو أربعين لوحة من رسمه ، وقد حضر الافتتاح جمهور عظيم ونفر كبير من رجال الفن والفكر والصحافة فى المدينة ، واستمر هذا المعرض مفتوحاً عشرة أيام حتى ٢ يوليه سنة ١٩٥٩ ، وقد لقى المعرض إقبالا وثناءً من جانب النقاد الفنيين وأوساط الصحافة فى بلنسية .

وفى مساء يوم الخميس ١٩٥٩/٦/٢٥ عرضت فى القاعة الكبرى بالنادى أربعة أفلام ثقافية وسياحية عن الجمهورية العربية المتحدة .

٥ — تكريم العالم الإسبانى الأستاذ رامون مننديث بيدال فى المعهد :

فى شهر أبريل سنة ١٩٥٩ بلغ الأستاذ رامون مننديث بيدال التسعين من عمره ، وهو يعتبر أكبر علماء اسبانيا فى الوقت الحاضر ، ورئيس المجمعين الإسبانيين الملكيين للغة والتاريخ ، وهو يعتبر حجة تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى سواء تاريخها الإسلامى الأندلسى أو تاريخها المسيحى ، وأبحاثه وكتبه الكثيرة فى ذلك معروفة ومقدرة من قبل الجميع ، ولهذا فقد رأى معهد الدراسات الإسلامية أن يشارك فى الاحتفاء بهذا العالم وتكريمه بصورة يرسمها له الفنان العربى الأستاذ محمد صبرى ويقدمها له المعهد هدية بهذه المناسبة .

وقد أتم الأستاذ صبرى تلك الصورة التى رسمها له بالباستيل فى ثلاث جلسات ، وفى يوم الجمعة ١٩٥٩/٤/١٧ أقام المعهد فى داره حفلا لإهداء الصورة إلى الأستاذ مننديث بيدال ، وحضر لشهود الحفل عدد كبير من رجال الصحافة والأدب ، وألقى الدكتور حسين مؤنس كلمة قصيرة نوه فيها بفضل الأستاذ بيدال وعلمه ، ورد العالم الإسبانى عليها بكلمة رقيقة عبر فيها عن شكره وتقديره وأطيب تمنياته لاستمرار العلاقات الثقافية وتوثقها بين اسبانيا والعالم العربى . ثم

قدم إليه السيد سفير الجمهورية العربية المتحدة فى اسبانيا الصورة ، فتقبلها الأستاذ بيدال شاكراً ، وكان هذا الحفل مظهراً طيباً للعلاقات المتينة التى تربط بين بلادنا واسبانيا ممثلة فى شخص هذا العالم الكبير .

٦ — جماعة الصداقة العربية الإسبانية :

تقدم عدد من الطلاب الذين يدرسون اللغة العربية فى معهد الدراسات الإسلامية والطلاب العرب الذين يدرسون فى اسبانيا باقتراح لتأسيس جماعة للصداقة العربية الإسبانية ، وقد رحب المعهد بهذا الاقتراح وسعى إلى تحقيقه واضعاً كل إمكانياته فى سبيل نجاح هذه الجماعة وتحقيقها لأهدافها . وقد استقر الرأى على أن تكون الجماعة ثقافية تضم من يدرسون فى المعهد من الإسبانيين أو تحت إشراف من العرب ، وتأسست لجنة تنظيمية انتخبها هؤلاء الطلاب لتقوم بتوجيه النشاط الثقافى لها ، وقد بدأت الجماعة أعمالها فى فبراير سنة ١٩٥٩

٧ — الاحتفال بإنشاء الجماعة الثقافية الإسبانية العربية وبختام الموسم الدراسى :

كان يوم ١٥ يونيه سنة ١٩٥٩ هو الموعد المحدد رسمياً للاحتفال بإنشاء الجماعة الثقافية للصداقة الإسبانية العربية ولاختتام الموسم الدراسى (١٩٥٨/١٩٥٩) بالمعهد . وقد وضع برنامج لهذا الاحتفال دعى إلى المحاضرة فيه السيد الأستاذ خواكين أجرا كادارسو Joaquín Agra Cadarso مدير المدرسة المركزية العليا للغات فى مدريد . وحضر الاحتفال عدد كبير من الأدباء والكتاب والصحفيين وأساتذة الدراسات العربية وممثلى وزارة الخارجية الاسبانية فضلا عن جميع الطلاب الذين يدرسون فى المعهد من إسبانيين وعرب .

وقد بدأ الحفل بحديث من السيد الدكتور حسين مؤنس عن تدريس اللغة العربية فى المعهد والاهتمام الذى توجهه جمهوريتنا إلى نشر العربية باعتبار تعلم اللغات من أهم الوسائل لضمان السلام العالمى .

وأعقبت ذلك محاضرة السيد أجرا كادارسو التى تحدث فيها عن تدريس اللغات وفلسفتها وأهمية اللغة العربية ومكانها من اللغات ذات انتشار العالمى والتاريخ الحضارى العريق ، وتكلم عن جهود مدرسة اللغات فى مدريد فى التقريب بين جماعات الشباب باعتبار تعلم اللغات الأجنبية من المقومات الأولى لمجتمع إنسانى عالمى تسود فيه الصداقة ويتحقق السلام .

وتحدث بعد ذلك الدكتور محمود مكى فتناول بالحديث مولد الجماعة الثقافية العربية الاسبانية وأهدافها وبرامج عملها فى المستقبل ودورها فى إيجاد جو من الصداقة بين شباب العالم العربى والشباب الاسبانى وأهمية الدور الذى ستقوم به فى توثيق العلاقات مع شباب العالم الذى يتكلم الاسبانية فى القارة الأمريكية .

وأعقب هذا الحديث كلمة ألقاها السيد كارلوس مارتين عن الطلبة الاسبانيين أعضاء الجماعة فعبر عن الشعور الطيب الذى يكنه هؤلاء الطلبة نحو العرب والحضارة العربية .

وختم الحفل بكلمة ألقاها السيد الطاهر أحمد مكى ممثل الطلاب العرب وتحدث فيها عن العلاقات التى تربط بين إسبانيا وأمة العروبة فى الماضى والحاضر والمستقبل .

هذا وقد صدر بهذه المناسبة أول عدد من نشرة الجماعة التى أطلق عليها اسم « الصداقة Amistad » وهى نشرة مكتوبة باللغتين العربية والإسبانية ، واشترك فى تحريرها طلاب المعهد .

٨ — معرض للصحافة العالمية فى مؤسسة تشجيع الفنون :

كانت مؤسسة تشجيع الفنون والجماليات F. A. E (Fomento de las Artes y Estéticas) قد أعلنت أنهـا ستقيم معرضاً للصحافة العالمية فى قاعات دار المؤسسة ، وقد اتصلت إدارة المعرض بالمعهد وبالمكتب الصحفى فى سفارتنا بمدريد من أجل الاشتراك فى هذا المعرض باسم الجمهورية العربية المتحدة .

وقد افتتح المعرض فى يوم ١٩ مايو سنة ١٩٥٩ برياسة السيد وزير الإعلام والسياحة فى إسبانيا ، وكان قسم الجمهورية العربية فيه يحتل مكاناً مرموقاً يصور مدى نهضة بلادنا فى ميدان الصحافة .

هذا وقد اشتركت فى المعرض من البلاد العربية الشقيقة المغرب وتونس والعراق ولبنان .

٩ — معرض لوحات الأستاذ محمد صبرى فى برشلونة :

أعد الفنان العربى الأستاذ محمد صبرى عضو معهد الدراسات الاسلامية بمدريد مجموعة من لوحاته من أجل عرضها فى برشلونة ، وقد تولى المعهد تنظيم معرض له فى هذه المدينة العظيمة التى تعتبر عاصمة اسبانيا الثانية ، وقد تفضل السيد عبد الرحمن العظم سفير الجمهورية العربية فى اسبانيـا بالسفر برشلونة من أجل افتتاح المعرض بهـا ، ورافقه فى هذه الرحلة من أعضاء المعهد السيدان الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد والدكتور محمود مكى وكيله ، كذلك كان للمعاونة الصادقة التى تفضل ببذلهـا السيد سعيد عبد العزيز حليم القنصل العام للجمهورية العربية المتحدة فى برشلونة — أكبر الفضل فى الاعداد للمعرض والمعاونة على نجاحه ، وقد اهتمت الصحافة المحلية فى برشلونة والأوساط الثقافية

والفنية برحلة السيد السفير ومرافقيه وبمعرض الأستاذ صبرى ورحبت بهذا المظهر الجديد من مظاهر التعاون الثقافى بين جمهوريتنا واسبانيا ممثلة فى هذه المدينة عاصمة مقاطعة قطلونية .

وقد تم افتتاح المعرض فى مساء يوم السبت ١٤ مارس سنة ١٩٥٩ فى قاعة البينا كوتيكا وحضره كبار ممثلى السلطات فى برشلونة ، وعلى رأسهم عمدة المدينة وحاكماها المدنى والعسكرى إلى غيرهم من ممثلى السلك السياسى والقنصلى ، ثم عدد كبير من رجال الفكر والصحافة والفن ، ودام المعرض أسبوعين لم تكف الصحافة طوالها عن الكتابة عن لوحات الأستاذ صبرى ، والتعليق على مستواها الفنى الرفيع .

وقد انتهز ممثلو الصحافة الفرصة ، فأجروا أحاديث كثيرة مع السيد السفير الأستاذ عبد الرحمن العظم ومع مدير المعهد ووكيله ، وتناولت هذه الأحاديث موضوع العلاقات بين اسبانيا والجمهورية العربية فى ميادين السياسة والثقافة والفن .

١٠ — دراسات أعضاء البعثات :

فى صباح يوم الخميس ١٩٥٩/٤/١٦ عقدت لجنة مناقشة الرسالة التى تقدم بها السيد صلاح يحياوى الجزايرى عضو الاجازة الدراسية من الاقليم السورى فى الكيمياء العضوية من جامعة مدريد ، وموضوع هذه الرسالة :

Contribución a la síntesis de I indanonas sustituidas

وقد قررت لجنة الامتحان منح السيد صلاح يحياوى درجة الدكتوراه بدرجة « ممتاز مع المديح » وهى أعلى درجة علمية تمنحها اسبانيا فى العلوم ، وبهذا أنهى دراسته فى اسبانيا ، وسافر عائداً إلى الوطن فى ١٩٥٩/٥/٢٨

كذلك أنهى إقامته فى اسبانيا السيد محمد عطية عبد الحميد نصير عضو الاجازة الدراسية بإسبانيا لدراسة مشروعات رى الصحارى بعد أن أتم برنامج الدراسة الذى وضع له ، وكان قد أقام فى اسبانيا تسعة شهور اطلع خلالها على الجهود التى تبذلها اسبانيا فى هذا الميدان ، وأما عودته إلى أرض الوطن فقد كانت بتاريخ ١٩٥٩/٥/١٠

وفى أغسطس سنة **١٩٥٩** انتهت دراسة السيد أحمد كامل عضو بعثة وزارة الزراعة الذى كان قد حضر لزيارة محطات التجارب الزراعية فى كل من إيطاليا واسبانيا ، وقد وصل السيد أحمد كامل إلى اسبانيا فى يوم **١٦** يناير سنة **١٩٥٩** بعد أن قضى خمسة شهور فى إيطاليا وقدم له المعهد كل المساعدات اللازمة سواء من ناحية تعلم اللغة الاسبانية أو تقديمه إلى المراكز العلمية المختصة بدراسته ، ثم سافر عائداً إلى البلاد فى يوم **٥** أغسطس سنة **١٩٥٩**

أما باقى الطلاب فإنهم ما زالوا يواصلون دراساتهم وأعمالهم ، وقد أوردنا فى المجلد الماضى (ص ٣١٨ من القسم العربى) بيانا مفصلا بأسمائهم ونواحى دراساتهم .

١١ — « فلسفة الثورة » بالاسبانية :

بمناسبة الاحتفال بالعيد السابع لثورة **٢٣** يوليه المباركة اهتم معهد الدراسات الاسلامية بالاشتراك مع المكتب الصحفى بالسفارة بإخراج ترجمة اسبانية جديدة لكتاب (فلسفة الثورة) للسيد الرئيس جمال عبد الناصر وذلك لأن الترجمتين الاسبانيتين السابقتين لم تكونا من الثقة والدقة بالدرجة التى يستحقها هذا الكتاب الجليل ، وقد تولى السيدان الدكتور حسين مؤنس والدكتور محمود مكى مراجعة هذه الترجمة الجديدة ومقابلتها على جميع الترجمات الأوربية ، واشترك فى نشر

هذا الكتاب السيد عبد الحميد عوض المستشار الصحفى بالسفارة ، وأخيراً صدرت تلك الطبعة الجديدة فى خلال شهر مايو سنة ١٩٥٩

١٢ — زيارة الأستاذ عادل طاهر لاسبانيا :

كان قسم رعاية الشباب فى منظمة « الفالانخ » (الكتائب) الاسبانية قد تفضل بتوجيه دعوة رسمية إلى السيد الأستاذ عادل طاهر السكرتير العام للمجلس الأعلى لرعاية الشباب فى الجمهورية العربية المتحدة لزيارة اسبانيا والاطلاع فيها على النظم والأساليب المتبعة فى رعاية الشباب الاسبانى وتعريف العاملين فى هذا الميدان فى اسبانيا بما يبذله المجلس الأعلى لرعاية الشباب فى بلادنا من جهود ، إذ أن تبادل وجهات النظر فى هذه الناحية الهامة أمر يعود بالخير على البلدين من غير شك .

وقد لبى السيد عادل طاهر هذه الدعوة ووصل إلى اسبانيا مساء ١٧ أبريل سنة ١٩٥٩ ، ولقى من السلطات الاسبانية ترحيبا عظيما وحفاوة بالغة واستقبله فى صباح ١٩٥٩/٤/١٧ السيد خوسيه لوبث كانثيو المندوب القومى لرعاية الشباب ، وقدم إليه مديرى الأقسام والادارات ، فاجتمعوا به فى جلسة طويلة وقام كل مدير بشرح عمل إدارته ، ثم تحدث السيد عادل طاهر عن المجلس الأعلى لرعاية الشباب وتنظيمه ووجوه نشاطه .

وكان قسم العلاقات الخارجية فى منظمة الفالانخ وعلى رأسها السيد مانويل جاليا قد رتب برنامجاً طويلا مفصلا لزيارة السيد الأستاذ عادل طاهر لاطلاعه على مختلف المؤسسات العاملة فى ميدان رعاية الشباب باسبانيا ، واستمرت هذه الزيارة حتى يوم ١٩٥٩/٤/٢٢ ، حين غادر سيادته اسبانيا مودعاً بمثل ما استقبل به من الحفاوة ، ولا شك فى أن هذه الزيارة كان لها أعظم الأثر فى

توثيق العلاقات بين اسبانيا والجمهورية العربية المتحدة فيما يتصل بهذا الميدان الجليل من ميادين النشاط الحيوى .

١٣ — تبادل الرحلات بين طلبة اسبانيا والجمهورية العربية المتحدة :

فى أوائل شهر يوليه سنة ١٩٥٩ سافر من اسبانيا إلى القاهرة وفد من طلاب المدرسة الفنية العليا لهندسة الطرق فى مدريد ، يبلغ عدد أفراده نحو ثلاثين عضواً وكان على رأس هذا الوفد أحد أساتذة المدرسة وهو السيد كليمنت سايذث غرسية ، وقد تولى المعهد مكاتبة السلطات المختصة فى القاهرة لترتيب برنامج لرحلة هذا الوفد ، وتفضلت إدارة العلاقات الثقافية باتخاذ الاجراءات اللازمة لذلك ، وعاد طلاب الوفد بعد أن قضوا نحو شهر فى الاقليم المصرى بعد أن اطلعوا على ما يهمهم مشاهدته فى تلك الرحلة التى جمعت بين الدراسة والسياحة .

وفى أواخر أغسطس من هذه السنة وصل إلى مدريد وفد من طلبة مدرسة الألسن العليا بالقاهرة فى زيارة لاسبانيا استمرت حتى ٤ أكتوبر ، وكان على رأسه الآنسة الدكتورة عطية الله هيكل الأستاذة بمدرسة الألسن ، ولما كان الوقت الذى حضر فيه هذا الوفد لا يسمح بتسجيلهم فى أحد برامج الدراسات الصيفية التى تنظمها الجامعات ، فإن المعهد رأى أن ينظم لهم دراسة خاصة فى مدرسة اللغات المركزية فى مدريد بالاتفاق مع سلطات هذه المدرسة ، وذلك طوال شهر سبتمبر .

وقد أنهى الوفد رحلته فى اسبانيا فى يوم ٤ اكتوبر ، وتوجه أعضاؤه عائدين إلى القاهرة فى ذلك التاريخ .

سنة ١٩٦٠

دروس اللغة العربية :

استمرت دروس اللغة العربية فى المعهد ، وشرعنا فى تطبيق منهج جديد فى التدريس يقوم على أساس النتائج التى وصلنا إليها فى الندوة المقامة فى شهر سبتمبر سنة ١٩٥٩ ، وقد كان عدد الطلبة المسجلين فى المعهد خلال هذا العام كما يلى :

الفصل الأول — ٤١ طالباً
« الثانى — ١٩ «
« الثالث — ١٠ طلاب

وقام بالتدريس فى الفصلين الأول والثانى الدكتور محمود على مكى ، وأما الفصل الثالث فقد اضطلع بمهمة التدريس له الدكتور حسين مؤنس .

موسم المحاضرات :

١ — الأستاذ رويث موراليس : العلاقات الثقافية بين إسبانيا والعـالم العربى (١٩٥٩/١١/١١)

فى يوم ١٩٥٩/١١/١١ افتتح المعهد موسمه الثقافى ، وقد دعا بهذه المناسبة السيد رويث موراليس مدير إدارة العلاقات الثقافية فى وزارة الخارجية الاسبانية لكى يقوم بإلقاء أولى محاضرات هذا الموسم . وقد أفاض المحاضر الحديث فى تفصيل عن العلاقات الثقافية بين اسبانيا والعالم العربى واستعرض كل ذلك منذ العصور

الوسطى حتى الآن ، وقد رأينا لأهمية هذه المحاضرة أن ننشر نصهـا فى هذا العدد من الصحيفة (انظر ص ١-٤٠ من القسم الإفرنجى والملخص العربي لها فى القسم العربى منها) .

٢ — الأستاذ محمد عبد الله عنان : سفارتان متبادلتان بين الملك الأشرف سلطان مصر والملكين الكاثوليكيين (١٩٥٩/١١/٢٤)

انتهز المعهد فرصة مرور الاستاذ محمد عبد الله عنان البحاثة العربى فى ميدان الأندلسيات بمدريد ، فدعاه إلى إلقاء محاضرتين فى داره ، وقد تناول فى هذه المحاضرة الأولى الكشف عن صفحة من تاريخ العلاقات السياسية بين مصر والأندلس فى أواخر القرن الخامس عشر الذى شهد سقوط غرناطة الاسلامية فى أيدى المسيحيين ، ونعنى بذلك السفارة التى أوفدها السلطان الأشرف الغورى من مصر إلى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيل من أجل وقف حملاتهما على غرناطة الإسلامية وإلا فإنه سيضطر إلى معـاملة نصارى الشرق بغير ما جرت به العـادة من تسامح ومسالمة ، ولكن هذه السفارة لم تنجح فى وقف الملكين الكاثوليكيين عن عزمهما على فتح مملكة غرناطة التى سقطت أخيراً فى يناير سنة ١٤٩٢ ، وإن كان الملكان الاسبانيان قد أرسلا بعد ذلك سفارة إلى سلطان مصر اضطلع بها القس بدرو مارتير فى سنة ١٥٠١ وقامت هذه السفارة بطمأنة الملك المصرى على حالة مسلمى غرناطة وأنهم لا يلقون من السلطات المسيحية عنتا ولا اضطهاداً .

٣ — الأستاذ محمد عبد الله عنان : العلاقات السياسية والتجارية بين مصر ومملكة أرغون (١٩٥٩/١١/٣٠)

أما المحاضرة الثانية فقد تنـاول فيها الأستاذ عنان مظهراً آخر من مظاهر العلاقات بين مصر واسبانيا المسيحية فيما بين أواخر القرن الثالث عشر وأوائل

الخامس عشر الميلاديين . وكانت مصر مشغولة فى أول هذه الحقبة بالقضاء على آخر معاقل الصليبيين فى الشام ، ولما انتهت من ذلك اجتهدت دول أوربا المسيحية فى أن تدخل علاقاتها بمصر فى طور جديد يقوم على أساس المحافظة على مصالحها السياسية والتجارية فى الشرق ، وكانت مملكة أرغون أكثر هذه الدول رغبة فى تحسين علاقاتها بمصر واهتماما بذلك ، ولهذا بذل ملكها جاقمه (خايمى الثانى الملقب بالفاتح) جهوداً كبيرة من أجل ذلك تتوجت أخيراً بتوقيع معاهدة سلم وصداقة بين مصر وأرغون فى شهر يناير سنة ١٢٩٢ . وقد بقيت هذه المعاهدة أساساً للعلاقات بين البلدين خلال زمن طويل ، وعمل السلاطين المصريون والملوك المسيحيون على الاحتفاظ بهذه الصداقة التقليدية ، وكان من مظاهرها أن تبادل السلطان الناصر محمد بن قلاوون وخايمى الثانى عدة سفارات خلال الثالث الأول من القرن الرابع عشر . وكان من بين المسائل التى بحثتها تلك السفارات وضع المسلمين المدجنين الذين كانوا يعيشون فى مملكة أرغون ووضع المسيحيين فى مصر ومسألة الأسرى المسيحيين الذين كانوا لا يزالون محتجزين فى البلاد الإسلامية .

وفى سنة ١٤٣٠ وقعت معاهدة جديدة بين البلدين من أجل توثيق روابط الصداقة والتعاون بينهما .

٤ — الأستاذ المهدى بن بركة : التكوين الاجتماعى للمغرب (١٩٥٩/١١/٢٨)

كان الزعيم المغربى المعروف السيد المهدى بن بركة قد زار مدريد خلال عدة أيام ، فرأى المعهد أن يغتنم هذه الفرصة فيدعوه إلى إلقاء حديث فى داره عن موضوع « التكوين الاجتماعى للمغرب » ، فلبى السيد المهدى بن بركة الدعوة مشكوراً ، وتحدث فى محاضرته عن المراحل التاريخية التى مر بها المجتمع المغربى منذ القرن الرابع الهجرى حتى العصر الحاضر وقال إن هذا المجتمع ظل حتى القرن

التاسع الهجرى قوى الشبه بالبلاد العربية والافريقية وبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط عامة نظراً لموقف المغرب الجغرافى وعلاقاته التاريخية باعتباره جزءاً من الأمة العربية ، ثم لحقت المغرب بعد ذلك عزلة وانكماش طوال ثلاثة قرون انتهز الاستعمار فى آخرها هذا الوضع فسيطر على البلاد المغربية حتى استرجعت استقلالها فى الآونة الاخيرة ، وكان لذلك أثره الكبير على المجتمع المغربى بطبيعة الحال . ثم تحدث السيد المحاضر عن عنصرين أساسيين فى المجتمع المغربى وهما الدين والمرأة ، وخلص من بحثه لذلك إلى أن هذين العنصرين لا يحولان على الإطلاق بين المغرب والتقدم الاجتماعى كما يزعم البعض ، وأخيراً تكلم عن الوعى الاجتماعى الجديد الذى يسود المغرب فى الوقت الحاضر ويضاعف من قدرته على التقدم والرقى .

٥ — الأستاذ فرانسيسكو مارينا : محمد رسول الله والتشريع الإسلامى (١٨/١/١٩٦٠)

كانت هذه المحاضرة ضمن سلسلة المحاضرات التى نظمتها رابطة الصداقة العربية الاسبانية التى تضم الطلبة الذين يدرسون فى المعهد ، وقد تحدث فيها الأستاذ مارينا عن أصول التشريع الإسلامى ومصادره والمدارس الفقهية التى تكونت فى العالم الإسلامى والفروق بينها ، والأثر الكبير الذى باشرته السنة النبوية فى جميع هذه المدارس ثم عن التشريع الاسلامى فى المغرب والأندلس القائم على أساس المذهب المالكى ، وأفاض فى الحديث عن النهضة الفقهية فى إسبانيا إلى حد أن التقاليد التشريعية المالكية أصبحت تعتبر حجة فى جميع بلاد الغرب الاسلامى كله ومن أمثلة ذلك ما كان يعرف باسم « عمل أهل قرطبة » الذى نشأ قياساً عليه « العمل الفاسى » ، فضلا عن تأثيره فى التشريع الاسبانى المسيحى .

٦ — الآنسة أليثيا سيمونيت : « زيارة للاقليم المصرى
بالجمهورية العربيـــة المتحدة » (١٩٥٩/١١/٢٨)

كانت الآنسة أليثيا سيمونيت ، الطالبة بالمعهد وعضو رابطة الصداقة العربية قد زارت مصر فى الصيف الماضى وأقامت بها عدة شهور ، وبهذه المناسبة دعتها رابطة الصداقة إلى إلقاء حديث عن « مشاهداتها فى مصر » ، وكان حديثاً بسيطاً عرفت فيه تعريفاً صادقاً بالحياة المصرية وبمختلف مظاهر نهضة البلاد الحديثة فى مختلف الميادين .

٧ — الأستاذ فونتس جيرا : الذكرى الألفية لوفاة
الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الناصر (١٩٦٠/٢/١١)

الأستاذ رافائيل فونتس جيرا من الشخصيات القرطبية المهتمة بكل ما يتعلق بالثقافة الأندلسية ، وله فى ذلك كتب ومقالات وأبحاث عديدة لا سيما فيما يختص بالنهضة العلمية والرياضية فى عصر الخلافة الأندلسية ، وقد رأت رابطة الصداقة الاسبانية العربية أن تدعوه إلى إلقاء محاضرة عن إحياء الذكرى الألفية لتولى الخليفة الأندلسى العظيم الحكم المستنصر على عرش الخلافة فى الأندلس ، وتحدث الأستاذ جيرا بهذه المناسبة عن النهضة التى أتيحت لاسبانيا فى ظل الخلافة وعن كبار الشخصيات التى ازدهرت فيها فى مختلف ميادين العلم وعما تدين به الحضاره الاسبانية للعرب بصفة عامة .

٨ و ٩ — الأب ب. كابار : اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون (١٩٦٠/٢/١٧)
وبعض مظاهر الحياة الخاصة لتوت عنخ آمون وزوجته الملكة (١٩٦٠/٢/١٩)

الأب كابار من رجال الدين الذين تخصصوا فى المصريات القديمة ، وقد سبق أن ألقى فى المعهد عدة محاضرات فى هذا الميدان ولا سيما حول توت عنخ آمون وتاريخ الحضارة المصرية فى عهده ، وقد دعاه المعهد إلى إلقاء هاتين

المحاضرتين اللتين ألقى فيهما ضوءاً قوياً على النهضة العظيمة التى بلغتها مصر فى عهد هذا الملك الشاب ، وقد أوضح حديثه بمجموعة رائعة من الصور عرضت بالفانوس السحرى .

كتاب عن « الجمهورية العربية المتحدة » :

فى شهر اكتوبر سنة **١٩٥٩** صدر كتاب عن « الجمهورية العربية المتحدة » وضعه الدكتور حسين مؤنس باللغة الاسبانية ، وهو كتاب يقدم للقارىء الاسبانى كل ما يهمه من المعلومات عن الجمهورية العربية المتحدة فى مختلف ميادين النشاط الحيوى ، ويدور الفصل الأول منه حول الأسس المعنوية والروحية التى يقوم عليها كيان الجمهورية العربية ؛ وأما الفصل الثانى فوصف جغرافى سياسى لأهم المعالم فى مدن الجمهورية ، كذلك فيه تفصيل للحركة الثقافية والتعليمية فى البلاد ؛ وأما الفصل الثالث والأخير فإنه خاص بالنظام السياسى والإدارى للدولة . وقد وزع عدد كبير من نسخ الكتاب على مختلف المعاهد والجامعات فى اسبانيا وفى جمهوريات أمريكا اللاتينية .

أسبوع معهد الدراسات الإسلامية فى قرطبة :

منذ شهر يناير سنة ١٩٦٠ ، كانت الاتصالات تجرى بين معهد الدراسات الإسلامية بمدريد وكبار الشخصيات المسئولة فى مدينة قرطبة من أجل تنظيم أسبوع للمعهد العاصمة الأندلسية تخليداً للذكرى الألفية لازدهار الخلافة القرطبية بتولى الخليفة العالم الحكم المستنصر عرش إسبانيا الإسلامية فى سنة **٣٥٠** هـ . (٩٦١ م) ، وعلى هذا الأساس رسم برنامج يستغرق أسبوعاً كاملا يخصص كله للدراسات العربية والإسلامية ، ويكون تحت رعاية بلدية قرطبة و « مركز

الصداقة » أكبر ناد ثقافى فى المدينة على أن يفتتحه السيد سفير الجمهورية العربية المتحدة .

وقد تم افتتاح الأسبوع الثقافى المذكور فى صبيحة يوم الأحد ١٣ مارس ١٩٦٠ فى قاعة الاحتفالات الكبرى ببلدية قرطبة ، وألقى كلمة الاحتفال الحاكم المدنى لقرطبة فألقى خطاباً حيا فيه الحاضرين ، ثم ترك الكلمة للسيد رافائيل إنريكث روما نائب عمدة المدينة ، فألقى هذا خطاباً حيا فيه السيد السفير وأعضاء معهد الدراسات الاسلامية وأشار إلى مركز قرطبة كحلقة للاتصال بين الاسلام والمسيحية وبين الشرق والغرب .

ثم تحدث السيد عبد الرحمن العظم سفير الجمهورية العربية المتحدة ، وألقى خطابا تكلم فيه عن مركز إسبانيا خلال العصور الوسطى فى التقريب بين حضارتى العرب والغرب وعن التقدير الكبير الذى يشعر به كل عربى نحو قرطبة عاصمة الخلافة الأندلسية . وبذلك انتهى حفل الافتتاح .

وفى يوم الاثنين ١٤ مارس سنة ١٩٦٠ بدأ بالحديث السيد خوسيه دل أويو رئيس جمعية الصداقة العربية الاسبانية لحيا قرطبة وأدلى ببيان عرض وجوه نشاط الجمعية خلال العام الماضى ، ثم أعقبه الدكتور محمود مكى وكيل المعهد فألقى المحاضرة التى كان قد أعدها الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد ليلقيها فى هذه المناسبة لولا اضطراره إلى السفر إلى أمريكا اللاتينية ، وكان موضوعها « القومية العربية » ، وهى استعراض لتاريخ هذه الفكرة والمثل الايديولوجية التى تقوم عليها وأطوارها حتى العصر الحديث .

وفى الساعة السابعة من مساء هذا اليوم افتتح معرض الفنان العربى الأستاذ محمد صبرى وقد قام بافتتاح المعرض السيد عبد الرحمن العظم سفير الجمهورية العربية المتحدة ودعى إليه كبار رجالات المدينة ومندوبو الصحف وكثير من رجال الفكر والفن والنقد الفنى فى المدينة ، وكان المعرض يتألف من أربعين صورة بالزيت والباستيل ، واستمر هذا المعرض عشرة أيام أجمع النقاد الفنيون

خلالها على الاعجاب بإنتاج الفنان العربى والثناء عليه مما تردد فى صحف المدينة خلال فترة إقامة المعرض .

وفى صباح يوم الثلاثاء ١٥ مارس دعى المشتركون فى الأسبوع لزيارة بعض معالم قرطبة الاسلامية ولا سيما مسجدها الجامع الكبير ، ورافقهم فى هذه الزيارة الأستاذ رفائيل كاستيخون رئيس مجمع الفنون والآداب بقرطبة وهو من أكبر المستشرقين الاسبان وأعلمهم بآثار قرطبة العربية ، وفى مساء هذا اليوم ألقى الأستاذ كاستيخون المحاضرة الثالثة فى البرنامج وكانت حول « الآثار العمرانية فى ضواحى قرطبة العربية » ، وقد تحدث فيها بإسهاب عن خلاصة أبحاثه وأبحاث زملائه من العلماء الأثريين فى المناطق المحيطة بقرطبة والتى تحتلها الآن حقول ومراع واسعة ، وذكر أن هذا يدل على أن المساحة المبنية المعمورة من قرطبة العربية فى القرن العاشر كانت أضعاف ما هى عليه الآن ، وعلى أنه ليس من الغريب والأمر كذلك أن يصل عدد سكان قرطبة أيام كانت عاصمة الخلافة إلى أكثر من مليون بينما هم لا يتعدون الآن مائة وعشرين ألفاً . ثم تحدث عن ضواحى قرطبة المختلفة فتكلم عن ربض الرصافة الذى بناه عبد الرحمن الداخل ثم عن مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن الناصر ومدينتى الزاهرية والعامرية اللتين أنشأهما المنصور بن أبى عامر ، ثم أعطى المحاضر صورة حية رائعة للمجتمع القرطبى الذى كان يضطرب فى رحاب قرطبة العربية فى القرن العاشر الميلادى .

وفى صبيحة يوم الأربعاء ١٦ مارس ١٩٦٠ ألقى الأستاذ فرانسسكو مارينا إنكابو المحاضرة الرابعة حول « النظم التشريعية والفقهية فى إسبانيا المسلمة » ، وقد بدأ حديثه بالكلام عن أصول الفقه الإسلامى والمذاهب الفقهية والفروق بينها ثم تحدث عن دخول المذهب المالكى إلى الأندلس وغلبته على هذه البلاد وعن أثر قرطبة فى التشريع الاسلامى فى المغرب العربى كله .

وبعد ذلك ألقى السيد محمد توفيق بلبع المعيد بجامعة الاسكندرية وعضو

الاجازة الدراسية بإسبانيا المحاضرة الخامسة ، وكان موضوعها « قرطبيون فى فاس والاسكندرية وجزيرة إقريطش (كريت) » ، وتحدث فيها عن الثورة التى قام بها بعض أهل قرطبة ضد الأمير الأندلسى الحكم بن هشام فى أواخر القرن الثانى الهجرى وما تبعها من طرد الثائرين من البلاد ، وكانوا نحواً من خمس عشرة ألف أسرة ، فتوجه فريق منهم إلى فاس حيث بنوا مدينة عرفت فيما بعد بعدوة الأندلسيين من مدينة فاس تمييزاً لها عن عدوة القرويين أى المدينة القديمة ، وقد طبعوا مبانى هذه العدوة بطابع أندلسى يمكن تمييزه بسهولة ، وتوجه فريق آخر منهم إلى الشطئان الشرقية للبحر الأبيض وحلت مراكبهم بالاسكندرية فاحتلوها وأقاموا بها جمهورية ظلت نحو سبع سنين حتى استطاع والى مصر للخليفة العباسى المأمون أن يخرجهم منها مصالحا إياهم على أن يحملهم فى مراكبه إلى حيث شاءوا ، فتوجهوا إلى جزيرة إقريطش (كريت) وكانت تحت حكم البيزنطيين ففتحوها وأقاموا بها دولة إسلامية صغيرة بقيت نحو قرن ونصف ، وأنهى المحاضر حديثه بالكلام عن الآثار المعمارية التى خلفها هؤلاء القرطبيون على طول خط سيرهم من الأندلس إلى شواطىء البحر الأبيض .

وفى الساعة السابعة من مساء هذا اليوم قمنا بعرض ثلاثة أفلام إخبارية عن الجمهورية العربية المتحدة ، كما عقدت ندوة تحدث فيها وكيل المعهد عن مختلف أوجه الحياة فى الجمهورية العربية ورد على الاستفسارات والأسئلة التى توجه بها أفراد من جمهور الحاضرين عن ذلك .

وفى صبيحة يوم الخميس ١٧ مارس دعت بلدية قرطبة وفد المعهد وجمعية الصداقة العربية الاسبانية إلى زيارة الآثار مدينة الزهراء وأطلالها ، ورافق الوفد فى هذه الزيارة الأستاذ رافائيل كاستيخون والمهندس فيلكس إيرناندث الذى يقوم بالاشراف على عمليات ترميم المبانى هناك ، وقد تولى كلا العالمين شرح تفاصيل الحفائر التى تضطلع بعمليات الترميم وإعادة بناء قصر الزهراء الذى تمت منه ثلاث قاعات بأعمدتها ونقوشها على صورة تدعو للإعجاب والتقدير .

وفى الساعة السابعة من مساء اليوم نفسه ألقى الأستاذ مانويل أوكانيا خيمينث المحاضرة السادسة حول « المهندسون المعماريون والأيدى العاملة فى بناء المسجد الجامع بقرطبة » ، وقد تحدث فيها الأستاذ أوكانيا — وهو واحد من أعظم المتخصصين فى الآثار الاسلامية الأندلسية فى أوربا كلها — عن بدء بناء الجامع فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل وعما أتمه أول أمراء الأندلس الأمويين من أعمال إنشائية كان من أهمها بنيان « رصافة » قرطبة على نسق « رصافة » دمشق التى بناها جده هشام بن عبد الملك ، ثم تحدث عن الصورة البدائية للمسجد كما كان فى أيام عبد الرحمن الداخل قبل الاصلاحات والتوسيعات التى أدخلها عليه عبد الرحمن الأوسط والحكم المستنصر والحاجب المنصور بن أبى عامر . ثم تحدث المحاضر عن العرفاء (رؤساء الأعمال) الذين كانوا يشرفون على البناء وطبقاتهم وعن مدى ما كان يشترط فيهم من علم وخبرة ، وقدم عن كل ذلك معلومات جديدة مفصلة ، كما تكلم عن مواد البناء وكيفية إعدادها ، وأصلح كثيراً من الأخطاء التى وقع فيها العلماء الأثريون من نسبة بعض الأعمدة وغيرها من أجزاء المبانى الأثرية القائمة فى قرطبة إلى حضارات قوطية أو رومانية بينما هى فى الواقع عربية محضة .

وعرض المحاضر بعد ذلك تفاصيل طريفة عن المهندسين المعماريين المسلمين الذين مهروا بتوقيعاتهم كثيرا من المواد البنائية للآثار التى وصلت إلينا وبين مدى النضج الحضارى المنقطع النظير الذى تدل عليه تلك الآثار ، وقد قدم الأستاذ أوكانيا أثناء المحاضرة صوراً بالفانوس السحرى لنقوش المسجد الجامع وغيرها من الآثار استشهد بها على حديثه .

وفى صباح يوم الجمعة ١٨ مارس قام وفد المعهد بزيارة المتحف الأثرى لمدينة قرطبة وبعض معالمها الاسلامية مثل أسوار المدينـة وما أقيم عليها من أبراج ، ثم مكتبة البلدية ، وتصفح الزائرون ما بها من مخطوطات عربية ويبلغ عددها بضعاً وسبعين مخطوطاً .

وفى المساء ألقى المحاضرة السابعة الأستاذ خوسيه ماريا دياث المؤرخ الرسمى لمدينة قرطبة وعنوانها « قرطبة المظهر الحى لتعريب إسبانيا » ، وقد عرض فيها الأستاذ دياث تاريخ قرطبة منذ عهد الرومان حتى العصر الحاضر ، وتحدث بالتفصيل عن تاريخ قرطبة العربى وما تدين به المدينة والحضارة الاسبانية بوجه خاص للأمة العربية ، ولم يترك ميدانا ولا ناحية من نواحى الحضارة إلا بين مصدره العربى ، وتكلم طويلا عن روح التسامح التى سادت الحكم العربى فى إسبانيا ، ثم عن اعتزاز القرطبيين بالمسجد الجامع وتعلقهم به إلى حد تمسكهم بعدم هدمه لإقامة كاتدرائية مكانه كما كان يريد رجال الكنيسة ، مما كان له الفضل فى بقاء هذا الأثر الرائع حتى اليوم .

وبعد انتهاء هذه المحاضرة قام الدكتور محمود على مكى وكيل المعهد بإلقاء المحاضرة الثامنة والأخيرة ، وكانت حول « شخصية الثقافة الأندلسية فى عصر الخلافة » وقد تناولت خصائص هذه الثقافة وما تميزت به من عناصر الأصالة فى نطاق الاطار العربى العام ، إذ أن العلاقات بين اسبانيا وأخواتها — حينئذ — من البلاد العربية لم تنقطع مطلقاً على الرغم من استقلالها فى ميدان السياسة ، إذ أن هناك عناصر مستمدة من الايديولوجية العربية وحدت بين جميع أعضاء الأسرة العربية فى الماضى كما توجد بينهم فى الوقت الحاضر على الرغم من تباين النظم السياسية .

وفى الساعة الثانية عشرة صباحا من يوم السبت ١٩ مارس ١٩٦٠ عقدت الجلسة الختامية للاسبوع فى قاعة الاحتفالات بنادى الصداقة ، وجلس على منصة الرياسة السيد أنتونيو مونيوث رئيس النادى ونائب عمدة المدينة والسيد إنريكث روما النائب الثانى للعمدة (عن بلدية قرطبة) والدكتور محمود على مكى وكيل المعهد والأستاذ خوسيه ماريا دياث المؤرخ الرسمى للمدينة والأستاذ خواكين مارتينث رئيس منطقة قرطبة الجامعية . وكان أول المتحدثين الأستاذ أنتونيو مونيوث ، فعبر عن مدى تقدير المدينة لهذا العمل الثقافى الذى اضطلع

به المعهد وقال : « إننا إذ نهنىء المعهد ونشكره على ذلك فإننا نهنىء أنفسنا ومدينتنا على أنها كانت أول عاصمة أندلسية تظفر بهذا القدر من الاهتمام من جانب الأمة العربية ممثلة فى معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد » ، ثم تحدث الأستاذ مونيوث عن مشروع إقامة المعرض الاسلامى الكبير الذى ترغب قرطبة فى اتخاذه تحية تهديها إلى الاسلام وإلى الأمة العربية بمناسبة الذكرى الألفية للخلافة الأندلسية وتعبيراً عما تدين به إسبانيا عامة والأندلس بصفة خاصة من فضل للشعب العربى .

وأعقبه الدكتور محمود مكى فألقى خطابا شكر فيه سلطات المدينة ونادى الصداقة على حفاوتهم بوفد المعهد وأشار إلى الدور الذى تستطيع اسبانيا ومعها عالم أمريكا اللاتينية والأمة العربية القيام به فى سبيل المحافظة على القيم الروحية التى هى جوهر كل حضارة وفى سبيل تدعيم السلام على أساس من الصداقة الخالصة والتعاون الصادق . وكان آخر المتحدثين الأستاذ رافائيل كاستيخون رئيس المجمع القرطبى للفنون والآداب فقال إنه سعيد بتوجيه التحية نيابة عن قرطبة إلى الأمة العربية ممثلة فى أشخاص وفد معهد الدراسات الاسلامية ، واستعرض الصلات الطيبة التى ربطت إسبانيا بالشعب العربى وبمصر بصفة خاصة وقال : « إن إعجابنا بنهضة بلادكم الفتية ليس أمراً جديداً علينا ، فإنى أذكر أن قضاة بلدنا — قرطبة — منذ نحو ألف سنة لم يكن يعرض لهم مشكل من الأمر إلا وسارعوا باستفتاء قضاة مصر ورجال الرأى فيها وإن الصلات بين شعبينا لم تنقطع قط حتى بعد أن تحولت إسبانيا إلى المسيحية وإن كل قرطبى يتأمل ما خلفه العرب فى بلده لا يسعه إلا أن يعتز بأجداده العرب ويذكر أنهم الآن ما زالوا ينتظرون دوراً حاسماً يقومون به فى تاريخ الانسانية الحاضر كما قاموا بذلك من قبل فى الماضى » .

وبهذا اختتم أسبوع معهد الدراسات الاسلامية فى قرطبة ، وقد تابعت الصحافة والاذاعة برامج الأسبوع يوماً بعد يوم ونشرت ملخصات وافية لجميع

ما تضمنه من المحاضرات والأحاديث ، ولم يقتصر ذلك على صحافة قرطبة أو المدن الأندلسية المجاورة ، بل تحدثت عنه صحافة العاصمة وسائر مدن إسبانيا .

وفد للصداقة إلى أمريكا اللاتينية :

فى شهر مارس سنة ١٩٦٠ سافر إلى أمريكا اللاتينية وفد من الجمهورية العربية المتحدة برياسة السيد الأستاذ حسين ذو الفقار صبرى نائب وزير الخارجية ، وقد اشترك فى هذا الوفد الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد ممثلا للجانب الثقافى فيه . وقد زار الوفد معظم بلاد أمريكا اللاتينية وأتم توقيع عدة اتفاقيات ثقافية بيانها كما يلى :

مع كولومبيا فى ١٩٦٠/٣/٢٤
مع المكسيك فى ١٩٦٠/٤/٨
مع شيلى فى ١٩٦٠/٤/٢٧
مع البرازيل فى ١٩٦٠/٥/١٧

هذا وقد مهدت البعثة بمحادثاتها إلى عقد معاهدات ثقافية مع فنزويلا والأكوادور وبوليفيا وأوروجواى .

وقد عملت البعثة كذلك على توثيق الروابط بين الجاليات العربية المنتشرة فى أنحاء أمريكا اللاتينية والعالم العربى ، كما أنها أعدت خطة لتبادل المنح الدراسية لطلاب الجانبين ، ولتزويد مكتبات النوادى العربية ومكتبات الجامعات فى تلك البلاد بما تصدره الجمهورية العربية من كتب ومطبوعات باللغتين العربية والاسبانية وبالتسجيلات الموسيقية والغنائية والأفلام العربية .

هذا وقد زارت البعثة فيما عدا البلاد المذكورة فيما سبق : جمهوريات كوبا وكولومبيا وبنما والمكسيك وهندوراس وكوستا ريكا والسلفادور وبيرو .

بعثة من سفارة الجمهورية العربية إلى جزر كنارياس :

فى جزر كنارياس توجد جالية عربية على قدر من الأهمية والكبر ، وقد نشأت منذ أوائل هذا القرن وما زالت تتزايد حتى الآن بشكل مطرد . وقد اتصل بعض أفراد هذه الجالية بسفارة الجمهورية العربية المتحدة رغبة منهم فى توثيق علاقاتهم بالعالم العربى ومحافظة على ثقافتهم ولغتهم .

وقد رأت سفارة الجمهورية العربية المتحدة أن تؤلف من بين أعضائها وفداً يزور هذه الجزر لتفقد شئون الجالية العربية ومعرفة احتياجاتهم وكان على رأسه السيد الأستاذ عبد الرحمن العظم سفير الجمهورية العربية المتحدة فى مدريد ، واشترك فيه السيد الدكتور حسين مؤنس مدير المعهد والمستشار الثقافى بالسفارة والأستاذ عبد الحميد عوض المستشار الصحفى .

وقد دامت الزيارة ستة أيام (من ٢٦ يونيه إلى ١ يوليه سنة ١٩٦٠) عقد خلالها أكثر من اجتماع مع رؤساء الجالية فى مدينة لاس بالماس (عاصمة ولاية جران كنارياس) ومدينة سانتا كروث دى تنريفه (عاصمـة ولاية تنريفه) وبحثت معهم مسألة إنشاء مدرسة خاصة لتعليم أبناء الجالية من أجل الاهتمام بالمحافظة على ثقافتهم ولغتهم العربية .

وفى أثناء هذه الرحلة انتهز الدكتور حسين مؤنس الفرصة فألقى محاضرة عن العلاقات الثقافية بين إسبانيا والعالم العربى ومركز جزر كنارياس كحلقة اتصال بين الجانبين ، وما للجالية العربية من فضل فى ذلك وما يمكن أن تؤديه فى المستقبل من رسالة جليلة فى سبيل هذه الغاية .

معرض الأستاذ محمد صبرى فى لشبونة :

كان المعهد قد أجرى اتصالات بسفارة الجمهورية العربية المتحدة فى لشبونة (البرتغال) من أجل تنظيم معرض للفنان العربى الزميل الأستاذ محمد صبرى ، واتفقت السفارة مع مصلحة الاستعلامات البرتغـالية على إقامة هذا المعرض فى قاعة المعرض الرسمية الخاصة بها فى المدة ما بين ١٩٦٠/٤/٢٥ و ١٩٦٠/٥/٥

وقد سافر الأستاذ محمد صبرى إلى لشبونة لهذا الغرض ومعه ٤٠ لوحة وقام بافتتاح المعرض السيد سفير الجمهورية العربية المتحدة فى البرتغال فى اليوم المقرر ، وحضر حفل الافتتاح عدد كبير من رجال السلك الدبلوماسى وكبار الصحفيين والنقاد والمهتمين بالمسائل الفنية والثقافية ، وقد لقى المعرض نجاحاً كبيراً ، وعلقت عليه الصحف كثيراً باعتباره أول معرض يقيمه فنان عربى فى البرتغال وكانت هذه التعليقات فى جملتها تقريظاً لأعمـال الأستاذ صبرى وثناء عليه .

وقد كان نجاح هذا المعرض دافعاً لبعض الجمعيات الثقافية فى جنوب البرتغال لطلب إقامة معرض مماثل فى مدينتين كبيرتين من مدن جنوب البرتغال ، غير أن الظروف لم تمكن الأستاذ صبرى من إقامة المعرض فوراً مما دعاه إلى مغادرة لشبونة عائداً إلى مدريد .

معرض الأستاذ محمد صبرى فى القاهرة :

افتتح فى شهر ديسمبر سنة ١٩٦٠ معرض لوحات للاستاذ محمد صبرى فى قاعة « الفن للجميع » بالقاهرة ، وقد استمر المعرض مفتوحاً خلال أسبوعين ، وتفضل بافتتاحه السيد وزير التربية والتعليم الأستاذ أحمد نجيب هاشم ، وقد

كان المعرض يحتوى على نحو أربعين لوحة ، وقد نال المعرض إعجاب النقاد الفنيين والصحفيين مما كان له صدى فى صحافة القاهرة .

إنشاء بيت للثقافة العربية فى مدينة قرباقة :

مدينة قرباقة من أعمال مرسية وهى بلد له كسائر بلاد هذه المنطقة تاريخ عربى يعتز به أهله ، ولعل أهم ما تمتاز به هذه المدينة فى الوقت الحاضر هو تلك الأعياد الفولكلورية التى يطلقون عليها اسم « مسلمون ونصارى » التى تمثل تاريخ المدينة فى عهديها الإسلامى والمسيحى . وقد أراد عدد من كبار أهل المدينة أن ينتقلوا بهذه الأعياد من مجرد كونها شعبية فولكلورية إلى شىء أكثر جدية وعمقاً ، إلى الاهتمام بدراسة الحضارة العربية الأندلسية فى مختلف مظاهرها ، ولهذا أنشأوا ما سموه « بيت الثقافة العربية Hogar de Cultura Arabe » واتخذوا مقره فى دار كبيرة فى أهم شوارع المدينة وحرصوا على أن يزودوا الدار بناد وقاعة للمحاضرات ومكتبة تجمع النصوص التاريخية الخاصة بالتاريخ الإسلامى لبلاد منطقتهم خاصة ولاسبانيا بوجه عام ، كما أصدروا مجلة خاصة بالدراسات العربية .

وقد وفد عدد من المشرفين على هذه الدار إلى مدريد فى شهر أبريل سنة ١٩٦٠ واتصلوا بسفارة الجمهورية العربية المتحدة وبالمعهد من أجل إعانتهم على التعريف بماضى العالم العربى وحاضره ، وتوجهوا بالدعوة لأعضاء السفارة والمعهد من أجل حضور أعياد مدينتهم التى تقام فى أوائل شهر مايو .

وقد قام بتمثيل السفارة والمعهد فى هذه الزيارة الأستاذ عبد الحميد عوض المستشار الصحفى بالسفارة والدكتور محمود على مكى والسيد نهاد الهبل الموظف بالسفارة ، واتفق على أن يقوم الدكتور مكى بإلقاء محاضرة بمناسبة أعياد مدينة قرباقة وأن يعرض عدد من الأفلام الإخبارية عن الجمهورية العربية المتحدة .

وقد تم تنفيذ هذا البرنامج فى حدود هذا النطاق ، وما زال بيت الثقافة العربية فى قرباقة حتى الآن يزاول نشاطه بالتعاون مع المعهد .

المؤتمر الدولى الأول للابحاث الخاصة برايموندو لوليو :

كانت إدارة العلاقات الثقافية التابعة لوزارة الخارجية الاسبانية قد دعت سفارة الجمهورية العربية المتحدة ومعهد الدراسات الاسلامية إلى الاشتراك فى الجلسات الختامية للمؤتمر المعقود عن المفكر الاسبانى الشهير رايموندو لوليو ، وذلك فيما بين ١٩ و ٢٤ أبريل سنة ١٩٦٠ فى فندق فورمينتور (جزيرة ميورقة) ، ومن المعروف أن رايموندو لوليو من أعظم المفكرين الاسبان تأثراً بالاسلام والثقافة العربية خلال القرن الثالث عشر الميلادى (ولد فيما بين سنتى ١٢٣٢ و ١٢٣٥ وتوفى سنة ١٣١٦) ، وقد أنابت السفارة عنها وكيل المعهد الدكتور محمود على مكى لحضور الجلسات الختامية لهذا المؤتمر وتتبع أعماله .

زيارة الأستاذ الدكتور سلامة حماد مدير العلاقات الثقافية لمدريد :

فى يوم ١٩٦٠/٧/٦ وصل إلى مدريد الأستاذ الدكتور سلامة حماد المدير العام لادارة العلاقات الثقافية بوزارة التربية والتعليم بالجمهورية العربية ، وقد تفضل سيادته بزيارة المعهد وتفقد سير العمل فيه وإبداء آرائه وتوجيهاته حول ذلك ، كما زار الاسكوريال واطلع على بعض المخطوطات العربية المحفوظة فى مكتبتها ، وغادر سيادته مدريد فى ١٩٦٠/٧/١٠

شئون البعثات :

فى ١٦/٧/١٩٦٠ سافر إلى القاهرة السيد سعد الدين أحمد مراد المدرس بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة وعضو الاجازة الدراسية بإسبانيا بعد أن قضى باسبانيا أكثر من سنتين درس خلالها بأكاديمية سان فرناندو للفنون الجميلة بمدريد .

وفى ٩/٨/١٩٦٠ وصل إلى اسبانيا السيد مصطفى عفيفى النقراشى عضو بعثة وزارة الزراعة لدراسة إنتاج الموالح فى بعثة دراسية لمدة ستة شهور ، وهو ما زال مستمراً فى دراسته بالتعاون مع هيئات البحث فى هذا الميدان .

وقد وافقت الادارة العامة للبعثات على مد الاجازة الدراسية الخاصة بالسيد أحمد ابراهيم شعراوى لمدة عامين ، وذلك فى اكتوبر سنة ١٩٥٩ ، وهو يواصل إعداد رسالته للدكتوراه فى كلية الفلسفة والآداب بجامعة مدريد .

وفيما عدا ذلك يواصل بقية طلاب المعهد فى اسبانيا أعمالهم ودراساتهم كالمعتـاد .

ندوة تعليم اللغة العربية لغير العرب

المعقودة فى دار معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد

(الاثنين ٢١ سبتمبر — الجمعة ٢٥ سبتمبر ١٩٥٩)

— ١ —

تمهيد

ليست هذه المرة الأولى التى تعقد فيها ندوة لمناقشة تلك المسألة المهمة . وهى تدريس اللغة العربية لغير العرب ، فقد سبق أن عقد فى أغسطس سنة ١٩٥٨ مؤتمر لذلك الغرض فى « مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد » (١٦ دتستر ستريت — كامبردج — ماساشوستس — الولايات المتحدة) تحت رعاية « لجنة الدراسات الخاصة بالشرقين الأوسط والأدنى » التابعة « لمجلس أبحاث العلوم الاجتماعية » . وقد قام بتنظيم ذلك المؤتمر والإشراف عليه الأستاذ م. ج. أ. فيرجوسن (الذى اشترك فى الندوة التى هى موضوع هذا التقرير) ، وكان فى ذلك الوقت يتولى مهمة التنسيق « لبرنامج الدراسات الصيفية لتدريس لغات الشرق الأوسط فى الجامعات الخمس » . وقد تفضل الأستاذ فيرجوسن فأرسل إلينا عدداً من نسخ التقرير الذى تضمن أعمال هذا المؤتمر وتوصياته ، مما انتفعنا به كل الانتفاع فى أعمال ندوتنا ، لاسيما وأن ذلك المؤتمر كان من أهم التجارب التى سبقتنا فى هذا الميدان .

وكان هدفنا من عقد هذه الندوة هو دراسة مسألة تعليم اللغة العربية من جميع النواحى : مناهجه وطرقه ، وإعداد المدرسين الذين يقومون به ، وفحص كتب

المطالعة الأساسية وكتب قواعد النحو والقواميس وما يستعان به فى التدريس من تسجيلات صوتية وأسطوانات أو أفلام أو صور تعرض بالفانوس السحرى . . . الخ ، ثم وضع منهج لتدريس العربية يقوم على أساس الاستفادة من التجارب التى قامت وتقوم بهـا بلاد أخرى لتيسير تعليم لغاتهـا للأجانب وبخاصة ما تم تطبيقه فى فرنسا والولايات المتحدة . ولهذا فقد روعى فى اختيار الأعضاء المشتركين فى هذه الندوة ألا يكونوا مقتصرين على التخصص فى تدريس اللغة العربية لغير العرب بل اجتهد فى أن يكون بينهم كذلك ملمون بالأساليب التربوية الحديثة فى تعليم اللغات للأجانب بصفة عامة .

وقد عهد إلى لجنة مؤقتة بأن تتكفل بهذه المهمة الشاقة : مهمة اختيار الأعضاء المساهمين فى الندوة ، وقد شجعنا على المضى فى هذا المشروع ما لمسناه من تأييد من وزارة التربية والتعليم فى الجمهورية العربية المتحدة ومن المتخصصين فى هذا الميدان للفكرة وتشجيعهم لها ، ثم ما تكرمت به منظمة اليونسكو من تقديم معونتهـا الفنية والمالية لتحقيق المشروع لاسيما وأنه ظفر باهتمام عدد من أقسام هذه الهيئة الثقافية الدولية وخاصة قسمى التعليم و « المشروع الكبير الخاص بالتفاهم بين الشرق والغرب » .

وقد كلفت وزارة التربية والتعليم المركزية للجمهورية العربية المتحدة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد باتخـاذ الخطوات اللازمة نحو تنفيذ المشروع ، كذلك تفضلت مؤسسة روكفلر بالمعاونة فيه فأخذت على عاتقها تسهيل اشتراك اثنين عن خيرة الخبراء الأمريكيين فى الندوة والتكفل بنفقات سفرهما إلى مقرها ، وقد تمكنا بذلك من الانتفاع بالتجارب القيمة التى بذلتها الولايات المتحدة فى هذا الباب .

ووجه المعهد الدعوة إلى ستة عشر متخصصا بين مستشرقين يعملون فى ميدان الدراسات العربية وعلماء لغة وخبراء فى التربية ، وهذا بيان بأسمائهم :

١ — السيدة لاورا فتشيا فاليرى أستـاذة اللغة العربية فى المعهد الشرقى التابع لجامعة نابلى — إيطاليا .

٢ — الأستاذ محمد الفاسى رئيس الجامعات المغربية — الرباط — المغرب الأقصى .

٣ — الأستاذ شارل بلا الأستاذ بجامعة باريس .

٤ — « فنسان مونتى الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية الحية فى باريس ومدير المعهد الفرنسى لتعليم اللغة العربية للأجانب فى بكفايا بلبنان .

٥ — الأستاذ ر . ب . سيرجنت الأستاذ بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية بلندن .

٦ — الأستاذ ج . م . ب . جونس الأستاذ بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية بلندن .

٧ — الأستاذ بارتولد شبولر أستاذ اللغة العربية والحضارة الإسلامية بجامعة هامبورج .

٨ — الأستاذ ف . بايبر أستاذ اللغة العربية بجامعة أمستردام .

٩ — « ف . جابريللى الأستاذ بجامعة روما .

١٠ — « شارل فيرجوسن مدير مركز العلوم اللغوية التطبيقية ، واشنجتون .

١١ — الأستاذ ايرنست ماك كاروس الأستاذ بجامعة ميتشجان ومدير معهد الخدمات الخارجية الأمريكى فى بيروت .

١٢ — الأستاذ بول ريفانك المدير المساعد لمركز دراسات الفرنسية الأساسية التابع لمدرسة المعلمين العليا فى سان كلو بفرنسا .

١٣ — الأستاذ الياس تيريس سادابا الأستاذ بجامعة مدريد .

١٤ — « فرناندو دى لاجرانخا الأستاذ المساعد بجامعة مدريد .

١٥ — « فليكس والتر مدير قسم اللغات بإدارة التعليم فى اليونسكو .

١٦ — « أحمد الأخضر مدير مركز الدراسات والأبحاث الخاصة بالتعريب بجامعة الرباط — المغرب الأقصى .

ولكن الأستاذين فرانشسكو جابريللى وجونس اعتذرا عن عدم الاشتراك فى الندوة لارتباطات سابقة ، وقد أشار علينا هذا الأخير بأن نتوجه بالدعوة إلى

زميله فى معهده الأستاذ م . ه . نوريس بدلا منه وقد كتبنا إليه بالفعل إلا أنه لم يتلق الدعوة إلا فى وقت متأخر إذ أنه كان يقضى إجازة له فى خارج لندن فى تلك الأثناء . وفى ١٢ أكتوبر كتب إلينا الأستاذ نوريس مبينا لنا السبب فى عدم رده على دعوتنا ومبديا عميق أسفه على أنه لم يستطع تلبيتها فى موعدها . وحدث مثل ذلك بالنسبة للأستاذ فنسان مونتى إذ أنه لم يتسلم الدعوة إلا بعد عودته من بكفايا (لبنان) ، فأرسل إلينا برقية تتضمن اعتذاره وأسفه . أما بالنسبة للأستاذ محمد الفاسى فإنه تسلم دعوته بعد عودته من الولايات المتحدة فى ٢٣ سبتمبر وأرسل إلينا معبراً عن أمله فى أن يتمكن من الحضور واجتهد فى ذلك ، ولكن المشاغل زحمته فبعث ببرقية يبدى فيها أسفه من أجل ذلك ويقول فيها أنه يتمنى كل التوفيق للندوة ويتضامن مع أعضائها فى كل ما يصدرونه من قرارات أو توصيات .

أما بقية المدعوين للاشتراك فى الندوة فقد كان من حسن الحظ أنهم استطاعوا تلبية الدعوة والحضور إلى مدريد للاشتراك فى أعمالها ، وهذا بيان بهؤلاء الأعضاء رتبت أسماؤهم فيه حسب وصول موافقتهم على الاشتراك فى الندوة :

١ — السيدة لاورا فتشيا فاليرى الأستاذة بالمعهد الشرقى التابع لجامعة نابلى .

٢ — الأستاذ شارل بلا الأستاذ بجامعة باريس .

٣ — ر. ب. سيرجانت الأستاذ بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية بلندن .

٤ — الأستاذ هانس فير الأستاذ بجامعة مونستر بألمانيا .

٥ — « بارتولد شبولر الأستاذ بجامعة هامبورج بالمانيا .

٦ — « ف . بايبر الأستاذ بجامعة أمستردام .

٧ — « شارل فيرجوسن مدير مركز العلوم اللغوية التطبيقية ، واشنجتون .

٨ — الأستاذ ايرنست ماك كاروس الأستاذ بجامعة ميتشجان ومدير معهد الخدمات الخارجية فى بيروت .

٩ — الأستاذ فليكس والتر من قسم اللغات بإدارة التعليم فى اليونسكو .

١٠ — الأستاذ أحمد الأخضر مدير مركز الدراسات والأبحاث الخاصة بالتعريب بجامعة الرباط .

١١ — الأستاذ بول ريفانك المدير المساعد لمركز دراسات الفرنسية الأساسية التابع لمدرسة المعلمين العليا فى سان كلو .

١٢ — الأستاذ الياس تيريس سادابا الأستاذ بجامعة مدريد .

١٣ — « فرناندو دى لاجرانخا الأستاذ المساعد بجامعة مدريد .

١٤ — « حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

١٥ — « محمود على مكى وكيل معهد الدراسات الإسلامية بمدريد .

وقد اجتهدنا فى اختيار هؤلاء الأعضاء أن يكونوا ممثلين للاتجاهات والمدارس المختلفة فى تعليم اللغة العربية فى البلاد الأوروبية والأمريكية التى تهتم بذلك الموضوع ، ولم يكن تمثيلهم على أساس دولهم أى أن كل عضو لم يكن ممثلا للبلد الذى ينتمى إليه بل لتخصصه واتجاهه العلمى .

وقد قدرنا منذ البدء أن الندوة سيستغرق انعقادها وعملها مدة خمسة أيام من الاثنين ٢١ حتى الجمعة ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٥٩ بمعدل جلستين فى كل يوم ، كما اقترحنا أن تقسم أعمال الندوة إلى خمسة موضوعات هى :

أ — المناهج الجارية فى تعليم اللغة العربية لغير العرب .

ب — الكتب الاساسية والقواميس وجوامع المفردات . . . الخ .

ح — كتابة العربية وطباعة حروفها .

د — نحو اللغة العربية وتصريفها .

ه — امكان وضع كتاب لتعليم ما يمكن أن يسمى « لغة عربية أساسية » .

وقد أوضح معهد الدراسات الإسلامية فى خطاب الدعوة الذى وجهه إلى السادة الاعضاء أن هذا التقسيم ليس إلا مجرد اقتراح مبدئى لبرنامج العمل وانه عندما يجتمع الاعضاء فإنه ليس هناك مانع من إدخال كل تعديل أو تغيير يرون إجراءهما عليه .

وتعهد المعهد بأن تقوم سكرتاريته بتولى أعمال سكرتارية الندوة ، أما الأعمال الفنية الخاصة بالترجمة الوقتية والاختزال وغير ذلك فقد استعنا فيها بفتاتين من

الإقليم المصرى بالجمهورية العربية المتحدة تدرسان فى « مدرسة التراجمة » بجنيف هما الآنسة نيكول يوسف بيطار والآنسة مريم حلمى سليمان ، وتصادف وجودهما فى مدريد فى ذلك الحين .

— ٢ —

الدراسات والتقارير التى قدمها الأعضاء قبل انعقاد الندوة

تلقت سكرتارية الندوة قبل انعقاد جلساتها الدراسات والتقارير الآتية :

١ — السيدة لاورا فتشيا فاليرى : ملاحظات مقدمة للندوة المعقودة فى معهد الدراسات الإسلامية .

Apunti par il convegno indetto dello Instituto de Estudios Islámicos.

٢ — الأستاذ ر . ب . سيرجانت : تعليم اللغة العربية لغير العرب .

The teaching of Arabic to non-Arabs.

٣ — الأستاذ شارل فيرجوسن : مشاكل تدريس اللغة العربية الأساسية .

Problems of Teaching modern standard Arabic.

(تقرير حول المؤتمر الذى عقد فى جامعة هارفارد — أغسطس سنة ١٩٥٨) .

٤ — الأستاذ حسين مؤنس : ملاحظات تمهيدية .

٥ — الأستاذ فليكس والتر : تعليق على بحث الدكتور طه حسين حول اللغة العربية التى نسعى إلى تعليمها للناس .

Taha Hussain's What is the Arabic Language we want to teach in the public.

وقد قام المعهد بترجمة تقرير السيدة فاليرى إلى العربية والاسبانية ، وأما تقرير الدكتور حسين مؤنس الذى كان قد كتب بالعربية والانجليزية فقد ترجم كذلك إلى الاسبانية ، وتفضل الاستاذ فيرجوسن فأرسل من تقريره عشرين نسخة وزع على كل عضو منها نسخة واحتفظ بباقيها .

أما بقية التقارير والدراسات المذكورة فقد وزع المعهد منهـا على كل من الاعضاء نسخة كذلك .

وتفضل الاستاذ ماك كاروس فقدم للاعضاء خمس عشرة نسخة من ملازم كتاب General Eastern Arabic الذى وضعه الاستاذان فرانك رايس Frank Rice وماجد سعيد وقد ظهر هذا الكتاب مؤخرا .

كما تكرم كل من السيدة فتشيا فاليرى والاساتذة شارل فيرجوسن وبول ريفانك وفليكس والتر بإهداء المعهد مجموعات من الكتب القيمة التي تعـالج موضوع تعليم اللغة العربية للأجانب أو التى تتناول المناهج الحديثة لتعليم اللغات الاجنبية بصفة عامة ، وقد أضيفت هذه المجموعات إلى ما لدى المعهد مما يتعلق بهذا الشأن ، هذا وقد خصص المعهد جانبا من مكتبته لـكل المؤلفات الخاصة بتلك الناحية .

— ۳ —

حفل الافتتاح

تم افتتاح الندوة فى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاثنين ۲۱ سبتمبر سنة ۱۹٥۹ ، وبهذه المناسبة دعا المعهد ممثلى الشعبة الاسبانية القومية لليونسكو وموظفى الادارة العامة للعلاقات الثقافية بوزارة الخارجية والمعهد الثقافى الاسبانى العربى وأعضاء الهيئـات الدبلوماسية العربية والاسلاميـــة المعتمدين فى مدريد والملحقين الثقافيين ببعض السفارات الاجنبية الاخرى وممثلى الصحافة والاذاعة وأعضاء جمعية الصداقة الاسبانية العربية .

وبدأ الحفل بخطاب ألقاه الدكتور حسين مؤنس استهله بالترحيب بالأعضاء المشتركين ثم عرض الأعمال التى ستباشرها الندوة واقترح أن يوجه الاهتمام إلى اللغة العربية الجارية التى تكتبها الصحافة وتتحدث بها الإذاعة « لأن هذه العربية هى وسيلة التفاهم الأولى فى العالم العربى كله وهى أداة التعبير عن الآراء

والترجمة عن الأفكار هذا بينما تقتصر اللهجات العامية على المناطق التى تستعمل بها ولا تصلح إلا للمعاملات اليومية العادية » .

ثم أعطيت الكلمة للأستاذ شارل بلا فقام بعرض كان قد تفضل بإعداده من قبل ، واستغرق إلقاؤه لخطابه هذا نحو ساعة . فعرض بما هو معهود فيه من علم واقتدار تأريخاً موجزاً لمسألة تعليم اللغة العربية فى البلاد الأوروبية والمشاكل التى تعترض المشتغلين بهذا الموضوع ، وكان مما قاله فى ذلك :

« إن هذا الاجتماع سيتيح لنا الفرصة فى الواقع — وأنا أزن كلماتى هذه بميزان دقيق — للمساهمة فى القيام بثورة ، هذا وإن بدا من الغريب أن نساهم نحن — معشر الباحثين الجامعيين — فى القيام بثورة ، ولست أريد أن أفيض فى الكلام عن ذلك فلندعه إلى العمل الذى تضطلع به هذه الندوة ولنر كيف نستطيع أن نباشر هذا العمل الثورى فى ميدانها » . واستعرض الجهود التى بذلت فى أوروبا لتيسير دراسة اللغة العربية مشيراً إلى كبار المستشرقين الذين ساهموا فى ذلك .

ثم تحدث بعد ذلك الأستاذ إلياس تيريس فقام بعرض شامل لتدريس اللغة العربية وتاريخه فى اسبانيا ودراسة عامة للمشاكل والصعوبات التى اقترح أن تكون موضع بحث الندوة ، وقد طبعت دراسة الأستاذ إلياس تيريس ووزعت نسخ منها على الأعضاء .

وبخطاب الأستاذ تيريس انتهى حفل الافتتاح وقدمت بعض المرطبات على المدعوين ، ثم بدأ اجتماع أعضاء الندوة فى إحدى قاعات المعهد وبذلك افتتحت الندوة أعمالها .

— ٤ —

أعمال الندوة

بدأت الجلسة الصباحية لأول أيام الندوة باختيار واحد من الأعضاء يدير المناقشات وهيئة السكرتارية ، وقد اقترح أن يتولى إدارة المناقشات الأستاذ بايير

إلا أنه اعتذر عن ذلك فاقترح الأعضاء أن يتولى ذلك الدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الإسلامية ولكنه اعتذر عن ذلك إذ أن الدعوة إلى عقد الندوة صادرة من المعهد ولهذا يستحسن أن يختار غيره ، وهكذا توجه الأعضاء إلى الأستاذ شارل بلا الذى قبل الاضطلاع بهذه التبعة ، وانتخب الأستاذان أحمد الأخضر وبول ريفانك لكى يكونا مقررى الندوة والدكتور حسين مؤنس لتولى أعمال السكرتارية .

١ — اللغة العربية المعاصرة

بدأت المناقشات ببحث حول نوع اللغة العربية التى ستكون موضع بحث الندوة ، فقال الأستاذ أحمد الأخضر إن تعليم لهجة من لهجات اللغة العربية لا ينبغى أن يكون محل اعتبار هنا ، أما تعليم اللغة الفصحى فيمكن أن يعود بالفائدة إذا اضطلع به إلى جانب تعليم اللغة العربية الجارية لغة الصحف والإذاعات العربية فى الوقت الحاضر .

الاستاذ شارل بلا : يجب أن يكون تعليم اللغة العربية قائما على أساس أنها وسيلة من وسائل التفاهم ، ولهذا ينبغى أن تبذل كل الجهود لتشجيع العناية بها فى البلاد الأوروبية والأمريكية ، وفيما يتصل بفرنسا فإن العربية تدرس بها فى ثمانية عشر معهدا ثانويا ، ونحن نقصد بالعربية هنا اللغة الجارية الحديثة التى تستخدم فى الصحف والإذاعة والتي يكتب بها الأدب العربى الحديث .

الأستاذ هانس فير : إننا نستطيع أن نسمى هذه اللغة العربية الجديدة العالية قياساً على ما نسميه بالألمانية « Hochdeutch » لمشابهتها إياها .

الأستاذ الاخضر : إن لغة الصحافة عربية فصحى لا تختلف عن لغة النصوص القديمة إلا فى استعمال المفردات الذى تطور بتطور الزمن .

الأستاذ بلا : أقترح لتحديد ما يقصد بهذه العربية الجارية أن يلاحظ أن ما نريد أن نعلمه هو مفردات اللغة التى اشتمل عليها مثلا ذلك القاموس الذى قام بوضعه الأستاذ هانس فير .

الأستاذ مؤنس : إننى أقترح أن يكتفى بتسمية هذه اللغة التى ندرس الآن مشاكل تعليمها « العربية » فقط دون أى تحديد أو وصف ، فإن اللغة التى نكتب بها الآن لا تختلف عن التى كان يكتب بها فى العصور الماضية إلا فى تطور استعمال المفردات ، أما نحو العربية وتصريفها فهما باقيان كما كانا ومثل ذلك يمكن أن يقال إذا نظرنا للغة العربية على مر العصور ، فالفروق بين لغتنا اليوم ولغتنا من عدة قرون مضت لا تختلف كثيراً عن الفروق بين عربية القرن الثالث الهجرى وعربية القرن الرابع أو الخامس مثلا ، ولهذا فإنى أرى أن الأفضل أن نقول إننا نعلم اللغة العربية فقط دون أى إضافة أو تعريف .

الاستاذ والتر والاستاذ سيرجانت : اقترحا أن تسمى هذه اللغة بـ « العربية المعاصرة » ووافق المجتمعون بالإجماع على هذه التسمية .

الأستاذ بلا : أود أن ألفت نظر السادة الأعضاء إلى جدول الأعمال الذى كان قد اقترحه المعهد من قبل ، لنرى ما إذا كنا نقره أم نجرى عليه بعض التعديلات اللازمة .

وبعد تناول البحث والنقاش فى هذه المسألة استقر الرأى على توزيع العمل على الموضوعات الآتية :

١ — دراسة النحو والتصريف .

٢ — إمكان وضع منهج لـ « لغة عربية أساسية Arabe de base » .

٣ — مشاكل كتابة اللغة العربية وطباعة الحروف .

٤ — القواميس وجوامع المفردات والكتب المدرسية ومناهج تعليم العربية لغير العرب .

١ — دراسة النحو والتصريف :

بدأ الأستاذ شارل بلا بإبداء أسفه لغياب الأستاذ فنسان مونتى الذى قام بأبحاث عديدة حول هذا الموضوع . ثم اتفق المجتمعون على أن تكون نقطة البدء فى بحث هذه المسألة هى العناية باللغة الحية المستعملة فى واقع الحياة ثم

السير فى تعليم هذه اللغـة برفق حتى لا يغرق المبتدىء فى سيل من القواعد النحوية المتتابعة .

وتحدث الأستاذ الاخضر عن التجارب التى بذلت فى المغرب لتعليم العربية للأميين ، وميز بين نوعين من ضبط حركات الالفاظ : ضبط داخلى أى الذى يعين على النطق السليم بحروف كل كلمة ثم ضبط خارجى وهو الذى يحدده محل كل لفظ من الإعراب فى الجملة ، وقد اهتمت مجـلة « منار المغرب » التى يصدرها مكتب مكافحة الامية فى المغرب بالنوع الأول من الضبط أما الثانى فإن المعنى والسياق كفيلان بإيضاحه .

ثم قال إن المرحلة الثانية التى تأتى بعد ذلك هى مواجهة المتعلم بالجمل المركبة . وحينئذ أشار بعض المجتمعين إلى صعوبة مسألة الأعداد فى العربية بالنسبة للمبتدىء ، وأجاب الاستاذ الاخضر على ذلك بأن الاذاعة تستعمل العربية الدارجة فى أغلب الأحيان للتعبير عن أسماء الأعداد ، إلا أن الأستاذ شارل بلا اعترض على ذلك قائـلا : إنه يوافق على أن نترك جانباً كل ما ليس بكثير الاستعمال فى المرحلة التمهيدية ولكنه يرى أنه ينبغى أن نعلم المبتدئ الضبط الخارجى أولا دون أن نتعرض منذ البدء لتدريس الاعراب وتصريف الافعال ، وقد رأى الاستاذ بلا أن يترك كل ذلك تقريباً فى هذه المرحلة الاولى ، ثم نبه إلى ضرورة الاستعانة بنتائج الأبحاث الحديثة فى ميدان علم مخارج الحروف .

ثم استطرد الاستاذ بلا قائلا : ان تدريس الإعراب بالصورة الحالية تدريس ساذج صبيانى إلى حد كبير ، هذا بينما كان ينبغى أن يجعل أساس التدريس الضبط الصحيح لحروف الكلمات وتصريف الافعال ، ولنضع نصب أعيننا أن تركيب الجملة فى العربية يختلف عنه فى اللغات الاوربية الحديثة إذ أنه لا يتبع نظاماً محدداً . والإعراب يبدو فى كثير من الاحيان أمراً لا داعى له إذ أنه يمكن فهم الجملة دون إثباته ، ولكننا ينبغى علينا مع ذلك ألا نمس روح اللغة وطبيعتها فنهمل الإعراب تماماً ، وإنما الذى نستطيع أن نفعله هو تعليمه بصورة تسهله وتيسر على المبتدىء المدخل إليه .

الأستاذ شبولر : إن من الممكن بالفعل تبسيط الكثير من القواعد النحوية وإرشاد التلاميذ إلى الطرق التى تجعلهم أقل عرضة للوقوع فى الخطأ ، وهذا أمر نستطيع الوصول إليه عن طريق الاستقراء للحالات النحوية ولنضرب على ذلك مثلا : إحصاء الأفعال الثلاثية مثل « كتب » فإننا نجد أن هذه الأفعال تخضع لقواعد محددة والشذوذ فيها لا يزيد على عشرة أفعال ، فإذا حفظ الطلاب ذلك وتنبهوا إلى وجوه الشذوذ سهل عليهم كثيراً .

الأستاذ بلا : أود أن أنبه إلى ضرورة عدم تجاهل النتائج الجديدة التى كشفت عنها الأبحاث الاخيرة فى ميدان اللغة والنحو ، ويجب علينا أن نتحرز من خطر تلك النتائج المتسرعة التى تتعارض وحقائق الاشياء ، ومن المحقق الآن أنه ليس هناك حاجة إلى كثير من شرح القواعد النحوية وتفسيرها للطالب المبتدئ من أجل تبسيطها وتسهيلها عليه ، بل إن الأصوب هو أن تعطى له الامثلة فيحفظها حفظاً كأنها « عقيدة » مسلم بها ، أما التعليل والتفسير فإنهما مرحلة تأتى بعد ذلك ، وأنا أرى أن نبدأ بتعليمه تصريف الافعال والإعراب وقدراً من المفردات .

الاستاذ سيرجانت : إن هذا سوف يكون نحواً جديداً وصفياً ثم تفسيريا إلى حد ما .

الأستاذ مؤنس : أقترح على الأعضاء أن يثبت كل منهم فى تقرير قصير قائمة بالصعوبات التى يرون أن التلاميذ غير العرب أكثر اصطداما بها خلال دراستهم للغة العربية ، وعلى أساس النظر إلى تلك الصعوبات يمكن أن نصل إلى وضع « حد أدنى » لنحو عربى تجريبى مشترك .

واقترح أحد الأعضاء أن يقدم كل عضو فى جلسة اليوم التالى المسائية تقريراً قصيراً عن هذا الموضوع ، وأن ينتفع بخلاصة هذه التقارير فى دراسة منهجية لتلك الصعوبات التى يصطدم بها المبتدئون .

ثم تحدث الأستاذ ريفانك عن تجاربه فى وضع « الفرنسية الأساسية » . وأشار إلى ضرورة تحديد المادة التى سوف تلقى للمتعلمين قبل دراسة المناهج التربوية .

وأعقبته السيدة فاليبرى فتحدثت عن الخطر الناجم عن اختلاف التكوين العلمى لمدرسى اللغة العربية واقترحت أن يوضع مدخل « إلى تعليم العربية » تعرض فيه بإيجاز وجوه الخلاف بين اللغات الهندية الاوروبية واللغات السامية والمفهومات المختلفة للتحليل النحوى بين هاتين المجموعتين ثم تقدم فيه قائمة بالتعريفات والمصطلحات النحوية المتعلقة بالالفاظ وتركيب الجمل بوجه خاص .

وأضاف الأستاذ بلا إلى ذلك ضرورة الاهتمام بتوحيد هذه التعريفات والمصطلحات .

وأشار الأستاذ مؤنس إلى أن المناهج التى تدرس اللغة العربية فى مدارس الجمهورية العربية المتحدة تستخدم فى الوقت الحاضر مصطلحات مبسطة .

ثم تقرر تأجيل دراسة باقى المسائل الخاصة بالنحو والتصريف إلى جلسة اليوم التالى حتى يستطيع الأعضاء أن يقدموا القوائم التى تقرر أن يعدوها مبينين فيها الصعوبات التى تعترض المبتدئين فى تعلم العربية .

واقترح الأستاذ والتر أن يوضع كتاب يشتمل على « حد أدنى » لنحو اللغة العربية الذى يجب تدريسه للمبتدئين وأن يترجم مثل هذا الكتاب إلى مختلف اللغات لتعميم نشره وليستعين به المدرسون لهذه اللغة فى سائر البلاد ، وأشار الأستاذ والتر بجمع كل الكتب التى ألفت فى هذا الموضوع لفحصها والاستعانة بالصالح منها .

الأستاذ ريفانك : أود أن أكرر ما سبق أن قلته حول ضرورة جمع المادة التى سوف نعلمها أولا ، أما فيما يتعلق بالمنهج التعليمى فإن هذا يترك لاختيار المدرس نفسه وهذا هو ما نتبعه فى تعليم اللغة الفرنسية للأجانب .

السيدة فاليبرى : ليكن فى علمنا أن الذين سيضطلعون بتدريس اللغة العربية للأجانب فى المستقبل هم المدرسون العرب أنفسهم ولهذا فإنه من الواجب أن يهتم بتكوين جيل من هؤلاء تكوينا علميا سليما ، وعلينا أن نعمل على إعطائهم مختصرا للقواعد النحوية التى يجب أن يلقوها إلى تلاميذهم مع العناية بأن يعرفوا كيف يفرقون بين المسائل الاساسية الجوهرية وغيرها . ويجب أن يكون فى

مقدمة هذا المختصر تفصيل للفروق المورفولوجية بين اللغات الاوروبية واللغات السامية وكذلك لوجوه الخلاف بين كل منها فى المنطق الخاص والمفهومات النحوية والاصطلاحية ، كذلك يكون فيه شرح للمصطلحات الموجودة فى نحو العربية والتى لا تتفق مع مثيلاتها فى اللغات الاوروبية .

الاستاذ بلا : ليس هناك شك فى ضرورة التوجه إلى المدرسين الذين سوف يضطلعون بتدريس لغتهم للأجانب وإيضاح كل هذه النقط لهم حتى يكونوا محيطين بها أثناء عملهم ، أما فيما يتعلق بمسألة الاصطلاحات فإنى أؤيد الدعوة إلى « ثورة » شاملة فى هذا الميدان . ولنذكر أن هناك معجما اصطلاحيا وضعه ماروزو Marouzeau بثلاث لغات . وواجبنا الآن يقتضى منا أن نساعد الاستاذ الاب فلايش Fleisch الذى يبذل الآن جهدا عظيما فى وضع قاموس للمصطلحات العربية النحوية .

الاستاذ فيرجوسن : يسرنى أن أبلغ السادة الزملاء أن هناك مؤتمرا قد تقرر عقده فى أبريل القادم فى ميتشجان بالولايات المتحدة للتباحث حول المسائل المتعلقة بالاصطلاحات النحوية .

الاستاذ بلا : الذى يهمنا جميعاً فى أداء مهمتنا فى تدريس اللغة العربية لغير العرب هو أن نكون متفقين جميعاً حول هذه الناحية فنسلك فيها طريقاً موحداً ، ولعل من الخير أن يضطلع واحد من الباحثين بوضع دراسة لغوية للمصطلحات باللغة العربية نفسها . ولاذكر أن النحو فى فرنسا يدرس بطريقة تقوم إلى حد كبير على أساس التحليل النحوى المنطق أما فى اللغة العربية فإن التحليل يختلف عن ذلك كثيراً .

السيدة فاليرى : ألاحظ أن منهج التدريس الذى يطبقه مدرسو اللغة العربية من الصعوبات والتعقيد بحيث يصعب على التلميذ المبتدئ تتبعه وفهمه .

الاستاذ بلا : هل بقى اقتراح خاص من أحد الزملاء بهذا الموضوع ؟ .

ولما لم يتقدم أحد للكلام فقد رؤى البدء فى بحث الموضوع الثانى وهو :

٢ — إمكان وضع منهج ا « لغة عربية أساسية Arabe de Base » :

بدأ الاستاذ بلا يقوله : إن هنـاك عدداً من الدراسات الإحصائية حول اللغة العربية الحديثـة وإن هذه الدراسات قد استقرأت جوامع مفرداتها من الصحف ومن بعض النصوص الادبية . وقال إن من الممكن أن نتخذ من هذه الدراسات نقطة البدء فنستعين بها فى وضع قائمة تضم ثلاثة آلاف (٣٠٠٠) لفظ من بين الألفاظ التى هى أكثر شيوعا واستعمالا ، وينبغى أن يكون منهجنا فى اختيار هذه الكلمات منهجاً مقارناً تصفى فيه بالتدريج وتستبعد الكلمات التى هى أقل استخداماً من غيرها . وإذا حدث أن إحدى الصيغ المشتقة كانت بعيدة عن الاصل بعداً كبيراً فلا بأس فى أن تعتبر كلمة مستقلة توضع فى مكان آخر غير مكان أصلها ، أما سائر الالفاظ المشتقة الاخرى فينبغي أن يراعى فيها ضرورة وضعها بوضوح تحت أصولها الثلاثية .

الأستاذ فير : ان مسألة بناء الألفاظ فى العربية تعتبر من أكبر صعوبات اللغة العربية ، وهناك كثيرون يتوقون إلى تعلم العربية إلا أن عزائمهم لا تلبث أن تثبط حينما يصطدمون بهذه الصعوبة ولهذا فإنه يجب أن نبحث كيفية التغلب عليها لا سيما وأنهـا أعظم عقبة تعترض سبيل ما نسعى إليه من وضع « لغة عربية أساسية » .

الأستاذ بلا : لقد ذكرت من قبل أنه من الممكن بصفة مبدئية وضع « عربية أساسية » وأنا أعنى بذلك مجموعة من المفردات التى تتبين الحاجة إليها وكثرة استعمالها . وقد واجه منظمو هذه الندوة تلك المسألة منذ البدء . وأنا أكرر الآن ما سبق أن قلته من قبل من ضرورة الاستعانة بالدراسات الإحصائية التى أجريت على مفردات العربية الحديثة ، ومن هذه المفردات يمكن استخراج قائمة تحتوى على ٣٠٠٠ لفظ على أساس من التجريد الاحصائى والمنهج القارن حتى تستبعد الكلمات التى هى أقل ذيوعاً واستخداماً .

الأستاذ فير : أود أن أسأل : كيف يمكن أن نضع مدخلا لتعليم اللغة

العربية بالألمانية مثلا مع كوننا نعلم أنه من الصعب أن تدرس لغة أجنبية جديدة على أساس لغة أجنبية أخرى ؟

الأستاذ مؤنس : يجب علينا ونحن فى أول مراحل وضع هذه العربية الأساسية ألا نغفل عن مسألة العلاقة بين بناء الأصل الثلاثى للكلمة وصيغها المشتقة ، فإننا إذا أهملنا هذه الناحية تزايد عدد مفردات القاموس المقترح بصورة هائلة كما أن ذلك قد يؤدى إلى عدم إتاحة الفرصة للطالب لكى يلاحظ بنفسه بناء الكلمة العربية وتركيب صيغها ولكن الذى يحدث هو أن القواميس العربية الأوربية الحديثة كثيراً ما تعالج اللغة العربية كما تعالج أى لغة أوربية أخرى . فـ « أقرب الموارد » مثلا يعتبر « ضرب » كلمة مستقلة تحت حرف الضاد و « أضرب » كلمة أخرى تحت حرف الالف . وإذا كان هذا ممكناً فى هاتين الكلمتين بالذات إلا أنه فى معظم الاحوال الاخرى لا يستقيم إذ أنه لا يمكن فصل صيغة الفعل الذى على زنة « أفعل » من ناحية المعنى عن الاصل الذى اشتقت منه وهو الفعل الثلاثى الذى على زنة فعل (كما هو الامر مثلا فى دخل وأدخل) ، ولهذا فإنه ينبغى ألا نسرف فى التمييز بين الصيغ المشتقة وأصولها ، فيؤدى، ذلك بنا إلى إخفاء العلاقات بين الصيغ المختلفة من ناحية ، ووضع مزيد من الصعوبات فى سبيل المتعلم من ناحية أخرى . ولهذا فإنى أقترح ألا تعتبر الصيغ المشتقة كلمات قائمة بذاتها منفصلة عن الكلمات التى هى أصول لها إلا فى الاحوال التى تدل فيها الصيغ على معان مختلفة تماماً عن أصولها الثلاثية كما هو الحال فى العلاقة بين « ضرب » و « أضرب » .

الاستاذ بلا : إننى أرى أن زيادة عشر صفحات فى الكتاب المقترح خير من أن نعقد الامر على الطالب المتعلم بالاستغناء عنها ، ومع ذلك فيجب أن نضع نصب أعيننا دائماً مسألة الاصل الثلاثى للصيغة المشتقة ويمكن لابراز هذا الاصل أن نلجأ إلى وسيلة بسيطة وهى أن تكتب الحروف الاصلية للكلمة ببنط كبير بينما تكتب الحروف الزائدة ببنط عادى ، وربما كان من المفيد أن نكتب الكلمات العربية بحروف لاتينية إلى جانب رسمها العربى لتيسير النطق بها على الاجنبى .

السيدة فاليرى : من الممكن أيضاً أن نكتب الحروف الزائدة ببنط عادى بينما تكون الحروف الأصلية مكتوبة ببنط كبير ، وذلك لأن الطالب الاجنبى لا يسهل عليه دائماً أن يميز الحروف الاصلية من الزائدة لا سيما إذا كان قد تعلم بطريق السماع .

الأستاذ بلا : إن منهجنا هذا نفسه هو الكفيل بأن يوجد لدى الطالب المتعلم وعيا يمكنه من أن يحس بالحروف فيعرف أيها أصلى وأيها زائد . غير أن النقطة الجوهرية فى هذه المسألة هى : كم عدد الكلمات التى ينبغى علينا وضعها فى القاموس المقترح ؟ ومن الذى يمكن أن تتوفر له المقدرة على القيام به ؟ .

الأستاذ الأخضر : أظن أنه يجب علينا أولا أن نحدد ماهية هذه « العربية الأساسية » وفقا للهدف الذى نعلقه عليها ، فالمفروض أننا نريد من هذه العربية أن يتمكن الطلاب الأجانب من استخدامها فى قراءة الصحف والكتب الحديثة والاستماع إلى الاذاعة . وبهذه المناسبة أود أن أذكر السادة الزملاء بالتوصيات التى انتهى إليها مؤتمر فاس الذى ضم الشعب القومية لليونسكو فى جميع البلاد العربية . فقد اتخذ أعضاء هذا المؤتمر قراراً بضرورة إنشاء « لغة عربية للعمل » أى جامع مفردات موحد للكلمات المستعملة فى ميدان الفنون والصناعات ، ومن أجل هذا الغرض تقرر إنشاء « مركز للتنسيق » بين سائر البلاد العربية فى الرباط تكون مهمته توحيد هذه الكلمات فى جميع هذه البلاد ؟ واستقر الرأى على أن يكون من أقسام هذا المركز « قسم للتعريب » يتكفل بإعداد ثلاث قوائم من المفردات .

أ — الأولى تكون شاملة للمفردات المتفق عليها بالفعل فى جميع البلاد العربية .

ب — الثانية تتألف من الكلمات المختلفة التى تؤدى معنى واحداً فى هذه البلاد ، فهناك مثلا كلمة Vice-Président بالفرنسية يعبر عنها فى البلاد العربية بألفاظ كثيرة : وكيل — نائب — خليفة — كاهية .

ج — الثالثة تشمل الكلمات التى ليس هناك ما يقابلها بالعربية تماماً مثل كلمة « أباجور Abat-jour » التى كثيراً ما تكتب هكذا لتعذر ترجمتها .

ولهذا فإنى أرى من الضرورى أن ينتهى أولا من إعداد هذه القوائم حتى نستطيع أن نتحدث عن « عربية أساسية » نقدمها للطلاب الأجانب .

الأستاذ بلا : أنا أخشى أن يكون هناك التباس حول فهم تعبيرنا « العربية الأساسية » أو خلط فى تأويله ، فمدار الحديث هنـــا حول اختيار حد أدنى للمفردات العربية ذات الضرورة القصوى للتعبير عن حاجات الطالب المبتدئ وقد يكون صحيحاً أن مشكلة بعض الكلمات التى لا نظير لها فى العربية مثل كلمة « أباجور » ما زالت قائمة لم تحل بعد ، ولكن لا ننس أنه إذا استثنينا نحو خمسين لفظاً لم ينته النقاش حولها — فإن هناك ألفاظاً أخرى كثيرة قد اتفق عليها فى العالم العربى كله ولم تعد فى حاجة إلى مزيد من البحث أو الخلاف . هذا إذا أدخلنا فى حسابنا أننا نتحدث عن اللغة العربية المعاصرة كما اجتمع رأينا على ذلك فى مستهل هذه الندوة .

وتقدم للكلام بعد ذلك الأستاذ ريفانك فعرض المراحل التى مرت بها فى فرنسا عملية جمع المفردات الاساسية لما يسمى هناك ال « Français Elémentaire » وأوضح أهمية الدراسات الإحصائية قبل البداية فى تلك العملية وضرورتها باعتبارها الطريق الوحيد الموصل إلى الهدف المنشود ، على أن الإحصائيات ليست هى كل شيء فقد اتضح من الابحاث التي قام بها الاستاذان جوجنهايم وميشيا أن المفهوم التقليدى الذى كان يعتبر أساساً لجمع المفردات وهو مفهوم « الشيوع » أو « كثرة الاستعمال » لم يعد كافياً ، إذ تبين أن هناك مفهوماً آخر ينبغى أن يكون فى الاعتبار وهو « تيسر اللفظ La disponibilité » .

أما الإحصائيات التى يقصد منهـا حصر أكثر الكلمات شيوعا واستخداما فإنها تعيننا على جمع المفردات النحوية والافعال ذات الدلالات العامة مثل أفعال الكون والعمل (être, avoir, faire) . . . الخ ثم الاسماء والصفات العامة كذلك . غير أن هناك كلمات محددة المعانى (لاسيما الاسماء منها) لا تظهر فى الإحصائيات بصورة ثابتة ، وإذا أردنا أن نثبت مثل هذه الكلمات فى « جامع المفردات » المقترح فإن علينا أن نكشف عنها بواسطة أبحاث أخرى تجرى على أساس « الموضوع » ، وذلك بأن نبحث عن الاسماء الاكثر استعمالا فى الحديث

مثلا عن « المنزل » أو « الملابس » أو « طرق المواصلات » أو « الطعام » . . . الخ . وحينئذ يمكننا أن نضع درجات لمدى تيسر اللفظ ونحدد « درجات لمدى توارد الكلمات » فى بحثنا العام .

فإذا عرفنا كيف نجمع بين هذين النوعين من البحث وننسق بينهما استطعنا أن نصل إلى أساس معقول للمناقشة يمكن أن يسمح لنا أخيراً بعمل قائمة نهائية .

الاستاذ بلا : إنى أرى أنه ليس من الممكن الآن أن نواجه مسألة القيام بأبحاث إحصائية أصيلة ، ولهذا فإنى أقترح الشروع فى التقريب بين قوائم المفردات التى وضعت فعلا والتى استفيد فى جمعها من الطرق والمناهج المختلفة لتدريس اللغة العربية . وقد ووفق بالإجماع على هذا الرأى .

أما هذه القوائم فإنها الآتية :

١ — قائمة بريل المشتملة على دراسة إحصائية لنحو ١٣٦,٠٠٠ لفظ .

٢ — القائمة الأساسية الموجودة فى كتاب « L'Arabe Vivant » الذى وضعه الأستاذ شارل بلا ، وهى تشتمل على ٢٧٠٠ لفظ ، كان جمعها معتمداً إلى حد ما على قائمة بريل السابقة .

٣ — القائمة التى اقترحها الأستاذ ماك كاروس وهى نحو ٣٠٠٠ لفظ .

٤ — جامع مفردات « لانداو Landau » .

٥ — جامع مفردات الأستاذ أحمد الأخضر للعربية الأساسية ويشمل ٣٢٥٠ لفظ .

وقد اتفق المجتمعون على أن يعهد بمهمة مقابلة هذه القوائم ومراجعتها إلى « معهد الدراسات الإسلامية بمدريد » . وعلى المعهد بعد ذلك أن يضع تقريراً منها يرفع إلى جميع الأعضاء ليبدى كل منهم ملاحظاته وآراءه حوله ويرسل كل ذلك إلى المعهد تمهيداً لوضع القائمة النهائية .

واقترح الأستاذ والتر أن يكون الحد الأدنى لعدد الكلمات التى تشتمل عليها هذه القائمة هو ٣٠٠٠ لفظ وعلى أن يقسم العمل فى جمعها إلى مرحلتين : تكون قائمة المرحلة الاولى محتوية على ١٠٠٠ لفظ ، وقائمة الثانية على ٢٠٠٠ ، وأبدى الاستاذان بول ريفانك وشارل بلا تأييدهما لوجهة النظر هذه .

الاستاذ ريفانك : إن من المؤكد أن المناهج الإحصائيه لم تعد كافية لجمع المفردات على الوجه الاكمل وانها كثيراً ما تترك فجوات وفراغات كبيرة وقد أرتنا تجاربنا فى وضع « الفرنسية الاساسية » أن عملنا فى هذا الميدان يحتمل كثيراً من وجوه النقص مما نحس به وندركه تماماً ، ولكننا نعلم حق العلم أن جمع المفردات الاساسية عن هذا الطريق أمر ذو أهمية كبرى إذا أردنا أن نصل إلى طريقة تعليمية عملية . يجب علينا ألا نقدم للمتعلم المبتدئ مفردات لا تجديه شيئاً ، فإن الذى يهمنا هو أن يكون لديه محصول من كلمات حية مفيدة .

الاستاذ بلا : إن المهم لدينا الآن هو أن نضع قائمة بالمفردات الاساسية ، أما الانتفاع منها فإن كل شخص يستطيع أن يقوم به على هواه .

الاستاذ سيرجانت : يمكننى أن أضيف إلى القوائم التى سبق ذكرها قائمة ٣٠٠٠ كلمة أعدت لكى يستعين بها الضباط (الانجليز) الذين يعملون فى بعض البلاد العربية ، إلا أن كلمات هذه القائمة من العربية الدارجة .

الاستاذ الاخضر : يجب علينا اختيار الكلمات ثم وضع قائمة للمفردات الاساسية تستكمل حسب مستويات الطلبة .

الاستاذ بلا : من الممكن أن يتعلم التلميذ هذه المفردات التى يبلغ عددها ثلاثة آلاف فى سنتين ، ثم يستطيع بعد ذلك أن يزيد محصوله .

الاستاذ مؤنس : لا تتوقف القدرة على التعبير على عدد المفردات التى يتكون منها محصول الشخص وإنما على مدى استطاعته استخدامها . وإنى أعتقد أن أى صحفى عربى لا يكاد يستعمل فيما يكتبه أكثر من ثلاثة آلاف كلمة إلا عندما يكتب مقالة أدبية صرفة . ولهذا فإنه يمكن أن يكون لديه محصول من آلاف المفردات غير أن الذى يستخدمه فى كتابته لا يتجاوز هذا العدد من المفردات الشائعة والمتيسرة .

الأستاذ بلا : يمكن أن يشرع أولا فى إعداد قوائم تسد الحاجات العاجلة ، وتترك للمدرسين بعد ذلك طريقة إعطاء تلاميذهم هذه المفردات وتعويدهم عليها قليلا قليلا . وعليهم أن يبدأوا بالكلمات الرئيسية ثم زيادة محصول الطلاب من المفردات بشكل تدريجى . وعلينا من أجل ذلك أن ننسق بين قوائم الكلمات

الموجودة فعلا ثم نختار منها . ونحن نعرف أن منهج بريل مثلا قائم على أساس عدد المفردات التى تشتمل عليها صحف الشرق الأوسط وتبلغ مفردات هذه القائمة نحو ٦٠٠٠ كلمة منها ٢٧٠٠ يمكن اعتبارها أساسية . وأود أن أبدى ملاحظة هنا بأن المنهج الإحصائى الحسابى ينبغي أن ندخل عليه ما يخفف من جفافه وأن نتصرف فيه تصرفا يدخل عليه رقة ورونقاً .

الأستاذ ريفانك : على الرغم من كل ما يؤخذ على هذا المنهج فإنه هو الكفيل بإيصالنا إلى خير النتائج .

الأستاذ والتر : يجب علينا أن نقسم قائمة المفردات المقترحة إلى جزئين : الأول يشتمل مثلا على ألف كلمة من الكلمات الأساسية الضرورية للمبتدئ والثانى يشتمل على الألفين الباقيين للمرحلة الثانية .

الاستاذ ريفانك : من المستحسن أن يكون توزيع هذين الجزئين على النحو التالى :

الاول — للكلمات التى تدل على معان محددة خاصة بالمفهومات المادية العملية .

الثانى — للكلمات التى تدل على معان أكثر تجريدا .

الاستاذ بلا : فى مثل هذه الحالة أظن أننا سنكون ملزمين بإعطاء بعض التعليمات والإيضاحات لمن سيتولون التدريس للمبتدئين .

الاستاذ ريفانك : فى المرحلة الثانية يجب استخدام الكلمات الباقية من المرحلة الأولى . ولأضف هنا بعض البيانات الخاصة بالمنهج الذى اتبعناه فى وضع « الفرنسية الأساسية » :

المرحلة الأولى : يدرس فيها ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ كلمة .

المرحلة الثانية : يدرس فيها نحو ١٥٠٠ كلمة أى ما يستطيع الطالب أن يدرسه خلال عام واحد .

الأستاذ بلا : هذه النقطة يمكن اتخاذ قرار نهائى فيها حينما يتم وضع القائمة .

الأستاذ مؤنس : نحن نركز الآن نقاشنا حول مشاكل تدريس اللغة العربية للأوروبيين والأمريكيين ، غير أنه يجب أن نقدر أن هناك من يهتمون بتعلم اللغة العربية فى أجزاء أخرى من العالم : فى افريقيا وآسيا على سبيل المثال .

ولهذا فإذا كنا الآن بصدد وضع منهج يسهل على الناس تعلم العربية فإن تفكيرنا ينبغى ألا ينحصر فى الأوروبيين والأمريكيين ، بل ينبغى أن نضع فى حسابنا إخواننا فى القارتين الإفريقية والأسيوية ممن يتوقون إلى تعلم لغتنا ، ومن ثم فإن بودى أن أعرف ما إذا كان بين الأساتذة الزملاء الحاضرين من له تجربة سابقة فى تعليم العربية ونشرها فى بلاد كالصومال أو السودان مثلا ؟

الأستاذ سيرجانت : المشاكل الناشئة عن تعليم اللغة العربية فى افريقيا تختلف طبيعة وجنساً عن تلك التى نقوم بمناقشتها الآن ، فإن هدف الإفريقيين مثلا من تعلم اللغة العربية إنما هو قراءة القرآن وتفهم الدين الإسلامى ، وهذه المسألة كثيرة التعقيد إذ أنه لا تتوفر تحت أيدينا عنها بيانات وافية ولا إحصائيات دقيقة .

الأستاذ مؤنس : إن تعليم اللغة العربية المقام على أسس المناهج التقليدية لتدريس اللغات الأوروبية لم يؤت النتائج المرجوة ، والسبب الرئيسى فى ذلك هو — فى اعتقادى — الاهتمام الذى يوجه عادة إلى الصيغ الصرفية والإسراف فى إعطاء قدر كبير من قواعد النحو خلال المرحلة الأولى . وقد توفرت لنا نحن فى هذا المعهد تجارب كثيرة من تدريسنا للغة العربية خلال السنوات الاخيرة ، وعمدنا فى ذلك إلى الانتفاع من المناهج الحديثة لتدريس العربية فى مدارس بلادنا ، وهى تقوم على إعطاء قدر قليل من المفردات مع حد أدنى من قواعد النحو ، وقد أفضى بنا هذا المنهج إلى نتائج مرضية . وأود أن أنتهز هذه الفرصة لكى أشير إلى الدراسة القيمة التى تفضلت السيدة فتشيا فاليرى بإعدادها لهذه الندوة والتى احتوت على معلومات بالغة الاهمية حول هذه النقطة . وإنى أرجو من السادة الزملاء فى هذا الاجتماع أن يفيدونا بكل ما يتيسر لهم إمدادنا به فى هذا الموضوع إن لم يكن الآن ففى فرصة قريبة .

وتلت ذلك مناقشة طويلة انتهى الأعضاء منها إلى قرار بالمنهج الذى ينبغى اتخاذه ، وهو يتلخص فى نقطتين :

١ — إعداد جامع موجز للمفردات يشتمل على ١٠٠٠+٢٠٠٠ كلمة تتوفر فى جميعها صفتا الشيوع أو كثرة الاستعمال وقرب التناول .

٢ — وضع حد أدنى للقواعد النحوية الضرورية .
وتقرر أن تدرس دقائق هذا المنهج بتفصيل أكثر قبل أن تنفض الندوة .

٣ — مشاكل كتابة اللغة العربية وطباعة حروفها :

بدأ الأستاذ شارل بلا ببيان أهمية مسألة كتابة العربية وطباعتها بالنسبة لتعليم هذه اللغة لغير العرب ، وأشار إلى العقبات التى يصطدم بها الأوروبيون عند القيام بطبع النصوص العربية وقال إن كثيراً من الصعوبات التى تعترض طريق تعلم اللغة العربية ناشىء عن طريقة الكتابة العربية وخلو كثير من نصوصها من حركات الضبط وانعدام التميز بين الحروف الصغرى Miniscules والكبرى Majuscules . ثم أعطيت الكلمة للأستاذ أحمد الأخضر الذى يعتبر من الإخصائيين فى هذه المسألة .

الأستاذ الأخضر : اننى أوجه نظر السادة الزملاء إلى أن ماكينات الطباعة الأوروبية تحتوى عادة على ٤٨ شكلا من أشكال الحروف ، أما ماكينات الطباعة العربية فإنها أكثر تعقيدا وأغلى ثمنا إلى حد كبير ، فالماكينة اللينوتيب التى تطبع الحروف اللاتينية يكون فيها فى العادة ٩٠ مفتاحا ويبلغ ثمنها فى المغرب ٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك . أما إذا أردنا طباعة العربية بماكينة اللينوتيب العادية فعلينا أن نضيف إليها صفا من ٣٧ مفتاحا ، وحتى مع هذا لا تصبح هذه الماكينة قادرة على طبع حركات الضبط ، بل تطبع الحروف فقط ، وثمنها يبلغ ٩,٥٠٠,٠٠٠ فرنك . أما ماكينات الطباعة المونوتيب فإن فيها عادة ٢٥٥ مفتاحا تسمح بطباعة أحجام مختلفة من الحروف . وإذا استخدمت هذه الماكينة نفسها لطباعة العربية لم يكن فى قدرتها أن تطبع إلا حجما واحداً من الحروف مع حركات ضبطه ، ويبلغ ثمن هذه الماكينة فى المغرب ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ فرنك .

ومن أجل هذا كان يتحتم إجراء تعديل على تركيب ماكينات الطباعة العربيـة ، وقد تركز الاهتمام على الماكينات اللينوتيب بصفة خاصة لأنها هى الارخص ثمنا والاقدر على إصدار طبعات ضخمة فى أقصر وقت ممكن ، وقد قدم بالفعل إلى المجمع اللغوى فى القاهرة ٢٨٠ مشروعا جديدا لتعديل حروف

الطباعة العربية وإصلاحها ، ولكن المجمع بعد بحثه لهذه المشروعات استبعد أكثرها ولم يستبق منها إلا عشرين كان من بينها المشروع المغربى ، كذلك بحث هذا المشروع فى المؤتمر الذى عقد فى فاس أخيراً ؛ ثم أجريت تصفية أخرى لهذه المشروعات فاستبعد منها خمسة عشر ولم يستبق الاخمسة ، وأخيراً أجريت تصفية ثالثة لم يبق بعدها إلا ثلاثة مشروعات هى :

١ — المشروع الذى قدمه المجمع اللغوى نفسه .

٢ — المشروع المغربى .

٣ — مشروع ثالث .

أما المشروع المغربى فقد تبنته الحكومة المغربية بصفة رسمية منذ أن قبل فى فاس فى المؤتمر الذى عقدته الشعب القومية للبلاد العربية لدى اليونسكو ، وقررت تطبيقه فى المجال الواسع إذا تمت الموافقة عليه واقراره بشكل نهائى .

أما المنهج الذى اقترحه هذا المشروع المغربى بصدد الطباعة العربية فهو فى غاية من السهولة : فهو يلتزم فى كتابة الحروف حروف النسخ ، وليس فيه أى جديد من هذه الناحية ، فقد اتبعنا فى ذلك طريقة « ماسيب » ، وقد قسمنا الحروف إلى مجموعات بحسب اللواحق بها ، وكان علينا أن نجعل كل حرف يحفر على مستطيل حتى نتجنب النفقات الكثيرة التى نتحملها من أجل ملء الفراغات التى يضطر لوضعها من أجل معادلة الحروف والتى تسمى Fraisages .

ومشكلة أخرى تلك هى دراسة مسألة الفراغ بين الحرف واللاحق به .

ولنذكر أن السلطات التعليمية فى الجمهورية العربية المتحدة وفى المغرب قررت أن تكون كل الكتب المدرسية فى المرحلتين الابتدائية والثانوية مضبوطة بالحركات ابتداء من أول أكتوبر القادم .

ومن أهم المشاكل التى تواجهنا الآن وأعسرها على الحل مسألة تعديل آلات الكتابة العربية المستعملة فى الوقت الحاضر .

وذلك أن الحروف فى آلات الكتابة الأوروبية كلها ذات حجم واحد ولا يكاد الكاتب يدق على الآلة حتى تتحرك الحروف على مسافات متعادلة متساوية .

أما عند الكتابة على الآلة العربية فإن صفوف الحروف تتحرك على ست مسافات متباينة حسب أشكال الحروف المختلفة . ومن أجل هذا فإنه من الصعب فى مثل هذه الظروف صناعة آلات للكتابة لاستعمال المكاتب يتوفر فيها سهولة الحمل ورخص الثمن معا .

وذكر الأستاذ الأخضر بعد ذلك أنه قام بمحاولة جديدة لتوحيد أحجام الحروف وتوحيد المسافات بينها تبعا لذلك ، وقال انه قد أمكن صناعة آلة كاتبة بالفعل على الطراز الجديد ، وهى آلة خفيفة الوزن سهلة النقل سميت « رويال Royale » وأهديت واحدة منها أخيراً إلى جلالة ملك المغرب محمد الخامس ، على أن هذه الآلة ليست إلا تجربة نسعى إلى التطور بها وتحسينها ، فالأهم لدينا الآن هو إصلاح الطباعة أولا . فتعديل آلة كتابة أوروبية وتجديد حروفها تماما يتكلف فى المغرب ٧٥,٠٠٠ فرنك ، أما تغيير نظام ماكينة طباعة وتعديلها فإنه يتكلف عدة ملايين من الفرنكات .

وقال الأستاذ الأخضر انه يجرى الآن صنع ماكينة طباعة عربية « لينوتيب » في الرباط على أساس التعديلات التى اقترحها فى مشروعه وأن « مركز التنسيق العربى » يعمل على طبع كتاب كامل بالحروف الجديدة ، وسترسل نسخ من هذا الكتاب إلى جميع البلاد العربية حتى يبدى العلماء والمتخصصون آراءهم ووجوه نقدهم ومقترحاتهم بخصوص المشروع الجديد . على أنه لما كان هناك ممثل لكل بلد من البلاد العربية جميعها تقريباً فى اللجنة التى وضعت الخطوط النهائية للمشروع فإن يبدو أنه لم يبق للفراغ من إتمامه إلا بعض النقط الصغيرة التى لا تزال محتاجة إلى بعض الصقل والتهذيب مثل مسألة المحافظة على جمال الخط العربى ومسألة الأعداد وعلامات الوقف .

أما ماكينات الطباعة « المونوتيب » فقد ذكر الأستاذ الأخضر أنه درس حروف الامشاق الاربعة لاختيار الحروف التى يمكن أن تستعمل فى العربية مقابلة للحروف الكبرى Majuscules فى الطباعة الاوروبية ، واقترح أن يختار من بينها الخط الكوفى لامثال هذه الحروف ، والسبب فى ذلك هو أن حروف

هذا الخط سهلة بسيطة إلى حد بعيد وهى تقابل ما يسمى فى اصطلاحات الطباعة فى فرنسا بالحروف المربعة bâton .

وختم الاستاذ الاخضر بيانه بقوله : إننا نرجو ألا يمضى وقت طويل حتى تكون الطباعة العربية قد اتخذت طريقها إلى إصلاح شامل يتلاءم ومطالب الحياة الجديدة .

وتحدث بعد ذلك الاستاذ بلا فقال : إنه يشكر الاستاذ الاخضر على هذا البيان وما احتوى عليه من معلومات قيمة سيكون لها من غير شك أثر بعيد فى السير بخطى ثابتة فى طريق التقدم الذى تنشده الندوة بهذا الصدد .

وبعد كلمة للدكتور مؤنس أثار الأستاذ بلا مسألة نقل الكتابة العربية بالحروف اللاتينية . وقال إنه يتحدث عن ذلك باعتباره من الوسائل التى تيسر على غير العرب تعلم اللغة العربية ، ولا يقصد مطلقاً الخوض فى الكلام عن استعمال الحروف اللاتينية بدلا من العربية مثل ما حدث فى تركيا حينما قامت تلك « الثورة » المعروفة على الكتابة العربية ، وأضاف إلى ذلك أنه — شخصياً — أول من يرفع صوته احتجاجاً على مثل هذا المشروع .

السيدة فاليرى : فيما يتعلق بمسألة كتابة العربية بحروف لاتينية أود أن أعلن عن تأييدى لأى طريقة لذلك على شرط أن تتضمن فصلا للحروف الصائتة عن الصامتة .

الأستاذ فير : لقد اضطررت أنا فى القاموس الألمانى العربى الذى وضعته إلى استعمال الحروف اللاتينية لكتابة الألفاظ العربية من أجل تخفيض نفقات الطباعة التى كان الكتاب يتطلبها لو أنها كتبت بحروف عربية ، وإننا فى ألمانيا كثيراً ما نضطر إلى ذلك ، إذ أننا حينما نريد نشر نص بحروف عربية فإننا نعمل فى بعض الأحيان على أن نطبعه فى إحدى المطابع الشرقية .

الأستاذ مؤنس : يسرنى أن أنهى إلى السادة الزملاء ان معهدنا فى مدريد سيكون فى وسعه فى السنة القادمة أن تصبح مطبعته قادرة على الوفاء بحاجات كل المستشرقين الأوروبيين ، وسوف تكون نفقات الطباعة لدينا مساوية لما تتكلفه فى القاهرة مثلا .

الأستاذ بلا : فيما يتعلق بنقل الكلمات العربية بحروف لاتينية أود أن أنبه إلى بعض الفروق الصغيرة بين الطريقة المتبعة فى اسبانيا والطريقة الدولة المستعملة فى معظم بلاد العالم .

الأستاذ مؤنس : أرجو أن تتخذ خطوات إيجابية تكفل إذاعة الطريقة الدولية وتعميمها .

الأستاذ بلا : لقد تم هذا بالفعل لاسيما منذ أن صدرت مجلة «أرابيكا» .

الأستاذ مؤنس : إنى اقترح أن يعمل المعهد على نشر هذه الطريقة وهكذا يتولى إذاعتها كذلك فى سائر أنحاء البلاد العربية .

الأستاذ فير : منذ عدة سنوات نشر الأستاذ حامد بحثاً عنوانه «كيف نطبع النصوص العربية ؟» وقد أثار فيه مسألة أرى أنها جديرة بالاهتمام فى الطباعة العربية وهى أنه حينما يجتمع فى كلمة حروف متشابهة فإن من العادة أن يطبع بعضها واطئاً وبعضها عالياً أو ناتئاً . فهل هناك ضرورة تقتضى احترام هذه القاعدة كما هو الأمر فى المطابع المصرية مثلا أم أنه من الممكن إهمالها كما يفعلون الآن فى العراق ؟ .

الاستاذ الاخضر : أظن أن هذا التقليد أتى من قبل الخطاطين الذين أرادوا أن يميزوا بين الحروف المتشابهة إذا كانت متوالية فى الكلمة وعلى أية حال فإنه من الممكن إهمال هذه القاعدة ما دمنا بصدد تبسيط الكتابة العربية وتيسيرها .

٤ — القواميس وجوامع المفردات والكتب الدراسية ومناهج تعليم اللغة العربية لغير العرب :

أ — مسائل عامة :

اقترح الاستاذ بلا أن تفحص الكتب الدراسية التى تستعمل فى الوقت الحاضر ثم يعرب الاعضاء عن آرائهم حول استبقائها أو صرف النظر عنها .

الاستاذ الاخضر : أرى أنه يجب علينا فى تدريس اللغة العربية الشروع من غير تردد فى تطبيق المناهج الحديثة التى تعلم بها سائر اللغات الحية ، إذ لم

يعد من الجائز أن تدرس اللغة العربية كلغة ميتة ولهذا يتحتم أن يستغل كل ما يمكن استغلاله من الطرق المباشرة .

الأستاذ فير : على كل من يؤسف كتابا فى نحو اللغة العربية أن يبين الهدف الذى يسمى إليه من وراء ذلك فيوضح أى لغة عربية يبغى تعليمها ، ثم إنى ألاحظ أن كتب تدريس اللغة العربية المعاصرة قليلة إلى حد بعيد .

الأستاذ بلا : من أجود ما ألف فى ذلك الكتاب الذى أصدرته جامعة برنستون (فى طبعته الثانية التى ظهرت فى سنة ١٩٥٧) والذى قام بوضعه الأستاذان فرحات زيادة وبايلى وايندر . على أننى أرى أنه لا يمكن أن نفرض منهجاً معيناً ، وكل ما نستطيعه هو أن نعرض على الناس منهجاً مبسطاً ميسراً فنجتذب إلينا أكبر جمهور ممكن من الراغبين فى تعلم العربية . ولهذا فإن علينا اختيار مثل هذا المنهج والدعوة إليه . ومن الحق أن الكتب ليست هى كل شىء فالطالب لا يستطيع دائما أن يتعلم بمفرده مستعينا بكتاب بل هو يحتاج فى معظم الاحيان إلى مدرس يتولاه بعنايته وإرشاده .

الأستاذ فير : فى مسألة اختيار النصوص لما يؤلف من كتب فى هذا الباب ينبغى أن يكون هذا الاختيـار من بين النصوص المعاصرة ، إذ أنها هى التى تمثل اللغة الحية وتصور لنا حقيقتها الحاضرة .

الأستاذ فيرجوسن : لدينا فى الولايات المتحدة الامريكية أربعة كتب للنصوص العربية المعاصرة ، وهى كتب يعتمد عليها فى تدريس العربية بالجامعات الامريكية وتلقى كثيراً من التوفيق والنجاح ، وقد اشتركت أنا فى وضع أحد هذه الكتب ونحن نقوم بالتدريس منها للموظفين الرسميين والضباط الذين يقومون بأداء وظائفهم فى بلاد الشرق الأوسط هذا إلى جانب الانتفاع من قائمة بريل للمفردات العربية والاستعانة بالصحف العربية . وقد تبين لنا من تجاربنا فى ذلك أن عشرة دروس ودرسين للمراجعة فى الأسبوع كفيلة بأن تهيء للطالب محصولا كافياً من الألفاظ على أن يبذل هو جهداً طيباً فى الاستذكار والعمل . أما العقبة التى اصطدم بها هذا المنهج والتى تركت فيه فجوة ينبغى العمل على سدها فهى مسألة القواعد النحوية ، هذا وإن كان من الحق أن المدرس نفسه

فى أثناء الفصل الدراسى يستطيع أن يستطرد فيشرح ما غمض من تلك القواعد حسب ورودها فى النصوص وبذلك يمكن الانتفاع من المحصول اللغوى بكثير من النجاح .

أما طريقتنا فى التدريس فقد كانت تعتمد على أن ينصت الطلاب إلى جمل تلقى عليهم بسرعة عادية لمدة ثلاث ساعات فى اليوم ، وتتلو ذلك ساعة ينصتون خلالها إلى بعض الأشرطة المسجلة . وقد آتت هذه الطريقة نتائج طيبة فى تعلم العربية ما دام الطالب مستعداً للعمل الجاد خلال أربع ساعات كل يوم ، وما دام الذى يضطلع بتعليمه مدرساً كفئاً قديراً .

الأستاذ سيرجانت : إننا فى انجلترا قمنا كذلك بنفس هذه التجربة غير أنها لم تكن دراسة فى الجامعة ، وكان الذين يقومون بالتدريس من غير العرب وإن كان المثالى هو أن يعهد بذلك إلى مدرسين من العرب .

الاستاذ فيرجوسن : تدريس العربية فى الولايات المتحدة مقرر فى خمس جامعات أمريكية خلال فترة الصيف كذلك تدرس اللهجات العربية مع شروح وتفسيرات بالانجليزية ويضطلع بذلك أساتذة عرب .

أما الكتاب الذى اشتركت فى وضعه لتعليم العربية الحديثة فإن فى طبعته الاولى خمسة عشر درساً مع بعض التذييلات والملاحق ، وقد شرحت فيه المشاكل والصعوبات الواردة فى تلك الدروس . واشتمل الكتاب على مجموعة من المفردات وشروح نحوية بالعربية والانجليزية ، وسوف أقوم بالتوسع فى ذلك فيما بعد .

الاستاذ فير : فيما يتعلق بألمـانيا افتتح أخيراً « معهد اللغات الشرقية » وهو يهدف إلى تعليم هذه اللغات ومن بينها العربية على أساس عملى مجتهداً فى تطبيق المناهج التى هى أكثر ملاءمة لهذا الغرض . ومن أجل ذلك عمل على تنظيم فصلين دراسيين : أحدهما للعربية الفصحى — لغة الكتابة — ، والآخر للغة الكلام المستعملة فى مصر .

الاستاذ فيرجوسن : ألاحظ بهذه المناسبة أن البعض يرون البدء بتدريس لغة الكلام بينما يرى الآخرون البدء باللغة الفصحى سواء منها لغة النصوص

القديمة أو اللغة العربية الحديثة ، ولست أدرى أى الطريقتين أفضل وأضمن إيصالا للهدف المرجو ، وقد كان من بين من اهتموا بلغة الكلام ميتشيل Mitchel وهارو Harrow اللذين حفلت كتبهما بمادة ضخمة من اللغة العربية الدارجة .

الأستاذ ماك كاروس : فى الولايات المتحدة الأمريكية تقوم وزارة الخارجية كذلك بتنظيم دراسات لتعليم اللغة العربية ، إلا أن موضع الاهتمام يكون فيها مركزاً على وجه التحديد على اللهجة العربية الدارجة المستعملة فى القدس ، وتهتم هذه الدروس بكيفية نطق الأصوات ومخارج الحروف ثم بتركيب الكلمات وتصريفها ثم بإعطاء التلاميذ مجموعات من المفردات تقسم بعد ذلك حسب موضوعاتها فتفرد منها مجموعة للألفاظ المتعلقة بالدين مثلا وأخرى للجغرافيا . . الخ .

وإذا كان قد تقرر فى هذه الندوة أن يوضع كتاب جديد لتعليم اللغة العربية فإنه من الممكن أن يستفاد من الكتب التى ذكرها السيد الزميل الأستاذ فيرجوسن فى كتابه . ولما كانت قائمة هذه الكتب طويلة جداً فإنه من الممكن عمل خلاصة لكل منها إذ أن ذلك كفيل بأن يفضى بنا إلى نتيجة مثمرة . ومن كل ذلك يمكن تأليف كتاب يعتبر فيما بعد ثمرة لكل الجهود التى بذلها من قبل العلماء الأوروبيون والمستشرقون .

الأستاذ بايير : فى هولندا لم يطبع بعد شىء له قيمة حول هذا الموضوع ، وسنكون سعيدين هناك باستخدام الكتاب الجديد الذى دعت الندوة إلى تأليفه بعد انتهاء جلساتها .

وعبر الأستاذ تيريس عن ترحيبه بمثل هذا الكتاب .

وقال الاستاذ سيرجانت : إنه ليس لديه جديد يستطيع أن يضيفه حول ذلك الموضوع فى بريطانيا .

وتكلم الاستاذ بلا بعد ذلك فأتى بسرد لأهم الكتب المؤلفة فى هذا الميدان وأشار بصفة خاصة إلى كتب السيدة فتشيا فاليرى ، ثم ختم حديثه بالكلام من الكتب الاساسية المستخدمة فى فرنسا . أما عن مدرسة اللغات الشرقية فقد قال انها لم تهتم قط بتعليم اللغة العربية المعاصرة غير أن هناك طرقاً حديثة

تستخدم فى تعليم اللغة العربية للموظفين الرسميين والضباط ممن يحتاجون إلى هذه اللغة . وقال انه لو كان الاستاذ مونتى موجوداً فى الندوة لاستطاع الحديث بالتفصيل عن الطرق التى تنتهج لتعليم العربية فى بكفايا بلبنان حيث يخصص لذلك ست ساعات يومية من الدروس وحيث تطبق الوسائل التربوية الفنية الحديثة بنجاح .

وتكلم الاستاذ شبولر فقال إن لديه اعتراضاً على استعمال تعبير « العربية الاساسية Arabe de Base » حيث أنه تعبير يمكن أن يؤدى إلى بعض التشويش والخطأ .

الاستاذ مؤنس : أريد أن أوجه أنظار السادة الزملاء إلى ناحية أرى لها أهميتها فيما نحن بصدده ، تلك هى أن تعليم اللغة العربية ينبغى أن تكون غايته أن يستطيع الدارس الأجنبي تفهم روح الامة العربية تفهما يؤدى إلى الشعور بالمودة والقرب . أما إذا كنا نريد من تعليم اللغة العربية للأجنبى مجرد إعانته على قضاء حاجاته الضرورية طيلة إقامته فى بلد عربى فإن الأمر غير محتاج إلى كل هذا العناء إذ يستطيع هذا الأجنبى أن يقضى حاجاته عن طريق اللغة الانجليزية أو غيرها من اللغات الاوروبية .

الاستاذ سيرجانت : إننى أوافق تماماً على كل ما قاله السيد الدكتور مؤنس على انى أود أن أشير إلى أننا نرغب كل الرغبة فى نشر اللغة العربية فى بريطانيا وتحبيبها إلى الناس غير أننا نجد الطريق أمامنا حافلا بالصعوبات ، فإن تبادل الطلبة أمر عسير وهو يتكلف نفقات كثيرة ، ولهذا فإن ترغيب الطلبة لدينا فى دراسة اللغة العربية ليس سهلا كما كنا نرجو على الرغم من الجهود التى نبذلها . وليس هناك شك فى أن عدد الطلبة المهتمين باللغة العربية قد تزايد أخيراً إلا أنه لا يزال غير كاف بالنسبة لنا .

الاستاذ بلا : أود أن أعلق بكلمة على ما ذكره السيد الدكتور مؤنس ، فإن كثيراً من كتب تعليم اللغة العربية وإن كانت تبدو فى بعض الاحيان وكأن الهدف الأساسى من تأليفها هو إعانة الدبلوماسيين والموظفين الاجانب على قضاء حاجاتهم الضرورية فى البلاد العربية إلا أن ذلك فى الواقع ليس هو كل شيء .

وقد اعتدت أنا فى مستهل الدروس التى كنت ألقيها على طلبة مدرسة اللغات الشرقية أن أسألهم : لماذا يريدون أن يتعلموا العربية ؟ وكنت أتبين من إجاباتهم أن بعضهم يريدون أن يتخصصوا فى هذه اللغة ويأملون أن يصبحوا مدرسين لها ، وكان البعض الآخرون يجيبون بأنهم يسعون للالتحاق بالسلك السياسى ولكن الغالبية العظمى منهم كانت تجيب على سؤالى بأنهم يريدون تعلم العربية « لأنها لغة هامة يتحدث بها الناس فى جزء عظيم من الارض » كما كانوا يذكرون أنهم لا يستطيعون الاتصال المباشر بالحضارة العربية وتفهمها على وجهها الصحيح دون أن يعرفوا اللغة العربية . إلا أن الكثيرين من الطلاب مع الأسف ينصرفون عن دراسة هذه اللغة بعد شروعهم فى ذلك نظراً لما يلاقونه فيها من صعوبات .

وفى فرنسا يوجد الآن عدد كبير من مدرسى اللغة العربية فى التعليم الثانوى . ولو أننا اهتدينا إلى وسائل تيسير العربية على التلاميذ فإن عددهم يمكن أن يتضاعف إلى حد بعيد لان النتائج التى يصلون إليها فى الظروف الحاضرة ليست مغرية بالشكل الذى نرجوه .

أما عن محتويات الكتب التى نستعين بها فى تدريس العربية لهؤلاء الطلاب فإننا نجتهد فى أن تكون نصوصاً قصيرة تقص أخباراً مختلفة متنوعة وما ذلك إلا من أجل أن نقدم عينات من لغة التعبير العادية . وإنى — من ناحيتى — لم أحمل تلاميذى قط على دراسة نصوص سياسية قد ولى زمنها وبطلت أهميتها ، وإذا كنت أورد لهم فى بعض الأحيان نصوصاً عن القنبلة الذرية مثلا فإنما كنت أفعل ذلك لأرى الطلبة أن الصحف الصادرة باللغة العربية تواجه نفس الاحداث العالمية الكبرى التى تواجهها صحافتنا الغربية وتعالج مشاكلها بصورة مشابهة . وإنى لأرجو أن يشجع تعليم اللغة العربية بهذا الشكل الذى ليس من ورائه غرض أو هوى وأن يتزايد الاقبال عليه بما هو جدير به .

الاستاذ ريفانك : يبدو لى أنه من الاسباب التى تثبط عزيمة الطلبة الذين يشرعون فى تعلم العربية ثم ينصرفون عن ذلك هو عدم تأكدهم من أن اللغة التى يبذلون الجهد فى دراستهم هى اللغة التى سيتفاهمون بها مع العرب والتى

يتحدث بها الناس فى أى بلد عربى يمكن أن يذهبوا إليه فى المستقبل . ولهذا فإنى أحب أن أسأل السادة الزملاء عما إذا كان اصطلاح « العربية المعاصرة » الذى اتفقوا عليه من قبل يعنى اللغة التى يقرأ بها وتسمع فى معظم أنحاء البلاد العربية وعما إذا كان من الممكن أن تصبح هذه اللغة هى لغة الكلام أيضاً .

الأستاذ بلا : الأمر متعلق هنا بمسألة بالغة الاهمية وهى مسألة انتشار التعليم فى البلاد العربية ، ولكننا نستطيع أن نقول إن اللغة العربية المعاصرة هى الآن بالفعل لغة للكلام والمخاطبة ، ويستطيع الحاصلون لدينا فى فرنسا على شهادة « الأجريجاسيون » أن يعبروا باللغة العربية المعاصرة عن أفكارهم ، فالمتكلمون بالعربية من عرب وغيرهم يستطيعون التفاهم فيما بينهم بهذه اللغة المشتركة لاسيما حينما يدور الحديث حول معان مجردة بعض الشىء .

الاستاذ الاخضر : الأجنبى إذا تعلم « اللغة العربية المعاصرة » سهل عليه التفاهم مع شعب أى بلد عربى حيثما كان ، أما الذى يتعلم لهجة معينة من لهجات العربية فإنه من العسير عليه أن يصل عن طريقها إلى تعلم العربية المعاصرة .

الاستاذ مؤنس : من الممكن أن يكون للغة العربية فى يوم ما من الانتشار ما للغة الانجليزية مثلا ، وهذا أمر يتوقف أولا على الجهود التى يبذلها العرب قبل كل شىء ، ولدى العرب اليوم من الوعى والإدراك لهذا الهدف ما يحملهم على العمل الجاد المتواصل من أجل بلوغه . على أنه من اللازم أن يتعاون المتخصصون من الاوروبيين مع العرب فى هذه الجهود وأن يعملوا ما فى وسعهم حتى يصلوا إلى تمكين الناس فى بلادهم من تفهم الروح العربية وإعانتهم على فهم حضارة العرب عن طريق تعلم لغتهم .

الاستاذ والتر : إن من حسن الحظ أن أبوابا كثيرة قد تفتحت بين الشرق والغرب وبصفة خاصة بين أوروبا والثقافة العربية فى السنوات الاخيرة ، والفضل فى ذلك يرجع إلى أسباب سياسية واقتصادية ، ولكن كل هذا ليس إلا نقطة البدء ، وستزيد هذه الصلات فى المستقبل زيادة تمكن اللغة العربية من احتلال المكان الذى هى جديرة به بين اللغات الحديثة الحية ، وهذا الامر بالفعل

يتوقف على مدى الجهود التى يبذلها العرب أنفسهم ، وأما الظروف السياسية والاقتصادية فى الوقت الحاضر فإنها تقرب ما بيننا وتدعونا إلى التعاون ، وأما الباقى فهو رهين بعملنا ، فلنمض فيه بثقة وعزم دون أن نتعجل النتائج .

ب — القواميس والكتب الأساسية وجوامع المفردات :

بدأ الاستاذ بلا حديثه بالتساؤل عن المؤلفات التى يمكن أن يعتمد عليها الاعضاء الحاضرون فى عملهم فقال انه يرى أن من خير هذه المؤلفات القاموس الكبير الذى وضعه الاستاذ فير والذى يحتوى على ٤٥,٠٠٠ كلمة ثم القاموس الذى يعده المؤلف نفسه كذلك والذى يشتمل على الجمل المركبة ، وهو قاموس يوشك أن يتم .

واقترح الاستاذ فير أن يعتمد كذلك على الطبعة الثانية المنقحة عن قاموس الاستاذ خ . ك . بارانوف (قاموس روسى عربى — ط . موسكو ١٩٥٨) .

الاستاذ بلا : أود أن أشير كذلك إلى أن القائمين على القسم العربى فى محطة الاذاعة الفرنسية يقومون فى أثناء إعداد برامجهم بتسجيل كل الاصطلاحات والتعابير العربية الحديثة التى يستخدمونها خلال عملهم على جذاذات ويبلغ عدد ما يجمعونها منها كل يوم نحو خمسين جذاذة ، ثم يتم بحث هذه الجذاذات ودراستها بشكل منهجى منظم فى نفس الوقت ، وقد قطعت أشواط بعيدة فى هذا العمل وسجلت الجذاذات على الآلة الكاتبة بالعربية والفرنسية ، وحينما يتم عمل اللجنة التى وكلت إليها هذه المهمة سأقوم أنا بمراجعتها واختيار المادة اللازمة لوضع قاموس جديد فرنسى عربى .

الاستاذ سيرجانت : مثل هذا العمل تقوم به فى الوقت الحاضر لجنة فى القسم العربى من هيئة الاذاعة البريطانية (الـ B.B.C.) لوضع قاموس انجليزى عربى .

الاستاذ فير : آمل أيضاً أن يتم وضع قاموس عربى للأفكار والآراء Dictionnaire Idéologique .

الاستاذ بلا : أرى أنه عن قريب ستكون لدينا ثروة لا بأس بها من القواميس ولكن الجدير بالسؤال هو : أين يمكن أن نطبع هذه القواميس الجديدة ؟ وكيف نستطيع أن نضمن لها نصيباً كافياً من الانتشار والذيوع ؟ ثم مسألة أخرى أود أن تناقش هنا : هى ما إذا كان من المستحسن أن يوضع — بين جامع المفردات الاساسية والقواميس العلمية الكبرى — قاموس صغير متوسط بين هذين النوعين .

الاستاذ ريفانك : إنى أقترح دراسة وضع قاموس عربى يشتمل على نحو ١٥,٠٠٠ لفظ ، وتفسر هذه الالفاظ بشكل يكون هذا القاموس معه بمثابة تفصيل أو توسع لمجموعة الثلاثة آلاف لفظ التى تتكون منها القائمة الاساسية والتى يمكن أن تضاف إليها مجموعة من عبارات التعريف . وقد قمنا نحن بمثل هذا العمل فى اللغة الفرنسية ، ولمثل هذه القواميس التكميلية أدوات مساعدة لها أعظم جانب من القيمة من الناحية التربوية ، فهى تعين الطالب المتعلم على مراجعة ما يدرسه بشكل دائم كما تسمح له باستغلال معارفه من أجل السير خطوات جديدة إلى الامام . وفضلا عن ذلك فإن كون هذا القاموس مكتوباً كله باللغة العربية فقط عامل يضمن سعة انتشاره ويشجع على الاقبال عليه .

الاستاذ الاخضر : المركز العربى الذى سبق أن أشرت إليه يقوم فى الرباط بالتعاون مع المجمع اللغوى بالقاهرة بوضع قاموس للاصطلاحات والالفاظ الفنية ، وقد اختار لمادة هذا القاموس نحو ١٢,٠٠٠ كلمة من بين الـ ١٠٠,٠٠٠ التى يتضمنها القاموس الانجليزى الفرنسى الخاص بهذه المصطلحات والمفردات .

ج — الصعوبات التى يصطدم بها المبتدئون فى تعلم اللغة العربية — منهج جديد لتعليم اللغة العربية :

أمكن وضع القائمة التالية للصعوبات الرئيسية التى يصطدم بها الطلبة الذين يتعلمون العربية بناء على المذكرة التى كانت السيدة فتشيا فاليرى قد أعدتها :

صعوبة تعلم المفردات المائة الاولى .

الانتقال من قراءة النصوص المضبوطة بالشكل إلى النصوص غير المضبوطة .

الانتقال من قراءة جمل متفرقة إلى قراءة نص متكامل .

جملتا الحال والصفة .

صيغ الاشتقاق المزيدة (وهذه ينبغى أن تلقن للطالب تلقينا فى أول الامر ثم تشرح بعد ذلك) .

العدد وتمييزه .

تكوين الجمع .

الاستاذ بلا : إنى أقترح أن نضع هنا حداً أدنى مشتركا للقواعد النحوية نتفق عليه ويصبح أقل ما نستطيع أن نعلمه للطالب المبتدىء ونطالبه بمعرفته فى هذه المرحلة الاولى . ولست أعنى بذلك أن نضع منهجاً كاملا لتعليم العربية وإنما هو مجرد اختيار نقوم به من بين المسائل النحوية الاساسية ونقدمه للمتعلمين بصورة علمية عن طريق ضرب الامثلة .

الاستاذ مؤنس : إن نحو اللغة العربية ليس فى الواقع من الصعوبة والتعقيد إلى الدرجة التى يصعب معها تعليم أسسه وقواعده . ومع ذلك فإننا لا نريد من الطالب المبتدىء أن يعرف كل ذلك معرفة دقيقة لا يرق إليها الخطأ .

الاستاذ بلا : نحن فى الظروف الحاضرة لا نملك من الوقت ولا من الوسائل ما نستطيع أن نكرس به كل جهودنا للقيام بدراسات إحصائية أولية ، إلا أن فى إمكاننا أن نضع ما يمكن أن نسميه « نحواً أساسياً » مفيداً .

* * *

وبهذا أمكن الوصول إلى نقطتين مهمتين :

١ — وضع قائمة المفردات الاساسية .

٢ — الاتفاق على المنهج الذى ينبغى أن يلتزم فى تعليم العربية .

ولم يبق بعد ذلك إلا مسألة الاتفاق على « الحد الادنى » للقواعد النحوية التى يجب أن تدرس خلال المرحلة الاولى .

٦ — الحد الأدنى للقواعد النحوية خلال المرحلة الأولى :

أ — الجزء الأول من هذه المرحلة (يدرس سماعاً أو شفوياً) :

بعد المناقشات التى دارت حول هذا الموضوع استقر رأى الحاضرين على المشروع التالي للقواعد النحوية خلال المرحلة الاولى على أساس تدريجى مطرد ، وعلى أية حال فهذا المشروع مبدئى يمكن أن تدخل عليه التعديلات اللازمة عند تطبيقه .

أ — الجزء الأول :

١ — أداة التعريف (النكرة والمعرفة) والتنوين .
٢ — اسم الاشارة المفرد المذكر : هذا — ذلك .
٣ — الضمير المنفصل المفرد المذكر : أنا — أنت — هو .
٤ — الجملة الاسمية : محمد طبيب .
مع اسم الفاعل : محمود كاتب .
مع اسم المفعول : الخطاب مكتوب .
٥ — المذكر والمؤنث :
الاسم : تلميذ — تلميذة .
الصفة : جميل — جميلة .
تبعية الصفة للموصوف من ناحية الجنس : البلد الجديد — الجامعة العربية .
اسم الاشارة المفرد المؤنث : هذه — تلك .
الضمير المنفصل المفرد المؤنث : أنت — هى .
٦ — اعراب الإسم المفرد :
رجلٌ — رجلاً — رجلٍ ، الرجلُ — الرجلَ — الرجلِ
استعمال إن : إن الرجل قوى .

مع الاضافة : معلمُ التلاميذِ — بابُ الدارِ .
مع أمثلة لاستعمال : كل وبعض وغير وأى . . . الخ .
٧ — الضمير المتصل بالاسم (ضمير الملك) :
كتابى — كتابك — كتابك — كتابه — كتابها .

إلى هنا تنتهى المرحلة الأولى وهى مرحلة تعتمد على التلقين الشفوى السماعى قبل كل شىء .

ب — الجزء الثانى :

قبل البدء فى الجزء الثانى من المرحلة الأولى ينبغى على الأستاذ أن يكرر بإجمال ما سبق ذكره فى الجزء الأول ، ويكون تكرار كل ذلك تحريريا بعد أن سبق تلقينه لهم بطريق سماعى . ويجب ألا ينتقل إلى الجزء الثانى حتى يتأكد من فهمهم جيداً لكل ما سبق شرحه من قبل من القواعد النحوية .

٨ — المثنى وإعرابه :
اسم الإشارة المثنى : هذان — هاتان ؛ الضمير المثنى : أنتما — هما .
الصفة : قويان — قويتان .
٩ — جمع المذكر السالم وإعرابه :
اسم الإشارة الجمع : هؤلاء — أولئك ؛ الضمير الجمع : هم .
الصفة : طيبون ؛ وتبعيتها للموصوف : الفلاحون الموجودون .
١٠ — جمع المؤنث السالم وإعرابه :
الضمير الجمع : هن ؛ الصفة : جميلات .
وتبعيتها للموصوف : العاملات المجتهدات .
١١ — جمع التكسير وأهم صوره الجارية :
كتب — رجال — كرماء — بلدان — مجالس .
١٢ — العدد : من ١ إلى ١٠
١٣ — الفعل وتصريفه (المبنى للمعلوم) .

الماضى

المرفوع : المضارع .

المنصوب ؛ وبعض أدوات النصب : أن — كى .

المستقبل : سوف .

١٤ — المضارع المجزوم وأهم أدوات الجزم : لم — ان .

الجملة الفعلية .

فعل الأمر .

١٥ — النفى الماضى والمضارع والمستقبل وأدواته .

ما كتبَ — لم يكتبْ — لا يكتبُ — لن يكتبَ .

١٦ — نفى الاسم — لا النافية للجنس : لا رجلَ فى الدار .

١٧ — التفضيل : كبير — أكبر ، كبيرة — كبرى ، أبيض — أشد بياضاً

١٨ — استعمال « كان » .

استعمال « عند » و « ل » .

١٩ — الاسم الموصول وجملة الصلة .

٢٠ — أفعال المقاربة والشروع :

كاد — أخذ — جعل — شرع . . . الخ .

أفعال القلوب المتعدية لمفعولين : وجد — حسب — ظن .

الأفعال المركبة : كان يكتب — ظل يتحدث .

٢١ — أهم حروف الجر :

من — على — فى . . . الخ .

٢٢ — الجملة الشرطية وأدوات الشرط : إن — لو — إذا .

وحروف الامتناع : لو — لولا .

٢٣ — حروف الاستفهام :

ما — هل — كيف — متى — أين . . . الخ .

٢٤ — الصيغ المزيدة ومصادرها وأسماء الفاعل والمفعول .

٢٥ — مراجعة للضمائر وأسماء الإشارة .

٢٦ — العدد وتمييزه .
٢٧ — تصريف الأفعال المعتلة والمضعفة . . . الخ .
٢٨ — المبنى للمجهول .
أسماء المكان والزمان والتصغير والنسب .

٧ — الخطوط العامة لمنهج المشروع المقترح :

فيما يلي بعض الإيضاحات حول هذا المشروع ، وهى خلاصة ما دار حول هذا الموضوع من مناقشات :

انتفع فى وضع هذا المشروع — من ناحية — بتجارب المستشرقين الذين اشتركوا فى الندوة ، ومن ناحية أخرى بالمناهج الجديدة التى طبقها الأمريكيون فى مدارسهم ومعاهدهم ، وكذلك بالطرق التى اتبعها الاخصائيون الفرنسيون فى تعليم الفرنسية للأجانب مما أمد به الندوة الأستاذ بول ريفانك فى بياناته المتعددة ، وهو يهدف إلى « دفع » الطالب دفعاً إلى تخطى صعوبات المرحلة الاولى فى تعلم اللغة العربية فى وقت قصير ، وقد يبدو ذلك أمراً بسيطاً لاول وهلة إلا أنه فى الحقيقة يتطلب جهداً كبيراً من المدرس الذى ينبغي أن تكون له خبرة وتجربة طويلة ثم عليه أن يكون متمثلا حق التمثل لمنهجه مؤمنا بجدواه وفائدته متمكنا من مادته كل التمكن ، وعليه أن يعرف أن ما يجب أن يفعله فى هذه المرحلة الاولى هو أن يردد على سمع الطالب الجمل الاولى بالتكرار المستمر الملح ، وأن يتخذ من تكرار الجمل البسيطة وسيلة تمكن الطالب من إجادة النطق ومعرفة المفردات والوصول بنفسه إلى إدراك القواعد النحوية . ويجب عليه أن يضع نصب عينيه أنه إنما يدرس لغة حية ينبغى أن تعين الطالب المتعلم على أن يتصل اتصالا مباشرا بهذا العالم الفسيح : عالم الناطقين باللغة العربية . ومن أجل هذا يتحتم عليه فى اختيار المفردات وشرح القواعد النحوية أن يتوخى شيوع الالفاظ التى يختارها وكثرة الاستعمال ثم مدى تيسر اللفظ ، وعليه أن يتجنب المفردات التى لا فائدة لها فى الحياة العملية ، وكذلك التعقيدات

النحوية والتركيبية التى لا يرد استخدام لها فى الصحف أو الإذاعات العربية . والذى نسعى إليه فى تطبيق هذا المنهج هو أن يتمكن الطالب من الشعور بعد عدة أسابيع بأنه يستطيع أن يتابع إذاعة عربية إلى حد ما أو أن يقرأ على أقل تقدير العناوين الرئيسية فى جريدة عربية . والوصول إلى هذه النتيجة من شأنه أن يقوى من عزيمة الطالب ويحمله على مضاعفة جهوده .

هذا ويتطلب المنهج المذكور من التلميذ المتعلم جهدا عظيما خلال الاسابيع الاولى . فهو يحتاج إلى ما بين خمس ساعات إلى ثمان من الدراسة خلال الاسبوع . ثم بين ساعتين وثلاث ساعات يوميا تخصص للاستماع إلى التسجيلات وتكرارها ، ثم ساعة أو ساعتين من التمرينات والاستذكار يقضيها الطالب بمفرده مسترجعا فيها كل ما درس وعليه أن يعرف ان تعلم لغة جديدة أيا كانت أمر عسير يقتضى مجهودا ضخما ، وأن المرحلة الأولى من الدراسة هى التى يتوقف عليها فيما بعد مدى استطاعة الطالب المضى فى تعلم هذه اللغة .

ويقوم الجزء الأول من المرحلة الاولى على أساس شفوى سماعى يبدأ فيه المدرس بإعطاء جمل قصيرة تختار كلماتها من بين المفردات الألف التى تشتمل عليها القائمة الاولى للعربية الأساسية . ويعمل المدرس على أن يكون تدريسه للمفردات بمعدل عشر كلمات جديدة فى كل درس ، على ألا تكون مجرد مفردات بل داخلة فى تركيب جمل ، ويلاحظ أن تركيب هذه الجمل ينبغى أن يتمشى مع النظام التدريجى لشرح القواعد النحوية طبقا لما هو وارد فى المنهج الذى سبق عرضه ، فلا يرد فيها تطبيق لقاعدة لم يرد بعد شرحها وتفسيرها ، ويجتهد فى أن تشتمل الجمل على مزيج من القواعد التى سبق شرحها ويسير من القواعد الجديدة تبسط بشكل سهل تدريجى قريب المدخل حتى يكون فى ذلك تأكيد وتثبيت للمعلومات السابقة وإضافة معلومات جديدة بنفس هذا الشكل . وإن الذى يتأمل الجزء الاول من قواعد المرحلة الاولى يستطيع أن يرى أنه من الممكن تكوين عدد كبير من الجمل البسيطة على أساسها . ويلاحظ أنه لما كانت قائمة مفردات العربية الاساسية تعتبر كل لفظ مشتق مفردا مستقلا قائما بذاته دون أن يدخل فى الحساب الاصل الثلاثى الذى ترد إليه صيغ الاشتقاق والذى

يعول عليه صرف اللغة العربية فإنه من المسموح به أن يقوم المدرس بتلقين التلاميذ صيغا جديدة من أصل سبق إيراده دون أن يكون ملتزما بشرح العلاقة بين الصيغة وأصلها إلا إذا لاحظ أن الطلاب مستعدون ذهنيا لهذا الشرح .

ويجتهد فى أن ينتفع خلال هذه المرحلة من جميع وسائل التعليم السماعية البصرية مثل الرسوم والافلام الثابتة (صور الفانوس السحرى) والافلام المتحركة والاشرطة المسجلة . . . الخ . وعلى الذين يوكل إليهم العمل فى وضع الكتاب الاساسى لتعليم العربية طبقا لهذا المنهج أن ينتفعوا من كل ما كتب حول استخدام وسائل التعليم السماعية البصرية ويقضوا فترة تدريب فى مركز الأبحاث والدراسات الخاصة بنشر اللغة الفرنسية بمعهد « سان كلو الأعلى للتربية » .

ثم يأتى بعد ذلك الجزء الثانى من المرحلة الأولى ، وفيه يجرى تعليم العربية على أساس تحريرى كتابى إلى جانب الاساس الشفوى السماعى . ويلاحظ أن الطالب الذى سبق أن تعود على تلاوة الألفاظ والجمل العربية خلال الجزء الاول من المرحلة الاولى يمكنه فى أسبوع واحد أن يتدرب على كتابة الحروف العربية بصورها المتعددة (المنفصلة ، الواقعة فى أول الكلمة ، وفى وسطها ، وفى آخرها) والنطق الصحيح لكل حرف ، فإذا انتهى الطالب من هذا المدخل أمكن له أن يباشر الكتابة بمفرده مستعينا بمشق فيه نماذج للخطوط .

ثم يبدأ الاستاذ بمراجعة كل ما سبق أن أعطاه للتلاميذ شفويا أو سماعيا فى الجزء الاول على أن يمرنهم على كل ذلك بشكل تحريرى كتابى ، ثم يعمل على زيادة محصولهم من المفردات ، فبعد أن كانوا يتلقون عشر كلمات جديدة فى الدرس يصبح حصولهم على المفردات بمعدل عشرين فى كل درس . ويلاحظ كذلك فى إعطاء القواعد النحوية مبدأ التدرج ، أما التلاميذ فينبغى عليهم أن يوجهوا إلى كل ذلك جهدا لا يقل عن الذى بذلوه خلال الجزء الاول حتى ينتهوا من الالمام بذلك القدر الذى اعتبرناه الحد الادنى للقواعد النحوية . فإذا أتموا هذا الجزء الثانى أمكن الاطمئنان إلى ما تلقوه سواء من المفردات أو القواعد بشكل يستطيعون معه مواصلة الدراسة بأنفسهم على أساس قويم .

* * *

ويجب أن يوضع على أساس هذا المنهج الذى سلف شرحه كتاب يكون دليلا للاستاذ يسترشد به فيما هو بصدده ويبين له الدقائق الفنية لهذا المنهج ويعينه على الكيفية التى يتمكن بها من الاضطلاع بعمله خطوة خطوة ودرسا درسا . ويكون هذا الكتاب موضوعا باللغة العربية ويجتهد فى نشره على نطاق واسع حيثما وجدت مراكز لتعليم اللغة العربية للاجانب . ويمكن للذين يقومون بتدريس هذه اللغة أن يضعوا على أساسه كتبا تعليمية باللغة التى يتكلمها التلاميذ مع مراعاة ظروفهم وحاجاتهم .

وقد كنا نود أن نورد هنا نصوص المناقشات التى دارت حول المنهج وتفاصيلها إذ أن فيها عرضا للأسباب التى حملت السادة الاعضاء — وجميعهم من الخبراء والمتخصصين — على انتهاء خطة معينة والعدول عن غيرها ، ثم إن فيها إيضاحا للعوامل الفنية والعلمية التى أوجبت اتباع مثل هذه الطريقة القائمة على أساس إعطاء المعارف النحوية للطالب بشكل تدريجى تصاعدى . إلا أن الذى نحن بصدده هنا لا يزيد على أن يكون موجزا لاعمال الندوة مما لا يسمح لنا بمزيد من التوسع والتفصيل . أما النصوص الكاملة لكل تلك المناقشات فإنها ستكون تحت تصرف الذين سيضطلعون بمهمة وضع « الكتاب الاساسى » المقترح لتعليم العربية للأجانب .

٨ — تنفيذ العمل :

بعد المناقشات التى دارت حول مسألة وضع كتاب أساس يصلح دليلا للمدرس الذى يقوم بتعليم العربية للأجانب انتهى الأعضاء إلى اتخاذ القرارات الآتية :

١ — يعهد بمسألة اختيار المجموعة الأولى من المفردات وهى تبلغ ألف كلمة (١٠٠٠) ثم المجموعة الثانية وهى ألفا كلمة (٢٠٠٠) إلى معهد الدراسات الاسلامية بمدريد واختيار هذه المفردات يتم على أساس الانتفاع من القوائم التى سبق نشرها (بريل — لانداو . . . الخ) ويقوم كل من السادة الأعضاء بإرسال كل ما يتيسر لهم من مادة جديدة إلى المعهد حتى يتم الانتفاع منه .

٢ — يعهد بوضع الجزء الأول من الكتاب إلى الدكتور محمود على مكى وكيل معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد وعضو الندوة . ولما كان من اللازم أن يكون للسيد مكى اطلاع كاف على المناهج الجديدة فى تعليم اللغات الحية فقد تقرر أن يسافر إلى باريس ليقضى هناك فترة تبلغ ثلاثة أسابيع يعمل أثناءها تحت إشراف الأستاذ بول ريفانك .

٣ — يعهد بوضع الجزء الثانى من الكتاب إلى الأستاذ محمود الغول الذى يعمل فى معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن والذى يعمل الآن فى جامعة سان اندروز ، وذلك بناء على اقتراح الأستاذ هـ. ر. سيرجانت الأستاذ بمعهد الدراسات الشرقية والافريقية الذى تكفل بالاتصال بالاستاذ الغول ثم مخابرة المعهد بما يستقر عليه الرأى .

٤ — بعد أن ينتهى الأستاذ الغول من وضع الجزء الثانى من الكتاب يقوم بإرساله إلى معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد حيث تتم مراجعته ثم طبعه على الآلة الكاتبة ، وترسل نسخة منه إلى كل من أعضاء الندوة لمراجعته وفحصه وإبداء ملاحظاتهم عليه خلال فترة لا تجاوز عشرة أيام ، وعلى أساس هذه الملاحظات والآراء يتم وضع النص النهائى المنقح للكتاب .

٥ — إذا تم هذا العمل قبل يونيه القادم يقوم الأستاذ الغول بالسفر إلى الولايات المتحدة حيث يعرض الكتاب على المؤتمر الذى سيعقد حينئذ فى ميتشجان .

٦ — بعد ذلك يمكن أن ينشر الكتاب على نطاق واسع .

٩ — التمويل :

كانت المناقشات التى جرت فى الجلسة السابعة للندوة تدور حول تمويل المشروع . وفيما يلى بيان بالمقترحات المقدمة من بعض الاعضاء حول الموارد التى يمكن أن تمول العمل :

الاستاذ والتر : من ناحية المال ينبغى أن ندخل فى حسابنا ثلاثة وجوه نحتاج فيها إلى المعونة المالية اللازمة : الرحلات ، وشراء الكتب والمراجع ،

ثم العمل الذى سوف يضطلع به الاستاذ الغول . أما فيما يتعلق بالكتب فإنه يمكننا أن نعتمد على سلطات الجمهورية العربية المتحدة ومنها معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، وقد عودتنا ألا تبخل علينا بشىء فى هذه الناحية . وأما الوجهان الثانيان فإنه يحسن أن يكون لدينا خزانة صغيرة يحتفظ فيها باعتماد خاص لسد نفقاتها . ويمكننا أن نعتمد كذلك على المعونة التى لا أظن أن منظمة اليونسكو ستضن بها على هذا المشروع ولا سيما أنها لم تتأخر عن ذلك حينما كان انعقاد هذه الندوة ما زال مجرد فكرة لم تخرج بعد إلى حيز التنفيذ ، والآن وقد بدأ عملنا يشق طريقه إلى عالم الواقع فإن منظمة اليونسكو أحرى بأن تقدم إلينا مزيداً من العون ، وفى هذه الحالة ينبغى أن يكون طلب هذه المساعدة عن طريق الشعبة القومية لليونسكو فى الجمهورية العربية المتحدة على أساس تقديم برنامج محدد للعمل . ومن المفيد فى هذا الصدد أن يكون هذا الطلب مؤيداً من قبل شعب قومية أخرى كالشعبة المغربية مثلا . ويستحسن إلى جانب ذلك أن نحصل على تأييد الشعبة القومية لإحدى الدول الأوروبية فى اليونسكو لتقوية هذا الطلب فيما لو كانت الدوائر العليا فى المنظمة لا تزال مترددة أو متشككة فى المعاونة على تيسير تعليم اللغة العربية للأجانب ، ولتكن هذه الدولة الأوربية اسبانيا على سبيل المثال . وبعد ذلك لنشرع فى عملنا مباشرة . وإذا كانت اليونسكو — مع ذلك — غير مستعدة لكى تمول كل نفقات المشروع فإن لنا أن نتساءل : هل من الممكن أن تتكفل بباقى هذه النفقات جهة ما فى الولايات المتحدة الأمريكية ؟

الأستاذ فيرجوسن : فيما يتعلق بالولايات المتحدة هناك ثلاث جهات يمكن أن تضطلع بذلك :

أ — برنامج الدراسات الصيفية الذى تقوم به خمس جامعات أمريكية (هارفارد — كولومبيا — ميتشجان — برنستون — جونز هوبكنز) وكلها تهتم بتدريس اللغة العربية فى برامج دراستها وترغب فى إجراء أبحاث وتجارب فى هذا الميدان ، ولديها ميزانية مخصصة لذلك .

ب — حكومة الولايات المتحدة نفسها إذ يمكنها أن تخصص معونة اقتصادية لذلك أسوة بما تخصصه لمشروعات أخرى من هذا القبيل .

ج — مؤسسة روكفلر التى يمكن أن نرجو منها بذل مساعدة مادية لمشروعنا .

الأستاذ مؤنس : إننى أشعر بالاطمئنان على مستقبل عملنا ومصيره ، وإنى واثق من أننا إذا أثبتنا أن هذا العمل مثمر فإن هذه الجهات التى سلفت الاشارة إليها لن تترد فى مد يد المعونة ، وخصوصاً إذا كان ما نطلبه متواضعا غير باهظ الكلفة . وبهذه المناسبة أرى أن يكون للمجموعة التى تتألف منا طابع رسمى إلى حد ما بحيث يمكن أن نصبح هيئة يمكن أن يطلب باسمها ما يعيننا على تحقيق الهدف المنشود .

١٠ — جدول للأعمال التى سيتم تحقيقها :

أ — اتفق أعضاء الندوة على أن يتولى كل منهم إرسال كل ما يستطيعون جمعه من البيانات التالية إلى الدكتور حسين مؤنس :

القوائم الإحصائية للمفردات الأساسية للغة العربية المعاصرة مما وضع من قبل سواء أكانت مطبوعة أو مكتوبة على الآلة الكاتبة أو بالرونيو .

قوائم بأسماء المراجع التى تتناول الكتب الاساسية العربية المعاصرة أو المقالات الخاصة بذلك .

مجموعات للجمل والتركيبات العربية .

ب — من نوفمبر ١٩٥٩ إلى يناير ١٩٦٠ يقوم معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد بمقابلة قوائم مفردات العربية المعاصرة ومقارنة بعضها ببعض واستخلاص قائمتين من كل ذلك للمفردات الأساسية : الأولى من ألف كلمة وتعبير وذلك حسب المشروع الذى تقررت الموافقة عليه .

يوفد الدكتور محمود على مكى إلى معهد سان كلو للتربية فى باريس لدراسة الطرق الفنية التى تستخدم هناك للاحصاءات اللغوية وللاطلاع على التجارب التى

تجرى هناك فى دراسة اللغة الفرنسية الأساسية وفقا للمنهج السمعى البصرى .

ج — ينـاير ١٩٦٠ — يرسل مشروع « المفردات الاساسية » التي يتم المعهد اختيارها إلى جميع الاعضاء المشتركين فى الندوة من أجل فحصها ومراجعتها وابداء آرائهم فيها ، ويقوم الاعضاء بإرسال دراساتهم حولها إلى الدكتور حسين مؤنس خلال فترة لا تزيد على ثمانية أيام .

د — من يناير إلى مارس ١٩٦٠ — تقوم اللجنة التى يوكل إليها العمل فى المعهد بوضع النصوص التى يشتمل عليها الجزء الاول من المرحلة الاولى (الشفوى السماعى) وتدرس مسألة الصور والرسوم التى يمكن أن ترافق تلك النصوص مع الاستاذ محمد صبرى الذى يعمل فى المعهد ، وترسل عينات من هذه النصوص إلى جميع أعضاء الندوة إذا تيسر ذلك .

يقوم الاستاذ محمود الغول — أو أى شخص آخر يقع عليه الاختيار فى حالة تعذر قيامه بذلك — بوضع كتاب فى نحو اللغة العربية على الاساس الذى أقره أعضاء الندوة وحسب البرنامج التدريجى الذى تم تخطيطه ، كما يقوم بوضع الجزء الثانى من المنهج حسب ما سبق تفصيله .

هـ — من مارس إلى يونيو ١٩٦٠ — تجرى تجارب عملية على المنهج الجديد ، ويمكن إجراء هذه التجارب عن طريق الاساتذة الذين يقومون بتدريس العربية للأجانب أو يشرفون على تدريسها ممن اشتركوا فى أعمال الندوة فيتبعون المنهج الذى تم وضعه فى بعض الدروس التى يلقونها على تلاميذهم ، ويمكن أن يتم ذلك فى المعاهد التى تدرس العربية فى مدريد والرباط وباريس والولايات المتحدة فى آن واحد .

يسافر الاستاذان مكى والغول — باعتبارهما واضعى الكتاب الاساسى — إلى الولايات المتحدة لكى يعرضا المنهج الجديد على المؤتمر الذى سوف يعقد فى ميتشجان فى يونيو القادم ، هذا إذا تمكنا من الانتهاء من عملها قبل ذلك التاريخ .

و — يمكن عقد اجتماع جديد لكل الاعضاء الذين اشتركوا فى الندوة لبحث النتائج التى تم الوصول إليها هذا إذا اقتضت الضرورة ذلك .

١١ — اقتراحات مختلفة :

قرر المجتمعون الموافقة بالاجماع على إسناد السكرتارية العامة لكل هذا العمل إلى السيد الدكتور حسين مؤنس وإذا اقتضى الامر طلبا يوجه إلى اليونسكو فيمكن أن يقوم بتقديمه باسمه بعد أن تقره الشعبة القومية لليونسكو فى الجمهورية العربية المتحدة . ويستحسن أن يتم الحصول على تأييد بعض الشعب القومية لليونسكو فى بعض الدول الاخرى مثل المغرب وإيطاليا لاسيما وأن السيدين الاستاذ محمد الفاسى والاستاذ جابريللى كلاهما عضو فى ندوة تدريس اللغة العربية وإن كانت بعض الظروف قد اضطرتهما إلى عدم الحضور ، كذلك يجب أن يجتهد فى الحصول على تأييد شعب قومية أخرى لبعض البلاد العربية وغير العربية فى منظمة اليونسكو .

وقد علق الدكتور مؤنس على ذلك بأن الشعبة القومية لليونسكو فى اسبانيا قد أبدت بالفعل استعدادها لتقديم كل معونة ممكنة .

إعطاء « ندوة تدريس اللغة العربية » صفة رسمية :

اقترح الدكتور مؤنس جعل الندوة ومجموعة الاعضاء الذين اشتركوا فيها « هيئة دائمة » ما دام هناك برنامج قد وضع بالفعل للعمل الذى ستضطلع به فى المستقبل . وقد وافقت أغلبية الاعضاء على ذلك . واقترح الاستاذ الاخضر الاسم التالى لهذه الهيئة « لجنة تدريس اللغة العربية لغير العرب » Comité d'Enseignement de l'Arabe aux Non-arabes ويرمز لهـــا بهذه الحروف E. L. A. N. وتتألف هذه الهيئة من جميع الاعضاء الذين اشتركوا بصفة فعلية فى الندوة ، ويضاف إليهم الاساتذة محمد الفاسى وجابريللى وجونس وخلدون الكنانى . ومن الممكن أن تدعى شخصيات أخرى فى المستقبل للاشتراك فى عضوية هذه الهيئة .

المنشورات :

اقترح الاستاذ احمد الاخضر أن تصدر نشرة عن الندوة . فووفق على هذا الاقتراح وتقرر أن يتم ظهور هذه النشرة خلال ثلاثة أشهر وستكون باللغة العربية .

ويكتب التقرير النهائى بالعربية والفرنسية ويرسل منه خمس نسخ إلى كل من الاعضاء المشتركين .

وقد ذكر الاستاذ والتر بهذه المناسبة أن منظمة اليونسكو ستقوم بإعداد تقرير عام شامل عن تدريس اللغات الاسيوية والافريقية ، وذلك ضمن المشروع الكبير الخاص بالعلاقات بين الشرق والغرب ، وسيعطينا هذا التقرير بيانا سليما عن الوضع الحالى لتدريس اللغة العربية فى العالم أجمع .

وتحدث الدكتور مؤنس بعد ذلك فقال انه فيما يتعلق بمنهج تدريس العربية ووضع القواعد النحوية الاساسية وقائمة المفردات يحسن أن يذكر الاعضاء الحاضرون كلمات الاستاذ شارل بلا إذ قال « إننا نقوم الآن بثورة فى هذا الميدان ، وكل ثورة كما نعرف لها فلسفة ولها برنامج للعمل ، وإذا أردنا أن يفهم عملنا ويقدر حق قدره فعلينا أن نعتنى بتحديد خطوط هذه الفلسفة وذلك البرنامج » .

ثم اتفق الاعضاء على ألا يذيعوا بيانا عن الندوة ، بل يكتفوا بأن يقوم الاستاذان بلا وريفانك بكتابة تقرير موجز يتوليان نشره وإذاعته .

١٢ — اختتام الندوة :

عقدت الندوة جلستها الختامية مساء يوم الجمعة **٢٥** سبتمبر بعد أن استمرت أعمالها خلال خمسة أيام عقدت أثناءها ثمان جلسات حفلت بالمناقشات والدراسات المتواصلة . وقد انتهت الندوة فى ذلك إلى وضع أساس ثابت لمنهج يمكن وصفه بأنه جديد إلى أبعد حد كما استطاعت أن ترسم الخطوط الرئيسية لبرنامج مستقبل

للعمل وتكوين هيئة دائمة تستطيع أن تتعهد أمر تدريس اللغة العربية لغير العرب بالعناية المستمرة .

وقد جرت المناقشات خلال ذلك فى جو من الود والتفاهم والتعاون الصادق المخلص . ويتجلى ذلك فى كلمة الختام التى تفضل الأستاذ بايبر بإلقائها فى الجلسة الثامنة والاخيرة من جلسات الندوة ، وفيما يلى نصها :

« سادتى الزملاء . . لقد آن وقت الرحيل والتفرق بعد أن اشتركنا فى العمل سويا طوال الأيام الخمسة الماضية فى جو من التعاون الوثيق والتفاهم المطلق . وقد نجحنا بحمد الله فى عملنا ووفقنا إلى تكوين هيئة ستضطلع فيما بعد باستكمال ما بدأنا . فلمن يرد فضل هذا النجاح ؟ لاشك فى أن الفضل الاول يرجع إلى « مضيفنا » الذى أصبح صديقا لنا جميعاً . . . أعنى السيد الدكتور حسين مؤنس الذى اتخذ الخطوات الاولى فى إخراج هذا المشروع إلى عالم الحقيقة والذى لم يأل جهداً فى سبيل إعداده بدقة وحسن تنظيم وبشكل جعل كل هذا العمل قريباً إلى أنفسنا محبباً إلى قلوبنا . ولهذا فإننا ندين بكل ما وصلنا إليه من نتائج إلى الدكتور مؤنس ولاعوانه الذين أذكر منهم السيد الدكتور مكى . وإنى لانتهز هذه الفرصة لاعبر للسيد الدكتوز مؤنس عن عميق الاحترام وبالغ الامتنان .

ثم إن هناك عضواً آخر من أعضاء هيئتنا يجدر بى أن أعبر له كذلك عن خالص شكرنا وعميق إعجابنا — أعنى الاستاذ شارل بلا الذى ساهم أيضا فى نجاح ندوتنا إلى أبعد حد بفضل عزيمته التى لم تعرف الملل وحماسه الصادق .

وإلى سائر الزملاء أوجه تحية إعجاب وتقدير ، فقد كنتم جميعا ممن تنطبق عليهم تلك الفضائل التى تضمها كلمة عربية واحدة هي « الصبر » . لقد كنتم من « الصابرين » وإليكم ندين بما لاقاه عملنا هنا من نجاح .

وأنا أكرر هنا كلمة « النجاح » ، إذ أن ما بذلتموه من جهود ما باشرتموه من عمل مُضْنٍ متواصل لجدير بأن تتوجه هذه الكلمة ، فإن ما تجشمتموه من عناء قد آتى أخيراً أكله ، وسيمضى عملنا قدما فى الطريق الذى رسمتموه ، وسنرى ثمرة ذلك فى الكتاب الأساسى الذى سيوضع لتدريس اللغة العربية ،

هذا الكتاب الذى سيعتز به كل منا لانه ساهم فى وضع لبنة فى بنائه ، وسيستمر حبل المودة والتعاون واصلا بيننا جميعا فى نطاق الهيئة التى اتفقنا على تأليفها .

وربما كان من خير النتائج التى وصلنا إليها فضلا عن ذلك شىء آخر هو روح المودة والصداقة والتعاون التي كانت ماثلة بيننـا ، فقد رأيتم كيف مضت المناقشات بيننا فى جو من الوفاق والرغبة فى التفاهم . لقد قال الشاعر الانجليزى من قبل إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ، غير أننا هنا أثبتنا خطأ هذا القول ، فقد التقى الشرق والغرب . . . التقيا على مستوى عال ، وساد لقاءهما تفاهم كامل وانسجام جدير بالتسجيل .

سادتى الزملاء . . لنذكر دائما تلك الايام السعيدة من شهر سبتمبر ، تلك الايام التى قضيناها فى رحاب معهد الدراسات الاسلامية فى مدريد .

والسـلام » .

قام بترجمة هذا التقرير عن أصله الفرنسى الدكتور محمود على مكى

مدير المعهد

حسين مؤنس

تقرير

عن تجربة الطريقة الجديدة التى اقترحتها الندوة فى معهد الدراسات الإسلامية بمدريد

كان من قرارات ندوة سبتمبر ١٩٥٩ الخاصة بتدريس اللغة العربية لغير العرب ان « تجرى تجارب علمية على المنهج الجديد . ويمكن إجراء هذه التجارب عن طريق الاساتذة الذين يقومون بتدريس اللغة العربية لغير العرب أو يشرفون على تدريسها ممن اشتركوا فى أعمال الندوة ، فيتبعون المنهج الذى تم وضعه فى بعض الدروس التى يلقونها على تلاميذهم ، ويمكن أن يتم ذلك فى المعاهد التى تدرس العربية فى مدريد والرباط وباريس والولايات المتحدة فى آن واحد » .

وقد رأينا أن نقوم بالتجربة فى دروس اللغة العربية التى تعطى فى معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، ولم نر أن ننتظر حتى يتم اختيار الآلاف الثلاثة الاولى من المفردات وحتى يوضع القسم الاول من الحد الادنى من النحو ، لان كتابة هذا القسم الاول متوقفة إلى حد كبير على الدراسة التى كان مقررا أن يقوم بها السيد الدكتور محمود على مكى فى معهد اللغة الفرنسية الابتدائية ، وقد اعترضت تنفيذها عقبات عطلتها إلى الآن .

ولم نجد صعوبة فى تصفية قوائم الكلمات المتداولة ، وأمكن بشىء من الدراسة أن نستخرج منها مجموعة من المفردات الاساسية الجارية فى استعمال صحف العالم العربى وإذاعاته لنؤلف منها الجمل اللازمة للدروس الاولى وقد أتم الدكتور محمود مكى اختيار الالف كلمة الاولى وجزء كبير من الالفين التالية .

وقد لاحظنا أن الدروس التى أعدها الاستاذان فرجوسن وعانى وتفضلا بإهدائنا نسخا منها تقوم على نفس الاسس التى قررتها الندوة ، فألفاظها كلها مختارة بعناية شديدة والمعانى التى تتضمنها معان ضرورية جارية فى الاستعمال ،

ونقطة الخلاف الوحيدة أن الجمل المختارة تتضمن مشاكل نحوية لا تساير النظام الذى تقرر فى الندوة ولكن هذه لم تكن مسألة ذات أهمية كبيرة ، لانه من الممكن أن يستوعب الطالب جملا يفهم معناها ويستسيغها دون أن يفهم القواعد النحوية التى تتضمنها . وقد اجتهدنا على أى الاحوال فى أن نعدل بعض الجمل تعديلا طفيفا لنتحاشى القواعد النحوية التى لا تتجاوز طاقة الطالب المبتدىء كصيغة المبنى للمجهول والافعال المزيدة بثلاثة أحرف وبعض صيغ الجموع والافعال المعتلة . وكان ذلك كله فى الدروس العشرة الاولى ، ثم بدأنا ندخل هذه المفهومات النحوية والصرفية .

والطريقة التى جرى عليها العمل فى الولايات المتحدة فى تلقين هذه الدروس لا يمكن تنفيذها بتفاصيلها إلا إذا كان الطالب متفرغا لدراسة اللغة العربية تماما ، حتى يستطيع أن يستمع إلى الاشرطة المسجلة ثلاث ساعات فى اليوم ويستذكر وحده ساعات أخرى ، وهذا غير متيسر فى طلابنا ، فمعظمهم موظفون يدرسون بعد الظهر ، ولا يستطيع الواحد منهم أن يحضر أكثر من ثلاثة دروس فى الاسبوع .

كذلك لم يكن فى الإمكان تطبيق الطريقة الفرنسية لأنها تستلزم وجود معمل لغوى مجهز بمسجلات الصوت وأفلام السينما المتحركة والافلام الثابتة والصور التى تعبر عن المعانى وما إلى ذلك .

وكان لا بد لهذا من اتخاذ طريق وسط يضمن لنا تطبيق جانب على الأقل من الطريقتين الامريكية والفرنسية ، وقد رسمت هذه الطريقة بعد تجربة بضعة دروس وبعد الاطلاع على كل ما وصلت إليه يدى من المناهج والاساليب المتبعة فى تعليم اللغة العربية واللغات بصفة عامة للأجانب .

وقد لاحظت أولا أن النطق باللغة نطقاً صحيحاً يشجع الطالب على الاستمرار ويحبب دراستها إليه ، فجعلت النطق الصحيح هو الخطوة الاولى .

ولما كانت الاذاعات باللغة العربية كثيرة وسماعها ميسوراً للطلاب ، فقد رأيت أن أستفيد من هذه الناحية ولهذا بدأت بالدرس الثالث من دروس فرجوسن وعانى وهو خاص بالإذاعة ، لان الطالب إذا استوعب مفردات هذا الدرس

وجمله استطاع أن يفهم بعض ما يسمع فى الإذاعات فيشجعه ذلك على الاستمرار ، ولا شىء يحفز همة الطالب المبتدىء فى دراسة لغة ما أكثر من أن يحس أنه يفهم بعض ما يسمعه منها ، ولا شىء يثبط همته أكثر من أن يجد نفسه بعد الدروس العشرة الاولى مثلا فى نفس النقطة التى بدأ منها ، عاجزاً عن أن يفهم شيئاً .

بدأت اذن بالدرس الثالث ، وكانت المهمة الاولى هى تقسيم كل جملة إلى فقرات يستطيع الطالب أن يقف ويتنفس بعد كل منها ، لان حروف العلة فى اللغة العربية كثيرة وكل منها طويل ، ولابد من إشباعها ، ثم إن الحروف الصامتة غريبة على الطالب ، وهو يعانى جهدا فى النطق بها نطقا صحيحا .

والخطوة الثانية قراءة كل فقرة أمام الطلاب على مهل ، ثم دعوتهم إلى تكرارها معى ، فأكرر الفقرة معهم عشرين مرة على الاقل . كلنا نكرر فى صوت واحد ، وهم يجتهدون فى تقويم نطقهم على نطقى .

وبعد أن أطمئن إلى أنهم أجادوا النطق معى أدعوهم إلى أن يلقيها كل منهم ، ثم أصحح له نطقه ، ويعيد ، وأصحح ، وهكذا حتى يستقيم نطقه ، ثم أفعل هذا مع الثانى والثالث إلى آخرهم (عدد الطلاب فى فصلى ثمانية) .

فإذا نطقوا بالفقرات نطقا صحيحا ، نطقنا معا بالجملة كاملة عشر مرات متوالية ، ثم يقرأها كل منهم وأصحح له ويعيد وأصحح وهكذا حتى يقرأوها قراءة صحيحة .

وهذه الطريقة مجهدة للمدرس إجهادا شديدا ، لانه يظل يقرأ ويكرر ويصحح طول الدرس ، ولكنها تنتهى بشىء مؤكد : تعتاد أذن الطالب على وقع الكلمات العربية وموسيقيتها ، فإذا سمع لفظا من ألفاظ الجمل فى الاذاعة لم يجد صعوبة فى فهمه ومعرفة صورته . وقد كان المشجع لى أننى بعد أن فرغت من الدرس الاول — ويتألف من عشرين جملة — لاحظت أن الطلاب يتتبعون الاذاعات ويفهمون الكثير من العبارات الاصطلاحية التى تستعمل فيها . ومعظمهم استطاعوا أن يقرأوا برامج الاذاعة ويعرفوا ما فيها .

وتبينت أنه مما يسهل على الطلاب النطق أن تنطق أداة تعريف الكلمة كأنها جزء من الكلمة السابقة ، ثم تلى ذلك الكلمة دون أداة تعريف ، هكذا :

أيها المستمعونل — كرام

محطتل — قاهرة

مجلسل — وزراء

وهذا فى النطق وحده فقط . ولاحظت أن هذه الطريقة تعين الطالب على النطق بالكلمات مجموعة لا فرادى ، لان النطق بالكلمات فرادى يعوق دون فهم المضمون .

وقد تركت جانبا خلال الدروس الاولى مسألة الالف الشمسية والالف القمرية ، ولم يكن هناك بأس فى أن ينطق الطالب . الصحفل — صباحية . وتبينت أن الطالب يميز من نفسه بعد عدد من الدروس بين القمرية والشمسية ، فهى مسألة أذن . وربما أعان على ذلك أن الكلمات العربية التى دخلت اللغة الاسبانية دخلت بأداة تعريفها ، فإن كان الحرف الاول قمريا احتفظت اللغة الاسبانية فى النطق والرسم بالالف واللام ، وإذا كانت شمسية سقطت اللام . مثال ذلك :

القصر	Alcazar
المنارة	Alminar
القطن	Algodón
الحمراء	Alhambra

وفى مقابل ذلك :

الزيتون	Aceituna
الطوب	Adove

ثم يبدأ بعد ذلك إعطاء معانى الكلمات ، ولم أحاول من أول الامر أن أبين العلاقة بين الصيغ المركبة من أصل ثلاثى واحد ، مثل « إذاعة » و « تذيع » و « أذاعت » ، فأعطيت هذه كلها على أنها كلمات مستقلة . وبعد الدرس العاشر بدأ الطلاب أنفسهم يتبينون هذه العلاقات .

وأعقب ذلك شرح معانى الجمل مقسمة إلى فقرات وطلبت إلى الطلاب أن يعدوا كراستين صغيرتين إحداهما يعملون منها قاموسا للألفاظ ، فيكتبون تحت كل حرف ما يأخذونه من الكلمات من غير التزام ترتيب أبجدى وفى الثانية الجمل الاصطلاحية الكثيرة الورود مثل : هنا القاهرة — أيها المستمعون — صباح الخير — الصحف الصباحية . . . وما إلى ذلك ، وتكتب كل جملة تحت الحرف الذى تبدأ فيه فجملة هنا القاهرة فى حرف الهاء وصباح الخير فى حرف الصاد و « مشاكل اليوم » تحت حرف الميم وهكذا ، حتى يستطيعوا الرجوع إليها إذا أنصتوا إلى الاذاعة .

ثم يأتى شرح المشاكل النحوية ، وهنا سرت تماما على المنهج المقترح فى الندوة ، فلم أشرح من هذه المشاكل إلا ما تضمنه الحد الادنى . وليس هناك أى ضرر فى أن يترك المدرس مشاكل دون شرح ، فإن الطالب يكتفى بفهم معنى الجملة . وليس أثقل على نفسه من قواعد اللغة .

غير أن هناك نقطا رأيت أن ألقنها للطلاب منذ الدرس الرابع كما هى دون شرح ، مثل تصريف الفعل الثلاثى (باستثناء صيغة المثنى) فى الماضى والمضارع . وقد درجت على أن أرجو الطلاب ألا يجهدوا أنفسهم فى حفظ هذه التصريفات ، لاننى أكررها مرة فى كل درس تقريبا ، وهذا التكرار كان كفيلا برسوخها فى أذهانهم .

وقد لاحظت أن الجمل المركبة تركيبا موسيقيا سرعان ما تثبت فى ذهن الطالب ، ويكررها من تلقاء نفسه استلطافا لها ، مثال ذلك :

« يجرى نهر النيل من الجنوب إلى الشمال » فهذه العبارة كأنها شعر .

وقد حرصت على أن يفهم الطلاب أن الجملة العربية تستغنى من الفعل المساعد ، فأعدت صياغة بعض الجمل لهذا الغرض . فالجملة رقم ١٨ من الدرس الاول نصها هكذا : « يشكل الزيت موردا مهما للشرق الاوسط » فجعلتها . « الزيت مورد مهم للشرق الاوسط » .

واستغرق منى الدرس الثالث الخاص بالإذاعة أسبوعين كاملين فى حين أن الدرس الرابع ، وقد أعطيته بعد الثانى والثالث لم يستغرق إلا أسبوعا واحدا .

مما يدل على أن هذه الطريقة قد يسرت اللغة على الطلاب فعلا ، ونحن الآن فى الدرس السادس ، والطلاب لا يجدون أى صعوبة فى النطق السليم . وبدلا من أن أكرر الفقرة معهم عشرين مرة أكررها خمسا فقط ، وأكرر الجملة كلها خمسا أيضا .

وفى نهاية كل درس أسجل للطلاب قطعة وأطلب إليهم الاستماع إلى ذلك التسجيل قدر المستطاع ، ومن حسن الحظ أن ثلاثة منهم يستذكرون معا ولديهم جهاز تسجيل ، فهم يسجلون عليه ويستمعون إلى التسجيل فى بيت أحدهم ، أما الخمسة الباقون فقد وضعنا لهم جهاز التسجيل فى المكتبة لكى يستمع إليه كل منهم فى الوقت الذى يجد فيه فراغا .

وبعد ذلك ، وفى درس إضافى أطلب إلى كل منهم أن يسجل بنفسه قراءته . ثم نستمع جميعا إلى ذلك التسجيل ، وأصحح لكل منهم أخطاءه فى النطق ثم نمحو التسجيل ونعيده مرة ومرتين حتى يكون نطقهم أقرب إلى السليم .

وجرت العادة على أن أنتهز أى فرصة وأعيد درسا نحويا سابقا وأسأل الطلاب فيه ، مثال ذلك : أسماء الاستفهام — الضمائر — اسم كان وخبرها — السند والمسند إليه . . . وهكذا . وأنا أعطى ذلك بصورة مبسطة لا إثقال فيها .

ورأيت أنه من المفيد أن أعطى دروس إملاء ، لا لكى يكتب الطلاب كتابة صحيحة ، بل لكى يعتادوا سماع الالفاظ وكتابتها بحسب ما يسمعونه . والاملاء يكون دائما من الدروس التى أخذوها دون أن أحاول أن أغير شيئا من تركيب الجمل .

وحيث أن الكلمات التى تتضمنها دروس فرجوسن وعانى كلها كلمات مفيدة جارية فى الاستعمال وصياغة الجمل كذلك صياغة بسيطة تتفق تماما مع الصيغ المستعملة فى الإذاعة والصحف ، فإن التقدم الذى وصلت إليه باستخدام هذه الدروس تقدم حقيقى إيجابى ملحوظ ، فلم يتخلف من الدروس إلا طالب واحد

بسبب الخدمة العسكرية وطالبة نقل مقر عمل أبيها من مدريد ، أما الباقون فمواظبون على الدروس بصورة تدعو إلى الارتياح والاطمئنان .

وقد استعنا فى اجتذاب أولئك الطلاب وحملهم على الاستمرار بكل وسيلة ممكنة ، فلا تصلنا جريدة أو مجلة عربية إلا وضعناها تحت تصرفهم ، وهم فى العادة يأخذون ما يريدون ولا يعيدونه . وألفنا منهم جمعية صداقة تقوم برحلات وتنظم محاضرات ، فأصبحوا معنا أسرة واحدة ، وعدد طلبتنا نحو سبعين أربعون منهم فى السنة الاولى وثلاثة وعشرون فى الثانية والباقى فى الثالثة وهم طلبتى . ويدرس للفصلين الاولين الدكتور محمود مكى متبعا نفس الطريقة ولم يكن طلاب الفصل الثالث أول العام يستطيعون إلا قراءة الكلمات بصعوبة .

وقد درجنا على أن نذاكر — الدكتور مكى وأنا — كل النقط الرئيسية ومناهج التدريس . والفرق بين ما يعطيه وأعطيه هو أنه يكون جملا أبسط في نفس المعانى . وهو يستعين إلى جانب ذلك بمنهج الأستاذ شارل بلا لطلاب السنة الثانية ، وهو من أحسن المناهج المتداولة . وهو يعتمد عليه وعلى قواعد اللغة العربية للأستاذة لاورا فيتشيا فاليرى وعلى معلوماته الواسعة فى النحو والصرف فى كتابة الجزء الأول من الحد الأدنى من القواعد .

ومن ناحية أخرى اتبع هو نفس الطريقة فى دروسه التى يلقيها فى جامعة مدريد على طلاب قسم اللغة العربية ، وقد حصل على نتائج تشبه ما وصلت إليه إن لم تكن أحسن ، لأن طلاب الجامعة متفرغون للدراسة ولديهم وقت أطول للاعادة والتمرين .

والذى نستطيع أن نقرره أن دروس فرجوسن وعانى تعتبر أداة من أصلح الادوات التى يمكن الاعتماد عليها فى تدريس اللغة العربية لغير العرب ، فعلاوة على اختيار كلماتها وجملها اختيارا علميا دقيقا قائما على تجربة طويلة ، فإنها تتضمن كل قواعد النحو التى لابد من إعطائها للطلاب . نعم إننا أدخلنا تعديلات فى طريقة استعمالها ، وفى بعض جملها ، ولكن السبب فى ذلك هو ظروفنا وظروف طلابنا كما بيناه . ونعتقد أن هذه الدروس إلى جانب الحد الادنى من القواعد

الجارى وضعه الآن ثم كتاب المعلم الذى سنضعه بعد زيارة الدكتور محمود مكى لمعهد اللغة الفرنسية الابتدائية فى سان كلو ، هذه الثلاثة ستكون الأساس السليم الذى يقوم عليه تدريس اللغة العربية للمبتدىء ، فإذا تمكن من الأسس انتقلنا به إلى كتاب الأستاذ شارل بلا ، فإذا رغب الطالب فى التخصص وأحب التوسع فى اللغة العربية فأمامه كتاب النحو الذى وضعته السيدة لاورا فيتشيا فاليرى وهو أوسع كتاب من نوعه فى متناول غير العرب الراغبين فى تعليم لغة العرب .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير المعهد

(حسين مؤنس)

ملخصـــات

المقالات المنشورة فى القسم غير العربى من الصحيفة

روبث موراليس : العلاقات الثقافية بين اسبانيا والعالم العربى (ص ١ — ٤٠)

ألقى هذا البحث أولا محاضرة فى ١١ نوفمبر ١٩٥٩ فى دار معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد فى حفل افتتاح الموسم الثقافى لسنة ١٩٥٩—١٩٦٠ ، ثم عاد عليه الأستاذ ميجيل رويث موراليس فتوسع فيه وأضاف إليه تعليقات ضافية حتى خرج على الصورة التى نشرناها فى هذا المجلد من الصحيفة .

والأستاذ رويث موراليس وزير مفوض بوزارة الخارجية الاسبانية ، وهو مدير للادارة العامة للعلاقات الثقافية ، وهو أديب معروف وباحث يسهم فى كل مناسبة ثقافية بنصيب مشكور ، ومحاضراته ودراساته لهذا تغطى ميادين واسعة من تاريخ الفكر والفن الاسبانيين وعلاقاتهما بتيارات الفكر والفن فى الشرق والغرب .

وهذا البحث الذى ننشره له هنا يعتبر نموذجاً طيباً لأبحاثه ودراساته . فقد استقصى فيه ، بدقة الباحث وحماس الواثق مما يقول ويعمل ، العلاقات الثقافية بين العرب والاسبان ، وقد عرف كيف يلم بأطراف هذا الموضوع المتشعب فى أربعين صفحة تقدم للقارىء أهم ما يحتاج إليه من المعلومات بذلك الموضوع .

بدأ الأستاذ رويث موراليس مقاله بمقدمة يسيرة عن العلاقات الودية التى تضم العرب واسبانيا ، وقال ان ذلك الود إنما يقوم على أسس تاريخية واتفاق فى الميول والاتجاهات ، ومن ثم فهى صداقة حقيقية نافعة .

وقسم البحث بعد ذلك إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ — ظاهرة الامتزاج الثقافى الإسبانى العربى فى العصور الوسطى .

٢ — الجهود التى بذلت فى اسبانيا لدراسة العربية وتاريخ حركة الاستشراق — أو الاستعراب بتعبير أدق — واتجاهها خلال المائة سنة الماضية إلى دراسة اسبانيا الاسلامية أو الأندلس ثم الغرب الاسلامى بصفة عامة .

٣ — العلاقات السياسية الثقافية بين العرب واسبانيا حالياً ، أى دراسة تاريخ العلاقات الودية بين الجانبين منذ استقلال البلاد العربية واحدة واحدة ، وكيف حرصت اسبانيا على إقامة هذه العلاقات .

ففيما يتصل بالقسم الأول بدأ الكاتب بنص للمستشرق الاسبانى مياس فاييكروسا عن ظاهرة الامتزاج الثقافى العربى الاسبانى ، ثم أشار إلى ما ذكره الدكتور محمود على مكى فى مقاله عن « مصر ونشأة التاريخ فى الأندلس » من تطلع عرب الأندلس إلى المشرق من أول الأمر يدفعهم إلى ذلك شعورهم بأن بلدهم أبعد بلاد الاسلام عن قلب العالم الاسلامى ، فحرصوا على الرحلة إلى المشرق لأخذ العلم من منابعه . ثم تحدث عن العلاقات الوثيقة التى قامت بين مسلمى الأندلس ومسيحييه ، وقال إن الأمر لم يقتصر على مسيحيى اسبانيا ، بل امتد حتى شمل أهل الغرب المسيحى كله ، فسعوا جميعاً للاتصال بالأندلس الاسلامى ليقبسوا منه الحضارة والعلم ، وخاصة فى القرن العاشر الميلادى الذى بلغت فيه الحضارة الأندلسية أوجها . ووقف طويلا عند ظاهرة الامتزاج اللغوى ، وأشار إلى ما انتهى إليه خليان ريبيرا أثناء دراسته لديوان ابن قزمان من أن أهل الأندلس كانوا يتحدثون العربية الدارجة والاسبانية الدارجة فى حين كانت العربية الفصحى واللاتينية لغتين رسميتين للكتابة والتأليف والخدمة فى الكنائس . ثم ذكر أن قاموس اللغة الاسبانية يضم ما لا يقل عن ٤٠٠٠ كلمة من أصل عربى .

وتحدث الأستاذ موراليس عن اسبانيا الإسلامية كمركز اشعاع ثقافى فى العصور الوسطى ، وأطال الوقوف عند هذه النقطة ضارباً الأمثلة ذاكراً للشواهد ، وختم هذا القسم بالإشارة إلى ما ميز علاقات العرب والاسبان من تسامح ورغبة صادقة فى التعاون والتعايش السلمى .

وفى القسم الثانى درس الأستاذ موراليس تاريخ حركة الاستشراق فى اسبانيا ابتداء من القرن العاشر المسيحى ، فذكر دير ريبول فى إقليم قطلونية وكيف كان الناس يدرسون فيه العربية ، بل وفد إليه الراغبون فى العلم من خارج اسبانيا مثل الراهب جربرتو الذى أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثانى . ثم تحدث عن مدرسة طليطلة المشهورة للترجمة من العربية إلى اللاتينية أو الاسبانية ، وكيف ترجمت فيها أصول عربية كثيرة حملت علوم العرب إلى أوروبا . وتتبع تطور الدراسات العربية فى اسبانيا حتى وصل إلى القرن الماضى ، فوقف عند خوسيه أنطونيو كوندى أول من كتب تاريخاً للأندلس الاسلامى فى لغة أوروبية وبسكوال دى جايانجوس (١٨٠٩—١٨٩٧) الذى ترجم جزء كبيراً من نفح الطيب للمقرى ودرس الترجمة الاسبانية القديمة لجزء من تاريخ أحمد بن محمد الرازى وأثبت أصالته ، وإميليو لافوينتى الكانترا المتوفى سنة ١٨٦٨ الذى نشر كتاب « الأخبار المجموعة » وفرانثيسكو خابيير سيمونت صاحب الأبحاث المعروفة عن المستعربين ، وفرانثيسكو كوديرا إى زايدين (١٨٣٦—١٩١٧) المنشىء الحقيقى لمدرسة الاستشراق فى اسبانيا ، وخليان ريبيرا إى تراجو (١٨٥٨—١٩٣٤) شيخ مستشرقى اسبانيا وميجيل آسين بالاثيوس (١٨٧١— ١٩٤٤) أعظم مستشرق أطلعته اسبانيا ، وإميليو غرسية غومس كبير المستشرقين الاسبان المعاصرين ، واستطرد إلى ذكر بقية زملائنا من الاسبان الأفاضل العاملين اليوم فى ميدان الدراسات العربية . ونفراً من المستشرقين غير الاسبان الذين توفروا على خدمة الدراسات الاسبانية .

وفى القسم الثالث درس الوضع الحالى للعلاقات الثقافية بين اسبانيا والعرب بادئاً بالإشارة إلى افتتاح المركز الثقافى العربى الاسبانى فى دمشق فى ١٢ اكتوبر ١٩٥٩ وما ألقى فيه من خطابات رسمية تفيض بالود الحقيقى المتبادل بين الجانبين . ثم ذكر المركز الثقافى الإسبانى العربى فى القاهرة والمجلة التى يصدرها باسم « الرابطة » وقال إنها بالفعل — كما يدل عليها اسمها العربى الإسبانى فى آن واحد — رابطة بين العالمين ، ثم ذكر المعاهدات الثقافية بين اسبانيا والبلاد العربية وذكر تواريخ توقيعها مع مصر والعراق والأردن ولبنان ومراكش وسوريا (ص ٣٣) ثم أورد إحصاء بالمراكز الثقافية الاسبانية فى البلاد العربية (ص ٣٤) ، ووقف عند جهود الادارة العامة للعلاقات الثقافية بوزارة الخارجية الاسبانية فى ذلك الميدان والمعهد الثقافى الاسبانى العربى الذى يتبعها فى مدريد وذكر العاملين فيه . وأطال الوقوف عند بحث الأستاذ أوليفر آسين عن كلمة « الرابطة وتاريخها فى اللغة الاسبانية » ثم استعرض جهود إدارته المختلفة ، وأشار إلى مدرسة الدراسات العربية فى غرناطة ، وأساتذتها وختم هذا القسم بإشارة إلى معهد الدراسات الاسلامية الذى أنشأته الجمهورية العربية المتحدة فى مدريد .

خوسيه بسكث : رواية عربية غربية لقصة السبعة الذين ناموا فى الكهف فى افيسوس . (ص٤١ — ٧٧)

فى هذا البحث نشر الأستاذ خوسيه بسكث المستشرق الغرناطى المعروف نصاً جديداً عن حكاية أهل الكهف كما وردت فى مخطوط غرناطى يضم مواد متفرقة كلها مكتوبة بعربية هى وسط بين الفصحى والعامية العربية التى كانت دارجة على ألسن أهل غرناطة فى القرن الخامس عشر الميلادى ، أى خلال القرن الأخير من تاريخ غرناطة الاسلامية ، ونص الحكاية يقع بين صفحتى ١١٦ ا و ١٣٨ ا من ذلك المخطوط .

والبحث يقع فى أربعة أقسام :

القسم الأول (ص ٤١—٥٢) : مقدمة عن تاريخ حكاية أهل الكهف فى الآداب الشرقية والإغريقية من القرن الخامس الميلادى أى منذ ظهرت لأول مرة فى النصوص وكما رواها باللغة السريانية ديونيزيوس التلمَهْرِى ، نسبة إلى تل مهرة . ولم يعرف العلماء إلى اليوم ما إذا كان ديونيزيوس ترجمها من الإغريقية أو أن هذه بالفعل أول صورة أدبية لتلك الحكاية المشهورة .

ثم ألمّ بأبحاث اجناشيو جويدى وفريدليندر وآجاير التى تذهب إلى أن أصل القصة — التى تواردت بعد ذلك فى شتى اللغات — اغريقى . ثم ذكر الأستاذ بسكث إشارة وردت فى التلمود إلى رجل نام نوماً عجيباً . وذكر قصة الزاهد الحبشى أبى مِلِك التى نشرها لويس جينزبرج ، وهى حكاية حبشية عن ذلك الزاهد الذى كان صاحباً للنبى أرميا ويقال إنه نام سبعاً وسبعين سنة ، وقد أورد الأستاذ بسكث ملخصاً لحكايته .

وأوجز بعد ذلك آراء آسين بلاثيوس وسيديرسكى وتيودور نولدكة ولوى ماسينيون حول تطور هذه القصة فى الأدب العربى . وأشار إلى الصور الشعبية لها فى بعض البلاد الإسلامية .

ثم انتقل إلى الأندلس ، فدرس كيف تناول أهله القصة فأشار إلى ذكر أهل الكهف عند ابن زيدون وإلى ما ذكره ابن عبد المنعم الحميرى من أنه كان يوجد فى لوشة قرب غرناطة مغارة يزورها الناس للتبرك ويسمونها مغارة أهل الكهف ، وما ذكره أبو بكر الزهرى الجغرافى من أن محمد بن سعد صاحب الشرطة بنى عند هذا الكهف مسجداً وما ذكره الدكتور صلاح المنجد من أنه عثر على أصل ما رواه الزهرى فى مخطوط فى المكتبة الأهلية فى مدريد ، ثم أورد ما ذكره أبو حامد الغرناطى عن ذلك الكهف وقال إنه يوجد إلى الآن قرب لوشة ضيعة تسمى « لوس دورميينتوس » أى النائمين ، وأن هذه هى البقية الباقية من أسطورة هذا الكهف الذى ذكره الجغرافيون .

ثم ذكر أن لدينا مخطوطتين عربيتين أندلسيتين تضمان صورتين من قصة أهل الكهف ، الأولى فى المكتبة الأهلية فى مدريد والثانية فى مجموعة جايانجوس فى الأكاديمية التاريخية فى مدريد أيضاً . هذا بالاضافة إلى النص الذى ينشره فى هذا المقال .

والقسم الثانى ، (ص ٥٣ — ٧٨) ترجمة اسبانية للنص الذى سينشره بعد ذلك .

والقسم الثالث ، (ص ٧٩ — ١٠٢) النص العربى للقصة محققاً .

والقسم الرابع ، (ص ١٠٣ — ١١٠) دراسة لغوية للألفاظ التى يعتقد المؤلف أنها من اللهجة العربية الغرناطية (ص ١١١ — ١١٧) .

ثم ختم البحث بجامع مفردات أورد فيه الألفاظ ومعانيها التى استُعملت فيها فى النص .

١. جيو : تاريخ الدول الاسلامية فى فارس من سنة ١٧٢٢ إلى سنة ١٧٩٧ — ٧٥ سنة من الاضطرابات فى إيران . (ص ١٢٠ — ١٥٧)

الأستاذ جيو مدير قسم النقود بالمكتبة الأهلية فى باريس من المعنيين بالدراسات التاريخية القائمة على النميات ، وقد سبق أن نشر فى صحيفة هذا المعهد بحثاً عن الأسرات الإيرانية على أساس بيانات النميات .

وهذا البحث يختلف عن بحثه الأول . إنه ثلاثة نصوص تتعلق بتاريخ إيران خلال القرن الثامن عشر ، وهى نصوص على أكبر جانب من الأهمية بالنسبة لمن يدرسون تاريخ البلاد الإسلامية فى العصور الحديثة ، فهى لا تتعلق بإيران فقط ، بل بكل هذا الجناح الغربى من بلاد الاسلام : إيران والأفغان والتركستان .

وهذه النصوص هى :

١ — مذكرة عن الثورات التى وقعت فى إيران من وفاة نادر شاه من سنة ١٧٤٧ حتى سنة ١٧٨٨

وقد أخذ الأستاذ جيو أصل هذه المذكرة من مجموعة وثائق وزارة الخارجية الفرنسية الخاصة بإيران فيما بين سنتى ١٧٠٧ و ١٨٠٥ ، وصفحات هذه المذكرة مرقمة من ٩٦ إلى ١١٣

وفى هذه المذكرة يقص مندوب فرنسى لا نعرف اسمه أحداث الصراع على العرش التى وقعت فى إيران بعد موت نادر شاه وما وقع بين ابنيه شاه رخ شاه ورضا قولى ميرزا وأولادهما ووزرائهما وقوادهما وهو صراع طويل متشابك الأطراف . وهذه الوثيقة تكاد أن تكون الوحيدة بين أيدينا عن أحداث إيران خلال تلك الفترة .

٢ — مذكرة مختصرة عن أحوال فارس فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، وكاتب المذكرة هو «المواطن روسو» قنصل الجمهورية الفرنسية فى بغداد إذ ذاك ، وهذه المذكرة ضمن مجموعة الوثائق الآنفة الذكر وأرقامها من ص ١٣٩ إلى ١٥٢

وفى هذه المذكرة يقص القنصل الفرنسى أحداث إيران بعد مقتل نادر شاه سنة ١٧٤٧ وتحت حكم خلفائه عادل شاه وابراهيم شاه وشروق شاه وهى أحداث كثيرة تفيض بالمؤامرات والغدرات ، وقد حكاها القنصل الفرنسى على هواه مبالغاً كما هى العادة فى تصوير سوء الحال ، وقد اختص ولايات خراسان وهراة وسيستان وقندجار بفقرتين طويلتين وصف فيهما الأحوال فيها .

وهناك فقرة مؤرخة فى ١٤ برومير ١٧٩٥ فيها ملخص رسالة سرية أتى بها مندوب خاص للقنصلية الفرنسية فى بلدة كوى ، مما نفهم منه أن قنصلية فرنسا فى بغداد إذ ذاك كان لها رسل وجواسيس يوافونها بأنباء إيران وما يحدث فيها .

٣ — والقسم الثالث تقرير عن البلاد الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين ، وهو تقرير عظيم الأهمية ، فهو يصف أحوال هذه النواحى الاسلامية التى كانت روسيا تعمل فى جد لبسط سلطانها عليها . وكان ينافسها فى ذلك أمراء من الأرمن . وربما كانت هذه الوثيقة أهم أقسام هذا المقال ، فهى تلقى ضوءً على التنافس الاستعمارى على مصير هذه المنطقة .

وهذه الوثيقة داخلة فى مجموعة وثائق إيران من ١٧٠٧ إلى ١٨٥٥ وأرقام صفحاتها ص ٢٢٦ فى محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية ، قسم فارس .

وتقص الوثيقة أدوار الصراع بين شاهات إيران والفرس وخاصة محمد خان وخليفته بابا خان .